الذخائر والعبقريات

معجم ثقافي جامع

فيه لأبنيه دقة أحسن ما قيل وأُثر في شتى ألوان المعاني

مع الضبط والشرح والتقريب وتحرير ألفاظهم ومعانيهم وبديع التبويب

لخادم اللغة والأدب

عبد الرحمن البرقوقي

١

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بور سعيد - الظاهر

القاهرة/ ت: ٩٣٦٢٢٧٧ - ٩٢٢٦٢٠



الذخائر والعبقريات

معجم ثقافي جامع



بســـم الله الرحمن الرحيم

وسلام على عباده الذين اصطفى

«أما بعد» فهذا مُعْجَمٌ ثقافىٌّ جامعٌ لِشَتَّى ألوانِ المعانى التى يَتداوَلُها الناسُ ويتعاورُونها بينهم، فى شتى أغراضِهم ومَناحيهم، ومُثاقفاتِهم ومحاوراتهم، وسائر أسبابهم؛

ولقد أُلقِيَ فى رُوعى [1] أن أقومَ بوضعِ هـذا المُعْجم وتحقيقِه، فكانَ بعدَ عونِ الله وتمام توفيقِه؛

ولقدْ أسميتُهُ «الذخائر والعبقريات»

ولهذا المُعْجم وتأليفِه قصةٌ: ذلك أنَّ وِزَارةَ المعارف المصريةَ كانت قد أعلنت رغبتَهامُذ سنياتٍ، فى أن يختارَ مَن يَرْتغبُ [2] مِنَ الأدباء، أيَّما أحبَّ إليه من تلك الطائفة من مُؤلفاتِ القُدامَى التى وقع عليها اختيار القائمين بالأمر فى الوزارة، كى يهذّبوها ويَجلُوها على التّلاميذ وأشباهِ التلاميذ من النّشإ

(١) ألهمت، والروع: القلب والعقل، ووقع ذلك فى روعى: أى فى نفسى وخلدى وبالى، والمروع: الملهم كأن الامر يلقى فى روعه

(٢) يرتغب: يرغب

الشادين [١] جِلْوَةً حسنةً تحلَوْلِي بها فى أعيُنهم ، و تَطّبي [٢] أهواءهم ، و يلتَـوِى بها عنهم ماعَسَى أن تَنْبُوَ به طِباعُهم ، و تتجافى أذواقُهم ؛ وكان مِن بينِ هذه التَّواليف التى اختارَتها الوزارة كتابُ « محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء لأبى القاسم حُسَينِ بن مُحمَّدٍ المشهور بالراغب الأصبهانى [٣] » ، ولمّـا كان هذا الكتاب من الكتبُ القيمةِ بحقٍ فى بابه حُبِّب إلىَّ باديَ الرأى [٤] أن أضْرِب بِسهم ، فى هذا العمل

(١) النشأ : تقرأ بفتح الشين جمع ناشىء كخادم وخدم وتقرأ بسكون الشين مثل صحب وصاحب ، والشادى : الذى تعلم شيئاً من العلم والأدب ونحوهما ، أى أخذ طرفا منه

(٢) طباه واطباه : استماله ودعاه إليه .

(٣) قال الإمام جلال الدين السيوطى فى بغية الدعاة ـ وقد سماه المفضل بن محمد ـ قال : المفضل بن محمد الأصبهانى الراغب صاحب المصنفات ، كان فى أوائل المائة الخامسة ، له مفردات القرآن وأفانين البلاغة والمحاضرات ـ أقول : ومن مؤلفاته : الذريعة إلى مكارم الشريعة ـ قال السيوطى : وقفت على الثلاثة ، وكان فى ظنى أن الراغب معتزلى حتى رأيت بخط الشيخ بدر الدين الزركشى على ظهر نسخة من القواعد الصغرى لابن عبد السلام مانصه : ذكر الإمام فخر الدين الرازى فى تأسيس التقديس فى الأصول أن أبا القاسم الراغب من أئمة السنة وقرنه بالغزالى قال : وهى فائدة حسنة فان كثيراً من الناس يظنون أنه معتزلى ، أقول : وفى كشف الظنون لكاتب جلبى : إن الإمام الغزالى كان يستصحب كتاب الذريعة دائما ويستحسنه لنفاسته . أقول : وفى الحق أن كتاب الذريعة من الكتب القيمة فى معناه ، وكثيرا ما اعتمدت عليه فى هذا المعجم ، ولعل منشأ اتهامه بالاعتزال هو هذا الكتاب ـ الذريعة ـ لأن طريقته فيه موفية على الغاية فى السداد ؛ وأزيد على ذلك : أن الراغب يبدو لى أنه شيعى يشبه ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة وذلك أنه يقرن اسم سيدنا على بن أبى طالب دائماً بقوله : عليه السلام : وهذا وإن لم يك منكرا إلا أنا لم نألفه من غير رجال الشيعة

(٤) فعلت كذا بادى الرأى : فيما بدا من الرأى وظهر

الضَّخْم ، فأَعْمِدَ عَمْدَ عينٍ إليه (١) ، وأُحقّقَ بذلك ماترامت وزارة المعارف إليه ، بَيْدَ أنى لَمّا أنعَمْتُ النَّظر فى ذلك الكتاب واسْتَقْريتُه رأيتُ من الخير أنْ يبقَ على ماهُو عليه ، اللّهُمَّ إلّا أنْ يتداركَهُ أديب ضليع درّاك ، بالضّبط والشّرْح والتّحرير ممّا استبدَّ بهِ وطغى عليه وتَخَوَّنَهُ (٢) ، من التحريف والتصحيف والأخطاء التى ألوَت بمحاسنه .

ولقـد تلاح لِى ، بلْ بدَا لَحْاً باصراً (٣) : أن الراغب إنما وَضَع هـذه المحاضراتِ للمنتهين ، لا للشادين ، لأن مختاراتِه تـكاد تـكون خِداجا (٤) مُقتَضَبَةً مبتورَةً كأنَّهادمُذكرات ، أو رءوس مسائل »أمْلاهاالراغبُ لتكون منبهةً للأديب (٥) إذا هو استذْكر بِها ماقد اقترأ (٦) ، فتداعت (٧) الأشباه وتجاوبَتِ النظائر ، فطاع له المراد (٨) فحاور وحاضَرَ وناقلَ وثاقَفَ ، فبذ الأقران ، فاشْرَأبت إليه الأعناق ، وثُنيت به ـ كما يقال ـ الخناصِر (٩) ؛ ومن هُنا لا يكادُ ينتفعُ بمحاضَرات الراغب غـيرُ أُولئك الذين اضطلعوا قبـلا بمـا فيها كاملا غيرَ منقوصٍ فى مظانها

---

(١) إليه : متعلق بأعمد ، أى أقصد اليه متعمداً ، وعمد عين ، قال الزمخشرى فى الأساس : فعلت ذلك عمد عين : إذا فعلته بجدّ ويقين قال عمر بن أبى ربيعة .

ثم صَدَّتْ بوجْهِها عَمْدَ عَيْنٍ زَينبٌ للقضاء أُمُّ الحباب

(٢) تخونه وخون منه : تنقصه (٣) لحا باصراً : أمراً واضحاً

(٤) ناقصاً وهذا من الوصف بالمصدر (٥) منبهة للأديب . تعلى قدره

(٦) اقترأ : قرأ (٧) تداعت وتجاوبت : دعا بعضها بعضا فاجتمعت وتجاوبت كما تتجاوبت القمارى . (٨) طاع له المراد : أتاه طائعاً سهلا

(٩) يقال : فلان تثنى به الخناصر : يبتدأ به إذا ذكر أشكاله

من القرآن الكريم والحديث الشريف، وسائر كتب الأدب واللغة والتاريخ وموسوعات الثقافة العربية فى شتى ألوانها.

هذا شيء، وشيء آخر، هو أن أبواب المحاضرات، أو حُدُودَهُ، لم تَرُقْنى، أما تلك العناوينُ الصغيرةُ التى طواها الراغب تحت كل باب أو كل حَدّ فقد راقتْنى كُلَّ الرَّوق، وإنْ لمْ تَرُقْ جلالَ الدين السيوطى [1]...

لهذا كُلّه رَغِبْتُ عن مُعالجة المحاضرات على النحو الذى اقترحته وزارة المعارف، وانصَرفتْ نفْسِى عن ذلك إلى وضْع مُعجَم حاشِدٍ حافلٍ مستقل، يهجم فيه الطالب على طَلِبَتِهِ، فى أى معنى من المعانى، «مَوضُوعَةً على طَرَف الثُّمَام [2] وحَبل الذراع، من غير أنْ يحتاج فى التنقير عنها إلى الإيجاف والإيضاع. [3]

على أنى جَعَلتُ محاضراتِ الراغب مُعَوَّلى الأوَّلَ فى هذا المِشوار، [4]

(١) اختصر السيوطى محاضرات الراغب وسمى كتابه «مختصر محاضرات الأدباء» واقتصر فيه على ذكر الحدود، ويوجد من هذا المختصر نسخة خطية فى دار الكتب المصرية، وقد توفى السيوطى سنة ٩١١ ولعل عذر السيوطى عن عدوله عن العناوين الصغيرة هو أن كتابه مختصر.

(٢) الثمام: نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص وربما حشى به وسد به خصائص البيوت، الواحدة ثمامة ويقال: هو لك على طرف الثمام وحبل الذراع إذا كان هين المتناول.

(٣) الإيجاف: ضرب من سير الإبل والخيل قال تعالى: فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب، أى ما أعملتم، والإيضاع، الإسراع فى السير قال تعالى: ولأوضعوا خلالكم والمراد: أن الطالب يعثر على طلبته بدون مشقة

(٤) المشوار: المكان تشار فيه الدابة أى يجريها رائضها لتعرف قوتها، وعثر يعثر عثاراً: كبا

الكثيرِ العِثارِ، ومنهلى العذبَ الذى اليه الايراد ومنه الإصدار، وعُمدَتى فى لَمّ شمل الأشباه والنظائر، وكلّ ما كان من المعانى قد وَشَّجتْه القَراباتُ والأواصر ولقد تخيرت من المحاضرات سُويداواتِ القلوب وأناسِيَّ العيون [1]، وضممتُ إليها أُولاتِ الأرحام [2] مما أغْفَله الراغب وأثبتَهُ الآخَرون، مثلُ ابنِ قتيبة فى عُيون الأخبار، وابنِ عبدِ رَبه فى العقــد الفريد، وأبى هلال العسكرى فى ديوان المعانى، والنويرى فى نهاية الأرب، وفُلان، وفلان، ولم أجتزئْ بذلك، بلْ زدت خَيرَ ما أترَسَّمُهُ [3] مما قرأت وادّارست طوَال هذا الدّهر، فترى خير مافى الكامل للمبرِّد، والأمالى لأبى علىٍّ القالى، ومَما لايكاد يُحْصَى من الدَّواوين والأسفار، وماخَلَّفَهُ لنا الأوائل والأواخر من عَبْقرىّ الآثار.

«وبعد» فَليسْمح لى القارئ فى أن أزيدَه عِلماً بكُنْه هذا المُعْجَم وحقيقةِ الطريقة التى اتبعْتُها، والجُهُودِ الجاهدة التى بذلتُها، والملاحظات التى يصح أن تلاحظ عليه، والنَّقْدِ الذى رُبما يُوجَّهُ إليْه؛ فإنى بما أعْتَمِل [4] جد بصير ...

وأوّل ذلك وأوْلاهُ بالإشادَة والتنويه: أنى أوْدَعتُ هـذا المعجم، كما أسلفت؛ خيرَ مافى محاضرات الأدباء للراغب، حتى لَيصحُّ أنْ يُطْلَق عليه

---

(١) أحسن مافيه، وسويداوات القلوب: حباتها وفيه النور وإنسان العين: سوادها

(٢) المعانى التى تمت إليها بسبب وأصل، فهى من ذوات قرباها

(٣) قال الزمخشرى فى أساس البلاغة: وأنا أترسم من ذلك الأمر شيئاً: أى أتذكره ولا أحققه

(٤) أعتمل: أعمل

«مختارات المحاضرات» وإن كان فى هذا الإطلاق بعضُ الظُّلم «للذخائر والعبقريات» لأنها فى الواقع مختار المحاضرات وغير المحاضرات ، وإياك والظنَّ أنّ هذا العملَ وحْدَه هَيْنٌ لينٌ ، فقد علمت أن المحاضراتِ لقد طغَى عليها التحريف والتصحيف إلى حد أنَّ كُلَّ حَرْف ، فضلا عن كل كلمة ، من آيةٍ كريمة ، أو حديثٍ شريف ، أو بيت من الشعر ، أو كلمة مأثورة ، لابُدّ أن أحقِّقه بالرجوع إلى مصادره المختلفة حتى يَسْتقيم ويَقِرَّ به القرار ، وإذ ذاك أُلقِى عَصَا التسيار ، إذ تَقَرُّ عينى كما قَرَّ عينا بالإياب المسافر ...

يجىءُ بعد ذلك أنى كلما رأيتُ الراغبَ يورد فى أىّ باب من الأبواب أثراً من آثارهم ، أكان من المنظوم أمْ من المنثور ، فَزِعتُ إلى مَظانّه ، فأكملت مالا بدَّ من إكماله ، وزدت ما أستحسن زيادته ، من كل ما قد يعلق بالذاكرة ، أو أتعثّر عليه فى أثناء مطالعاتى ومُراجعاتى .

أمّا أبوابُ هذا المعجم فقد عَدَلْتُ بها وانحَرَفت لا عن أبواب المحاضرات فحسب ، بل عنها وعن سائر ما كان على غِرار المحاضرات من سائر الموسوعات ، وأنت إذا تصَفَّحت الذخائر والعبقريات بدا لك أنى ابتكرتُ طريقة مُثْلَى فى تبويبها ، فقد جَهَدْتُ جَهْدى أن تكون الأبوابُ متجانسةً متجاوبةً ، ومِنْ ثَمَّ كَسَرْتُ هذا المعجمَ على كُتُب وطوَيتُ الكتبَ على أبواب وأدرجت فى كل باب سائر المعانى المتشابكةِ الأرحام ...

أما عناوين المعانى فقد انتفعت بعناوين الراغب كلَّ الانتفاع ، فحذوت على حذوها بعد شيء من التصرف والتحوير والزيادة فى أكثر العناوين [1]

---

(١) يلاحظ الناظر فى الجزء الأول من «الذخائر والعبقريات» أن خطتى

يأتى بعد كل أولئك أنى امتزْتُ عن الراغب وغير الراغب بعَمَلَيْن عظيمين ، فأما أولهما فهو شرح كل ما يَحْمُلُ شَرْحُه من العبقريات ، وقد يُلاحَظُ أنى تبسطت فى الشرح ـ فى كثير من المواضع ـ إلى الحدّ الذى قد يُنكِرُه الخاصة ، ولكن يحْمُل أن يلاحَظ كذلك أنى وضعتُ هذا المعجمَ للخاصّة وغير الخاصة ، أى لكلّ قارئ ، على أن هذه الشروحَ هى الأخرى لَوْنٌ من ألوانِ الأدب والثقافة ، وقلما تخلو من الفوائد والعوائد ... وعلى أنَّ هناك من العبقريات ـ كبعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والحكم والمواعظ ، وبعض الألفاظ المتداولة ـ ماحرَّفَه السّواد الأعظمُ عن مواضِعِه وجَهِلوا مَغزاه الذى يغزوه قائلوه ، فكان لامندوحة عن تِبيان معناه[1]؛ وفى هذا عِلاوةً على ذلك امتثال القول سيدنا رسول الله : يَحمِل هذا العلمَ من كل خلَف عُدوله ، يَنْفُون عنه تحريفَ الغالين ، وانتحالَ المُبطلين ، وتأويل الجاهلين ... وأما العمل الآخر فهو تصدير كل باب بكلمة أكشف بها المراد بما عقد له هذا الباب ، وذلك كقولنا على البر والتقوى ، وعلى الصبر ، وعلى الشكر ، وهكذا وهكذا ... وهذا عمل له قيمته التى مامنها بُدٌّ .

وبما امتاز به هذا المعجم أنى لم أقتصِرْ على إيراد العبقريات من الأقوال

كانت أن أضع عنوان كل طائفة من المعانى فى أوائل السطور ومضيت على هذه الطريقة إلى قريب من ثلث صفحات هذا الجزء ثم استحسنت أن أعدل عن هذه الخطة إلى وضع العناوين وسط السطور لتكون أدنى إلى التيسير وأعون للطالب على العثور بضالته من أقرب سبيل وهذه ـ كما يرى القارئ ـ من الهنات الهينات التى تغتفر وقد تدوركت فى سائر الكتاب

(١) يلاحظ أن الشرح يرى طوراً فى عمود الكتاب وصلبه وطوراً فى هامشه

وإنما عَرَضْتُ فيما عَرضتُ لترْجَمَةِ بعض العبقريين الذين نبغوا فى معنًى من المعانى، مثلُ القاضى أحمد بن أبى دواد، تلك الشخصية الضخمة التى خُلّدت آثارها فى اصطناع المعروف والإحسانِ إلى الناس، وإن كنت أوجزت القول فى ذلك كلّ الإيجاز، وكذلك عَرَضْتُ للتعريف بالشعراء والعلماء والزهاد والحكماء الذين أوردت فى هذا المعجم عبقرياتهم، وإن كان ذلك فى أجزإ اختصار، وقد يلاحَظُ أنى أغفلت التعريف بكثير من القائلين، كما أغفلت فى بعض المواضع شرح كثير من أقوالهم، وذلك إمّا لأنى عرّفت مامن يجب أن يُعرّف وشرحت ما يَحْتمل أن يشرح فى مواضع أخرى، وإمّا حَدَثَ ذلك سَهْوًا وغفلة، وقد يَحْدُثُ ـ وذلك فى النّدْرة ـ أن يكون الإغفال ـ ولا سيما إغفال التعريف بالرجال ـ لأنى لمْ أوَفّق إلى التّعرّف عليهم . . .

هذا وكانت النّيّةُ أن أتوسّع فى إيراد عبقريات المعاصرين، ولكنى اقتصدت فى ذلك كل الاقتصاد، لأن هذا المعجم من ناحية ليس كتابَ مختارات بالمعنى المعروف وإنما هو معجم مَعانٍ، وإن كنتُ قد عملت ماوجدت إلى ذلك السبيل على أن يكون كتابَ مطالعة بجانب أنه كتاب مراجعة، ومن ناحية خَشيتُ أن أُتهَمَ بما أنا بَراء منه فى الواقع إذا أنا أوردتُ المختار من عبقريات بعض المعاصرين دون بعض، على أن آثار المعاصرين كثيرةُ التداول بين قُرّاء هذا الجيل، ومن هنا أوردت فيه بعض عبقريات المعاصرين ممن استأثر الله بهم، وأوردت أيضاً ما استحسنت إيراده مما نُقل إلى العربية من اللغات الأجنبية، وبخاصة ما نُشِرَ قديماً فى مجلة البيان التى كنت أقوم

بإخراجها من سنة ١٩١١ إلى نهاية سنة ١٩٢١ ميلادية؛ وكذلك وقع اختيارى على البارع كل البراعة من الكلمات الطويلة بعض الطول لبعض العبقريين من الغابرين، وإن كان ذلك فى النادر الذى لا يؤبه له، لندرته، وإن كنت كذلك حذفت مما اخترت من هذا الضرب كثيراً من الفضول .

أما تسمية هذا المعجم «الذخائر والعبقريات» فلهذه التسمية مَغْزًى أَعْزُوه، أما العبقريات فإنى أريد بها ـ كما هو واضح ـ كلماتِهم القصيرةَ المأثورة المتفوّقةَ فى معناها، على أنى لم آل جُهداً فى تخــيُّر العبقرى فى معناه ومبناه معاً ؛ وأما الذخائر فإنى لم أقتصر فى هذا المعجم على اختيار نوابغ الكلم، وإنما قد تُلجِئُ الحالُ إلى أن أُشَعْشِعَه كما تُشَعْشَع الراح، بالماء القَرَاح [1] فأورد بعض المباحث اللغوية والعلمية، على شريطة أن تكون بجانب مكانتها الرفيعة فى بابها جميلةً مستطرفة مُحَذَّقةً [2] قصيرةً مُتجردةً من الأذنابِ والفضول، كبعض كلمات بارعة لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تَراها مبعثرةً ههنا وههنا فى كتابه الحيوان، مثل كلامه على الخصاء والخصيان، وكلامه على العين وأفاعيلها فى المَعين، وكبعض كلمات كذلك لغيره ... وأمثالٍ لهذا كثيرة، على أن كلا الحرفين ـ الذخائر والعبقريات ـ مما يصح أن يوضع موضع الآخر، فيطلق على كل ما يُؤثر ويُذخر لنفاسته، سواء أكان من الكلمات أم من الموضوعات، فكل عبقرى من القول هو ذخيرة من الذخائر، وكل موضوع قيّم هو عبقرى من العبقريات .

(١) شعشع الشراب : مزجه ، والماء القراح : الخالص الذى لا يشوبه شىء

(٢) كلام محذف : من قولهم حذف الصانع الشىء : سوّاه تسوية حسنة كأنه حذف كل ما يجب حذفه حتى خلا من كل عيب وتهذب

وهذا المعجم يقع فى زُهاء عشرة أجزاء، كل جزء منها يَستوعب ما يُربى على العشرين والثلثمائة صفحة من هذا القِطْع، من هذا الورق الذى تَرى...

۞ ۞ ۞

«وبعد» فإنى على هذا الجَهْدِ الجاهد لاأُبَرِّئُ هذا الكتاب، من العاب [1]، وهل يصحُّ فى الأفهام أنّ رجلا يَجُرُّ وراءه نَيِّفاً وستين سنةً، مُوقَرَةً بكل ما يُضْعِفُ المُنّة [2] ويوهن القُوى، ويَعْصِفُ بالحيوية عَصْفاً، لا تتكاثر هفواته وعَثَرَاتُه، وتَتوافَرُ سقطاتُه وزلّاته، فى عَمَلٍ مثلِ هذا يُحاوِلُه، وتأليفٍ تتشعبُ موضوعاتُه ومَسائلُه، وإذا كانت الموسوعات التى منها تخيّرْتُ حِساباً فهذا المعجم فذَالِكْ، وإذا كانت عبقرياتهم هٰهنا نظاماً فهى نِثارٌ مبدّدةٌ هنالِكْ، وإذا كان المؤلفون يستظهرون على إخراج مؤلفاتهم فى العادة بالوراقين [3] والمصححين فلقد قمت وحدى بهذا العمل دون الاستعانة بأحد من أولئك... على أن النقصان، عالق بالإنسان، كان من كان، وإنما الكمال، للحىّ الذى لايموت ذِى الجلال...

اللهم إنى أبرأ إليك من الحول والقوة، اللهم عالمَ الغيبِ والشهادة فاطِرَ السمواتِ والأرض، يامَن لايَنْفَعُ ذا الجَدّ منك الجَدّ [4]، يا مَن وَعَدْتَ الذين هُم محسنون [5] بحُسن الجزاء وحاشَ لله أن يُخلِفَ

(١) العاب: العيب

(٢) المنة: القوة

(٣) أعنى بالوراقين من يسمون اليوم «السكرتيرين الخصوصيين»

(٤) الجد: الحظ ومعنى لاينفع ذا الجد منك الجد: لاينفع ذا الغنى عندك غناه، وإنما ينفعه العمل بطاعتك، ومنك: معناه عندك

(٥) المحسنون: أى الذين يحسنون أعمالهم ويتقنونها

الوَعْد ، سبحانك تبارَكَ اسمُك وتعالى جَدك ، أسألك يامَنْ تُجيبُ دعوةَ الداعى إذا دعاك ، أنّ تَهَبَ هذا الكتاب من توفيقك مايتصل معه برضاك ، ويَعُمُّ الانتفاعُ به والإفادةُ منه ما اختلف الملَوَان ، وكرَّ الجديدان [1] . . .

ديسمبر سنه ١٩٤١ ‏ ‏ عبد الرحمن البرقوقى

ذو القعدة سنة ١٣٦٠

(١) الملوان والجديدان : الليل والنهار

استدراك

ندّت بعض أخطاء مطبعية فى المقدمة وها هى ذى :

سطر	صفحة	خطأ	صواب
١٧	ط	وسويدوات القلوب حباتها وفيه النور	وسويداوات القلوب حباتها
١٧	ط	وإنسان العين سوادها	وإنسان العين سوادها وفيه النور
٦	ل	اختصار	قول
٧	ل	ما من	من

الكتاب الأول

في الفضائل وصالح الأخلاق والمُثُل العليا
التي يَجمُل بكُلّ من يَنْشُد السعادة في
الدارَين أن يَجْهَدَ جُهْدَه في التحلّي بها

[وهذا الكتاب مكسورٌ على خمسة عشر بابا بينها]
[جميعا لُحْمَةُ نَسَبٍ وقَرابَة]

الباب الأوّل

فى البرّ والتقوى

....

البرُّ وألوانه

قال علماؤنا ما خلاصته: إنَّ أصلَ مَعْنَى البِرِّ: السَّعة، ومنه البَرُّ - بفتح الباء - مقابل البحر، ثم اشْتُقَّ منه البِرّ بمعنى التوسّع فى فعل الخيْرِ، وكُلِّ فِعْلٍ مَرْضِيّ ... وهكذا أطلقوه على التوسع فى الإحْسانِ إلى الناس، وهو لُبابُ البِرّ؛ وعلى صِلَة الرّحِمِ، وهى عُنوانُ البِرّ؛ وعلى التقوى، وهى جِمَاعُ البِرّ[1]، قال تعالى: ولكنّ البِرَّ من اتقى، وقال لَبيد:

* وَما البِرُّ إلاَّ مُضْمَرَاتٌ مِنَ التُّقَى *

وَوَرَد البِرُّ فى القرآنِ الكريم وفى الحديث الشريف وفى شِعر العرب مُقابِلاً للإثمِ - والإثم: الشر وكُلُّ فِعْلٍ غيرِ مَرْضِيٍ مما يُؤْثِم - قال عز وجلّ: وتعاونُوا على البِرِّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثمِ والعُدوان. واقترانه بالتقوى يدُلُّ على أنّ البِرَّ بسبيلٍ من التقوى، ورُوِى أنّ سائِلاً سأله المصطفى صلواتُ الله عليه عن البِرّ والإثم، فقال: البِرُّ ما سكَنَتْ إليه نفسُك واطمأنّ به قلبُك، والإثمُ ما حاكَ فى نفسِك وتَرَدّدَ فى صدرِك، وإنْ أفتاكَ الناس، أو كما قال. « حاكَ فى نفسك: أى أثّرَ فيها ورَسَخ وحَزَّ

---

(١) ولأن البرّ يطلق على كل أولئك، قال الإمام البيضاوى: البرّ ثلاثة: برٌّ فى عبادة الله، وبرٌّ فى مراعاة الأقارب، وبرٌّ فى معاملة الأجانب

وقَدَح ، وقوله : وإن أفتاك الناس : أى وإن جعلوا لك فيه رُخصةً وجوازاً »
وقال زُهَيْرُ بنُ أبى سُلْمى :

والإثمُ مِن شرِّ ما يصالُ به والبِرُّ كالغَيْث نَبْتُهُ أَمِرُ

« مايصال به : ما يُفتخر به ، وأَمِرُ : كثير مُبارك » ومن أسماء الله البَرّ ـ بفتح الباء ـ ومعناه الواسع الخير ، وقوله تعالى : لَن تنالوا البرَّ حتى تُنْفِقوا مما تحبون ، فمعناه : لن تنالوا بِرَّ الله ، أى لن تنالوا خَيرَيِ الدنيا والآخرة حتى تنفقوا مما تحبون ، أمّا خير الدنيا فهو ما ييسّره الله للعبد من الهدى والنعمة ، وأمّا خير الآخرةِ فهو الفوز بالنعيم الدائم فى الجنة ، أو تقول : لن تنالوا حقيقة البر ـ أى الخير ـ حتى تنفقوا مما تحبون . . . والأبرار : الأخيار ، جمع بَرّ ، وقد قوبلت كلمة الأبرار بالفُجّار فى قوله تعالى : إن الأبرارَ لفى نعيم . وإنّ الفُجّارَ لفى جحيم ـ والفجار : الذين ينبعثون فى الشرور والآثام ـ وحج مَبْرُور : مقبول يجازَى بالبر ، أى الثواب ، أى خير الآخرة ؛ وبَرّ فى يمينه أى صدق ، أى كان خَيِّرا فيه بهذا الصدق .

« وبعد » فكل ما أوردوه من معانى البر فإلى الخير مَرَدُّه . . .

٭ ٭ ٭

ولهم فى البِرِّ مُطْلقا ، أى الخير غير مقيد بلون من ألوانه ، عبقريات وذخائر ، فمن ذلك قول الحُطَيئة :

ومَنْ يَفْعَلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جوازِيَهُ لا يَذْهَبُ العُرفُ بين الله والناس

« جَوازِيه : جمع جازية اسم مصدر للجزاء ، كالعافية ، أى لا يعدم جزاء عليه »
قال أبو عمرو بن العلاء : لم يقل العرب بيتا قط أصدقَ من بيت الحطيئة هذا ، فقيل له : فقول طَرَفةَ بنِ العَبد :

سَتُبْدِى لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلا ويأتيك بالأخبار مَن لم تُزَوِّدِ

فقال: مَن يأتيك بها مِمّن زَوّدْتَ أكثر، وليس بيت مما قالته الشعراء إلا وفيه مطعن، إلا قولَ الحطيئة هذا. ويُروَى أنّ كَعبًا الحِبْرَ - المشهور بكعب الأحبار - لما سمع هذا البيت قال: والذى نفسى بيده: إنّ هذا البيتَ لمكتوب فى التوراة»... وقال عَبيدُ بنُ الأبْرَص:

والخيرُ يَبقَى وإنْ طالَ الزمانُ به والشَّرُّ أخبَثُ ما أوْعَيْتَ مِن زادِ

«يقال: أوعيت الزاد والمتاع: إذا جعلته فى الوعاء»

وقال أبو العتاهية:

لَيَعْلَمَنّ الناسُ أنّ التُّقَى والبِرَّ كانا خيرَ ما يُذخَرُ

وقَبْلَه قال الأخطل - ورواه المبرِّد فى الكامل للخليل بن أحمد واضع علم العروض -:

وإذا افتَقَرْتَ إلى الذخائر لَم تَجِدْ ذُخْرًا يكون كصالحِ الأعمال

رَوَى صاحب الأغانى: أن هِشامَ بنَ عبدِ الملك لمّا سمع الأخطل وهو يقول هـذا البيت قال: هنيأ لك أبا مالك هـذا الإسلام! فقال الأخطل: يا أمير المؤمنين، مازِلتُ مُسْلِمًا فى دينى؛ وقَبْلَ هذا البيت فى ديوان الأخطل:

والناسُ هَمُّهُمُ الحياةُ وما أرَى طُولَ الحياة يَزيدُ غيرَ خَبالِ

«الخبال: الفساد، أوْ هو لون من الجنون»...

وقال أحمد شوقى فى نهج البردة: - وهـذه الأبيات يصح أن تذكر فى باب التقوى وفى باب الدنيا وفى الزهد، كما يصح أن تذكر فى هذا الموضع -:

يانفسُ دُنياكِ تُخفِى كُلَّ مُبكِيَةٍ وإنْ بَدَالكِ منها حُسنُ مُبتَسَمِ

فُضّى بتَقْوَاكِ فاهًا كلما ضَحِكَتْ كما يُفَضُّ أذَى الرَّقْشاءِ بالثَّرَمِ

لا تَحْفِلِى بجَنَاها أو جِنايتِها الموتُ بالزَّهْرِ مِثْلُ الموتِ بالفَحَمِ

صلاحُ أمْرِكَ للأخلاقِ مَرْجِعُهُ فقوِّمِ النفس بالأخلاق تَستَقِمِ
والنفْسُ مِن خيْرِها فى خير عافيةٍ والنفسُ من شرها فى مَرتعٍ وَخِمِ

« المبتسم : يريد الابتسام ، أو موضع الابتسام ، وهو الثغر . والرقشاء من الحيّاتِ : المُنَقَّطة بالسواد والبياض . وأذى الرقشاء : سُمّها . والثرم : كسر السن من أصلها . والجَنى : ما يُجْنى من الشجرة ويقطف من ثمرها ؛ يقول فى هذا البيت : إن سعادة الدنيا وشقاءها بمنزلة سواء ، وكلاهما ألمٌ غير أن أحد الألمين ينزل بساحة النفس سافراً غير مُتنكر ـ وهو جنايتها أى آلامها ـ والآخر ـ وهو جناها أى لذاتها ـ يتسرب إليها من أبواب غفلتها فيتجمل ويَخْلُب حتى ينال منها ، إذ أن من ورائه السمَّ ناقعا ، فمثلهما فى ذلك مَثل الموت بالفحم والموت بالزهر ، كلاهما موت ، وإن كان هذا من أثر الاختناق بأرَج الزهر ، وذاك من دَخَن الفحم . والمرتع : من رتعت الماشية : أكلت ماشاءت ، والمرتع : مكان الرتوع ، والوخم : الردىء الوبىء »

وقال المعرّى :

وَلْتَفْعَلِ النَّفْسُ الجميلَ لأنَّهُ خيْرٌ وأحْسَنُ لا لأجْلِ ثوابِها

« يقول المعرّى : إنّ فِعلَ كُلِّ ما هو جميلٌ خيرٌ وأحسن من فِعل ما ليس بجميل ، ولو لم يَجْنِ المرءُ من وَراء الجميل وفعله إلاّ أنه خير وأحسنُ وأسمى وأرفع ؛ لكان فى ذلك الغَناءُ كله ، أمّا فعلُ الجميل ونُصْبَ عينِ فاعله ذلك الثواب الذى سيجازى به ، فإن هذا إسفاف بالإنسانية إلى الحضيض الأوهد ، ويُعَدُّ من الأعمال التى يرفعها الله إلى أسفل ، وجملة القول : إنه غير لائق بالكمال والمثل الأعلى ، أليس من كان هذا شأنهم إنما يتاجرُون الله الذى يعلم السرَّ وأخفى ، والذى هو جميل يحب الجمال ! وسترى فى باب التقوى

كثيرا من عبقرياتهم فى هذا المعنى — معنى فضل الخير حُبا فى الخير، وولوعا بالحق والجمال والمَثاليَّة الكامنة فيه.

✡ ✡ ✡

ومما رُوى لنا من أحاديث سيدنا رسول الله فى هذا الباب قوله صلوات الله عليه: رأيتُ الجنَّةَ والنارَ فلم أرَ مِثْلَ الخيرِ والشّر ... « قال ابن الأثير فى النهاية: أى لم أرَ مِثْلَهُما لا يُميَّزُ بيْنَهما فيُبالَغ فى طلب الجنَّةِ والهَرَبِ مِن النار ... أقول: ولعلّ الأظهرَ أن يكونَ المعنى: لم أرَ شيئا يكون وُصْلةً إلى دخولِ الجنَّةِ مِثْلَ الخيرِ، ولم أرَ شيئا يكون سببًا فى دخول النار مِثْلَ الشّرّ [1] .. هذا، وإن أبَى المُلْحِدُون وأشباهُ الملحدين إلّا أن يُؤوّلوا الجنةَ بأنها الهناءَةُ وغِبطَةُ الروح التى يَشْعُر بها الأخيار البَرَرَة ويَرَاحُونَ لها فى هذه الحياةِ، والنارَ بأنها الشقاوةُ التى يُعانيها الأشرار الفجرة، ويتَسعّر لهيبها فى أحناء ضلوعهم، فهم وما يختارون ويَحْلَوْلِى لهم، إذ أن هذا — أى سعادة الخيِّر فى الدنيا وشقاوة الشّرّير فيها — حق وصحيح فى ذاته، وإن لم يك مرادًا لأنبياء الله ورسله بالجنة والنار، حين يريدون الجنة والنار بمعناهما المعروف، على أن الإسلام علَى ذلك يعتد بالسعادة والشقاوة فى الدنيا كما أنه يعتد بهما فيما بعد الموت ... وفى الحديث أيضا: خَيْرُكم من يُرْجَى خيرُهُ ويؤمَن شَرُّه، وشَرُّكم من لا يُرْجَى خيرُه ولا يُؤمَن شَرُّه .. وقال صلوات الله عليه:

---

(١) ورد هذا الحديث عن أنس بن مالك هكذا: صلى لنا النبى صلى الله عليه وسلم ثم رقى المنبر، فأشار بيده إلى قبلة المسجد وقال: لقد رأيت الآن منذ صليت لكم الجنة والنار ممثلتين فى قبلة هذا الجدار فلم أر كاليوم فى الخير والشر. « الجامع الصغير »

خير الناس خيرهم لنفسه » ومعناه : إذا جامَلَ النّاسَ جاملوه وإذا أحسن إليهم كافأوه بمثله » وأمَّا الحديث : خيركم خيركم لأهله ؛ فهو حث على صلة الرحم ، وسيأتى . . . ومما يُؤثَرُ من أحاديث سيدنا رسول الله فى هذا الباب قوله صلوات الله عليه : شَرُّ الناس من خافه الناس اتقاءَ شرِّه « ومثل هذا القول تبكيت للشرِّير ، وأنه وإن ظفر بما يظفر به من أغراض هذه الدنيا فهو خاسِرٌ دامِرٌ » وكان من دعاء سيدنا رسول الله : إن الخيرَ بيدَيك والشَّرُّ ليس إليك » يريد : أن الشر لا يُتقرب به إليك ولا يُبْتَغَى به وجهك ، أو أن الشر لا يَصعد إليك وإنما يصعد إليك الطيِّب من القول والعمل ، كما قال سبحانه : إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه . وفى هذا الدعاء إرشاد إلى استعمال الأدب فى الثناء على الله والدعاء ، وأن تضاف إليه محاسن الأشياء دون مساويها» ... ومن كلمة لعلى بن أبى طالب : إن للخير والشر أهلاً ، فمهما تركتموه منهما كفاكموه أَهلُه » يقول رضى الله عنه : إنْ عَنَّ لك باب من أبواب الخير وتركته فسوف يكفيكه بعض الناس ممن جعله الله أهلا للخير ، وإنْ عَنَّ لك بابٌ من أبواب الشر فتركته فسوف يكفيكه بعض الناس ممن جعلهم الله أهلا للشر وأذى الناس ، فاختر لنفسك أيما أحب إليك : أن تحظى بالمحمدة والثواب وتفعل ما إن تركته فعله غيرك وحَظِى بحمده وثوابه ، أو أن تتركه ، وأيما أحب إليك : أن تشقى بالذم عاجلا والعقاب آجلا وتفعل ما إن تركته كفاكه غيرك وبلغت غرضك منه على يد غيرك ، أو أن تفعله ؛ وإذن فجدير بالعاقل أن يُؤْثِرَ فعلَ الخير وتركَ الشر ما وجد إلى ذلك سبيلا»

ومن قولهم فى أوصاف البَرَرَة الأخيار : فُلَانٌ نَقِىُّ الساحة من المآثم ، بَرِىءُ الذِّمَّة من الجرائم ؛ إذا رَضِىَ لم يقل غيرَ الصدق ، وإذا سَخِطَ لم يَتجاوزْ

جانبَ الحقِّ ؛ يرجع إلى نفسٍ أمّارةٍ بالخيرِ، بعيدةٍ من الشر، مدلولةٍ على سبيل البر ... ووصَفَ أعرابيٌّ رجلا بلون من ألوان البر وبالألمعية والذكاء والحصافة والأناة قال : كان ـ والله ـ الفَهمُ مِنْه ذَا أُذُنَين ، والجوابُ ذَا لِسانَين ، لم أرَ أحداً كان أرْتَقَ لِخَلَلٍ رَأيٍ منه ، ولا أبْعَدَ مسافةَ رَوِيَّةٍ ومَرَادَ طَرْف ، إنما يَرْمي بهمّته حيث أشار اليه الكرم ، ومازال ـ والله ـ يتَحَسَّى مَرارَةَ أخلاقِ الإخوانِ ويَسْقِيهم عُذُوبَة أخلاقه ...

«كان الفهم منه ذا أُذُنَين : يريد أنه كان يَعِي ويتفطن لما يَرى ويَسمع فطنة أوفت على الغاية، إذ أنها فطنة مضاعفة، فكأن له أذنين . أما قوله : والجوابُ ذا لسانين : فإنما يريد قوة العارضة واللَّسن ، وهذا غير قولهم : فلان ذو وَجْهين وذو لسانين ، يريدون : النفاق والذبذبة . ورتق الفتق : أصلحه ، والمَرَاد : المكان من راد يرود : إذا جاء وذهب ، ويتحسى : يقال حسا الماء : شربه ، وتحساه : إذا شرب في مُهْلة ، وهو هنا مجاز »

ومن كلمة لابن المقفع يصف الرجل يَتلاقَى البرُّ في بُردَيه بألوان شتى مِنَ المُثُلِ العليا وأخلاق السادة، في أسلوب بديع ـ وقد وردت هذه الكلمة في نهج البلاغة منسوبةً لعلى بن أبي طالب رضي الله عنه ـ : كان لي أخٌ في الله ، كان أعْظَمَ الناسِ في عيني ، وكان رأسَ ماعظّمه في عيني صِغَرُ الدنيا في عَيْنِه ، كان خارجا من سلطانِ بَطْنه ؛ فلا يَتَشَهَّى مالا يَجِد ، ولا يُكْثِرُ إذا وَجَدَ . وكان خارجا من سلطان فَرجه ؛ فلا يدعو إليه مُؤْنة ، ولا يَسْتَخِفُّ إليه رأيا ولا بَدَنا ، وكان لا يتأثر عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجا من سلطان لسانه ؛ فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يمارِي فيما علم . وكان خارجا من سلطان الجهالة ؛ فلا يُقْدِم أبدا إلا على ثِقَـةٍ بنفسه ، وكان

أكثرَ دهره صامِتا ، فإذا قال بزَّ القائلين ، وكان ضعيفا مستضعفا ، فإذا جدَّ الجِدُّ فهو الليث عاديا ، وكان لايدخل فى دعوى ، ولايشارك فى مِراءٍ ، ولايُدْلِي بحُجَّةٍ ، حتى يَرَى قاضيا فَهِمًا وشُهودا عدولا ، وكان لا يَلومُ أحدا فيما يكون العذر فى مِثْله حتى يعلمَ ماعذرُه ، وكان لايشكو وَجَعَه إلا عند من يَرْجُو عنده البُرءَ ، ولايستشير صاحبا إلا أن يَرْجُوَ منه النصيحة وكان لايتبرَّم ولا يتسخط ، ولا يَتَشكَّى ولا يتشهَّى ، ولا ينتقمُ منَ العدوّ ولا يَغْفُلُ عن الوَلِيِّ ، ولا يخُصُّ نفسه بشيء دون إخْوَانِه ، من اهتمامه وحيلته وقوَّته ... فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها ، ولن تطيق ، ولكنَّ أَخْذَ القليل خَيْرٌ من ترك الجميع ... قوله كان لى أخ الخ : فليس يعنى أخا بعينه ولكن هذا كلام خارج مخرج المثل ، وعادة العرب جارية بذلك مثل قولهم فى الشعر : فقلت لصاحبى ، وياصاحبيّ : وقوله : فلا يتشهى مالا يجد ، فإن ذلك لعمرى من سقوط المروءة . قال الأحنف بن قيس : جَنِّبُوا مجالسنا ذكر تَشَهِّى الأطعمة وحديث النكاح ؛ ومن طُرِفِ الجاحظ مارواه عن نفسه : جاسنا فى دار لجملنا نتشهَّى الأطعمة ، فقال واحد : أنا أشتهى سِكباجة كثيرة الزعفران ، وقال آخر : وأنا أشتهى هريسة كثيرة الدارَصيني ... وإلى جانبنا امرأة بيننا وبينها بِئْرُ الدارِ ، فضربت الحائط وقالت : أنا حامل ، فأعطونى مِلْءَ هذه الغَضَارَة ـ الصحفة ـ من طبيخكم ، فقال ثُمامة بن الأشرس : جارتنا هذه تشم رائحة الأمانىّ ! وقوله : وكان ضعيفاً مستضعفا : يريد : لَيِّنَ الجانب مُوَطَّأ الأكناف ، ... وقَرَعَ رَجُلٌ بابَ بعض الخيِّرين من السلف ، فى ليل ، فقال لجاريته : أبْصِرى مَن القارع ، فأتت البابَ فقالت : من ذا؟ قال أنا صديقُ مَولاك ، فقال الرجل : قولى له : واللهِ إنكَ لصديق ؟ فقالت له ذلك ، فقال :

والله إنى لصديق ، فنهض الرجل وبيده سَيف وكيس يسوق جارية ، وفتح الباب وقال : ماشـأنك ؟ قال : راعنى أمر ، قال : لابك ماساءك ، فإنى قد قسمتُ أمرَك بين صديق : فهذا المال ، وبين عدوّ : فهذا السيف ، أو مَشُوقٍ : فهذه الجارية . فقال الرجل : لله بلادُكَ ، مارأيت مثلك . . . « أقول : هذه لعمرى هى أخلاق السادة النبلاء ذوى البر والمُروءة والوفاء والحزم والظَرف ، وكونُ ـ وجود ـ أمثال هؤلاء من ذوى الإنسانية العالية هو الذى يُحَسِّنُ ظننا بالحياة ويجملها فى أعيننا ، ويجعلها مُحْتَمَلة مطاقةً ، لا كما نرى اليوم . . . » وقال عبد الرحمن بن حسَّان بن ثابت يصف رجلا قليل الخير ـ أى لا خير فيه :ـ (١)

أَبَى لَكَ فِعْلَ الخيْر رَأْىٌ مُقَصِّرٌ وَنَفْسٌ أَضاقَ اللهُ بالخير باعَها

إذا ما أرادته على الخيرِ مَرَّةً عصاها وإن هَمَّتْ بِشَرٍّ أطاعها

ومن قولهم فى قليل الخير :

هُوَ فِى الخيْرِ قَطُوفٌ وَهْوَ فِى الشَّرِّ وَسَاعُ

« القطوف منَ الإنسان والحيوان : البطىء المتقارب الخطو ، ووَساع : واسع الخطو سريع السير » ومن قولهم فى المتساويَين فى الخير والشر . هُما كَفَرَسَىْ رهان ، وهذا فى الخير ، وأمّا فى الشر فيقال : هُما كحِمارَىِ العِبَادِىِّ . « والعبادى : رجل من العِباد ؛ وهم قوم من قبائلَ شتّى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية فأنِفوا أن يتَسمَّوا بالعبيد وقالوا : نحن العباد ؛ وقد نزلوا بالحِيرة ومنهم عَدِىّ بن زيد العبادى الشاعر المشهور . أما هذا العبادىّ فيروى أنه قيل له ـ أىُّ حِمارَيْكَ شرٌّ ؟ فقال : هذا ، ثمَّ هذا !

(١) كان عبد الرحمن هـذا قد سأل محمـد بن عمرو عامل سليمان بن عبـد الملك حاجة فلم يقضها ، فسألها عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقضاها ، فقال أبياتا منها هذان البيتان

وقال الأشْعَرُ الرَّقَبَانُ ـ وهو شاعر جاهلى من بنى أسد ـ يخاطب ابن عمٍ له يسمى رِضوان ، يصفه بالشر واللؤم والنذالة والفسولة :

بِحَسْبِكَ فى القوم أنْ يَعلَموا ... بأنَّكَ فِيهم غَنِيٌّ مُضِرْ
وقَدْ عَلِمَ المَعْشَرُ الطارِقُوكَ ... بأَنَّكَ لِلضَّيْفِ جُوعٌ وَقُرْ
إذا ما انْتَدَى القَوْمُ لمْ تأتِهِم ... كأَنَّكَ قَدْ وَلَدَتْكَ الْحُمُرْ
مَسِيخٌ مَليخٌ كَلَحْمِ الحُوارْ ... فَلا أَنْتَ حُلْوٌ ولا أَنتَ مُرْ

« قوله : غنيٌّ مُضِرْ ، فالمُضِرُّ : الذى له ضَرَّةٌ من المالِ ، وهى القطعة من المال والإبل والغنم ، أو المال الكثير ، كما هنا ، وانتدى القوم : اجتمعوا فى ناديهم ، والمسيخ : الذى لا طعم له ، والمليخ مثله ، وخصّ به بعض اللغويين الحُوار الذى ينحر حين يقع من بطن أمه فلا يوجد له طعم ، وقال ابن الأعرابى : المليخ من الرجال : الذى لا تشتهى أن تراه عينك فلا تجالسه ولا تسمع أذنك حديثَه ، والحوار : ولد الناقة ساعة تَضَعُه » ... ومما يَحْسُنُ إيراده فى هذا الباب لِلُبْسَتِهِ واشتباهه قول عمر رضى الله عنه ـ وقد قيل له : فلانٌ لا يعرف الشر ـ فقال : ذاك أوقع له فيه ، إذ أن معناه : أن لا يكون الإنسان مغفلا وإنما الواجب الفطنة والحذر وسوء الظن بالناس ، لما جُبل عليه سوادهم من الشر واللؤم والخداع ، وفى معناه يقول حكيم لابنه : استَعِذْ بالله من شِرَارِ الناس وكن من خيارهم على حذر ... وقد كان الفاروق رضى الله عنه لا يُقَعْقَعُ له بالشِّنَانِ [١] وكان سيَّ الظن بالناس ، يَدُل على ذلك شِدَّتُه وصرامته

(١) لا يقعقع له بالشنان : مثلٌ ، أى لا يخدع ولا يروع ، وأصله من تحريك الجلد اليابس للبعير ليفزع ، ومعنى القعقعة : التحريك ، والشنان : جمع شن وهو القربة الخلق أو الخلق ـ البالى ـ من كل وعاء صنع من جلد .

وحذَرُه وسياسته الحازمة الرشيدة ... «وبعد» فإنك ترى فى باب طبائع الإنسان كثيرا من عبقرياتهم فى الشر ووصف الأشرار وحكمة امتزاج الخير بالشر فى العالم ، كما أنه سيمرُّ بك قريبا كثير من عبقرياتهم فى التقوى وحسن الخلق ...

ومن أرْوَع وأجمع ماقيل فى البر على سائر ألوانه قوله جلّ شأنه : ليسَ البرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِب ، ولكِنَّ البِرَّ مَن آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ والملائكةِ والكِتابِ والنبيين وآتَى المَالَ على حُبّه ذَوِى القُرْبَى واليتامَى والمَساكِينَ وابْنَ السَّبِيل والسَّائلينَ وفى الرقاب وأقامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكاةَ ، والمُوفُونَ بِعَهدِهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضَّراءِ وحين البأس ، أولئكَ الذين صدقوا وأولئك هُمُ المُتَّقون ...

نزلت هذه الآية الكريمة بَعْدَ أن أكثَرَ أهلُ الكتاب مِن يَهودَ ونَصارَى ، الخَوضَ فى أمْرِ القِبلة حين حُوّل رسولُ الله إلى الكعبة ، وزَعَمَ كُل من الفريقين أن البِرَّ هو التوجُّهُ إلى قِبلتِه ، ففَنَّدَ الله سبحانه هذا الزعمَ وبَهْرَجَهُ وقال : ليس البرُّ العظيمُ الذى يجب أن تذهَلوا بشأنِه عن سائر صنوف البر هُوَ أمرَ القِبلة ، ولكنَّ البرَّ الذى يجب الاهتمامُ به وصَرفُ الهِمَّةِ إليه هو برُّ مَنْ آمن وقامَ بهذه الأعمال .... هذا ، وقوله . ليس البر أن تُوَلوا ، فالبِرَّ بالنَّصب خبرُ ليسَ مُقدَّم . وأن تُولوا مؤوَّل بمصدر اسم ليس مؤخر ، وقوله : ولكن البر من آمن : إمَّا مثلُ قول الخنساء [1] :

---

(١) الخنساء : هى تماضر بنت عمرو بن الشريد من سروات قبائل بنى سليم من أهل نجد ، أشعر النساء فى عصرها أدركت الإسلام وأسلمت توفيت سنة ٢٤ ه وقولها فإنما هى إقبال وإدبار ، من أبيات ترثى أخاها صخرا تقول فيها :

✡ فإنّما هي إقبالٌ وإدبارُ ✡ أو تقول ؛ ولكنّ البرّ : أيْ ذا البِرّ أو تقول ، إنه على حذف مضاف ، أي برّ من آمن . وقوله سبحانه : والكتاب ، يعني جنس كتب الله ، أو القرآن . وقوله : على حبّه ، أي مع حُبّ المال والشُّحّ به ، وقَدّم ذوى القربى لأنّ الإحسان إليهم أفضل ، كما وَرَدَ في الأثر : صَدَقَتُكَ على المِسكين صدقة وعلى ذِي رَحِمِكَ اثنتان ، صَدَقة وصِلةٌ ، وابن السبيل : المسافر المنقطع ، وقيل الضيف ؛ لأن السبيل يَرْعَفُ به ـ أي يتقدم به ويبرزه للمقيمين كما يَرْعُفُ الأنف بدم الرعاف ـ وقوله : وفى الرقاب : أي وفى مُعاوَنَةِ المكاتَبين حتى يفكّوا رقابهم وقيل : فى شراء الرقاب وإعتاقها ، وقيل : فى فكّ الأسارى . وقوله : والموفون بعهدهم : عَطْفٌ عَلى مَن آمن وقوله : والصابرين ؛ فهو منصوب على المدح ، ولَمْ يُعْطَفْ ، لفضل الصبر على سائر الأعمال ، والبأساء ، أي فى الأموال كالفقر ، والضَّرّاء ، أي فى الأنفُس كالمرض . وحين البأس : أي وقت مجاهدة العدوّ ... أليست هذه الآية الكريمة ـ كما قال الإمام البيضاوى ، وكما ترى ـ جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها ، دالة عليها صريحا أو ضِمنا ، فإنها على تشعبها منحصرة فى ثلاثة أشياء : صحة الاعتقاد ، وحسن المعاشرة ، وتهذيب النفس . وقد أُشير إلى الأول بقوله : مَن آمن

فما عَجُولٌ على بَوٍّ تُطيف به لها حَنِينانِ إعلانٌ وإسْرار

تَرْتَعُ ما غَفَلَت حتى إذا ادَّكَرَتْ فإنما هى إقبالٌ وإدْبار

يوْمًا بأَوْجَدَ مِنِّى حينَ فارَقَنى صخرٌ ولِلدهرِ إحْلاء وإمْرار

« العجول من الإبل : الواله التى فقدت ولدها ، لعجلتها فى جيئتها وذهابها جزعا والبوّ : جلد ولد الناقة يحشى تبنا ونحوه ويقرب منها فتعطف عليه وتدرّ ، وقولها : فإنما هى إقبال وإدبار : جعلها نفس الإقبال والإدبار مبالغة ، أى أنها تتلهى عن الرعى فتقبل وتدبر جزعا .

بالله . إلى : والنبيّين ، وإلى الثانى بقوله : وآتى المال . . . إلى : والرقاب ، وإلى الثالث بقوله : وأقام الصلاة . . . إلى آخرها . ولذلك وُصِفَ المستجمعُ لها بالصدق ، نظراً إلى إيمانه واعتقاده ، وبالتقوى اعتباراً بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق سبحانه ، ولذلك قال عليه السلام : مَن عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان .

برُّ الوالدين وصِلةُ الرحِم

وعبقرياتهم فى الآباء والأبناء والأقارب من بابات شتى (٥)

وإليكَ شَدْوًا مِن عَبْقَرِيَّاتِهِم فى لَوْنٍ من ألوان البر لقدنراه بادِىَ الرأى قليلَ الخطر ، وهو عند الله الحَقِّ ، ولَدى إلقاء البال إليه ، وإنعام النظر فيه ، عظيمُ كُلَّ العِظَم ، خطير كلَّ الخَطَر ، ذلك هو صلة الرحم بعامّة ، وبر الوالدين بخاصة ، ولقد قرَن الله بِرَّ الوالدين بالتوحيد ، وأكثرَ فى كتابه المُنْزَل مِن الحَضِّ على هذا البر بأسلوب يُخَيِّلُ إلى السامع إليه أن برَّ الوالدين ركن من أركان الدين ، وأساس من أُسُسِ الأخلاق لا يُؤبَه لسائرها بدونه ، وإنه لكذلك ، وفى الحق إن هذه الإشادةَ البالغةَ من الإسلام ببر الوالدين وصلة الرحم لَمِمَّا يُعَدُّ من فضائل هذا الدين الحنيف وخصائصه التى يمتاز بها . فلْيُلْقِ أبناءُ اليوم بالهَم إلى ذلك ، وليجعلوه دائما نُصْبَ أعينهم ، إن كانوا يريدون الخير لأنفسهم ، وإلا فلا يُبْعِدُ اللهُ إلّا مَن ظَلَم . . . هذا وستسمع بادئ ذى بدءٍ خيرَ

---

(٥) البابة عند العرب : الوجه ، والبابات الوجوه وأنشدوا لتميم بن مقبل :

بنى عامر ماتأمرون بشاعر تخير بابات الكتاب هجائيا

معناه : تخير هجائى من وجوه الكتاب ، ويقال فلان من أهون باباته الكذب وهى أنواع خبثه ، وإذا قال الناس : هذا شىء من بابتى ، فمعناه من الوجه الذى أريده ويصلح لى .

ما قالوا فى هـذا اللون من البر، ثم نعقبه بخير ما قالوا فى الآباء والأبناء والأقارب، مما يتأشب إلى هذا المعنى، وينشعب به القول، ولا يخلو بعضه من طرافة، حتى نستوعب المنتقى من كلامهم فى كل باب، وحتى يكون فيما يستطرف منه استراحةٌ للقارئ وانتقال ينفى ملل الجِدّ عنه... فمن ذلك ما يقول الله عز وجل - ونتجزأ بهذه الآية الكريمة الجامعة عن سائر الآيات التى يزخر بها كتاب الله فى باب البرّ بالوالدين -: وقَضَى رَبُّكَ ألَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاه، وبالوالِدَين إحسانًا إمّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أحدهما أو كِلاهما فلا تقل لهما أُفٍ ولا تنهرهما وقُلْ لهما قولا كريما، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رَبِّ ارحمهما كما رَبَّيانى صغيراً، رَبُّكم أعْلَمُ بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوّابين غفورا، وآتِ ذا القُرْبَى حَقَّهُ... الآيات

«قوله سبحانه: وقَضَى رَبُّكَ: أى أمَر أمرا مقطوعا به... وإنّها لكلمة مُرَوِّعة تَرُجّ النفسَ رَجّا وتُزَلزل أرجاءها زِلزالا شديدا. ولا جَرَم أنّه كتابُ الله الذى أُحكِمَتْ آياته. أما قوله سبحانه: ألّا تعبدوا إلا إياه: أى قضى ربك بأن لا تعبدوا إلا إياه؛ لأن غاية التعظيم لا تحق إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الإنعام. وقوله: وبالوالدين إحسانا، أى وقضى بأن تُحْسِنوا بالوالدين إحسانا، وقوله: إما يَبْلُغَنّ عندك الكِبَرَ أحدهما، فإمّا: هى إن الشرطية زيدت عليها ما تأكيدا لها، فكأنه قال: إنْ يَبلُغَن، وأحدهما فاعل يَبْلُغن، وأُفٍ: صوت يدلّ على التضجّر، وعندك: قال الزمخشرى: معناه: أن يكبرا ويعجزا ويصيرا كَلاًّ على ولدهما لا كافل لهما غيره، فهما فى بيته وكَنَفه، وذلك أشقُّ عليه وأشدُّ احتمالا وصبرا، وربما تَوَلّى منهما ما كانا يتوليان منه فى حال الطفولة، فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأةَ الخُلق ولِينَ الجانب

والاحتمال ، حتى لايقول لهما - إذا أضجرَه ما يُستَقذَر منهما أو يَستثقل من مُؤنهما - : أُفٍّ ، فضلا عما يَزيد على أفٍ . . . قال : ولقد بالغ سبحانه فى التوصية بهما كما ترى ، حيث افتتح الآية بأن شَفَع الإحسان إليهما بتوحيده ، ونظمهما - التوحيد والإحسان إلى الوالدَين - فى سلك القضاء - الأمر - بهما معا ، ثمَّ ضَيَّقَ الأمرَ فى مراعاتهما حتى لم يُرَخِّص فى أدنى كلمة تنفلت من المتضجر ، مع موجبات الضجر ومقتضياته ، ومع أحوال لايكاد يدخل صبر الإنسان معها فى الاستطاعة . . . وقوله : ولا تنهرهما : أى لا تَنْهَهُما عما يتعاطيانه مما لايعجبك ، وقل لهما قولا كريما : أى جميلا ، كما يقتضيه حسن الأدب والنزول على المروءة . وقوله سبحانه : واخفض لهما جناح الذل ، قال الإمام الزمخشرى : فيه وجهان : أحدهما أن يكون المعنى : واخفض لهما جناحك كما قال : واخفِضْ جناحك للمؤمنين ، فأضافه إلى الذُّلّ أو الذِّلّ[1] كما أُضيف حاتم إلى الجود ، على معنى واخفض لهما جناحك الذليل أو الذلول ، والثانى : أن تجعل لِذُلّه أو لِذِلّه لهما جناحا خفيضا كما جعل لبيدٌ - الشاعر المخضرم - للشمالَ يدًا ولِلقِرَّةِ زِماما[2] مُبالَغةً فى التذلل والتواضع لهما ، وقوله سبحانه : من الرحمة : أى من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما لِكِبَرِهما وافتقارهما إلى مَن كان أفقَر خلق الله إليهما بالأمس ،

---

(١) الذل الأول من ذل ذلا فهو ذليل بمعنى الخضوع ، والذل الثانى بكسر الذال ، وبضمها أيضا - من ذل يذل فهو ذلول بمعنى اللين (٢) فى قوله من معلقته :

وغَدَاةِ ريحٍ قد كشَفْتُ وقِرَّةٍ إذْ أصْبَحتْ بيَدِ الشَّمالِ زِمامُها

والقرة : البرد يقول لبيد : كم من غداة تهب فيها الشمال - وهى أبرد الرياح - وبرد قد ملكت الشمال زمامه ، قد كشفت عادية البرد عن الناس بنحر الجزر لهم ، وتحرير المعنى : كم من برد كشفت غرب عادبته بإطعام الناس .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: رِضَا اللهِ فى رضا الوالدَين، وَسُخْطُهُ فى سُخطِهما. وَرُوِى: يَفْعَلُ البَارُّ مايشاء أنْ يفعلَ فلن يدخُلَ النار، ويَفْعَلُ العاقُّ مايشاء أن يَفعَلَ فلن يدخل الجنة: وقال رجل لرسول الله صلوات الله عليه: إن أَبَوَىَّ بلغا من الكِبَرِ أنْ أَلِىَ منهما ماوَلِيَا مِنِّى فى الصغر، فهل قَضَيْتُهما حقَّهما؟ قال: لا، فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يُحِبَّان بقاءَكَ، وأنت تَفعلُ ذلك وأنت تريد مَوْتَهما: وعن حُذَيفةَ: أنه استأذَن النبىَّ صلى الله عليه وسلم فى قتل أبيه وهو فى صَفّ المشركين، فقال: دَعْهُ يليهِ غيرُكَ. وسُئل الفُضَيلُ بنُ عِيَاض عن بِر الوالدين، فقال: أن لاتقومَ إلى خِدْمَتِهما عن كَسَلٍ، وسُئل بعضُهم. فقال: أن لاترفع صوتَكَ عليهما، ولا تنظرَ شَزْرا إليهما، ولا يَرَيا مِنك مُخالَفَةً فى ظاهِرٍ ولا باطِنٍ، وأن تَترَحَّم عليهما ماعاشا، وتدْعُوَ لهما إذا ماتا، وتقومَ بخدمة أُودَّائهما من بعدِهما، فعن النبى صلى الله عليه وسلم: إن من أَبَرِّ البِرِّ أنْ يَصِلَ الرجلُ أهلَ وُدِّ أبيه... أمَّا قوله تعالى: وآت ذا القُرْبَى حَقَّه. فهذا توصيةٌ بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما، يقول سبحانه: آتوهم حقَّهم، وحَقُّهم صلتُهم بالمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السَّرَّاء والضرَّاء والمعاضدة إن كانوا مياسيرَ، وتعهدُهم بالمال إن كانوا عاجزين عن الكسب «انظر التفصيلات فى كتب الفقه» وجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال: إنى أريد الغزو، فقال عليه الصلاة والسلام: أَحَىٌّ أبواك؟ قال: نعم، قال: فَفِيهما فَجاهِدْ. وسُئل الحسنُ البَصْرِىُّ رضى الله عنه عن بِرِّ الوالدين، فقال: أنْ تَبْذُلَ لهما ما ملكت، وتطيعَهما فيما أمَراك، مالم يكن معصيةً، وآيةُ ذلك قولُه تعالى: وإنْ جاهداك على أن تُشركَ بى ماليس

لكَ به عِلمٌ فلَا تُطِعْهُما، وصَاحِبْهُما فى الدُّنْيا مَعْرُوفًا ...

٭ ٭ ٭

ومما يُؤثَرُ من أخْبار البَرَرَة : ما يقول المأمون بنُ الرشيد : لم أرَ أحداً أبَرَّ من الفضل بن يحيي ـ البرمكى ـ بأبيه ، بَلَغَ من بِرِّه به أنّ يحيي كان لايتوضأ إلا بماء مُسَخَّن وهما فى السجن ، فمنعهما السجّانُ من إدخال الحطب فى ليلة باردة ، فقام الفضل ـ حين أخذَ يحيي مَضْجَعَه ـ إلى قُمقُمٍ (١) كان يُسَخَّنُ فيه الماءُ، فملأه ثم أدناه من المصباح ، فـلم يَزل قائما وهو فى يده حتى أصبح ... وقيل لعلى بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم : إنّكَ من أبَرِّ الناس بأمك ولَسْنا نَرَاك تأكُلُ مع أُمِّكَ فى صَحْفَةٍ ، قال : إنى أخاف أن تَسبِقَها يَدِى إلى شيءٍ سَبَقتْ عينُها إليـه فأكون قد عَقَقْتُها . وقيل لِعُمَرَ بن ذَرٍّ (٢) ـ وقد مات ابنه ـ : كيف كان بِرُّ ابنِكَ بكَ ؟ قال : ما ماشَيتُه قَطُّ نهاراً إلا مَشَى خَلْفِى ، ولا ليلا إلا مَشَى أمامى ، ولا رَقِىَ سَطْحا وأنا تحته .

٭ ٭ ٭

ومما يروى فى باب العقوق وأحوال العقَقَة : « والعقوقُ ضِدُّ البِرِّ »

---

(١) إناء من نحاس يسخن فيه الماء (٢) هو عمر بن عبدالله بن ذرّ بن زرارة بن مسعود الهمدانى كان واعظا بليغا وعابداً صالحا وكان ابنه ـ واسمه ذرّ ـ مباركا طيعا له . دخل يوما على ابنه وهو يجود بنفسه فقال : يابنىّ، إنه ما علينا من موتك غضاضة ـ ذل وانكسار وفتور ـ ولابنا إلى أحد سوى الله حاجة . فلما مات وصلى عليه وواراه وقف على قبره ؛ وقال : ياذر ، قد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، لأنا لا ندرى ما قلت وما قيل لك . اللهم إنى وهبت له ماقصر فيه مما افترضت عليه من حق ، فهب له ما قصر فيه من حقك واجعل ثوابى عليه ـ يريد ثواب صبره ـ له ، وزدنى من فضلك ، إنى إليك من الراغبين قال ابن خلكان : وكان عمر المذكور يعد من المرجئة ، وتوفى سنة ١٥٥ هـ

وأصله من العَقِّ وهو الشق والقَطْع ، يقال عَقَّ الولَدُ والدَه يعُقّه عقًا وعقوقا ومَعَقَّةً : إذا شَقَّ عصا طاعته ، وعقَّ والدَيه : قطعهما ولم يصل رحمَهُ منهما وقد يُعَمّ بلفظ العقوق جميعُ الرَّحِم ، والولد عاق ، والجمع عَقَقَة ، مِثل كَفَرة » فمن قولهم فى العقوق : العقوقُ ثُكْلُ من لا يَثْكَلُ .. .. « الثكلُ الموت والهلاك ، وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ فى فِقدان الرجل والمرأةِ ولدَهما ، يعنون أنَّ مَن ابتلى بولدٍ عاقٍ فكأنه ثكِلَه » وقال بعضهم لابن له عاقٍ : أنت كالإصْبَعِ الزائدة ، إنْ تُرِكَتْ شانَتْ وإن قُطِعَتْ آذت ... وقيل لأعرابىٍّ كيفَ ابنُكَ ؟ ـ وكان عاقًّا ـ فقال : عَذَابٌ رَعِفَ به الدَّهر ، فَلَيْتَنِي قَدْ أوْدَعْتُهُ الْقبْر ، فإنه بَلَاءٌ لايقاومه الصبر ، وفائدة لايجب فيها الشكر « قوله رعف به الدهر : يريد تقدم به الدهر وعَجِل »

وأورد أبو العباس المبرِّد فى الكامل هذه الأبياتَ لامرأة يقال لها أُمُّ ثواب الهزَّانيّة ، فى ابنها ـ وكان لها عاقاً ـ وقد اختارها أبو تمام فى حماسته :

رَبَّيْتُهُ وهْوَ مِثْلُ الفرْخِ أعْظَمُهُ أُمُّ الطَّعَامِ تَرَى فى رِيشِه زَغَبَا
حَتَّى إذا آضَ كالفُحَّالِ شَذَّبَهُ أبَّارُهُ وَنَفَى عَنْ مَتْنِهِ الكَرَبا
أنْشَا يُخَرِّقُ أثْوَابِى وَيَضْرِبُنِى أبَعْدَ سِتِّينَ عِنْدِى يَبْتَغِى الأدبا
إنِّى لأُبْصِرُ فى تَرْجِيلِ لِمَّتِهِ وخَطِّ لِحيَتِهِ فى وَجْهِهِ عَجَبَا
قالَتْ لهُ عِرْسُهُ يَوْمًا لِتُسْمِعَنِى رِفْقاً فإنَّ لنا فى أُمِّنَا أرَبا
ولوْ رَأتْنِيَ فى نارٍ مُسَعَّرَةٍ مِنَ الجحِيمِ لزَادَتْ فَوْقَهَا حَطَبَا

« هذه أبيات من شعر الفطرة ، تصف فى دِقَّةٍ حالَ الابن العاقّ يكون ضَلْعُهُ وَهَوَاهُ مع زَوْجه على أمِّه ، وكذلك تصف ذلك العداء القديمَ بين الكَنَّةِ

وحَمَاتِها (١) ، وقولها : أعْظَمُهُ أُمّ الطَّعَامِ ، وصف لِلفرخ ، ومعناه : أكبرُ أعضَائِهِ أُمّ الطعامِ : أي معدته ، وكذلك قولها : ترى فى ريشه زغبا : وصف آخر للفرخ ، والزَّغب : أول مايبدو من ريش الفرخ ، تصف ضعف نشأة ابنها ، وآض : صارَ ، والفُحّال : فحال النخل ، أى الذَكَرُ منه ، وأبَّارُه : الذى يصلحه يقال : أبَرْتِ النخل : إذا لقَّحْتَهُ ، وشذَّبه : قطع ماعليه من الكرانيف وهى أصول السَّعف الغلاظ التى إذا يَبِسَتْ صارت أمثال الأكتافِ ، ومتنُه : فمتن كل شىء ماظهر منه ، والكرب : مايبقى من أصول السعف فى النخل تريد : حتى إذا بلغ أشده واستوى طوله ، وأنشا : أصله أنشأ ، تريد : ابتدأ وأقبل ، وقولها : أبعدستين عندى يبتغى الأدبا ، تريد : أن ضربه إياها يريد تأديبها بعد أن بلغت الستين حمقٌ منه وعبثٌ ، إذ من العناءِ رياضة الهَرِم ، وقولها : إنى لأبصر ... البيت ، فاللمة : الشعر الذى يلم بالمنكب ، والترجيل : تسريح الشعر تصفه بالحسن والجمال ، وعِرسه : زوجُهُ ، وأمنا .. أضافتها إلى نفسها خديعة ، وأربا : حاجة ، تريد : لاينبغى لك أن تهينها » . . .

وقيل لرجل أبطأ فى التزوج : لِمَ أبطأت ؟ فقال : أريد أن أسبق أولادى فى اليُتْم قبل أن يسبقونى فى العقوق ...

☆ ☆ ☆

وأورد المبرِّد أيضا عن رجل يسمى أبا المِخَشّ حديثا طريفا قال : قال أبو المِخَشّ : كانت لِيَ ابنة تجلس معى على المائدة فتُبرزُ كفًّا كأنها طَلْعَة ، فى ذراعٍ كأنَّها جُمَّارَة ، فلا تقعُ عَيْنُها على أُكْلَةٍ نفيسةٍ إلَّا خصَّتنى بها

(١) الكنة : امرأة الابن - وامرأة الأخ أيضا - والحماة : أم زوجها ؛ قال الشاعر :

إن الحماة أولعت بالكَنَّهْ وأبت الكَنَّةُ إلا ضِنَّهْ

فزوّجتُها .. وصار يجلس معى على المائدةِ ابنٌ لى ، فيُبرزُ كفًّا كأنَّها كِرْنافَةٌ ، فى ذِراعٍ كأنها كَرَبَة ، فواللهِ إن تَسبِقْ عَيْنى إلى لُقْمةٍ طَيِّبَةٍ إلا سبقت يَدُه إليها ... » الطلعة فى كلام أبى المخَشّ هذا جمعها طَلْع ، وهو نَوْرُ النخلة مادام فى الكافور ، وهو وعاؤه الذى ينشق عنه ، والجمارة : شحمة النخلة التى إذا قطعت قِمّة رأسها ظهرت كأنها قطعة سَنام ، والكرنافة : طرْف الكرْبَةِ العريض الذى يتصل بالنخلة كأنه كتف ، وقوله : إن تسبق عينى فإن نافية بمعنى ما »

* * *

وأورد أبو تمام فى باب الهجاء من حماسته لأحد الشعراءِ أبياتا لها قصةٌ فيها اعتبار لمن أراد أن يعتبر من عَقَقَةِ الأبناء ، وإليك هذه القصة والأبيات :

كان فى زمن عبد الملك بن مروان رجل يُسمّى مُنَازِلَ بنَ فُرْعان ، وكان لِمُنازلٍ هذا ابنٌ يقال له خليج - وهو من رهط الأحنف بن قيس - فعقّ خَلِيجٌ أباهُ مُنازلًا ، فقدَّمه إلى إبراهيمَ بنِ عَربىٍّ ، وَالى اليمامة ، مُسْتَعْدِياً عليه - وقال :

تَظَلَّمَنى حَقِّى خَليجٌ وعَقَّنى ... على حِينَ كانت كالحَنِيِّ عِظامِى (1)

لَعَمْرِى لقد رَبَّيْتُه فرِحاً به ... فلا يفرَحَنْ بَعْدى امْرُؤٌ بغُلام

وكيفَ أُرَجِّى النفع منْهُ وأُمُّهُ ... حَرَامِيّةٌ ؟ ماغَرَّنى بحَرام (2)

ورَجَّيْتُ مِنْهُ الخيرَ حينَ اسْتَزَدْتُه ... وما بعضُ مايَزْدَادُ غيرَ غَرامِ (3)

---

(1) كانت كالحنى عظامى : أى كانت عظامى كالحنى ، وهوجمع حنية ، وهى القوس ، لأنهامحنية ، أى معطوفة

(2) حرامية : نسبة إلى حرام وهى قبيلة

(3) الغرام هنا : العذاب والشر الدائم والبلاء الذى لايستطاع أن يتفصى منه قال تعالى : إن عذابها كان غراما : أى هلا كا دائما ملحا

فأرادَ إبراهيمُ بنُ عَرَبى ضَربَهُ ، فقال : أَصْلَح اللهُ الأمير ، لاتَعْجَلْ علىَّ أتعرف هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا مُنَازِل ابن فُرعان ، الذى عقَّ أباه ، وفيه يقول أبوه :

جَزَتْ رَحِمٌ بَيْنِى وبَيْنَ مُنازِلٍ جَزاءً كما يَسْتَنْزِلُ الدَّيْنَ طالِبُهْ (١)

لَرَبَّيْتُـهُ حتى إذا آضَ شَيْظَماً يَكادُ يُسَاوِى غارِبَ الفَحْلِ غارِبُه (٢)

فلمَّا رَآنى أُبْصِرُ الشَّخْصَ أَشْخُصاً قَرِيبًا وذا الشَّخْصِ البَعيدِ أُقارِبُه (٣)

تَغَمَّدَ حَقِّى ظالِمًا ولَوَى يَدِى لَوَى يَدَهُ اللهُ الّذى هُو غالِبُه (٤)

وكانَ له عِنْدى إذا جاعَ أوْ بَكى مِنَ الزَّادِ أَحْلَى زادِنا وأَطايِبُهْ

ورَبَّيْتُـه حتى إذا ما تَرَكْتُه أَخا القَوْمِ واسْتَغْنَى عنِ المَسْحِ شارِبُه (٥)

وجَمَّعْتُها دُهْمًا جِلادًا كأنها أَشاءُ نَخِيـلٍ لمْ تُقَطَّعْ جَوانِبُهْ (٦)

---

(١) يدعو على ابنه منازل ، وجعل فعل الجزاء للرحم والجازى هو الله سبحانه يقول : جزى الله منازلا على الرحم أى القرابة التى بينى وبينه ـ فقد قطعها ـ جزاءً يستوفى له وعليه ، كما يستنزل صاحب الدين حقه من المدين

(٢) الشيظم : الطويل ، ولربيته : جواب قسم انطوى عليه الكلام ، وربيته وربته وتربيته وربته تربيبا : بمعنى واحد ، وآض : صار ، وأصل الغارب فى الإبل ـ وهو مايكون قدامه السنام ـ : ثم استعير حتى قيل لأعالى كل شىء : غوارب ، يقول : إنه رباه حتى بلغ مبلغ الرجال

(٣) قريبا : حال، والمعنى: أبصر الشخص مقاربا، أى أبصره ـ وأنا قريب منه ـ أشخصا ، وأقاربه : أظنه قريبا ، يقول : لما رآنى شيخا كبيرا ضعف نظره واختلفت مواقع بصارته حتى يرى الشخص القريب منه شخصا ويرى الشخص البعيد منه قريباً

(٤) تغمد حقى : ستره وأخفاه ، وقوله : ولوى يدى : أى فتلها وأزالها عن حالها وهيئتها

(٥) أخا القوم : قال الإمام التبريزى : نصب أخا القوم على الحال من الهاء فى تركته ، وجاز كونه حالا وإن كان معرفة فى اللفظ لأنه لايعنى قوما بأعيانهم وإنما يريد تركته قويا لاحقا بالرجال (٦) وجمعتها : الضمير إلى الخيل وإن لم

فأخْرَجنى منهــا سَليبًا كأنَّنى ... حُسَامُ يمانٍ فارَقتْهُ مَضارِبُهْ (١)
أإنْ أُرْعِشَتْ كَفَّا أبيكَ وأصْبَحتْ ... يَدَاكَ يَدَىْ لَيْثٍ فإنَّكَ ضارِبُهْ (٢)

فقال الوالى : ياهذا ، عَقَقْتَ فَعُقِقْتَ ؛ فما لَكَ مَثَلًا إلا قولُ خالدٍ لِأبى ذُؤَيْب :

فلا تَجْزَعَنْ مِنْ سِيرَةٍ أنْتَ سِرْتَها ... فأوَّلُ رَاضِى سِيرَةٍ مَنْ يَسِيرُها

قال الإمام التبريزى : وذلك أن أبا ذُؤَيب (٣) هذا كان غلاما ، وكان لِرَجُل صديقةٌ ، فكان الرجل يبعث أبا ذؤيب إلى صديقته بالرسائل ، فلما ترعْرَعَ أبو ذؤيب كسَرَها على الصديق - يريد أفسدها وأمالها عنه إليه - ، ولما ترَجَّل أبو ذؤيب - يريد صار رجلا - مُنِعَ منها وحُجِبت عنه وحجب عنها ، فكان يبعث خالدا إليها بالرسائل ، وخالد يومئذ غلام ، فلما ترعرع خالد كسَرَها على أبى ذؤيب ، فقال أبو ذؤيب يعنف المرأة :

تُريدِينَ كَىْ تجْمَعِيــنى وخالدا ... وهل يُجمَعُ السَّيفانِ وَيْحَكِ فى غِمْدِ

وجعل يؤنب خالدا ، فقال خالد :

يذكرها وهذا أسلوب معروف لهم ، ودهما : جمع أدهم ، وهو الأسود ، وجلادا : صلابا ، والأشاء بالفتح والمد : صغار النخل وقيل النخل عامة واحدته أشاءة (١) السليب : الذى سلب ماله ، استعاره من الشجر يسلب ورقه ويعرى منه ، والمضارب : جمع مضرب : حدّ السيف ، يقول : لما جمعت من الخيل الدهم الجلاد ما جمعت وأعددتها لى وله ، عدا علىّ بعد أن ربيته وبلغ مبلغ الرجال وجردنى من الخيل وتركنى سليبا ، فأشبه حالى حال السيف اليمان القاطع تفلل حده (٢) أرعشت كفا أبيك : يريد : أبعد أن كبر أبوك وبلغ من الكبر عتيا وأصبحت أنت شابا قويا ، تجترئ عليه وتهينه وتضربه

(٣) أبو ذؤيب هذا هو الشاعر أبو ذؤيب الهذلى ، وخالد هو ابن أخته ، والمرأة هى امرأة رجل يقال له عبد عمرو بن عامر من بنى عامر بن صعصعة ، انظر أمثال الميدانى فى شرحه هذا المثل « لاتجزعن من سيرة أنت سرتها » .

فلا تَجْزَعَنْ مِن سِيرَةٍ أنتَ سِرتَها ... ... البيتَ

ولأُمَيَّة بن أبي الصَّلْتِ الشاعِر الجاهلي [١] أبياتٌ حسانٌ يشكو فيها هو الآخرُ ابنه الذي عقّه وأساء إليه : وقد اختارها أبو تمام فى حماسته قال :

غَذَوْتُكَ مَوْلودًا وعُلْتُكَ يافِعًا ... تُعَلُّ بمَا أُدْنِي إليْكَ وتُنْهَلُ [٢]

إذا ليْلةٌ نابَتْكَ بالشَّكْوِ لمْ أَبِتْ ... لِشَكْوالَ إلاَّ ساهِرًا أتَمَلْمَلُ [٣]

كأني أنا المَطرُوقُ دونَكَ بالذي ... طُرِقْتَ به دُونِي وعَيْنِيَ تَهْمُلُ [٤]

فلمَّا بلغتَ السنَّ والغايةَ التي ... إليْها مَدَى ما كنتُ فِيكَ أُؤمِّلُ

جَعَلْتَ جزائي مِنْكَ جَبْهًا وغِلْظَةً ... كأنكَ أنتَ المُنعِمُ المُتَفَضلُ [٥]

---

(١) اسمه عبد الله بن ربيعة بن عوف من بنى بكر بن هوازن . وكان ممن حرّم الخمر فى الجاهلية ورفض عبادة الأوثان والتمس الدين وطمع فى النبوة فلما بعث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حسده وقال : إنما كنت أرجو أن أكونه

(٢) وعلتك : من عال عياله يعولهم : كفاهم معاشهم ، ويروى : ومنتك ، من مان أهله يمونهم مونا : أنفق عليهم ، ويافعا : شابا ، من أيفع الغلام مثل أبقل الموضع فهو باقل وأورق النبت فهو وارق وأورس فهو وارس وأقرب فهو قارب : إذا قربت إبله من الماء ليلا ، وكلهن نوادر ، وتعل من عله يعله : سقاه ثانية ، وتنهل من أنهله : سقاه أول سقية ، يريد ، إطعامه وسقيه مرة بعد أخرى

(٣) الشكو : المرض نفسه قاله الليث وأنشد :

أَخِي إنْ تَشَكَّى مِنْ أذًى كنتُ طِبَّهُ ... وإنْ كان ذاكَ الشَّكْوُ بِي فأَخِي طِبِّي

وأتململ : يريد يتقلب على فراشه من غمه عليه . قال اللغويون : إذا نبا بالرجل مضجعه من همّ أو وصب قيل قد تململ ، وأصله أتملل ، من الملة وهى الرماد الحار يدفن فيه الخبز لينضج كأنّ المتقلب على فراشه من الهم يتقلب على تلك الملة

(٤) المطروق من طرقه الهم يطرقه ـ بالضم ـ طرقا : أتاه ونزل به ، مجاز من طرق القوم : جاءهم ليلا ، وتهمل : تسيل وتفيض وقد هملت عينه تهمل ـ بالضم والكسر ـ هملا وهملانا : سالت وفاضت

(٥) جبها مصدر جبهه بالمكروه : استقبله به ، وذلك مجاز من جبهه : صك جبهته . ويروى : جعلت جزائى غلظة وفظاظة

فليتك إذ لم ترع حق أبوتى ... فعلت كما الجار المجاور يفعل (١)
وسميتنى باسم المفند رأيه ... وفى رأيك التفنيد لو كنت تعقل (٢)
تراه معدًّا للخلاف كأنه ... برد على أهل الصواب موكل (٣)

* * *

ومن المستطرف من أقوالهم فى الأولاد المتخلفين: ما يروى أن رجلا بعث ابنه ليشترى حبلا، فقال له: اجعله عشرين ذراعا، فقال الولد: فى عرض كم؟ قال: فى عرض مصيبتى فيك.. وكان لأبى العباس المبرد صاحب الكامل ابن متخلف، فقيل له يوما: غط سوءتك، فوضع يده على رأس ابنه.. وقيل لصبى: لم لا تتعلم الأدب؟ فقال: إنى أخاف أن أكذب والدى، لأنه قال لى: إنك لا تفلح أبدا...

* * *

هذا وكما أن لوالدك عليك حقًّا كذلك لولدك عليك حق: ومما ورد فى ذلك ماجاء فى الحديث: من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه، وأن يعفه إذا بلغ. « أن يحسن أدبه: أن يعنى بتربيته وتهذيبه وتعليمه، وأن يعفه: أى يعمل على أن يكون عفاً عن الحرام فيزوجه »... وقال حكيم من أدب ولده صغيرا، سر به كبيرا، وقالوا: من أدب ولده، أرغم حاسده.

ومن آداب الإسلام: إذا بلغ أولادكم سبع سنين فمروهم بالطهارة والصلاة وإذا بلغوا عشرا فاضربوهم عليها، وإذا بلغوا ثلاثة عشر ففرقوا بينهم فى المضاجع؛ ومن كلامهم: لاعب ابنك سبعا وعلمه سبعا وجالس به إخوانك

---

(١) كما الجار المجاور يفعل: أى كما يراعى الجار حق الجوار من الوفاء به

(٢) المفند رأيه: اسم مفعول من فند رأيه: خطأه (٣) معدا: اسم فاعل، أعد للأمر عدته: هيأه له

سبعا يتبَيَّنْ لك أخلَفٌ هُو بَعدك أمْ خَلْفٌ « الخَلَفُ ـ بفتح اللام : الولد الصالح ، والخلْف ـ بسكونها : الطالح ، تقول : أعطاك الله خلَفاً مما ذهب لك ولا تقل خَلْفًا ، وتقول أنت خَلْفُ سَوْءٍ من أبيك ، هذا هو الأعرف عند أهل اللغة [1] » وقال رجل لأبيه . يا أبت ، إن عَظِيم حَقِّك عَلَيّ لا يُذهِبُ صغيرَ حَقِّي عليك ، وإن الذى تمُتُّ به إلىّ أمُتُّ بمثله إليك ، ولستُ أزْعمُ أنّا على سواء ، ولكن لا يَحِلُّ الاعتداء ...

وقالوا : إنَّ الولَدَ البارَّ أبَرُّ من الوالِد ، لأنَّ بِرَّ الوالدَين طبيعةٌ ، وبِرَّ الولد واجبٌ ، والواجب أبدا ثقيل ، ولعل المتنبي ينظر إلى هذا المعنى إذ يقول :

إنما أنت والدٌ والأبُ القا طعُ أحْنَى من واصِلِ الأولاد

✡ ✡ ✡

ومما يستطرف فى هذا الباب ما يروى من احتجاج بعض العَقَقَة لعقوقهم : فقد قيل لبعض الفلاسفة : لِمَ تَعُقُّ والدَيْكَ ؟ قال : لأنهما أخرجانى إلى الكَوْن والفساد ... وضربَ رَجُلٌ أباهُ ، فقيل له : أما عَرَفْتَ حَقَّهُ ؟ قال : لا ، لأنَّهُ لم يَعرِف حقِّي ، قيل : فما حقُّ الولد على الوالد ؟ قال : أنْ يتَخَيَّر أمَّهُ ، ويُحسِّنَ اسمَه ، ويَختِنَهُ ، ويُعَلِّمَهُ القرآنَ ، ثم كشف عن عَوْرَته فإذا هو أقْلَفُ ـ لم يُختَنْ ـ وقال : أسْمِى بُرْغُوث ... ولا أعلم حَرْفا من القرآن ، وقد استَوْلَدَنى من زَنجيَّةٍ ... فقيل للوالد : احتمله ، فإنك تستأهل ...

---

(١) قال الله عز وجل : فخلف من بعدهم خلْف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وقال لبيد :

ذهب الذين يُعاش فى أكنافهم وبقيت فى خَلْفٍ كجلد الأجْرب

وعيّر رجل ابنه بأمه، فقال الابنُ: هي والله خير لي منك، لأنها أحسنت الاختيارَ فولَدَتني من حُرٍّ، وأنت أسأت الاختيارَ فولَدْتني من أَمَةٍ...

وقال رَجُلٌ لابنه: ماأطيبَ الثُّكْلَ يابُنَيَّ! فقال الابنُ: اليُتْمُ أطيب منه ياأبت! وقيل لبعضِهم: أيُّ ولدك أحبُّ إليك؟ قال: صَغيرُهم حتى يَكْبَر، ومَريضُهم حتى يَبْرَأ، وغائِبُهم حتى يَقْدَم...

«أقولُ: وإنما قال صغيرهم حتى يكبر، لأن كبير الأولاد في العادة قلما يَظْفَرُ من حب أبيه بمثل مايظفَرُ به الصغير، وقد قالوا في ذلك ما يُبين عن السبب، وهو ماروي أن رجلا من العرب رأى بنيه يَثِبون على الخيل وقد تنادَوا بالغارة، فذهب يروم ذلك مرة وثانية فلم يَقْدِرْ؛ فقال: من سَرَّهُ بنوه ساءته نفسه... وفي ضِدِّ هذا المعنى يقول أَكْثَمُ بنُ صَيفي حكيم العرب:

إنَّ بَنِيَّ صِبْيَةٌ صَيفِيُّونْ أفْلَحَ مَن كان له رِبْعِيُّونْ

«يقال أصافَ الرجل يُصيف إصافةً: إذا لم يُولَدْ له حتى يُسِنَّ ويَكْبَرَ وأولادُه صَيفِيُّون، والواحد صَيفِيٌّ، والرِّبْعِيُّون: الذين وُلِدُوا في حداثته وأوّل شبابه، ولمّا حضرتْ سليمانَ بنَ عبد الملكِ الوفاةُ تمثَّلَ بهذا البيت لأنَّه لم يكن في أبنائه من يُقلِّدُه العهدَ بعدَه، ومعنى ذلك عندهم: أنَّ الأولادَ الكبار أفضلُ من الصغارِ لَدَى الوالدِ، ولا سيما إذا كَبِرَ. وهذا على نقيض قولِ القائل: من سرَّه بَنُوهُ ساءتْهُ نفسُه، وإن كان لكلٍّ وِجهة هو مولِّيها»

✿ ✿ ✿

وناول عمرُ بن الخطاب رجُلاً شيئا فقال له: خَدَمَك بنوك، فقال عمر: بل أغنانا اللهُ عنْهُم.

وكان يقال : ابنُك رَيْحانُك سَبْعًا ، وخادمُكَ سبعًا ثم عدوٌّ أو صديقٌ ...

وفي الأثرِ : ريحُ الولدِ من ريحِ الجَنَّة ...

وكان رسول الله يُقبِّل الحسنَ بنَ عَليّ رضي الله عنه - وهو حفيد المصطفى - يوما ، فقال الأقرعُ بنُ حابس : إنَّ لي عشرةً من الأولاد ماقبَّلت واحدا منهم ، فقال رسول الله : فما أصنع إن كان الله نَزَعَ الرحمةَ من قلبك !

ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا مات الرجل انقطع عمله ، إلا من ثلاث : صَدَقةٍ جارية ، أو عِلمٍ يُنتفع به ، أو وَلدٍ صالحٍ يدعو له.

وقالوا : خيرُ ما أُعطيَ الرجلُ بعدَ الصحة والأمن والعقل وَلدٌ مُوافِقٌ من زوجةٍ موافقةٍ ، ومُتْعةُ العَيْش بين الأهلِ والولدِ .

وكانت العَرَبُ تُسمِّي مَنْ لاوَلَدَ له صُنْبُورًا ، والصُّنبورُ في اللُّغةِ : الأبْترُ لاعَقِبَ له ولا أَخ ، فإذا مات انقطع ذِكْرُه وكان كُفّارُ قُرَيْشٍ يُطلِقون على رسول الله : صُنبورا ، فأنزل اللهُ : إنَّ شانِئَكَ هُو الأبْترُ « شانئك : مبغضك ، والأبتر الذي لاعقب له »...

وقال حكيم في مَيِّت : إن كان له ولد فهو حَيٌّ وإن لم يكن له ولَدٌ فهو ميِّتٌ

ومن أمثال العرب : آبْنُكَ ابنُ بُوحِكَ « أي ابنُ نَفْسِك لامن تَبنَّيْتَه » ومثله : وَلَدُكِ مَنْ دَمَّى عَقِبَيْكِ « يعنون : الذي نَفِسْتِ به فأدمى النِّفاسُ عقبيكِ ، أي : ابنك من ولدته لا من تبنيته » وقيل لحكيم : ما السَّعادة ؟ قال : أن يكون للرجل ابنٌ واحدٌ ، فقيل له : الواحد يُخشى عليه الموتُ ! قال : لِمْ تسألوني عن الشقاوة...

* * *

وهناك فريقٌ من الناس يَذهبون إلى ذمِّ الولد وقلة جَدْواه : ومما يروى فى هذا الباب أنه قِيلَ لبعض الزهّادِ : هَلاَّ تزوَّجْت ؟ فربما يكون لك خَلَفٌ ؟ فقال : كفى بالتزهيد فيه قوله تعالى : إنَّما أَمْوالُكُمْ وأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ؛ وقوله سبحانه وتعالى : إنَّ مِنْ أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكُمْ فاحْذَرُوهُم ... وقالوا : قِلّةُ العيالِ أحدُ اليَسارَيْنِ ، وقال المتنبي :

وما الدَّهْرُ أهلٌ أن يُؤَمَّلَ عنْده حيَاةٌ وأن يُشْتاقَ فيه إلى النَّسْلِ
هَلِ الْوَلَدُ المحبُوبُ إلاَّ تَعِلَّةٌ وهلْ خَلْوَةُ الحَسْناءِ إلا أذَى البَعْلِ (١)
وقد ذُقْتُ حَلْوَاءَ البنينَ على الصِّبا فلا تَحْسَبَنِّى قلتُ ما قلت عن جَهْلِ

وقال المعرِّى ـ وهو إمام الساخطين ، « أو المتشائمين كما يقولون اليوم » ـ :

أرَى وُلْدَ الفتى عِبْئًا عليه لقدْ سَعِدَ الذى أضْحَى عَقيمَا
فإمّا أنْ يُرَبِّيَهُ عدُوًّا وإمّا أنْ يُخلِّفَهُ يَتيمَا
وَإمّا أنْ يُصادِفَهُ حِمَامٌ فيبقى حُزْنُه أَبَدا مُقيمَا

وبُشِّر الحسنُ البَصرىُّ بابنٍ فقال : لامرحبا بمَن إن كنت غَنِيا أذهَلَنِى ، وإن كنتُ فقيرا أتعبنى ، لا أرضى كَدِّى له كدًّا ، ولا سَعْيِي له فى الحياة سَعْيا ، أهْتمُّ بفقْرِه بعد وفاتى ، حين لا ينالنى به سرور ، ولا يُهِمُّه لى حُزْن ، وأصحَر الحسن يوما ـ أى ذهب إلى الصحراء ـ فرأى صيَّادا فقال : ما أكثرُ

(١) تعلة : يقال : فلان يعلل نفسه بتعلة : أى لهاها به كما يعلل الصبى بشىء من الطعام يتجزأ به عن اللبن . يقول : إن السرور بالولد المحبوب لايدوم وإنما هو تعليل إلى وقت ، ثم قال : وخلوتك بامرأتك أذى لك فى الحقيقة لأنها تجلب لك ولداً تغتم من أجله وتتأذى بتربيته وربما كانت العاقبة إلى الثكل

ما يقَعُ فى شبكتِك ؟ قال : كلُّ طيرٍ زَاقٍ « أى يَزُقُّ أفراخه أى يُطْعمها بفيه » فقال الحسن : هلك المُعِيلون « أى الذين لهم عيال كُثْر »

وقال المصطفى صلى الله عليه وسلم لأحد ابنَىْ بِنْتِه : إنكم لتُجَبِّنُون وإنكم لتُبَخِّلُون وإنكم لَمِنْ رَيْحانِ الله ، وفى الحديث أيضا : الولدُ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلةٌ مَبْخَلةٌ .. «يقولُ عليه السلام : إنَّ الْوَلدَ يَحْمِلُ أباهُ على الجُبْنِ ، فلا يُجاهِدُ ولا يَشجُع ، لأنَّه يُحبُّ البقاءَ لأجْلِه ، وعلى الجَهلِ ، بملاعَبتِه إيَّاه ونُزُولِه إلى مُسْتواه ، وتركِه العقْلَ ومُقْتضاه ، أو باشتغاله به عن طلب العلم ، وعلى البُخلِ ، لأنَّه يُبقِى على المالِ لأجْلِه ويَبْخَلُ به ويَشِحُّ » ..

✡ ✡ ✡

ومن أحسن ماقيل فى الإشفاق على الأولاد : قولُ حِطَّانَ بن المُعَلَّى ـ وهو شاعرٌ إسلامى ، وأبياته هذه فى الحماسة ـ :

أنْزَلَنى الدَّهْــرُ على حُكْمِهِ مِنْ شامِخٍ عالٍ إلى خَفْضِ
وغالَنى الدَّهْـرُ بِوَفْرِ الغِنى فليْسَ لى مالٌ سِوَى عِرْضِى
أبكانِىَ الدَّهْــرُ ويا رُبَّمَا أضحَكَنى الدَّهْــرُ بما يُرْضِى
لولا بُنَيَّاتٌ كزُغْبِ القَطا رُدِدْنَ من بعْضٍ إلى بعضِ
لَكانَ لى مُضْطَــرَبٌ واسِعٌ فى الأرْضِ ذاتِ الطُّولِ والعَرْضِ
وإنمــا أوْلادُنا بَيْنَنـــا أكْبادُنا تَمْشى على الأرْضِ
لو هَبَّتِ الرِّيحُ على بَعْضِهِمْ لامْتنعت عَيْنى مِن الغُمْضِ

« أنزلنى الدهر على حكمه : أنزله من العزة إلى الذلة يحكم فيه بما شاء » ومن شامخ : من جبل شاهق طويل فى السماء ، وإلى خفض : إلى مطمئن من الأرض ، وهذا تمثيل . وغالنى الدهر : أخذه غيلة من حيث لم يدر ، وبوفر

الغنى : يريد : فى كثرة ماله ، وقوله : فليس لى مال سوى عرضى يريد : لم يبق له الدهر شيئا إلا أتى عليه سوى عرضه فلم ينتقصه . والعرض : قال ابن الأثير : موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان فى نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره ، وقيل : هو جانبه الذى يصونه من نفسه وحسبه ويحامى عنه أن يُنتقص ويُثلَب ، وقال أبو العباس ثعلب : إذا ذكر عرض فلان فمعناه أموره التى يرتفع أو يسقط من جهتها بحمد أو بذم ، فيجوز أن تكون أمورا يوصف هو بها دون أسلافه ويجوز أن تذكر أسلافه لتلحقه النقيصة بعيبهم وقول الشاعر :

* وأُدْرِكُ مَيسورَ الغِنَى ومعِى عِرضى * أى أفعالى الجميلة

وقوله : بما يرضى : أى أضحكنى أحيانا بما يرضينى . وقوله : كزغب القطا : واحدتها زغباء والذكر أزغب والمصدر الزغب ، وهو أوّل مايبدو من ريش الفرخ ، وكذا من شعَر الصبى ، وقوله : رُدِدْن من بعض إلى بعض : تصوير لهيئة تداخل الأفراخ وانضمام بعضهن إلى بعض أوّل نشأتهن ، يصف بناتِه بأنهن ضعاف لا يستطعن القيام بشُئُونِهِنّ . ومضطرَب : أى اضطراب ، أى تحرك . وأكبادنا : تمثيل لمعنى الشفقة عليهن ، وقد بينها بقوله : لو هبت الريح ... البيت ... والغمض بضم الغين : النوم »

* * *

ويقول إسحاق بن خلف[1] ـ من شعراء الدولة العباسية ـ فى بنت أخت له

(١) ترجم له صاحب الأغانى وإسحق هذا هو الذى يقول فى صفة السيف :

أَلْـقَى بجَانِب خَصْره أمضى من الأجل المتاحْ
وكأنمــا ذرّ الهبا ءَ عليه أنفاسُ الرياحْ =

تسمى أميمة كان حدبا عليها كلِفًا بها ، وهى من أبيات الحماسة :

لولا أُمَيْمَةُ لم أَجْزَعْ من العَدَمِ ولم أقاسِ الدُّجى فى حِنْدِسِ الظُّلَمِ
وزادنى رَغْبَةً فى العَيْشِ مَعْرِفتى ذُلَّ اليتيمةِ يَجفُوها ذَوُو الرَّحِمِ
أُحاذِرُ الفَقْرَ يوْما أنْ يُلِمَّ بها فيَهْتِكَ السِّتْرَ عن لَحْمٍ على وَضَمِ
تَهْوَى حَياتى. وأهْوَى مَوْتَها شَفَقًا
والْمَوْتُ أَكْرَمُ نَزَّال على الْحُرَمِ
أخْشَى فَظَاظَةَ عَمٍّ أوْ جَفَاءَ أَخ
وَكُنْتُ أُبْقِى عَلَيْهَا مِنْ أذَى الكَلِمِ

« العَدَم : الفقر ، وقوله : فيهتك الستر ، فالهتك : جذبك السِّتْر تقطعه من موضعه أو تشق منه جزءا فيبدو ماوراءه ، وإسناده إلى الفقر مجاز ، وقوله عن لحم على وضم ، فالوضم : ماوضع عليه اللحم من خشب ونحوه ، وكانت العرب فى باديتها إذا نُحر بعير لِلحَىّ يقتسمونه ، تقلع شجراً وتضع عليه اللحم مُقطّعاً يأخذ منه كل شريك قَسْمَهُ ولم يَعْرِضْ له أحد ، وكانت تضرب المثل فى

= وهو الذى يقول فى مدح العربية من أبيات :

النحو يبسط من لسان الألكن والمَرْءُ تُكْرِمُه إذا لم يَلحَن

قال المبرد : وأحسبه أخذ قوله : والمرء تكرمه إذا لم يلحن من حديث حدثنا به عن الأصمعى قال : كان يقال : ثلاثة يحكم لهم بالنبل لايدرى من هم : رجل رأيته راكبا فى شارة حسنة ، أو سمعته يعرب ، أو شممت منه طيبا . وثلاثة يحكم عليهم بالاستصغار حتى يدرى من هم : رجل شممت منه رائحة نبيذ فى محفل ، أو سمعته فى مصر عربى يتكلم بالفارسية ـ أو الفرنسية أو الانكليزية أو غيرهما من اللغات ـ ورجل رأيته على ظهر طريق ينازع فى القدر . . ماأطيب هــذا الكلام وأسماه وأليقه بأخلاق السادة .

ضعف النساء وقلة امتناعهن على طُلّابهن إلّا أنْ يُذادَ عنهن ، بذلك اللحم مادام مع الوضم.
وقوله : شفقا ، أى خيفة ، وقد شفق يشفق ـ بالفتح ـ وأشفق عليه يُشفِق : خاف ، وقوله : والموت أكرم نَزّالٍ على الحُرَم ؛ فالحرم ، جمع حُرمة ، وهى عيال الرجل ونساؤه ، يريد : أن الموتَ أكرمُ ضيف ينزل عليهن ، وفى هذا المعنى قولهم .. دَفْنُ البنات ، من المَكْرُمات ، وسيمر عليك كلامهم فى هذا المعنى فى باب النساء ، وقوله : وكنت أبقى عليها : من أبقيت عليه : إذا أرعيتَ عليه ورحمته »... وقال عِمرانُ بنُ حِطّان ــ وقد كانَ رأسَ القَعَدِ من الصُّفْرِية « طائفة من الخوارج » وكان خطيبَهم وشاعرَهم ، وهو من التابعين ـ :

لقدْ زادَ الحياةَ إلىَّ حُبًّا بَنَاتِى أنَّهُنَّ من الضِّعَافِ
مَخافَةَ أنْ يَرَيْنَ البُؤْسَ بَعْدِى وأنْ يَشْرَبْنَ رَنْقًا بَعْدَ صافِ
وأنْ يَعْرَيْنَ إنْ كُسِىَ الجَوَارِى فَتَنْبُو العَيْنُ عَنْ كَرَمٍ عِجَافِ
ولولا ذاكَ قد سَوَّمْتُ مُهرِى وفى الرحمن لِلضُّعَفاءِ كافِ
أبانا مَنْ لنا إنْ غِبْتَ عَنَّا وصارَ الحَىُّ بعدكَ فى اختلافِ

« الرنق : الماء الكدر ، وكرم : قال ابن سيده وغيره : رَجُلٌ كَرَم : أى كريم ، وكذلك الاثنان والجمع والمؤنث تقول : امرأة كرم ونسوة كرم لأنه وصف بالمصدر ، وعجاف : جمع عجفاء على غير قياس ، والعجف : الهزال وسوّمت مهرى : فالخيل المسوّمة : المرسلة وعليها ركبانها ، وفى التنزيل العزيز : والخيلِ المسوَّمة ، من قولك سوّمْت فلانا إذا خلّيته وسَوْمَه ، أى : وما يريد ، وقيل الخيل المسوّمة : هى التى عليها السمة والسومة وهى العلامة »

وقال شاعر جاهلى يمتدح ابنه لِبِرِّه به ، وهى من أبيات الحماسة :

رأيتُ رِبَاطًا حينَ تَمّ شَبَابُهُ وولّى شبابى ليسَ فى بِرِّه عَتْبُ
إذا كانَ أولادُ الرجالِ حَزَازَةً فأنتَ الحلالُ الحُلْوُ والبارِدُ العَذْبُ

لنا جانبٌ منه دَميثٌ وجانبٌ إذا رَامَهُ الأعداءُ مُمْتَنِعٌ صَعْبُ
وتأخُذُهُ عند المكارِمِ هِزَّةٌ كما اهْتَزَّ تحتَ البارِحِ الغُصْنُ الرَّطْبُ

« قوله ليس فى بِرِّهِ عَتْبُ : يريد ليس فى بره لَوْمٌ ولاسخط ، وقوله : إذا كان أولاد الرجال حزازةً ، فالحزازة : وجع فى القلب من غيظ ونحوه والجمع حزازات ، وتروى : إذا كان أولاد الرجال مرارةً ، وهى الأنسبُ بقوله فأنت الحلال الحُلْو ، يكنى به عن الرجل الذى لا ريبة فيه ، على المَثَل بالحُلْوِ الحلال مما يُذاق ، يصف طيب أخلاقه ، وقوله : دميث : أى سهل ليِّن ، والبارح : الريح تهب من الشمال فى الصيف خاصة »

وقال عمرو بن شأس ـ وهو شاعر فارس شهد مع سيدنا رسول الله الحديبيةَ وكانت امرأتة تُؤْذى ابنَه عِراراً ـ وكان من أمَة سَوداءَ ـ تُعَيِّرُه بالسواد وتَشْتُمُهُ ، فلما أعْيَتْ أباه عمراً أنشأ كلمة عدتها عشرون بيتا اختار منها أبو تمام هذه الأبيات :

أرادت عِراراً بالْهَوَانِ ومَنْ يُرِدْ عِرَارًا لَعَمْرى بالْهوانِ فقد ظَلَمْ
فإن كنتِ منِّى أو تُرِيدينَ صُحْبتى فكونى له كالسَّمْنِ رُبَّ له الأَدَمْ
وإنْ كُنتِ تَهْوِينَ الْفِرَاقَ ظَعِينَتى فكونى له كالذِّئْبِ ضاعَتْ له الغَنَمْ
وإلَّا فَسِيرِى مِثْلَ ماسار راكبٌ تجشَّمَ خِمسًا ليس فى سَيْرِهِ يَتَمْ
وإنَّ عِراراً إن يكُنْ ذا شَكِيمَةٍ تُقاسِينَها مِنه فما أَمْلِكُ الشِّيَم
وإنَّ عرارًا إنْ يَكُنْ غيرَ واضحٍ فإنى أُحبُّ الجَوْنَ ذا المَنْكِب العَمَمْ

«قوله: فإن كنت منى: نقل الكلام من الإخبار إلى الخطاب ومعنى فإن كنت منى: وإن كنت توافقيننى، من قولهم فلان منَّا . أى: يوافقنا . وقال المرصفى : معناه : فإن كنت مثل نفسى سيدة ، وقوله أو تريدين صحبتى: أى أو تكونين مثل غيرك فى المعيشة لا حظ

لها فى السيادة ، وقوله : فكونى له كالسمن : أى كونى له كالسمن الذى لا يتغير ، والرب : خلاصة التمر بعد طبخه وعصره ، والأدم : اسم جمع الأديم وهو الجلد المدبوغ ، يريد الأسقية التى يجعل فيها الرب . وكانت العرب تدهن وعاء السمن بالرب لتمنع فساده ويزيد فى طيب ريحه ، فقوله : رُبَّ له الأدم : أى جُعل فيه الرب لئلا يفسد ، وقوله وإن كنت تهوين الخ يقول : وإن كنت تؤثرين مفارقتى مصممة على ذلك فكونى له ذئبا أهملت له الغنم يعيث فيها ، ويقال لزوج الرجل : ظعينة ، وهى مقيمة ، والأصل فى الظعينة المرأة فى هودجها وهى سائرة ، وقوله : وإلا فسيرى الخ ، فالخِمْسُ : فلاةٌ بَعُدَ ماؤها حتى إن الإبل لَتَرِدُهُ فى اليوم الرابع سوى اليوم الذى شربت فيه وصدرت ، والتيم : الفتور والتقصير والإبطاء ، يقول : وإلا فارقينى وسيرى سير راكب تكلف ورود الماء للخمس ، وقوله : وإن عرارا ... البيت ، فالشكيمة : شدة النفس وإباؤها ، والشيمة : الخليقة ، وكان عِرار هذا حديدَ القلب ذَرِبَ اللسان ، يقول : لا أقدر على تغيير خلقه ، فإما أن تلائميه على ما تقاسينه من حدّته ، وإما أن تفارقينى فإنه أحب إلىّ منك ، وقوله غير واضح : أى غير أبيض : مستعار من وضح الصبح وهو بياضه ، والجون هنا : الأسود المشرب حمرة ، والمنكب : مجتمع عظم العضد والكتف ، يصفه بالقوة والشدة ، والعمم : التام ، قالوا : كان عرار هذا أحد فصحاء العقلاء ، توجه عن المهلب بن أبى صفرة إلى الحجّاج رسولا فى بعض فتوحه ، فلما مَثَلَ بين يدَىِ الحجّاج لم يعرفه وازدراه ، فلما استنطقه أبان وأعرب ماشاء وبلغ الغايةَ والمرادَ فى كل ما سأل ، فأنشد الحجاجُ متمثلا :

أرادت عِرارا بالهوان ومن يُرِدْ عرارا لعمرى بالهوان فقد ظلم

فقال عرار : أنا ـ أيد الله الأمير ـ عرار ، فأُعْجِبَ به وبذلك الاتفاق .

* * *

صلة الرحم : « وبعد » فلنورد بعض ماقالوا فى صلة الرحم ، والرحم فى الأصل : موضع تكوين الولد ، ثم سميت القرابة رحما ، فالرحم : خلاف الأجنبى ، وقال ابن الأثير : ذَوو الرحم : هم الأقارب ، ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب ـ قرابة ـ ويطلق فى الفرائض ـ علم المواريث ـ على الأقارب من جهة النساء . ويقال : رَحِم ورَحْم ورِحْم ، وهى مؤنثة ، قال زهير بن أبى سُلْمى :

خُذُوا حَظَّكُمْ يا آلَ عِكْرِمَ واذكرُوا
أواصِرَنا والرَّحْمُ بالْغَيْبِ تُذْكَرُ [(١)]

ومما ورد فى صلة الرحم : قوله جل شأنه : واتقوا الله الذى تَساءَلُونَ به والأرحامَ « أى واتقوا الأرحام أن تقطعوها ، وفى قراءة : والأرحامِ بالخفض ، وإذن يكون المعنى : تساءلون به وبالأرحام ، وهو قولهم : نشدتك بالله وبالرحم . . . » ، وقال صلى الله عليه وسلم : الرحم شُجْنَةٌ من الله ـ وفى رواية : من الرحمن ـ معلَّقَةٌ بالعرش تقول اللّهُم صِلْ مَنْ وَصَلَنى واقطعْ مَنْ قَطَعَنى ... » قال الجوهرى : الشجنة بالضم والفتح والكسر : عروق الشجر المشتبكة ، و : بينى وبينه شجنة رحم : أى قرابة مشتبكة ، ومن ذا قولهم : الحديث ذو شجون : أى ذو شُعَبٍ وامتساكِ بَعضُه ببعض ، وعبارة أبى عبيدة فى تفسير هذا الحديث : شجنة من الله : أى قرابة من الله مشتبكة كاشتباك العروق ، شبهه بذلك مجازاً واتساعا ، وأصل الشجنة . شعبة من غصن

---

(١) من أبيات جميلة تراها فى خزانة البغدادى ج ٢ ص ٢٨٧ « طبعة السلفية »

من غصون الشجر ثم استعمل اتساعا فى الرحم المشتبكة » وقال عبد الله بن أبى أَوْفَى: كُنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال: لا يجالسنا قاطعُ رَحِمٍ ، فقام شاب ، فأتى خالةً له ، ـ وكان بينه وبينها شىء ـ فأخبرها بقول النبى صلى الله عليه وسلم ، فاستغفرت له واستغفر لها ، ثم رجع والنبى صلى الله عليه وسلم فى مجلسه فأخبره ، فقال النبى : إن الرحمة لا تنزل على قاطع رحم . وفى الحديث : من أحبَّ أن يُبْسَطَ له فى رِزْقِه ، ويُنْسَأ له فى أجَلِه ، فلْيَصِلْ رَحِمَه « يُنسأ : يؤخر ومنه الحديث . صلة الرحم مَثْرَاةٌ فى المال مَنْسَأة فى الأثر . منسأة : مفعلة من النَّسْءِ أى مَظِنَّة له وموضع ، والأثر : الأجل ، وفى الحديث : لا تستنسؤا الشيطان أى إذا أردتم عملا صالحا فلا تؤخروه إلى غد ولا تستمهلوا الشيطان ، يريد : أنّ ذلك مُهْلة مُسَوَّلةٌ من الشيطان . ولعل المراد من تبسيط الرزق ومد العمر : البركة والخير والسعادة ورفاغة العيش ، وللعلماء فى ذلك كلام كثير راجعه فى المطوَّلات » . . .

✡ ✡ ✡

وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم : مَنْ كان منهم يؤثر أقرباءه بالولايات والعِمَالات وإسناد أمور الدولة إليهم ، فإنما كان ذلك ـ بعد كفاية الأقرباء واستحقاقهم ـ للبر صِرْفًا ، أى امتثالا لأمر الله فى وجوب صلة الرحم ، ومن كان منهم يؤثر الأجانب ويُقْصِى الأقاربَ ويَحرِمُهم أعمالَ الدولة . فإنما كان ذلك للبر أيضا ، إذ كان ذلك إمعانا فى التورع والتأثم وتركًا لما يَريب إلى ما لا يَريب . . . وفى ذلك يقول الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه : كان عمر يمنعُ أقرباءَه ابتغاءَ وجهِ الله ، وأنا أُعطِى قراباتى لوجه الله ، ولن يُرَى مثلُ عُمَرَ . . . فتأمل قوله : ولن يُرى مثل عُمَر . . . أى لن يبلغ إنسان مبلغه فى

الحزم والسياسة الرشيدة وضبطِ النفس أنْ تسترسل مع ما يُشبه الهوى . . .
يعنى أنّ عُمرَ أفضلُ منى ، رضى الله عن الجميع . .

* * *

ومما يروى فى معنى حث الأقارب على التعاون : أنّ أكْثَمَ بنَ صَيْفِيّ حكيمَ العرب دعا أولاده عند موته ، فاستدعى بِضِمامَةٍ من السهام « أى حُزمةٍ منها ، لغة فى الإضمامة » وتقدم إلى كل واحد أن يَكْسِرهَا ، فلم يقدر واحد على كسرها ، ثم بدّدها وتقدم إليهم أن يكسروها ، فاستسهلوا كسرها ، فقال : كونوا مجتمعين ، لِيَعْجِزَ من ناوأكم « أى عاداكم » عن كَسْرِكُمْ ، لعجزكم . . .
وقال الشاعر فى هذا المعنى :

إنّ القِداحَ إذا اجتمعْنَ فرامَها ... بالكسر ذو حَرْدٍ وبَطْشٍ أيِّدِ [1]
عَزّتْ فلَمْ تُكْسَرْ ، وإن هِيَ بُدّدَتْ ... فالوَهْنُ والتكسيرُ لِلْمُتَبَدِّدِ

وقال آخر فى هذا المعنى :

إذا ما أراد الله ذُلّ قبيلة ... رَماها بتشتيت الهوى والتخاذل

« وهذا كما يقال فى الأقارب يقال فى كل جماعة بينهم لُحْمَةٌ تجمعهم ، من وطن وغير وطن » ومما يروى : أن رجلا من العرب قتل ابنَ أخيه ، فدُفع إلى أخيه ليقتادَ منه فلما أهوى بالسيف أُرْعِدَت يداهُ ، فألْقَى السيف من يده وعَفَا عنه ، وقال : ـ والبيتان فى الحماسة ـ :

---

(١) الحرد بتسكين الراء وبفتحها لغتان : الغضب والغيظ ، قال الأشهب ابن رُمَيلَةَ :

أُسودُ شَرًى لاقت أسودَ خفِيّةٍ ... تَساقَوا على حَرْدٍ دماءَ الأساود

والأيد : القوى

أقولُ لِلنفسِ تَأساءً وتَعزِيةً إحدَى يَدَىَّ أصابَتْنى ولم تُرِدِ [١]

كِلاهُما خَلَفٌ من فَقْدِ صاحبه هذا أخى حينَ أدْعُوهُ وذا وَلَدِى [٢]

وفى مثل هذا المعنى يقول الحارث بن وَعْلة الذُّهلى ـ وهى من أبيات الحماسة ـ:

قَوْمِى هُمُ قتَلوا، أُمَيْمَ، أخى فإذا رَمَيْتُ يُصِيبُنى سَهمِى

فلَئِنْ عَفَوْتُ لأعفُوَنْ جَلَلاً ولئنْ سَطوْتُ لأُوهِنَنْ عَظْمى

لا تأمَنَنْ قومًا ظَلَمْتَهُمُ وبَدأْتَهُمْ بالشَّتْمِ والرَّغْمِ

أنْ يأبِرُوا نخْلًا لِغَيْرِهم والشيءُ تَحْقِرُه وقدْ يَنْمِى

وزَعَمْتُمُ أنْ لاحُلومَ لنا إنّ العصا قُرِعَتْ لذِى الحِلْمِ

ووَطِئْتَنا وطْأً على حَنَقٍ وَطْأَ المُقَيَّدِ نابِتَ الهَرْمِ

وتَرَكْتَنا لَحْمًا على وَضَمٍ لوكنتَ تَسْتَبْقى من اللَّحْمِ

« يقول فى البيت الأول : قَوْمِى ـ ياأميمة ـ هم الذين فَجَعُونى بأخى ووَتَرُونى فيه ، فإذا حاولت الانتصارَ منهم عاد ذلك بالنكاية فى نفسِى ، لأن عِزّ الرجل بعشيرته . وهذا الكلام تحزُّن وتفجُّع وليس بإخبار . وقوله : فلئن عفوت ... البيت . يقول : إن تركتُ طلب الانتقام منهم صفحتُ عن أمرٍ عظيم . وإن انتقمتُ منهم أوهَنتُ عَظْمى : أى أضعَفْتُه ، ويقال :

(١) تأساء : تفعال من الأسوة ، يقول : أعزى النفس عنه متأسيا بغيرى ممن قتل ولده، وقوله إحدى يدى: مبتدأ، وأصابتنى خبر، ولم ترد: فى موضع الحال، والجملة فى موضع نصب على أنه مفعول لقوله أقول

(٢) يقول: كل واحد من الأخ الواتر والابن المفقود يصاح لأن يرضى به عوضا من فقدان الآخر

عفوت عن الذنب : إذا صفحت عنه ، والسطو : الأخذ بعنف ، والجلل : من الأضدادِ : يكون الصغيرَ ويكون العظيمَ ، وهو المراد ههنا . وقوله : لاتأمَنَنْ قوما ... البيتين ، حوَّل الكلام عن الإخبار إلى الخطاب مُتَوَعِّدًا ، والرغم : مصدر رغمت فلانا : إذا فعلت به ما يُرغِمُ أنفَه ويُذِلُّه ، وقوله : أن يأبروا : فى موضع نصب على البدل من قوما فى البيت الذى قبله ، كأنه قال : لاتأمَن أبْرَ قومٍ ظلمتهم نخلا لغيرهم ، يقال : أبَرْتُ النخل وأبَّرْته : إذا لقَّحتَه . يقول : إذا ظلمت قوما فلا تأمنهم أن ينتقموا منك فتشتفى أعداؤك منك ، فتكون كمن أصلح أمر غيره ، وقال بعضهم : المعنى : إن ظلمتونا تحوَّلْنا عنكم ، فلا يكون لكم بَعدنا مُقامٌ - إقامة - فتتحولون أو يَملِكُكم العدوُّ ، فيكون ماأبَّرْنا نحن وأنتم ، لهم دوننا ودونكم ، وقال أبو العلاء المعرى : قد اختلف فى معنى هذا البيت ، فقيل : أراد أنه يُفارِقهم ويَهبِط هو وقومُه أرضا ذات نخل كان لغيرهم فيدفعونهم عنه ويأبِرُونه ، كأنه يتهدَّدُهم بترحُّله عنهم ، لأن ذلك يؤديهم إلى الذُّل ، واستدلوا على هذا الوجه بقوله فى القصيدة :

قوِّض خِيامَكَ والتَمِسْ بلَدًا يَنْأى عن الغَاشِيكَ بالظُّلم

وقيل : بل يريد أنه يحاربهم فيصلحهم لغيره فيجعلهم كالنخل التى قد أبرت ، إذ كان عَدُوُّهم ينال غرضه منهم إذا أعانه عليهم ، وقيل : بل عَنَى أنه يَسْبِي نساءهم فتوطأ فيكون ذلك كالإبار الذى هو تلقيح النخل . قال التبريزى : وهذا الوجه أشبه بمذهب العرب مما تقدم ، لأنهم يَكنون عن النخلةِ بالمرأة . وقوله : وزَعمتم أن لاحلوم لنا : فأكثر مايستعمل الزعم فيما كان باطلا أو فيه ارتياب ، والحلوم : العقول ، وقرع العصا : كناية عن التنبيه ،

واختلف فى أولِ من قُرعت له العصا ، فقيـل عمرو بن الظرب العَدْوانى وقيل عمرو بن جُمَمَة الدوسى ، وخبرهما : أن كل واحد منهما كان حَكَماً للعرب يتحاكمون إليـه فى كل مُعْضلة ، قالوا : إن العرب أتَوْا عمرو بن حُمَمَة يتحاكمون إليه ، فغَلِطَ فى حكومته ـ وكان قد أسَنّ ـ فقالت له ابنتُه : إنك قـد صِرْتَ تَهِمُ فى حكومتك ـ أى تغلط ـ فقال : إذا رأيتِ ذلك منى فاقْرَعِى العصا ، فكان إذا قرعت له العصا فَطِن . يقول : زعمتم أنه لاعقول لنا وأننا سفهاء ، فإن كان الأمر على ما زعمتم فنبهونا أنتم ، وهذا تهكم من الشاعر بهم ، وقوله : ووَطِئتَنا ... ألبيت ، فالحنق : الغيظ ، والهَرْم : شجـر ، أو البَقْلة الحمقاءُ ـ هى التى تُسمَّى الرِّجْـلَة ـ ، أو ضَرْبٌ من الحَمْض فيه مُلوحَةٌ وهو أذله وأشده انبساطا على الأرض واستبطاحا ... وفى المثـل : أذل من الهَرمة ، يقول : وأثّرتَ فينا تأثير الحنِق الغضبان كما يؤثّر البعير المُقَيَّد إذا وَطِئَ هذا النبت الضعيفَ ، وخَصَّ المقيد لأن وطأته أثقل ، لأنه لايتمكن من وضع قوائمه على حسب إرادته . كما خص الحنق لأن إبقاءه أقل . ومن قول العرب : أعوذ بالله من وطأة الذليل ، أى من أن يطأنى ، لأن وطأته أشد لسوء مَلَكَته ، كما قال امرؤ القيس :

فإنك لم يَفْخَرْ عليكَ كفاخرٍ ضعيفٍ ولم يَغْلِبْكَ مثلُ مُغَلَّبِ

وخص النابتَ وأراد : الحديثَ النباتِ ، وهو أغضُّ له وأرق ، ويروى : يابِسَ الهَرْمِ ، وقوله وتركتنا لحما على وضم : فالوضم : الخشبة التى يَضَعُ الجزارُ اللحمَ عليها يُوَقّى بها اللحمَ من الأرض ، أو تقول : خِوانُ الجزَّار ، وقد تقدم يقول . تركتنا لادفاع بنا كاللحم على الوضم يتناوله من شاء ، ثم قال : لو كنت تستبقى من اللحم ، أى لو كنت تترك بقية ، قال التبريزى : جعل ذلك مثلا

لاستفساده لهم وسماحته بهم،

٭ ٭ ٭

والعرب تقول فى العطف على القريب والحَمِيَّةِ له وإن لم يكن وادًّا: «أنْفُكَ مِنْكَ وإنْ ذَنَّ [١]» وعِيصُكَ منك وإن كان أشِبًا [٢] وقال قائلهم ـ وهو حُريثُ بن جابرٍ ـ:

إذا ظُلِمَ المولَى فَزِعتُ لِظلمه ... فحرَّك أحشائِى وهَرَّتْ كِلابِيا [٣]

وقيل لأعرابى: ماتقول فى ابن العم؟ فقال عَدُوُّك وعدوُّ عدوِّك. ولما مات عُبادةُ بنُ الصامتِ بكى عليه أخوه أوْسُ بنُ الصامت، فقيل له: أتبكى عليه وقد كان يريد قتلَك؟ فقال: حركنى للبكاء عليه ارتكاضُنا فى بطن، وارْتِضاعُنا مِنْ ثَدْيٍ... ودخل رجل من أشراف العرب على بعض الملوك، فسأله عن أخيه. فأوقع به يَعيبُه ويشتُمه، وفى المجلس رجلٌ يَشْنَؤُه ـ يبغضه ـ فشرع معه فى القول، فقال له: مَهْلاً! إنى لآكُلُ لحمى ولا أدَعُه لآكل... وقال الشاعر ـ قيل هو زرارة بن سُبيع، وقيل نضلة بن خالد، وقيل دودان بن سعد، وكلهم من بنى أسد، شعراء جاهليون، والأبيات من الحماسة:

لَعَمْرِى لَرَهْطُ المرءِ خيرُ بَقِيَّةٍ ... عليهِ وإنْ عالَوْا به كُلَّ مَرْكَبِ

مِنَ الجانبِ الأقصى وإن كانَ ذا غِنًى ... جزيلٍ ولم يُخبِرْكَ مِثْلُ مُجَرِّبِ

(١) ذنّ أنفه يذنّ: إذا سال، والذنان والذنين: المخاط الرقيق الذى يسيل من الأنف (٢) العيص: منبت الشجر، والأشب: الملتف، ومعنى المثل: أصلك منك وإن كان ذا شوك مشتبك غير سهل: أى أصلك منك وإن كان أقاربك على خلاف ماتريد، فاصبر عليهم فإنه لابد منهم..

(٣) هرّ الكلب يهر هريراً: إذا نبح وكشر عن أنيابه، ومن طبع الكلب أن يهرّ دون أهله ويذب عنهم

إذا كُنتَ فى قوم عِدًى لستَ مِنْهُمُ ... فكلْ ما عُلِفتَ مِنْ خَبيثٍ وطَيِّبِ

« عالوا به يريد : عَلَوْا به ، كل مركب : صعب أو ذلول ، يريد : وإن حَمَّلوه مالا يستطيع ، ومن الجانب الأقصى ، يريد : من الحىّ الأبعد ، وقوله : ولم تك منهم ، يروَى : ٭ إذا كنت فى قوم عِدًى لستَ منهم ٭

وعِدًى بالكسر : غرباء ، فأما قومٌ عدى فقد ورد فيها الضم والكسر وقوله : فكل ماعلفت : فهذا مثل ، يريد به : المسالمة والمداراة ، ويروى للشاعر بعد هذا البيت :

فإنْ حدَّثتك النفس أنك قادرٌ ... على ماحَوَتْ أيْدِى الرجالِ فكَذِّب

٭ ٭ ٭

وقديما أكثروا من شكوى الأقارب : مِن جهةِ أنهم بِحُكْمِ تجاوُرِهم وقرابتهم أدْنى إلى الحسد والعداوة ، فقالوا : الأقارب عقارب وأتَمُّهم بك رحما أشدهم بك لَدْغا ، وقال بعض حكماء العجم : ثلاث لا يُستصلَح فسادُهم بشىءٍ من الحِيَلِ : العداوة بين الأقارب ، وتحاسد الأكفاء ، والركاكة فى الملوك ... ولذلك شَكَوْا من أنّ عداوة الأقارب أشدُّ على النفس من عداوة الأباعد فقالوا : — والقائل طَرَفَةُ بن العبد — :

وَظُلمُ ذَوِى القربى أشدُّ مَضاضةً ... على المرءِ مِنْ وَقعِ الحُسامِ المُهنَّدِ

وقال الشريف الرّضى :

ولِلذّلّ بين الأقربين مَضاضةٌ ... والذُّلُّ ما بين الأباعد أرْوَح

وإذا أتتكَ مِن الرجال قَوَارِصٌ ... فسِهامُ ذِى القربى القريبة أجْرَحُ [1]

فنهم من يَحْلُمُ ويُبقى على مقتضيات القرابة ، ويتجافَى عن ذنوب

(١) القوارص : جمع قارصة وهى الكلمة المؤذية قال الفرزدق :

قوارِصُ تأتينى وتحتقرونها ... وقد يَملأُ القطْرُ الإناءَ فيُفعَم

أقربائه على الرغم من عِدائهم ، فيقولون ـ والقائل محمد بن عبد الله الأزدى ـ صحابى جليل ـ وهذه الأبيات فى الحماسة ـ :

لاأدْفَعُ ابنَ العَمِّ يمشى علَى شَفًا   وإن بَلَغَتْنِى مِن أذاهُ الجَنادِعُ

ولـكن أُواسِيه وأنسَى ذُنُوبَه   لِتَرْجِعَهُ يوما إلىَّ الرَّواجِعُ

وَحَسْبُك مِن ذُلٍّ وسوءِ صنيعةٍ   مناواةُ ذِى القربى وإن قيل قاطِعُ

« الشفا : حرف الشيء وحدُّه ، مثل الشفير ، وقد أشفى على الهلاك : أشرف. والجنادع فى الأصل ـ كما قال أبو حنيفة الدِّينَوَرى ـ : الجنادب الصغيرة ، وجنادب الضب : دَوابُّ أصغرُ مِن القِرْدَانِ تـكونُ عنـد جُحْرِه فإذا بَدَتْ هى عُلِمَ أن الضب خارجٌ فيقال حينئذ : بَدَت جنادِعُه ، ثم قيل لأوائل الشرّ : بدت جنادعه ، يقول الشاعر : لا أدفعه يمشى على حَـدِّ الهـلاك وإنْ بالغ فى الإساءة ، والمناواة : المعاداة ، وأصله الهمز يقال : ناوأه مُناوَأة : أى عاداه ، وقوله : وإن قيل قاطع : يريد : وإن قيل فى ذى القربى إنه قاطع لرحمه فلا يحملنك ذلك على مناوأته » وقال الفضلُ بن العباس بن عُتْبَةَ بن أبى لهب :

مَهْـلًا بَنِى عمنا مهْـلاً مَوَالينا   لاتنْبِشُوا بَيْنَنا ماكان مَدْفونا

لا تَطْمَعُوا أنْ تُهِينُونا ونُـكْرِمَكُمْ   وَأنْ نَـكُفَّ الأذى عنكم وتُؤْذُونا

مهْلا بنى عمنا مِنْ نَحتِ أَثْلَتِنا   سِيرُوا رُوَيْدا كما كُنْتُمْ تسيرونا

اللهُ يعْـلَمُ أنَّا لا نُحِبُّكُمُ   ولا نَلومُكمُ إن لم تحبونا

كلٌّ له نِيَّـةٌ فى بُغْضِ صاحبِه   بنعمة اللهِ نَقْليكمْ وتَقْـلونا

« مهلا : يريد : رفقا وسكونا لاتعجلوا ، ويريد ببنى عمه : بنى أمية ، وقد كان فى صدورهم أحقاد ، وقوله لاتنبشوا : يريد لاتستخرجوا ما كان بيننا

من العداوة مدفونا فى الصدور ، وقوله : من نحت أثلتنا ، فالأثلة : واحد الأثل وهو من العَضاه شجر طوال مستقيم الخشب ومنه تصنع الأقداح والجفان ونحتها : قشرها أو نشرها ، يريد : مهلا بنى عمنا فى إظهار المثالب والمعايب التى تلصقونها بنا ، وقوله : كل له نية الخ يريد : إنا وإياكم لعلى طرفى نقيض نحن نبغضكم لاغتصابكم الملك واستيلائكم على أموال المسلمين وأنتم تبغضوننا على قرابتنا من النبي صلوات الله عليه ، وقلاه يقليه قلى : أبغضه ، وقد حذف نون الرفع من تقلونا ضرورة »

وقال ذو الأصبع العَدْوَانى :(١)

لولا أواصر قُرْبى لَسْتَ تحفَظُها ... ورَهْبَةُ اللهِ فى مولًى يُعَادِينى

إذَنْ بَرَيْتُكَ بَرْياً لا انجبارَ لهُ ... إنِّى رَأَيْتُكَ لا تَنْفَكُّ تَبرِينى

✡ ✡ ✡

ومنهم من اضطُرَّ إلى الانتقام من أقاربه : أو ممن تربطه بهم آصرة مّا ثم تأسَّف ، فقال قيس بن زهير فى ذلك :

شَفَيْتُ النَّفْسَ من حَمَلِ بن بَدرٍ ... وَسَيْفِى مِنْ حُذَيْفَةَ قَدْ شفَانِى

قتَلتُ بإخْوَتِى ساداتِ قَوْمِى ... وقد كانوا لنا حَلْىَ الزَّمانِ

فإنْ أكُ قَدْ بَرَدْتُ بهم غَليلى ... فلم أقطع بِهِمْ إلّا بَنَانِى

وقال النُميرى :

فإنَّكَ حِينَ تَبْلُغُهُمْ أذاةٌ ... وإن ظَلَمُوا لُمحترِقُ الضمير

---

(١) واسمه حُرثان بن الحارث بن محرّث ، شاعر فارس من قدماء الشعراء فى الجاهلية ، وبيتاه هذان من قصيدة له فى ابن عم له اسمه عمرو وهى قصيدة بارعة جدا أولها :

يامن لقلب شديد الهمّ محزون ... أمسَى تذكَّر ليلى أُمَّ هارون

وقد ترجم له صاحب الاغانى ، انظر الجزء الثالث طبعة دار الكتب.

وقال المتنبي فى ذلك :

وكيف يَتِمُّ بأسُكَ فى أناسٍ   تُصيبُهُم فيُؤْلِمُكَ المُصَابُ

وقال البحترى من قصيدة له يمدح بها المتوكل على الله العَبَّاسى ويذكر صلح بنى تغلب ـ :

وفِرسانِ هَيجاءٍ تَجِيشُ صدُورُها   بأحقادها حتى تضيقَ دُرُوعُها

تُقتِّلُ من وِترٍ أعزَّ نُفوسِها   عليها بأيْدٍ ماتكاد تُطيعها

إذا احتربتْ يوْمًا ففاضتْ دماؤُها   تَذكَّرتِ القُرْبى ففاضتْ دموعها

وقال سيدنا على كرم الله وجهه ـ حين تصفح القتلى يوم الجمل : شَفَيتُ نَفْسى ، وجَدَعت أنفى ـ وسيمر بك هذا الكلام بتمامه فى موضع آخر من هذا الكتاب ... ومنهم من يركب رَأسه ويُخِبُّ فى عِداء أقاربه خَبًّا ولا يبالى ـ وقد قال قائلهم ـ أوس بن حَبْناء التميمى ـ :

إذا المَرْءُ أولاك الهوانَ فأَوْله   هَوانًا وإن كانت قريبا أواصِرُه

✿ ✿ ✿

ويبلغ الحمق بهذا الصنف من الناس أن يظاهر الأجنبى على القريب وقد شبَّه العرب هذا الصِنْفَ بذئب السوء قال الفرزدق ـ :

وَكُنتَ كذِئبِ السُّوءِ لمَّا رَأى دَمًا   بصاحبه يوما أحالَ على الدَّمِ

« وهو معلوم أن الذئبَ إذا رأى بصاحبه دمًا أقبل عليه ليأكله » وإنه لبديهىٌّ أن هذا التمالُؤَ للأجنبىِّ على القريب لا يُثمر إلا الضررَ الموبق ، وقد قال قائلهم فى ذلك ـ وهو أبو يعقوب الخُرَيْمِىُّ ـ :

كانوا بنى أمٍ ففرَّقَ شَمْلَهُم   عَدمُ العُقول وخِفَّةُ الأحْلام

✿ ✿ ✿

وقد ورد فى علاج العداء الذى يحدث بين الأقارب : وهو علاج مُسَكِّن ... ولكنه لاعلاج غيره ـ قولُ أكثَمَ بنِ صَيْفِيٍّ حكيم العرب : تباعَدُوا فى الديار تقاربوا فى المودّة ... وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرىّ : مُرْ ذوى القرابات أن يتزاورُوا ولا يتجاورُوا ...

وقال فى هذا المعنى وزاد شاعرٌ جاهلى من بنى أسد ـ وكان له ابن عم يترصَّدُ له مرافع السوءِ ـ :

داوِ ابْنَ عمِّ السُّوءِ بالنَّأْيِ والغِنى كَفَى بالغِنى والنَّأْيِ عنهُ مُداوِيا
يَسُلُّ الغِنى والنَّأْيُ أدْواءَ صَدرِهِ ويُبْدِي التَّداني غِلْظَةً وتَقاليا
أعانَ عليَّ الدَّهْرَ إذْ حَكَّ بَرْكَهُ كَفَى الدهْرُ لو وَكَّلْتَهُ بِيَ كافِيَا

« النأى : البعد ، والغنى : مصدر غَنِيَ عن الشيء يَغْنَى : استغنى عنه واطَّرحه فلم يلتفت إليه ، ويسُلُّ : ينتزع برفق ، وأدواءَ صدره : أضغانه وأحقاده ، والتَّدانى : يريد إظهار التقارب منه ، وتقاليا : تباغضا ، وحكّ بركه : فالحك : إمرار جرم على جرْم ، والبرك فى الأصل : كلكل البعير ، وهو صدره الذى يدكُّ به ما تحته ، استعاره للدهر ، وقوله . كفى الدهر الخ : يريد : كفى حدثان الدهر وَحْدَهُ فى الاساءةِ فلا تكونُ إعانتُه وحادِثُ الدهر ما عليه »

✿ ✿ ✿

ومن كلامهم فى الإخوة : ماورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : حَقُّ كبير الإخوة على صَغيرهم كحَقِّ الوالد على ولَدِه ... ويُروَى أنَّ إخوةً حضروا عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فتكلم أصغرُهم ، فقال عليه السلام : ألكُبْرَ الكُبْرَ ... « الكبر : جمع الأكبر ، كأحْمَر وحُمر : أى ليبدأ الأكبر بالكلام ، أو قدِّموا الأكبر ، إرشادا إلى الأدب فى تقديم الأسن » وقيل لحكيم معه أخ أكبر منه : أهذا أخوك ؟ فقال بل أنا أخوه ...

وكان بين الحسن والحسين رضى الله عنهما كلام ، فقيل للحسين : أدْخُلْ

على أخيك فهو أكبرُ منك ، فقال : إنى سمعتُ جدّى صلى الله عليه وسلم يقول : أيّما اثنين جرى بينهما كلام ، فطلب أحدهما رضا الآخر ، كان سابقه إلى الجنة ، وأنا أكره أن أسبقَ أخى الأكبر ، فبلغ قولُه أخاه ، فأتاه عاجلا وأرضاه ...

✡ ✡ ✡

ومما يتصل بالإخوة وينشعب به القول فى هذا الباب : ما روى فى الأخوين يختلفان فى النَّجابة والتَّخلف والحُسن والدمامة ، فهذا كيّسٌ رفيعٌ ، وهذا أحمقُ وضيع ؛ وهذا جميل ، وهذا دميم ، قال الأصمعى : لم يقل أحد فى تفضيل أخ على أخ وهما لأب وأمٍ مثل قول ابن المُعتَزّ لأخيه صخر :

أبوك أبى وأنت أخى ولكن تفاضلَتِ المناكِبُ والرُّؤُس

وفى هذا المعنى يقول بعضهم :

تفرَّد بالعلياء عن أهل بيته وكُلٌّ يُهَدِّيه إلى المَجدِ والدُ
وتختلف الأثمارُ فى شَجراتها إذا شَرِقَتْ بالماء والماءُ واحِدُ

وقال رجل لأخيه : لَأَهْجُوَنَّك ، فقال : كيف تهجونى وأنا أخوك لأبيك وأمك ؟ فقال :

غُلامٌ أتاه اللُّؤْمُ مِنْ شَطْرِ نفسِهِ ولم يأتِهِ مِنْ شَطْرِ أمٍ ولا أب

وقال رجل لآخر ، وكان هذا الآخر قبيحاً ومعه أخٌ صبيحٌ : ما أمك إلاّ شجرة البلُّوط ، تحمل سنة بَلُّوطًا وسنة عَفْصًا [1] وفى هذا المعنى يقول آخر :

---

(١) البلوط : أبو فروة ، والعفص : تثره يكون على شجرة البلوط أو ضرب منه

أَمَا رَأَيْتَ بَنِى بَدْرٍ وَقَدْ خُلِقُوا كَأَنَّهُم خُبْزُ بَقَّالٍ وَكُتَّابِ [1]

قطيعة الإخوة

ومما جاء فى قطيعة الإخوة وتبريرها — والقطيعةُ الهجران ، ضِد الصِّلة - : ماروى أنه قيل لأعرابى : لِمَ تقطع أخاك شقيقَكَ ؟ فقال : أنا أَقْطَعُ الفاسِدَ مِنْ جَسَدِى الذى هو أقربُ إلىّ منه ، فكيف لا أقطعُه إذا فسد !
وكتب الفضلُ بن سهلٍ الوزيرُ إلى المأمون - الخليفة العباسى - : أما بعد ، فإن المخلوعَ - يريد الأمين أخا المأمون - وإن كان قسيمَ أمِيرِ المؤمنين فى النَّسب وَاللُّحْمَةِ ، فقد فَرَّقَ كِتابُ الله بينهما فيما اقتَصَّ علينا مِنْ نَبَإِ نُوحٍ ، فقال : يانُوح إنَّهُ ليس من أهلك ، إنَّهُ عَمَلٌ غيرُ صَالِحٍ ، فلا صِلَةَ لِأَحَدٍ فى معصية الله ، ولا قطيعة ما كانت القطيعةُ فى ذات الله ، والسلام . . . وقيل لِبُزُرْجِمِهْر : أخوكَ أحبُّ إليكَ أم صديقك ؟ فقال : إنما أُحِبُّ أخِى إذا كان صديقاً . ويقال : القَرابةُ محتاجة إلى المَوَدَّة ، والمودَّةُ أقرب الأنساب ، والبيت المشهور فى هذا :

فإذَا القَرابةُ لا تُقَرِّبُ قاطِعًا وَإذا المَوَدَّةُ أقربُ الأنْسابِ

الناس تجاه البنات

وقد كان الأوائلُ تُجاهَ البنات - وكذلك الناس إلى يومنا هذا — فريقين - : فأما فَرِيقٌ فقد كانوا يُفَضِّلُونَهُنَّ وَيَحْنُونَ عليهنّ ، ومن قولهم فى ذلك مايُرْوَى أنّ مَعْنَ بنَ أوْسٍ المُزَنِيَّ — شاعر إسلامىٌّ من الفحول —

(1) البقال : بائع البقول ، والكتاب : المدرسة يحفظ فيها كتاب الله وما اليه

كان مِئْنَاثاً ــ وكان له ثمان بنات ، وكان يُحسِنُ صُحبتَهُنَّ وتربيتَهُنَّ ، فوُلِدَ لبعض عَشيرَته بنتٌ ، فكَرِهَها وأظهَرَ جزعًا من ذلك ، فقال مَعْنٌ :

رَأَيتُ رِجالًا يَكرَهُونَ بَناتِهِمْ
وفِيهِنَّ ـ لا تُكذَبْ ـ نِساءٌ صَوالِحُ
وَفِيهِنَّ ـ والأيَّامُ يَعثُرْنَ بالفتى ـ عَوَائِدُ لا يَمْلَلْنَهُ ونَوائِحُ

وَدَخَلَ عَمْرُو بنُ العاص على معاويةَ وعِنده ابنَتُهُ عائشةُ ، فقال : مَنْ هذه يا أميرَ المؤمنين ؟ فقال : هذه تُفَّاحَةُ القَلبِ ؛ فقال : انبِذْها عَنْكَ ، قال : وَلِمَ ؟ قال : لأنَّهُنَّ يَلِدْنَ الأعداءَ ، ويُقَرِّبنَ البُعَدَاءَ ، ويُوَرِّثْنَ الضَّغائِنَ[1] ، فقال : لا تَقُلْ ذاكَ يا عَمرو ، فوَاللهِ مامَرَّض المَرضَى ولا نَدَبَ المَوتَى ولا أعانَ على الأحزانِ مِثْلُهُنَّ ، وإنَّكَ لَواجِدٌ خالًا قدْ نَفَعَهُ بَنُو أُخْتِهِ ؛ فقال له عمرو : ما أعلَمُكَ إلاَّ حَبَّبْتَهُنَّ إليَّ . .

وقال بعضهم : البناتُ حسناتٌ . والبنونَ نِعَمٌ ، والحسناتُ مُثابٌ عليها ، والنِّعَمُ مَسْئُولٌ عنها . . .

✿ ✿ ✿

وأما الفريق الآخرُ فيكره البنات : وإذا بُشِّرَ أحدُهُمْ بالأُنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ـ كما قال سبحانه وتعالى ـ وقديمًا قالوا : نِعْمَ الخَتَنُ القبرُ[2] . . . وَدَفْنُ البنات مِنَ المَكْرُمات . . .

✿ وما خَتَنٌ فينا أعفُّ مِنَ القَبرِ ✿

ونظر أعرابيٌّ إلى بنت تُدفن ، فقال : نِعمَ الصِّهرُ صاهَرْتُمْ . . . وقال

(١) يُوَرِّث : من أرَّث النار : أوقدها (٢) الخَتَن : زوج البنت

الحسين بن على رضى الله عنه : والد البِنت مُتْعَبٌ ، ووالدُ بِنتَـيْنِ مُثْقَلٌ ، ووالد ثلاث فعلى الناس أنْ يُعينوه ... وقال الزُّهرىُّ : كانوا لا يَرَوْنَ على صاحب ثلاثِ بنَاتٍ صَدَقةً ولا جهادًا ... وكانت العَرَبُ لا تأكل طعـامَ صاحب البناتِ وقد قال قائلهم :

إذا ما المَرْءُ شبَّ له بَنَاتٌ عَصَبْنَ برأسه عَنَتا وَعارا

وأد البنات : وناهيك فى هذا الباب شُنْعَةً وَسُوءَ صَنِيعةٍ بما كان العربُ يفعلون فى الجاهلية من وَأدِ البنات[١] ... وما فَتِئُوا إلى أن أُرْسِلَ سَيِّدُ البشر صلوات الله عليه ، فنَهَى عن ذلك ، وأنزل الله عز وتقدس : وإذا المَـوْءُودَةُ سُئِلَتْ بأىّ ذنب قُتِلت ؟ وكثيرا من الآيات فى هذا المعنى الُمفْظِع ... ودخل قيس بن عاصِم المِنْقَرِىُّ - وهو سيِّد أهل الوبر - على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنى وأدتُ ٱثْنَتَىْ عَشرَةَ بِنْتا ، فما أصنَعُ ؟ فقال رسول الله : أعْتِقْ عَنْ كلِّ مَوْودةٍ نَسَمَةً ، فقال له أبو بكر رضى الله عنه : فما الذى حَمَلَك على ذلك وأنت أكثرُ العرب مالا ؟ فقال : مخافةَ أن يَنكِحَهُنَّ مِثلُك[٢] ، فتبسم رسول الله وقال : هذا سيد أهل الوبَر ... قال قيس : ما وُلِدَتْ لِىَ ٱبْنَةٌ إلا وأدْتُهَا سوى بُنَيَّةٍ ولَدَتْها أمُّها وأنا فى سفرٍ ، فلما عُدتُ ذَكَرَتْ أنها ولَدَت ابنةً مَيِّتَةً ... فأوْدَعَتْها أخوالَها حتى كَبِرَتْ ، فأدْخَلَتْها مَنزِلى مُتَزَيِّنَةً ،

(١) وأد بنته يئدها وأدا : دفنها فى القبر وهى حية

(٢) هذه عجرفة وعنجهية من هذا الأعرابى الجلف فى حق الصديق رضى الله عنه وإن كان قيسَ بن عاصم سيدَ أهل الوبر ، وما أحلم سيدنا رسول الله الذى أرسل ليتمم مكارم الأخلاق ، والذى أُمر بأن يدعو الناس الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة .

فاستحسنتُها ، فقلتُ : مَن هذه ؟ فقالت : هذه ابنتُكَ ، وهى التى أخبرتُك أنى ولدتُها ميتة ، فأخذتُها ودفنتُها حيّةً وهى تصيح وتقول : اتتركنى هكذا ؟ فلم أُعَرِّج عليها ، فقال صلى الله عليه وسلم : من لا يَرحم لا يُرحَم ...

الخال والخؤولة

بقى بعد ذلك أن نورد شيئا مما قالوا فى الخؤولة والخال : والقول فى ذلك ينشعب أيضا ، فقد قالوا فى مَدْح الخال وذَمِّه ، وقالوا فى معنى نِزَاعِ الولد إلى خاله [1] ، فَلْنَنْتَقِ شيئا مما قالوا فى هذه المعانى ، فأما قولهم فى اعتبار الخؤولة وكونها كالأبوّة ، فمن ذلك مايروى أن الأسودَ بنَ وهب خالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن عليه ، فبسط صلى الله عليه وسلم له رِدَاءَهُ ، فقال الأسود : حَسْبي أن أجلِسَ على ما أنت عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : اجلس فإن الخال والد ... ومِنْ طريف هذا الباب ما يُروى أن الحجاج قال لابن مِعْمَرٍ : إنك تزعُم أن الحسنَ والحسينَ ابنا رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، قال : والله لأقتلنَّكَ ، فقال ابن معمر : أليس الله يقول : ومن ذُرِّيَّتِهِ داودَ وسليمانَ ، إلى قوله : وزكريا ويحيى وعيسى ، وإنما عيسى ابنُ مَرْيم : ابن بنت ، فقال نجوْتَ ... وأما من عدَّ الخؤولة ليست من النسبِ والقرابة ، فمن قولهم فى ذلك - والقائل ضَمْرَة بن ضمرة بنِ جابر بن قَطَنَ - شاعر جاهلى - وقيل غيره - :

إذا كنتَ فى سَعْدٍ وأُمُّكَ مِنْهُمْ غريباً فلا يَغْرُرْكَ خالُك منْ سَعْدِ

---

(١) نزع فلان إلى أبيه أو خاله ينزع نزوعا ونزاعا : ذهب إليه وأشبهه ، ومثله نزع الإنسان إلى أهله والبعير إلى وطنه نزاعا ونزوعا : حنّ واشتاق

فإنَّ ابنَ أُخْتِ القوم مُصْغًى إناؤُه إذا لم يُزاحِمْ خالَه بأبٍ جَلْدِ(١)

وتقدم شابٌّ إلى عبد الله بن الحسين رضى الله عنه فقال : إنَّ جَدِّى أوْصَى بِثُلُثِ ماله لولدِ وَلَدِه ، وأنا من ولد بِنْتِه ، والوصىُّ ليس يُعطِينى منه ، فقال : لاحقَّ لك فيه ، أمَا سمعت قول الشاعر :

بَنُونَا بنُو أبْنَائِنَا وبَنَاتُنا بَنُوهُنَّ أبْنَاءُ الرِّجالِ الأباعِدِ

« يقول : إن بنى أبنائنا مثل بنينا ، أما بنو بناتنا فليسوا منا وإنما هم أبناء الأجانب ، فبنونا خبر مقدم وبنو أبنائنا مبتدأ مؤخر ، وهذا البيت لا يعرف قائله على شُهْرَته . قال الإمام العَيْنِىّ : هذا البيت استشْهَدَ به النحاةُ على جَوازِ تقديم الخبر ، والفَرَضِيُّون ـ علماء المواريث ـ على دخول أبناء الأبناء فى الميراث وأن الانتساب إلى الآباء ، والفقهاءُ كذلك فى الوصية ، وأهلُ المعانى والبيان فى التَّشْبِيه ، ولم أر أحدا منهم عَزَاهُ إلى قائله »

وقالوا فى نزاع الولد إلى خاله :

عليكَ الخالَ إنّ الخالَ يَسْرِى إلى ابنِ الأُخْتِ بالشَّبَهِ المُبِين

وقالوا :

لِكلِّ امْرِئٍ شَكْلٌ يَقَرُّ بِعَيْنِه

وقُرَّةُ عَيْنِ الفَسْلِ أنْ يَصْحَبَ الفَسْلا

وتَعْرِفُ فى مَجْدِ امْرِئٍ مَجْدَ خالِهِ

ويَنْذُلُ أنْ تَلْقَى أخا أُمِّهِ نَذْلاَ

---

(١) مصغًى إناؤه : نقص حظه ، يقال أصغى فلان إناء فلان : إذا أماله ونقصه من حظه يقول هذا الشاعر : لا تغتر بخؤلتك فإنك منقوص الحظ مالم تزاحم أخوالك بآباء شراف وأعمام أعزة .

« الفَسل : النذل الذى لامروءة له ولا جَلَد » وقال رافع بن هُرَيم :- شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم ، يخاطب بنى أخوته -:

فَهلاً عيرَ عَمِّكُمُ ظَلَمْتُمْ   إذا ماكنتمُ مُتَظَلِّمِينا
عفاريتًا علىَّ وأكْلِ مَالِي   وَجُبْنًا عَنْ رجالٍ آخرينا
ولو كنتمْ لِمُكْيِسَةٍ أكاسَتْ   وكَيْسُ الأُمِّ كَيْسٌ للبنينا
ولكن أُمُّكُمْ حَمُقَتْ فجئتم   غِثاثًا ما نرى فيكم سَمِينا

وموضع هذه الأبيات باب إنجاب الأمهات فى كتاب النساء وترى نظائر له هناك

« قوله متظلمينا ، تقول : تظلمنى مالى : أى ظلمنى مالى ، و « ما » فى : إذا ما كنتم : زائدة ، والمكيسة : المرأة التى تلد أولادا أكياسا ، وأكاست المرأة : ولدت ولدا كيسا ، والكَيْس : خلاف الحمق ، ورجل كيّس : أريب ظريف ، وقوله : ولكن أمكم حمقت : أى صارت حمقاء ، والغثاث : جمع غثيث بمعنى مهزول »

مُدَّعُو القرابة البعيدة

ومما يستطرف من محاسنهم فى مدّعى القرابة البعيدة : قول رجل لآخر : لست ترعَى حقِّى وبيننا قرابة ! فقال : من أين ؟ قال : إن أباك كان قد خطَبَ أُمِّى ، فلو تمَّ الأمر لكنت أنا أنت ... فقال : هذه والله رحِمٌ ماسَّة ... وتعرَّضَ رَجُلٌ لهشامِ بن عبدالملك وادّعى أنه أخوه ، فسأله : من أينَ ذلك؟ قال : من آدم ! فأمر بأن يُعطَى دِرْهما ، فقال : لا يُعطِى مثلُكَ دِرهما ، فقال هشام : لو قَسَمْتُ ما فى بيت المال على القرابة التى ادَّعيْتَها لم يَنَلْكَ إلا دُون ذلك ... وفى هـذا المعنى - معنى ادعاء القرابة وانتِفائِها - يقول حسان بن ثابت :

لَعمرُكَ إنَّ إلَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ كإلِّ السَّقْبِ من رَألِ النعام (١)

محاسنهم فى الآباء والأبناء والأقارب من بابات شتى

ولنعطف على سائر محاسنهم فى الآباء والأبناء والقرابات من بابات شتى:
فمن ذلك تفاخرهم بالحسب وكرم المَحْتِد ، قال عدى بن أرطاة لإياس : دُلَّنى على قوم من القُرَّاء أُوَلِّيهم ، فقال : القُرّاء ضربان : ضربٌ يعملون للدنيا ، فما ظَنُّكَ بهم : وضربٌ يعملون للآخرة فلا يعملون لك ، ولكن عليك بأهل البيوتات الذين يستَحْيُون لأحسابهم ... وقال زُهَيْرُ بن أبى سلمى :

وما يَكُ مِن خَيْرٍ أَتَوْهُ فإنما توارَثَهُ آباءُ آبائِهم قبلُ

وقال :

وهل يُنْبِتُ الخَطِّىَّ إلّا وَشِيجهُ وتُغْرَسُ إلا فى مَنابتها النخل

« الخَطِّىُّ : الرمح ، قال أبو حنيفة الدينورى العالم النباتى الأشهر : الخَطِّى : الرماح ، وهو نسبة قد جَرَى مجرى الاسم العلم ونسبته إلى الخَطّ ، خط البحرين ، وإليها تُرفأ السفن إذا جاءت من أرض الهند ، وليس الخَطِّى - الذى هو الرماح - من نبات أرض العرب . وزاد الجوهرى : وإنما نسبت إلى الخط لأنها تحمل من بلاد الهند فتقوم به . ووشيجه : فالوشيج شجر الرماح » ...

ودخل بعض أولاد عبد الله بن الزبير على سليمان بن محمد ، فجلس على نُمْرُقة

(١) الإلّ : القرابة ، والسقب : ولد الناقة ، والرأل : ولد النعام ، يهجو حسان أبا سفيان الحارث بن عبد المطلب ، وزعم بعضهم أن هذا الشعر يقوله حسان لعقبة بن أبى معيط ، وذكروا أنه كان لزنية ولذلك قال له عمر حين أمر رسول الله بضرب عنقه ، فقال : أأقتل من بين قريش صبرا ، فقال عمر : « حنّ قِدح ليس منها » .

« الوسادة يتكأ عليها ، فاغتاظ من ذلك وقال : مَن أجلسك ههنا ؟ قال : صَفِيَّة بنت عبد المطلب : فسكن غضبه . وقال أبو تمام :

نَسَبٌ كأنَّ عليه من شمس الضحى نُورًا وَمِن فلَقِ الصَّباح عَمودا

* * *

وقالوا فيمن يشبه أباه فى علاء ابتناه : شِنْشِنَةٌ أعرِفُها من أخزم[1] و :

وإنَّ امْرَءًا فى الفَضْل أشبهَ جَدَّهُ ووالِدَهُ الأدنى لَغَيْرُ ظلومِ

وقال أبو تمام فيمن مكارمُهُ تَدُلُّ على كريم أسلافه :

فُروعٌ لاتَرِفُّ عليكَ إلا شَهِدتَ بها على طِيبِ الأُرومِ[2]

وَفِي الشَّرَفِ الحديث دليلُ صِدْقٍ لِمُخْتَبِرٍ على الشَّرَفِ القديم

وقال عامر بن الطفيل[3] فى المستغنى بنفسه عن حسبه :

إنى وإن كنتُ ابنَ فارِسِ عامرٍ وفى السِّرِّ منها والصَّميمِ المهذَّبِ[4]

فما سوَّدَتْنى عامرٌ عن وِرَاثةٍ أَبَى الله أنْ أسْمُو بأُمٍّ ولا أبِ

ولٰكِنَّنى أحمِى حِماها وأتَّقى أذاها وأرْمِى مَنْ رَماها بِمَقْنَبِ[5]

---

(١) الشنشنة : العادة والطبيعة وهذا مثل ، وأصله لأبى أخزم الطائى وهو جد جد مرتين حاتم الطائى ، وكان له ابن يقال له أخزم كان عاقاً فمات وترك بنين فوثبوا يوماً على جدهم أبى أخزم فأدموه فقال :

إن بنىّ ضرجونى بالدم شنشنة أعرفها من أخزم

يعنى أن هؤلاء أشبهوا أباهم فى العقوق

(٢) الأروم : جمع أرومة ، وهى الأصل

(٣) شاعر مخضرم وفارس مذكور بعيد الصوت فى العرب

(٤) وفى السر منها : من سر الوادى ، وهو أكرم موضع فيه يريد أنه فى كرم موضع من نسبها (٥) مقنب كمنبر : جماعة الخيل والرجال والجمع مقانب ويروى : من رماها بمنكب ، والمنكب فى الأصل : مجتمع عظم العضد والكتف ، ضربه مثلا للشدة والقوة

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب :

لَسْنا وإنْ كرُمَتْ أَوَائِلُنا يوْمًا على الأحساب نتّكِلُ

نَبْنى كما كانت أوائلُنا تَبْنى ونَفْعَل مثْلَ مافعلوا

وقال المتنبي :

خُذْ ماتراهُ ودَعْ شيئاً سَمِعْتَ به في طَلْعَةِ الشَّمْسِ ما يُغنيكَ عن زُحَلِ

وقال :

لا بِقَوْمى شَرُفْتُ بل شَرُفوا بِى وبنفسى فَخَرْتُ لا بجُدودى

وما فُضِّل الولد على الوالد بأحسنَ من قول المتنبي :

وإنْ تكنْ تَغلِبُ الغَلباءُ عُنْصُرَها فإنَّ فى الخمر مَعْنًى ليس بالعِنَبِ

وقوله أيضا : * فإنك ماءُ الوَرْدِ إنْ ذَهَب الوَرْد *

وقال ابن الرومى فيمن ازداد شرف آبائه به :

وَكَمْ أبٍ قدْ عَلَا بابْنٍ ذُرَا شَرَفٍ كما عَلَتْ بِرَسولِ الله عَدنانُ

يَسْمُو الرجالُ بآباءٍ وَآوِنةً تَسْمُو الرجال بأبناءٍ وتَزْدانُ

✡ ✡ ✡

وقالوا فى أنه لا اعتداد بمَنْ شَرُف أصله إذا لم يَشْرُفْ بنفسه :

ـ والقائل المعلم الأول أرسطوطاليس ـ : إذا كان الإنسانُ خسيسَ الأبوَيْنِ شريفَ النفس ، كانت خِسّةُ أبوَيْه زائدةً فى شرفه ، وإذا كانَ شريفَ الأبوين خسيسَ النفس ، كان شرف أبويه زائداً فى خسّته . وقال ابن الرومى :

وما الحَسبُ الموروثُ لادَرَّ دَرُّهُ بمُحْتَسَبٍ إلا بآخرَ مُكتَسَبْ

إذا العُودُ لم يُثْمِرْ وإن كان شُعْبَةً

منَ المُثْمِراتِ اعْتَدَّه الناس فى الحَطَبْ

« لادَرّ درّه : لازكا عمله ، دعاء عليه أن لايجعله الله نافعا »

وقال سقراط - فى الاعتذار عمن شرفت نفسه ولم يشرف أصله — وقد عَيّرَهُ رجل بحسبه - : حَسَبي مِنّى ابتدأ ، وحَسَبُكَ إليك انتهى ... وقال قائل فى هذا المعنى : لَأنْ يكون الرجل شريف النفس دنىءَ الأصل ، أفضَلُ من أن يكون دنىء النفس شريف الأصل ، ألا ترى أنَّ رأس الكلب خيرٌ من ذَنَب الأسد !

✡ ✡ ✡

ومما يستظرف مِن اعتذار المتخلفين الأنذال ، عن تخلفهم عن آبائهم الأشراف ماروى : أنه قيل لأعرابى : ما أشبَهتَ أباك ! فقال : لو أشبَهَ كلُّ رجل أباه كنّا كآدم ... وخطب رجل قَصَّرَ عن أبيه إلى رجل رفيع القدر ، ابنتَهُ ، فقال له العظيم : لو كنتَ مثلَ أبيك ! فقال : لو كنتُ مِثلَ أبى لم أخْطُبْ إليك ...

✡ ✡ ✡

ومن محاسنهم فى ذمّ من قصر عن آبائه : قولُ بعضهم :

لــئِنْ فَخَرْتَ بآباءٍ لهم شرَفٌ لقد صَدَقْتَ ولكن بِئْسَما وَلَدُوا

وقول أبى تمام :

يا أكرمَ الناسِ آباءً ومُفْتَخَرًا وألأمَ الناسِ مَبْلُوًّا ومُخْتَــبَرَا

ونظر رجل إلى آبنٍ نذلٍ من أب كريم فقال : سبحان الله من قائل : يُخْرِج الخبيثَ من الطيب . وقال شاعر فى لئيم النفس كريم الأبوين :

فلا يَعجَبَنَّ الناسُ مِنك ومنهما فما خَبَثٌ مِنْ فِضّةٍ بِعَجِيبِ

« الخبث منَ الحديد والفضة ونحوهما : مانفاه الكير ولا خير فيه »

✡ ✡ ✡

وقالوا فيمن يَخْزَى من ذكر آبائه : فمن ذلك أن رجلا سُئِل عن نسبه ، فقال : أنا ابن أخت فلان ، فقال أعرابى : الناسُ ينتسبون طولا وأنت تنتسب عَرْضا

✿ ✿ ✿

ومن محاسنهم فيمن لا يُعتدّ بأبيه : قول الأخطل :

وَإذا وَضَعْتَ أباكَ فى مِيزانهم رَجَحوا وشَالَ أبوكَ فى الميزانِ

« شال الميزانُ : ارتفعت إحدى كِفَّتَيه ، ويقال : شال أبوك فى الميزان ، وهو مثل فى المفاخرة يقال : فاخَرْته فشال ميزانه : أى فَخَرْتُه بآبائى وغلبته » وقال بعض شعراء أَصْفهان :

تَبَجّحَ بالكتابةِ كُلُّ وَغْدٍ فقُبْحًا للكتابةِ والعِمَالَه

أرَى الآباءَ نِسْبتَهُم جَميعاً إلى الأبناء من فرط النذالَه

✿ ✿ ✿

وقالوا فى الابن يجارى أباه : العصا من العُصَيَّة و : هل تَلِدُ الحية إلا حُيَيَّة وقال شاعر :

وإنَّ أحقَّ الناسِ أنْ لا تلومَهُ على الشَّرِّ مَنْ لم يفْعَلِ الخيْرَ والِدُهْ

إذا المَرْءُ ألفَى والِدَيْهِ كِلَيْهما على اللُّؤْمِ فَاعْذِرْهُ إذا خابَ رَائِدُهْ[1]

وقالت الخنساء ـ وقيل لها : ما مَدَحتِ أخاك حتى هجوت أباك ! فقالت :

جارَى أباه فأقبلَا وَهُما يتَعاوَرانِ مُلاءَةَ الحُضْرِ

حتى إذا نَزَتِ القُلوبُ وقد لُزَّتْ هُناكَ العُذْرُ بالعُذْرِ

وعَلا هُتافُ النَّاس أيُّهما قالَ المُجيبُ هناك : لا أدرى

---

(١) أصل الرائد : الذى يتقدم القوم يبصر لهم الكلأ ومساقط الغيث

بَرَزَتْ صحيفةُ وجهِ والده ومَضَى على غُلَوائِه يجرى
أولى فأولى أن يساويه لولا جَلالُ السِّنِّ والكِبْر
وهُما وقد برزَا كأنهما صَقْرانِ قد حَطَّا إلى وَكْر

«قولها: مُلاءَة الحُضر: فالحضر: العَدْو والجرى، وإنما تريد بملاءة الحضر: الغُبار.
وكأن عَدِيَّ بنَ الرِّقاع نظر إلى هذا فى قوله يصف حِمارا وأتانا:

يتعاوران فى الغُبار مُلاءةً بيضاءَ مُحدَثَةً هُما نَسَجَاها

ونزت القلوب: يريد طمحت واشرأبت لتعرف من السابق، ولُزَّت: قرنت.
والعذر: جمع عذار وهو ماسال من اللجام على خد الفرس، ويروى القَدر
بالقَدر، والقدر: المنزلة، والكبر: أظنها بضم الكاف بمعنى الأكبرِ أى ولولا
جلال الأكبر، ولك أن تقرأها الكبر بكسر الكاف أى الكِبَرَ ولكنه
أسكن الباء ضرورة».

أما الإسلام فقد عدّ الشرف والحسب إنما هو بالتُّقَى فقال سبحانه: إن
أَكْرَمكُم عند الله أتقاكم، قال بعضهم: ماأبقى الله بهذه الآية لأحد شرَفَ
أبُوَّة ... ورأى عمر بن الخطاب رجلا يقول أنا ابنُ بَطحاءِ مكة، فوقف
عليه وقال: إن كان لك دينٌ فلك شرف، وإن كان لك عقل فلك مُرُوءَة.
وإن كان لك علم فلك شرف، وإلا فأنت والحِمارُ سواء، وقالوا: كان
الشرف فى الجاهلية بالبيان والشجاعة والسماحة، وفى الاسلام بالدين والتقى ...

* * *

وقالوا فى الدِّعْوة: أى ادّعاءِ الولد الدَّعِىِّ غيرَ أبيه، أى انتسابه إلى
غير أبيه، وقد كانوا يفعلون ذلك فى الجاهلية، فنهى الاسلام عنه، وكان سيدنا
رسول الله قد تبنَّى زيدَ بنَ حارثةَ عتيقَ الرسول، فكانوا يقولون له: ابن

محمد ، فأمر الله عزّ وجل أن ينسب الناس إلى آبائهم وأن لاينسبوا إلى من تبنّاهم فقال : وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم « أى لاحقيقة له فى الواقع » والله يقول الحق « أى ماله حقيقة عينيّة » وهو يهدى السبيل ، أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله « هو : أى دعوتهم لآبائهم ، وأقسط : عدل ، ومعناه البالغ فى الصدق » فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ماتعمدت قلوبكم ، وكان الله غفورا رحيما ...

والأحاديث فى ذلك متوافرة ، فمنها قوله صلوات الله عليه : الوَلدُ للفِراش وللعاهر الحَجرُ . . . « يعنى أن الولد لصاحب الفراش ، من السيد أو الزوج ، وللزانى الخيبة والحرمان ، وهذا كما تقول : مالك عندى شى غير التراب ، وما بيدك غير الحجر ، وذهب قوم إلى أنه كنى بالحجر عن الرجم ، قال ابن الأثير : وليس كذلك لأنه ليس كلُّ زانٍ يُرجم » . . وقالوا فى التعريض بالنسب ـ والقائل أبو نواس :

إذا ذكرتَ عَدِيًّا فى بنى ثُعَـلٍ فقدِّم الدال قبل العين فى النسب

ودخل ابن مُكَرَّم على أبى العيناء ـ صاحب النوادر والمجون وكان ضريرا ـ ليُهَنِّيَهُ بآبن وُلِدَ له ، فوضع عنده حَجرا ، فلما خرج أُخبِرَ أبو العيناء ، فقال : لعن الله هذا ، أما تعلمون ماذا عَنَى ؟ إنما أراد قول رسول الله : الولد للفراش وللعاهر الحجر ...

ولقى رجل رجلا فقال له : ممن أنت ؟ قال : قُرشى والحمد لله ، فقال : الحمد لله فى هذا الموضع ريبة ... وقال زياد بن أبيه ـ وهو ابن أبى سفيان لِريبة ـ لرجل : يادَعِىّ ، فقال : الدِّعوة قد تشرَّف بها المدعى علىّ ، فكيف عيَّرتها !

وفى قولهم فيمن لايشبه والدَيه وذويه خِلْقَةً :

ألوانُهُم إليك عن أنسابِهم مُعْتَـذِرَه

وكان بأَصْبِهَانَ رجـل مجنون يعرف بابن المستهام ، فقيل لأحمدَ بن عبد العزيز : إنه مليح ذو نوادر ، فاستحضره ، فلما تأمله قال — أى المجنون — :

فى اختلاف الوُجوه من آلِ عِجْلٍ لَدَلِيلٌ على فسادِ النساء

فأراد أحمد أن يَبطِشَ به ، ثم كفَّ عنه مخافةَ أن يتحدث الناس بذلك ...

ومن طريف ماقالوا أيضا فى التعريض بالرجل أن ابنه من زِنْيَةٍ ، مايروى أنه قيل لرجل : إن امرأة فلان وَلَدت بعد الزِّفافِ بِخَمْسَةِ أشهرٍ فقال : إنه بَنَى جِدَارَه على أُسِّ غيرِه ...

وخاصَمَ ذو الرمة رجلا من وَلَد زياد بن أبيه فقال له الزيادى : يادعىّ ، فأنشد ذو الرمة :

بُثَيْنَةُ قالت ياجميل أرَبْتنا فقلت كلانا يابثينُ مريب (١)

✲ ✲ ✲

ومما يصح أن يذكر فى هذا الباب : كما يصح أن يذكر فى كتاب النساء قولهم فى أنّ الولدَ الذى يَنْسِلُ من الأقارب يخرج ضاويا ضعيفا ، فمن ذلك قوله صلوات الله عليه : « اغْتَرِبُوا لا تُضْوُوا » أى تزوجوا الغرائب دون القرائب فإنّ ولد الغريبةِ أنجب وأقوى من ولد القريبة ، وقد أضْوَت المرأة إذا ولدت ولدا ضعيفا ، فمعنى لاتضووا : لاتأتوا بأولاد ضاوين ، أى ضُعفاء نحفاء ، الواحد : ضاوٍ ، وكذلك قال صلوات الله عليه : لاتَنْكِحُوا القرابَةَ القريبة

(١) أربتنا : رأينا منك مايريبنا ونكرهه منك

فإن الولد يُخلق ضاويا ... ونظر عمر رضى الله عنه إلى قوم من قريش صغار الأجسام فقال : مالكم صَغُرتم ؟ قالوا : قُربُ أمهاتنا من آبائنا ، قال : صدقتم ، اغتربوا لاتضْوُوا ... وقال العتبى : تَزَوَّج أهل بيت ، بعضهم فى بعض ، فلما بلغوا البطن الرابع بلغ بهم الضعف إلى أن كانوا يَحْبُون حبوًا لايستطيعون القيام ضعفا ...

الرضاعة

وكذلك نورد هنا قولهم فى الرَّضاعة : قال رسول الله : يَحْرُم من الرَّضاعة مايَحْرُم من النسب «انظر كتب الفقه» ونهى رسول الله عن رضاع الحَمْقاء وقال : لاتسترضعوا الحمقاء فإن الولد يَنزِع إلى اللبن ... وقال رجل فى وصف آخر نسبه إلى الرعونة : كيف لايكون أرْعنَ وقد أرضعته فلانة ! ووالله إنها كانت تزُقّ الفَرْخ ـ أى بفيها ـ فأرى الرعونة فى طيرانه .. ورَوَوا أن الحسن البَصرىَّ رحمة الله عليه كانت أُمُّه تَغْشىأمَّ سَلَمة زوج سيدنا رسول الله ، فدرّت عليه من لبنها ، فورث منه علمه وفصاحته وورعه :

✡ ✡ ✡

الإحسان

وعبقرياتهم فى الجود واصطناع المعروف وقِرَى الأضياف وذم البخل والسؤال

وهذا لَونٌ ثان من ألوانِ البرّ هو فى الواقع يَنتظمُ لَوْنَيْن ، فأَمَّاأَوَّلهما فهو هذا الذى نحنُ بصددِه الآنَ ، وهو الجودُ واصطناعُ المعروف ، وسائر مايمُتّ إلى ذلك بسبب واصل من قِرى الأضياف وذم البخل ، وأما الآخرُ فهو حُسن الخلق ، وسنفرد له وَصْلًا تراه عقيب هذا .

تحفى الإسلام بالإحسان : وكما أنَّ صِلَةَ الرَّحم بعامَّةٍ ، وبِرَّ الوالدين بخاصَّةٍ ، مما تحفَّى به الإسلامُ كلَّ التحفِّي ، حتى قرَنهُ بالتوحيد وبالتقوى ، ترى هذا الدينَ الحنيفَ ، لقدْ تحفَّى كذلك كلَّ التحفِّي بالإحسانِ إلى مُسْتحقّيه ، وذمَّ الشُّحَّ ونعاهُ على أهليه ، وامتدحَ الجودَ ونوّه به كلَّ التنويه ، حتى قَرن ذكرَه بالإيمان ، ووصفَ أهله بالفَلاح ، والفلاحُ اسمٌ جامعٌ لسعادة الدارَين ، فقال سبحانه وتقدس : الٓمٓ ، ذلك الكتاب لا رَيْبَ فيه هُدًى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رَزقناهم يُنفقون ، والذين يؤمنون بما أُنزِلَ إليك وما أُنزل مِن قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون . . وقال في وصف الأنصار : ويؤثرون على أنفسِهم ولو كان بهم خَصاصةٌ ، ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِه فأُولئك هُمُ المفلحون . . . « الخصاصة : الفقر ، ويوقى : يصان » وقال عزَّ وجلَّ : مَثَلُ الَّذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمَثل حَبّةٍ أنبتت سبعَ سنابلَ في كُلِّ سُنْبُلةٍ مائةُ حبَّة والله يُضاعِفُ لمن يشاء والله واسع عليم ، إلى أن قال سبحانه : ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل حَبَّةٍ بِرَبْوةٍ أصابها وَابِلٌ فآتت أُكُلَها ضِعْفَيْن . . . الآيات . . . « قوله سبحانه : كمثل حبة . . . الآية ، فإن ذلك تمثيل لا يقتضى وقوعه ، والجنة : البستان ، والربوة : الموضع المرتفع ، وشجره في العادة يكون أحسن منظراً وأزكى ثمراً ، والوابل : المطر العظيم » وقال : لنْ تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مما تحبون ، وما تنفقوا من شيء فهو يخلفه والله خير الرازقين . « والبر ههنا : فهو بِرُّ الله ، أي خيرُ الدنيا والآخرة ، أي السعادةُ والفلاحُ والفوزُ ، أو تقول : لن تنالوا البر : أي لن تنالوا حقيقةَ البرِّ حتَّى تُنفِقوا مما تحبون »

قال الراغب فى الذريعة : وَحُقَّ للجود أن يُقرَنَ بالإيمان ، فلا شيء أخصُّ به ، وأشدُّ مُجانسةً ، منه ، إذْ من صِفةِ المؤمن انشراحُ الصدر : فمن يُرِدِ الله أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَه للإسلام ومن يُرِدْ أنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صدْرَه ضَيِّقاً حَرجًا كأنما يَصَّعَّدُ فى السماء ... وهذا من صفات الجوادِ والبخيلِ ، لأن الجوادَ يوصَفُ بسَعَة الصَّدْر للإنفاق ، والبخيلَ يُوصَفُ بضِيقِ الصَّدْر للإمساك ...

الناس مجبولون على البخل

« وأما بعد » فإنّ أكْثَرَ هذا الناسِ لقدْ جُبِلوا على البُخْلِ ، فالبُخلُ هو الأصل ، وَإنَّمَا الجودُ فى سائرِ ألوانِه ، تكلُّفٌ وتعَمُّلٌ وَحَمْلٌ للنَّفْسِ على مكْروهِها وعلى غير ماجُبلتْ عليه ، وقد قيل لحاتِم الطائِيِّ الذى يُضْرَبُ به المثلُ فى الجُود : كيف تجدُ الجودَ فى قلبكَ ؟ فقال : إنِّى لأجدُه كما يجده الناسُ ، ولكنِّى أحمِلُ نفْسِى على خُطَط الكرام [1] ، وقال بعض الأجواد : إنَّا لنَجدُ كما يجدُ البخلاءُ ولكِنَّا نَصْبِرُ ولا يَصْبِرُون ... وفى هذا المعنى يقول البحترى :

وَأشَقُّ الأفعالِ أنْ تَهَبَ الأنـفُسُ ما أُغلِقتْ عليهِ الأكُفُّ

ويقول أبو يعقوبَ الخُرَيْمِيُّ :

ودُونَ النَّدَى فى كُلِّ قَلْبٍ ثَنِيَّةٌ بها مَصْعَدٌ حَزْنٌ ومُنْحدَرٌ سَهْلُ [2]

ويقول أبو العتاهية :

اِطْرَحْ بطَرْفِكَ حيثُ شِئْـتَ فلَنْ تَرَى إلَّا بخيلا

ويقول ابن نُباتة السعدى :

---

(١) الخطط: جمع الخطة ، وهى الحال والأمر والخطب

(٢) الثنية : المكان المرتفع الصعب المطلع ، أى أن الكرم شاق على النفس

كيف السبيلُ إلى الغِنى والبُخلُ فى الناسِ فِطْنَه

وأكثرُ مَن يَتسخَّى ويَجودُ فإنّما يجودُ رَغَبًا أو رَهَبًا ـ رغبا فى عاجلِ الجزاء ٭ كمُلقِي الحَبِّ للطَّيْرِ ليَصيدَ به لا لِيَنفعه ٭

ومَنْ يَظُنُّ نَثْرَ الْحَبِّ جُودًا ويَنْصِبُ تحتَ ما نَثَرَ الشباكا (١)

ورَهَباً مِنْ عابٍ يَلتصق به أو مكروهٍ يُصيبُه :

مِثْلُ الْحِمارِ الْمُوَقَّعِ الظَّهرِ لا يُعطيك شيئاً إلا إذا رَهِبا (٢)

وهناك صِنفٌ من الناسِ يُعطِي ويمنع لا بُخلا ولا كرماً ، وإنما يكونُ ذلك تهوُّرًا واندفاعا منه مع نَزْوَةٍ من نزوات النفوسِ ، كما قال الأديب أبو بكر الخوارزمى فى الوزير الصاحبِ بن عباد :

لا تَحْمَدنَّ ابنَ عبَّادٍ وإنْ هَطَلتْ يداهُ بالْجُودِ حتَّى أخْجلَ الدِّيَمَا

فإنها خَطَراتٌ مِن وَساوِسِه يُعْطِي ويَمنعُ لا بُخْلا ولا كرما

وقلَّ مِنَ الناس مَن يجُود اسْتجابةً لفطرته ، ولداعى الضمير ، كما يقولون . فلْيُلْحَظ هذا ، ولْيُلحَظ كذلك أنَّ البُخْلَ رَذيلةٌ تَستتبعُ رذائل ، وناهيك بالجبن رذيلة ، هى ألزَمُ الرذائل للبخل : كما أنّ الجودَ فضيلةٌ تَستتبعُ فضائلَ . وحسبك بالشجاعة فضيلة هى أخصُّ الفضائل بالجود :

---

(١) للمتنبي ، وقوله ومن يظن : عطف على كل نفس فى البيت قبله وهو :

وآمنَّا فداءك كل نفس وإن كانت لمملكة ملاكا

يقول : الملوك يجودون لطلب العوض كما نثر الصائد حبا تحت الشبكة ، ولا يعد ذلك جوداً لأنه إنما نثر لأخذ الصيد الذى هو خير من الحب

(٢) للحكم بن عبدل الأسدى ، والموقع الظهر : الذى بظهره آثار الدبر لكثرة ما حمل عليه وركب ، فهو ذلول .

ذَرِينى فإنَّ الشُّحَّ يا أُمَّ هَيْثَمٍ ... لِصالحِ أخلاقِ الرِّجالِ سَروقُ[١]

✲ ✲ ✲

وإذا اختبرتَ علمت غير مُدافَعٍ ... أنَّ السماحَ سَجِيَّةُ الأبطالِ

وقال أبو تمام فى ذلك ـ من أبيات يمدح بها خالد بن يزيد الشيبانىّ :

وإذا رأيت أبا يزيدٍ فى نَدًى ... وَوَغًى ومُبدِىَ غارةٍ ومُعِيدا

يَقْرِى مُرَجِّيه مُشاشةَ مالِه ... وشَبا الأسِنَّةِ ثُغْرةً ووَرِيدَا

أيقنتَ أنَّ مِن السماحِ شجاعةً ... تُدْمِي وأنَّ من الشجاعة جودا[٢]

وقال المتنبي :

هو الشجاع يَعُدُّ البُخْلَ مِن جُبُنٍ ... وَهْو الجوادُ يَعُدُّ الجُبْنَ مِنْ بُخُلِ

وقد عدوا الشجاعة لوناً من الجود فقال مسلم بن الوليد :

يجُودُ بالنَّفسِ إذْ ضَنَّ البخيلُ بها ... والجودُ بالنَّفْس أقْصَى غايةِ الجودِ

---

(١) من أبيات جميلة نبيلة لعمرو بن الأهتم ، وبعد البيت :

ذَرِينى وحُطى فى هواى فإنَّنى ... على الحسب العالى الرفيع شفيق

ومُسْتَمْنِحٍ بعد الهدوء دعوته ... وقد كان من سارِى الشِّتاء طُرُوقُ

فقلت له أهلا وسهلا ومرحباً ... فهذا مبيت صالح وصَديق

أَضَفْتُ فلمْ أُفحِشْ عليه ولم أقُلْ ... لِأَحرِمَه إنَّ الفِناءَ مَضيقُ

لَعمرُك ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكنَّ أخلاقَ الرجال تَضِيقُ

(٢) الوغى : الحرب ، وقرى الضيف يقريه قرى : أضافه وأحسن اليه ، والمشاشة واحدة المشاس وهو رأس العظم الذى يمكن مضغه ، يقول : انه يطعم المجتدى ماله حتى انه لينتش العظم وهذه مبالغة فى أنه يمكن المجتدى من ماله . والشبا : جمع شباة ، وشباة كل شىء : حدّه ، والثغرة : نقرة النحر

ولأجل هـذين الملحظين ، تظاهرت الآياتُ والأحاديثُ وما أُثِر عن الأوائل من العلماء والحكماء والشعراء والرَّبَّانيِّين ، على ذَمِّ البخل وامتداح الجودِ والإحسان ، وأكثروا وافْتَنُّوا وأبْدَعوا ، الأمرُ الذى يدلُّ على أنهم قدرُوا أثرَ الجودِ والبُخل فى الخُلُق حقَّ قدْرِه ، وأنهم لذلك شَنُّوا هذه الغارةَ الشَّعْوَاءَ على الإنسانِ الأنانيِّ الكزِّ الشحيح ِ الكائِن فى نفس كُلِّ إنسان ...

عبقرياتهم فى مدح الجود وذم البخل

ولنأخذ الآن فى عبقرياتهم فى ذم البخل ومَدح الجود والإحسانِ واصطناع المعروف ، والكلام فى هذه المعانى يدخلُ بعضه فى بعض ... كتب رجلٌ مِنَ البُخلاء إلى رجلٍ من الأسخياء يُخَوِّفُه الفقرَ ، فأجابه : الشيطانُ يَعِدُكمُ الفَقْرَ ويأْمُرُكم بالفحشاء واللهُ يعِدُكم مَغْفِرَةً منه وفضلا ... وإنى أكرهُ أن أترُكَ أمْرًا قد وقع لِأَمْرٍ لعَلَّهُ لا يَقَعُ . « يقول سبحانه : إنَّ الشيطانَ يَعِدُ الناسَ الفَقْرَ فى الإنفاق ، أى يقول لهم : إن عاقبةَ إنفاقِكم أنْ تَفْتَقِرُوا ـ والوعدُ كما يُسْتَعْمَلُ فى الخير يستعمل فى الشَّرِّ ـ ويأمركم بالفحشاء ، أى يغريكم بالبُخْلِ ومنعِ الصدقات إغراءَ الآمرِ للمأمور ، فالفحشاءُ هنا : البُخْلُ ، والفاحِشُ عند العرب : البَخِيل ، قال طرَفَةُ بنُ العبد فى مُعلَّقَته :

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ ويَصْطَفِى
عَقِيلَةَ مالِ الفـاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ [1]

ثم قال سبحانه : والله يعدكم فى الإنفاق مغفرةً لذنوبكم وكفارةً لها ، وأن

---

(١) يعتام : يختار ، والعقائل : كرائم الأموال والنساء ، الواحدة عقيلة ، والفاحش البخيل ، يقول طرفة : إن الموت لا يبقى على الأجواد والبخلاء فيصطفى الكرام وكرائم أموال البخلاء فلا يجدى البخل على صاحبه ، فالجود أحرى لأنه أحمد .

يُخْلِفَ عليكم أفضلَ ممّا أنفقتم» وقيل لإبليس : مَنْ أَحَبُّ الناس إليكَ ؟ فقال : عابدٌ بخيلٌ ... قيل : فمَنْ أبغضُ الناس إليك ؟ قال : فاسقٌ سَخِيٌّ ، فإن سخاءَه يُنْجيه ... أفرأيتَ ! أليس هذا الكلامُ تمثيلا جميلا لِحالَي البخيل والجواد ! حتى إنهم فضَّلوا الفاسق السخيَّ على العابد البخيل ، وأحْسَنُ منهما جميعا لعمري : العابدُ الكريمُ ، وإنما كان العابدُ البخيلُ مفضولا ، لأن العبادةَ الحقَّ لاتجتمع والبُخْلَ ... وقال بعضهم لآخر : إنك مِتْلافٌ ، فقال : مَنْـعُ الْجُودِ سُوءُ ظَنٍّ بالمعبود ، قال تعالى : وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين . ومن هذا قول بعض الحكماء : عليكم بأهل السخاء والشجاعة فأنهم أهْلُ حُسْنِ ظَنٍّ بالله ، ولو أنَّ أهلَ البُخـل لم يَدخُلْ عليهم من ضَرِّ بُخلهم ، ومَذَمَّةِ الناس لهم ، وإطباقِ القلوب على بُغضهم ، إلا سوءُ ظَنِّهِمْ بربهم في الخَلَفِ - أى العوض - لكان عظيما ، وفى هـذا المعنى يقول محمود الورّاق :

مَنْ ظَنَّ بالله خيرا جاد مُبْتَدِئاً وَالْبُخْلُ مِنْ سُوءِ ظَنِّ المَرْءِ بالله

وورد فى الحـديث : خَصْلَتَـانِ لايجتمعان فى مؤمن : البُخْلُ والـكِبرُ وقال بعضهم فى هذا المعنى :

أُناسٌ تائهُونَ لهم رُوَاءٌ تَغِيمُ سماؤُهمْ مِنْ غَيْرِ وَبْلِ (١)

ومن أمثالهم فى ذلك : رُبَّ صَلَفٍ تحتَ الرَّاعِدَةِ ... « الراعدة : السحابة ذات الرعد ، والصلف قلة الخير ، وهـذا المثل يضرب للبخيل مع الوُجْـدِ والسعة ، ولأئمة اللغة كلام كثير فى هذا المثل رَاجِعْهُ فى مادة «صلف» بلسان

(١) تائهون : من التيه وهو الزهو والكبر ، والرواء : حسن المنظر ، والوبل : المطر العظيم

العرب » ... ومن قولهم فى البخيل لا يُرْجى خيرُه ولا يَبِضُّ حَجَرُهُ :

يُعالج نفساً بينَ جَنْبَيْهِ كَزَّةً إذا هَمَّ بالمعروفِ قالتْ له مَهْلا

ومن المستطرف من كناياتهم فى هـذا المعنى ما يروى : أن امرأة قالت لزوجها : والله ما يُقيم الفأرُ فى دَارِكَ إلا لِحُبِّ الوطن ... وقال رجل : إنى أقصد فلانا رَاجياً نَداه ، فقال له صاحبه :

وتَرْجُو النَّدَى من إناءٍ قَلَّمَا ارْتَشَحَا

كالْمُسْتَذِيبِ لِشَحْمِ الكلْبِ مِنْ ذَنَبِهْ

وقال ابن الرومى - وهو من مُقْذِعاته المُضْحِكة - :

يُقَتِّرُ عِيسى على نفْسِه وليس بباقٍ ولا خالِد

ولو يَسْتَطِيعُ لِتَقْتِيرِه تَنفَّس مِنْ مَنْخِرٍ واحِدِ

« المَنْخِر : ثقب الأنف » وقال آخر :

يُحِبُّ المديحَ أبو خالدٍ ويَفْزَعُ من صِلَةِ المادِح

كبِكْرٍ تَوَدُّ لَذيذَ النكاحِ وتَهْلَعُ من صَوْلَةِ الناكحِ

وقال البُحْتُرى - وهو معنى بديع - :

جِدَةٌ يَذُودُ البُخْلُ عن أطْرافها كالبَحْرِ يدْفَعُ مِلْحُهُ عن مائِه [1]

وقال بشار :

إذا جِئْتَهُ فى حاجةٍ سَدَّ بابَهُ فلَمْ تَلْقَهُ إلا وأنْتَ كَمِينُ

إذا سَلَّمَ المِسكينُ طار فُؤادُهُ مخافةَ سُؤْلٍ واعْتراهُ جُنُونُ

---

(١) الجدة : الغنى ، ويذود : يدافع

وقال ابن الرومى . وهو كذلك من هجائه المضحك :

تجنَّبْ سليمانَ قُفْلَ النَّدى ... فقد يَدْسُ الناسَ من فتْحِه
ولو كان يملكُ أمرَ استِهِ ... لما طَمِع الحُشُّ فى سَلْحِه

« الحُشُّ : المستراح ـ موضع قضاء الحاجة ـ والسلح : النجو ـ الغائط ـ »
وقال ابن الرومى أيضا ـ وهو معنى بديع ـ وإن كان من بابة غير هذه البابة :

وإذا امرُؤٌ مَدَحَ امْرَءاً لنوالِه ... وأطال فيه فقد أراد هِجاءَهُ
لو لم يُقَدِّرْ فيه بُعْدَ المُسْتَقَى ... عندالورودِ لما أطالَ رشاءَهُ

« الرشاء : حبل الدلو » وقالوا : من لم يأت الخير صغيرا لم يأتِه كبيراً ، وفى ذلك يقول المَعْلوطُ السَّعدى ـ وهو شاعر إسلامى ـ :

إذا المَرْءُ أعيَتْه المُروءَةُ ناشِئاً ... فمَطْلَبُها كَهْلًا عليـه شديدُ (١)

وقالوا فى البخيل كلما ازداد ثراء ازداد بخلًا وكزازة ، والقائل ابن الرومى ـ والبيتان من أوابده وتوليداته البديعة :

إذا غَمَرَ المالُ البَخيلَ وَجدْتَهُ ... يَزيدُ به يُبْسًا وإنْ ظُنَّ يرْطُبُ
وليس عجيبـاً ذاكَ منه فإنَّهُ ... إذا غَمَرَ الماءُ الحِجارَةَ تَصْلُبُ

وقال :

ألم تَرَ أنَّ المالَ يُهلِكُ أهْـلَهُ ... إذا جَمَّ آتيهِ وسُدَّ طريقُهُ

---

(١) من أبيات جميلة يقول فيها :

متى مايَرَ النَّاسُ الغَنىَّ وجارُه ... فقير يقولوا عاجِزٌ وجَليدُ
وليس الغِنى والفقْرُ من حيلة الفَتى ... ولكنْ أحاظٍ قُسِّمَت وجُدُودُ
فكمْ قـدْ رَأينا من غَنِيٍّ مُذَمَّمٍ ... وصُعْلوكِ قومٍ ماتَ وهو حميدُ
إذا المرء .... البيت

ومَنْ جاوَرَ الماءَ الغزيرَ مَجَمَّهُ وسُدَّ سبيلُ الماءِ فهوَ غريقُه

وقال :

المالُ يُكسِبُ رَبَّهُ ـ مالم يَفِضْ في الراغبينَ إليه ـ سُوءَ ثناءِ

كالماءِ تأسَنُ بئرُه إلا إذا خَبَطَ السُّقاةُ جمامَه بدلاءِ

« تأسن : تتغير، وخبطه : ضربه، والجمام : بتثليث الجيم : معظم الشيء »

عبقرياتهم في الجود واصطناع المعروف

ولندع البُخلَ والبخلاء لحظة وننتقل إلى عبقرياتهم في الجود والإحسان واصطناع المعروف : جاء في كليلة ودمنة : إن أحسنَ الناس عَيْشاً من حَسُنَ عَيْشُ الناس في عَيْشِه ، وإن من ألذّ اللّذَّةِ الإفضالَ على الإخوان ، وفي الحديث : ليس لك من مالِكَ إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبِسْتَ فأبْليتَ ، أو أعطيت فأمْضيت ، وما سوى ذلك فهو مِلك الوارث وقال شاعرهم :

أنتَ للمال إذا أمسكْتَهُ فإذا أنفقتَه فالمالُ لَكْ

وقال سعيد بن العاص من خُطبة له : مَنْ رَزَقه الله رزقاً حَسَناً فلْيُنْفِقْ منه سِرًّا وجهراً حتى يكونَ أسعدَ الناسِ به ، فإنه إنما يُـتْرَكُ لأحد رجلين : إمَّا مُصلِح ، فلا يَقِلُّ عليه شيءٌ ، وإمّا مُفْسد فلا يَبْقَى له شيء ... فقال معاويةُ : جَمَع أبو عثمانَ طَرَفَي الكلام ...

وقال الأحنف بن قيس : ما شاتمْتُ رجلا مُذْ كنتُ رجلا ، ولا زَحَمَتْ رُكْبتايَ رُكْبتَيْه ، وإذا لم أَصِلْ مُجْتَدِيَ حتَّى يَنتِـحَ جبينُه عَرَقاً كما يَنتِـحُ الحَميتُ ، فوالله ماوَصَلْتُه ... » قوله : مجتدى : يريد . الذى يأتيه يطلب ماله يقال : اجتداه يجتديه واعتفاه يعتفيه واعتراه يعتريه واعترّه يعترّه وعراه

يعرُوه » : إذا قصده يتعرَّض لنائله . ويَنْتِح كيضرِب : يَرْشَح ، والحَميتُ : وعاء السمن . يقول الأحنف : إنه لا يُحوج سائله إلى أن يترشَّحَ جبينه عرقا ، لمبادرته بإعطائه » وقال معاويةُ بنُ أبي سفيان لِوَرْدان مولى عمرو بن العاص : مابقي من الدنيا تلَذُّه ؟ قال : العريضُ الطويلُ ، قال : وما هو ؟ قال : أنْ أُلقى أخاً قد نَكَبَهُ الدهرُ فأَجبُرَه ، قال : نحْنُ أحقُّ بهذا منك . . . قال : إنَّ أحقَّ بهذا منك مَن سبَقكَ إليه . . . وقال ابن عباس : ثلاثة لا أكافئهم : رجلٌ بدَأني بالسلام ، ورجل وَسَّعَ لي في المجلس ، ورجل اغبَرَّت قدَماهُ في المشي إليَّ إرادةَ التَّسليم عليَّ ؟ فأما الرابع فلا يكافئه عني إلا الله عز وجل ، قيل : ومن هو ؟ قال : رَجلٌ نزَل به أمرٌ فبات ليلتَه يفكِّرُ بمَن يُنزِلُه ، ثم رآني أهلا لحاجته فأنزَلها بي . وقال ابن عباس أيضا : لا يُزَهِّدَنَّك في المعروف كفْرُ من كفَره ، فإنه يَشكرك عليه منْ لم تَصطنعْهُ إليه : « كفر من كفره : يريد : كفر النعمة ، أي عدم شكرها ، وقوله : من لم تصطنعه إليه يريد الله عز وجل »

وأُنشِد عبدُ الله بنُ جعفر بنِ أبي طالب ، أحدُ الأجواد في الإسلام قولَ الشاعر :

إنَّ الصَّنيعةَ لا تكونُ صنيعةً حتَّى يُصابَ بها طريقُ المَصْنَعِ [1]

فقال : هذا رجل يريد أنْ يُبخِّلَ الناسَ ، أمْطِر المعروفَ مَطَرًا فإن صادف موْضِعا فهو الذي قصَدْتَ له ، وإلا كنْتَ أحقَّ به

« وبعد » فهناك في هذا المعنى كما ترى مذهبان ، فمذهب يرى إعطاءَ

---

(١) الصنيعة : ما أسديت من المعروف ، وبعد هذا البيت :

فإذا صَنعْتَ صنيعةً فاعْمِدْ بها لِلهِ أوْ لذَوي القرائِبِ أوْ دَعِ

المستحق وغير المستحق ، الكريم واللئيم ، الشاكر ، والكافر : ويقول هذا المذهب ـ والقائل الشاعر محمود الورّاق :

فإمّا كريمٌ صُنْتُ بالجودِ عِرْضَهُ   وإمّا لئيمٌ صُنْتُ عن لُؤْمِه عِرْضِي

وقال بعضهم : لأنْ أُخطِئَ باذلا ، أحبُّ إليَّ من أن أُصيبَ مانعا « باذلا ومانعا : حالان من فاعل أخطئ وأصيب »

ومذهب آخر يرى حرمانَ اللئام ومَنَ يُسْتَضَرُّ بإعطائه ، قال قائلهم : اتّقُوا صَوْلة الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع . وقالوا : اللئيمُ يَزْدَاد بالعُرف خَبَالا ، كما يزداد المريض من كثرة الطعام وبالا ، « خبالا : فسادا » وقال شاعر :

* ليس فى مَنعِ غَيْرِ ذى الْحَقِّ بُخْلُ *

وقال الآخر :

ومَنْ يَصْنَعِ المعروفَ معْ غيرَ أهلِهِ
يُلاقى كما لاقى مُجيرُ أمّ عامر [1]

---

(١) أم عامر : الضبع ، وكان من حديث هذا المثل أن قوما خرجوا إلى الصيد فى يوم حار ، فبينما هم كذلك إذ عرضت لهم أم عامر ، وهى الضبع ، فطردوها ـ أى حاولوا صيدها ـ فأتعبتهم حتى ألجأوها إلى خباء أعرابى فاقتحمته ، فخرج إليهم الاعرابى فقال : ماشأنكم ؟ فقالوا : صيدنا وطريدتنا . قال : كلا ، والذى نفسى بيده لاتصلون إليها ماثبت قائم سيفى بيدى . فرجعوا وتركوه . فقام إلى لَقحة ـ واللَّقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن ، فحلبها وقرب إليها ماء ، فأقبلت مرة تلغ من هذا ومرة تلغ من هذا حتى عاشت واستراحت ، فبينما الاعرابى نائم فى جوف بيته إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وشربت دمه وأكلت حُشوته ـ أمعاءه ـ وتركته فجاء ابن عم له فوجده على تلك الصورة فالتفت الى موضع الضبع فلم يرها فقال : صاحبتى والله ، وأخذ سيفه فى كنانته واتبعها فلم يزل حتى أدركها فقتلها وأنشد البيت

وأخيرا قالوا ـ والقائل أبو العتاهية ـ:

إذا المال لم يُوجِبْ عليك عطاءَه صنيعةُ تقوى أو خليلٌ تُخالِقُه
منَعْتَ وبعضُ المَنْعِ حزمٌ وقوةٌ ولم يبتَذِلْكَ المالَ إلا حقائقُه(١)

وقال الحسنُ والحُسَيْنُ رضوان الله عليهما لعبد الله بن جعفر : إنك قد أسْرَفْتَ فى بذل المالِ ! قال : بأبى أنتما ، إن الله عَوَّدَنِى أنْ يُفْضِلَ علىَّ ، وعودته أن أُفْضِلَ على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة ، فيقْطع عنِّى ...

ومرَّ يزيدُ بنُ المُهلَّب بأعرابية ، فى خروجه من سجن عمرَ بنِ عبد العزيز(٢) ، يريد البصرة ، فقَرَتْهُ عَنْزًا فقبِلَها ، وقال لابنه معاوية : مامعك من النفقة ؟ فقال : ثمانمائة دينار ، قال : فادفعها إليها ، فقال له ابنه : إنك تريد الرجال ، ولا يكون الرجال إلا بالمال ، وهذه يُرْضيها اليسير ، وهى بعدُ لا تعرِفُكَ ، فقال له : إن كانت تَرْضَى باليسير فأنا لاأرْضى إلا بالكثير ، وإن كانت لاتعرفنى ، فأنا أعْرِفُ نفسى ، ادْفَعْها إليها ...

وأورد المبرِّدُ فى الكامل ماياتى : وأشرف عمرُ بنُ هُبيرة الفَزاريُّ ـ والى العراقين ليزيد بن عبد الملك ـ من قصره بالكوفة يوما ، فإذا هو بأعرابىٍّ

(١) حقائقه : جمع حقيقة : مايحق عليك أن تحميه

(٢) وذلك سنة ١٠١ للهجرة ، وكان عمر بن عبد العزيز أخذه بعدة وعدها سليمان بن عبد الملك ، وذلك أن يزيد كان عامله على حراسان ، فافتتح جرجان وطبرستان ، ثم بشره بفتحهما فى كتاب أرسله إليه يقول فيه « وقد صار عندى من خمس ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار لكل ذى حق حقه فى الفىء والغنيمة ستة آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين ان شاء الله ... ثم مات سليمان وولى الخلافه عمر ، فسأل يزيد ، فتلكأ فأمر بسجنه ، ثم هرب لما بلغه شدة مرض عمر الذى مات به مخافة من يزيد بن عبد الملك الخليفة بعده لما كان بينهما من التباغض

يُرَقِّصُ جَمَلَه الآلُ [1] فقال : لحاجبه : إن أرادنى هذا فأوصله إلىّ ، فلما دنا الأعرابىّ سأله ، فقال : قصدت الأمير ، فأدخله إليه ، فلما مثَل بين يديه قال له عمر : ماخطبك ؟ فقال الأعرابى :

أصْلَحَكَ اللهُ قلَّ مابيَدى فما أُطيقُ العِيالَ إذْ كَثُرُوا
ألحَّ دَهْرٌ أنحَى بكَلْكَلِه [2] فأرسَلُونى إليك وانتَظَرُوا
رَجَوْكَ لِلدَّهْرِ أنْ تكونَ لهم غَيْثَ سحابٍ إن خانَهُم مَطَرُ

فأخذتْ عمرَ الأرْيَحِيَّةُ ، فجعل يهْتَزُّ فى مجلسِه ، ثم قال : أرسلوكَ إلىَّ وانتظروا ! إذن والله لا تجْلِس حتى ترجع إليهم غانما . وأمر له بألف دينار ، وَرَدَّه على بعيره ... قال المبرِّد : وحُدِّثْتُ أن الخبر لِمَعْنِ بن زائدة . أقول : وقد أورده ابن خِلكان منسوبا لمعن .

✡ ✡ ✡

وهذا معن بن زائدة هو الآخَرُ له فى المكارم غُرَرٌ وأوضاحٌ ، وهو أشهرُ فى باب الأريحيَّة والجود والإقدام والحلم من أن يُنَوَّه به ، وهو معن بن زائدة الشيبانى ، كان فى أيام بنى أمية مُتَنَقِّلًا فى الولايات ، ومنقطعا إلى يزيدَ ابن عمرَ بن هُبَيْرة والى العراقين ، فلما أدال من بنى أمية بنو العباس ، وجرَى بين أبى جعفر المنصور وبين يزيدَ بن عمر المذكور ماجرى ، أبلَى يومئذ معنٌ مع يزيدَ بلاءً حسنا ، فلما قُتِل يزيد خاف معن من أبى جعفر المنصور ، فاسْتَتَرَ عنه مدة وجرى له مُدّةَ اسْتِتَارِه غرائب ، وهنا يحدثنا شاعره الفَحْلُ مَرْوان بن حَفْصة بحديث طريف من هذه الغرائب . قال :

(١) الآل : ما تراه فى الضحى كالماء بين السماء والأرض ، ويرقصه : يحمله على الرقص ، وهو نوع من السير كالخبب

(٢) انحى : اعتمد ومال ، والكلكل : الصدر ، استعارة لوطأة الدهر وثقله

أخبرنى معنٌ وهو يومئذ مُتَوَلّى بلادَ اليمن : أنَّ المنصور جدَّ فى طلبى ، وجعل لمن يَحْمِلُنى إليه مالا ، قال معن : فاضْطُرِرتُ لإلحاحه فى الطلب إلى أن تعرَّضْتُ للشمس حتى لَوَّحَتْ وجهى ، ولبِسْتُ جُبَّةَ صُوف ، وركِبْتُ جملا وخرجت مُتَوجِّها إلى البادية لأُقيمَ بهـا ، فلما خَرجتُ من باب حَرْبٍ ــ أحد أبواب بَغْداد ــ تبِعَنى أسْوَدُ مُتَقَلِّدٌ سيفا حتى إذا غِبْتُ عن الحَرَس ، قبض على خِطامِ الجمل ، فأناخه ، وقبض على يدى ، فقلت له : مابك ؟ قال : أنت طَالِبَة أمير المؤمنين ، قلت : ومن أنا حتى أُطْلَب ! قال : أنت معن بنُ زائدة ، فقلت له : ياهذا ، اتق الله عز وجل ، وأينَ أنا من معْنٍ ! فقال : دَعْ هذا ، فإنى ــ والله ــ لأعْرَفُ بك منك ، فلما رأيت منه الجِدَّ قلت له : هذا عِقْد جَوْهَر قـد حَمَلْتُه معى بأضعاف ماجعـله المنصور لمن يجيئُه بى ، فخُذْهُ ولا تـكن سببا لِسفْكِ دمى ، قال : هاته ، فأخرجته إليه ، فنظر فيه ساعة ، وقال صدقت فى قيمته ، ولستُ قابِـلَه حتى أسألَكَ عن شىء ، فإن صدَقْتَنى أطْلَقْتُك ، قلت : قلْ ، قال : إن الناس قـد وصفوك بالجود ، فأخـبِرْنى : هل وهَبْتَ مالَك كُلَّه قطُّ ؟ قلت : لا ، قال فنِصْفَه ، قلت : لا ، قال : فثُلُثَه قلت : لا ، حتى بلغ العُشْر ، فاستحييت وقلت : أظُنُّ أنِّى قـد فعلت هذا ، قال : ماذاك بعظيم ، أنا والله راجلٌ ــ يريد من المشاة ــ ورِزْقى من أبى جعفر المنصور كلَّ شهر عشرون دِرهما ، وهذا الجَوْهر قيمته ألوف دنانير ، وقـد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولِجُودك المأثور بين الناس ولتعلمَ أن فى هذه الدنيا مَن هو أجوَدُ منك ، فلا تُعجبْك نفسُك ، ولتَحْقِر بعد هذا كلَّ جودٍ فعلتَه ولا تتوقَّفُ عن مكرُمةٍ ، ثم رمى العقدَ فى حِجْرى ، وترك خِطام الجمل ، وولّى منصرفا ، فقلت : ياهذا ، والله لقـــد فضحْتنى ،

ولَسفْكُ دمى علىَّ أهونُ مما فعلتَ ، فخذ مادفعتُه لك نإنِّى غنىٌّ عنه ، فضحك وقال : أردْتَ أن تُكَذِّبَنى فى مقالى هذا ! والله لا أخذْتُه ولا آخذ لمعروف ثمنًا أبدا ، ومضى لسبيله ، فوالله لقد طلبته بعد أن أمِنت ، وبذلت لمن يجيء به ما شاء فما عرَفت له خبرا ، وكأنَّ الأرضَ ابتلعته . . . ألا ترى معى أن ما فعله هـذا الجندى الفقير إن لم يَفُقْ به معنَ بنَ زائدة وأشـباهَ معنِ بنِ زائدة ، فى باب المروءة والفتُـوّة والنجدة والـكرم وعبقرية الروح فإنه لا يقل عنهم !

جُهْدُ المُقِلِّ إذا أعطاك نائـلَهُ ... ومُـكْثِرٌ من غِنًى سِيَّانِ فى الجُودِ

فهو كما قال الشاعر :

ولم يكُ أكثرُ الفتيان مالاً ... ولـكن كان أرْحبَهمْ ذراعا

✡ ✡ ✡

ومن هنا حَثُّوا على الجود والمُروءةِ والتَّسخِّى حتى فى حالة العُسْرِ والضِّيق فمن ذلك ما قرأناه منسوبا لِـبُزُرْجِمْهَرَ أو ليحيى بن خالد البرمكى أو لامرأة من العرب توصى به ابنها ، وهو : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنْفِقْ ، فإنها لا تَفْنَى ، وإذا أدْبرَتْ عنك فأنفق فإنها لا تبقى . أخذه بعض الشعراء فقال :

وأنفِقْ إذا أنفقتَ إنْ كنْتَ مُوسِرًا
وأنفِقْ على ما خيَّلت حـين تُعْسِرُ
فلا الجود يُفْنى المـالَ والجَدُّ مُقْبلٌ
ولا البخلُ يُبقِى المـالَ والْجَدُّ مُدْبرُ

وقال الآخر فى معناه :

لا تَبْخَلنَّ بدُنْيا وهى مُقْبِـلةٌ ... فليس يَنْقُصُها التَّبْذِيرُ والسَّرَفُ

فإنْ تولّتْ فأحرَى أنْ تجُودُ بها … والشُّكرُ منها إذا ما أدبرَتْ خلَفُ

✿ ✿ ✿

ولا تنسَ أنّ مرادهم بالإنفاق والجُود هنا : الإنفاقُ فى سبيل الله والبرّ لا فى سبيل الشيطان والإثم ، والجودُ على ذوِى الحقوق ومَن هُمْ فى حاجة إليك حتى مع إدبار الدُّنيا عنك ، وبالحرِىّ مرادهم بالسَّرَفِ : السَّرَفُ فى الشرف ، وما يُكسب المرءَ مَحْمَدةً ومِقَة[1] . ويؤثَر عن مُعاوية أو المأمون ـ وقد قيل لأحدهما : لاخير فى السرف ـ فقال : لاسَرَفَ فى الشَّرَف . . .

وقال سلم بن قتيبة : أحدُكم يَحْقِر الشىءَ فيأتى ماهو شرٌّ منه « يعنى المنع ، يريد الحثّ على إعطاءِ القليل إن لم يُستطعْ إعطاءُ الكثير » وقال حمّاد عجْرَد فى ذلك من أبيات :

بُثَّ النَّوالَ ولا تمنَعْكَ قِلَّتُهُ … فكلُّ ماسَدَّ فقرًا فهْوَ محمودُ

يقول فيها :

إنَّ الكَريمَ لَيُخفِى عَنْكَ عُسرَتَهُ … حتَّى تراهُ غَنِيًّا وهْوَ مجهُودُ

إذا تكرَّمْتَ أنْ تُعْطِى القليلَ ولمْ … تَقْدِرْ على سَعةٍ لمْ يَظهرِ الجودُ

ولِلْبَخيلِ على أموالِهِ عِلَلٌ … زُرْقُ العُيون عليْها أوْجُهٌ سُودُ

أورِقْ بخَيرٍ تُرَجَّى لِلنَّوالِ فَمَا … تُرْجَى الثِّمارُ إذا لم يُورِقِ العودُ

والعرب تقول : من حقَرَ حرَمَ … « حقر الشىء : عده حقيراً » أى من حقر يسيرا يقدِرُ عليه ولم يقدر على الكثير ضاعت لديه الحقوق « وفى الحديث : لاتردُّوا السائلَ ولو بظِلْفٍ مُحْرَقٍ « الظلف من كل ما يجترُّ من

(١) مقة : محبة

الحيوانات كالبقرة والظّبي بمنزلة الحافر من الفرس، ويقال : أحرق الشيء بالنار وحرّقه شدّد لكثرة . وقال المعرى :

إذا طرقَ المِسْكينُ بابَكَ فاحْبُهُ قليلاً ولو مِقْدارَ حبّةِ خَرْدَلِ
ولا تحتَقِرْ شيئًا تُساعِفُه به فكمْ من حَصاةٍ أيّدَتْ ظَهْرَ مِجْدَلِ

« المجدل : القصر المُشرف ». وكان ابن عباس يقول : صاحب المعروف لايقع ، فإن وقع وجد مُتّكأً . وهذا من قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : المعروف يَقِي مصارعَ السُّوء ... وكانَ ابنُ عبّاس يقول أيضا : مارأيت رجلا أوليتُه معروفا إلا أضاءَ مابيني وبينه ، ولا رأيت رجلا أوليتُه سوءًا إلا أظلم مابيني وبينه ، ومما يروى فى هذا المعنى أن رجلا كان فى مجلس خالد بن عبد الله القَسْرِيّ ، فقام من المجلس ، فقال خالد : إنى لأُبْغِضُ هذا الرجلَ وما لَهُ إليَّ ذنبٌ ، فقال رجل من القوم : أَوْلِهِ أيُّها الأميرُ معروفا ففعل ، فما لَبِث أن خَفَّ على قلبه وصار أحدَ جُلسائه . وفى هذا المعنى يقول سيِّد مُوسِيقِيِّ الإسلام أبو إسحاق الموصلى :

أرى الناسَ خُلّانَ الجوادِ ولا أرى بخيلا له فى العالمين خليلُ
ومِنْ خَيرِ حالات الفتى لو علمتِه إذا نال شيئا أن يكونَ يُنِيلُ
فإنى رأيت البخل يُزْرى بأهله فأكرمت نفسى أنْ يُقالَ بخيلُ

ويقول المتنبي :

وأحسَنُ وجه فى الورَى وجْهُ مُحْسِنٍ وأيمَنُ كفّ فى الورى كفُّ مُنْعِمِ

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنِ اتّصلت نِعَمُ الله عليه ، كثُرَت حوائجُ الناس إليه ، فمن لم يحتمل تلك المُؤن عُرِّض لزوال تلك النِّعَمِ ، وقال خالد بن عبد الله القسْرىُّ أيضا : حوائج الناس إليكم نعَمٌ مِنَ الله عليكم ،

فلا تملوا النعم فتتحول نقما ، قال الشاعر :

بَدا ـ حينَ أثرَى ـ بإخوانِه فَفلَّلَ عنهم شَباةَ العَدَم(١)
وذكَّرَه الحزمُ غِبَّ الأمور فبادرَ قبلَ انتِقال النِّعَمْ

وعن سيدنا رسول الله : تنزلُ المعونة على قدرِ المئونة » ومعناه : أنه كلما تكاثر على المرء من يحق عليه أن يعولهم ويقوم بمؤنتهم ، ففعل ، أو كلما أنفق المرء فى سبيل البر ، أعطاه الله بمقدار ذلك ، وجاء فى الحديث المرفوع : من وسَّعَ وُسِّعَ عليه ، و : كلما كثُرَ العيال كثر الرزق...

وقالوا فى معنى النجدة وإقالة العثرات وواجبات ذوى الجاه : بَذْلُ الجاه زكاةُ الشرف . وفى الحديث : إن اللهَ يَسألُ العبدَ عنْ جاهه كما يسألهُ عن ماله وعُمْره ، فيقول : جعلتُ لك جاها فهلْ نصرتَ به مظلوما أوْ قَوَّمت به ظالما أو أغثت به مكروبا ! وفى الحديث أيضا : أفضلُ الصدقة أنْ تُعِينَ من لاجاهَ له . . . وقال أبو تمام :

وإذا امرُؤٌ أسدى إلىّ صنيعةً مِنْ جاهِهِ فكأنها من مالِهِ

وكان زياد بن أبيه يقول لأصحابه : اشفعُوا لِمَنْ ورَاءَكم فليس كلُّ من أراد السُّلْطان ـ يريد : كلّ مَنْ بيده الأمر ـ وصل إليه ، ولا كلُّ مَنْ وصل استطاع أن يُكلِّمه ... والأصل فى هذا قوله سبحانه : مَنْ يشفعْ شفاعةً حسَنةً يكُنْ لهُ نَصيبٌ منها ومن يَشفعْ شفاعةً سَيِّئَةً يكنْ له كِفْلٌ منها ، وكان الله على كلِّ شيْءٍ مُقيتاً . » قال المفسرون : الشفاعةُ الحسَنَةُ : هيَ التى رُوعيَ بها حقُّ مُسْلِمٍ ودُفِعَ بها عنه شرٌّ أو جُلب إليه خيرٌ وابْتُغِيَ وَجْهُ اللهُ ولم

(١) بدا ، هى : بدأ ، بالهمز ، فسهل للشعر ، والشباة : طرف السيف وحدّ كل شىء وفلل : كسر

تُؤْخَذُ عليها رِشْوَة، والسَّيِّئَةُ ماكانت بخلاف ذلك. وقوله سبحانه: يكن له نصيب منها: فذلك النصيب: هو ثوابُ الشَّفاعةِ وجزاؤها عند الله، وقوله يكنْ له كِفْلٌ منها: أى نصيب مِنْ وِزْرِها مُساوٍ لها فى القَدْر، وقوله عز وجل: وكان الله على كل شىء مقيتا، فالمقيت: المُقْتَدِرُ منْ أقات على الشىء: إذا قدَر، قال الزُّبَيْرُ بنُ عبد المطلب وقيل لأبى قيس بن رفاعة ـ:

وذى ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ
وكنْتُ على مَسَاءَتِهِ مُقِيتًا (١)

وفُسِّرَ المُقيت بالحافظ واشتقاقه من القُوتِ، فإنه يقوِّى البدن ويحفظه».

ومن أجمل ما قيل فى الجود قول حاتم طيئ:

أماوِىَّ مايُغْنِى الثَّرَاءُ عن الفَتَى
إذا حَشْرَجَتْ يوما وضاق بها الصَّدْرُ

---

(١) روى الصاغانى هذا البيت مع أبيات أخرى هكذا:

وذى ضِغْنٍ كفَفْتُ النَّفْسَ عنهُ وكنْتُ على مَساءَتِه أُقِيتُ
يَبيتُ الليلَ مُرْتَفِقًا ثَقِيلاً على فَرْشِ الفَتَاةِ وماأَبِيتُ
تَعِنُّ إلىَّ منه مُؤْذِياتٌ كما تُؤْذِى الجَذَامِيرَ البَرُوتُ

«المرتفق: المتكئ على مرفقيه، وتعن: تسرع وتظهر، والجذمار: مابقى من أصل السعفة، والبروت: الفأس، لغة يمانيه ينطقونها البرت والبرت، والبروت فاعل تؤذى».

(٢) ماوى: منادى مرخم ماوية وهى زوجه حاتم، وحشرجت: أى النفس وإن لم يتقدم لها ذكر، لدلالة الكلام

أماوِيَّ إنْ يُصْبِحْ صدَاىَ بِقَفْرةٍ
مِنَ الأرْضِ لاماءٌ لَدَىَّ ولا خَمْرُ (١)
تَرَىْ أنَّ ما أبْقَيْتُ لمْ أكُ رَبَّهُ
وأنَّ يَدِى مِمَّا بَخِلْتُ بِهِ صِفْرُ (٢)
أماوِىَّ إنَّ المَالَ غادٍ ورَائِحٌ
ويَبْقَى مِنَ المَالِ الأحاديثُ والذِّكرُ
غنِينَا زَمانًا بالتَّصعْلُكِ والغِنى
وكُلًّا سَقاناهُ بكأسَيْهمَا الدَّهْرُ (٣)
فما زادنا بَأْوًا على ذى قرابة
غِنانا ولا أَزرَى بأحسابنا الفقر (٤)

ألست معى فى أن على هذه الأبيات مَسحةً من الجمال وأثرا بينًا من الصدق وأن لها لَوْطَةً مِن ثَمَّ بالقلب ! أليس حاتمٌ يقول : الحقَّ أقول : إنه لا ينبغى لك ياماوية أن تلومينى على إنفاق مالى فى سبيل البرّ والإلطاف ، والتَّخَرُّقِ فى النوال وقرى الأضياف ، أما تعلمين أن مال المرءِ لا يُغْنِى عنه شيئا إذا ما الموت رماه بسهامه وغادر هذه الحياة ، أما تعلمين أن المرء مَتى نُبِذ جسدُه بالعَرَاء وأُودع حُفرةً مُوحشةً مُقفرة ليس معه شىء مما كان يحتَازُهُ فى هذه الدنيا من مال ، بدا لك أن المال الذى تركتُهُ وبَخِلتُ به على مُستَحِقّيه أصبح

(١) الصدى هنا : جسد الانسان بعد موته

(٢) ربه : صاحبه ، وصفر: خلو (٣) غنينا : عشنا ، غنى كفرح : عاش ، وغنى بالمكان : أقام ، والمراد بالتصعلك الفقر ، وبكأسيهما : يعنى الفقر والغنى

(٤) البأو : الكبر والفخر ، يقال : بأوت على القوم أبأى بأوا ...

ملكا لغيرى وأصبحت أنا خاليَ الوِفاض[١] باديَ الإنفاض[٢] لا أملك من هذا المال شَرْوَى نقير[٣] ! أليس الأخلقُ بى لذلك أنْ أُنفِقَهُ وأتسَخّى به على أهليه ، فأنتفعَ بعد موتى ـ إذا أنا فعلتُ ـ بالذكر فى الناس والحديث الحسن! وأيَّةُ قيمة للمال ياماوية ، ذلك الذى يجىء ويذهب ، ويغدو ويروح ! أليس الأخلقُ بالعاقل الثاقب النظر أن يُفيد منه ماهو أبقى على الزمن الباقى من الزمن ـ أن يفيدَ منه الذكر من طريق إنفاقه ، والجودَ به فى وجوه استحقاقه ! لقد عشنا يازوجتى حينا من الدهر أغنياء كما عشنا حينا فقراء ، وكُلاًّ سقاناه الدهر بكأسيهما ، فما أزرى الدهر بأحسابنا ، ولا أصْغَى إناءَ أعْراضنا ، ولا أسفَّ بأخلاقنا ، كما هو شأنه مع ضعفاء النفوس ، وكذلك إذ كنَّا أغنياء ، ما أبطرنا الغِنى ، وما أطغانا ، على ذوى قُربانا ، لِأنا نعلم علما ليس بالظنِّ أن المال عَرضٌ زائل ، أمّا الجوهر ، أما الذِّكر ، أماالشرف ، أما الخُلق ، فكل أولئك هو الذى عليه المعوَّل ، وإنه لذخيرة لاتنْفَدُ ، وهى حَسْبُ العاقل الذى راض نفسه على السكون إلى الحقائق ، ولم يُخْلِدْ إلى أمّ دَفْرٍ[٤] باطل الأباطيل . . .

* * *

«أما بعد» فلقد أذكرتنا هذه العبقريات الكريمة من القول ، عبقريَّةَ رجل من رجالات السلف لقد بلغ المبالغ فى الإحسان واصطناع المعروف ، وإغاثة الملهوف ، وإنه لحُقّ علينا أن نعرض شيئا لهذه العبقرية من الفَعال[٥] ، إذ أن كتابنا هذا ليس بمقصور على العبقرى من القول وإنما نعرض كذلك للعبقرى من الأناسىّ فى أى معنى من المعانى[٦] على شريطة أن يكون ذلك لِماماً . فلا

(١) فارغ الجراب (٢) ظاهر الفقر (٣) النقير : نكتة فى النواة يكون منها منبت النخلة وشروى نقير : مثل هذه النكتة (٤) أم دفر : الدنيا وأصل الدفر : النتن (٥) الفعال بفتح الفاء : الفعل الحسن (٦) فى أى معنى : متعلق بالعبقرى

نغفل الإغفالَ كلَّه ما يَعنينا من سِيَر العبقريين، ويَمُتُّ منها بسبب واصل إلى أى باب من أبواب هذا الكتاب، ولا نتبسط التبسُّطَ الذى يُلحِقنا بأصحاب السير والمُترجِمين؛ وشخصيتنا التى حبَّب الله إلينا أن نُلِمّ بعَبْقَرِيتها فى باب البر والإحسان هو رجل من رجال أسلافنا كما قلنا — هو قاضى القضاة أحمد بن أبى دُوَاد....

أحمد بن أبى دواد (*)

كان هذا أحمد بن أبى دُواد شخصيةً ضخمةً ذاتَ أثر فَعَّالٍ خالد فى تاريخ الإسلام، إذ أنه كان من أشياع المُعْتَزِلةِ، وكان فى طليعة القائلين بخلْق القرآن، العاملين على ترويج هذه البدعة، مستظهراً على ذلك بجاهه ونُفوذِهِ لدَى المأمون والمُعتصم والواثق. وليس فيه من مَغْمَزٍ ـ فى نظر رجالِ الحديث وأهل السُّنَّة والجماعةِ ـ إلا هذه ... قال محمد بن يحيي الصُّولى: لولا ماوَضع به نفسه من مَحَبَّةِ المِحْنة ـ مِحْنَة القول بخلق القرآن، وحَمل الناس عليه ـ لاجتمعت الألسُنُ عليه، ولم يُضَفْ إلى كرمه كرمُ أحدٍ... ومَنْ أحبَّ الوقوف على مَوْقف ابن أبى دُوادٍ من هذه المسألة فليرجِع إلى مَظانّها ... ومن قولهم فى مكانته من العلم والأدب، ومنزلته من الجاهِ والسلطان، ورسوخِ قدمه فى الفضل والنُّبل ومكارم

(*) قال ابن خلكان ـ بعد أن سرد نسبه ونماه إلى إياد بن نزار بن معد بن عدنان أى أنه عربى إيادى ـ إن أصله من قرية بقنسرين، واتجر أبوه إلى الشام وأخذه معه وهو حدث، فنشأ أحمد فى طلب العلم وخاصة الفقه والكلام حتى بلغ مابلغ، وصحب هياج بن علاء السلمى ـ وكان من أصحاب واصل بن عطاء ـ فصار الى الاعتزال، وكانت ولادته سنة ١٦٠ هـ بالبصرة وتوفى سنة ٢٤٠ بعد أن أصيب بالفالج فى زمن المتوكل

الأخلاق ، وأفاعيله المُخَلَّدَةِ في هذه المعاني ـ والكلام يدخُل بعضه في بعض ـ : قال أبو العيناءِ[1] مارأيت رئيساً قَطُّ أفصحَ ولا أنطَقَ من ابن أبي دُواد ، وقال : كان ابنُ أبي دُوَادٍ شاعراً مُجيداً ، فصيحا بليغا : وقد ذكره دِعْبِل بن عليّ الخُزَاعيُّ ـ الشاعر العبقريُّ ـ في كتابه الذي جمع فيه أسماء الشعراء وروى له أبياتا حِسانا . وقال أبو بكر الجُرْجانيّ : سمعت أبا العيناء الضريرَ يقول : مارأيت في الدنيا أقوَمَ على أدبٍ من ابن أبي دُواد ـ يُريد أبو العيناء بالأدبِ هنا : أدبَ النفس ـ ماخرجت من عنده يوما قَطُّ فقال : ياغلام خذ بيده ، بل قال : ياغلام آخرُجْ معه ، فكنت أنتقِدُ هذه الكلمة عليه ، فلا يُخِلُّ بها ولا أسْمَعُها من غيره ... قالوا : وهو أوّلُ مَن افتتح الكلامَ مع الخلفاءِ ، وكانوا لا يَبْدَؤُهم أحدٌ حتى يبْدَؤُوه . وقال إبراهيم بن الحسن : كنا عند المأمون ، فذكروا من بايَعَ من الأنصار ليلةَ العَقَبةِ ، فاختلفوا في ذلك ، ودخل ابنُ أبي دُواد ، فعدَّهم واحداً واحدا بأسمائهم وكُناهم وأنسابهم ، فقال المأمون : إذا اسْتجلسَ الناس فاضلا فمِثْلَ أحمد ، فقال أحمد : بل إذا جالس العالِمُ خليفةً فمِثْلَ أمير المؤمنين ، الذي يفْهَم عنه ، ويكون أعلمَ بما يقوله منه . وقال أحمد بنُ عبد الرحمن الكلبيُّ : ابن أبي دُواد رُوحٌ كلُّه من قرنه إلى قدَمِه . وقال لازونُ بن اسماعيلَ : مارأيت أحدا قَطُّ أطوعَ لأحد ، من المُعْتصم لابن أبي دُوَاد ، كان ـ المعتصم ـ يُسْأَلُ الشيءَ اليسير فيمتنع منه ، ثم يدخُل ابن أبي دُواد فيكلمه في أهله

(١) أبو العيناء هو أبو عبدالله محمد بن القاسم الضرير ، ولد سنة ١٩١ وتوفي سنة ٢٨٢ كان من ظرفاء العالم وفيه من اللسن وسرعة الجواب مالم يكن لأحد من نظرائه ، وترى نوادره مبعثرة في هذا الكتاب

وفى أهل الثغور وفى الحرمين وفى أقاصى أهل المَشْرِق والمغرب ، فيجيبه إلى كل مايريد ، ولقد كلمه يوما فى مقدار ألفِ ألف دِرْهم ليُحْفَرَ بها نهر فى أقاصى خراسان ، فقال له : وما علىَّ من هذا النهر ، فقال : ياأمير المؤمنين ، إن الله تعالى يسألُكَ عن النظر فى أمر أقصى رَعِيَّتِك ، كما يسألك عن النظر فى أمر أدناها ، ولم يزل يَرْفُقُ به حتى أطاقها . قالوا : وكان ابتداء اتِّصال ابن أبى دُواد بالمأمون ماحدَّث به ابنُ أبى دواد نفْسُه ، قال : كنت أحْضُرُ مجلسَ القاضى يَحْيى بنِ أكثم ، مع الفقهاء ، فإنى عنده يوماً إذ جاءه رسول المأمون ، فقال له : يقول لك أميرُ المؤمنين : انتقل إلينا أنتَ وجميعُ من معك من أصحابك ، فلم يُحِبَّ أن أحضُرَ معه ، ولم يستطع أن يُؤَخِّرَنى ، فحضرت مع القوم ، وتكلَّمْنا بحضرة المأمون ، فأقبل المأمون ينْظُر إلىّ إذا شرَعْتُ فى الكلام ، ويتفَهَّم ماأقول ، ويستحسِنُه ، ثم قال لى : مَن تكون ؟ فانْتَسَبْتُ له ، فقال : ماأخَّرَك عنا ؟ فكَرِهت أن أُحِيلَ على يحيى ، فقلت : حُبْسَة القدَر ، وبلوُغ الكتاب أجلَه ، فقال : لاأعْلَمَنّ ما كان لنا من مجلس إلا حَضَرْتَه ، فقلت : نعم ، ياأمير المؤمنين ، ثم اتصل الأمر ، وقيل : قَدِم يحيى بنُ أكثَمَ قاضيا على البَصرة من خُراسان ، من قِبَل المأمون ، فى آخر سنة ٢٠٢ وهو حَدَثٌ ، سِنُّه نَيِّفٌ وعشرون سنة ، فاستصحب جماعةً من أهل العلم والمُروآت ، منهم ابن أبى دُواد ، فلما قَدِم المأمون بغداد فى سنة ٢٠٤ قال ليحيي : اخْتَرْلى من أصحابك جماعةً يُجالسونى ويُكثِرُونَ الدخول إلىّ ، فاختارمنهم عشرين ، فيهم ابن أبى دواد ، فكثُروا على المأمون ، فقال : اخْتَرْ منهم ، فاختار عشرة فيهم ابن أبى دواد ، ثم قال : اخْتَرْ منهم ، فاختار خمسة ، فيهم ابن أبى دواد ، واتصل أمْرُه ... وكان من وصية المأمون إلى أخيه المُعتصم عند الموت :

وأبو عبدالله أحمد بن أبى دواد لا يُفارِقُك الشركةَ فى المَشُورَةِ فى كلّ أمرِكَ، فإنه موضع ذلك، ولا تتخِذَنّ وزيرا، فلما ولِىَ المعتصم، جعل ابنَ أبى دواد قاضىَ القضاة مكان يحيى بن أكثم، وكان لا يفعل فِعلا باطناً ولا ظاهرا إلا برأيه ... ولما مات المعتصم وتولّى بعده ولدُه الواثِقُ بالله حَسُنَت حالُ ابن أبى دواد، وما زال إلى أن وَلِىَ أخوه المُتوكّلُ، فأُصيب ابن أبى دواد بالفالج فكانت مدة عظمة ابن أبى دواد ونُفوذه وجاهِه نحوًا من ثمان وعشرين سنة ...

قال ابن خلكان ـ الذى نعتمد عليه فى هذا الباب ـ : وكان ابن أبى دواد كثيرا ما يُنشِد ـ ولم يذكر أنهما له أو لغيره ـ :

ماأنتَ بالسّببِ الضّعيفِ وإنما نُجْحُ الأُمورِ بقُوّةِ الأسبابِ
فاليومَ حاجتُنا إليكَ وإنما يُدْعَى الطّبيبُ لِشدّةِ الأوْصابِ

ومن كلامه : ثلاثةٌ ينبغى أن يُبجّلوا وتُعرف أقدارُهم : العلماء، ووُلاةُ العدل، والإخوان، فمن استخفّ بالعلماء أهلَكَ دينَه، ومن استخفّ بالوُلاه أهلَكَ دُنياه، ومن استخفّ بالإخوان أهلك مُروءته، ومن كلامه أيضا : ليس بكامل من لم يَحمِلْ وليّه على مِنْبَرٍ ولو أنه حارس، وعَدُوّه على جِذْعٍ ولو أنه وزير[1]

(١) هذا على حد قول عبدالله بن معاوية :

إذا أنتَ لم تنفَعْ فضُرّ فإنما يُرَجّى الفتى كيما يَضُرّ ويَنْفَعا

وقول الآخر :

ولكن فتى الفِتْيان من رَاحَ واغْتَدى لِضَرّ عدوٍّ أو لِنَفْعِ صَديقِ

وقول المتنبى :

لمنْ تَطْلُب الدنيا إذا لم تُرِدْ بها سُرورَ مُحِبٍّ أوْ إساءَةَ مُجْرِمِ

وقول ابن الرومى :

=

وكان بين ابن أبى دواد وبين الوزير الجبّار محمد بن عبد الملك الزيات ، الذى تؤثر عنه هذه الكلمة : الرحمةُ خَوَرٌ فى الطبيعة ـ منافساتٌ وشَحْناء ، حتى إن شخصا كان يصحَب ابن أبى دواد ويختص بقضاء حوائجه ، مَنَعه الوزير المذكور من التردُّد إليــه ، فبلغ ذلك ابنَ أبى دوادٍ ، فجاء إلى الوزير وقال : والله ، ماأجيئك مُتَكَثِّرا بك من قِلّة ، ولا مُتَعَزّزا بك من ذِلَّة ، ولكن أمير المؤمنين رَتّبكَ مَرْتبة أوْجبت لِقاءك ، فإن لَقِيناك فله ، وإن تأخرنا عنك فلَكَ ... ثم نهض من عنده ... قال ابن خلكان : وكان فيه ـ فى ابن أبى دواد ـ من المكارم والمحامد ما يستغرق الوصف ... وكان يقال : أكرَمُ من كان فى دولة بنى العباس البرامكة ثم ابن أبى دواد ... حدَّث الجاحظ قال : غَضِبَ المعتصم على رجل من أهل الجزيرة الفُراتيّة ، وأُحْضِر السيف والنّطع [1] فقال له المعتصم : فعلْتَ وصَنعْت ، وأمر بضرب عُنُقِه ، فقال له ابن أبى دواد : ياأمير المؤمنين ، سَبَقَ السيفُ العَذَلَ [2] ، فتأنَّ فى أمره فإنه مظلوم ، قال : فسكن المعتصم

= وليس يَصْلُح لاستِصْلاح مَمْلَكةٍ غيرُ امرىءٍ نافعٍ بالحقِّ ضَرّارِ
ووليه : يريد صديقه وكل من يمت اليه بسبب واصل ، ويريد بحمله على المنبر نصرته والارتفاع به،ويريد بحمل عدوه على جذع : صلبه والقضاء عليه ،وقوله : ولو أنه حارس ، أى خفير ، يريد ولو أنه حقير ، ولعله قال هذه الكلمة وهو يعرض بابن الزيات الوزير .

(١) النطع : بساط من جلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس وفيه لغات : نِطْع ونَطْع ونَطَع ونِطَع والجمع نطوع وأنطاع

(٢) هذا مثل،والعذل : اللوم وأصله أن الحارث بن ظالم ضرب رجلا فقتله فأخبر بعذره فقال : سبق السيف العذل،يضرب لما قد فات

قليلا ، قال ابن أبي دواد : وغَمَزنى البَوْلُ فلم أقدر على حبسه ، وعلمت أنى إن قمتُ قُتِل الرجل ، فجمعتُ ثيابى تحتى وبُلْتُ فيها ، حتى خَلَّصْتُ الرجل قال : فلما قمت نظر المعتصم إلى ثيابى رَطْبَةً فقال : ياأبا عبد الله ، أكان تحتك ماءٌ ؟ فقلت : لا ، ياأمير المؤمنين ، ولكنه كان كذا وكذا ! فضحك المعتصم ، ودعالى وقال ، أحسنت ، بارك الله عليك ، وخلَع عليه وأمر له بمائة ألف درهم ... وقال أبو العيناء : كان الأفْشِينُ - التركىُّ وكان من أجلِّ قواد المعتصم ، وأبْلىَ فى أمرِ بابَك الخُرَّمِيِّ بلاءً حمِده له - يَحْسُد أبا دُلَف القاسمَ بنَ عيسى العِجْليَّ (١) - وهو كذلك أحد قُوّاد المأمون ثم المعتصم من بعده . وكان تحت إمْرَةِ الأفشين فى حرب بابَك - للعربية والشجاعة

(١) وهذا أبو دلف كان كذلك كريما سريا جوادا ممدحا شجاعا مقدما فاضلا ، مدحه أبو تمام وعلى بن جبلة المعروف بالعكوك وبكر بن النطاح ، وفيه يقول العكوك قصيدته التى يقول فيها :

إنما الدنيا أبو دُلَفٍ ... بين مَغزاه ومحتَضَرِه

فإذا وَلّى أبو دلفٍ ... ولّتِ الدنيا على أثرِه

كلُّ من فى الأرض من عرب ... بين باديه إلى حَضرِه

مُستعيرٌ منك مكرُمَة ... يكتسيها يومَ مفتخره

ويقول بكر بن النطاح :

ياطالبا للكيمياء وعلمِه ... مدحُ ابن عيسى الكيمياءُ الأعظم

لولم يكن فى الأرض إلا دِرهم ... ومَدَحْتَه لأتاك ذاك الدرهم

وقد أعطاه أبو دلف على هذين البيتين عشرة آلاف درهم ... هذا ودلف اسم علم ممنوع من الصرف للعلمية والعدل لأنه معدول عن دالف، قاله ابن برى

فاحتال عليه حتى شَهِد عليه بجناية قتْل ، فأخذه ببعض أسبابه ، فجلس له وأحْضَره ، وأحضر السَّيَّافَ ليقتلهَ ، وبلغ ابنَ أبى دؤاد الخبرُ ، فركِب من وقته مع من حضر من عُدُولِه ، فدخل على الأفشين ، وقد جىء بأبى دُلَفَ ليُقتل ، فوقف ، ثم قال : إنى رسول أمير المؤمنين إليك ، وقد أمرك أن لاتُحْدِث فى القاسم بن عيسى حدَثا حتى تُسَلِّمه إلىَّ ، ثم التفت إلى العدول وقال : اشهدوا أنِّى أدَّيتُ الرسالة إليه عن أمير المؤمنين والقاسمُ حىٌّ مُعافًى ، فقالوا : قد شهدنا ، وخرج ، فلم يقدرِ الأفشين عليه ، وسار ابن أبى دواد إلى المعتصم من وقته ، وقال : ياأمير المؤمنين ، قد أدَّيْتُ عنك رسالةً لم تقُلها لى ، ماأعتدُّ بعملِ خيرٍ خيرًا منها ، وإنى لأرجو لك الجنة بها ، ثم أخبره الخبر ، فصوَّب رأيه ، ووجَّه من أحضر القاسم ، فأطلقه ووهب له : وعنَّفَ الأفشينَ فيما عزَم عليه ... ومن مُروآته : أن المعتصم كان قد اشتدَّ غيظه على محمد بن الجهْم البَرْمَكىِّ ، فأمر بضرب عُنُقِه ، فلما رأى ابن أبى دواد ذلك وأن لاحيلة له فيه وقد شُدَّ برأسه وأقيم فى النِّطْعِ وهُزَّ السيفُ قال ابن أبى دواد للمعتصم : وكيف تأخذ ماله إذا قتلته ؟ قال المعتصم : ومَن يحُولُ بينى وبينه ؟ قال : يأبى الله تعالى ذلك ، ويأباه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأباه عدل أمير المؤمنين ، فإن المال للوارث إذا قتلته حتى تُقيمَ البيِّنَةَ على مافعله ، وأمْرُه باستِخْراج مااخْتانه أقربُ عليك وهو حىٌّ ، فقال : احبسوه حتى يُناظَر ، فتأخَّر أمره على مالٍ حمله « أى كفَله » ، وخلَص محمد ... وقال أبو العيناء : غضب المعتصم على خالد بن يزيد بن مزْيَدٍ الشَّيبانىِّ ، وأشخصه من وِلايته ، لعَجزٍ لِحَقه فى مالٍ طُلبَ منه ، وأسبابٍ غير ذلك . فجلس المعتصم لعقوبته ، وكان قد طَرَح نفسه على ابن أبى دُواد ، فتكلم فيه فلم يُجبه المعتصم ،

فلما جلس لعقوبته حضر ابن أبي دواد ، فجلس دون مجلسه ، فقال له المعتصم : ياأبا عبد الله ، جلست فى غير مجلسك ! فقال له : ماينبغى أن أجلس إلا دون مجلسى هذا ... فقال له : وكيف ؟ قال : لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعى موضع من يَشْفَعُ فى رجل فلا يُشَفَّع ، قال : فارجع إلى مجلسك ، قال : مُشَفَّعاً أو غير مُشَفَّع [١] ؟ فقال : بل مشفَّعاً ، فارتفع إلى مجلسه ، ثم قال : إن الناس لايعلمون رِضا أمير المؤمنين عنه إن لم يَخْلَع عليه [٢] ـ فأمر بالخلع عليه ، فقال : ياأمير المؤمنين ، قد استحقَّ هذا وأصحابُه رِزْقَ ستة أشهر لابد أن يقبضوها ، وإن أمرت لهم بها فى هذا الوقت قامت مقام الصِّلَة ، قال : قد أمرتُ لهم بها ، فخرج خالد وعليه الخِلع ، والمال بين يديه ، وإن الناس ينتظرون فى الطرق الإيقاعَ به ، وصاح رجلٌ : الحمد لله على خَلاصك ياسيدَ العرب ، فقال خالد : اسْكتْ ، سيِّدُ العرب والله أحمد بن أبى دواد ... وقال الواثق يوما لابن أبى دواد ـ تضجُّراً بكثرة حوائجه : قد اختلَّتْ بيوت المالِ بطلباتكَ للَّائذين بك والمُتوسِّلين إليك ! فقال : ياأمير المؤمنين ، هى نتائجُ شُكْرُها مُتَّصِلٌ بك ، وذخائرُ أجرُها مكتوب لك . ومالى من ذلك إلا أن أخلِّدَ المدح فيك ، فقال : أحسنت .

« وبعد » فلنَتجزَّأ بهذا المقدار من مساعى ابن أبى دواد سيد العرب وعبقريِّها فى النجدة والمروءة والكرم والأريحيّة والشجاعة الأدبية

(١) يقال : شفع له وتشفع له إلى الملك مثلا ، فشفعه فيه تشفيعا ، فالطالب شفيع وشافع ، والمشفَّع : الذى تقبل شفاعته ، أما المشفِّع فهو الذى يقبل الشفاعة

(٢) قال فى أساس البلاغة : خلع عليه : إذا نزع ثوبه وطرحه عليه ، وكساه الخلعة والخلع

وما ألف لف هذه المعانى الكريمة مما انبعثت له قرائح فحول شعراء الإسلام، أمثال أبى تمام، فأنطقتهم بالمأثور من الشعر الفخم، وامتدحوا به هذا الرجل العظيم، فقال أبو تمام :

لقد أنست مساوىَ كلِّ دهرٍ محاسنُ أحمدَ بنِ أبى دُوادِ
وما سافرتُ فى الآفاقِ إلا ومن جَدْواكَ راحلتى وزادى

قال على الرازى: رأيت أبا تمام عند ابن أبى دواد ومعه رجل يُنشِدُ عنه قصيدة منها هذان البيتان ، فلما أنشدهما قال ابن أبى دواد لأبى تمام : هذا المعنى تفرّدتَ به أم أخذته ؟ فقال : هولى ، وقد ألممتُ فيه بقول أبى نواس :

وإن جرتِ الألفاظ منَّا بمدحةٍ لغيركَ إنساناً فأنتَ الذى نَعْنِى

ومدحه أبو تمام أيضا بقصيدته التى أولها :

أرأيتَ أىَّ سوالفٍ وخُدُودِ عَنَّتْ لنا بين اللِّوَى وزَرُودِ

وفيها الأبيات الثلاثة البديعة فى الحسد :

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فضيلةٍ طُوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعالُ النار فيما جاورتْ ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ
لولا التخوُّفُ للعواقِبِ لم تزلْ للحاسِدِ النُّعمَى على المحسُودِ

ودخل أبو تمام عليه يوما ، وقد طالت أيامه فى الوقوف ببابه ولا يصل إليه ، ولما وصل قال له ابن أبى دواد : أحسبُكَ عاتبا يا أبا تمام ، فقال أبو تمام : إنما يُعْتَبُ على واحدٍ وأنتَ الناسُ جميعا ، فكيف يُعتَبُ عليه ! فقال له : مِنْ أينَ لك هذا يا أبا تمام ؟ فقال من قول الحاذِقِ — يعنى أبا نواس — فى الفضل بن الربيع :

وليس على الله بِمُسْتَنْكَرٍ أنْ يجمعَ العالَم فى واحد[١]

ولمّا وُلِّيَ ابنُ أبى دواد المظالِمَ قال أبو تمام قصيدة يتظلم إليه، من جملتها قوله:

إذا أنتَ ضَيَّعْتَ القَرِيضَ وأهْلَهُ فلا عجَبٌ إن ضَيَّعَتْهُ الأعاجِمُ

فقدْ هَزَّ عِطْفَيْه القريضُ توقُّعًا لِعَدْلِكَ مُذْ صارتْ إليك المَظالمُ

ولَولا خِلَالٌ سَنَّهَا الشعرُ مادَرَى بُغاةُ العُلى مِنْ أين تُؤْتَى المَكارمُ

ومَدائحُ أبى تمام وغيرِ أبى تمام فيه كثيرة متوافرة ... وقال أبو بكر بن دريد: كان ابن أبى دواد مُؤَالِفًا لأهل الأدب من أىِّ بَلَدٍ كانوا، وكان قد ضمَّ منهم جماعةً يَعُولهم ويَمُونُهم، فلما مات حضر ببابه جماعةٌ منهم وقالوا يُدْفَنُ من كان ساقَةَ الكَرَم[٢] وتاريخَ الأدب ولا نتكلَّمُ فيه! إنّ هذا وَهْنٌ[٣] وتقصير، فلمّا طَلَعَ سَرِيرُه قام إليه ثلاثةٌ منهم، فقال أحدهم:

اليَومَ مات نِظامُ المُلْكِ واللَّسَنِ وماتَ من كان يُسْتَعْدَى على الزَّمَنِ[٤]

---

(١) وأخذه أبو نواس من قول جرير:

إذا غَضِبَتْ عليك بنو تميم حَسِبْتَ الناس كُلَّهُم غِضابًا

(٢) الساقة: جمع سائق وهم الذين يسوقون جيش الغزاة ويكونون من ورائه يحفظونه، فلعل هؤلاء الأدباء يريدون بقولهم من كان ساقة الكرم: أنه كان يحوط الكرم ويحفظه فكأنه الجيش الذين يحفظون جيوش الكرم، والمراد: أنه أمير الكرم إذ أنه يحوطه ويحفظه

(٣) وهن: ضعف

(٤) يقال: استعديت الأمير على فلان فأعدانى: أى استعنت به عليه فأعانى والاسم منه العدوى وهى المعونة

وأظلمَتْ سُبُلُ الآداب إذْ حُجِبَتْ شمسُ المكارمِ فى غَيْمٍ مِنَ الكَفَنِ

وتقدم الثانى فقال :

تَرَكَ المنابِرَ والسَّرِيرَ تَواضُعًا وله مَنَابِرُ لَوْ يَشَا وسَرِيرُ
ولغيره يُجْبَى الخراجُ وإنما تُجبَى إليهِ محامِدٌ وأُجُورُ(١)

وتقدم الثالث فقال :

وليس فَتِيقُ المِسْكِ رِيحَ حُنُوطِهِ ولكنَّهُ ذاك الثناءُ المُخَلَّفُ(٢)
وليس صَرِيرُ النَّعْشِ ما تَسْمَعُونَهُ ولكنه أصلابُ قَوْمٍ تَقَصَّفُ(٣)

رسالة للجاحظ ينضح فيها عن الجود

«وبعد» فلْنَنْعَطِفْ على كلامهم فى الجُودِ وذَمّ البُخْل : أورد الجاحظ فى كتابه « البخلاء » رسالة جميلة جدًّا نسبها إلى أبى العاصى بن عبد الوهاب ابن عبد المجيد الثقفىّ ـ أرسلها إلى رجل من عشيرته، وقد سمع بأنه يَجْلِسُ إلى قومٍ من البُخلاء، أمثال سَهْل بن هارون والأصمعِىّ، وقد تأثر بمذهبهم فى البخل وامتداحهم إياه، فكتب إليه هذه الرسالة يَنْعَى فيها على البخلاء مذهبهم، ويذم البخل وينَوِّه بالجود ـ ونحن فإنا نقتطف من هذه الرسالة نُتَفًا ونترك سائرها لمن يحب أن يراجِعَها فى كتاب البخلاء ـ قال :

---

(١) أجور : جمع أجر وهو الثواب

(٢) فَتْق المسك : استخراج رائحته بشىء تخالطه به، ومسك فتيق : مستخرج الرائحة بحلّه فى غيره ـ كما يفعلون اليوم به وبالعنبر .

(٣) الأصلاب : جمع صلب وهو العظم من لدن الكاهل إلى العجب، وتقصف : بحذف إحدى التاءين أى تتقصف والتقصف : التكسر

وهل تزيدُ حالُ مَن أنفق جميعَ مالِه، ورأى المكروهَ فى عيالِه، وظهَر فقرُه، وشمِتَ به عدوُّه، على أكثرَ مِن انصرافِ المؤنِسين عنه، وعلى بُغضِ عياله [(١)]، وعلى خُشونةِ الملبَس، وجُشوبةِ المأكل [(٢)]؟ وهذا كلّه، مُجتمِعٌ فى مَسْك [(٣)] البخيل، ومَصبوبٌ على هامَة [(٤)] الشحيح، ومُعَجَّل للئيم [(٥)] ومُلازِمٌ للمَنُوع؛ ألَا إنّ المُنفقَ قد رَبِحَ المحْمَدةَ، وتمتَّع بالنِّعمة، ولم يُعطِّل المَقْدُرَة [(٦)] ووَفَّى كُلَّ خَصْلةٍ منْ هذه حقها، ووفَّر عليها نَصيبَها، والمُمسِكُ معذَّبٌ، بحَصْرِ نفسه، وبالكدِّ لِغيره؛ مع لُزوم الحجة [(٧)]، وسقوط الهِمّة [(٨)] والتعرُّض للذمِّ والإهانة، ومع تحكيم المِرّة السوداءِ فى نفسه [(٩)] وتسليطها على عِرضه، وتمكينِها من عيشه، وسرورِ قلبه [(١٠)]

إنّ الله جوادٌ لا يَبْخَل، وصَدُوقٌ لا يَكذِب، ووَفِيٌّ لا يَغْدِر، وحكيمٌ لا يَعْجَل، وعدْلٌ لا يظْلِم. وقد أمَرَنا بالجود، ونهانا عن البُخْل؛ وأمرنا بالصدق، ونهانا عن الكذب؛ وأمرنا بالحِلْم، ونهانا عن العَجَلة؛ وأمرنا بالعدل، ونهانا عن الظلم؛ وأمرنا بالوفاء، ونهانا عن الغَدْر.

---

(١) أى بغضهم له (٢) جشوبة المأكل : غلظه وخشونته أو قلة إدامه
(٣) المسك : الجلد والمراد : النفس والشخص (٤) الهامة : الرأس والجمع : هام (٥) اللئيم : الشحيح النفس (٦) أى لم يعطل المقدرة على فعل الخير وكسب الثناء (٧) مع لزوم الحجة : أى مع قيام الحجة عليه فى بخله وعجزه عن الذياد عن نفسه (٨) سقوط الهمة : العجز عن جلائل الأعمال
(٩) المرة : خلط من أخلاط البدن، والمزاج الأسود : هو المزاج المضطرب الكثير المخاوف والوساوس
(١٠) وتسليطها : يعنى أنه بمخاوفه ووساوسه يستهدف للذم، وتتمكن هذه المرة من نفسه فتنغص عليه عيشه وتعصف بسروره

فَلَمْ يَأْمُرْنا إلا بما اختار لنفسه، ولم يَزْجُرْنا إلا عما لم يَرضَهُ لنفسه: وقد قالوا بأجمعهم: إنّ اللهَ أجودُ الأجودِين، وأمجدُ الأمجَدِين؛ كما قالوا: أرْحمُ الراحمين، وأحسنُ الخالقين. وقالوا فى التأديب لسائليهم، والتعليم لأجوادهم: لاتجاوِدوا الله[1] فإنّ اللهَ - جَلّ ذِكْرُه - أجودُ وأمجدُ. وذكر نفسَه جلّ جلالُه، وتقدّستْ أسماؤه - فقال: «ذو الفضل العظيم» و «ذو الطَّوْل[2] لا إله إلا هو» وقال: «ذو الجلال والإكرام»

✡ ✡ ✡

وذكَروا النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقالوا: لم يَضعْ دِرْهمًا على درهم، ولا لَبِنَةً على لَبِنَةٍ. وملَكَ جزيرةَ العرب، فقبَض الصدقاتِ، وجُبِيَتْ له الأموالُ، ما بين غُدْرانِ العِراقِ إلى شَحْرِ عُمانَ[3] إلى أقصى مَخالِيف[4] اليمنِ ثم تُوُفّىَ وعليه دَيْنٌ، ودِرْعُه مرهونةٌ. ولم يُسألْ حاجةً قطُّ فقال: لا. وكان إذا سُئِل أعطى، وإذا وَعدَ أو أطْمعَ، كان وَعْدُه كالعِيان[5]، وإطْماعُه كالإنجازِ. ومدَحتْه الشُّعراءُ بالجود. وذَكَرتْه الخطباءُ بالسَّماح. ولقد كان يهَبُ للرجل الواحدِ الضاجعةَ من الشَّاء[6] والعَرْجَ من الإبل[7] - وكان أكثرُ مايهَبُ الملِكُ من العرب مائةَ بعيرٍ، فيقال: وهب هُنَيدةً[8]. وإنما

---

(١) أى لاتحاولوا أن تصلوا فى الجود إلى مثل جود الله (٢) الطول: الإنضال والإنعام (٣) ساحل البحر بين عمان وعدن (٤) المخلاف: الكورة وهو عند أهل اليمن واحد المخاليف وهى كورها أى المدن والأصقاع

(٥) العيان: مصدر عاين الشىء: أبصره والمعنى: أن وعده فى الوثوق بتحققه كالشىء المشاهد (٦) الضاجعة: الغنم الكثيرة (٧) العرج من الإبل: مابين السبعين إلى الثمانين وقيل: مابين الثمانين الى التسعين، وقيل: مائة وخمسون وفويق ذلك، وقيل: من خمسمائة الى الألف (٨) هند وهنيدة: اسم للمائة من الإبل خاصة

يقال ذلك ، إذا أريد بالقول غايةُ المدح ، ولقد وَهَبَ لرجلٍ ألفَ بعير . فلما رآها تزدحمُ فى الهوادى [١] قال : أشهدُ أنك نبيٌّ . وما هذا مما تجودُ به الأنفس .

وأجمعَتِ الأممُ كلُّها بَخيلُها وسَخِيُّها وممزوجُها ، [٢] على ذمِّ البخل ، وحَمْدِ الجود ، كما أجمعوا على ذمِّ الكذب وحَمْدِ الصدق .

فمن أراد أن يخالف ماوصف الله ـ جل ذكرُه ـ به نفسَه ، وما مَنَح من ذلك نبيَّه (صلى الله عليه وسلم) ، وما فَطَر على تفضيله العربَ قاطبةً ، والأممَ كافةً ، لم يكن عندنا فيه إلا إكفارُهُ واستسقاطُه [٣]

ولمْ نرَ الأمّةَ أبغضتْ جوادًا قطُّ ولا حقَّرَتْهُ ، بل أحبَّتْه وَأعْظَمتْه ، بل أحبّتْ عَقِبهُ وأعْظَمت من أجله رَهْطَه . ولا وجدْناهم أبغضوا جوادا ، لمجاوزته حدَّ الجود إلى السَّرَف ، ولا حقَّرَتْه ، بل وجدْناهم يتعلمون مناقِبَه ، ويتدارَسون محاسِنَه ، وحتى أضافوا إليه من نوادِرِ الجميل [٤] مالم يفعله ونَحَلُوهُ [٥] من غرائب الكرم مالم يكن لِيبْلُغَه ، ولذلك زعموا أن الثناء فى الدنيا يُضاعف [٦] كما تُضاعف الحسنات فى الآخرة . نعم ، وحتى أضافوا إليه

(١) الهادية والهادى : العنق، والهادية من كل شىء : أوله وما تقدم منه فيكون معنى تزدحم فى الهوادى : تزدحم بأعناقها وهذا ما يشاهد فى الإبل . أو يكون المعنى : تزدحم فى أوائلها وهذا مشاهد أيضا فى كل قطيع

(٢) ممزوجها : من امتزج فيه السخاء والبخل فكان وسطا بين الكريم والبخيل

(٣) فى اللسان : وأكفرت الرجل : دعوته كافراً ، واستسقاطه : إسقاطه من بين العقلاء

(٤) الفعل الجميل (٥) نحلوه : نسبوا اليه (٦) يضاعفه الناس أضعافا كثيرة بما يضيفون اليه ويزيدون عليه

كلَّ مديح شارد [١] ، وكلَّ معروفٍ مجهولِ الصاحب . ثم وجدنا هؤلاء بأعيانهم للبخيل على ضدٍّ هذه الصفة ، وعلى خلاف هذا المذهب : وجدناهم يُبغضونه مرّة ، ويُحَقِّرونه مرّة ، ويبغضون بفضل بغضه ولدَه ، ويحتقرون بفضل احتقارهم له رَهْطَه ، ويُضيفون إليه من نوادر اللؤم مالم يَبلُغه ، ومن غرائب البُخل مالم يفعله ، وحتى ضاعَفوا عليه من سوء الثناء بقدر ماضاعفوا للجواد من حُسن الثناء .

وعلى أنَّا لانجد الجوائحَ [٢] إلى أموال الأسخياء ، أسرَعَ منها إلى أموال البخلاء ، ولا رأينا عدد مَن افتقر من البخلاء أقلَّ .

والبخيل عند الناس ليس هو الذى يَبخَل على نفسه فقط : فقد يستحق عندهم اسمَ البخيل ويستوجب الذم ، من لا يَدَعُ لنفسه هوًى إلا ركِبه ، ولا حاجة إلا قضاها ، ولا شهوة إلا ركبها وبلغ فيها غايته . وإنما يقع عليه اسم البخيل ، إذا كان زاهداً فى كل ماأوجب الشكر ، ونَوَّه بالذكر ، وادّخر الأجر

وقد يُعَلِّقُ البخيلُ [٣] على نفسه من المُؤَن ، ويُلزِمُها من الكُلَف ، ويتخذ من الجوارِى والخدم ، ومن الدوابِّ والحَشَم [٤] ، ومن الآنية العجيبة ، ومن البِزَّة الفاخرة [٥] . والشارةِ الحسنة [٦] ، مايُرْبى على نفقة السَّخِىِّ المُثرى [٧] ويَضعُف على جُود الجواد الكريم [٨] فيَذهب مالُه وهو مذمومٌ ، ويتغيَّرُ

(١) شارد : نافر ، يريد المديح الغريب الذى لايخطر عادة بالبال

(٢) الجوائح : جمع جائحة وهى الآفة

(٣) يعلق : يوجب ويكلف (٤) الحشم : الخدم وهى كلمة فى معنى الجمع ولا واحد لها من لفظها (٥) البزة : الهيئة : يقال : هو حسن البزة

(٦) الشارة هنا : الزينة واللباس

(٧) يربى : يقال : أربى الشىء على كذا : زاد عليه

(٨) ضعف يضعف ، من باب كرم ، زاد

حاله وهو ملوم . وربما غلَب عليه حبُّ القِيان [١] واستُهْتِر بالخِصْيان [٢] .
وربما أفْرَطَ فى حُبّ الصيد ، واستولى عليه حبُّ المراكب [٣] ، وربما كان
إتلافه فى العُرْس والخُرس [٤] والوليمة ، وإسرافُه فى الإعذار [٥] وفى العقيقة [٦]
والوكيرة [٧] ، وربما ذهبت أمواله فى الوضائع [٨] والودائع . وربما كان
شديدُ البُخل ، شديدَ الحبّ للذِّكر [٩] ويكون بُخله أوشَجَ [١٠] ولؤمه أقبح ،
فيُنْفِقُ أموالَه ويُتلف خزائنه ، ولم يَخْرُجْ كَفافا [١١] ولم يَنجُ سليما

كأنك لم تَرَ بخيلا مخدوعا [١٢] ، وبخيلا مضعوفا ، وبخيلا مِضياعا ، وبخيلا

(١) القيان : جمع قينة « بفتح فسكون » الأمة البيضاء مغنية أو غير مغنية

(٢) استهتر بالشىء « بالبناء للمجهول » : أولع به : والولوع بالخصيان نوع من السرف والترف كان شائعا فى أيامهم

(٣) المراكب : جمع مركب والمراد ما يركب من الخيل ونحوها

(٤) الخرس بالضم والخراس بالكسر : طعام يصنع ابتهاجا بالولادة

(٥) الإعذار : وليمة الختان وطعام البناء « الدخلة »

(٦) العقيقة : الشاة تذبح فى اليوم السابع من ولادة المولود

(٧) الوكيرة : الطعام يتخذه الرجل ويدعو إليه عند انتهاء ما كان يبنيه

(٨) الوضائع : جمع وضيعة وهى ما يرفعه الدائن عن المدين من الدين

(٩) شديد الحب لأن يذكر بما ينفقه من مال فى هذه السبيل

(١٠) أى أعلق بنفسه

(١١) الأصل فى معنى الكفاف : ما يكف عن سؤال الناس ويغنى ، ومعنى لم يخرج كفافا هنا : لم يخرج خاليا من الذم وهو فى معنى : ولم ينج سليما

(١٢) يتخيل كاتب الرسالة أن المخاطب ينكر ما ذهب إليه فهو يتجه اليه قائلا : كأنك الخ ، والمضعوف : ضعيف الرأى

نفّاجا [١] وبخيلا ذهب مالُه فى البناء، وبخيلا ذهب ماله فى الكيمياء [٢] ، وبخيلا أنفق ماله فى طمع كاذب ، وعلى أمل خائب ، وفى طلب الولايات ، والدخول فى القَبالات [٣] ، وكانت فِتنتُه بما يؤمّل من الإمرة [٤] ، فوق فتنته بما قد حواه من الذهب والفضة ، وقد رأيناه [٥] يُنفِق على مائدته وفاكهته ألفَ دِرْهم فى كل يوم ، وعنده فى كل يوم عُرْس [٦] ، ولَأنْ يَطعَنَ طاعِنٌ فى الإسلام ، أهونُ عليه من أن يطعن طاعن فى الرغيف الثانى ، ولَشَقُّ عصا الدين ، أهونُ عليه من شَقِّ رغيف ، لا يَعُدُّ الثُّلْمَةَ فى عِرْضه ثلمة ، ويعدها فى ثريدتِه من أعظم الثُّلَم [٧]

وإنما صارت الآفاتُ إلى أموال البخلاء أسرعَ والجوائحُ عليهم أكْلَبَ [٨] ؛

---

(١) النفاج : المدعى المتباهى بما ليس له

(٢) الكيمياء فى زعمهم : تحويل المعادن الخسيسة ـ بالصناعة ـ إلى معادن نفيسة ، أقول : وقد رأيت بعينى رأسى رجلا ثريا من ذوى قرابتنا كان يضرب به المثل فى البخل ولكنه فى أواخر أيامه أضاع ثروته التى كانت تبلغ ثلثمائة فدان من أجود أطيان مديرية الغربية فى سبيل هذا الكيمياء بعد أن تعرف على رجل مغربى قد اشتهر بهذه الصناعة التى كم خربت من بيوت أمثال هؤلاء البخلاء المخبولين

(٣) القبالة ـ بالفتح ـ الكفالة ، واسم لما يلتزمه الإنسان من عمل ودين ونحوها ، والقبيل : الكفيل والضامن

(٤) الإمرة : اسم مصدر، من أمر علينا : إذا ولى

(٥) يريد بخيلا من البخلاء

(٦) العرس من معانيه: الوليمة

(٧) الثلمة : الفرجة فى الشىء المهدوم أو المكسور

(٨) أكلب : أضرى وأولع وأشد

لأنهم أقلُّ توكُّلاً ، وأسوأُ بالله ظنًّا . والجوادُ إما أن يكون متوكلا ، وإماأن يكون أحسنَ بالله ظنًّا ، وهو على كل حال بالمتوكل أشبهُ ، وإلى ماأشبهه أنزعُ[١] ، وكيفمادارأمرُه ، فليس بمن يَتَّكِلُ على حَزْمه ، ويلجأإلى كَيْسِه[٢] ويرجع إلى جَوْدَةِ احتياطه وشدة احتراسِه

واعتلالُ البَخيل بالحَدَثان ، وسوءالظن بتقلُّب الزمان ، إنما هو كناية عن سوء الظن بخالق الحدثان[٣] ، وبالذى يُحْدِث الأزمان وأهلَ الزمان . ولا تجرى الأحداث إلا على تقدير المحدِث لها ؟ وهل تختلف الأزمنة إلا على تصريف من دبَّرها ؟ أوَلَسْنا وإن جهِلنا أسبابها فقد أيقنًا بأنها تجرى إلى غاياتها ؟[٤]

والدليل على أنه ليس بهم خوفُ الفقر ، وأن الجمعَ والمنعَ إما أن يكون عادةً منهم ، أو طبيعةً فيهم ، أنك قد تجد المَلِكَ بخيلا ، ومملكتُه أوسَعُ ، وخَرْجُهُ أدَرُّ ، وعدوُّه أسكن[٥] وقد علمناأن الزِنْجَ أقصرُ الناس مِرَّةً[٦] ورَوِيَّةً وأذْهَلُهم عن معرفة العاقِبة[٧] : فلو كان سَخاؤهم إنما هو لِكَلالِ حَدِّهم[٨] ،

---

(١) الضمير فى أشبهه يعود الى المتوكل وأنزع : أميل

(٢) كيسه : عقله وفطنته

(٣) حدثان الدهر : نوائبه . واعتلال البخيل بالحدثان : أى تلمسه العلل والأعذار بالخوف من نوائب الدهر الخ

(٤) الفاء من فقد : زائدة،لأن جملة فقد أيقنا : خبر ليس

(٥) الخرجوالخراج : مايحصل من غلةالأرض ، وأدر : أكثر ، وعدوه أسكن : أى غير متحفز لقتاله وإذن فالمال موفور لديه

(٦) المرة : العقل والإحكام

(٧) أى وهم مع ذلك أسخياء

(٨) كلال الحد : أصله فى السيف والسكين ونحوهما والمراد هنا الغباء وقلة الذكاء والفطنة

ونَقْصِ عقولِهم، وقلّة معرفتهم، لكان ينبغى لفارسَ أن تكونَ أبخلَ من الروم وتكونَ الرُّومُ أبخَلَ من الصَّقالبة (١)؛ وكان ينبغى فى الرجال، فى الجملة، أن يكونوا أبخلَ من النساء، فى الجملة، وكان ينبغى للصبيان أن يكونوا أسخى من النساء، وكان ينبغى أن يكون أقلُّ البخلاء عقلًا، أعقلَ مِن أشدِّ الأجواد عقلا؛ وكان ينبغى للكلب ـ وهو المضروبُ به المَثَلُ فى اللؤم ـ أن يكون أعرَف بالأمور من الدِّيك، المضروب به المثل فى الجود (٢)

ونحن لانجد الجوادَ يَفِرّ من اسمِ السَّرَف إلى الجود، كما نجد البخيلَ يفرُّ من اسمِ البُخل إلى الاقتصاد (٣). ونجد الشجاعَ يَفِرُّ من اسم المنهزم، والمستحى يفِرُّ من اسم الخجِل. ولو قيل لخطيب ثابت الجَنان: وَقَاحٌ (٤) لجزِع ـ فلو لم يكن من فضيلة الجود إلا أن جميع المتجاوزين لحدود أصناف الخير يكرهون اسم تلك الفضْلة (٥) ـ إلا الجواد (٦)، لقد كان فى ذلك ما يُبين قدرَه، ويُظْهِر فضله.

ولو كانوا لأوْلادهم يَجْمَعُون، ولهُمْ يَكُدُّون، ومن أجْلِهم يَحرِصون، لجعلوا لهم كثيرا مما يطلبُون، ولَتَركوا محاسبَتَهم فى كثير مما يَشْتهون.

(١) الصقالبة: جيل تتاخم بلادهم بلاد الخزر ـ فى الروسيا ـ وبحر الخزر هو بحر قزوين

(٢) وصف الديك بالجود لأن من عادته أن يدعو الدجاج ويثير لها الحب

(٣) ونحن الخ، وذلك لأن الجواد لايخاف من اسم السرف خوف البخيل من اسم البخل لأن السرف فى رأى الجواد يكاد يلحق بالجود

(٤) الوقاح: القليل الحياء

(٥) الفضلة هنا: تجاوز الحدّ فى الفضيلة

(٦) إلا الجواد، أى فإنه لايكره أن يلقب بالمسرف

وهذا بعضُ ما بغَّض بعضَ المورِّثين إلى الوارثين ، وزهَّدَ الأخلاف [١] فى طول عُمرِ الأسلاف ...

ولو كانوا لأولادهم يُمَهِّدُون ، ولهم يجمعُون ، لَمَا جمع الخِصْيانُ الأموالَ ، ولَمَا كَنَزَ الرُّهْبانُ الكنوزَ ، ولاسْتراحَ العاقرُ مِنْ ذُلِّ الرَّغبة [٢] ولَسَلِمَ العَقيمُ من كدِّ الحِرْص . وكيف ؟ ونحن نجدُه بعد أن يَمُوتَ ابنُهُ الذى كان يعتل به [٣] ، والذى مِنْ أجله كان يَجْمع ، على حاله [٤] فى الطلب والحرص ، وعلى مِثْل ماكان عليه من الجمع والمنع

والعامّةُ لم تُقَصِّر فى الطلب والحُكْرة [٥] ، والبُخلاءُ لم يَحُدُّوا شيئًا من جُهْدهم [٦] ولا أعْفَوْا بعدُ قدرتِهم [٧] ، ولا قصّروا فى شىء من الحرص والحَصْر [٨] ، لأنهم فى دَارِ قُلْعَةٍ ، بعَرَض نُقْلةٍ [٩] . حتى لو كانوا بالخلود مُوقِنين ، لأغفلوا تلك الفُضولَ [١٠]

---

(١) الأخلاف : جمع خلف وهم أبناء الانسان الذين يخلفونه بعد موته

(٢) ذل الطمع والحرص (٣) يعتل به : يتخذه علة وسببا للجمع والمنع

(٤) على حاله : متعلق الجار والمجرور مفعول ثان لنجد (٥) والعامة الخ كأنه ألحق العامة بالبخلاء ، لصفات البخل فيهم ، والحكرة هنا : الجمع والإمساك

(٦) أى لم يحبسوا جهودهم فى سبيل جمع الأموال (٧) اعفى : أنفق العفو من ماله وهو مايفضل عن النفقة وبعد قدرتهم : أى بعد اقتدارهم وإيسارهم

(٨) الحصر : البخل

(٩) يقال : الدنيا دار قلعة : أى انقلاع وارتحال ، وقوله : وبعرض نقلة : أى أن الدنيا دار يعرض فيها انتقال فلا تدوم على حال (١٠) حتى لوكانوا الخ هذا من الترقى فى الدليل يقول : لوكتب لهم الخلود ، لوجب أن يغفلوا طلب مايزيد على عيشهم وحالتهم ولجادوا به لوحصل فى أيديهم ولكنهم لا يعقلون بسبب ماركب فيهم من الحرص والجشع

فالْبَخيلُ مجتهد ، والعامىُّ غير مقصِّرٍ .[١] فمن لم يَسْتَعِنْ على ما وصفنا بطبيعة قوية ، وبشهوةٍ شديدةٍ ، وبنظرٍ شافٍ ، كان إمّا عامّيًا ، وإما بخيلا شقيًا[٢] ـ فنِيمَ اعتلالهم بأولادهم ، واحتجاجُهم بخوف التَّلوُّنِ من أزمنتهم[٣] ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لِوَافِدٍ كَذَبَ عِنْدَه كَذْبَةً ، وكان جواداً : لولا خَصْلةٌ وَمِقَكَ الله عليها ، لشَرَّدْتُ بك مِنْ وافِدِقَوم[٤] ... وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : هل لك فى بِيض النِّسَاءِ وأُدْمِ الإبل[٥] ، ؟ قال : ومَنْ هم ؟ قال : بَنُو مُدْلِج[٦] . قال : يَمْنَعُنِى من ذاك قِرَاهم الضيفَ ، وصِلتُهم الرَّحِمَ . وقال لهم أيضا : إذا نحَرُوا ثَجُّوا[٧] ، وإذا لبَّوْا عجوا[٨]

وقال للأنصار : مَنْ سَيِّدُكم ؟ قالوا : الحُرُّ بنُ قيس ، على أنه يُزَنُّ[٩] فينا ببخل ، فقال : وأىُّ داء أَدْوَأُ من البُخل ؟ جعله من أدوإ الداء .

---

(١) معنى اجتهاد البخيل هنا أنه يفعل مايفعل عن احتجاج واقتناع بصواب مايفعل . أما العامى فليس له من العقل مابه يقيم الحجة على حكرته وإنما هومسوق إلى ذلك بطبيعته فهوملحق بالبخلاء

(٢) فمن لم يستعن الخ ، على ماوصفنا : على مابينا من تمكن البخل والجشع من النفوس . والطبيعة القوية : السايمة من العلل النفسية ، أما الشهوة الشديدة : فهو يريد بها الميل الشديد للتخلص من هذا الضعف ، وقوله وبنظر شاف : يقصد به التفكير الصحيح المؤسس على البرهان القويم لا السفسطة

(٣) تلون الأزمنة : تقلبها وتنكرها (٤) ومقه يمقه ، كوثق يثق: أحبه . وشردت بك : أبعدتك وطردتك ، وقوله من وافد قوم : هو بيان للكاف فى « بك »

(٥) الأدم : جمع آدم وأدماء ، والأدمة فى الإبل: لون مشرب سوادا أو بياضا أو هو البياض الواضح والتقدير : هل لك فى قوم الخ أى هل لك فى غزو قوم الخ كما يفهم من المقام (٦) بنو مدلج قبيلة من كنانة (٧) وقال لهم : أى قال فى حقهم ، وثجوا : أسالوا دماء الذبائح فى الحج (٨) التلبية فى الحج قول : لبيك اللهم لبيك الخ وعج يعج « بالكسر والفتح » صاح ورفع صوته (٩) يزن : يتهم

وقال للأنصار : أنا والله، ما عَلِمْتُكُمْ إلاَّ لتَكْثُرُون عند الفزَع وتقِلُّون عند الطمع (١) ، وقال : كفى بالمرء حِرْصا رُكُوبُهُ البحرَ (٢) _ . وقال : لو أنّ لابن آدمَ وادِيَيْنِ مِنْ مالٍ لابْتَغَى ثالثا ، ولا يُشْبِعُ ابنَ آدمَ إلا التراب ويتوبُ الله على منْ تاب (٣) . وقال : السخاء من الحياء، والحياء من الإيمان وقال : إن الله جوادٌ يُحب الجود. وقال : أنفِق يابلال ، ولا تَخْشَ من ذى العرش إقلالا (٤)

هذا مارأينا اختياره من هذه الرسالة الجاحظية البارعة الجامعة . ونعود إلى سائر عبقرياتهم فى الجود والإحسان

كلمة عُلْوية لسيدنا رسول الله

عن أبى سعيد الخُدْرِىّ رضى الله عنه قال : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال : إنى أخاف عليكم بَعدى ما يُفتَح عليكم مِن زَهرةِ الدُّنيا وزِينَتِها ... قال : فقال رجل : أوَ يأتى الخيرُ بالشرِّ يارسول الله ؟ قال : فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأينا أنه يُنزَلُ عليه (٥) ، فأفاق يَمسَح عنه الرُّحضاء (٦) وقال : أين هذا السائل ـ وكأنه حَمِدَه ـ فقال : إنه لا يأتى

---

(١) لتكثرون الخ : أى لتجتمعون بجموعكم للنجدة والذود ، وقلتهم عند الطمع : لسماحتهم وكرمهم وقلة حرصهم ، والمراد : الطمع فى مغنم حرب أو نحوه

(٢) كفى بالمرء الخ يذم صلى الله عليه وسلم الجشع والحرص على جمع المال ولا سيما عند توقع الخطر كركوب البحر فى تلك الايام وليس المراد ذم السعى على الرزق الحلال من أى وجه كان ، كما هو ظاهر

(٣) واديين : نهرين (٤) أنفق الخ ، بلال : هو بلال بن حمامة الحبشى مؤذن سيدنا رسول الله

(٥) ينزل عليه : يوحى إليه (٦) الرحضاء : العرق الكثير وكثيرا مايستعمل

الخير بالشر ، وإنّ مما يُنبتُ الربيعُ ما يَقتُلُ حَبَطاً أو يُلِمُّ [١] ، إلا آكلةَ الخَضِر [٢] ، فإنها أكلَتْ حتى إذا امتلأت خاصِرَتاها استقبلت عينَ الشمس فثلَطَت [٣] وبالت ثم رتعت . وإن هـذا المـال خَضِرَةٌ حُلوة ، ونِعْمَ صاحب المُسْلم هو ، إن أعطى المسكينَ واليتيمَ وابنَ السبيل . أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

« قال الإمام اللغوى أبو منصور الأزهرى [٤] : فى هذا الحديث مَثَلان ، ضرب أحدهما للمُفرط فى جَمْع الدنيا مع مَنْع ماجمع من حقه ، والآخر ضربه للمقتصد فى جمع المـالَ وبذلِه فى حقه ، فأما قوله صلى الله عليه وسلم : وإن ممـا ينبت الربيع مايقتل حبطا ، فهو مَثَلُ الحريص المفرط فى الجمع والمنع ، وذلك أن الربيع ينبت أحرار العشب [٥] التى تَحْلَولِيها المـاشية فتستكثر منها حتى تنتفخ بطونها وتَهـلِك ، كذلك الذى يجمع الدنيا و يحرص عليها ويشح على ماجمع حتى يمنع ذا الحق حقه منها ، يهلك فى الآخرة بدخول النار واستيجاب العذاب - أقول : ويهلك فى الدنيا كذلك ، وهل لايعد هلاكا لمن هذه حاله مايلاقيه من إزراء الناس به وازورارهم عنه وانطوائهم له على البغض والحقد والحسد وصنوف الأذى وعـدِّهم إياه خنزيرا من خنازير البشر أو مجنونا من صرعى الأثرة والأنانية وحب الذات ، وبالحَرِيِّ لاخير فيه لأحد ولا لنفسه وإنما هو لا يعدو

(١) الحبط - كما سيمر بك - أن تأكل المـاشية فتكثر حتى تنتفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها فتهلك ، ويلم : يقرب ويدنو من الهلاك فى عرق الحمى والمرض

(٢) الخُضر بفتح فكسر جمع خضرة : ضرب من الجنبة أى عروق العشب الغامضة فى الأرض كما سيأتى (٣) ثلطت : تغوطت وأكثر مايقال للإبل والبقر والفيلة

(٤) هو محمد بن أحمد بن الأزهر الهروى ، الإمام المشهور فى اللغة ، صاحب التهذيب ولد سنة ٢٨٢ وتوفى سنة ٣٧٠ بمدينة هراة إحدى مدن خراسان ، فالأزهرى نسبة جده أزهر (٥) أحرار العشب : الرقيق الرطب منه

أن يكون صيرفا أو حارسَ مال ليس غير :

يَجْنِى الغِنَى لِلِّئَامِ لوعقَلوا ماليسَ يَجْنِى عليهِمُ العدمُ
هُمْ لأموالِهِم ولَسْنَ لهم والعارُ يَبْقَى والجُرْحُ يَلْتَئِم

✡ ✡ ✡

أنْتَ للمال إذا أمْسَكْتَـــهُ فإذا أنفقْتَـــه فالمـالُ لَك

هـذا إذا أضاف الشُّحّ على نفسه إلى الشح على ذوى الحقوق

أما إذا آثر نفسه بالتمتع بلذات الدنيا فأى هلاك بعد الذى يصيبه من الأسقام والأوجاع وسائر أدواء الترف والسرف واجتواء المحرومين إياه وحنقهم عليه وما عساه يتولد من ذلك كله من الغوائل الاجتماعية التى نرى أفاعيلها اليوم ـ قال الأزهرى : وأما مَثَل المقتصد المحمود فقوله صلى الله عليه وسلم : إلا آكلة الخضر فإنها أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت ، وذلك أن الخَضِر ليس من أحرار البقول التى تستكثر منها الماشية فتهلكها أكلا ولكنه من الجَنْبَة [1] التى ترعاها بعد هيج العشب ويُبْسِه ، والماشية ترتع منها شيئا شيئا ولا تستكثر منها فلا تحبط بطونها عنه . فضرب النبى صلى الله عليه وسلم آكلة الخضر مثلا لمن يقتصد فى أخذ الدنيا وجمعها ولا يسرف فى الحرص عليها وأنه ينجو من وبالها كما نجت آكلة الخضر ، ألا تراه قال : فإنها إذا أصابت من الخضر استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ، وإذا ثلطت فقد ذهب

---

(١) أسلفنا أن الجنبة هى الكلأ الذى له عروق فى الأرض، قال أبو حنيفة الدينورى: الجنبة ما كان فى نبتته بين البقل والشجر فيكون فوق البقل ودون الشجر مثل الحماط مما يبقى أصله فى الشتاء ويبيد فرعه ، وسمى جنبة لأنها كما قال الأزهرى صغرت عن الشجر الكبار وارتفعت عن التى لا أرومة لها فى الأرض

حبطها، وإنما تحبط الماشية إذا لم تثلط ولم تبل ، ثم حث صلوات الله عليه على إعطاء المسكين واليتيم من هذا المال، مع حلاوته ورغبة الناس فيه، ليقيه الله تبارك وتعالى وبال نعمتها فى دنياه وآخرته.

✡ ✡ ✡

هيهات أن أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى

ومن كلمة لسيدنا على رضى الله عنه فى كتاب له إلى عثمان بن حنيف الأنصارى عامله على البصرة: ولو شئتُ لَاهْتَديت الطريق إلى مُصَفَّى هذا العسل، ولُبابِ هذا القمح، ونَسائج هـذا القزّ، ولـكن هيهات أن يغلِبَنى هوايَ، ويقودَنى جَشَعى إلى تخيُّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز وباليمامة من لا طمعَ له فى القُرص، ولا عَهْدَ له بالشبَع! أو أبيت مبطانا وحَولى بطونٌ غَرْثى،[1] وأكبادٌ حَرَّى، أو أكونَ كما قال القائل:

وحَسْبُكَ عارًا أنْ تَبِيتُ بِبِطْنَةٍ وحَوْلَكَ أكْبادٌ تحِنُّ إلى القِدِّ[2]

أأقنَعُ من نفسى بأن يقال: هذا أمير المؤمنين ولا اشاركُهم فى مكاره الدهر، أو أكون أسوةً لهم فى جُشوبةِ العيش[3]! فما خُلقت ليَشْغَلَنى أكلُ الطيبات، كالبَهيمة المربوطة هَمُّها علفُها، أو المُرسَلة شُغْلُها تقَمُّمُها، تكترش من أعلافِها، وتلهُو عما يُراد بها ...

---

(١) المبطان: الذى لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل، وغرثى: جائعة

(٢) البطنة: الكظة، وذلك أن يمتلىءَ الإنسان من الطعام امتلاء شديدا، والقد: سيور تقد - تقطع - من جلد غير مدبوغ. وهـذا البيت من أبيات لحاتم الطائى المشهور بالجود

(٣) جشوبة العيش: خشونته وغلظه

وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم ـ وكان مِنْ قَبلِهِم مؤدِّبُهم سيدُنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يَرَوْن ـ ونعِمَّا رأوْا ـ أن السياسة الرشيدة، وأن الطريق إلى الإحسان ـ ولا طريق غيرها ـ إنما تتحقق بالرغبة عن شهوات الحياة الدنيا، وتنكُّب السرف والترف، وكانوا يريدون عُمّالهم على هذه السياسة التى لا سياسة غيرها.

كان الخلفاء الراشدون مُثُلًا عليا فى الرغبة عن شهوات الحياة الدنيا

قال الربيع بن زياد الحارثى: كنت عاملا لأبى موسى الأشعرى على البحرين، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمره بالقدوم عليه هو وعماله، وأن يستخلفوا جميعاً. قال: فلما قدمنا أتيت يَرْفأ «مولى عمر» فقلت: يايرفأ مُسْتَرْشِدٌ وابن سبيل ... أىُّ الهيئات أحبُّ إلى أمير المؤمنين أن يَرَى فيها عماله، فأومأ إلىّ بالخشونة. فاتخذت خُفَّيْن مُطارَقَيْن[1] ولبِستُ جُبّةَ صوف ولثتُ عمامتى على رأسى[2]. فدخلنا على عمر، فصفَّنا بين يديه، فصعّد فينا وصوّب[3] فلم تأخذ عينه أحداً غيرى، فدعانى فقال: مَنْ أنت؟ قلت: الربيع ابن زياد الحارثى، قال: وما تتولى من أعمالنا؟ قلت: البحرين، قال: كم ترتزق؟[4] قلت: ألفاً، قال: كثيرٌ... فما تصنع به؟ قلت: أتقوت منه شيئاً وأعود به على أقاربَ لى، فما فضل عنهم فعلى فقراء المسلمين، قال: فلا بأس، ارْجِعْ إلى موضعك، فرجعت إلى موضعى من الصف، فصعّد فينا وصوّب فلم تقع

---

(١) طراق النعل: ما أطبقت عليه فخرزت به، فمعنى مطارقين: خصفت إحداهما فوق الأخرى (٢) أى أدرت بعضها على بعض على غير استواء.

(٣) صعد فينا: رفع رأسه فنظر الأعلى، وصوب: خفض رأسه فنظر الأسفل

(٤) أى كم مرتبك

عينه إلا عليّ فدعانى فقال : كم سنّك ؟ قلت : خمسٌ وأربعون سنةً ، قال : الآن حين استحكمت .[١] ثم دعا بالطعام وأصحابى حديثٌ عهدُهم بلَيِّن العيش ، وقد تجوّعتُ له ، فأُتِىَ بخُبزٍ وأكسار بعير[٢] فجعل أصحابى يَعافون ذلك وجعلتُ آكل فأُجِيد ، فجعلتُ أنظر إليه يلحظنى من بينهم ، ثم سبقت منى كلمة تمنيت أنى سُخْتُ فى الأرض[٣] فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الناس يحتاجون إلى صلاحك ، فلو عمَدتَ إلى طعامٍ أليَنَ من هذا ! فزجرنى ، ثم قال : كيف قلتَ ! فقلت : أقول ـ يا أمير المؤمنين ـ : أن تنظر إلى قُوتِك من الطحين فيُخبَزَ لك قبل إرادتك إياه بيوم ويُطبَخ لك اللحمُ كذلك ، فتُؤْتَى بالخُبزِ ليّناً واللحمِ غَرِيضًا[٤] ... فسكَّنَ من غَرْبِه[٥] وقال : أهُهنا غُرْتَ ؟[٦] قلتُ : نعم ، فقال : ياربيع ، إنَّا لو نشاءُ ملأنا هذه الرحابَ من صَلائِقَ وسَبَائِكَ وصِنابٍ[٧] ، ولكنى رأيت الله عزّ وجلّ نَعَى على قومه شهواتِهم

(١) استحكمت : تناهيت عما يضرك فى دينك ودنياك
(٢) أكسار : جمع كسر ، والكسر : عظم ليس عليه كثير لحم
(٣) ساخ فى الأرض : غاص فيها ودخل
(٤) غريضاً : طريا (٥) يريد حدّته (٦) غرت : أى ذهبت يقال : غار الرجل : إذا أتى الغور وناحيته مما انخفض من الأرض ، وأنجد : إذا أتى نجدا أو ناحيته مما ارتفع من الأرض (٧) صلائق جمع صليقة وهى القطعة المشوية من اللحم والسبائك : ما يسبك أى ينخل من الدقيق فيؤخذ خالصه وهو مايسمى الحوارى أى ما ينقى من لباب البر . والصناب : صباغ يتخذ من الخردل والزبيب
(٨) نعى على قوم شهواتهم : عابها ووبخهم عليها . أما الآية التى ذكرها الفاروق بعد فهى : وَيَوْمَ يُعرَضُ الَّذِينَ كَفَروا على النارِ أَذْهَبْتُمْ طيباتِكم فى حياتكم الدنيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بها فاليَوْمَ تُجزَوْنَ عذابَ الهُونِ بما كنتمْ تَستكبِرُونَ فى الأرضِ بغيرِ الحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ

فقال : أذهَبْتُمْ طيِّباتِكم فى حياتِكم الدنيا ... ثم أمر أبا موسى بإقرارى وأن يَستبْدِلَ بأصحابى . . . وهذا من الفاروق دون فضلا عن أنه الأليق بكل من وُلِّىَ أمر الناس ـ غاية فى السداد والسياسة لرشيدة الحازمة كما قلنا

عظـــمة الفاروق

فى زهده وتقواه

هذا والله المُلْكُ الهنىء

ومما يصح إيراده هنا مايأتى : لمَّا أُتِىَ بالْهُرْمزان صاحبِ تُستَر، إلى عمر ابن الخطاب ـ وكان هذا الهرمُزان من أعظم قوّاد الفُرْس ، وكان على مَيْمَنة جيش رُسـتُم وزير ملك فارس يَزْدَجِرْدَ بن شهريار بن ابرويز فى حرب القادسية سنة ١٤ من الهجرة ، فلما قتل رستم وانتصر المسلمون فرّ الهُرمُزان بمن بقى من جُنْدِه ، وما زال المسلمون يتابعونه الغارة بعد الغارة حتى لجأ إلى مدينة تُسْتر[١] ، وتحصَّنَ بها ، فحاصروه أشدَّ حِصار ، ثم أنزلوهُ على حُكْم الفاروق ، فأسلمه قائد جيش المسلمين أبو سَبْرَةَ بن أبى رُهْم إلى وفد فيهم أنَس بن مالك والأحنف بن قيس ، فأتوا به إلى الفاروق ـ وكان الفاروق يلتف فى كِسائه وينام فى ناحية المسجد ، فجعلوا يسألون عنه ! فيقال : مَرّ هٰهنا آنفا ! فيَصْغرُ فى قلب الهُرمُزان ، إذ رآه كبَعْضِ السُّوَق[٢] ... حتى انتهوا به إلى عمر وهو نائم فى ناحية المسجد ... فقال الهُرمُزان : هذا والله المُلْكُ الهنىء ...[٣] فلما جلس عمر امتلأ قلبُ العِلْج[٤] منه هيبة ، لما رأى عنده

(١) تستر : مدينة عظيمة جعلها عمر بن الخطاب من أرض البصرة لقربها منها

(٢) السوق : جمع سوقة كغرفة وغرف ، وهم الرعية (٣) إذ لايحتاج إلى أحراس ولا عدد (٤) العلج فى الأصل : الحمار الوحشى : وقد أطلقه المسلمون على الرجل من كفار العجم ومن يشبه العجم

من الجِـدِّ والاجتهاد، وأُلْبِسَ من هَيبة التقوى ... ثم نظر عمر إليـه وقال : آلهُرمُزان ! قال : نعم ، فقال عمر : الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشباهَه ، وأمر بنزع ما عليه من الديباج المُذْهَبِ، والتاج المكلل بالياقوت ، وأمر له بثوبٍ صفيق[1]، وهَمّ بقتله ، فطلب الهُرمُزانُ ماءً، وقال : أخاف أن أُقتلَ وأنا أشْرَبُ ! فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشربَ ، فأراقَهُ ، فقال عمر : والله لا أنخدِعُ حتَّى تُسْلِم ، فأسْـلَمَ ، وفَرَضَ له فى العطاء ألفَـيْنِ ، وأقام بالمدينة .

✡ ✡ ✡

نعود إلى عبقرياتهم فى الجود من بابات شتى ... ولقد أسْلَفنا أن الأوائل لم يَـترُكوا معنًى إلاَّ طَرَقوه : ✡ وهل غادرَ الشُّعراءُ من مُتَرَدَّمِ ✡ [2]

وهو معلوم أن الخمر تُحْدِثُ فى شاربها إذا انتشى هِزَّةً وطرَبا وأريحيَّةً وقدْ تُحيلُ البخيلَ كريما ، فماذا قالوا فى ذلك ؟قالوا : ـ والقائل البُحتُرِىُّ ـ :

تكرَّمْتَ مِنْ قَبلِ الكُؤُسِ عليهِمِ فما آسْطَعْنَ أنْ يُحْدِثْنَ فيكَ تكرُّمَا

وقال أبو نُواس :

فَتًى لا تُذِيبُ الخمرُ شَحْمةَ مالِهِ ولـكِنْ أيادٍ عُوَّدٌ وبَوَادِى [3]

وقال المتنبي :

(١) صفيق : جيد النسج (٢) صدر بيت لعنترة وتمامه :

✡ أم هل عَرَفت الدار بعد توهم ✡

وهذا البيت مطلع معلقته ، يقول عنترة : إن الشعراء قد سبقونا إلى القول ، فلم يدعوا مجالا لقائل ، والمتردم فى الأصل : الموضع الذى يرقع ويستصلح

(٣) شحمة ماله : أطيبه، وقوله : ولـكن أياد عوّد وبوادى، يقول : ولـكنه يعطى عطاياه قبل الخمر وبعد الخمر ودائما ، فعطاياه تبتدأ وتعاد

لا تجِـــدُ الخمرُ فى مَكارِمِه إذا انتشَى ـ خَـلَّةً تلافاهَا (١)

والأصل فى هذا قول عنترة فى معلقته :

وإذا صَحَوْتُ فما أُقَصِّرُ عنْ نَدًى وكما عَـلِمْتِ شمائِلِى وتَكرُّمِى

وقال زُهَير :

أخو ثِقة لا تُهلِكُ الخمرُ مالَهُ ولـكِنَّهُ قد يُهلِكُ المَـالَ نائِلُه

وقد غَضُّوا من قول عَمرِو بن كُلْثومٍ :

✡ إذا ما المـاءُ خالَطها سَخِينَا(٢) ✡

ومعنى ذلك كلِّه أنهم لا يَعُدُّون جودَ السَّكْرانِ جُوداً ، وإنما الجودُ عندهُمْ ماكان من كَرَمٍ فِطْرِىٍّ لاتبعثُه خمرٌ وما يُشبه الخمرَ . وإذا هم وصَفُوا الخمرَ بأنها تُورِثُ شارِبَها شيئاً يُشبه الكرمَ ، فذاك من باب اسْتِقْصائِهم لمعانى الخمرِ وما تحدِثه فى شاربها ، كما قد سيمر بك فى بابه . . .

ولقد سَمَت مكارمُ الأخلاق بكثيرٍ مِنْ ذَوِى الأرْيَحِيَّة إلى أنَّهم لا يَقْطَعون نوالهم عَمَّنْ يَغْضَبُون عليهم ويَيْبَسُ الثَّرَى بينَهم ، وقد رُوِىَ فى ذلك أنَّه

(١) الخلة : الخصلة والثلمة ، وتلافاها ـــ بحذف إحدى التاءين : تتلافاها ، أى تتداركها

(٢) عجز : بيت من معلقته وصدره :

✡ مُشَعْشَعةً كأَنَّ الْحُصَّ فيها ✡

يصف الخمر يقول : اسقنى الخمر مشعشعة ، أى ممزوجة بالماء ، فإنها من شدة حمرتها كأنما ألقى فيها الحص ـ وهو الورس ـ نبات أحمر يشبه الزعفران ـ وإذا شربناها وسكرنا جدنا بعقائل أموالنا وسمحنا بذخائر أعلاقنا ، فسخينا : فعل من سخى يسخى سخاء ـــ وهذه لغة ـ ولغة فيها وهى سخا يسخو سخاوة ، وثالثة وهى سخو يسخو ـ ويجوز أن تكون سخينا صفة ومعناها الحار فيكون المعنى : كأنها حال امتزاجها بالماء وكون الماء حارا نور هذا النبت ، وإذن فلا مطعن عليه

بعضَ النُّبَلاء كان يُجرِى على رجُلٍ شيئاً ، ثم غَضِبَ عليه ، وحَدثَ أن كتب ٱبنُه إطلاقاتٍ، ورُفِعت إليه الإطلاقاتُ ، وتَرَكَ اسمَ المغضوبِ عليه ، فقال له أبوه : فأين ذِكْرُ رِزْقِ فُلانٍ ؟ فقال : إنّكَ قد كنتَ غضِبْتَ عليه ، فقال : يا بُنَيَّ ، غضَبي لا يُسْقِطُ هِبَتِي ... إنَّ أباكَ لا يَغْضَبُ فى النَّوال ...

وحتَّى المحتاجِينَ المغضوب عليهم كانت أنفُسهم كريمةً أبِيَّةً ، فقد رُوِىَ أنَّ بعضَهم كان يُجْرِى على رَجلٍ شيئاً ، فغضِبَ عليه ، فقطَعه ، ثم رَضِىَ عنه فردَّه ، فأبَى الرجل أن يَقْبلَه وقال : إنِّى كنتُ أظُنُّ أنّ عطاءَه مكرُمةٌ ؛ فأمَّا وقد صار غضبُه يقطعُه ، فلا حاجة لى فيه ... وكذلك بَلَغتْ بهم مكارمُ الأخلاق أن يُعطوا المُعْتَفِين ، أكانوا فُقراءَ أمْ أغنياء ، فلا يَخُصُّون ، وقد رُوِىَ فى الخبر : أعْطُوا السائل ولو جاء على فرس ، وروى أيضا : كلُّ معروفٍ صدقة ، لغنيٍّ أو فقير ؛ ويُشبِّهون مَن هذا حاله بالغيث ، قال ابن المعتز :

ويُصيب بالجود الفقيرَ وذا الغِنَى كالغيثِ يَسْقِى مُجْدِبا ومَرِيعا

وقال المتنبي :

ويَدٌ لها كرَمُ الغَمامِ لأنَّه يَسْقِى العمارَةَ والمكانَ البَلْقَعا

وكذلك تسامَوْا وبلغوا من عبقرية الرُّوح أن صاروا يعُدُّون الانخِداع عن المال والتَّبالُهَ فى ابتذاله كرَماً ، وقالوا : إنَّ الكريم إذا ما خادَعْتَه انخَدَعا ... وفى ذلك يقول البحترى :

وإذا خادَعْتَه عن ماله عَرف المَسلَكَ فيه فانخَدَعْ

ويقول :

وقد يتغابَى المرءُ عَنْ عُظْمِ مالِه ... ومِن تحتِ بُرْدَيْه المُغيرَةُ أَوعَمْرُو

« المغيرة : هو المغيرة بن شعبة، وعمرو : هو عمرو بن العاص وكانا من الدهاة » ... وقيل لبعضهم : ماالشرَف ؟ فقال : الانخداع عن المال ، ولا تجد أحداً يتغافل عن ماله إلا وجَدْتَ له فى قلبه فضيلة لا تقدر على دفعها ، وقد أدَّبَنا نبيُّنا صلى الله عليه وسلم بقوله . رحم اللهُ سَهْلَ البيع سهلَ الشراء ، وهذا خلاف قول الناس : المَغْبُون غير محمود ولا مأجور ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : ألا أَدُلُّكمْ على شىء يُحِبُّه الله ورسوله ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال : التَّغابُنُ للضعيف ... ومما يُروى فى هذا الباب ماأورده ابن خلكان فى ترجمة الوزير الخطير أبى الحسن على بن الفرات وزير المقتدر بالله ابن المعتضد بالله العباسِىِّ ـ وكانت وفاته سنة ٣٢٧ هـ ـ وهو : أن رجلا اتّصلت عُطْلتُه ، وانقطعت مادَّتُه ، فزَوَّر كتابا من أبى الحسن بن الفُراتِ إلى أبى زُنْبور المارِدانِى عامل مِصر ، يتضمن الوَصاةَ به والتأكيدَ فى الإقبال عليه والإحسانِ إليه ، وخرج إلى مِصر ، فلَقِيَه به ، فارتاب أبو زُنبور فى أمره لتغيُّرِ الخطاب على ماجرَتْ به العادةُ ، وكَونِ الدعاءأكثرَ مما يَقتضيه مَحَلُّه فراعاه مُراعاةً قريبةً ووَصَلَه بِصلةٍ قليلةٍ ، واحتبَسه عنده على وَعْدٍ وعَدَه به وكتب إلى أبى الحسن بن الفُرات يَذكرُ الكتاب الوارد عليه ، وأنفذه بعينه إليه ، واستَثْبَتَه فيه ، فوقف ابنُ الفُرات على الكتاب المزوَّرِ ، فوجد فيه ذِكرَ الرجل وأنه من ذوى الحُرُمات والحقوق الواجبة عليه ، وعرَضَه على كُتَّابه وعَرَّفَهم الصورة فيه وعَجِب إليهم منها ومما أقدم عليه الرجل ، وقال لهم : ماالرأىُ فى أمر هذا الرجل عندكم ؟ ! فقال بعضهم : تأديبُه أو حَبْسُه ، وقال آخر : قطعُ إبهامِه لئلا يُعاوِدَ مثل هذا ، ولئلا يَقتدىَ به غيرُه فيما هو

أكثر من هذا، وقال أجلُّهم مَحضراً: يُكشف لأبي زُنبور قصتُه، ويُرسَمُ له طَردُه وحِرمانه، فقال ابن الفرات: ما أبعدَكم من الحرية والخيرية: وأنفرَ طِباعَكم عنها! رجل توسَّل بنا وتحمَّل المشقَّة إلى مصر في تأميل الصلاح بجاهنا، واستمداد صُنع الله عز وجل بالانتساب إلينا، ويكون أحسنُ أحواله عند أحسنِكم محضرا تكذيبَ ظنِّه وتخييبَ سَعْيه! والله لا كان هذا أبدا، ثم إنه أخذ القلم من دواته ووقَّع على الكتاب المزوَّر: هذا كتابي، ولست أعلم لِمَ أنكرت أمرَه واعترضَتْك شُبْهة فيه! وليس كلُّ مَن خدَمنا وأوجب حقًّا علينا تعرِفه! وهذا رجل خدمَني في أيام نَكْبتي، وما أعتقِدُه في قضاء حقِّه أكثرُ مما كلَّفتُك في أمرِه من القيام به، فأحسِن تفقُّدَه ووَفِّرْ رِفدَه وصَرِّفْهُ فيما يعود عليه نفْعُه ... وردَّه إلى أبي زُنبور من يومه؛ فلما مضت على ذلك مدة طويلة دخل على أبي الحسن بن الفرات رجل ذو هيئة مقبولة وبِزَّةٍ جميلة، وأقبل يدعو له ويُثني عليه ويَبكي ويُقبِّل الأرض، فقال له ابن الفرات: من أنت بارك الله فيك! ـ وكانت هذه كلمتَه ـ فقال: صاحب الكتاب المزوَّر إلى أبي زنبور، الذي صحَّحه كرمُ الوزير وتفضُّله، فعل الله به وصنع، فضحك ابن الفرات، وقال: كم وصل إليك منه؟ قال: وصل إليَّ من ماله ومما قسَّطه على عُمَّاله وعملٍ صرَّفني فيه، عشرون ألف دينار، فقال ابن الفرات: الحمد لله، الزَمْنا، فإنا نُعرِّضك لما يزدادُ به صلاحُ حالِكَ، ثم اختبره فوجده كاتباً مُبيناً، فاستخدمه وأكسبه مالا جزيلا ...

قِرَى الأضياف

وهناك لون من ألوان الجود، لقد أكثروا فيه القول وافتنُّوا، وأطالوا فى التفاخر به والإشادة بمحاسنه، وجعلوه عنوانَ الكرم والنجدة والمُروءة ووضَعُوا له آداباً ودساتيرَ. ذلك هو قِرَى الأضياف، ونحن فإنا نختار ذَرْوًا من عبقرياتهم فى هذا المعنى. وفيما يتأشب إليه ويَنْشَعب منه والله المستعان ...

معنى قرى الضيف: قال علماء اللغة: يقال: قَرَى الضيفَ قِرًى وقَرَاءَ: أضافه وأحسن إليه، واستقرانى واقترانى وأقرانى: طلب منى القِرَى، وإنه لَقَرِيٌّ للضيف، والأنثى قرِيّة، وكذلك: إنه لَمِقْرًى للضيف ومِقراء، والأنثى مِقْراةٌ ومِقراء...

«وأما بعد» فقد قلنا فى البخل إنهُ جِبِلَّةٌ وَإنّه الأصلُ وإنَّ الناس لقد خُلِقوا بخلاءَ، إلى آخر ماقلنا صَدْرَ هذا الباب، وهذا الذى قلنا يقال فى قِرَى الأضياف، وأن الأصل هو البُخْل بالقِرَى؛ فلنورد عليك شيئاً مما قالوا فى البخل بالقِرَى ثم نردفه بالقول على الجود بالقرى وحثهم عليه، والكلام يدخل بعضه فى بعض.

طَرَفٌ من مُلَحِهم فى ذلك: قال بعض البخلاء لغلامه: هاتِ الطعامَ، وأَغْلِقِ الباب، فقال الغلام: يامولاى، ليس هذا بحزم! وإنّما أُغْلِقُ الباب، وأُقدِّم الطعامَ، فقال له: أنتَ حُرٌّ لِوَجه الله ... وطبخ بعض البخلاءِ قِدْرًا، وجلس يأكلُ مع زوجته فقال: ما أطْيَبَ هذا الطعامَ لولا كثرةُ الزِّحام! فقالت: وأىّ زحام وما ثَمَّ إلا أنا وأنت! قال: أُحِبُّ أن

أكون أنا والقِدْر ... وعَزَم بعضُ إخوانِ أشْعَبَ عليه ليأكل عنده ، فقال : إنى أخاف من ثقيلٍ يأكلُ مَعَنا فيُنَغِّصُ لذّتنا ، فقال : ليس عندى إلا ما تُحِبُّ ، فمضى معه ، فبينما هما يأكلان ، إذا بالباب قد طُرِق ، فقال أشعبُ : ما أُرانا إلا قد صِرْنا لِمَا نكره ، فقال صاحب المنزل : إنّه صديق لى : وفيه عَشْرُ خِصالٍ إنْ كَرِهْتَ مِنها واحدةً لم آذَنْ له ، قال أشعبُ : هاتِ ، قال : أوّلهــا أنه لا يأكل ولا يشرب ، فقال : التسع لكَ ودَعْهُ يدخل ، فقد أَمِنَّا منه ما نخافه ...

وأكل رجل مع بعض البخلاء ، وكان على مائدته أرغفة هنا وهناك ، فلما فرغ من رغيفه قال : ياغلام ، قَرِّبى ، فقال الداعى البخيل : وما تصنع به ؟ قال : أركبُه إلى ذلك الرغيف ... وحدَّثَ أبو نُوَاسٍ قال : قلت لرجل من أهل خراسانَ : لِمَ تأكُلُ وَحْدَكَ ؟ قال : ليس علىَّ فى هـذا الموضع سؤال ، إنما السؤال على مَن أكل مع الجماعة ، لأن ذاك تكلُّف ، وأكْلى وَحْدِى هو الأكلُ الأصلىّ ... وأضاف رَجُلٌ أعرابيًّا ، فلم يأتِه بشىء يأكله حتى غُشِىَ عليه من الجوع ، فأخذ يقرأ عليه القرآن ، فقال :

لَخُبْزٌ يا أُخَىَّ عليْهِ لَحْمٌ أحبُّ إلىَّ مِنْ حَسَنِ القُرانِ
تظَلُّ تُدَهْدِهُ القرآن حَوْلِى كأنِّى مِنْ عَفارِيتِ الزَّمانِ

وقيل للجمّاز : مَن يَحضُر مائدةَ فلان ؟ فقال : أكْرَمُ خَلْق الله : الكرامُ الكاتبون ... واصطحب رجلان فقال أحدهما للآخر : تعالَ حتَّى نأكلَ معاً ، فقال : معى خبزٌ ومعكَ خُبزٌ ، فلولا أنك تريد الشرّ لأكلتَ وحدك ... وقيل لآخر : ألاَ تأكُلُ مَعَنا ؟ فقال : الجماعة مَجاعة ... ودخل على ابْنٍ لِرَجُلٍ من الأشراف داخِلٌ وبين يدَيه فراريجُ ، فغَطَّى الطبقَ بمِنْديله وأدخلَ رأسه فى جَيْبِه وقال للداخل عليه : كُنْ فى الُحجْرةِ الأخرى حتى

أفرَغ مِن بَخُورى ... ودخَل رجُلٌ على رجل يوما والمائدة موضوعةٌ والقومُ يأكلون وقد رَفَع بعضهم يدَه ، فمدَّ يدَه ليأكل ، فقال : أَجْهِزْ على الجرْحَى ، ولا تتعرَّضْ للأصحاء ... « يريد : كُلْ ما كُسِرَ ونِيلَ منه ولا تَعْرِضْ إلى الصحيح » ورأى رَجُلٌ الحُطيئة - الشاعر المخضرم العبقرى اللئيم - وبيده عَصًا فقال : ماهذه ؟ قال : عَجْراءُ مِن سَلَم[1] ، قال : إنى ضيف ، قال : للضِّيفان أعددتُها ... ووصَف أعرابىٌّ قوماً فقال : أَلغَوْا من الصلاة الأذان ، مخافة أن تَسْمَعَه الآذان ، فيَهُلَّ عليه الضِّيفان ... وفى هذا المعنى يقول شاعرٌ :

تَرَاهُمْ خَشْيَةَ الأضيافِ خُرْسًا يقيمون الصلاةَ بلا أذانِ

✡ ✡ ✡

وكانوا يَعُدُّون أن يبيت الرجل شَبْعانَ وجارُه جَوْعانٌ ، عاراً وشَناراً ولؤماً ونذالة ، ويتهاجَوْنَ بذلك ، وأحسن ماقيل فى هـذا قول الأعشى - ميمون بن قيس - فى علقمة بن عُلاثة :

تبيتُونَ فى المَشْتَى مِلاءً بُطونُكم وجاراتكم غَرْثَى يَبِتْنَ خمائِصا[2]

وقول بشار بن بُرد :

وضَيْفُ عَمْرٍو وعَمْرٌو يَسْهَرانِ مَعًا عَمْرٌو لِبِطْنَتِه والضَّيفُ لِلْجُوعِ

وقال شاعرٌ :

وَجِيرَةٍ لا تَرَى فى الناسِ مِثْلَهُمُ إذا يكون لهم عِيدٌ وإفْطارُ

إنْ يُوقِدُوا يُوسِعونا مِن دُخانِهِم وليس يَبْلُغُنا ما تُنْضِجُ النَّارُ

✡ ✡ ✡

ومن مُلَحِهم فيمن لا يُظْفَرُ بخُبزِه . قولُ أبى نُوَاس :

(١) العجراء : العصا التى فيها أُبن - عقد - ، والسلم : شجر

(٢) رووا أن علقمة لما سمع هذا البيت قال : فضحنى والله ، اللهم أخزه إن لم يكن صادقا، وغرثى : جائعات، ومثله خمائص

وما خُبْزُهُ إلا كعَنْقاءِ مُغْرِبٍ (١) تُصَوَّرُ فى بُسْطِ الملوكِ وفى المَثَلْ

وقال الآخر :

قد فَرَّ مِنْ مَنزِلِهِ فأرُهُ وعاذَ بالجيران مرتزقا

وهذا من قول امرأة لزوجها : والله مايقيم الفأر فى دارك إلا لحب الوطن ، وقد تقدم آنفا ... وقيل لبخيل : إنك تُكرِم خبزَكَ وتُهينُ لإكرامه نفسك ! فقال : كيف لا أفعل ذلك والخبز هو الذى أخرج آدمَ وحواءَ وإبليسَ والطاوُس من الجنة ... وتغدَّى الجماز عند هاشميٍّ ، فمرَّ الغلام بصحفة فقطر منها قطرةٌ على ثوب الجمّاز ، فقال الهاشمى : آتِيه بطَسْت يغسلها ، فقال الجماز : دَعْه ، فمرَقَتكم لا تُغيِّر الثِّياب ... « يريد : لادَسَمَ فيها »

* * *

تفاخرهم بالإحسان إلى الضيف والجار : ولأنهم يعدُّون شِبَع المرء وجارُه جائع ، عارا ـ كما تقدم ـ تراهم يتفاخرون بإكرام الضيف والجار ، ومن أحسن ماقيل فى ذلك قول عروة بن الورد :

وإنى امْرؤٌ عافِى إنائىَ شِرْكَةٌ وأنت امرؤٌ عافى إنائك واحدُ

(١) عنقاء مغربٍ وعنقاء مغربٌ . وعنقاء مغربة : طائر معروف الاسم مجهول الجسم ، قال ابن الكلبىّ : كان لأهل الرس نبى يقال له حنظلة بن صفوان ، وكان بأرضهم جبل يقال له دمخ مصعده فى السماء ميل ، فكان ينتابه طائرة كأعظم ما يكون لها عنق طويل ، من أحسن الطير ، فيها من كل لون ، وكانت تقع منقضة فكانت تنقض على الطير فتأكلها فجاعت وانقضت على صبىّ فذهبت به فسميت عنقاء مغربا لأنها تغرب ـ تبعد ـ بكل ما أخذته ، ثم انقضت على جارية ترعرعت وضمتها إلى جناحين لها صغيرين سوى جناحيها الكبيرين ، ثم طارت بها فشكوا ذلك إلى نبيهم ، فدعا عليها فسلط الله عليها آفة فهلكت ، فضربتها العرب مثلا فى أشعارها ويقال : ألوت به العنقاء المغرب ، وطارت به العنقاء ...

أُقَسِّمُ جِسمي في جسُومٍ كثيرةٍ وأحْسُو قَراحَ الماءِ والماءُ باردُ

« العافى : طالب المعروف ، يريد بالبيت الأول : أنه ليس من شِرار الناس يأكل وحده ، وقوله : والماء بارد : كنى بذلك عن تحمّله ضرر نفسه وعبارة بعض الشراح : يقول عروة : إن قُوتَه الذى هو قِوام رَمَقِه ومُقيم جسمِه ، يطعمه ويؤثِر به على نفسه ، وأنه عند الجَهد وشدة الزمان يَحْسُو الماء ويَسقى اللبن ، فإنما رَغْبة الجواد فى المال ليَهَبه ، وطلبُه له ليُنْهِبَه . »

وفى هذا المعنى يقول مِسكينٌ الدارِمى - وهو شاعر شجاع من أهل العراق كان فى زمن معاوية بن أبى سفيان - :

إنْ أُدعَ مِسْكينا فما قصَرَتْ قِدْرِى بيُوتُ الحَىِّ والجُدُرُ [(١)]

مامَسّ رَحْلِى العَنْكبوتُ ولا جَدَياتُه من وَضْعِه غُبُرُ [(٢)]

لاآخُذُ الصِّبيانَ أَلْثَمُهُمْ والأمرُ قد يُغْزَى به الأمْرُ [(٣)]

ولَرُبَّ أمرٍ قد تَرَكتُ وما بينى وبين لِقائِه سِتْرُ

لا يَرْهبُ الجيرانُ غَدْرَتَنا حتى يُوارِىَ ذِكْرَنا القبْرُ

(١) قوله فما قصرت قدرى الخ : فبيوت فاعل قصرت ، يقول : إن قدرى بارزة لاتحجبها السواتر والحيطان ، يصف نفسه بأنه مضياف جواد محسن إلى جيرانه

(٢) قوله مامسّ رحلى العنكبوت الخ : كناية مليحة عن مواصلته السير لأن العنكبوت إنما ينسج على مالا تناله الأيدى ولا يكثر استعماله ، والجديات جمع جدية بسكون الدال وهى باطن دفة الرحل ، يقول : إن جديات رحله ليست غبراء لكثرة ترحاله

(٣) يقول : لاأقبل الصبي وأنا أريد التعرض لأمه ، وماأحلى قوله : والأمر قد يغزى به الأمر . ويغزى : يقصد ، ومثل هذا قول عقيل بن علفة :

ولا أُلقِى لِذِى الوَدَعاتِ سَوْطِى أُلاعِبُهُ وزَلّتَه أُرِيدُ

وزلته يروى وغرّته ويروى وريبته ، وألاعبه يروى لأُلهيه . وللشعراء فى هذا المعنى كثير ، وهو معنى يدل على أن العرب غاية فى الفطنة ودقة الملاحظة وأنهم لاتخدعهم

لَسْنا كأقوامٍ إذا كَلَحتْ إحدى السِّنينَ فجارُهُمْ تَمْرُ (١)
مولاهُمُ لَحمٌ على وَضَمٍ (٢) تنْتابُه العِقْبانُ والنَّسْرُ
نارِي ونارُ الجارِ واحدةٌ وإليـه قَبْلِي تُنْزَل القِدْرُ (٣)
ماضَرّ جارِيَ إذْ أُجاوِرُهُ أنْ لايكون لبَيْتِه سِتْرُ
أَعْشَى إذا ماجارَتى خَرَجتْ حتى يُوارِيَ جارَتى الخِدْرُ (٤)
ويَصَمُّ عمَّا كانَ بينَهما سمعي ومابِي غَيْرَهُ وَقْرُ (٥)

ظواهر الأمور عما تخفي وراءها . وغواة الناس إلى يومنا هذا قد استغلوا هذا المعنى استغلالا مكشوفا قبحهم الله .

(١) فجارهم تمر : أي يستحلى الغدر به كما يستحلى التمر

(٢) الوضم : خشبة الجزار التي يقطع عليها اللحم، وتركهم لحما على وضم : أى أذلهم

(٣) يروى أنه كان لمسكين هذا امرأة تماضه ـ تلاحيه وتنازعه ـ فلما قال : نارى ونار الجار واحدة قالت له : أجل ، إنما ناره ونارك واحدة لأنه أوقد ولم توقد، والقدر تنزل إليه قبلك ، لأنه طبخ ولم تطبخ وأنت تستطعمه، ولما قال أن لا يكون لبيته ستر قالت له : أجل ، إن كان له ستر هتكته

(٤) من دقائق هذه اللغة ماقاله صاحب الكشاف فى تفسير قوله تعالى : ومن يعش عن ذكر الرحمن ، قال : بضم الشين وفتحها ، والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة فى بصره قيل عَشِيَ ـ أى والمضارع يعشَى ، وإذا نظر نظر العُشْي ولا آفة به قيل عشا ـ والمضارع يعشو ـ ونظيره عَرِج لمن به آفة وعَرَج لمن مشى مشية العَرجان من غير عرج قال الحطيئة :

متى تأْتِه تَعْشُو إلى ضَوْءِ نارِه تجِدْ خيْرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ

أى تنظر إليها نظر العُشْي لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء، فمعنى الفتح : ومن يَعمَ عن ذكر الرحمن وهو القرآن، وأما القراءة بالضم فمعناها ومن يتعام عن ذكره ، أى يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابى . (٥) الوقر : الثقل فى الأذن

وصية بخيل لابنه

وهاكَ وصيةَ بخيل لابنه أراد بها أن يَنْصَحَ ابنه بالتقليل من الطعام، شُحًّا وكزازةً، ولكنه أودعها على الرغم منه نصائحَ قيمةً يَجْمُلُ أن تُتَّخذَ دُستوراً فى الطعام لمن أراد أن يَصِحّ ويُعافى، فهى حقٌّ أريد بها باطل، ومن ثم اخترناها، وهى وصية جاحظية أوردها الجاحظ فى كتابه البخلاء ونسبها إلى رجل يسمى أبا عبد الرحمن الثَّوْرى كان يحب الرؤس - رؤس الضأن وغير الضأن - قال الثورى لابنه - :

إياك ونَهَمَ الصِّبيان (١)، وشَرَهَ الزُّرَّاع (٢)، وأخلاقَ النوائح (٣) ودَعْ عنك خَبْطَ المَلَّاحِينَ وَالفَعَلَةِ (٤) ونَهْش الأعرابِ والمَهَنة (٥). وكُلْ مابين يديْكَ؛ فإنّما هو حَقُّكَ الذى وَقَع لك، وصار أقربَ إليك؛ واعلم أنَّه إذا كان فى الطَّعامِ شىءٌ طَريفٌ، ولُقْمةٌ كريمةٌ، ومُضغةٌ شهيَّة، فإنما ذلك للشَّيخِ المعظَّم، والصَّبيِّ المُدلَّل. ولستَ واحداً منهما. فأنت قد تأتى الدَّعَواتِ

---

(١) النهم : إفراط الشهوة فى الطعام (٢) الشره : غلبة الحرص على الطعام، وإنما خص شره الزراع لأنهم أهل كد ونصب وحركة فيشرهون إلى الطعام لفرط مايبذلون من قواهم البدنية (٣) النوائح جمع نائحة : اسم يقع على النساء يجتمعن فى مناحة، ولعله يريد أن النوائح ينحن ما ينحن فإذا حضر الطعام أقبلن عليه شرهات ونسين ما كنّ فيه من بكاء وعويل (٤) الملاح : نوتى السفينة، والخبط : السير على غير هدى، والفعلة : عملة الطين ونحوه. يقول : لاتذهب فى الطعام على غير هدى كالملاحين، ولا تكن عنيفاً فى أكلك كما تفعل الفعلة

(٥) يقول : لاتنهش اللحم كما ينهشه الأعراب الجفاة وكما ينهش المهنة : جمع ماهن، وهو العبد الخادم

والولائمَ ، وتَدخُلُ منازلَ الإخوانِ ، وعهدُك باللَّحم قريب . وإخوانُك أشدُّ قَرَما إليه منك ، وإنما هو رأس واحد ، فلا عليك أن تتجافَى عن بَعْض وتُصِيبَ بعضا . وأنا ـ بَعْدُ ـ أكره لك الموالاةَ بين اللحم ، فإن الله يُبْغِضُ أهْلَ البيت اللَّحِمِين [١] وكان يقول : إياكم وهذه المَجازِرَ فإنَّ لها ضَرَاوَةً كضراوَةِ الخَمْرِ [٢] وكان يقول : مُدْمِنُ اللحم كمُدْمِنِ الخمر . وقال الشيخُ ـ ورأى رجلا يأكلُ اللحمَ ، فقال : لحمٌ يأكلُ لحماً ... أُفٍّ لهذا عملا !

وقال الأوَّلُ : أهلَكَ الرِّجالَ الأحْمَرانِ : اللحمُ والخمرُ ، وأهلَكَ النِّساءَ الأحمران ا الذهبُ والزَّعْفران [٣] ... أىْ بُنَىَّ ، عَوِّدْ نفسَك الأَثَرَةَ [٤] ، ومجاهَدَةَ الهَوى والشَّهْوةِ . [٥] ولا تَنْهَشْ نَهْشَ الأفاعِى ، ولا تَخْضَمْ خَضْمَ البراذين [٦] ، ولا تُدِمِ الأكلَ إدامةَ النِّعاج ، ولا تَلْقَمْ لَقْمَ الجِمال ، إنّ

---

(١) هذا حديث أورده ابن الأثير فى النهاية هكذا : إن الله ليبغض أهل البيت اللحمين ، قيل هم الذين يكثرون أكل لحوم الناس بالغيبة : وقيل : هم الذين يكثرون أكل اللحم ويدمنونه ، وهو أشبه ...

(٢) فى اللسان : وفى حديث عمر : اتقوا هذه المجازر فإن لها ضراوة كضراوة الخمر ، أراد مواضع الجزارين التى تنحر فيها الإبل وتذبح البقر والشاء ويباع لحانها وإنما نهاهم عنها لأنه كره لهم إدمان أكل اللحوم ، وجعل لها ضراوة كضراوة الخمر ، أى عادة كعادتها ، لأن من اعتاد أكل اللحوم أسرف فى النفقة فجعل العادة فى أكل اللحوم كالعادة فى شرب الخمر ، لما فى الدوام عليها من السرف فى النفقة والفساد

(٣) فالذهب للحلية والزعفران للتطيب

(٤) الأثرة : اسم مصدر من آثر يؤثر إيثاراً ، أى عود نفسك أن تؤثر غيرك على نفسك (٥) ومجاهدة الخ : إما أنه يريد المعنى العام وإما يريد : لا تطلق لنفسك العنان فيما تشتهيه وتهواه من ألوان الطعام (٦) الخضم : الأكل بجميع الفم والبراذين : جمع برذون كفرعون وهو من الخيل العظيم الخلقة الجافيها الغليظ الأعضاء

اللهَ قد فضَّلك ، فجعلك إنساناً ؛ فلا تجعَلْ نفْسَك بَهيمةً ولا سَبُعًا ، واحذَرْ سُرْعة الكِظَّة [١] ، وسَرَفَ البِطْنة ، وقد قال بعض الحكماء : إذا كنتَ بَطِينًا فعُدَّ نفْسَك في الزَّمْنَى [٢] . وقال الأعشى :

* والبِطْنةُ ممَّا تُسفِّهُ الأحلامَا [٣] *

واعلمْ أنَّ الشِّبَعَ داعِيةُ البَشَم [٤] ، وأنَّ البَشَم داعيةُ السَّقَم ، وأنَّ السَّقَم داعيةُ الموْتِ . ومَنْ مات هذه المِيتَةَ فقد مات مِيتةً لئيمة . وهو قاتل نفسِه ، وقاتل نفسِه ألْوَمُ من قاتل غيره [٥] أيْ بُنَيَّ ، إنَّ القاتلَ والمقتولَ في النار [٦] ولو سألت حُذَّاقَ الأطبَّاء لأخبروك أن عامَّةَ أهلِ القبور إنما ماتوا بالتُّخَمِ واعرِف خطأَ من قال : أُكلةٌ ومَوتةٌ ! وخُذ بقول من قال : رُبَّ أُكلةٍ تمنع أكلات [٧] . وقد قال الحسن البصري : يا ابن آدم كلْ في ثلث بطنك، واشرب في ثلثِ بطنك، ودع الثُّلُثَ للتفكُّر والتنفس . وقال بكرُ بنُ عبدالله المُزَني [٨] : ماوجدت طعمَ العيش حتى استبدلت الخُمْصَ بالكِظَّة [٩] ، وحتى لم ألْبَس من

(١) الكظة : الامتلاء من الطعام ، وسرعة الكظة أن يسرع إليه الامتلاء وهو لا يزال يتناول الطعام فيتفاقم عليه الأمر

(٢) البطين : عظيم البطن من كثرة ما يأكل . والزمنى : ذوو العاهات الذين يدوم مرضهم زمناً طويلا (٣) الأحلام : العقول وتسفه الأحلام : تطيشها والبيت :

يا بَني المنذر بن عَبدان والبِطْـ ـنة مما تسـفّه الأحلاما

(٤) البشم : التخمة من كثرة الأكل (٥) ألوم من قاتل غيره : أحق منه بأن يلام (٦) يقول : إن من مات بالتخمة فقد قتل نفسه فهو قاتل ومقتول في وقت معاً فهو في النار على رأيه

(٧) أي لما ينشأ عنها من الأمراض (٨) كان من أفاضل التابعين صالحاً تقيا قال الجاحظ : وكانوا إذا ذكروا البصرة قالوا : شيخها الحسن وفتاها بكر ... مات سنة ١٠٨ هـ (٩) الخمص : الجوع أي حتى اتخذت الجوع بدل الكظة

ثيابى ما يَستخدمنى [١]، وحتى لم آكُلْ إلا مالا أغسل يدى منه ! يا بُنَىَّ ، والله ما أدّى حقَّ الرُّكوع ، ولا وظيفةَ السجود ، ذو كِظَّة ، ولا خَشَعَ لله ذو بطنة [٢]، والصوم مَصَحَّةُ [٣] ، والوَجَبَاتُ عيش الصالحين [٤] ، ثم قال : لأمرٍ مَّا [٥] طالت أعمارُ الهند [٦] ، وصحَّت أبدانُ الأعراب . لله دَرُّ الحارث بن كَلَدَة [٧] ، حين زعم أن الدواء هو الأزْمُ [٨] ، وأن الداء هو إدخال الطعامِ فى أثر الطعام !

أى بُنَىَّ لِمَ صَفَتْ أذْهان العرب؟ و لِمَ صدَقَتْ أحْسَاسُ الأعراب [٩] ولِمَ صَحَّت أبدان الرُّهْبان ، مع طول الإقامة فى الصوامِع ؟ وحتى لم تَعرِف النِّقْرِسَ ، ولا وجَعَ المفاصل ، ولا الأوْرام ؛ إلا لقـلَّة الرُّزْءِ [١٠] من الطعام ، وخِفَّة الزَّادِ ، والتبلُّغ باليسير [١١]

أى بُنَىَّ ، إن نسيمَ الدنيا ورَوحَ الحياة [١٢] أفضل من أن تبيتَ كظيطا ،

---

(١) يستخدمنى : أى يجعلنى خادما له أى بالمحافظة عليه ، لأنه ثمين

(٢) يقول : إن الممتلئ طعاما لايمكن أن يركع فى الصلاة تمام الركوع ولا أن يسجد تمام السجود ، والخشوع وتفريغ القلب لله تعالى لايكون مع التخمة والعناء منها

(٣) مصحة : يصح عليه (٤) الوجبات جمع وجبة وهى الأكلة الواحدة فى اليوم والليلة

(٥) لأمر ما : أى لأمر عظيم (٦) أى أعمار أهلها (٧) طبيب العرب سافر إلى فارس وتعلم هناك الطب واشتهر فيه ونال به مالا وأدرك الإسلام

(٨) أزم ، من باب ضرب : أمسك عن المطعم والمشرب روى أن عمر بن الخطاب سأل الحرث بن كلدة عن الطب ، فقال : هو الأزم ، يعنى : الحمية

(٩) الأحساس جمع حس وهو الشعور بالشىء (١٠) الرزء هنا : مايصيبه الإنسان من طعام (١١) التبلغ باليسير : الاكتفاء به (١٢) روح الحياة : راحتها وما يستروح إليـه

وأن تكونَ لِقِصَرِ العُمر حايفا . وكيف لا ترغب فى تدبير يجمَعُ لك صِحَّةَ البدن ، وذكاءَ الذِّهن ، وصلاح المِعَى ، وكُرةَ المال ، والقُرْبَ من عيش الملائكة[١] ؟ أى بنىَّ ، لِمَ صار الضَّبُّ أطوَلَ شىءٍ عُمراً ؛ إلا لأنه إنما يعيش بالنَّسيم[٢] ؟ ولِمَ قال الرسولُ صلى الله عليه وسلم إن الصوم وِجاءٌ[٣] ، إلا ليجعل الجوعَ حِجَازًا دونَ الشَّهوات . أى بنىَّ . قد بلغتُ تسعين عامًا مانغَضَ لى[٤] سِنٌّ ، ولا تحرَّكَ لى عَظْم[٥] ، ولا انْتَشَرَ بى عَصَبٌ[٦] ، ولا عرَفْتُ ذنين أنْفٍ[٧] ، ولا سيَلانَ عيْن[٨] ، ولا سَلَسَ بَوْل[٩] ، مالذلك عِلَّةٌ إلا التَّخفيف من الزَّاد . فإن كنت تُحِبُّ الحياةَ ! فهذه سبيل الحياةِ ، وإن كنتَ تُحِبُّ الموتَ ، فلا يُبْعِدُ اللهُ إلا مَن ظَلَم .

✡ ✡ ✡

بخيل يبيع القرى

ونزَل جَريرٌ - الشاعر الإسلامى الأشهر - بقوم من بنى العنبر بن عَمْرو ابن تميم فلم يَقْرُوهُ ، حتى اشترى منهم القِرَى ، فانصرف وهو يقول :

---

(١) إذهم : لا يأكلون ولا يشربون (٢) كون الضب لا يعيش إلا بالنسيم ولا يأكل ألبتة غير صحيح ولكن الثورى نقل خرافة قديمة (٣) وجاء : مانع من الشهوات

(٤) نغض : اضطرب وتحرك ويروى نقص (٥) لعله يريد بالتحرك الالتواء كاحديداب الظهر (٦) الانتشار : الانتفاخ فى العصب للإتعاب

(٧) الذنين : المخاط الرقيق الذى يسيل من الأنف ويروى دنين أذن والدنين صوت الذباب ونحوه من هينمة الكلام الذى لا يفهم والمراد مايشبه هذا الصوت فى الأذن من الكبر (٨) هو مايحدث فى الكبر من ضعف العينين فتسيل منها دموع وسوائل أخرى (٩) سلس البول : استرساله وعدم استمساكه لحدوث مرض بصاحبه

يامالكُ ابنَ طَريفٍ إنَّ بَيْعَكُمُ رِفْدَ القِرَى مُفسِدٌ للدِّينِ وَالحَسَبِ
قالوا نَبِيعُكَهُ بَيْعًا فقلتُ لهُم بِيعُوا المَوالِيَ واسْتَحْيُوا مِنَ العَرَبِ
لولا كِرامُ طَرِيفٍ ماغَفَرْتُ لكم بَيْعِي قِرَايَ ولا أنسأْتُكُمْ غضبي
هلْ أنتمُ غَيرُ أَوْشابٍ زَعانِفَةٍ رِيشِ الذُّنابَى وليس الرأْسُ كالذَّنَبِ

«قوله : بيعوا الموالى واستحيوا من العرب، قال المبرد : تزْعُم الرواة : أنَّ جِلَّة المَوَالى ـ عُظماءَهم ـ أَنِفُوا من هذا البيْت، لأنه حَطَّهم وَوَضعهم ورأى أن الإساءة إليهم غيرُ محسوبة عَيبا ... وقوله : ولا أنسأتكم غضبي، يقول : لم أُؤَخِّره عنكم، وقوله : هل أنتم غير أوشاب زعانفة، فالأشابة الجماعة تدخل فى قوم وليست منهم وقد تطلق الأوشاب على أخلاط الناس تجتمع من كل أوب، مأخوذ من أشب الشيء كضرب. خلطه، وأما الزعانف فأصلها أجنحة السمك، سُمِّى بذلك الأدعياءُ لأنهم التصقوا بالصميم كما التصقت تلك الأجنحة بعظام السمك»

عبقرياتهم فى قرى الأضياف

قال الله جلّ شأنه فى مدح قوم : ويطعمون الطعـام على حُبِّه مسكيناً ويتيما وأسيراً ... وقال سيدنا رسول الله : أيُّما رَجُلٍ ضافَ قوماً فأصبح الضيفُ محْرُوما، فإنَّ نَصْرَهُ حقٌّ على كل مسلم حتى يأخذَ بِقِرَى ليلته من زرْعِه وماله [1] ...

(١) قال الإمام العلقمى : قال شيخنا : هذا الحديث وماهو بسبيل منه كان فى أول الأمر حين كانت الضيافة واجبة، وقد نسخ وجوبها. أقول : وعلى أنه نسخ وجوبها فلا تزال معدودة فى باب الفضائل الإنسانية المرغوب فيها والمثاب عليها والدالة على النحيزة البارة الكريمة

وفى الحديث أيضا : الخيرُ أسرعُ إلى مُطعِم الطعام من الشَّفْرةِ فى سَنام البعير « الشَّفْرة : السكين العظيمة العريضة » وقال صلوات الله عليه : ليس منا من بات شبعانَ وضَيفُه بَطْنُه طاوٍ . وقال تعالى فى مدح القائم بخدمة ضيفه : هل أتاك حديث ضَيفِ إبراهيمَ المُكْرَمِينَ ؟ قيل وصفهم بذلك لأنه قام بخدمتهم بنفسه ... ونزل ضيفٌ على جعفر بن أبى طالب ، فتَخَفَّفَ هو وغِلمانه عند نزوله وعاونوه فى حلوله ، فلما أراد الارتحال عنهم لم يُعِنْه غِلمانُه ، فشكاهم فقال : إن غلماننا لا يعينون على الارتحال ... وقالوا : أمدحُ بيت قالته العرب قولُ حسان بن ثابت :

يُغْشَوْنَ حتى ما تَهِرُّ كلابُهم لا يَسألونَ عن السَّوَادِ المُقْبِلِ

« يقول : قد أَنِسَتْ كلابهم بالزوّار فهى لا تَنْبَحُهم ، وهم من شجاعتهم لا يسألون عن جيش يقبل نحوهم لقلة اكتراثهم ولثقتهم ببسالة أنفسهم وشدتهم على أعدائهم ، ومثل هذا قول أبى تمام :

إذا استُنْجِدُوا لم يسألوا من دعاهم لأيّة حرب أو لأىّ مكان

أو تقول : لا يَسألون عن السواد المقبل ، أى أنهم فى سَعَة لا يهولُهم الجمعُ الكثير، لِسَعَتهم وسخائهم »

وقال إبراهيم بن هَرْمَةَ من أبيات فى ابتهاج الكلب بالضيف :

يَكاد إذا ما أبصرَ الضيفَ مُقْبِلاً يُكلِّمهُ مِنْ حُبِّه وهو أعجمُ

وقال حاتم الطائى وهو سيد الأجواد بالطعام :

أُضاحِكُ ضَيْفِى قبلَ إنزالِ رَحْلِه ويُخْصِبُ عندى والمَحلُّ جَدِيبُ

وما الخِصْبُ لِلأضيافِ أنْ يَكْثُرَ القِرَى

ولكنَّما وَجْهُ الكريمِ خَصِيبُ

ومن قولهم فى الحث على ترك التكلف وتعجيل الحاضر: سُئل أقْرَى أهل اليمامة للضيف: كيف ضَبطتم القِرَى ؟ قال: بأن لا نتكلّفَ ماليس عندنا ... وقال بعضهم: الضيفُ إلى القليل العاجل أحوجُ منه إلى الكثير الآجل، أما سمعت قول الله تعالى: فما لَبِثَ أن جاء بعِجْلٍ حَنِيذ [١] وقال تعالى: إلى طعامٍ غيرَ ناظرين إناهُ ... « أى غير منتظرين نُضْجَه وإدراكه وبلوغه، يقال: أنى يأنى: إذا نضج »

ومن قولهم فيمن آثر على نفسه: قولُ صوفيٍّ لآخر: كيف يعمل فقراؤكم؟ قال: إذا وجدوا أكلوا، وإذا عَدِموا صَبَروا، فقال: هذا فِعْلُ الكلاب، إن الفقير منا إذا عَدِم صَبر، وإذا وجَدَ طعامًا آثر به غيره...

وقالوا فى وصف الرجل الكريم يَسُوء خلقه مع أهله خوف التقصير: والقائل زينب بنت الطَثَرِيّة ترثى أخاها يزيد:

إذا نزَلَ الأضيافُ كان عَذَوَّرًا على الأهل حتى تَسْتَقِلَّ مراجِلُهْ

يُعِينُكَ مَظْلومًا ويُنْجِيكَ ظالمًا وكُلُّ الذى حُمِّلْتَــهُ فهو حامِلُه

« العذَوَّر: السيئ الخلق القليل الصبر فيما يريده ويهمّ به، وإنما جعلته عذَوَّرًا لشدّة تهمّمه بأمر الأضياف وحرصه على تعجيل قِراهم حتى تستقل المراجل على الأثافِىّ [٢]، والمراجل: القــدور واحدها مِرْجل. وقوله: وينجيك ظالما، أى إنْ ظَلمْتَ فُطولبْتَ بظُلمِكَ حماك ومَنع مِنك »

---

(١) حنذ الشاة: شواها وجعل فوقها حجارة محماة لتنضجها فهى حنيذ

(٢) الأثافى: جمع أثفية: وهى الحجر توضع عليه القدر وثالثة الأثافى: القطعة من الجبل يجعل القدر عليها وعلى حجرين أمامها ويقال: رماه بثالثة الأثافى: أى بالشر كله

هذا؛ ومن السُّنة ـ كما وَرَد فى الحديث ـ أن يَمْشِيَ الرجل مع ضيفه إلى باب الدار.

وقد كان الأضياف يُعطون النُّدُلَ وَيَرْضَخُون لهم بالمال [١] فقد رَوَى بعضهم قال: رأيت ابن عباس فى وَلِيمة فأكل وألقَى للخبّاز درهما.

محادثة الضيف

وكانوا تُجاه محادثة الضيف على الطعام فريقين، ففريق يَسْتَحِبُّه ويستحسنه، ومِنْ صاحب الدعوة أَحْسَنُ، وقالوا فى ذلك: محادثةُ الإخوان ـ تَزِيدُ فى لَذّة الطعام. وقال شاعرُهم:

وأكثرُ ما أَلَذُّ به وأَلْهُو محادثةُ الضُّيوفِ على الطعام

وأما الفريق الآخر فيكره الحديث على المائدة وقالوا فى ذلك: مَن أكثر الكلام على طعامه غَشّ بطنَه وثَقُلَ على إخوانه. وقال الجاحظ فى كتابه «التاج»: ولِشَيْءٍ مّا كانت ملوك آلِ ساسانَ ـ إذا قُدِّمتْ مَوائِدُهم ـ زَمْزَمُوا عليها[٢]، فلم يَنْطِقْ ناطِقٌ بحَرْفٍ حتى تُرْفَع، فإن اضْطُرُّوا إلى كلام، كان مكانَهُ إشارَةٌ أو إيماءٌ يدُلُّ على الغرض الذى أرادوا والمعنى الذى قصدوا.:. وكانوا يقولون إنّ هذه الأطعمة بها حياة هذا العالم، فينبغى للإنسان أنْ يَجْعلَ ذِهْنَه فى مطْعَمِه ويَشْغَلَ رُوحَه وجَوارِحَهُ فيه، حتى تأخذَ كُلُّ جارحةٍ بِقِسْطِها من الطعام، فيَغْتذى بها البدنُ والرُّوحُ الحيوانيّة التى فى القلب والطبيعةُ التى فى الكبد، اغتذاءً تامّا، وتقبله الطبيعة قبولا جامعا. قال الجاحظ: وفى تركِ الكلام على الطعام فضائل كثيرة هى فى آيينهم [٣]...

(١) الندل: خدم الضيافة: ويقال: رضخ له من ماله رضخة: أعطاه قليلا من كثير

(٢) الزمزمة: تراطن العلوج على أكلهم وهم صموت (٣) آيينهم: قانونهم ودستورهم

وقال المسعودى فى مروج الذهب : ذكروا أن كيومرث هو أول من أمر بالسكوت عند الطعام ، لتأخذ الطبيعة بقسطها ، فيصلح البدن بما يَرِدُ إليه من الغذاء ، وتسكن النفس عند ذلك ، فتدبر لكل عضو من الأعضاء تدبيرا يُؤدِّى إلى مافيه صلاح الجسم من أخْذ صفْوِ الطعام ؛ فيكونُ الذى يَرِدُ إلى الكبِد وغيره من الأعضاء القابلة للغذاء ما يناسِبُها وما فيه صلاحُها ، وإنّ الإنسان متى شُغِلَ عن طعامِه بضَرْبٍ من الضروب ، انصرف قِسْطٌ من التدبير وجزءٌ من التَّغذِّى إلى حيثُ انصِبابُ الهمة ووقوُع الاشتراك ، فأضر ذلك بالنفس الحيوانية والقُوى الإنسانيـة ، وإذا كان ذلك دائما أدّى ذلك إلى مفارقة النفس الناطقة المميّزة الفكرية لهذا الجسدالمَرْئىّ ، وفى ذلك تَرْكٌ للحكمة وخروجٌ عن الصواب ... أقول : وقد أيَّدَتِ التجاريب الحديثة هـذا المذهبَ ، إذ تحققت أن الكلامَ على الطعام مَدْرَجةٌ لسوء الهضم . . . وإنِّى بحمد الله لَعلَى هـذا المذهب مُذْ نشأتى ، أى أنى بفطرتى لا أتحدّث على الطعام ، حتى عدّ ذلك أهـلى ومَنْ يخالطوننى مَغْمَزًا فِىّ يَشِف عمّا وراءه ، مما يُشـبه النَّهَم وليس به يعلم الله وإنما هى الفطرة التى فطرنى الله عليها ، ومن خُلُقِى أنى أعدُّ الكلام على الطعام ضربا من التكلف الذى لا أستسيغه . . . على أن الأكل مهمة حيوانية سَخيفة يجمُل أن لا يُحتَفَل بها هـذا الاحتفالَ الكِسْرَوىّ الذى نراه هذه الأيام ، ورَحِم الله جمال الدين الأفغانى إذ يقول : ودِدْتُ لو أنى خُلقتُ مُصْمَتًا ![1] وقبله قال الخليل بن أحمد : أثقلُ ساعاتى الساعة التى آكل فيها ، أو كما قال :

أما محادثة الأضياف على غير الطعام : فمن المجمع على استحسانه ، وفى

(١) المصمت : الذى لاجوف له

ذلك يقول مسكين الدارمى أو عتبة بن بجير :

لِحَافى لِحَافُ الضَّيْفِ والبيتُ بيتهُ ... ولمْ يُلْهِنِى عنه الغزالُ المُقنّعُ

أُحَدِّثهُ إنَّ الحديثَ مِنَ القِرَى ... وتَعْلَمُ نفسى أنَّه سوف يَهْجَعُ

« الغزال المقنع : زوجته ، ويهجع : ينام ، يريد أنه يحدثه ويَقرِيه بهذا الحديث حتى ينامَ »

وكانوا لكرمهم يُفضّلون الاجتماعَ على الأكل ويستقبحون التفرُّد : شكا رجل إلى سيدنا رسول الله قلّة البركة فى طعامهم ، فقال : لعلكم تتفرقون على طعامكم ! قال : نعم ، قال : اجتمعوا عليه واذكروا اسم الله لديه ... وفى الحديث أيضا : ألَا أُخبِرُكم بشِرارِكم ؟ : من أكلَ وحدَه ، وضرب عَبْدَه ، ومنع رِفْدَه « الرفد : العطاء » ... وقال قيس بن عاصم المِنْقَرى :

إذا ماصَنَعْتِ الزّادَ فالْتَمِسِى له ... أَكِيلًا فإنى لَسْتُ آكِلَهُ وَحْدى[1]

(١) بعده :

قَصِيًّا كريما أو قريبا فإننى ... أخافُ مَذَمّاتِ الأحاديث من بعْدِى

وكيف يُسيغُ المرءُ زاداً وجارُهُ ... خَفِيفُ المِعَى بادِى الخَصاصةِ والجَهْدِ

ولَلْمَوْتُ خيرٌ من زيارة باخِلٍ ... يُلاحِظُ أطرافَ الأكيل على عَمْدِ

وإنى لَعَبْدُ الضَيف مادامَ نازِلًا ... وما فىَّ إلا تلكَ من شِيمَة العبْد

«قوله قصيا كريما أو قريبا : قال المبرد : هذا من طريف المعانى وذلك أنه لم يحتج إلى أن يشترط فى نسبته الكرم لانه ضمن ذلك واشترط فى القصى أن يكون كريما لانه كره أن يكون مؤاكله غير كريم . ورواية الأغانى :

✿ أخاً طارقا أَوْ جار بيت فإننى ✿

ورووا أن قيسا لما قال فالتمسى له أكيلا : أرسلت زوجته جارية فأتته بأكيل وقالت :

أبى المرء قيس أن يذوق طعامه ... بغير أكيــل إنه لكريم

وقال عبد الله بن المعتز فى اجتماع الأيدى على الطعام :

كأنّ أكُفّ القوْمِ فى جَفَناتِهِ قَطًا لمْ يُنَفِّرْهُ عن الماء صارِخ (١)

وكانت العرب تَعُد التفرُّدَ بالأكل احتِقابَ وِزْرِ (٢) حتى أنزلَ اللهُ عز وتقدّس : ليس عليكم جُناحٌ أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا (٣)...

السـؤال

وعبقرياتهم فيه ، من جميع نواحيه

ذَمّ السؤال : لما احْتُضِر قيسُ بْن عاصم المِنقَرىّ (٤) سيد أهل الوبَر ، قال

(١) الجفنات : جمع جفنة : القصعة الكبيرة

(٢) يقال : احتقب فلان الإثم والوزر : احتمله ، كأنه جمعه واحتقبه من خلفه أى جعله فى حقيبة ، والحقيبة الوعاء الذى يجعل الرجل فيه زاده وكانوا يجعلونها خلفهم على الراحلة (٣) قال البيضاوى : نزلت هذه الآية فى بنى ليث بن عمرو من كنانة ، كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده ؛ أو فى قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا معه ؛ أو فى قوم تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطبائع فى القذارة والنهم

(٤) تقدم له ذكر فيما أسلفنا وهذا قيس هو الذى يقول فيه عبدة بن الطبيب يرثيه ـ وعبدة شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم وكان فى جيش النعمان بن مقرن الذين حاربوا معه الفرس بالمدائن ـ :

وما كانَ قيْسٌ هُلكُهُ هُلْكَ واحد ولكنه بُنيانُ قوم تهدَّما

وعبدة هذا هو صاحب الأبيات التى روى أن عبد الملك بن مروان قال يوماً لجلسائه : أى المناديل أفضل ؟ فقال قائل منهم : مناديل مصر كأنها غرقئ البيض ، وقال آخرون مناديل اليمن ، كأنها نور الربيع ، فقال عبد الملك : بل مناديل أخى بنى تميم : عبدة بن الطبيب حيث يقول :

لبنيه : يا بَنِيَّ ، احفظوا عنِّي ثلاثا ، فلا أحدَ أنصح لكم مِنِّي ، إذا أنا مِتُّ فسوِّدوا كبارَكم ولا تُسَوِّدوا صِغارَكم ، فيُحَقِّر الناسُ كِبارَكم وتَهُونوا عليهم ، وعليكم بحِفْظ المال ، فإنه مَنْبَهَة للكريم ويُسْتَغْنَى به عن اللئيم ، وإياكم والمسألةَ فإنها أخِرُ كسبِ الرجل ... «سوِّدوا كبارَكم : فالسيد هنا الرئيس أى أسندوا رياستكم إلى كبارِكم، ومنبهة للكريم : أى مُشْعِرٌ بقَدْره ومُعْلٍ له ، وقوله : فإنها أَخِرُ كَسْب الرجل فأخِرُ بقصر الهمزة : أى أدنى وأرذل ، وإذا مُدَّ فمعناه : أن السؤال آخر مايكتسب به المرء عند العجز عن الكسب ، وقد جاء فى الحديث إياكم والمسألة فإنها أخر كسب الرجل ، فلعل قيسا أخذها من سيدنا رسول الله ، لأن قيسا ممن أسلم ونزل البصرة وفى الحديث أيضا : من سأل وهو غنى جاءت مسألته يوم القيامة خدوشا أو خُموشا أو كُدوحا فى وجهه « الكدوح : الخدوش ، وكل أثرٍ من خَدْش أو عض فهو كدح ، وقال صلوات الله عليه : إن أحدكم يخرُجُ بمسألتِه من عندى متأبِّطاً ، وما هى إلا النار ، فقال عمر رضى الله عنه : ولِمَ تُعطيه وهى نارٌ ؟ فقال : يأبَوْن إلا أن يَسألوا ويأبَى الله لِيَ البُخلَ ... وقالوا : إياكَ وطلبَ مافى أيدى الناس فإنه فقرٌ حاضِر، وقال ابن المُقفَّع : السخاء سخاءان : سخاؤك بما فى يدك ، وسخاؤك بما فى أيدى الناس ، وهو أمحَضُ فى

لَمَّا نَزَلْنا ضَرَبْنا ظِلَّ أَخْبِيَةٍ وفارَ لِلقومِ باللَّحمِ المراجيلُ

وَرْدٌ وأشقرُ ما يُؤْنيهُ طابخُهُ ماغيَّر الغَلْيُ منه فهْوَ مأكولُ

ثُمَّتَ قُمْنا إلى جُرْدٍ مُسوَّمةٍ أعرافُهُنَّ لأيدينا مناديلُ

« يعنى بالمراجيل : المراجل فزاد فيها الياء ضرورة ، وما يؤنيه : ماينضجه ، والجرد المسومة : الخيل

الكرم ، وأبعَدُ من الدَّنَس ، ومن جَمَعهما فقد استكمل الفضل ... وقال شاعرٌ :

لا تَحْسَبَنَّ المَوْتَ مَوْتَ البِلَى   وإنما الموتُ سُؤال الرِّجال
كِلاهُما موتٌ ولكنَّ ذا   أشدُّ من ذاكَ على كلِّ حال

وقد كانوا يتحملون المكارِهَ تفادِيًا من السؤال : رَوى الأصمعى قال : مررت بكنَّاس بالبصرة يَكْنُس كنيفا ويُغنِّى :

أضاعونى وأىَّ فتًى أضاعوا   لِيَوم كريهةٍ وسِداد ثَغْرِ (١)

فقلت له : أمّا سِدادُ الكنيف فأنت مَلِئٌ به (٢) ، فلا عِلْمَ لى بك كيف أنت فيه ! وكنتُ حديثَ السِّنِّ فأردت العَبَثَ به ـ فأعرض عنى مَلِيًّا ثم أقبل علىَّ وأنشد مُتمثِّلا :

وأُكْرِمُ نفسى إننى إن أهَنْتُها   وحَقِّكَ لم تَكْرُمْ على أحد بعْدِى

قال الأصمعى : فقلتُ له : والله ، مايكون من الهَوان شئٌ أكثَرَ مما بذلتها له ، فبأىّ شىء أكرمتها؟ فقال: بلَى ، والله، إن من الهوان لشرّا مما أنا فيه ، فقلت : وماهو؟ فقال :الحاجة إليك وإلى أمثالك من الناس ، فانصرفتُ عنه أخْزَى الناس... ومثله ماروِى أن أبا عمرو بن العلاء قال : اجتزت بكنَّاس يُنْشِد :

إذا أنت لم تعْرِفْ لنفسك قدرَها   هوانا لها كانتْ على الناس أهونا

فقلت : سبحان الله ، أتُنْشِدُ مثل هذا وتتعاطى مثل هذا الفعل ؟ فقال : إن إنشادى لمثله أصارَنى إلى هذا ، فرارا من ذُلِّ السُّؤال ...

✡ ✡ ✡

(١) سيمر بك حديث طريف عن هذا البيت فى موضع آخر من هذا الكتاب

(٢) ملِىء به : مضطلع به

ذم الإلحاح والحث على الإجمال فى الطلب :

فى الحديث : إن الله يُبْغِضُ من عباده السائلَ المُلْحِف ، وقال حكيم : لا يُكْثِرَنّ الرجلُ على أخيه المسألةَ ، فإنّ العِجْلَ إذا أفرَط فى مَصّ أُمّه نَطَحَتْهُ ونَحَّتْهُ ، وقال بشار بن برد : ✡ ولَيْسَ لِلْمُلْحِفِ مثلُ الرّدِّ ✡

ووقّع بعض الكبار فى قصّةِ مُلحٍّ مُكْثِرٍ للسؤال : دَعْ هذا الضَّرْع يَدِرَّ لغيرك كما دَرّ لك . وقالوا : اطلبوا الحاجات بعزّة النفس فإنّ يد الله قضاءَها ... وقال ابن الرومى فى الإحسان يُتَوَصّلُ إليه بهوان :

إذا أنا نالتْنى فواضل مُفْضِلٍ	فأهلاً بها مالم تَكُنْ بِهَوانِ
فأمّا إذا كان الهوانُ قرينَها	فبُعْدًا لهَا ماينْقَضِى لأوانِ
ومن ذا الذى يَلْتَذّ شَهْدًا بعَلْقَمٍ	أبَتْ لَهَوَاتى ذاكَ والشفتانِ
يدُ مكاناً من كريمٍ يَصُونُني	وإلا فلِى رزْقٌ بكل مكانِ

✡ ✡ ✡

دقة موقف السائل : ومن عبقرياتهم فى صعوبة موقف من يسأل لنفسه شيئا ولا سيما إذا كان ممن يُكْرِمون أنفسهم :

قال سعيد بن العاص : موطنان لا أعْتَذِر مِنَ العِيّ فيهما : إذا سألتُ حاجةً لنفسى ، وإذا كَلَّمْتُ جاهلا ... وسار الفضلُ بن الرّبيع - الوزير كان - إلى أبى عبّاد فى نكبَتِه يسأله حاجة ، فأُرْتِجَ عليه ، فقال له أبو عبّاد : بهذا اللّسان خَدَمْتَ خليفتين ! فقال الفضل : إنّا تَعَوّدْنا أنْ نُسْأَلَ لا أنْ نَسْأَلَ ... وكَلّمَ أعْرَابىٌّ خالدَ بن عبد الله ، وتَلَجْلَجَ فى كلامه ، فقال : لا تَلُمْنى على الاختلاطِ ، فإنّ مَعِى ذُلَّ الحاجةِ ومعك عِزُّ الاسْتِغْنَاء ...

✡ ✡ ✡

عبقرياتهم فى آداب السؤال واستنجاح الحوائج

ولهم فى السؤال وآدابه واستنجاح الحوائج ودستوره ، مَحاسنُ رأينا أن نُلِمّ بها ، إتماما لهذا الباب ، فمِنْ ذلك حَثُّهم على سُؤال الشبان دُون الشيوخ ، والصِّباح دون القِبَاح ، والكريمِ الفقير دون الغنى اللئيم . وهذا لَعمْرِى من حِذق الأوائل وتفطنهم إلى طبائع النفوس ...

قال حكيم : طلبُ الحوائج عند الشُّبَّان أسهلُ منها عند الشيوخ ، ألاترى أن يعقوبَ عليه السلام لمّا سأله بنوه أن يستغفر لهم قال : سوف أستغفر لكم ربى ، وقال يوسف عليه السلام : لاتثريبَ عليكم اليوم ... وفى الأثر : اطْلُبوا الحوائج إلى حِسَان الوُجوه[1] ... وسُئِلَ ابنُ عائشة عن هذا الحديث فقال : معناه : اطلبوها من الوجوه التى يَحْسُنُ بالمَرْءِ أن يَطْلُبَها مِنها ... وقال البحترىُّ :

مَنْ حَسّنَ اللهُ وَجْهَهُ وسَجَا ... يَاهُ وأعْطاهُ كُلِّفَ الكُلَفَا

وقال السّرِىّ الرّفّاء :

صَرَفْتُ عن الكثيرِ الوفْرِ طَرْفِى ... وها أنا للقليل الوفْرِ راجِ[2]

وكم من نُطْفَةٍ عَذُبَتْ وكانَتْ ... أَحَبَّ إلىّ مِنْ بحرٍ أُجاجِ[3]

وقالت امرأة من ولد حسّانَ بن ثابت :

---

(١) فى الجامع الصغير : اطلبوا الخير إلى حسان الوجوه

(٢) الوفر : المال الكثير (٣) النطفة : الماء القليل الصافى يبقى فى الدلو أو القربة ونحوهما ، وأجاج : مِلحٌ مُرّ

سَلِ الْخَيْرَ أهْلَ الْخَيْرِ قِدْمًا ولا تَسَلْ
فتًى ذَاقَ طَعْمَ الْعَيْش مُنْذُ قريب

وقال مسلم بن قتيبة: لا تَطْلُبَنْ حاجتك إلى كذاب، فإنَّهُ يُقَرِّبُها وهى بعيدٌ، ويُبَعِّدُها وهى قريبٌ [١]، ولا إلى أحمقَ فإنه يُريد أن ينفعك فيضُرُّ ولا إلى رجُلٍ له عِنْدَ من تسْألُه الحاجةَ حاجةٌ، فإنَّهُ لا يُؤثِرُك على نفسه

وقال شاعر:

لا تَطْلُبَنَّ إلى لئيمٍ حاجة ... واقْعُدْ فإنَّكَ قائِمًا كالقاعِدِ
ياخادعَ البُخلاءِ عَنْ أمْوالِهِمْ ... هَيْهاتَ تَضْرِبُ فى حَدِيدٍ بارد

وقال بعض الأدباء: عليك بذى الحَصَرِ البَكِىِّ [٢]، وبذى الخِيمِ الرَّضِىِّ [٣] فإنّ مثقالا من شدة الحياء والعِىِّ، أنْفَعُ فى الحاجة مِن قنطارٍ مِنْ لسانٍ سليطٍ وعَقْلٍ ذَكِىٍّ، وعليك بالشهْمِ النَّدْب [٤] الذى إن عجز أيأسك، وإن أطمعَك ... وقال الفاروق رضى الله عنه: لا تَسْتَعِنْ على حاجتك إلا من يُحِبّ نجاحها لك ... وقال ابن عبّاس: لا تسألنْ حاجةً بالليل، ولا تسألها من أعْمَى، فإنّ الحياء فى العينين.

ومن آداب السؤال عندهم أن لا يُتجاوزَ الحدُّ فيه: قالوا: من سأل

---

(١) بعيد وقريب: يوصف بهما المذكر والمؤنث والمفرد والجمع ومنه قوله تعالى «إن رحمة الله قريب من المحسنين»

(٢) الحصر: ضرب من العىّ، والبكى: القليل الكلام

(٣) الخيم: الخلق والطبيعة والسجية والأصل، قال:

ومَن يَبْتدع ماليسَ من خِيمِ نفسه ... يدَعْهُ ويَغْلبْه على النفس خِيمُها

(٤) الشهم: الذكى الفؤاد، المتوقد النجد النافذ فى الامور، والندب: الخفيف فى الحاجة

فوق قدره ، فقد أستوجب الرّد ، ومن لم يَرْجُ إلا ماهو مُستحِقٌّ له ، فإلى الرّفد ... وقال الشاعر :

إنكَ إنْ كلّفتَنِي مالم أُطِقْ ساءكَ ماسَرَّكَ مِنّي من خُلُق

وكانوا لايرون بأسا بسؤال الملوك وسؤال الابن أباه : فقالوا : مسألة الرجلِ السلطانَ ، ومسألةُ الابن أباه ، لا تَنْقُصهُ ولا تَشينُه :

وإذا ابْتُليتَ ببَذْلِ وجْهِكَ سائلا فابْذُلْه لِلمُتَكَرِّمِ المِفْضالِ

وقال أبو جعفر المنصور لرجل أحْمَدَ منه أمرا : سَلْ حاجتك فقال : يُبْقيك الله ياأمير المؤمنين ، قال : سل ، فليس يمكنك ذلك فى كل وقتٍ ؛ فقال : ولِمَ ياأمير المؤمنين ؟ فوالله ، لاأستقصر عمرَك ولا أرهَبُ بُخلَك ولا أغتنم مالك ، وإن سؤالك لَزَيْن وإن عَطاءَك لَشرَفٌ ، وما على أحد بَذَلَ وجهَه إليك نقصٌ ولا شَيْنٌ ، فأمر حتى مُلِئَ فوه دُرًّا ... وقال العتّابىُّ : إن طلبت حاجة إلى ذى سلطانٍ ، فأجْمِل فى الطلب إليه ، وإياك والإلحاحَ عليه ، فإن إلحاحَك يَكْلِمُ عِرضك ، ويُريقُ ماء وجهك ، فلا تأخذ منه عِوَضا لِما يأخذ منك ، ولعل الإلحاحَ يَجمع عليك إخْلاقَ ماءِ الوجه وحرمانَ النجاح فإنه ربما ملَّ المطلوبُ إليه حتى يَستخِفَّ بالطالب .

ومن قولهم فى الحث على الحِذْق واللاطافة فى المسألة : قال رجل لآخر : لوأنا مِتُّ ماكنت تفعل ؟ قال : كنت أُكفِّنُكَ وأدفِنُك ، قال : فاكسُنى الساعةَ بما تُكفِّننى به ، وإذا مِتُّ فادفِنّى عُريانا ... وقال شاعر :

احْلُبْ لَبونَكَ إبْساسًا وتَمْرِيةً لا يَقطَعُ الدَّرَّ إلا عُنفُ مُحْتَلِبِه

« اللبون : الناقة أو الشاة ذات اللبن ، والإبساس : أن يَمسح ضَرع الناقة يُسكِّنها لِتَدِرَّ ، ومثله التمرية ، والدر : اللبن » ... وسأل أعرابىٌّ عبدَ الملك بن مَرْوانَ

وكان بخيلا وكانوا يطلقون عليه : رَشح الحجر ـ فقال له : سل اللهَ ، فقال : سألتُه فأحالني عليك ، فضحك منه وأعطاه .. وأتى رجل بعضَ الوُلاة ، وكان صديقَه ، فتشاغل عنه ، فتراءى له يوما، فقال : اعْذِرني فإني مشغول ، فقال لولا الشُّغْلُ ما أتيتك ، لا بلّغَني الله يوم فراغِك . وفي هذا المعنى يقول أبو عليّ البصير :

لا تُصيِّرْ شُغْلَكَ اليو مَ اعْتِذارًا لِمطالِكْ

إنما يُحمَدُ أن تفـرُغ في وقتِ اشتغالِكْ

لو تَفَرَّغْتَ من الشُّغْل آستوينا في المسالِكْ

وقال بعض الأدباء للصاحب بن عَبّاد : إن جِرذانَ داري[1] يَمشين بالعصا هِزالاً ، فقال : بشّرْهُنّ بمجيء الحِنطة ... وقسَمَ بعضُهم مالاً بين بنيه فقال له عبد صغير : فأعطِني أوّلاً ، فقال له : ولِمَهْ ؟ قال : لأن الله تعالى يقول : المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، فبدأ بالمال ، وأنا مالُك ، فأعطاه وقدّمه ··· ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مُسلم ، فقال له : إني أتيتُك في حاجة ، فإن شئت قضيتَها وكنا جميعا كريمين ، وإن شئت منعتها وكنا جميعا لئيمين . » قال ابن عبد ربه صاحب العقد : أراد : إن قضيتها كنت أنت كريما بقضائها ، وكنت أنا كريما بسؤالك إياها لأني وضعتُ طَلِبتي في موضعها ، فإن لم تقضِها كنت أنت لئيما بمنعك ، وكنت أنا لئيما بسوء اختياري لك ، وسرَق حبيب ـ أبو تمام ـ هذا المعنى فقال :

عيّاشُ إنك لَلئيمُ وإنني مُذْ صِرتَ مَوْضِعَ مَطْلَبي لَلئيمُ

ومن مُلَحِ المُكدِينَ ووصاياهم : قيل لرجل مُكدٍ : متى تعلمت الكُدية والسؤال ؟ قال : يومَ وُلدتُ ، مُنِعتُ الثَّدْيَ فصِحت ، وبكيت فأُعطيت

(١) الجرذان جمع جرذ : الفأر

الثدى ، فسكتُ ... وقال رجل لآخر : قد وَضَع مِنْك سؤالُك ؟ فقال : لقد سأل موسى والخِضْرُ عليهما السلام أهلَ قرية ، فأبَوْا أن يُضيفوهما ، فوالله ماوضع هذا من نبىِّ الله وعالِمِه ، فكيف يضع منى ! وقال بعض المُكْدِينَ : مكتوبٌ على باب الجنة : مَن صَبَرَ عبَرَ ... وقال آخر : كلبٌ طائف ، خيرٌ من أسَدٍ رابض ، وقالوا : الهيبة خيبة ، وقال سَلْمٌ الخاسر :

من راقَبَ الناسَ مات غمّا ... وفاز باللَّـذَّة الجَسورُ

وقال أشْجَع السلمى :

ليس للحاجات إلا ... مَن له وَجْهٌ وَقاحُ

وقال أبو تمام :

وَخُذْهُمْ بالرُّقى إنَّ المَهارَى ... يُهَيِّجُها على السَّيْرِ الحُداءُ

وقال ابن الرومى :

وإنَّ الأُمَّ لم تُرْضِـع صَبِيًّا ... معَ الإشْفاق لو سَكَتَ الغُلامُ

ومن قولهم فى الحث على معاودَة السؤال : قولُ عمر رضى الله عنه : إذا سألتمونا حاجةً فعاودونا فيها ، فإنما سميت القلوب قلوباً لتقلبها ... وقال عبد الملك بن مروان فى خطبة له : لا يَمْنَعَنْ رجلا سأل اليوم شيئاً فمَنَعْتُه ، أن يسأل غدا ؛ فإنّ الأمورَ بيد الله لا بيدى . وقال شاعرٌ :

لا يُؤْيِسَنّكَ مِنْ كَرِيم نَبْوَةٌ ... ينْبُو الفَتَى وهْوَ الجَوَادُ الخِضْرِمُ (1)

فإذا نَبَا فاسْـتَبْقِهِ وتأنَّهُ ... حتَّى يَجِيءَ بهَا الطِّبَاعُ الأكْرَمُ (2)

---

(١) النبوة : الجفوة والتباعد ويقال : نباعنه بصره ينبو : تجافى ولم ينظر إليه كأنه حقره . والخضرم بالكسر : الجواد الكثير العطاء أو السيد الحمول

(٢) يقال : تأنيتك حتى لاأناة بى ، أى تنظرتك حتى لاانتظار بى ، والطباع كالغرار واحد طباع الإنسان أى الخليقة والسجية التى طبع عليها قال الزجاجى الطباع واحد

وقالوا : إذا سألتَ كريماً حاجة فدعه وسَوْمَ نفسِه[1] فإنَّهُ لا يُفكِّرُ إلا فى خير ، وإذا سألت لئيما حاجةً فعاقِصْه[2] ولا تدعه يتفكر فيتَغَيَّر ، وقال بعضهم فى ضد ذلك : إذا سألت لئيما حاجةً فأَجِّلْهُ حتى يروض نفسَه ... « أى يعالج نفسه الكزة اللئيمة »

ولهم فى الاعتذار عن سؤال اللئيم وأخذهم منه : قال أبو تمام :

خُذْ ما أتاكَ من اللِّئا ... مِ إذا نأى أهْلُ الكرَم
فالأُسدُ تفْتَرِسُ الكِلا ... بَ اذا تَعذَّرَتِ الغَنَمْ

وقال المتنبى :

غيرَ اختيارٍ قَبِلْتُ بِرَّك بى ... والجوعُ يُرْضِى الأُسودَ بالجيفِ

وقال المهلبى الوزير :

ما كنتَ إلا كَلَحْمِ مَيْتٍ ... دعا إلى أكْلِهِ اضطِرارُ

ولأبى على البصير :

لعَمْرُ أبيك ما نُسِبَ المُعَلَّى ... إلى كرَم وفى الدنيا كريمُ
ولكنَّ البلادَ إذا اقْشَعَرَّتْ ... وصَوَّحَ نبتُها رُعِىَ الهشيمُ

«اقشعرت : قال الأزهرى : يقال : اقشعرت الأرض من المَحْل ـ الجدب ـ وفى الحديث : إن الأرض إذا لم ينزل عليها المطر اربَدَّتْ واقشعرت : أى تقبضت وتجمعت ، وصَوَّح نبتها : يبِس »

ومن قولهم فى التعريض بالسؤال : قال أمية بن أبى الصلت :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ... حياؤكَ إنّ شِيمتَك الحياء

---

(١) أى وما يريد ويتجه اليه مذكر كالنجار ـ الأصل ـ
(٢) فعاقصه : فاسلك معه مسلكا ملتويا بعزة

إذا أثنى عليك المرءُ يوماً كَفَاهُ مِن تَعرُّضِه الثَّناءُ

وقال ابن الرومى :

يامَن إذا التعريضُ صَافحَ نفْسَهُ أغْنَى العُفَاةَ به عن التصريحِ

وقال المتنبى :

أُقِل سلامِى حُبَّ ماخَفَّ عنكمُ وأسْكُتُ كيما لايكونَ جوابُ

وفى النَّفسِ حاجاتٌ وفيكَ فَطانةٌ سُكوتى بيانٌ عندها وخِطابُ

وقال أبو بكر الخوارزمى :

وإذا طلبتَ إلى كريمٍ حاجةً فلقاؤُهُ يَكفيكَ والتسليمُ

فإذا رآكَ مُسَلِّما عَرَف الذى حَمَّلْتَهُ فكأنَّه مَلزومُ

المسئول تُجاهَ السائل

قال شُرَيحٌ [1] : مَن سأل حاجةً فقد عَرَض نفسَه على الرِّقِّ ، فإن قضاها

(١) هو القاضى شريح بن الحارث ، استقضاه عمر بن الخطاب على الكوفة فأقام قاضيا خمساً وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بالقضاء ، ذا فطنة وذكاء ومعرفة وعقل وإصابة ، وكان شاعراً محسنا وكان مزاحا ، دخل عليه عدى بن أرطاة فقال له : أين أنت أصلحك الله فقال : بينك وبين الحائط ، قال : استمع منى ، قال : قل أسمع ، قال : إنى رجل من الشام ، قال : من مكان سحيق ، قال : تزوجت عندكم ، قال : بالرفاء والبنين قال : وأردت أن أرحلها ، قال : الرجل أحق بأهله ، قال : وشرطت لها دارها قال : الشرط أملك قال : فاحكم الآن بيننا ، قال : قد فعلت ، قال : فعلى من حكمت ؟ قال : على ابن أمك ، قال : بشهادة من ؟ قال : بشهادة ابن أخت خالتك ... ويُروى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه دخل مع خصم له ذمى إلى القاضى شريح هذا فقام له ، فقال على : هذا أول جورك ، ثم أسند ظهره الى الجدار وقال : أما لو أنّ خصمى كان مسلما لجلست بجانبه ... وتزوج شريح امرأة من بنى تميم تسمى زينب فنقم عليها شيئا فضربها ثم ندم وقال :

المسؤولُ استعبده بها ، وإن رَدَّه ، رجع حُرًّا ، وهما ذليلان ، هذا بِذُلِّ اللؤم وهذا بذلِّ السؤال . وقال أبو تمام :

ماماءُ كفِّكَ ـ إن جادتْ وإنْ بَخِلَتْ   من ماءِ وَجْهى إذا أفنيتُه ـ عِوَضُ

وقالوا : العَجَبُ لمن يشترى العبيدَ بالأموال ولا يشترى الأحرارَ بالنوال ... وسُئل خالدُ بن يَزيدَ : ماالجود ؟ قال : أن تُعطىَ مَن سألك ، فقال ابنه : ياأَبَتِ ، هـذا هو الـكَدُّ ، إنمـا الجودُ أن تُعطِى من سألك ومن لم يَسألْكَ ... وقالوا : أهنأُ المعروف أعْجَلُه . وقال بعض الناس : إذا أوليتنى نِعمةً فعَجِّلها ، فإن النفسَ مولَعةٌ بحُبِّ العاجل ، وإن الله تعالى قد أخبر عما فى نفوسنا فقال : كلا ، بل تُحبُّونَ العاجلة ... ولزِم بعض الحكماء بابَ بعض ملوك العجم دَهْرًا فلم يصِل إليه ، فتلطَّف للحاجِبِ فى إيصال رُقعَةٍ ، ففعل ، وكان فيها أربعة أسْطر

السطر الأول : « الأمل والضرورة أقْدَمانى عليك »

والسطر الثانى : « والعُدْمُ لايكون معه صَبْرٌ على المُطالبة »

والسطر الثالث : « الانصراف بلا فائدة شماتةٌ للأعداء »

والسطر الرابع : « فإما نَعَمْ مُثْمِرةٌ ، وإما لا مُريحة »

فلما قرأها وَقَّع فى كل سطرٍ : زِهْ ؛ فأُعطِىَ سِتَّةَ عشر ألفَ مِثقالِ فِضّةٍ . « زِهْ فى لغة الفرس معناها : أحسنت » ... ووقفتْ عجوزٌ على قيس بن سعد فقالت :

رأيتُ رِجالا يَضربون نِساءهم   فَشَلَّتْ يَمينى يومَ أَضرِبُ زينبا

أأَضْرِبُهَا مِنْ غيرِ ذنبٍ أتتْ به   فماالعَدْلُ منّى ضربُ مَنْ ليس مُذْنِبا

فزينبُ شمْسٌ والنِّساءُ كواكبٌ   إذا طلعتْ لم تُبْقِ مِنهنَّ كوكبا

توفى شريح سنة ٨٧ هـ وهو ابن مائة سنة .

أشكو إليك قِلة الجِرْذان ، قال : ما أحسنَ هذه الكناية ؟ امْلئوا بيتَها خُبزًا ولحماً وسَمْنًا وتمرًا . وقد تقدم مثلها .

الاعتذار عن المسئول إن لم يُعط

قال أبو نواس :

فإن تُولِنِي منك الجميلَ فأهلُه ... وإلا فإنى عاذر وشَكورُ

وقال ابن الرومى :

وإنْ عاقَ القضاءُ نَداكَ عنى ... فلستُ أراك فى مَنْعى مُليما [١]

وما غَيْثٌ إذا يجتازُ أرضاً ... إلى أُخرى بمُعتَمِدٍ لَئيما

وكتب أبو العيناء إلى ابن أبى دُواد : مَسَّنا وأهلَنا الضُّرُّ ، وبِضاعتُنا المَوَدَّةُ والشكر ، فإن تُعطنا فأنت أهل لذاك ، وإن لم تُعطِنا فلسنا ممن يَلمِزُك فى الصدقاتِ ، فإن أُعطُوا منها رَضُوا وإن لم يُعطَوا منها إذا هم يَسخطون [٢] وهناك من لا يعذِر، رَوَوا أن الحجاج لما دخل مكةَ قال لأهلها : أتيناكم وقد غاض الماءُ لكثرة النوائب ، فاعذِرونا ، فقال رجل : لا عذر الله مَن عذرك ، وأنت أمير المِصرَيْنِ وابنُ عظيمِ القريتين [٣] فقال : صدقتَ ، واستقرض مالا من التُّجار ففرَّقه فيهم ، وقال أبو تمام :

فلو حارَدَتْ شولٌ عذَرْتُ لِقاحَها

ولكن حُرِمْتُ الدَّرَّ والضَّرعُ حافِلُ [٤]

---

(١) مليما : فاعلا ما يلام عليه (٢) اللمز : العيب والوقوع فى الناس . يشير الى الآية الكريمة (٣) القريتان : مكة والطائف

(٤) حاردت الناقة : قل لبنها ، والشول جمع شائلة والشائلة من الإبل التى أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها ، واللقاح : جمع لقحة : الحامل والمراد : عذرتها

طلب الكثير والرضا بالقليل

قال أعرابيٌّ لخالد بن عبد الله من أبيات :

أخالِدُ بين الحمد والأجر حاجتى فأيُّهما تأتى فأنت عمادُ

فقال له خالد : سَلْ مابَدالك ، فقال : مائة ألف درهم ، قال : أسرفت ، قال : ألف درهم ، قال خالد : ماأدرى أمِن إسرافك أتعجَّب أمْ من حَطِّك ، فقال : إنى سألتُك على قدرك ، فلما أبيتَ سألتُ على قدرى ، فقال : إذن والله لا تَغلِبَنِى على معروفى ...

من يسأل حاجة يزعمها صغيرة

قال رجل لعمارة بن حمزة : أتيتُك فى حُوَيجة ، فقال : اطلب لها رُجَيْلًا ... وقال آخر مثل هذا فقال : دَعْها حتى تكبَرَ ... وقال رجل لعبد الله بن عباس رضى الله عنه : أتيتُك فى حاجة صغيرة ، فقال : هاتِها ، فالحُرُّ لا يَصْغُر عن كبير أخيه ولا يكْبُرُ عن صغيره ...

الحث على الصبر والأناة فى طلب الحاجات

قال الشاعر :

إن الأمورَ إذا انسدَّتْ مَسالِكُها فالصبر يفْتَح منها كلَّ مارُتِجا (١)

أخْلِقْ بذِى الصَّبْرِ أنْ يحْظَى بحاجته ومُدْمِنِ القَرْعِ للأبواب أنْ يَلِجا

لا تأْيَسن وإن طالتْ مُطالبَــةٌ إذا استَعَنْت بصَبْرٍ أنْ ترى فرَجا

وقال أبو نواس :

هذه الشول والدرّ : اللبن ، وحافل : ملآن (١) كل مارتتج : كل ماأغلق

ولا يُدْرِكُ الحاجاتِ مِنْ حيثُ تُبتَغى
من الناسِ إلّا المصبحون على رِجْلِ[1]

تَأَنَّ مواعيدَ الكرامِ فرُبَّما
أَصَبْتَ من الإلحاحِ سَمْحًا على بُخْلِ

وقال القَطامِيُّ :

قدْ يُدْرِكُ المُتأَنِّى بَعْدُ حاجتَهُ   وقد يكونُ مع المُستَعْجِلِ الزَّلَلُ

والعرب تقول : رُبَّ عَجلةٍ تَهَبُ رَيثاً ؛ يريدون أن الرَّجُلَ قد يَخْرَقُ ويَحْمُقُ فيَعْجَلُ فى حاجته فتتأخر أو تبطل بذلك .

العطية لا تجدى فى غير وقتها

قال البحترى :

واعْلَم بأنّ الغيثَ ليس بنافِعٍ   للمرْءِ ما لَمْ يأتِ فى إبّانِهِ

وقال :   ٭ يُرْجَى الطبيبُ لِساعةِ الأوصاب ٭

المسئول أهل لأن يُسأل

قال عَلْقَمَةُ بن عَبَدَةَ الفَحْل من قصيدة يخاطب الحارث بن أبى شمر الغسانى ـ وكان أسر أخاه شأساً فرحل إليه يطلبه منه ـ :

وفى كُلِّ حَىٍّ قد خَبَطْتَ بنِعْمةٍ   فحُقَّ لِشاسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ[2]

وقال أحمد بن أبى طاهر ـ :

أتيتُكَ لمْ أطمَعْ إلى غيرِ مَطْمَعٍ   كريمٍ ولَمْ أفزَعْ إلى غيرِ مَفْزَعِ[3]

---

(١) يقول : إنما يقضيها المشمرون القيام لا المتزملون النيام

(٢) خبطه بخير : أعطاه من غير معرفة بينهما ، شبه بخابط الليل . والذنوب : الحظ والنصيب   (٣) فزع إليه : لجأ إليه

التأسف على الحرمان

قال البحترى من أبيات يمدح بها الفتح بن خاقان ويعاتبه :

سحابٌ خطانِى جَوْده وَهْوَ مُسْبِلٌ وبحرٌ عدانِى فَيْضُه وَهْو مُفْعَمُ[1]

وبَدْرٌ أضاءَ الأرْضَ شرْقًا ومغْرِبًا ومَوضِعُ رَحْلِى منه أَسْوَدُ مُظْلِمُ[2]

أَأَشْكو نَدَاهُ بَعْدَ أَنْ وَسِعَ الوَرَى وما إنْ يَذُمُّ الغيْثَ إلّا مُذَمَّم

تعريضهم بمن خيبهم

وَقَفَ أعرابىٌّ على دارٍ سائلا : فقال له صبىٌّ من الدار : بورك فيك ، فقال له : قَبَحَ اللهُ هذا الفم ، فقد تعلَّم الشرّ صغيراً ... ووقف سائلٌ على قوم فقال أحدُهم : صناعتُنا واحدة ، فقال السائل : فأنا قَوّادٌ فهل أنتم قَوّادون ؟

✡ ✡ ✡

يرون الهدايا والرُّشَى مَدْرَجَةً للنجاح

كانت العرب تقول : مَن صانَعَ لم يَحْتَشِمْ مِنْ طلب الحاجة «صانع : هادى» ... وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : نِعْمَ الشىءُ : الهَدِيَّةُ أمامَ الحاجة ... وكان سفيان الثّورى يقول : إذا أردتَ أن تتزوّجَ فاهْدِ إلى الأُم ... ومن أمثالهم : مَنْ يخْطُبِ الحَسْناءَ يُعْطِ مَهْرا ... « يريدون مَن طلبَ حاجةً مُهِمَّةً بذلَ فيها » وقال شاعرهم :

---

(١) الجود : المطر الغزير ، ومسبل: هاطل (٢) الرحل : المنزل ، ومفعم : مالىء

ما مِنْ صديقٍ وإنْ تمّتْ صداقتُهُ
يوْمًا بأنجح فى الحاجاتِ مِن طَبَقِ
إذا تقنّعَ بالمنْديـلِ مُنْطلِقًا لمْ يخْشَ نَبْوةَ بوّابٍ ولا غَلَقِ
لا تُكْذَبَنّ فإنّ الناسَ مُذْ خُلِقُوا لِرَغْبةٍ يُكْرِمُونَ الناسَ أوْ فَرَقِ

« نبوة : جفوة ، وفرق : خوف » وقال رُؤْبةُ بن العَجّاج :

لمّا رأيتُ الشُّفعاءَ بَلَّدُوا وسألوا أميرَهم فأنْكَدُوا
نامَسْتُهم برُشْوةٍ فأقْرَدُوا وسَهَّلَ اللهُ بها ما شَدَّدوا

« بَلّدوا : يقال : بَلّدَ الرجل : إذا لم يتّجهْ لشىء ، وبَلّدَ : إذا نَكَسَ فى العمل وضعف حتى فى الجرى . وقوله : فأنكدوا : أى وجدوه عَسِراً مُقلِّلا إذ لم يجدوا عنده إلا نزراً قليلا ، وقوله : نامستهم برشوة : يقول : أفهمتهم أن يلجأوا إلى رشوة الأمير ويحتالوا بذلك ، قال فى اللسان : نامَسَ الرجل صاحبه : سارّه ، ومنه الناموس ، وهو صاحب سرّ الرجل ـ ويقال له اليوم السكرتير الخاص ـ وقوله : فأقردوا : أى خَضَعوا ، وفى الحديث : إياكم والإقرادَ ، قالوا : يارسول الله ، وما الإقراد ؟ قال : الرجل يكونُ منكم أميرًا أو عاملا فيأتيه المِسكينُ والأرْمَلةُ فيقول لهم : مكانَكم ، ويأتيه الشريفُ والغنيُّ فيُدْنيه ويقول : عجّلوا قضاءَ حاجتِه ويُتْرَكُ الآخرون مقردين أى ساكتين ذُلاًّ »

قطع العادة

ومن أحسن ماقيل فى قطع العادة قول أعرابىٍّ ـ وقد سأل قوما ، فرَقّ له رجُلٌ منهم فضمّه إليه وأجرى له رزْقا أياما ثم قطع عنه ـ فقال الأعرابىُّ :

تَسَرَّى فلما حاسبَ المرْءُ نفْسَه رَأى أنه لا يسْتقيمُ له السَّرْوُ

« تَسَرَّى : أى تكلف السَّرْو ، والسَّرْو : السخاء » وقال شاعر - قيل هو أبو الأسود الدُّؤلى ، وقيل أنس بن أبى أنس الليثى - :

لَيْتَ شِعْرى عن أَمِيرِى ما الّذِى غالَهُ فى الوُدّ حتّى وَدَّعَهْ

لا تُهِنِّى بعْدَ إذْ أكْرمْتَنى وشديدٌ عادةٌ مُنْتَزَعَهْ

لا يَكُنْ بَرْقُكَ بَرْقاً خُلَّبا إنّ خيْرَ البَرْقِ ما الغَيْثُ معَه

« البرق الخلب : الذى لا مطر معه » وفى الحديث : الخير عادة والشرُّ لَجَاجة . يقال لَجَّ فى الأمرِ يَلُجّ ويلِجّ لجاجة ولجاجا ولَجَجا : إذا تمادى عليه وأبى أن ينصرف عنه وهو يعلم أنه شر وأن غيره خير منه » وتقول العرب فيمن اصطنع معروفا ثمّ أفسده بالمَنّ أو قطعه حين كاد يتِمُّ : شوَى أخوك حتى إذا أنضجَ رَمَّدَ « رَمّدَ : ألقى الشىء فى الرَّماد »

شكوى العافين

من تفضيل بعضهم على بعض فى العطاء

قَدِم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفْدٌ من العرب ، فأعطاهم وفَضّل رجلا منهم ، فقيل له فى ذلك ، فقال : كلُّ القوم عِيالٌ عليه .

وأعطى سيدنا رسول الله يوم حُنَينٍ المُؤَلَّفَةَ قلوبُهم ، وكانوا أشرافا ، يتألفهم ويتألف بهم قومهم ، فأعطى فيمن أعطى ، عُيَيْنَةَ بنَ حِصْن الفَزَارِىّ ، والأقرعَ بن حابس التميمى ، أعطى كُلا منهما مائة بعير ، وأعطى عباسَ بنَ مِرْداسٍ أباعِرَ ، وكان كذلك من المُؤَلَّفةِ قلوبهم ، وكان شاعرا ، فسَخِطها وقال يعاتبُ سيدنا رسول الله :

أتجعَــلُ نَهبي ونَهْبَ العُبَيْــدِ بـين عُيَيْنَةَ والأقرع (١)
وما كان حِصْنٌ ولا حابِسٌ يفوقانِ مِرْداسَ فى مجمعِ (٢)
وما كنتُ دونَ امرئٍ منهما ومَن تضعِ اليوم لا يُرْفَع
وقد كنتُ فى الحربِ ذا تُدْرَأٍ فلم أُعطَ شيئا ولم أُمْنَع (٣)
إلّا أفائِــلَ أُعطِيتُها عديدَ قوائمِهِ الأربع (٤)

فلما أنشدها بين يدى رسول الله قال لعلى بن أبى طالب : ياعلىُّ ، اقطع عنى لسانه ، فقبض على يده وخرج به فقال : أقاطعٌ أنت لسانى ياأبا الحسن ؟ فقال : إنى لَمُمْضٍ فيك ماأُمِرْت ، ثم مضى به إلى إبِلِ الصدقة فقال خذ ماأحْبَبْت ...

بلاغة المكدين

سأل أعرابىٌّ فقال فى مسألته : لقد جُعتُ حتى أكلتُ النَّوَى المُحْرَق ، ولقد مَشَيتُ حتى انْتَعَلْتُ الدم ، وحتى سقط من رِجْلى بخَصُ لحمٍ ، وحتى تمنَّيْت أن وجهى حِذاءٌ لِقدمى ، فهل من أخ يرحمُنا ! « البخص : لحم يخالطه بياض من فساد يَحُلّ به » ... ووقف أعرابى على حَلْقة الحسن البَصرى فقال : رحِم الله آمرءًا أعطى من سَعَةٍ وواسَى من كفافٍ وآثر من قوت . فقال الحسن :

---

(١) النهب : الغنيمة ، والعبيد بالتصغير اسم فرس العباس ، وكان يدعى فارس العبيد.
(٢) مرداس مصروف ولكنه هنا ممنوع من الصرف للضرورة « انظر كتب النحاة »
(٣) تدرأ : من الدرء وهو الدفع قال فى الصحاح : وقولهم : السلطان ذو تدرأ ، أى ذو عدة وقوة على دفع أعدائه عن نفسه ، وهذا اسم موضع للدفع ، وقوله : فلم أعط شيئا الخ أى لم أعط شيئا طائلا أو لم أعط شيئا أستحقه وهو المائة : ولم أمنع من الإعطاء لأنى أعطيت بعضا
(٤) الأفائل : جمع أفيل بالفاء كالفصيل وزنا ومعنى

ماترك أحدًا منكم حتى سأله ... وقال المازنىّ : وقف علينا أعرابى فقال : رحم الله آمرءًا لم تمجُجْ أذناه كلامى ، وقدَّم لنفسه مَعاذًا من سوء مُقامى ، فإن البلاد مُجْدِبة والحال مُصْعبة (١) والحياء زاجرٌ يمنعُ من كلامكم ، والعُدْم عاذر يدعو إلى إخباركم ، والدعاء أحد الصدقتين ، فرحم الله آمرءًا أمر بمَيْر ودعا بخير . فقال له رجل من القوم : ممن الرجل ؟ فقال : اللهم غَفْرًا ممن لاتضُرُّكَ جهالتُه ، ولا تنفعُك معرفته ، ذُلُّ الاكتساب ، يمنع من عزّ الانتساب .

حسن الخلق

وعبقرياتهم فيه وفيما يتأشب إليه

وهذا هو أحد لَوْنَى الإحسان إلى الناس ، وإن شئت قلت هو اللَّوْن الثالث من ألوان البِرّ ، أعْنِي حُسنَ الخلق

تحضيضهم على حسن الخلق

قال الله عز وجل : واخْفِضْ جَناحَك لمن آتبعك من المؤمنين . وقال : خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بالْعُرْفِ وأَعرِضْ عنِ الجاهلين . « خذ العفو : فالعفو : السهل الميَسّر ، يقول سبحانه : احْتَمِلْ أخلاق الناس واقْبَل ما سَهُل منها وتيسَّرَ ، ولا تَسْتَقْصِ عليهم فيستقصى الله عليك ، مع مافيه من العداوة والبغضاء قال شُرَيح :

خُذِى العفوَ مِنِّى تستديمى مودّتى ولا تَنطِقى فى سَوْرَتى حين أغْضَبُ

---

(١) يقال صعب الأمر وأصعب : صار صعباً

فإنى رأيتُ الحُبَّ فى الصَّدْرِ والأذى
إذا اجْتَمَعا لم يَلْبَثِ الحبُّ يَذْهَبُ

وقوله سبحانه وتعالى : وأَعْرِضْ عن الجاهلين : فالجهل هنا ماقابل العقل والجاهلون : الحمْقى الأشرار السيئوا الأخلاق ، أَمر الله نبيه بأن لا يُمارِىَ الجاهلين ولا يُكافِئَهم بمثل أفعالهم »

وقال سيدنا رسول الله : إنكم لن تَسَعُوا الناس بأموالكم فَسَعُوهم بأخلاقكم . ومِنْ ذا قول حكيم وقد قيل له : هلْ من جُودٍ يُتناوَلُ به الخَلْقُ ؟ فقال : نعم ، أن تحسِّنَ الخُلُقَ وتنوى الخير لكل أحد ... وقال صلوات الله عليه : ألا أُخْبِرُكم بأحبكم إلىّ وأقربكم منّى مجالِسَ يومَ القيامة ! : أحاسِنُكم أخلاقا المُوطَّئُون أكنافا ، الذين يألَفُون ويُؤْلَفون ، ألا أُخبِرُكم بأبغضكم إلىّ وأبعدِكم منى مجالسَ يومَ القيامة ! الثَّرْثارُون المُتَفَيْهِقون ... « قوله : أحاسنكم أخلاقا يريد : الأحاسن منكم على إرادة التفضيل لا الوصف ، وذلك أن العرب تقول فى الوصف : رجُلٌ حَسَنٌ ولم تقل رجل أحسن ، مع قولهم امرأة حسناء . ونظيره فى عكسه : غلامٌ أَمْرَدُ ولم يقولوا جاريةٌ مَرْداء . وقوله : المؤطَّؤن أكنافا : يريد دَماثة الخلق ولين الجانب وأن ناحيته يتمكّن فيها صاحبُه غيرَ مُؤْذًى ولا نابٍ به موضِعُه . وأصل التوطئة : التذليل والتمهيد يقال : فِراشٌ وطىء إذا كان وَثِيرًا ـ أى ليِّنًا ـ والثرثارون : الذين يُكْثِرون الكلام تكلُّفا وتجاوُزاً وخُروجا عن الحق ، وأصل هذه اللفظة من العين الواسعة من عيون الماء يقال : عينٌ ثَرْثارة وثرّارة : إذا كانت كثيرة الماء ... والمتفيهقون : بسبيل من « الثرثارون » وهو تأسيس له ، واشتقاقه من قولهم : فَهِق الغدير يفهَقُ : إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد : يصفهم

بأنهم يوسعون أشداقهم ويملأونها بالكلام . قال أبو العبّاس المبرد بعد ما أورد ما أوردناه من تفسير هذا الحديث : وتصديق مافسرناه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يُريد الصدق فى المنطق والقصدَ وتركَ مالا يُحتاجُ إليه : قَولُه لجَرير بنِ عبدِ الله البَجَلى : ياجرير : إذا قلت فأوْجِزْ وإذا بلغْتَ حاجتَك فلا تَتكلَّفْ » وقال الله جل شأنه فى الحثّ على لين الكلام : وقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا . وقال : فقُولَا له قَوْلًا ليِّنًا ، وقال : وقُلْ لهما قَوْلًا كريما . وقال : فقلْ لهم قوْلًا مَيْسُورًا ... وقالوا : مَن لانت كلمته وجبت محبَّتُه . وقالت جدة سفيان بن عُيَيْنة له :

بُنَىَّ إنَّ البِرَّ شىءٌ هَيِّنُ   المَفْرَشُ اللَّيِّنُ وَالطُّعَيْمُ

✡ ومَنْطِقٌ إذا نَطَقْتَ لَيِّنُ ✡

« قولها هَيِّنُ : فالعرب تقول : رَجلٌ هَيْنٌ لَيْنٌ وهَيِّنٌ لَيِّنٌ » وفى الحديث : المؤمنون هَيْنُون لَيْنُون كالجمل الأَنِفِ إن قُدْتَه انقادَ وإنْ أَنَخْتَه على صخرة استناخ » جمل أَنِفٌ : أى مأنوف ، أى يشتكى أنفه من خِشاشٍ أوْ بُرَةٍ [1] أو خِزامة فى أنفه فلا يمتنع على قائده فى شىء للوجع ، فهو ذلول مُنْقادٌ ، ومعنى المؤمنون كالجمل الأنف : أنهم لايَرِيمون التشكِّى ، أى يُديمون التشكى مما بهم إلى الله وحدَه لا إلى سواه . أقول : وأحسن من هذا التفسير قول بعضهم : الجمل الأنف : الذليل المُوَاتى الذى يأنَف من الزجْر ومن الضرب ويُعْطى ماعنده من السير عَفْواً سهلا ، كذلك المؤمن ، لايحتاج إلى زَجر ولا

(١) الخشاش : عويد من خشب يُدخَل فى عظم أنف البعير يشدّ به الزمام ليكون أسرع لانقياده . والبرة : مايوضع فى لحم أنف البعير ويكون من صفر ـ نحاس أبيض ـ أما الخزامة فهى من شعر

عِتاب ، وما لَزِمَه من حقٍّ صَبَرَ عليه وقام به ، وهذا تفسير جميل ، وهو أليق بكلام سيدنا رسول الله » . وسُئِلَت عائشة رضى الله عنها عن خُلُقِ النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : أوما تقرؤن القرآن : وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم ... وقالوا : صفاءُ الأخلاق من نَقاء الأعراق . «الأعراق جمع عِرق وهو الأصل يقال رجل مُعْرِقٌ فى الحسب والكرم قالت قُتيلة بنت النضر بن الحارث أو أخته :

أمُحمدٌ ولأنت ضِنْءُ نجيبة　　فى قومها والفحلُ فحلٌ مُعْرِق

أى عريق النسب أصيل ، ويستعمل فى اللؤم أيضا تقول : إن فلاناً لمُعْرق فى الكرم ، ومعرق فى اللؤم . والضنء : الولد والأصل والمعدن» وقال البحترىّ :

سلامٌ على تلك الخلائق إنها　　مُسَلَّمةٌ من كلّ عارٍ ومأثَم

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص : ثلاثة من قريش أحسنها أخلاقا وأصبحُها وجوها وأشدُّها حياءً ، إن حدَّثوك لم يَكْذِبوك ، وإن حدَّثتهم بحقٍ أو باطل لم يُكذِّبوك : أبو بكر الصِّدِّيق ، وأبو عُبيدة بن الجرّاح ، وعثمان بنُ عفان رضى الله عنهم ...

وفى الأثر أيضا : أن حُسنَ الخُلق وحُسنَ الجوار يُعمِّران الديار ويَزيدان فى الأعمار . وفى كتاب للهند : مَن تزوّد خمساً بلَّغته وآنَسته : كفُّ الأذى ، وحسن الخلق ، ومُجانبة الرِّيَب ، والنُّبْلُ فى العمل ، وحسن الأدب

نَهْيهم عن سوء الخلق

وقالوا : سوء الخُلق يفسد العمل كما يُفسد الصَّبِرُ العسلَ « الصبر هو هذا الدواء المُرّ ولا يسكن إلا فى ضرورة الشعر » وفى الحديث : مَن ساء خُلقُه عذب نفسه ، وقال العتَّابىُّ :

وكُنتَ امْرءاً لوشئتَ أنْ تبلُغَ المنى بلغتَ بأدْنى غايةٍ تستديمُها
ولكن فِطامُ النَّفْسِ أثقلُ مَحمِلاً من الصَّخرةِ الصَّماءِ حينَ ترُومُها

وقال عِقال بن شَبَّة : كنت رديفَ أبي ، فلقيه جريرٌ على بغل ، فحيَّاه أبي وألطَفَه ، فلما مضى قلت : أبَعْدَ ما قال لنا ما قال ! قال : يابُنىَّ ، أنا وَسَّعُ جُرحى ! . وقال ابن الحنفية : قد يُدْفَعُ باحتمال مكروهٍ ماهو أعظم منه... وقال أبو الدرداء : إنا لنَكْشِرُ فى وجوه قوم وإن قلوبَنا لتَقْليهم [1]

وقالوا : لا مُداراةَ للخلق السيئ القبيح ، كالشجرة المُرَّة لو طُليَت بالعسل لم تُثْمر إلا مُرًّا ، وكذَنَب الكلب لو أدخلتَه القالَب سنينَ لعادَ إلى اعْوِجاجه . ومن طُرَفهم فى هذا المعنى قول بعضهم لأحمدَ بنِ أبى خالد : لقد أُعْطيتَ مالم يُعطَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لئن لم تخرُج من ذلك لأضربنك ، فقال الرجل : إن الله تعالى قال لنبيه : ولو كنت فظا غليظ القلب لانْفضُّوا من حولك وأنت فظٌّ ونحن لا نَنْفضُّ من حولك . وقال بعضهم : خَطبْتُ امرأةً ، فأجابتنى فقلت : إنى سيئ الخلق ؛ فقالت : أسوأُ خُلقا منك من يُلجئك إلى سوء الخلق ... وقال بعضهم لرجل سيئ الخلق : إنِ استطعت أن تغير خلقك وإلا فليَسَعْك من أخلاقنا ماضاق به ذرْعُك ...

صعوبة تغيير الطباع والمتخلق يرجع إلى شيمته

قالوا فى ذلك : تأبى الطباعُ على الناقِل ؛ و : العادة طبيعة ثانية ، وَ :
ظَلَمْتَ امْرَءًا كلَّفته غيرَ خُلْقِه وهل كانتِ الأخلاقُ إلا غرائزا
و : كلُّ إناءٍ بما فيه يَرْشَح

(١) نكشر فى وجوه قوم : أى نبسم فى وجوههم وأصل الكشر : بدو الأسنان يكون ذلك فى الضحك وغيره؛ ونقليهم : نبغضهم

و : ٭ إنّ التّخلُّقَ يأتِي دونَهُ الخُلُقُ ٭

وقال ذو الإصْبَع العَدْوانى :

وَمنْ يَبْتدِعْ ماليس مِن خِيمِ نفْسِه يدَعْهُ ويَغْلِبْهُ على النَّفْسِ خِيمُها

« الخيم : السجية والطبيعة والأصل » وقال زُهَير بن أبى سُلْمى :

ومهما يَكنْ عند امرئٍ من خَليقةٍ وإنْ خالها تَخْفَى على الناسِ تُعْلَمِ

وقال أبو تمام :

والسّيفُ مالمْ يُلفَ فيه صَقيلٌ من سِنْخِه لم يَنتفِعْ بِصقالِ

« السنخ : الأصل ، والصقال : الجِلاء» وقال المتنبي :

وكُل يَرى طُرْقَ الشَّجاعةِ والنَّدى ولٰكنَّ طبْعَ النَّفْسِ لِلنّفس قائِدُ

وقال :

ولِلنّفْسِ أخلاقٌ تدُلُّ على الفتَى أكان سَخاءً ما أتَى أمْ تَساخِيا

مداراة الناسُ

قال النّظامُ [١] : مايسُرنى تركُ المُداراةِ وَلِى حُمُرُ النعَم ، فقيل له : ولِمَ؟ قال : لأن الأمرَ إذا غشِيَك نشَخَصْتَ له أرداك ، وإذا طأطأتَ له تخطّاك ... وقال شاعر :

وأنْزَلَنى طُولُ النّوى دارَ غُرْبةٍ إذا شئتُ لاقيتُ امْرءًا لاأشاكِلُهْ

فحامَقْتُه حتى يقالَ سَجيّـةٌ ولو كان ذا عَقْلٍ لـكنْتُ أعاقِـلُهْ

وقال بشار بن بُرد :

وما أنا إلا كالزّمانِ إذا صحَا صحوْتُ وإنْ ماقَ الزمانُ أمُوقُ

« ماق يموق موقا ومُوقا ومُوُوقا واستماق ، كل أولئك : حَمُقَ فى

(١) هو إبراهيم بن سيار شيخ الجاحظ وأحد كبار المعتزلة .

غباوة، ويقال: فلان أحمق مائق: والعرب تقول: أنت تئق وأنا مئق، أى أنت ممتلئ غضبا وأنا سيئ الخلق، فلا نتفق، وقال معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه: لو كان بينى وبين الناس شَعْرَةٌ ماانقطعت، لأنهم إذا جذبوها أرسلتُها، وإذا أرسلوها جذبتُها، وهكذا كان معاوية نبىّ الحِلم والأناة والكياسة والرياسة والسياسة.

من حسن خَلْقه وخُلُقه ومن اختلف خَلْقه وخُلُقه

قال ابن الرومى:

كلُّ الخِلال التى فيكم محاسِنُكم تشابَهَتْ فيكم الأخلاقُ والخِلَق
كأنكم شجرُ الأُتْرُجِّ طاب معًا حَمْلًا ونَوْرًا وطاب العودُ والورَقُ

«الأترُجّ والتُّرُنج: ثمر من فصيلة الليمون ويسميه أهل الشام الكبَّاد، والحمل بفتح الحاء ـ والكسر لغة ـ ثمر الشجرة؛ ومن دقائق هذه اللغة الكريمة أنها تفرق بين الحِمْل الذى يحمل على ظهر أو رأس، وبين الحَمل الذى يحمل فى البطن من الأولاد فى جميع الحيوانات، فالأول يكسرون حاءه، والآخر يفتحون حاءه، قائلين: ما كان لازما للشىء فهو حَمل وما كان بائنا فهو حِمْل وأما حَمل الشجرة فلما كان شبيها بحمل المرأة لاتصاله فتحوا حاءه ولما كان يُشبِه حِمل الشيء على الرأس لبروزه من جهة ولأنه ليس مستبطنا كحَمل المرأة من جهة أخرى كسروا حاءه؛ والنور بفتح النون: الزهر، وفى الأثر: ماأحسنَ الله خَلقَ أحد وخُلُقَه فأطعمه النارَ... ووصف بعضهم رجلا فقال: يَقْرِى العينَ جمالا والأُذُنَ بيانا[1]... وقال قتادة:[2] مابعث الله نبيا إلا حَسَنَ

(١) يقرى يريد: يطعم، ولك أن تضع مكان يقرى: يغترق، من قولهم فى الحسناء إنها تغترق العين أى لاتدعها تنظر إلى غيرها جمالا (٢) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة

الخُلُق حسَنَ الوجه ... وقال الفلاسفة : قلّ صورةٌ حسنةٌ تَتْبَعُها نَفْس رديئة. وقال جالينوس : ينبغى الرجل أن يَنظُرَ إلى وجهه فى المِرآةِ، فإن كان حَسنَ الوجه جَعلَ عنايتَه أن يَضُمَّ إلى جمال وجهه كمالَ خُلُقه وكمالَ نفسه ، وإن رأى صورة سَمِجَةً تحرَّزَ من أن يكون دَميمَ الخَلق ذميمَ الخُلق ... ونظر فيلسوف إلى غلام حَسَنِ الوجهِ يتعلم العلمَ فقال : أحسنتَ ، إذ قرَنْتَ بحُسْن خَلقك حُسنَ خُلقك ... ونظر فيلسوف إلى رجل حسن الوجه خبيث النَّفس فقال : بيتٌ حَسَنٌ وفيه ساكن نَذْلٌ ... ورأى آخرُ شابا جميلا فقال : سَلَبَتْ محاسِنُ وجهك فضائلَ نفسك ... وقالوا :

فلا تجعل الحُسنَ الدَّليلَ على الفتى فما كلُّ مَصْقُولِ الحديد يمانِ

و : ألمْ ترَ أن الماءَ يَخلُفُ طعمُه

وإن كان لَوْنُ الماء فى العين صافيا [1]

واستعرض المأمون الجُنْدَ فمرَّ به رجل دميم ، فاستنطقه ، فرآه ألْكَنَ ، فأمر بإسقاطه وقال : إن الروحَ إذا كانت ظاهرةً كانت وَسامةً ، وإذا كانت باطنةً كانت فصاحةً ، وأراه لا ظاهرَ له ولا باطن ...

«وبعد» فسيمرُّ بك كثير من عبقرياتهم فيما يتصل بهذه المعانى ويمُتُّ إليها بسبب واصل ، فى باب الطبائع ... وباب الصداقة والصديق ... وباب عبقرياتهم فى معانٍ شتى ...

التقوى

وهاك اللونَ الأخيرَ من ألوان البرِّ ، ولقد أسمعناك فيما أسلفنا أن التقوى

الا كه كان من كبار علماء التابعين ولد سنة ٦٠ وتوفى سنة ١١٨ هـ

(١) خلف الماء واللبن والطعام من باب دخل : إذا تغير طعمه أو ريحه

هى عمادُ البرِّ وقِوامُه، على جميع ألوانه ، أى أنه مادام هناك تقوى بمعناها الصحيح كان هناك صِلةُ الرَّحِمِ ، وكان هناك الإحسانُ ، وكان هناك مكارم الأخلاق ، وكان هناك الخير كله والبر فى جميع مايشتمل عليه وينتظمه ، ولنورد عليك باديَ ذى بَدْءٍ قولَهم فى التقوى والمراد بها ، ثم نردف ذلك بعبقرياتهم فى التقوى وما يتأشب إليها ... ويجرى منها على عِرق ...

معنى التقوى

التقوى فى اللغة من الاتقاء ، بمعنى اتخاذ الوقاية ، وفى اصطلاحهم : صيانة النفس عما تستحق به العقوبةَ من فِعل أو ترك ، وقال أبو البقاء فى كلياته : التقوى ـ على ما قاله على رضى الله عنه ـ ترك المعصية وتركُ الاغترار بالطاعة ، وهى التى يحصُل بها الوقاية من النار والفَوزُ بدار القرار ، وغايةُ التقىِّ البراءةُ من كل شىء سوى الله ، ومبدؤُها اتِّقاءُ الشِّرْك ، وأوسطها اتقاء الحرام ، وغايتها مُنْتهى الطاعات ، قال : وقد تُسمَّى التقوى خوفًا وخَشْيةً ... أقول :

فإن لا يَكُنْها أو تَكُنْه فإنه أخوها غَذَتْهُ أُمُّهُ بلِبانِها [1]

وقد عقَد الإمام أبو حامد الغزالى للخوف كتابا فى كتابه الإحياء جاء فيه : إن التقوى والورَعَ أسامٍ اشْتُقَّتْ من مَعانٍ شَرطُها الخوف ، فإن خلت من الخوف لم تُسمَّ بهذه الأسامى ... أقول : ومن أروع ماقيل فى الخوف قوله تعالى : إنما يَخشى اللهَ من عباده العلماءُ ... أقولُ : وإذْن يكون : كلما ازداد المرءُ علماً بالله سبحانه ازداد منه خوفا ، كما جاء فى الأثر : أعلمُكم بالله أشدُّكم له

---

(١) لأبى الأسود الدؤلى فى نبيذ التمر ، واللبان بكسر اللام ، يقال : هو أخوه بلبان أمه ولا يقال بلبن أمه ، إنما اللبن : الذى يشرب من ناقة أو شاة أو غيرهما من البهائم

خشية ... ومَن كان من العلماء لا يَخشى الله ولا يُراقبه في سائر أحواله ، فليس من العلم بالله في كثيرٍ ولا قليل ... وما أجمل ما يقول عبد الله بن همّام السّلوليّ (١) في وصف هذا الصّنف من العلماء :

إذا نَصبوا للقول قالوا فأحسَنوا ... ولكنّ حُسنَ القولِ خالَفه الفِعلُ
وذمّوا لنا الدنيا وهم يَرضَعونَها ... أفاويقَ حتى ما يَدِرُّ لها ثُعلُ

« قوله : إذا نصبوا الخ يريد : إذا نصبوا أنفسهم للقول وأعدّوها له ، والأصل في النّصب : أن يقوم رافعاً رأسه ؛ ورضَع يرضِع كضرَبَ يضرِب في لغة قيس ، وكسَمِع يسمَع في لغة أهل الحجاز ، فقوله : يرضعونها : تقرأ

(١) من التابعين ، وعداده في أهل الكوفة ، وبيتاه المذكوران من أبيات له قالها النعمان بن بشير الأنصاري عامل معاوية على الكوفة ، وكان معاوية أمر لأهل الكوفة بزيادة عشرة دنانير في أعطياتهم فأبى النعمان أن ينفذها لهم فقال عبد الله :

زيادتَنا نُعمانُ لا تَحرِمَنّنا ... تَخفِ اللهَ فينا والكتابَ الذي تَتلو
فإنك قد حُمّلتَ مِنّا أمانةً ... بما عَجَزَتْ عنه الصّلاخِمَةُ البُزْلُ
وإن يكُ بابُ الشّعرِ تُحسِنُ فتحه ... فلا يَكُ بابُ الخير منك له قُفْلُ
فقد نِلتَ سُلطاناً عظيماً فلا يكن ... لِغيرِكَ جَمّاتُ النّدى ولكَ البُخل
وأنتَ امرُؤٌ حلوُ اللّسانِ بليغُه ... فما باله عند الزّيادةِ لا يَحلو
وقبلَكَ قد كانوا علينا أئمّةٌ ... يُهِمّهُمُ تقويمُنا وهُمُ عُصلُ

والصلاخمة : الصلاب المانعة وفي الحديث : عرضت الأمانة على الجبال الصم الصلاخم وأصل الصلخم : البعير الجسيم الشديد الماضي ، والبزل : جمع بازل ، ويقال رجل بازل على التشبيه بالبعير ، يعنون بذلك كمال عقله وتجربته واستكمال قوته . وجمات : كثيرات ، وقوله : كانوا علينا أئمة فأئمة فاعل كانوا وهذا على لغة أكلوني البراغيث وإذا أرجعت الضمير في كانوا إلى المذكورين في البيت الثاني فتكون أئمة خبر كانوا ، وعصل : فالعصل الاعوجاج وكل معوج فيه صلابة : أعصل .

بكسر الضاد وبفتحها ؛ وأفاريق جمع أفواق جمع فِيقه بكسر الفاء ، وهو اسم للّبن الذى يجتمع بين الحلبتين ، يريد : أنهم يرضعونها ثم يتركونها مقدار مايجتمع اللبن فيرضعونها ، وهكذا ، والثعل بضم الثاء وفتحها : خِلْف زائد صغير من أخلاف الناقة وضَرع الشاةِ لايَدِرُّ من اللبن شيئا ، يَصِفُهُم بأنهم أحرص الناس على طلب المال يستنزفونه من خزائنه حتى لم يبق منه شىء ، وإنما ذكر الثعل للمبالغة فى الارتضاع ، والثعل لايدرّ ، وهى مبالغة حسنةٌ فى معنى الاستئصال والنّفاد »

✡ ✡ ✡

ومما جاء فى الخوف أيضا قوله سبحانه : وأما من خافَ مَقام ربّه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنةَ هى المَأْوَى ، وقوله جل شأنه : وخافونِ إن كنتم مؤمنين ، وقوله : وهُدًى ورحمة للذين هم لربِّهم يَرْهَبون ، وقوله تعالى : إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِر الله وَجِلَت قلوبهم وإذا تُلِيَت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم؛ وقال عز وتقدّس : واعلموا أنّ الله يعلم مافى أنفسكم فاحذَروه ... قال سفيان بن عُيَيْنة : لولم يُنْزل الله تعالى علينا إلا هذه الآيةَ لكان قد أعْذَرَ « أعذر : بلغ أقْصى الغاية فى العذر ، أى صار معذوراً عندك إذ حَذرك أن لا تَحْذَرَه وهو يعلم مافى أنفسنا ؛ ومن هذا المثل : مَن أنذر فقد أعذر »

وبما يُؤثر فى باب الخوف قوله صلى الله عليه وسلم : رأس الحِكمة مخافةُ الله .

الحكمة

وهذا الحديث الشريف - على وضوحه وجماله وإشراقه وإنارته، وعلى أنه مما كنا نستظهره إبَّانَ الحداثة، إذ يلقنوننا إياه أوائل التعلم في المكاتب لابدّ من التبسط في القول عليه. قال صاحب القاموس: الحكمة تأتي بمعنى العدل [١] والعلم [٢] والحِلم [٣] والنُّبُوّة والقرآن والإنجيل [٤] ووضع الشيء في موضعه وصواب الأمر وسداده، وقال أبو البقاء في كلياته - بعد أن أورد ما قال صاحب القاموس -: والحكمة في عرف العلماء: استكمال النفس الإنسانية، باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة قدْرَ طاقتها، قال: وقال بعضهم: الحكمة هي: معرفة الحقائق على ما هي عليه بقدر الاستطاعة، وهي العلم النافع المُعَبَّرُ عنه بمعرفة ما لها وما عليها، المُشار إليه بقوله تعالى: ومن يُؤتَ الحكمة فقد أُوتِي خيرا كثيرا. وإفراطُها الجَرْبَزة [٥] وهي استعمال الفِكر فيما لا ينبغي كالمُتشابهات [٦]، وعلى وجه لا ينبغي كمخالفة

---

(١) ضد الجور، فلا يميل بصاحبه الهوى حتى يجور في الحكم

(٢) أي العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها

(٣) هو ضبط النفس عند هيجان الغضب (٤) فالحكمة في قوله تعالى: ويعلمه الكتاب والحكمة وقوله: وآتاه الله الملك والحكمة وقوله: وآتيناه الحكمة: بمعنى النبوة والرسالة، كما أنها تأتي بمعنى القرآن والإنجيل، لتضمن كل منهما الحكمة في لونيها - العلمية والعملية.

(٥) يقال في اللغة: رجل جُربز: خب خداع خبيث منكر والظاهر أن الجربزة والجربز والقربز معربات (٦) قال صاحب اللسان - بعد أن أورد كلاما كثيراً في معنى المتشابه من القرآن وفي الحديث - في صفة القرآن: آمنوا بمتشابهه واعملوا بمحكمه:

الشرائع؛ وتفريطها : الغباوة التي هي: تعطيل القوة الفكرية والوقوف عن اكتساب العلم ... انتهى .

« وبعد » فإن المُسْتَقْصِيَ لكل ماأوردوه من معانى هذه الكلمة ـ الحكمة ـ يرجع إلى إحكام الشيء ، أى إتقانه ، كيلا يتسرَّب إليه خللٌ أو فسادٌ ، وكى يبلغ ذُروةَ الكمال جُهْدَ الاستطاعة ، حتى قيل لكل من يُحسن دقائق الصناعات ويُتقِنُها : حكيم ، ومن ثم يقال للعالِم العامل بعلمه : حكيم ، والرجل العاقل المُهَذَّب المُوفَّق : حكيم ،وللقاضى العادل فى أحكامه : حكيم ، وللرجل المجرَّب الذى حنَّكته التجاريب ووثَّقته حتى لايصدر عنه إلا كلُّ ماهو سَدَاد: حكيم ، ويقال للمواعظ والأمثال التى ينتفع الناس بها : حكمة ، ولكل كلام نافع يمنع من الجهل والسَّفَه : حكمة ، ومن ذا تسميةُ القرآن والإنجيل وسائر الكتب المنزلة ، وكلٍّ مايحذو على حذوها ، مما يتضمن مواعظ وآدابا وأخلاقا فاضلة : حكمة ، إذ كل أولئك يرتدُّ إلى معنى الإتقان والتوثيق والإصابة والسَّداد ... وإذن يكون معنى قوله صلى الله عليه وسلم : رأس الحكمة مخافة الله : أُسّ الحكمة وقوامها : الخوف منه سبحانه، لأن الحكمة من شأنها أن تمنَع النفسَ عن كل ما نُهينا عنه ، ولا يحدو المرْءَ على العمل بها إلا الخوفُ منه ، عز وتقدس ، ومتى كان هذا الخوف شعارَه حاسَب نفسه على كل خطرة ونظرة ولذّة ؛ وبذلك تكون مخافةُ الله آكدَ أسباب النجاة ولا تتمُّ الحكمة إلا بها ...

☆ ☆ ☆

المتشابه : مالم يتلق معناه من لفظه ، وهو على ضربين : أحدهما إذا رُدَّ إلى المحكم عرف معناه والآخر ، مالا سبيل إلى معرفة حقيقته ، فالمتتبع له متتبع للفتنة لأنه لا يكاد ينتهى إلى شيء تسكن نفسه اليه «راجع اللسان مادة شبه»

هذا، ويُعجبني من الشعر في باب الخوف من الله قول محمود الورّاق [1] :

يا ناظراً يَرْنو بعينَيْ راقِدٍ ومُشاهِداً للأمرِ غيرَ مُشاهِدِ [2]
مَنَّيْتَ نفْسَك ضَلةً وأبحْتَها طُرُقَ الرَّجاءِ وهُنَّ غيرُ قواصِد [3]
تَصِلُ الذُّنوبَ إلى الذنوبِ وتَرْتجي دَرْكَ الجِنانِ بها وفوْزَ العابِدِ [4]
ونَسِيتَ أنَّ اللهَ أخرجَ آدمًا منها إلى الدنيا بذَنْبٍ واحدِ

وقال الحسن البصريّ : إن خوفَكَ حتى تَلقَى الأمْنَ، خير من أمْنِك حتى تَلقَى الخوف ... وقال : ينبغي أن يكون الخوفُ أغلَبَ على الرَّجاء، فإن الرَّجاءَ إذا غلب الخوف فَسَدَ القلب ... وقال بعضهم: قلت لِسُفْيان : بلغني في قول الله تعالى : (إلَّا مَن أتَى الله بقلب سليم) أنه الذي يَلقَى ربَّه وليس فيه أحد غيره، فبكى وقال: ماسمعت منذ ثلاثين سنة أحسنَ من هذا التفسير ... وقالوا : من خافَ الله أخافَ اللهُ منه كلَّ شيء ، ومن لم يخَفِ الله أخافه الله من كلِّ شيء ... وقال الفضيل بن عياض : إني لأَسْتَحِي من الله أن أقول توكَّلتُ على الله ، ولو توكلت عليه حقَّ التوكل ، ماخِفْت ولا رَجوتُ غيره.

« وأما بعد » فهو معلوم من الدين بالضرورة أن الله سبحانه خلق الإنسانَ وهو يعلم ماتُوَسْوِسُ به نفسه، وهو أقربُ إليه من حبل الوريد [5] ما يَلفِظُ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد [6] ، وإنَّ عليكم لحافِظين كِراماً كاتبين

(١) هو محمود بن الحسن الوراق البغدادي مولى بني زهرة يكنى أبا حسن ، شاعر كثير الشعر جيده ، وعامته في الحكم والمواعظ والزهد؛ ترجم له صاحب فوات الوفيات.

(٢) يرنو : ينظر (٣) غير قواصد ، يريد : وهي حائرة غير مستقيمة

(٤) درك : اسم من الإدراك

(٥) حبل الوريد : عرق في العنق (٦) عتيد : حاضر

يعلمون ما تفعلون [١] :

إن مَنْ يَركَبُ الفواحشَ سِرًّا حينَ يَخلو بسِرِّه غيرُ خالِ
كيف يَخلو وعنده كاتِباه شاهِداه، وربُّه ذو الجلالِ [٢]

وكذلك هو معلومٌ « أن الناس قَوارِى الله فى أرضه [٣] » أى أن الناس ولاسيما الصالحون منهم - شُهودُ الله فى أرضه - لأنهم يتتَبَّع بعضهم أحوالَ بعضٍ، فإذا شَهِدوا لإنسان بخير أو بِشرّ فقد أَوْجَب [٤] ... وبعبارة أخرى : إن على كلِّ إنسانٍ رُقباءَ هُمْ له بالمِرْصاد، يُزَنِّؤُنَ عليه [٥] ، ويَجعَلون بالهَمِ إليه، ولا تكاد تخفى عليهم خليقةٌ لَدَيه :

ومَهما يكن عند امرِئٍ من خليقة وإنْ خالَها تَخفى على الناسِ، تعلم

أليس فى نفس كلِّ إنسان قَبَسٌ من نور الله الذى هو نورُ السموات والأرض ؟ والناس بهذا النور - ولا سيما الصالحون منهم، أولئك الذين يبدو فيهم هذا النور خالصاً غيرَ مشوب برَيْنٍ وطَبَعٍ وغَيمٍ - يَرَون بعضُهم من بعض ماقد يَتوهَّمُ الجاهلون أنه لا يُرى ، فكأن الناسَ لذلك شُهودُ الله فى

(١) كل هذه آيات كريمة مقتبسة من القرآن الكريم (٢) هذان البيتان لنابغة بنى شيبان واسمه عبد الله بن المخارق بن سليمان ، شاعر بدوى كان يفد إلى ملوك بنى أمية بالشام وأكثر من مدح منهم الوليد بن يزيد (٣) حديث شريف ، وقوارى : أخذ من أن الناس يقرون الناس ، أى يتتبعونهم فينظرون إلى أعمالهم ، وقال الزمخشرى : المسلمون قوارى الله فى الأرض ، أى أمناؤه وشهداؤه الميامين ، شبهوا بالقوارى من الطير وهى الخضر التى يتيمنون بها

(٤) يقال : أوجب الرجل : إذا عمل عملا يوجب له الجنة أو النار ، والموجبة : الكلمة أو الفعلة توجب لقائلها الجنة أو النار

(٥) زنأ عليه : إذا ضيق عليه ، وعامة المصريين يستعملون اليوم هذا الحرف بمعناه الصحيح

الأرض ، فإذا شهدوا لإنسان بخير أو بشر ، فلكل نفسٍ ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وكلٌّ مجزيٌّ بعمله ، إن خيراً فخير وإن شرًّا فشر ، وهذا كله حقٌّ لاسبيل إلى الإلحاد فيه ... وشيء آخر ، وهو أن من كان شعارُه خوف الله في السِّرِّ والعلَن وحسُنت سريرتُه ، رَشَدَ وحسنت سِيرته ، ومَن عرَّاهُ الله من هذا الشعار وساءت سريرته ، غَيَّ وساءت سيرته . وجملة القول : أن خوف الله وما يَستتبعُه من قلة الاكتراث لما سواه من الخلق في سبيل الحق ، مما يورث صاحبه مايطلقون عليه اليوم « الشجاعة الأدبية » فَضلًا عن الجُرأة والإقدام وسائر الخلال الكريمة النبيلة . فخوف الله كما ترى أس من أُسسِ الأخلاق ، وهذا مصداق الحديث الشريف « رأس الحكمة مخافة الله » ...

هذا ، وقد يَظُنُّ ظان أن مخافة الله مَغزاها الخوف من عقابه والطمع في ثوابه ، فمن عمل صالحاً فكيْ يُثابَ ويُجزَى الجزاءَ الأوفى ، ومَن أقلع فلكيْ ينجو من عذاب النار ، وهذا لَعَمْري ، وإن عُدَّ خوفا ، بيْدَ أنه أدْنَى درجات الخوف ، وهو خوف العامّةِ وأشباهِ العامّة . قال بعض الحكماء : إنى لأَستَحِي من ربي أن أعبُدَه رجاء الجنة فأكونَ كالأجير ، أو خوفَ النار فأكون كعبدِ السَّوْءِ ، إن خاف عَمِلَ وإن لم يَخَفْ لم يعمل ، لكن يَستخرج مني حُبُّ ربي مالا يستخرجه غيرُه .. وقال بعضهم : مَن عبَد الله بعِوَض فهو لئيم . وقال بعض الصوفيَّة : لولم يكن لله ثوابٌ يُرْجَى ولا عقابٌ يُخْشى لكان أهلا أن لا يُعصى ، ويُذكرَ فلا يُنسى ، بلا رَغَب في ثواب ولا رَهَب من عقاب ، لكن لِحُبِّه ، وهو أعلى الدرجات ، أما تَسمعُ قولَ موسى عليه السلام : وعَجِلْتُ إليك رب لترضى ، أقول : إذن فأفضل الأعمال ما كان

للحقِّ والخير والجمال والمثـل الأعلى فى ذات الله العلىِّ الأقدس الذى له الأسماء الحسْنى (١).

وَلْتَفْعلِ النَّفسُ الجميـلَ لأنَّه خيرٌ وأحسنُ لا لِلأجل ثوابِها (٢)

أما الثواب والعقاب فالله سبحانه وما يُعِدُّ لعبده من ذلك، وحقيق بالعبد أن يُحسن ظنه بربه ويرجو لديه رحمته التى وَسِعَت كلَّ شىء، وليـكن كما قال محمد بن وُهيب:

وإنى لأرْجُو اللهَ حتى كأننى أرى بجميل الظَّنِّ ماالله صانِع

وسيمُرُّ عليك قريبا طَرَفٌ من قولهم فى الرجاء.

عبقرياتهم فى التقوى

ولنأخذ الآن فى عبقرياتهم فى التقوى: قال الله سبحانه: «إن أكرمَكم عند الله أتقاكم» قال الإمام البيضاوى فى تفسيره: فإن التقوى بها تكمُل النفوس وتتفاضل الأشخاص، فمن أراد شرفا فليلتمِسْه فيها، كما قال عليه الصلاة والسلام: مَن سَرَّه أن يكون أكرَمَ الناس فليتَّق الله، ومن سَرَّه أن يكون أقواهم فليتوكل على الله، ومن سَرَّه أن يكون أغنى الناس فليـكنْ بما فى يدِ الله أوْثَقَ منه بما فى يديه ... أقول: هذا كلامٌ عُلْوِىٌّ مُعْرَق له فى الصدق والحق والكمال والمثل الأعلى.

(١) الحسنى: تأنيث الأحسن يقال: الاسم الأحسن والأسماء الحسنى. والأسماء الحسنى معروفة وهى ٩٩ اسما «انظر نهاية الأرب ج ٥ ص ٣٢٦» ومرادنا بقولنا ولله الأسماء الحسنى: الصفات، وهى الوحدانية والقدرة الى آخر مسميات هذه الأسماء الحسنى ... وقد جاء فى القرآن الكريم: ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون «سورة الأعراف»

(٢) للمعرى، وقد تقدم هذا البيت صدر باب البر والتقوى.

كُلَيمة في التوكل

« وبعد » فلمناسبة ذكر التوكل واقترانِه بالتقوى فيما أوردنا عليك من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وإشادة الإسلام به، والحث على أن يكون شعارَ المؤمن في كل أسبابه، رأينا أن نُلِمّ به وبحقيقته إلماما. فنقول: التوكل: كلمة يراد بها أمران، لا يُعَدّ التوكل توكلا على الحقيقة إلا إذا تحقّقامعا. فأما أول الأمرين فهو: الاعتقاد بأن الله عزّ وتقدّس هو وحده الذى بيده كلُّ شيء، وأنه لاسواه الذى له مقاليد السموات والأرض، وأنّ جميعَ الخلق فقراء كلَّ الفقر إلى عونِه سبحانه، وأنّه:

إذا لم يكن عَونٌ من الله للفتى فأول مايَجنِي عليـــه اجتهادُهُ

وكل هذا مما لاخفاء بأنه مما تقتضيه عقيدة التوحيد التى قام عليها الإسلام؛ وأما الأمر الآخر فهو: أن لا يكون المرءُ وُكَلَةً، فلا يعتمد بعد الله إلا على نفسه، وهذا الأمر الثانى يَكادُ يكون ضَرْبَ قولهم اليوم « الاعتماد على النفس » أو قول الطغرائى:

وإنما رَجُـلُ الدنيا وواحدُها مَن لا يُعَوّل فى الدنيا على رجل

والشطر الأول ' يَقتضى الاعتقادَ بالقَـدَر خيره وشرّه، والشطر الآخر يقتضى السعىَ والاحتياطَ لأمرِه، ولا تنافُرَ بينهما ألبتَّة، وإنما هما، لدى إنعامِ النظر، شيء واحد يُعَبَّر عنه بالتوكل...

جاء رجل إلى سيدنا رسول الله فقال له: إنى أُرسِلُ ناقتى وأتوكل: فقال صلوات الله عليه: بل اعْقِلْها وتوكل... ومرَّ الشّعبي بإبل قد فشا فيها الجرَب، فقال لصاحبها: أمَا تُداوِى إبلَك؟ فقال: إن لنا عجوزاً نتّكل على دعائها! فقال: اجعَل مع دعائها

شيئا من القَطِران ... وقال أبو عبيدة بن الجراح لعمر رضى الله عنه حين كَرِه طواعينَ الشام ورجع إلى المدينة : أتفِرُّ من قدَر الله ؟ قال : نعم ، إلى قدر الله ... فقال له أينفع الحذرُ من القدَر ؟ فقال : لسنا مما هناك فى شىء « تأمل » إنّ الله لا يأمر بما لا ينفع ولا ينهى عما لا يَضُرّ « ألقِ بالك » وقد قال تعالى : ولا تُلقُوا بأيديكم إلى التَّهْلُكة ، وقال تعالى : خذوا حِذْرَكم ... وفى كتاب كليلة : لا يَمنعُ العاقلَ يقينُه بالقدر مِن تَوَقِّى المخوفِ ، بل ليجمع تصديقاً بالقدر وأخذاً بالحزم ، وقال شاعر :

والمرءُ تلقاه مِضياعاً لفُرْصَتِه حتى إذا فاتَ أمرٌ عاتَبَ القَدَرا

وقال آخر :

إذا عُيِّروا قالوا مَقاديرُ قُدِّرَتْ وما العارُ إلا ما تَجُرُّ المقادِر

وقال آخر :

وأوّلُ عجزِ القومِ عمّا ينوبُهُم تَدَافُعُهم عنه وطُولُ التَّواكُلِ

وقالوا فى المثل : مِن العَجز الإحالةُ على المقادير ...

وإليك ما قاله الإمام الحافظ ابن حجر العَسْقلانى فى شرحه على صحيح البخارى المسمى فتح البارى [1] تأييداً لهذا الذى قلنا فى التوكل : والمراد بالتوكل : اعتقادُ ما دلّت عليه الآية : وما من دابّةٍ فى الأرض إلا على الله رزقُها ، وليس المراد به تركَ التَّسَبُّب والاعتمادَ على ما يأتى من المخلوقين ، لأن ذلك قد يجُرُّ إلى ضِدّ ما يُرادُ من التوكل ، وقد سُئِل أحمد ـ بن حنبل ـ عن رجلٍ جلس فى بيته أو فى المسجد وقال : لا أعمَل شيئا حتى يأتينى رزقى ، فقال : هذا رجل جَهِل العِلمَ « تأمّل » فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله جعل رزقى تحت ظِلِّ رُمْحِى ،

(١) ج ١١ ص ٢٥٦ طبعة عبد الرحمن محمد

وقال : لو توكلتم على الله حقَّ توكُّلِه لرزَقكم كما تُرزَقُ الطير تَغدُو خِماصًا وتَرُوحُ بِطانًا (١) . فذكر أنها تغدو وتروحُ فى طلب الرزق ؛ قال : وكان الصحابة يتَّجِرون ويعملون فى نخيلهم ، والقُدْوَةُ بهم ... انتهى . «وبعد» فإن التوكل كما ترى وعلى ضَوء هذا الذى قلنا : أُسٌّ من أُسسِ الأخلاق ، إذ أنَّه يَكسِبُ صاحبه الجُرْأةَ والإقدام و«الشجاعة الأدبية» ، وأن لا يَخشَى فى الحقِّ لومةَ لائم ، ويَنفِى عنه الجُبنَ والتخاذل والخوف من الموت والجزعَ لدى نزول المصائب وما يجرى هذا المَجْرَى ؛ ويَكسِب صاحبَه كذلك خُلُقَ الاعتمادِ على النفس وأن لا يَتَّكِل بعد الله إلا على نفسه . ومصداقُ هذا كله قوله صلى الله عليه وسلم : من سَرّه أن يكون أعزّ الناس فليكن بما فى يَدِ الله أوثقَ منه بما فى يده ، ومَن سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله .

عود إلى عبقرياتهم فى التقوى

وقال سبحانه : ومن يتَّقِ الله يجعل له مَخرَجًا ويَرزُقْهُ من حيث لا يَحتَسب ، ومَن يتوكل على الله فهو حسبُه ، إن الله بالِغُ أمرِه قد جعل الله لكلِّ شىء قَدْرا « مَخرجًا : مَخلَصاً من مضايق الدهر ، وقوله سبحانه : من حيث لا يحتسب ، أى من وجهٍ لا يخطر بباله ولا يقع فى حسابه ، وبالغ أمره : يبلغ ما يريد ولا يفوتُه مرادُ ولا يُعجِزُه مطلوب ، وجعل لكل شىء قدرا : أى تقديرا وتوقيتا ، وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه ، لأنه إذا عُلِمَ أن كل شىء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته لم يَبْقَ إلا التسليمُ للقدر والتوكلُ ، ولا معنى للسُّخْط وعدم الرضا » وعنه صلى الله عليه وسلم : إنى لَأعْلم

(١) أى تغدو بكرة وهى جياع وتروح عشاء وهى ممتلئة الأجواف .

آيةً لو أخذ الناس بها لكفتهم : ومن يتق الله ... الآية . وقال سبحانه : يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تُقاتِه ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون . « حق تقاته أى حق تقواه ، وهو استفراغ الوُسْع فى القيام بما أَمَرَ الله به واجتنابِ ما نَهَى الله عنه ، ومثله : فاتقوا الله ما استطعتم ، يريد : بالِغُوا فى التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع شيئا ، وعن عبدالله بن مسعود : هو أن يُطاعَ فلا يُعْصَى ويُشْكَرَ فلا يُكْفَر ويُذكَرَ فلا يُنْسى ، وقيل : هو أن تُنَزَّهَ الطاعاتُ عن الالتفات إليها ، وعن تَوَقُّع المجازاة عليها ، وقيل : هو أن لا تأخذه فى الله لومةُ لائمٍ وأن يقوم بالقِسْط ـ العدل ـ ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه » وقال سبحانه : إن الله مع الذين اتقَوْا والذين هم مُحْسِنون « محسنون : أى فى أعمالهم ، مِن أحسن الشىء : أتقنه » ... وقال بَزَرْجُمِهر : من قَوِىَ فليَقْوَ على طاعةِ الله ، ومن ضَعُف فليَضْعُف عن معصية الله ... قال ابن المقفَّع : ليَحْرِص البلغاء أن يَزيدوا على هذه الكلمة ـ كلمة بزرجمهر ـ حرفاً ، « يريد : أنها كلمة جامعة » وقال عبد الملك بن مروان لبنيه فى مَرَضه : أُوصيكم بتقوى الله ، فإنها أَزْيَنُ حُلَّةٍ وأحصنُ كَهْفٍ ، فقال مَسْلَمة بن عبد الملك ـ وكان حاضراً ـ وأقربُ إلى الصواب ، وأنفع فى المآب : فقال عبدالملك : هاتان لا الأوليان ... « الحُلَّة : كل ثوبٍ جديد ، ولا يقال له حُلة إلا إذا اجتمع معه ثوب آخر وعمامة ، والكهف : الملجأ ، وأصله كالبيت المنقور فى الجبل » وقال الحطيئة :

ولَسْتُ أرَى السعادةَ جَمْعَ مالٍ ولكنَّ التَّقِىَّ هو السعيد
وتقوى الله خيرُ الزَّادِ ذُخْراً وعند الله للأتقَى مَزيدُ
وما لابُدَّ أن يأتى : قريب ولكنَّ الذى يَمضى بَعيد

وقال الأعشى فى أبياته التى مَدح بها سيدَنا رسولَ الله :

أَجِدَّكَ لم تَسمَعْ وَصاةَ محمدٍ ... نبيِّ الإله حيثُ أَوصَى وأشهَدا

إذا أنت لم تَرْحل بزادٍ من التُّقى ... ولاقَيْتَ بعد الموتِ من قد تزوَّدا

نَدِمْتَ على أن لا تكون كمثله ... فَتُرْصِدَ للموت الذى كان أرْصَدا

« قوله : أجدك قال سيبويه : هو مصدر كأنه قال . أجِدًّا منك ، ولكنه لايستعمل إلا مُضافا ، وقال الأصمعى : أجدك ، معناه : أبجد هذا منك ونصبها بطرح الباء ، وقال الليث : من قال : أجدَّك بكسر الجيم فإنه يستحلفه بجِدّه وحقيقته ، وإذا فتح الجيم استحلفه بجَدِّه ، وهو بخته تقول : أجِدَّك لاتفعل كذا ، وأجَدَّك لا تفعل كذا . وأرْصَد : أعَدَّ » وقال لَبيد :

إنَّ تَقْوَى رَبِّنا خَيرُ نَفَلْ ... وبإذن الله رَيْثِي وعَجَلْ

أحْمَدُ الله فلا نِدَّ له ... بيدَيْهِ الخيرُ ماشاءَ فَعَلْ

مَن هَداهُ سُبُلَ الخير اهتدى ... ناعِمَ البال ومَن شاء أضَلْ

« النفل : الغنيمة والجمع أنفال ، ثم قال لبيد : وبإذن الله وتسهيله رَيْثى ، أى بطئى ، وعجل : أى سرعتى ، فحذف ياء الإضافة للوزن : يقول ، إن الحركة والسكون بيد الله ، ولا ندّ له : لامِثل له ، وبيديه الخير : أى بقدرته التى هى كالآلة فى أفعاله تعالى ، كاليدين فى أفعالنا ، وتثنية اليد للمبالغة فى التشبيه ، وما شاء فعل : أى ماأراده فعله وبين ذلك بالبيت الثالث » . . . وقال أبو نُواس :

أخِى مابالُ قلبِك ليس يَنْقَى ... كأنكَ لا تَظُنُّ الموتَ حَقًّا

ألَا ياابْنَ الذين فَنُوا وبادُوا ... أمَا والله ماذهبوا لتَبْقَى

وما أحدٌ بزادِك منك أحْظى ... وما أحدٌ بزادِك منك أشْقى

ولا لك غيرَ تَقْوى الله زادٌ ... إذا جعلَتْ إلى اللَّهَوات تَرْقى

« جعلت : يريد النفس أو الروح وإن لم يتقدم لذلك ذكر، واللهوات جمع لهاة وهى : لحمة حمراء فى الحنك معلقة على عكدة اللسان » وقال أبو العتاهية :

أَطِعِ الله بجُهْدِكْ عامِداً أو دُونَ جُهدِك
أَعْطِ مَولاكَ كما تَطْلبُ من طاعةِ عبْدِك

وقال بعض المتصوفة : من كان مع الله فقد هلك ، وإنما نجا من كان الله معه ، وقال رجل للشِّبْلى : متى يقرُبُ العبد من ربه ؟ فزعق ثم أنشد :

مَن لم يكن للوصالِ أهْلًا فكلُّ إحسانِه ذنوب

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى ابنه عبد الله فى غَيبةٍ غابها : أما بعد ، فإنه منِ اتقى الله وَقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكَرَه زادَه ، ومن أقرَضه جزاه ، فاجعل التقوى جِلاءَ بصَرِك ، وعِمادَ ظهرِك ، فإنه لاعمل لمَنْ لانِيَّةَ له ، ولا أجْرَ لمن لاحسنة له ، ولا جديد لمن لاخَلَقَ له ...
« قوله : ومَن شكره زاده : فسيمرُّ عليك قريبا معنى الشكر ، وقوله : ومن أقرضه جزاه ، فالقرض فى الأصل : ما يُعطيه الرجل أو يفعله ليجازَى عليه ، ولما كان الله سبحانه لا يستقرض من عَوز فقد قالوا فى مثل قوله تعالى : وأقرضوا الله قرضا حسنا ، و : مَن ذا الذى يقرض اللهَ قرضاً حسناً فيضاعفه له : إن القرض معناه الفعل الحسن مِن اتباع أمر الله وطاعته ، والعرب تقول لكل من فعل إليه خيراً : قد أحسنت قرضى وقد أقرضتنى قرضاً حسنا ، وفى الحديث : أقرِض من عِرضك ليوم فقرك ... يقول صلوات الله عليه : إذا نال عِرضَك رجل فلا تجازه ، ولكن آستبْقِ أجرَه مُوفَّرا لك قرضا فى ذِمّتِه لتأخذه منه يوم حاجتك إليه » ... وقال عمر بن عبد العزيز : ليست التقوى قيامَ الليل ولا صيامَ النهار والتخليط فيما بين ذلك ، ولكن التقوى تَرْكُ

عما حرّم الله وأداءُ ما افترض الله، فمن رُزق خيراً بعد ذلك فهو خيرٌ ... وقال رجل لحكيم: أوْصِني. فقال: إنِ استطعتَ أن لا تسيءَ إلى من تُحِبُّ فافعل، فقال: وهل يُسيءُ المرءُ إلى من يُحبُّ؟ قال: نعم: نفسُك إن عصيت الله.

التقوى مع الجهل

قال الحسن البَصريّ: أدركتُ قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: مَن عَمِل بغير علمٍ كان ما يُفسده أكثرَ مما يُصلحه... وقال أيضاً: قَصمَ ظهري عالِمٌ لا زُهدَ معه، وزاهدٌ لا علم معه، هذا يدعو إلى جهله بزُهده، وهذا يُنَفِّر عن عِلمِه بحِرْصِه. وقيل لأنو شروان: أيُّ الناس أوْلاهم بالسعادة؟ فقال: أقلُّهم ذنوبا، قيل: ومن أقلُّهم ذنوباً؟ قال: أكملُهم عقلا ... وسيِّد الكلام في هذا المعنى قوله تعالى: إنما يَخشى اللهَ من عباده العلماءُ؛ وقد تقدم آنفاً. وفي الأثر: يكون في آخر الزَّمانِ قُرّاءٌ فَسَقَةٌ وعُبّادٌ جَهلَة، وركعةٌ من عالِمٍ أفضلُ من سبعين ركعة من عابدٍ لا عِلْمَ معه.

التماوت والإفراط في الخشوع

والأصل في هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم لرجلٍ جدَّ في العبادة حتى غارَتْ عيناه: إن هذا الدِّينَ متين، فأوْغِلْ فيه برِفق، ولا تُبغِّضْ إلى نفسك عبادةَ ربّك، فإن المُنْبَتَّ لا أرضاً قطعَ ولا ظَهراً أبْقَى، ولَنْ يُشادَّ هذا الدِّينَ أحدٌ إلا غلبه... «متين»: أي شديد، من متن متانة: اشتدَّ وقوى، قال تعالى: وأُمْلِي لهم إنَّ كَيدِي متين، وقوله: فأوْغِل فيه برفق: أي ادخل، وأصل الإيغال: الإمعانُ في السَّير والإبعاد فيه يقول: سِرْ في الدين برفق ولا تحمِل

على نفسك فتكلفها مالا تطيق فتعجز وتترك العمل ، والمنبت : الذى أتعب دابته حتى عطب ظهره فبقى منقطعاً به ، من الانبتات وهو الانقطاع » ...

ورأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا مطأطئاً رأسه ، فقال له : ارفع رأسك، فإن الإسلامَ ليس بمريض ... ونظر يوماً إلى رجل مظهرِ النُّسكِ متماوتٍ [1] فخفقه بالدرة وقال : لا تُمِتْ علينا ديننا أماتك الله ... ونظرت السيدة عائشة رضى الله عنها إلى رجل كاد يموت تخافتا [2] فقالت : مالهذا ؟ فقالوا : أحد القُرّاء ، فقالت : قد كان عمر بن الخطاب سيِّدَ القرّاءِ ، فكان إذا قال أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ... وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله بعثنى بالحنيفيّة السمحة ولم يبعثنى بالرّهبانية ، فمن رغب عن سُنّتى فليس منّى ...

قلة اليقين فى الناس

قال الشعبي : لم يَقْسِم الله بين الناس أقلَّ من اليقين ... وقال ابن الرومى من همزيته البارعة التى يعاتب فيها أبا القاسم الشطرنجى ـ ونذكر من أبياتها المختارة ما يصح أن يذكر هنا ، كما يصح أن يذكر فى باب القناعة قال :

مرحباً بالكَفافِ يأتى هنيئاً وعلى المُتْعِباتِ ذَيلُ العفاء [3]
ضَلّةً لامرئٍ يُشمِّرُ فى الجَمْـعِ لعيشٍ مُشمِّرٍ للفناءِ [4]

(١) المتماوت : الذى يظهر من نفسه الضعف من العبادة والزهد والصوم

(٢) التخافت : تكلف الخفوت ، وهو : الضعف والسكون

(٣) الكفاف من الرزق : القوت وما كف عن الناس أى أغنى عنهم ، والمتعبات : الامور التى تتعب صاحبها فى تحصيلها ، والعفاء : الدروس وامحاء الأثر

(٤) ضل من يكد فى جمع المال لعيش يسرع فى الزوال

دائبـاً يـكـنزُ القناطيرَ للْوا رثِ والعُمْرُ دائبٌ في انقضاء (١)
حَبَّـذا كَثْرَةُ القناطيرِ لوكا نت لِرَبِّ الكنوزِ كَنْزَ بقاءِ

إلى أن قال :

حَسْبُ ذِي إرْبَةٍ ورأيٍ جَلِيّ نَظَرَتْ عينُه بلا غُلَواءِ (٢)
صِحَّةُ الدينِ والجوارحِ والعِرْ ضِ وإحرازُ مُسْكَةِ الحَوباءِ (٣)
تِلْكَ خيرٌ لعارف الخير مِمَّا يجْمَعُ الناس من فُضولِ الثَّراءِ
ولها من ذوِي الأصالةِ عُشا قٌ وليْسُوا بتابِعِي الأهْواءِ
ليسَ للمُكْثِرِ المُنَغَّصِ عَيْشٌ إنما عيْشُ عائشٍ بالهَناءِ

إلى أن قال :

ظُلِمَتْ حاجَتِي فلاذَتْ بحَقْوَ يْكَ فأسْلَمْتَها لِكَفِّ القَضاءِ (٤)
وقَضاءُ الإلٰهِ أحْوَطُ للنا سِ من الأمهاتِ والآباءِ (٥)
غيرَ أن اليَقينَ أضحَى مَريضاً مَرَضاً باطِنـاً شديدَ الخَفاءِ
ما وَجدْتُ امْرَءًا يرَى أنَّه يُو قِنُ إلا وفيه شَوْبُ امْتِراءِ (٦)
لو يَصِحُّ اليَقينُ ما رَغِبَ الرَّا غِبُ إلا إلى مَليكِ السماءِ
وعسيرٌ بُلوغُ هاتِيكَ جدا تلكَ عَلْيـا مراتِبِ الأنبياءِ

---

(١) دائبا من دأب في عمله : مضى فيه بجد وتعب ، ويكنز من باب ضرب ونصر : يحرز الأموال ، والقناطير : يعني من الذهب والفضة وما إليهما

(٢) الإربة : الدهاء ، والغلواء : الغلو (٣) أي والحصول على ما يمسك الأبدان من الغذاء والشراب ، والحوباء : النفس (٤) لاذت : لجأت واحتضنت ، والحقو بفتح الحاء وكسرها : الإزار أو معقده يقول : فتعلقت بأهدابك أي التجأت إليك فسلمتها وتركتها للقضاء (٥) أحوط : أعظم حفظاً وصيانة (٦) يقول : لم أجد أحداً يظن أن عنده يقينا بالله إلا وفي نفسه شوب من الشك

وقال حكيم : من الدلالة على قلة اليقين ، أنك تخيَّرُ يوما عن خير الدنيا بالنّسيئةِ : طمعًا فى الربح ، طفيفَ رِبْح مع ما فيه من الخطر، وتأبى أن تُقْرِضَ اللهَ دِرْهما بثمانمائة ، مع زَعْمِك وقولك إن مُسْتَقْرِضَه مَلِىءٌ وَفِى » هكذا ورَدَت هذه الكلمة فى محاضرات الأدباء ، ويظهر أنها إمّا مُحرَّفةٌ وإما أنها مُعاظَلة[1] وهى على الرغم من ذلك تكاد تكون مفهومة ، فالظاهر أن قائلها يريد أن يقول: إنّ مما يدُلُّ على قلة اليقين أنك لو خُيِّرت بين ربح كثير آجل نسيئةً عند الله ، بأن تُقْرِضَه مثلا درهما بثمانمائة ، وبين ربح طفيف عاجل فى الدنيا قد حُفّ بالخطر ، لاخترت الثانىَ على الأول ، مع زَعْمِك بأن من تقرضه ـ وهو الله عز وجل ـ مُضْطلع بمضاعفة القَرْض وتوفيتك حقك وإعطائك إياه وافيا ... »

إصلاح الضمير

دخل حُمَيْد الطويل على سليمانَ بن على وَالى البصرة فقال له : عِظْنى ، فقال حميد : لئن كنت حين عَصَيتَ ربك ظنَنت أنه يراك فقد اجترأت على الله ، ولئن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرت ... وقالوا : إذا فسدت النّيّة وقعت البليّة ، وقال رجل لسيدنا رسول الله : لقد سمعناك يا رسول الله تقول : شيَّبَتْنى هود[2] ، فما الذى شيَّبك منها ؟ قال : قوله تعالى : فاستقِم كما أُمِرْت ... ورَوَوا أن السيد المسيح صلوات الله عليه قال : ياربِّ ، مَنْ أشرفُ الناسِ ؟ قال : من إذا خَلَا علِمَ أنى ثانيه فأجلَّ قدرى عن أن يُظْهِرَنى على مَعاصيه ... ومَرّ

(١) معاظلة : أى عاظلها قائلها : أى عقدها عجزا عن الإفصاح أو قصداً

(٢) هود : أى سورة هود وفيها يقول الله جل شأنه لسيدنا رسول الله: فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ، ولما كان العمل بمضمون هذه الآية الكريمة فى غاية العسر قال سيدنا رسول الله : شيبتنى هود

عمر رضى الله عنه بمملوك يَرْعَى غنما، فقال : أ تبيعُنى منها شاةً ؟ قال : ليست لى ، قال : فأين العِلَلُ ؟ قال : فأين الله : فاشتراه عمر وأعتقه ، فقال المملوك : اللهم قد رزقتنى العِتْقَ الأصغر فارزقنى العِتق الأكبر ، أعوذ بك من قلب غائب عنك ... وقال السرىّ السقطى [1] : بتصحيح الضمائر تُغتفر الكبائر ؛ وفى الأثر : تعرَّفْ إلى الله فى الرخاء يَعرِفْك فى الشدّة « أى تعرّف إليه فى الرخاء بالشكر وذِكْر الآلاء يعرفك فى الشدة بالعصمة ... » وقال بعض المتصوفة : إن الله لا يَشْغَله عنك شىء فإن استطعت أن لا يشغلك عنه شىء فافعل ...

احتمال المكاره فى العاجل رجاء المسارّ فى الآجل

ومن جوامع الكلم فى ذلك قول سيدنا رسول الله : حُفَّتِ الجنة بالمكاره وحُفَّت النارُ بالشهوات «حُفَّت : أُحيطت ، والمكاره جمع مَكرُدة وهى : مايكرهه المرء ويشق عليه ، والشهوات : كل مايوافق النفس وتصبو إليه . قال الإمام القرطبى : أصل الحَفّ : الدائر بالشىء المحيط به الذى لا يُتوصّل إليه إلا بعد أن يُتخطّى ، فمثّل المصطفى المكارِهَ والشهواتِ بذلك ، فالجنة لا تنال إلا بقطع مفاوز المكاره والصبر عليها ، والنار لا يُنْجَى منها إلا بفطْم النفس عن مطلوباتها ، وقال ابن حجر : هذا من جوامع كلم المصطفى وبديع بلاغته فى ذَمّ الشهوات وإن مالت اليها النفوس ، والحث على الطاعات وإن كرِهتها وشقت عليها » ولما تاب بعض الصوفية كان لا يتَهَنَّأ بطعام ولا شراب فقالت له أُمه : ارْفُقْ بنفسك ، فقال : الرِّفْقَ أَطْلُب لها ... وهذا كقول الربيع بن خُثَيم وقد صلى طول ليلته حتى أصبح وقال له رجل : أتعبت نفسك فقال : راحتَها أطْلُبُ ...

(١) أحد رجال الطريقة وخال أبى القاسم الجنيد ، ترجم له ابن خلكان

ومثل هذا ـ وإن كان من بابة أخرى ـ قول العباس بن الأحنف :

سأطلُبُ بُعْدَ الدار عنكم لتَقْرُبوا وتَسْكُبُ عيْناىَ الدُّموعَ لِتَجْمُدَا [1]

وقول الآخر :

تقولُ سُلَيْمَى لو أَقَمْتَ بأرضِنا ولم تَدْرِ أنّى للمُقامِ أُطَوِّفُ

مراعاة الدين والدنيا معاً

قال تعالى : ولا تَنْسَ نصيبك من الدنيا ... وقال سيدنا رسول الله : ليس بخيركم مَن ترك دُنياه لآخرته ، ولا آخرتَه لدنياه ، حتى يُصيب منهما جميعا ، فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة ، ولا تكونوا كَلاًّ على الناس ... « كلاًّ » : عيالا وثِقْلا » وكان محمد بن على بن عبد الله بن عباس يقول : اللهم أعِنِّى على الدنيا بالغِنَى ، وعلى الآخرةِ بالتّقوى . وقال مروان بن أبى حفصة لِعمارةَ بنِ حمزة [2] : أنشَدْتُ المأمون قولى :

أضحى إمامُ الهُدى المأمونُ مُشْتغِلا بالدين والناسُ بالدنيا مَشاغيلُ

فلم يَهْتَمَّ لذلك ! فقال عمارة : مازِدْتَ على أن صَيّرْتَه عجُوزاً مُعتكِفةً فى مِحرابِها ،

(١) كنى بالجمود عن السرور ... وللنقاد فى هذه الكناية كلام حسن انظره إذا شئت فى شرحنا على التلخيص

(٢) شخصية ضخمة ، كان أديبا وكان كاتبا وكان جوادا كريما وكان من سروات الناس وكان تياها معجباً معتداً بنفسه وكان فى زمن السفاح والمنصور وبقى الى زمن المأمون وتولى الولايات العظيمة فى أيامهم وكان من شدة اعتداده بنفسه اذا أخطأ يمضى على خطائه ويأنف من الرجوع ويقول : نقض وابرام فى ساعة واحدة ! الخطأ أهون من ذلك » انظر ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت وهى زاخرة بكل مايطرب ويعجب من سيرة هذا عمارة بن حمزة»

فمن لأمور المسلمين ! هلّا قلت كما قال جرير :

فـلا هو فى الدنيا مُضيـعٌ نصيبَه

ولا عَرَضُ الدنيا عن الدين شاغِـله !

والمشهور فى هذا المعنى قول الفاروق رضى الله عنه : اعْمَل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ... وقال الشاعر :

ولله مِنّى جانبٌ لا أُضيعهُ وللّهْو مِنى والخَلاعة جانب

وسيمر بك كثير من عبقرياتهم فى هـذا المعنى، فى مواضع أخرى من هذا الـكتاب .

الرجاء والجمع بينه وبين الخوف من الله

قال تعالى : فى صفة المؤمنين : يَرْجُون رحمته ويخافون عذابه ، وقال حكيم : ارْجُ إذا خِفْتَ وخَفْ إذا رجوت ، وكن كالمرأة الحامل ليس رجاؤها أن تَلِدَ ولداً ذكرا بأكثر من خوفها أن تَلِدَ أُنثى . وقريب من هذا قول رجل لابنه : خَفِ الله خوفاً لا يمنعك من الرجاء ، وارْجُه رجاءً لا يمنعك من الخوف ، فالمؤمن له قلبان : يرجوه أحدهما ويخافُه الآخر وقال :

أنا بين الرجاء والخوفِ منه واقِفٌ بين وعده والوَعيدِ

وقال أبو نُوَاس :

لا تَحظُر العفوَ إن كنت امْرَءاً حرِجاً فإن حظرَكهُ بالدين إزْراء

وقال أيضا :

يا كثير الذنْبِ عفو الله من ذنبك أكثر

وقال :

تَبَسَّطْنــا على الآثامِ لمّــا ۝ رأينا العفوَ من ثَمَرِ الذنوب

وقال :

تَكَثَّرْ مااستطعت من الخطايا ۝ فإنك بالِـغٌ ربًّا غفورا

سَتُبْصِر إن وردْتَ عليه عفوًا ۝ وتَلْقَى سيداً مَلِكا كبيرا

تَعَضُّ نَدامةً كفّيْـك ممـا ۝ تركتَ مخافة النار السُّرورا

وفى الأثر : ماأُحِبُّ أنّ لِيَ الدنيا وما فيها بهذه الآية : قلْ ياعِبادى الذين أسرفوا على أنفُسهم لاتقْنَطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ... وقال ابن عباس لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما : أىُّ آية أرْجَى؟ قال : إن الله لا يغفر أن يشْرَكَ به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، فقال : إن هذه لمَرْجُوَّة ، وأرْجَى منها قوله تعالى : إن الله لذُو مغفرة للناس على ظُلمِهمْ ... وقال أعرابىٌّ لابن عباس : مَن يحاسب الخلقَ يومَ القيامة ؟ قال : يحاسبهم الله تعالى قال : نجوْنا وربِّ الكعبة ، فقال : كيف ! قال : إن الكريم إذا قَدَرَ غفَر ... وسمع أعرابىٌّ عبدَ الله بن عباس يقرأ قول الله تعالى : وكنتم على شَفا حُفرَة من النار فأنقذَكم منها ، فقال : والله ماأنقذنا منها وهو يريد أن يُلقِيَنا فيها ! فقال ابن عباس : خذوه من غير فَقيه ...

* * *

العبادة لاطلبا للثواب ولا خوفا من العقاب

وقد تقدم لنا آنفا قول فى ذلك ونَزيد فنُورِدُ طَرَفا من عبقرياتهم فى هذا المعنى : قال الشِّبْلى : من عَبَدَه رجاءَ الجنة فهو عبدها ، أو خوفَ النار ، فهو عبدها ، لأن من خاف شيئا أو رَجاهُ فهو معبوده ، وقال بعضهم : من عبَد

الله بعوضٍ فهو لئيم ، وقال آخر : اللهم إن كنت تعلم أنى أعبدك خوفا من نارك فأحرقنى ، أو طمعا فى جنتك فاحرمنيها ، وإن كنت تعلم أنى أعبدك حبًّا لك وشوقا إلى لقائك فأبحنيه ... وقيل لرابعة العدوية : مالكِ لاتسألين الله الجنة فى دعائك ؟ فقالت : الجار ثم الدار ... « تعنى بالجار : ذا الجلال والإكرام » وقد أوردنا بيت المعرِّى :

ولتفعل النفسُ الجميلَ لأنه خيرٌ وأحسن لا لأجل ثوابها

غير مرة فيما أسلفنا ، وقال بعضهم فى قوله صلى الله عليه وسلم : أكثرُ أهلِ الجنة البُلهُ ، قال : لأنهم فى شُغُلٍ فاكِهون ، شغلهم النعيم عن المُنْعِم ، ومَن رضِى بالجنة عن الله فهو أبْله . أقول : حديث : أكثر أهل الجنة البُله : حديث ضعيف « انظر شرح الجامع الصغير للمناوى » وعلى أنه ضعيف فقد أوّلوه تأويلا حسنا : فقال الأزهرى : الأبله : الذى طُبِعَ على الخير ، فهو غافِلٌ عن الشرّ لا يعرفه ـ أقول : أو يعرفه ولكن يتجنّبه ـ وقال النّضر بن شُمَيل : الأبله : الميِّتُ الداء ، أى أن شرَّه ميِّت لا ينْبَه له . والمرأة باهاء ، قال الشاعر :

ولقد لهَوْتُ بطِفْلةٍ ميّالةٍ بَلْهاءَ تُطلِعُنى على أسرارها

أراد : أنها غِرٌ لا دَهاء لها فهى تخبِرُنى بأسرارها ولا تَفطَنُ لما فى ذلك عليها . وقال الزِّبْرِقان بن بدر : خيرُ أولادِنا الأبْلَهُ العقُول ، يعنى : أنه لشِدّةِ حيائه كالأبله وهو عقول « مُبالغة من العقل » وقال الزمخشرى فى صفة الصُّلحاء : هَيِّنُونَ لَيِّنون ، غير أن لا هَوادة فى الحقِّ ولا دَهانة ، بُلْهٌ ، غَوْصُهم على الحقائق يغمُر الألبابَ والأذهان ، وذلك لأنهم أغفلوا أمرَ دُنياهم فجهلوا حِذقَ التصرف فيها فأقبلوا على آخِرتهم فشُغِلوا بها فاستحقّوا أن يكونوا أكثر أهلِها ،

الرياء

الرياء : ترك الإخلاص فى العمل بملاحظة غير الله فيه : ومن عبقرياتهم فيه : قال سيدنا رسول الله : إن أخْوَفَ ماأخاف على أمّتى الرِّياءُ الظاهر والشَّهْوةُ الخفية . وقالوا : أعظم الرياء حُب المَحْمَدَة . وقالوا إذا عمل الرجل العمل وكتَمَه وأحبّ إعلامَ الناسِ أنه كتمه ، فذلك أقبح الرياء ، وقال أبونواس :

وإذا نَزعتَ عن الغَوايةِ فليَكن لله ذاكَ النّزعُ لاللنـاسِ

وقال لقمانُ لابنه : اتق الله ولا تُرِى الناسَ أنك تخشاه ليُكْرِموك ...

وقال بعضهم : كان الناسُ يراؤن بما يفعلون فصاروا يُراؤن بما لايفعلون . وقالوا : ماالدخان بأدلَّ على النار من ظاهر أمر الرجل على باطنه ... وقالوا فى وصف المرائى : له سَمْتُ أبى ذَرّ على قلب أبى جهل [٢] وقال صلى الله عليه وسلم فيمن تنسك طمعا فى عرَض الدنيا : أكثرُ مُنافِقى هذه الأمّة قرّاؤها ، قال ابن الأثير : أى أنهم يحفظون القرآن نفيا للتهمة عن أنفُسهم وهم مُعتقدون تضييعَه [٣] ، وكان المنافقون فى عصر النبى بهذه الصفة . وقال

---

(١) إذا أردت التوسع فى القول على الرياء وحقيقته وأنواعه وعلاجه فعليك بإحياء علوم الدين للغزالى

(٢) أبو ذر الغفارى هو الصحابى الجليل الزاهد الورع الصادق اللهجة الذى قال فيه سيدنا رسول الله : ماأقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبى ذر وقال فيه سيدنا على : أبوذروعاء ملئ علما ثم أوكى عليه ، أوكى عليه أى شدّ بالوكا. وهو الخيط يشد به فم القربة ، توفى سنة ٣١ هـ أما أبوجهل فهو عمرو بن هشام أعدى أعداء سيدنا رسول الله قتل فى غزوة بدر (٣) أى مضمرون عدم العمل به

الزمخشرى : أراد بالنفاق الرياء ، لأن كلا منهما إرادة ما فى الظاهر خلاف ما فى الباطن . وقال الغزالى : آحذَر من خِصال القرّاء الأربعة : الأمل والعَجَلة والكِبْر والحَسَد ، قال : وهى عِللٌ تعترى سائرَ الناس عموما والقرّاءَ خصوصا ، ترى القارئ يُطوِّل الأمل فيُوقِعهُ فى الكسل ، وتراه يَستعجل الخير فيَنْقطع عنه ، وتراه يَحْسُد نُظراءَه على ما آتاهم الله من فضله فربما يبلغ به مَبلغا يَحمِله على فضائحَ وقبائحَ لا يُقْدِم عليها فاسق ولا فاجرٌ . وقال الفضيل بن عِياض لابْنه : اشترُوا داراً بعيدةً عن القُرّاء ، مالى والقوم! إن ظَهَرت مِنّى زَلّةٌ قتلونى ، وإن ظهرت علىَّ حسنةٌ حسدونى ، ولذلك ترى الواحد منهم يتكبر على الناس ويَسْتَخِفُّ بهم مُعَبِّسا وجهه كأنما يمُنُّ على الناس بما يُصَلِّى زيادة ركعتين ، أو كأنما جاءه من الله منشورٌ بالجنة والبَراءة من النار ، أو كأنه استيْقَنَ السعادة لنفسه والشقاوةَ لسائر الناس ، ثم هو مع ذلك يَلبَس لباسَ المتواضعين ويتماوتُ ، وهذا لا يليق بالتكبُّر والترفُّع ولا يلائمه لكن الأعمى لا يُبْصِر ... أقول : كل ما قالوه فى القراء مما يَصحُّ أن يقال فى علماء الدين وفى المُتَنَسِّكين ، لأنه يقال تقرَّأ فلان أى تفقَّهَ ، ويقال : تقرَّأ : أى تنَسَّكَ ، قال زيد بن تُرْكِىّ الزُّبَيْدِىُّ ، وقال الفَرّاءُ : أنشدنى أبو صَدَقة الدُّبَيْرِىُّ :

ولقد عَجِبْتُ لكاعِبٍ مَوْدُونةٍ أطـرافُها بالْحَلْى والحِنّاءِ
بيضاءَ تَصْطادُ القَوِىَّ وتَسْتَبى بالحُسْن قلبَ المُسْلِمِ القُـرَّاءِ

«مَوْدونة : مُلَيَّنة وأطرافها نائب فاعل مودونة» ورَوَوا أن بلالَ بنَ أبى بُردة وَفَدَ على عمر بن عبد العزيز فجعل يُدِيمُ الصلاة فقال عمر : ذلك التَّصَنُّع ، فقال له العَلاءُ : أنا آتيك بخبَره ، فجاءه وهو يُصلى فقال له : مالى عندك إن بعَثَ أمير المؤمنين على توليتِك العراقَ؟ قال عُمَالتى سنةً أى وظيفتى ومُرَتَّبى - وكان مبلغُه عشرين

ألف درهم ، فقال : اكتُبْ بخطّك ، فكتب إليه ، فجاء الملاءُ إلى عمرَ فأخبرَه ، فقال : أراد أن يَغُرَّنا بالله ... ودخل على أبى جعفر المنصور رجلٌ بين عينَيه كَرُكبَة البعير ـ وذلك يكون من أثر السجود ـ يريد القضاء ، فقال المنصور : إنْ كنتَ أبْرَرْت الله بهذا فما ينبغى أن نَشْغَلك عنه ، وإن كنت أردت خِداعنا فما ينبغى أن نَنْخَدِعَ لك . وقال شاعر :

لا تصحَبَنَّ صحابةً حلَقوا الشواربَ للطمَع
يَبكى وجُلُّ بُكائه ما للفريسةِ لا تقعْ

وقال آخر :

عَمَّروا مَوْضع التَّصنُّعِ منهمْ ومكانُ الصلاح منهم خرابُ

ويُروى هذا البيت على وجه آخر ...

ورَوَوا أن بعض الناس كان يَدفع زَكاتَه من الفقير ويَسترجِعُها منه بدِرهم أو درهمين . ويُروَى أغربُ من ذلك وأقعَدُ فى باب الحِيَل الشرعية المحرّمة ، وذلك أن أحد مشيختنا الذين تولّوا مشيخة الإسلام والإفتاءَ فى الجيل الغابر بمصر ـ وكان غنياً مثرياً ـ كان يحتال فى زكاة المال بأن يَضعَ قيمة ما يجب عليه أن يُزكّيه عن مالِه فى العِياب «الزكائب» المملوءةِ قمحاً ثم يُفهِم الفقراء أن هذه هى زكاتُهم ثم يشتريها منهم بثمن مُغْرٍ ، وبذلك يظن أنه قد قام بفريضة الزكاة «يخادعون الله وهو خادعهم» .

التوبة

التَّوبة : الرجوع عن الذنب ، يقال : تاب إلى الله يتوبُ توبةً وتَوْباً ومَتاباً : أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة ، وتاب الله عليه : وفَّقه إلى التوبة أو

عاد عليه بالمغفرة ، وقال عليٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه : التوبة على أربعة دعائم : آستغفار باللسان ونيّة بالقلب وترك بالجوارح وإضمار أن لا يعودَ .
وفى الحديث : مَن تاب قبل موته بفُواقِ ناقة حرّم الله وجهه على النار « الفُوَاق : أن تُحْلب الناقة ثم تُترك لحظة يَرضَعُها الفصيل لتَدِرّ ثم تحلب »

وقال عز وجل : ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحًا « التوبة النصوح : الخالصة التى لا يُعاوَدُ بعدها الذنب » وقال تعالى : إنما التوبة على الله للذين يعملون السُّوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إنى تُبْت الآن « يقول سبحانه : إنما قبول التوبة كالمحتوم على الله لمن أذنب بجهالة وسَفَه ـ فإن ارتكاب الذنب سَفَهٌ وتجاهل ، ومن ثَمّ قيل : من عصَى الله فهو جاهِلٌ حتى يَنزِعَ عن جهالته ـ ثم يتوبون قبل الموت قال عليه السلام : إن الله يقبل توبَةَ عبْدِه مالم يُغَرْغِر ، قال المفسرون : وسماه قريبا لأن أمَدَ الحياة قريب ، أو قبل أن يُشْرَب فى قلوبهم حُبُّه فيتعذّر عليهم الرجوع »

المبادرة إلى التوبة

وقد حثُّوا مع ذلك على المبادرة بالتوبة والإقلاع عن المعاصى فروَوا أنه قيل لرجل : أوْصِ ، فقال : أُحذِّرُكم « سَوف » ، وقال شاعر :

والمرءُ مُرْتَهَنٌ بسَوْف ولَيْتَنى ... وهلاكُه فى سَوْفِه واللَّيْتِ

وقال آخر :

أُسَوِّفُ توبَتى خمسين عامًا ... وظَنّى أنّ مِثْلى لا يتوبُ

وقال بعضهم : نحن لانريد أن نموتَ حتى نتوبَ ولا نتوبُ حتى نموتَ ... وقال بعضهم لرجل : عِظْنى ، فقال : قد قطعْتَ عامّةَ سَفَرِك ، فإن استطعت ألا تَضِلَّ فى آخره فافعل ... وقال مُصعَب بن الزبير : ادفع سَطْوَةَ الله بسرعة النُّزُوع ، وحسنِ الرجوع ، فيُوشِك أن المنايا تَسْبِقُ الوصايا ، وقالوا فى قوله تعالى : بل يُريد الإنسانُ لِيَفْجُرَ أمامه : يُكْثِرُ الذنوب ويؤخّر التوبةَ أو يُسوِّف بالتوبة ويقدم الأعمال السيئة ، وقال مُؤَرِّج السدوسى[1] : فَجَرَ : إذا ركب رأسه فمضى غير مُكْتَرِث ، وقوله : ليَفْجُرَ أمامَه : لِيمْضِ أمامه راكبا رأسه ... وقال سيدنا رسولُ الله لرجل وهو يَعِظه : اغتنِمْ خمسًا قبل خمسٍ : حياتَك قبلَ موتك ، وصِحّتَك قبل سَقَمِك ، وفراغَك قبل شُغلك ، وشبابك قبل هَرَمِك ، وغِناك قبل فَقْرِك . « اغتنم حياتك قبل موتك : اغتنم ماتأتى نفعَه وثوابَه بعد موتك . وصحتك قبل سقمك : اغتنم العمل حال الصحة فقد يَمنع مانع كالمرض فتُقْدِم بغير زاد . وفراغك قبل شغلك : اغتنم فراغك فى هذه الدار قبل شغلك بأهوال مابعد الموت ، أى اغتنم فرصة الإمكان لعلك تَسْلَم من الهوان . وشبابك قبل هرمك : اغتنم الطاعة وفعل الخير حال قدرتك قبل هجوم عجز الكبر عليك فتندم على مافرّطت فى جنب الله . وغناك قبل فقرك : اغتنم الإحسان والتصدق بفضول مالك قبل أن تنزل جائحة تُفْقِرك . ولك أن تقول : إن هذه الوصية الكريمة مَغْزاها عامّ شامل يراد بها المبادرة إلى العمل وانتهاز الفُرص قبل فواتها ، وقال الشاعر .

إذا أنت لم تَزْرَع وأبصرتَ حاصِداً ندِمْتَ على التفريط فى زَمَن البَذْر

وقال أبو العتاهية :

فواعجبًا كيف يُعْصَى المليكُ أمْ كيف يَجْحَدُه الجاحِد

---

(١) نحوى بصرى ، أخذ عن الخليل ؛ توفى هو وأبو نواس فى يوم واحد سنة ١٩٥

وللهِ في كلِّ تحرِيكةٍ وتسكِينةٍ في الوَرَى شاهِدُ
وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدُلُّ على أنه واحِدُ

وقال الآخر:

ترجو النَّجاةَ ولم تسلُكْ مسالكَها إنَّ السَّفينةَ لاتجرى على اليَبَسِ

وجاء حبيب بن الحارث إلى سيدنا رسول الله فقال: إنى مُقارِفٌ للذنوب، فقال: تُبْ، فقال: إنى أتوب ثم أعود، فقال: كلما أذنبت ذنبا فتُب، فعفوُ الله أكبر من ذنوبك. وفي الحديث: إن الرجل ليُذنِبُ الذنبَ فيَدخُل به الجنة، فقيل: وكيف يارسول الله؟ قال: يكونُ نُصبَ عينِه خائفا منه حتى يدخُل الجنة ... واجتمع ثلاثة من الحكماء عند كِسْرى فتذاكروا في شرِّ الأشياء فقال أحدهم: الهَمُّ يقترِنُ بالعُدْمِ ـ الفقر ـ وقال الثاني: سُقْمُ البدن ودوامُ الحزْنِ، وقال الثالث: دُنُوُّ أجل وسوء عمل ... نحكم لهذا ... ودعا بعض الصالحين فقال: أعوذُ بالله من وُقوع المَنِيّة ولما أبلُغ الأُمْنِيّة ... وقال حكيم: الأيامُ صحائف آجالِكم فأوْدِعوها أجملَ أفعالِكم.. وقال عليُّ بن الحسين رضي الله عنهما: عَجِبْتُ لمن يحتَمِي عن الطعام لِمَضرَّتِه ولا يحْمي عن الذنب لمعرَّتِه! وقال بعضهم حضرتُ مجالس الشِّبْلي [1] فقام إليه رجل من أصحابه وقال له: أوْصِني، فقال له: لقد أوصاك الشاعر بقوله:

قالوا توَقَّ دِيارَ الحيِّ إن لهم عيْنًا عليك إذا ما نِمْتَ لم تنَمِ

(١) الشبلي ـ وقد تكرر ذكره في هذا الكتاب ـ هو أبو بكر دلف بن جحدر، والشبلي: نسبة إلى شبلة، بلدة من بلاد ماوراء النهر ـ سمرقند وبخارَى وما إليهما ـ كان في مبدأ أمره واليا لإحدى الولايات ثم تاب وتصوّف وبلغ المبالغ في ذلك، كان جليل القدر مالكيّ المذهب وصحب الشيخ أبا القاسم الجنيد ومن في عصره من الصالحين توفي سنة ٣٣٤ هـ ببغداد وعمره سبع وثمانون سنة

وقال يحيى بنُ معاذ : اجتناب السيئات أشدُّ من اكتساب الحسنات ...
وسمع الحسنُ البَصْرىُّ رجلا يقول : اللهم اجعلْنا منك على حذر ، فقال : إنه فعل ذلك ، أليس قد سَتَرَ عنك أجلَك ، فلستَ من حياةٍ ساعةٍ على يقين !

الاستغفار

قال علي بن أبي طالب : العَجَبُ لِمن يقْنَط ومعه النجاة : الاستغفار ... وقالوا لاصغيرةَ مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار . وقال حكيم : أيها السلاطين ، لابُدَّ لكم من المَعاصى الكبار فافعلوا بإزائها طاعاتٍ عظيمةً ، أيها الأوساط ، يُمكنُكم الطاعات العظيمة ، كالمصالح التى لا يَقدِر عليها إلا السلطان ، فلا تركَبوا المعاصى الكبيرة ... وقال بعضهم : سمِعَنى راهبٌ أقول : أستغفر الله ، فقال : يافتَى ، سُرْعة اللسان بالاستغفار توْبةُ الكذَّابين ... ويدُل على ماقاله قوله صلى الله عليه وسلم : المستغفر باللسان المُصِرُّ على الذنب كالمُسْتهزِئ بربه . وقال الربيع بن خُثَيم : لا يقولَنَّ أحدكم : أستغفر الله وأتوبُ إليه فيكون ذنبًا جديداً إذا لم يفعل ، ولكن لِيقُلْ : اللهمَّ ، تُبْ علىَّ واغفر لى ، فقيل : ولِمَ ؟ فقال : انْتهِ عمَّا ينهاك عنه فإنه يغفر لك ... وقال عمر رضى الله عنه : لم أرَ أشدَّ طلبا وأسرعَ دَرَكا من حسنةٍ حديثة لذنْبٍ قديم . « دركا بسكون الراء وفتحها : لحاقا وإدراكا » ... وسُئل بعض المُجَّان : كيف أنت فى دينك؟ قال : أُخرِّقه بالمعاصى وأُرقِّعُه بالاستغفار ...

« وأما بعد » فلو يُؤاخذ اللهُ الناسَ بما كسبُوا ماترك على ظهرها من دابّة ولكن يؤخِّرُهم إلى أجلٍ مُسمّى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا [1] .

(١) آية كريمة والآية : ولو يؤاخذ الله الناس ... الآية

يامَنْ يَرَى مَدَّ البَعُوضِ جَناحَها · في ظُلْمَةِ الليلِ البهيمِ الأَلْيَلِ
ويَرَى عُروقَ نِياطِها في نَحْرِها · والمُخَّ في تِلْكَ العِظامِ النُّحَّلِ
اغْفِرْ لِعبْدٍ تابَ من فَرَطاتِه · ماكان مِنْهُ في الزَّمانِ الأَوَّلِ (١)

عبقريات شتى
في الخوف والتقوى

ورد في الحديث الصحيح : لو تَعلَمونَ ماأَعلَمُ لَضَحِكتم قليلا ولبَكَيْتم كثيرا ، ولَمَا ساغَ لكم الطعامُ ولا الشّراب « لضحكتم قليلا : أي لم تضحكوا ألبتَّة إذ القليل ههنا بمعنى العَدَم » ... وجاء في خطبة لسيدنا رسول الله : أيها الناس ، إن لكم معالِمَ فانْتَهُوا إلى مَعالِمِكم ، وإن لكم نهايةً فانتَهُوا إلى نهايتكم ، فإن العبدَ بين مخافتَين : أجلٌ قد مضى لايَدْرى ماالله فاعِلٌ فيه ، وأجلٌ باقٍ لايدرى ماالله قاضٍ فيه ، فليأخذِ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دُنياه لآخِرتِه ، ومن الشبيبةِ قبل الكِبَرِ ومن الحياة قبل الممات ، فوالذى نفْسُ محمدٍ بيده ، مابعدَ الموتِ من مُسْتَعْتَبٍ ، وما بعدَ الدنيا من دارٍ إلا الجنةُ والنار ... « معالم جمع مَعْلَم ، وهو ماجعل علامة للطرق والحدود ، ضربه مثلا لأحكام الله وحدوده

(١) هذه الأبيات لجار الله الزمخشرى أنشدها في الكشاف عند تفسير قوله تعالى : إن الله لايستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، ونسبها إلى بعضهم ، وكان قد أوصى أن تكتب على لوح قبره ، يقول : ياألله ، يامبصر الخفيات حتى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل ، اغفر لي الخ والبهيم : المظلم ، لانبهام الأشياء فيه ، والأليل أفعل تفضيل من الليل وإن كان جامداً ، للمبالغة في الظلمة ، والنياط : عرق غليظ منوط بالقلب تتصل به عروق دقيقة . والنحر : أسفل العنق ، والمخ : مافي وسط العظام ، والنحل : جمع ناحل أي دقيق ، والفرطات : ذنوبه التي فرطت منه ، وما كان : مفعول اغفر ، والزمان الأول : زمن الشباب . وقد تمثل المؤلف بهذه الأبيات كما تمثل الزمخشرى

« ومن يتعدّ حدودَ الله فقد ظلم نفسَه » ومستعتب : مصدر ميمى معناه طلب الرضا ، تقول : استعتبت فلانا : إذا طلبت منه العتبى ، وهى الرضا ، يريد : ليس بعد الموت من استرضاء ، لأن الأعمال بطلت وانقضى زمانُها ، وما بعد الموت دارُ جزاء لا دار عمل »

وقال أبو العتاهية :

يا عجبا للناس لو فكّروا وحاسَبُوا أنفُسَهم أبْصَروا
وعَبَرُوا الدُّنيا إلى غيرها فإنما الدُّنيا لهم مَعْبَرُ
الخيرُ ممّا ليس يَخْفَى هو المَعروفُ والشَّرُّ هو المُنْكَرُ
والمَوْعِدُ المَوتُ وما بعده الحَشْرُ فذاكَ المَوْعِدُ الأكْبَرُ
لا فَخرَ إلا فخرُ أهْلِ التُّقَى غَدًا إذا ضَمَّهُمُ المَحْشَرُ
لَيَعْلَمَنَّ الناسُ أنَّ التُّقَى والبِرَّ كانا خيرَ ما يُذْخَرُ
عَجِبْتُ للإنسانِ فى فخرِه وهو غدا فى قَبْرِه يُقْبَرُ
ما بالُ من أوّلُهُ نُطفةٌ وجيفةٌ آخِرُه يَفْخَرُ
أصْبَحَ لا يَمْلِكُ تقديمَ ما يَرْجو ولا تأخِيرَ ما يَحْذَرُ
وأصْبح الأمْرُ إلى غيره فى كلِّ ما يُقْضَى وما يُقْدَرُ

« أما قوله : يا عجبا للناس لو فكروا ... البيت ، فمأخوذٌ من قولهم : الفكرة مِرآةٌ تُريك حسَنك من قبيحك ؛ ومن قول لُقمان لابنه : يا بُنَىَّ ، لا ينبغى لعاقل أن يُخْلِىَ نفسه من أربعة أوقاتٍ ، فوقتٌ منها يناجى فيه ربَّهُ ، ووقتٌ يُحاسِبُ فيه نفسَه ، ووقت يَكسِبُ فيه لمعاشِهِ ، ووَقت يُخَلِّى فيه بين نفسِه وبين لَذَّتِها لِيَستعين بذلك على سائر الأوقات . وقوله : وعبروا الدنيا إلى غيرها ... البيت ، مأخوذ من قول الحسن البَصْرِىّ : اجْعَل الدنيا كالقنطرة تجوزُ عليها ولا تعْمُرُها .

وقوله : الخير مما ليس يخفى ... البيت ، مأخوذ من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعبد الله ، كيف بك إذا بقيت فى حُثالةٍ من الناس (١) مَرِجَت عُهودُهم وأماناتهم (٢) وصارَ الناس هكذا ، وشَبَّك بين أصابعه ؟ فقلتُ : مُرْنى ، يارسول الله ، فقال : خُذْ ماعَرَفْتَ ودَعْ ماأنكَرْتَ وعليك بخُوَيِّصة نفسك وإياك وعوامَّها (١) ... وقوله : ليعلمَنَّ الناس ... البيت ، مأخوذ من حديث أبى هُريرة : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إذا حُشِرَ الناس فى صعيد واحد نادى مُنادٍ من قِبَلِ العَرْش : ليَعلمَنَّ أهلُ الموقف مَنْ أهلُ الكرَم اليوم ؟ : لِيَقُم المُتَّقون ، ثم تلا رسول الله : إن أكرَمَكم عند الله أتقاكم ، وقد تقدم صدرَ باب البر أن الأخطل سَبَق أبا العتاهية فى هذا بقوله :

وإذا افتقَرْت إلى الذخائر لم تَجد ذُخْـرا يكونُ كصالحِ الأعمال

وقوله : مابال من أوله نطفة ... البيت ، مأخوذ من قول على رضى الله عنه : وما ابنُ آدمَ والفخر وإنما أوّلُه نطفة وآخره جيفة ، لايرزُقُ نفسَه ، ولا يدفَعُ حَتْفَه ، وكان عمر بن عبد العزيز رحمةُ الله عليه يقول : أيها الناس إنما خُلِقتم للأبَد ، ولكنكم تُنقَلون من دار إلى دار ... وقال مالك بن دينار (٤) :

---

(١) أصل الحثالة : مايبقى فى الإناء من ردىء الطعام ، وحثالة التمر : أردؤه ومالاخير فيه ، ضربه رسول الله لرذال الناس وشرارهم

(٢) مرجت عهودهم : اختلطت وذهبت بهم كل مذهب ، ومرج : كطرب ، أما مرج الماء بمعنى سال فلم يكن له مانع ، فبابه نصر .

(٣) خويصة : تصغير خاصة ، يأمره صلى الله عليه وسلم بمجاهدة نفسه ويحذره مشاركة العامة فى أعمالها

(٤) كان عالما زاهدا لايأكل إلا من عمل يده مات سنة إحدى وثلاثين بالبصرة .

جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم... وقال على رضى الله عنه : مَنْ سَرَّه الغِنى بِلا مالٍ، والعِزّ بِلا سلطان ، والكثرةُ بلا عشيرةٍ، فليَخرُج من ذُلّ مَعْصِيةِ الله إلى عِزّ طاعتِه ، فإنه واجِدٌ ذلك كلَّه ... وقال يزيد بن الصَّقيلِ العَقِيلِيُّ - وكان يَسرِق الإبلَ فى عهدِ بنى أُميّة ثم تاب وقُتِل فى سبيل الله - :

ألَا قُلْ لِأرْبابِ المخائِضِ أهمِلوا فقد تابَ مِمّا تعلمون يَزيدُ
وإنَّ امْرَءًا يَنْجُو من النارِ بعدَما تزوَّدَ من أعمالها لَسَعيدُ

« المخائض جمع مخاض - ومخاض واحِدُه خَلِفَة - الناقة استبان حملها - فمخائض جمع الجمع، ومخاض : جمع على غير واحد، كما تقول : امرأة ونساء ، وقوله : أهملوا : أى اسرَحُوا إبلكم - » وفى هذا الشعر :

إذا ما المَنايا أخطأَتْك وصادفَتْ حَميمكَ فاعلَم أنها ستعود

وفى معنى هذا البيت ما يُروَى عن محمد بن الحنَفية - ابن الإمام على - أنه كان يقول - إذا مات له جارٌ أو حميم - : أوْلَى لِى ، كِدْتُ والله أكونُ السَّوادَ المُخْتَرَم ... « أولى لى ، مثله : أوْلَى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ، وهى كلمة تهديد ووعيد ، معناها : قاربك ما تكره ، أو الشَّر أقرب إليك ، والسوادُ : شخص الإنسان وكلُّ شىء من متاع وغيره ، وفى الحديث : إذا رأى أحدُكم سواداً بليل فلا يكنْ أجبنَ السوادَين ، فإنه يخافُك كما تخافُه ، والمخترم - من اخترمته المنيّةُ : أخذته من بين أصحابه ... »

وقال أبو نواس :

ولقد نَهزْتُ مع الغُواةِ بدَلْوِهِمْ وأسَمْتُ سَرْحَ اللَّهوِ حيث أساموا
وبلغتُ ما بلَغ امْرُؤٌ بشَبابه فإذا عُصارَة كلِّ ذاكَ أثَامُ

« أثام كسلام : عقاب الإثم وجزاؤه ، ونهزت بدلوهم يقال : نهزت بالدلو فى البئر : إذا حركتها لتمتلئ ... وهو هنا على المثل ... يقول أبو نواس : لقد غَوَيْتُ زماناً مع الغُوَاةِ ولَهَوْتُ كما لَهَوْا وخلعتُ عِذارِى كما خلَعوا عِذارَهم وبلَّغتُ شبابى المبالِغَ ، من اللهو والبَغْى والفساد ، وأنَلْتُه أقصى ما يَشْتهى من شهوات الحياة الدنيا ، فوجدْتُ كلَّ ذلك ضلالا فى ضلال وعَبثاً فى عبث وظُلمات بعضها فوق بعض ، وما جَنَيْتُ من ورائه إلا المُرَّ والحنظل ، من الأدواء والأسقام والبُعد عن ملكوت الله وقُدْسيته ، وكلّ ما تُورثُه المعاصى من الدنَس والطبَع والرَّيْن ، وإنَّ فى ذلك لعِبْرَةً لمن اعتبر »

وقال هِشامُ بنُ عبد الملك ـ وهو من الأبيات المنفردة القائمة بنفسها ـ :

إذا أنتَ لم تَعْصِ الهوَى قادَكَ الهوى
إلى بعضِ مافيـــهِ عليـكَ مَقال

وهذا بكلام الملوك أشبه ، ومن كلمة للسيدة عائشة رضى الله عنها : مَنْ أرْضَى الله بإسخاط الناس ، كفاهُ اللهُ مابينه وبين الناس ، ومَن أرضى الناس بإسخاط الله ، وكَلَهُ الله إلى الناس ، ومَن أصلَح سريرَته ، أصلح اللهُ علانيته . وفى حديث الدُعاء : لا تَـكِلْنى إلى نفسى طَرْفةَ عين فأهْلِك ... تولّانا الله برِعايته الصَمَدانيّة إنه سميع الدعاء ...

الباب الثانى

فى الشكر والحمد والثناء

وهذا بابُ الشُّكر بابٌ له مَكانته فيما خلَّفُوه لنـا من آدابٍ وذخائرَ ، وإنَّ بينه وبين البر على جميع ألوانه لَرَحِمًا ماسَّةً وقرابةً قريبةً ، ومن ثَم جعلناه رِدْفاً له ، وأفردنا له هذا الباب .

معنى الشكر

والشكر : مُقابلةُ النعمة بالقول والفعل والنِّيَّة ، فيُثْنِى المُنْعَمُ عليه على المنعِم بلسانِه ، ويُذِيبُ نفسَه فى طاعتِه ، ويَعتقِد أنه مُولِيها ؛ وهو من شَكَرَت الإبل تَشكُر : إذا أصابت مَرْعًى فسَمِنَت عليه . وإذن يكونُ معنى شكرِ العبدِ لربِّه : أن يَجهَدَ العبدُ جُهْدَه فى طاعةِ الله ، ويؤدِّىَ ماوَظَّفَ اللهُ عليه من عِبادته ، ويعتقد أنه هو وحدَه وَلِىُّ نِعْمتِه ، وأن يُكثِرَ من الثّناء عليه عزّ وتقدّس ... وقد جاء الشكورُ وَصْفاً لله عز وجل ، ومعناه أنه يَزْكو عندَه القليلُ من أعمالِ العباد فيضاعِفُ لهم الجزاءَ ، وقد يكون معناه : المغفرة ... هذا ؛ وإنّ فَرْقاً بين الشكر والحمد ، فالشكر لا يكون إلا عن يَدٍ ، والحمدُ عن يدٍ وعن غير يدٍ وأنشدوا لأبى نُخَيْلةَ [1] :

---

(١) شاعر إسلامى ، وكان أسود ، والرجز أغلب عليه من الشعر ، وسمى أبا نخيلة لأن أمه ولدته تحت نخلة فهو اسمه ، ويمدح بهذا الشعر مسلمة بن عبد الملك يقول فى أولها :

أمَسْلَمَ إنى ياابْنَ كلِّ خليفَـة ويافارِسَ الهيجا ويا قَمَرَ الأرْض

وقوله : فنبهت من ذكرى وما كان خاملا : أخذه أبو تمام فكشف معناه وحسنه بالصناعة

شكرْتُكَ إنّ الشُّكرَ حبْلٌ من التُّقى ... وما كلُّ مَنْ أوْليْتَه نِعمةً يَقضِى
فنبَّهتَ من ذِكرِى وما كان خامِلًا ... ولكنَّ بعضَ الذِّكرِ أنبَهُ من بعضِ

قال ابنُ سِيدَه : وهـذا يدلُّ على أن الشُّكرَ لايكونُ إلا عن يَدٍ ، ألَا تَراه يقول : وما كلُّ مَنْ أوْليْتَه نِعمةً يَقضى ؟ أى ليس كلُّ من أوليته نعمة يَشكُرُكَ عليها ... ويقال : شَكره وشَكَر له ، وباللام أفصح ، وتقول : شكرْتُ نعمةَ الله ، ولِنِعْمتِه ، وتشكَّرَ له بلاءَه ، كشَكَرَه ، وتشكَّر له مِثل شكر له ، هذا خلاصة ماقاله علماءُ اللغة . وقال أبو البقاء فيما قال ، إذ أطال : الشكر : عِرفانُ الإحسان ، ومن الله المجازاة ، وأصلُ الشكرِ : تَصَوُّرُ النعمة وإظهارُها وحقيقتُه : العجز عن الشكر ، إلى أن قال : والشكر العُرْفِىُّ : صرفُ العبد جميعَ ماأنعمَ الله به عليه من السَّمْع والبصر والكلام وغيرها ، إلى ما خُلِقَ له وأعطاهُ لِأجْله ، كصَرْفِ النظر إلى مصنوعاته ، والسمع إلى تلقّى إنذاراتِه ، والذِّهنِ إلى فهْم معانيها ، وعلى هـذا القياس ، وقليلٌ ماهُم ، إلى أن قال : وتَوفِيَةُ شكرِ الله صعبٌ ، ولذلك لم يُثْنِ بالشكر من أوليائه إلا علَى إبراهيم صلوات الله عليه ، إذ قال سبحانه : إن إبراهيم كان أُمَّةً قانِتًا لله حنيفًا ولم يَكُ من المشركين ، شاكراً لِأنْعُمِه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ؛ وعلى

فقال من أبيات يمدح بها محمد بن عبد الملك الزيات :

لقد زِدْتَ أوْضاحى امتدادًا ولم أكن ... بَهِيما ولا أرْضِى من الأرْضِ مَجْهَلا
ولكن أيادٍ صادَفَتْنى جِسامُها ... أغَرَّ فأوْفَتْ بى أغَرَّ مُحَجَّلا

« الأوضاح جمع وضح وهو البياض ، والبهيم : الأسود ، والمجهل : أرض بلا أعلام وهذا على المثل »

نُوح عليه السلام إذ قال: إنه كان عبداً شكوراً ... ونَزيد هذا توكيداً وتبييناً بإيراد كلمة الراغب فى الذريعة، قال الراغب ـ مع شىء من التصرف ـ: الشكر تصوُّرُ المُنْعَم عليه النعمة، وإظهارُها، ويضادّه الكفْرُ، وهو ـ أى الكفر ـ من كَفَر الشىء: غطّاه، ودابَّةٌ شكور: أى مُظْهِرةٌ بسِمَنِها إسداءَ صاحبها إليها؛ وقيل: أصله من عينٌ شكرَى: أى مُمتَلِئة، فالشكر هو: الامتلاء من ذكر المنعَم عليه المُنْعِمَ، ومن هذا الوجه قيل: هو أبلغُ من الحمد، لأن الحمد ذِكرُ الشىء بصفاته، والشكر: ذكر الشىء بصفاته وبنعمه، فالشكر على ثلاثة أضربٍ: شكرٌ بالقلب، وهو تصوُّر النعمة، وشكر باللسان، وهو الثناء على المنعِم، وشكر بسائر الجوارح، وهو مكافأته بقدر استحقاقه؛ وهو أيضا باعتبار الشاكر والمشكور: ثلاثة أضرب: شكر الإنسان لِمن هو فوقَه، وذلك يكونُ بالخدمة والثناء والدُّعاء، وشكرٌ لنظيره، وهو بالمكافأة، وشكر لمن هو دُونَه، وهو بالثواب والإفضال. وشكرُ العبدِ لله سبحانه هو: معرفةُ نعمته وحِفْظُ جوارحه بمنعِها من استعمال مالا ينبغى. ثم قال: وشكرُ المنعِم فى الجملة واجبٌ بالعقل، كما هو بالشرع، ـ وهذه مسألة كلامية انظرها فى كليات أبى البقاء، ـ وأوجَبُها شكرُ البارى تعالى، ثم شكرُ مَن جعله سببًا لوصول خير إليكَ على يده، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: لا يَشكرُ اللهَ مَن لم يَشكُرِ الناس؛ قال: وقال بعضهم: كلُّ نعمةٍ يُمكِن شكرُها إلا نعمةَ الله، فإنَّ شُكرَ نعمتِه نعمةٌ منه، فيحتاج العبد أن يَشكرَ نعمةَ الشكر، كما شَكر أصلَ النعمة، وهكذا حتى يُؤدِّيَ ذلك إلى مالا يتناهى، ومن هذا أخذ الشاعر الذى يقول:

إذا كان شُكرى نعمةَ الله نِعمةً ... علىَّ له فى مِثْلِها يجب الشُّكرُ
فكيف بلوغُ الشكر إلا بفضلِه ... وإن طالتِ الأيامُ واتّصلَ العمرُ

ولهذا قيل : غايةُ شكر الله تعالى الاعترافُ بالعَجْزِ عنه ، بل قد قال الله تعالى : وإن تعُدُّوا نعمةَ الله لا تحصوها ، وأيضا فكلُّ ما يَفعَلُ الله بعبدِه فهو نعمة منه، وإن كان بعض ذلك يُعَدُّ بليَّةً ، ولهذا قال بعض الصالحين : يا مَنْ مَنْعُه عطاءٌ وبَلاؤه نَعماء (١) ... ولأجل صعُوبةِ شكر الله قال عز وجلَّ : وقليل من عبادِيَ الشكور ...

عبقرياتهم فى الشكر

حثُّهم على الشكر

قال حكيم : إذا قصُرَت يَدُك عن المكافأة فليَطُلْ لِسانُك بالشكر ؛ وقالوا : النِعَم إذا شُكِرَت قَرَّت وإذا كُفِرتْ فَرتْ . والأصل فى هـذا قوله تعالى : وإذ تأذَّن رَبُّكم لئن شَكرْتُم لأزيدنكم ولئن كفرتُمْ إنّ عذابى لشديد ... وقالوا : النِّعَمُ وحشيَّةٌ فاشكُلوها بالشكر « يقال : شكل الدابّة يشكُلها : شدّ قوائمها بحبل ، واسم ذلك الحبل : الشِكال » وقال ابن المقفع : استوثِقوا عُرَى النعم بالشكر . « العُرى جمع عُروة ، والعروة فى الأصل تقال لعروة الدَّلو والكوز ونحوه ، أى مقبضه . ولعُروة المزادة أى أُذنها . ولعروة القميص : مَدْخَل زرّه ، ولعروة النَّبات : ما بقى له خضرة فى الشتاء ترعاها الإبل إذا أجدب الناس ، ومن

---

(١) هذا كلام بعيد الغور غاية فى النفاسة ، وقديما قرأت كلاما لا أذكر لفظه بيدان معناه لا يزال عالقا بذهنى ، وهو أن الإنسان قد يظن أن حرمانه الجاه أو المال أو ما إليهما ، شر ونقمة ، ولكنه فى الحقيقة نعمة ، إذ لو أعطى ما يشتهيه من المال أو الجاه لساءت حاله وكان هذا المال أو الجاه مما يفسده لا مما يصلحه ومن ثم حثوا على أن يرضى الإنسان بما أعطى ويعدّ ذلك مدرجة إلى صلاحه وحسن حاله وأن ما أعطاه الله إياه مهما كان قليلا هو الخير كل الخير فى الواقع ولا خير فى غيره ولا صلاح ...

هذا استعاروا العُروة لكل ما يُلجأ إليه ويُعوَّل عليه ويوثق به ويُتمسَّك؛ فيقال لقادة الجيش: العُرَى، والصحابة رضوان الله عليهم: عُرى الإسلام، وقوله تعالى: فقد آستمسك بالعروة الوُثقى لاانفصام لها: شُبِّه ما يُعتصم به من الدين بالعُروةِ التي يُتمسَّك بها ويُلجأ إليها، والوُثقى: المُحكمة، فقول ابن المقفع: استوثقوا: أي أحكموها، وقال البحترى:

يَزيد تفضُّلًا وأزيد شُكراً ... وذلك دأْبُهُ أبداً ودابى

وقال عمرو بن مَسْعَدَة: لا تَصْحَب من يكون استمتاعُه بمالِكَ وجاهك أكثرَ مِن إمتاعِه لك بشكر لسانه وفوائد عمله. وقال يحيى بن أكثم: كنت عند المأمون فأُتى برجل تُرعَد فرائصُه، فلما مَثَلَ بين يديه قال المأمون: كفَرتَ نعمتى ولم تشكر معروفى! فقال: ياأمير المؤمنين، وأين يقعُ شُكرى فى جنْب ماأنعم الله بك علىَّ! قال يحيى: فنظر إلىَّ المأمون وقال مُتمثِّلا:

ولو كان يَستغنى عن الشُّكر ماجدٌ ... لِرفعةِ قَدْرٍ أَوْ عُلوِّ مكانِ
لَما أمَرَ اللهُ العبادَ بشُكْرِه ... فقال: اشْكروا لى أيها الثقلانِ

ثم التفتَ إلى الرجل وقال: هلَّا قلت كما قال أصْرَمُ بنُ حُمَيد:

مُلِّكْتَ حَمدِى حتى إنَّنى رَجلٌ ... كُلِّى بكلِّ ثَناءٍ فيكَ مُشتَغِلُ
خُوِّلْتَ شُكرى لِمَا خوَّلْتَ من نِعمٍ ... فحُرُّ شُكرى لما خوَّلتَنى خدَمُ

وقريب من هذا قول أبى الفتح البُستى:

لئن عجزتْ عن شكر بِرِّك قُوَّتى ... وأقوى الوَرَى عن شكر بِرِّك عاجزُ
فإنَّ ثَنائى واعتِقادى وطاقتى ... لأفلاكِ ماأوليتَنيها مراكزُ

ومن أبرع ماقيل فى الشكر قول البُحتُرى:

فلو كان للشُّكرِ شَخصٌ يَبِينُ ... إذا ماتأمَّلهُ الناظِرُ

لَبَيَّنْتُــه لك حتى تَرَاهُ فتَعْلَمَ أَنِّى امْرُؤٌ شاكر
ولـكنه ساكنٌ فى الضمير يُحَـــرِّكُهُ الـكَلِمُ السَّائرُ

وقال عبدُ الله بْن الزَّبيرِ الأَسَدِى فى عمرو بن عثمان بن عفّان ـ لمّـا زارَهُ فنظر عمرو فرأى تحت ثيابه ثوبا رَثًّا ، فدعا وكيله وقال: اقترض لنا مالًا، فقال : هيهات ما يُعْطينا التُّجَّار شيئا ، قال : فأربحهم ماشاؤا . فاقترض له عشرة آلاف فوجّه بها إليه مع تَخْتِ ثياب « التخت : وعاء تصان فيه الثياب » ـ :

سأشكرُ عَمْراً ما تراخَتْ مَنِيَّتِى أَيادِىَ لم تُمْـنَنْ وإنْ هى جَلَّتِ
فَتًى غيرُ مَحْجُوبِ الغِنى عن صديقِه ولا مُظْهِر الشَّكْوَى إذا النَّعْلُ زَلَّتِ
رأى خَلَّتِى من حيثُ يَخْفَى مَكانُها فكانت قـذى عَيْنيه حتى تجلَّتِ

« قوله : سأشكر : فالعرب تستعمل السين إذا أرادت تكرار الفعل وتأكيده ولا تريد التنفس فيه . ولم تمنن : لم يتبعها منّ ، وإذا النعل زلت: يريد : إذا زلت قدمه فى مزالق الدهر فلا يجد مركبا يقيه مصرع السوء ولا متكأ يعتمد عليه فى نهضته، والخلة : الحاجة، وقوله من حيث يخفى مكانها : أى من حيث لا يدركها لَحاظُ غيره، وفكانت قذى عينيه : أبرع كلمة فى معنى الاهتمام بالحاجة »...

وقال ابن عَنقاء الفَزَارىُّ فى عُميلة الفزارىّ ـ وكان قد وصله بنصف ما! لما رأى من رَثاثةِ حالِه ، وكان عميلة غلاما جميلا ـ :

رآنى على مابى عُمَيـلةُ فاشتكى إلى مالِه حالِى أَسَرَّ كما جَهَرْ
دعانى فآسانى ولو ضَنَّ لم أُلُمْ على حينَ لا بَدْوٌ يُرجَّى ولا حضَرْ
غُلامٌ رَماهُ اللهُ بالخَيْرِ يافِعا له سِيمَياءُ لا تَشُقُّ على البَصَرْ
كأنّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فى جبينِه وفى خَدِّه الشِّعْرَى وفى وجْهِه القَمر

إذا قيلَتِ العوراءُ أغضى كأنّه ذليلٌ بلا ذلٍّ ولو شاءَ لانتصرْ
ولمّا رأى المجدَ استُعيرت ثيابُه تردَّى رداءً واسعَ الذيلِ وأتزرْ
فقلت له خيراً وأثنيتُ فِعلَه وأوفاكَ ما أسديتَ مَن ذمَّ أو شكر

« السيما والسيميا والسيماء والسيمياء : العلامة يُعرف بها الخير والشر ؛ وقوله : لا تشُقُّ على البصر يريد : لا تؤذيه بل يُسَرُّ بها ، والثُّرَيّا : من الكواكب كثيرة الأنجم مع صغر مرآتها ، والشِّعرى يريد بها الشعرى العَبُور ، وهو كوكب نيّر خلف الجوزاء يطلع فى صميم الحرّ . والعوراء : الكلمة القبيحة ، وأغضى : أطبق أجفانه حياءً ونبلا ؛ واستعيرت ثيابه : كنى بذلك عن قلة الأمجاد »

العجز عن الشكر

قال بعضهم :

أياديَ لا أستطيعُ كُنْهَ صِفاتِها ولوْ أنَّ أعضائى جميعا تكلّم

وقال آخر :

ولوْ أنَّ لى فى كلِّ مَنْبِتِ شَعْرةٍ لِساناً يَبُثُّ الشكرَ فيكَ لقَصَّرا

وقال بعضهم : شكرى لا يقعُ من نِعَمه الظاهرة : موقعَ النُّقْطةِ من الدائرة .

وقال أبو نُواس :

قد قلتُ للعبّاسِ مُعتذِرًا عن ضَعفِ شُكرِيهِ ومُعترِفا
أنتَ امرُؤٌ جلَّلتَنى نِعَمًا أوْهَتْ قُوَى شُكرِى فقد ضَعُفا
فإليْكَ مِنّى اليومَ تقدِمَةً تَلْقاكَ بالتَّصريحِ مُنكَشِفا
لا تُسْدِيَنَّ إلىَّ عارِفةً حتى أقومَ بشكرِ ما سَلَفا

« شكريه : شكرى إياه » وقال المتنبي :

وَلم نَمْلَلْ تفقُّدَكَ المَوالِي ولم نَذْمُمْ أياديَكَ الجِساما
ولكنَّ الغُيُوثَ إذا تَوالتْ بأرْضِ مُسافِرٍ كَرِهَ المُقاما

« الموالى جمع مولى : العبد ، وتروى المُوالى : أى الذى يلى بعضه بعضاً ، والأيادى النعم ، والجسام : العظام ، وقوله ولكن الغيوث ... البيت ، فالغيوث جمع غيث : المطر ، وتوالت : تتابعت ، والمقام : الإقامة؛ يقول : إن المسافر إذا كثر عليه المطر مَلّ إقامته واحتباسه ، لأجل المطر ، كذلك نحن ، عطاياك تتوالى علينا وأنت قيدتنا بإحسانك وأنا مسافر أريد الارتحال ولولا هذا لم أمَلّ نعمتك ، والمطر يسأله كل أحد إلا المسافر » ... وقال البُحتُرىّ وأبدع :

أَخْجَلْتَنِى بنَدى يدَيكَ فسَوَّدَتْ ما بيْننا تلْكَ اليَدُ البَيْضاءُ
وقطَعْتَنى بالجُودِ حتى إنَّنى مُتَخَوِّفٌ أنْ لا يكونَ لِقاءُ
صِلَةٌ غدَتْ فى الناسِ وَهْىَ قطِيعةٌ عَجَبٌ، وبِرٌّ راحَ وَهْوَ جَفاءُ

وقال أيضاً :

إيهاً أبا الفَضْلِ شُكْرِى منكَ فى نَصَبٍ أقْصِرْ فمالى فى جَدْواكَ من أرَبِ
لا أقْبَلُ الدَّهْرَ نَيْلًا لا يقومُ به شُكْرِى ولو كان مُسْدِيهِ إلىَّ أبِى

ومن ألفاظهم فى ذلك : شُكْرُه شأوٌ بعيد لا تبلُغه أشواطى ، ولا أتلافى التفريط فيه بإفراطى « الأشواط جمع شوط : الجرى مَرّة إلى غاية تقول : عدا جرَى شوطاً ، أى طَلَقا » وعندى له مَبارٌّ أعجزنى شكرُها ، كما أعوزنى حَصْرُها « مبارّ جمع مبرّة » وقال بعض الشعراء فى الصاحب بن عبّاد :

وَفَدْنا لنَشْكُرَ كافى الكُفاةِ ونَسْأَلُهُ الكَفَّ عن بِرِّنا

فقال بعض الحاضرين : قد كُفيت ، فإن الصاحب صار لا يُعطى شيئاً ...

من لاتخفى أياديه

قال نُصَيبٌ [١] :

فَعـاجُوا فأثنَوْا بالذى أنت أهْـلُه ... ولو سـكَتُوا أثنتْ عليك الحقائبُ

وقال بعضهم :

وكيف بكفرانى صنائِعَهُ التى ... إذا جُحِدتْ يَوْمًا أقرَّ بها جِلْدِى

ومثـله :

وإذا سكتُّ فإنَّ أنطَقَ مِن فمى ... عنِّى يدُ المعروفِ والإحسانِ

وقالوا فى أمثالهم : لسانُ الحال أفصح من لسان الشـكر ... ومن كلمة للجاحظ : نحن نُزَخرِفُ باللسان ، والناسُ يَقْضُون بالعِيان ، وفى أمْرِنا أثرٌ ينطِقُ عنا ، ويتكلم إذا سكتنا ...

الشكر بقدر الاستحقاق

وعتبهم مَن شكروه ولمَّا يَستوْجِبْ

قال على بن أبى طالب : الثناء من غير الاستحقاق مَلَقٌ ، والتقصير عن

(١) هو نصيب بن رباح من أهل ودّان وكان عبداً لرجل من كنانة هو وأهـل بيته ، وكان أهل البادية يدعونه « النصيب » تفخيما له وكانت أمه أمة سوداء وكان شاعراً فحلا فصيحاً مقدماً فى النسيب والمديح وكان أثيراً عند الملوك ، وهذا البيت من أبيات له فى سليمان بن عبد الملك وأول الأبيات :

أقولُ لركْبٍ صادِرينَ لَقِيتُهم ... قَفَا ذاتِ أوْشالٍ ومَوْلاكَ قاربُ

قِفُوا خبِّرُونى عن سليمانَ إنَّنى ... لِمعْروفِه من أهلِ وَدَّانَ طالبُ

فعاجُوا ... ... البيت

«قفا : أى خلف والعرب تقول : لقيت فلانا قفا العقبة أو الثنية : أى خلفها ، ومولاك يخاطب سليمان ويريد بالمولى نفسه ولعله يريد بذات أوشال : موضعا بعينه ، والقارب فى الأصل : طالب الماء ليلا »

الاستحقاق عِيٌّ وحَسَدٌ، وقال رجل لابن الأعرابى: إنْ نُصَيْباً ــ الشاعر الذى تقدم ذكره ــ يقول: إنما تُمدح الرجال على قدر ثوابها، فقال: إنّ العربَ تقول: على قدر رِيحِكم تُمطَرون ... وقال الصاحب بن عبّاد:

وإذا الصّديقُ أدامَ شُكْرِىَ لِلَّتى لَمْ آتِها إلا على التقدير
أيقنْتُ أنَّ العَتْبَ باطِنُ أمْرِه فسكَتُّ مُحْتَشِماً على التَّقْصيرِ

من لم يَرْدَعْهُ خوفه عن الشكر

بعَثَ أبو جعفر المنصور إلى شَيْخٍ من بِطانةِ هشام بن عبد الملك، فاستحضَرَه وسأله عن تدبير هشام وأحواله، فأقبل الشيخ يقول: فعَل رحمه الله، وقال يومَ كذا رحمه الله، فقال المنصور: قُمْ لعنك الله، أتطأُ بِساطى وتترحَّمُ على عدوى! فقال الشيخ: إن نعمةَ عدوّكَ لَقِلادةٌ فى عُنُق لا ينزِعُها إلا غاسِلى، فقال المنصورُ: ارْجِعْ إلى حديثِك، فإنى أشهدُ أنك غَرْسٌ شريف وابنُ حُرّة ... ولما قتل مَسلمةُ بن عبد الملك يزيدَ بن المهلب أمر أن يحضر الشعراء ليقولوا فى ذلك، فلم يَألُوا أن ذكروه بأقبح ما قدروا عليه، ماخلا رجلا من بنى دارم فإنه قال: لاأذُمُّ رَجُلا لاأمْلِكُ رَبْعاً ولا مالا ولا أثاثاً إلا منه ولو قُطِّعتُ إرْبًا إرْبًا[1]، ولقد رثيْتُه بأحسن ما يُرْثَى به رجلٌ ـ وأنشد أبياتاً رائعةً ـ فجزاه مسلمة خيراً وقال: إذا اصْطُنِع فلْيُصْطَنَعْ مِثلُ هذا ... أقول: لا أدرى: أبموقف هؤلاء البَرَرة الأوفياء الشجعان الصرحاء يُعْجَبُ المرء، أم بأولئك الملوك الذى يقدرون هذا الوفاء ويطرَبون له ولو كان فى جانب أعدائهم! فلله دَرُّ أولئك الناس الذين شرّفوا الإنسانية بهذه الخلائق الكريمة النبيلة، بينما غيرهم من أهل النفاق والجبن والنذالة قد كَلَمُوا[2] الإنسانية

(١) إربا إربا: عضوا عضوا (٢) كلموا: جرحوا

وهَوَوْا بها إلى الحضيض الأوهد ...

شكر من هَمَّ بإحسان ولم يفعل

وقالوا : من لم يَشْكُرْ على حُسن النية ، لم يَشْكُرْ على إسداء العطيَّة .

وقال شاعر :

لأشكرَنَّكَ معروفاً هَمَمتَ به ... إنَّ اهْتِمامَكَ بالمعروفِ مَعروفُ

ولا أذُمُّكَ إن لم يُمْضِهِ قدرٌ ... فالشيءُ بالقَدَرِ المحتومِ مصروفُ

ثِقَلُ الشكر والحمد

وقال أبو تمام فى ثقل الشكر والحمد من أبيات له فى الحسن بن وهب :

والحمْدُ شَهْدٌ لا ترَى مُشْتارَه ... يَجْنيهِ إلَّا مِن نقيع الحَنْظَلِ [1]

غُلٌّ لِحامِلِه ويَحْسَبُه الذى ... لم يُوهِ عاتقَهُ خفيفَ المَحْمِلِ [2]

وقيل لبعض الصالحين : مالَكَ لاتطلبُ الدنيا ؟ فقال : من خاف السُّؤالَ عن الشكر طابت نفسُه عن المال ...

وقال أبو العتاهية :

ما فاتنى خيرُ امرئٍ وَضَعتْ ... عنِّى يَداهُ مَؤُونة الشُّكْرِ

ترغيبهم فى الثناء ووصفهم إياه بالبقاء

وتفضيلهم إياه على المال والعطاء

قال عمر بن الخطاب لابنةِ هَرِمِ بن سنانٍ ممدوح زُهيرِ بن أبى سلمى :

---

(١) المشتار : مستخرج العسل ، والشهد : بفتح الشين وضمها : العسل فى شمعها

(٢) الغل: القيد ، والمحمل : الحمل

ماوَهَبَ أبوك لزُهَيْر ؟ فقالت : أموالا فنِيَتْ وأثوابا بَلِيَتْ وأشياءَ انتُسِيَتْ ، فقال الفاروق : لكن ما أعطاكُموه زُهَيْرٌ لا يَفْنَى ولا يُنْسَى ... وكتب أرِسْطُو إلى الإسكَنْدَرِ المَقْدُونى : إنَّ كلَّ عَقيلةٍ [1] يأتِى عليها الدهْرُ ، فيُخْلِقُ أثرَها ويُميتُ ذِكْرَها ، إلا ما رَسَخ فى القلوب ، من الذِّكْرِ الحسَن يتوارَثُه الأعقاب . وقالوا : فى الثناء الباقى على الدهر ، خلَفٌ من نفاد العمر . قال الشاعر :

وإنى أُحِبُّ الخُلْدَ لوْ أستطيعُه وكالخُلْدِ عندى أن أَبيتَ ولم أُلَمْ

وقيل لِبُزُرْجُمِهْرَ حين كان يُقْتَلُ : تكلَّمْ بكلامٍ نذكره ، فقال : الكلام كثير ، ولكِنْ إنْ أمكنك أن تكون حديثا حسنا فافعل .

ولمَّا وُضِع الوزيرُ محمدُ بنُ عبد الملك الزيات فى التَّنُّور قال له خادمُه : ياسيدى ، قد صِرْتَ إلى ماصرتَ وليس لك حامدٌ ! قال : وما نَفْعُ البَرَامكة من صنيعهم ، قال : ذِكْرُك لهم الساعةَ ، فقال : صدقت ... وقال شاعر :

لئن طِبْتَ نفْسًا عن ثنائى فإنَّنى لأطيَبُ نفْسًا عن نَداكَ على عُسْرِى
فلستُ إلى جَدْوَاكَ أعظمَ حاجةً على شدَّةِ الإعسارِ مِنكَ إلى شُكْرِى

وقال أبو تمام :

ومُحجَّبٍ حاولتُه فوجدتُه نجمًا عنِ الرَّكْبِ العُفاةِ شَسوعا
أعدمتُه ـ لمَّا عَدِمتُ نوالَه ـ شُكْرِى فرُحْنا مُعْدِمَيْنِ جميعا

وقال عَوْفُ بن محلم الشيبانى :

فتًى يَتَّقِى أن يَخدِش الذَّمُّ عِرضَه ولا يتقِى حدَّ السُّيوفِ البواتِرِ

---

(١) العقيلة فى الأصل: المرأة الكريمة النفيسة ثم استعمل فى الكريم من كل شىء فى الذوات والمعانى . وعقائل الإنسان : كرائم أمواله ، وهو المراد هنا

وقال حكيم : من أحبَّ الثناء ، فليصبر على بَذْل العطاء ، وليُوَطِّنْ نفسَه على الحقوق المُرَّة ، وعلى احتمال المؤْنة ... وقال الشاعر فى هذا المعنى :

ما أعْلمَ الناسَ أنَّ الجودَ مكْسَبةٌ للحَمْدِ لكنَّه يأتى على النَّشَبِ

تسهيل القول على الشاكرين

بتوافر ما يُشكر عليه وعكس ذلك

قيل للفرزدق : أحسنَ الكُمَيْتُ فى الهاشميات ، فقال : وَجَد آجُرًّا وجِصَّةً فبنَى ... وقال شاعر :

ما لَقِينا من جُودِ فضْلِ بنِ يَحْيَى تركَ الناسَ كلَّهُمْ شُعراءَ

وقال ابنُ الرومى :

كرُمْتمُ فجاشَ المُفْحَمون لمدْحِكم إذا رَجَزُوا فيكم أبَيْتُم فقَصَّدوا

كما أزهرتْ جناتُ عدْنٍ وأثمرتْ فأضحتْ وعُجْمُ الطيرِ فيها تُغرِّدُ

ومما كتبه بعضهم : فتَحتْ شِيَمُه على المُدَّاحِ مُسْتغْلَقاتِ الكلام ...

وقال أبو تمام :

مَلِكٌ إذا ما الشِّعْرُ حارَ ببَلْدةٍ كان الطريقَ لِطَرْفِه المُتحيِّرِ

وقال المتنبى :

يا أيها المُحسِنُ المشكورُ مِنْ جِهَتى والشكرُ من قِبَلِ الإحسان لا قِبَلِى

وقال ابن طَباطَبا [1] فيمن يُستفاد منه ما يُمدح به :

(١) ابن طباطبا : هو أبو القاسم أحمد الشريف الحسينى المصرى نقيب الطالبيين بمصر ، ترجم له ابن خلكان ، وطباطبا : لقب جده إبراهيم ، وذكره الثعالبى فى اليتيمة توفى سنة ٣٤٥ هـ

لا تُنكِرَنْ إعداءَنا لكَ مَنْطِقًا منك استفدنا حُسْنَهُ ونِظامَه
فالله عزَّ وجلَّ يشكُرُ فِعلَ مَنْ يَتلو عليه وحيَه وكلامَه

وقال القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى [1] فيمن يليق به مدحه :

وأرى المديح إذا عداك نقيصةً فأعافُه ولوَ انَّهُ فى حاتمِ
فإذا امتدحتُ سِواكَ قال الشعرلى لم ترْعَ حقِّىَ إذْ أبحتَ محارمى

ووصف أعرابىٌّ رجلا مُجمعاً على مدحه : كأنَّ الألسنَ والقلوبَ ريضتِ له، فما تُعقَد إلا على وُدِّه، ولا تنطق إلا بحمده. وقال البحترى :

وأرى الخَلْقَ مُجْمِعين على فضـ ـلِكَ من بيْنِ سيِّدٍ ومَسودِ
عرَف الجاهلون فضلَك بالعِـ ـلمِ وقال الجُهَّالُ بالتقليد

وقال ابن الرومى :

يامَن إذا قاتُ فيه صالحةً عند عدوٍّ أقرَّ واعترفا

وقال البحترى فى المُسْتغْنِي عن المدح لكثرة فضله :

جَلَّ عن مذهب المديح فقد كادَ يكون المديحُ فيه هِجاءَ

وقال المتنبي :

تجاوَزَ قدْرَ المدح حتى كأنَّه بأكْثرِ ما يُثْنَى عليه يُعابُ

حب المُنعِم أن يُرَى أثر إنعامه

قال سيدنا رسول الله صلوات الله عليه : إن الله يُحِبُّ أنْ يُرَى أثرُ

---

(١) هو القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى الفقيه الأديب الشاعر صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه وصاحب الأبيات المشهورة التى أولها :

يقولون لى فيك انقباض وإنما رأوْا رجلا عن موقف الذلِّ أحْجما

توفى سنة ٣٦٦هـ

نِعْمَتِهِ على عبده ... »قال الإمام المناوى فى شرحه على الجامع الصغير : قيل معنى يُرَى : مزيد الشكر لله تعالى ، بالعمل الصالح والثناء والذكر له بما هو أهله ، والعطفُ والترحُّمُ ، والإنفاقُ من فضل ماعنده «وأحْسِنْ كما أحسن الله إليك ، والخلقُ كُلُّهُم عيالُ الله ، وأحَبُّهم إليه أنفَعُهم لعياله ، فيُرَى أثرُ الجِدَةِ عليه زِيًّا وإنفاقا وشكرا ، إلى آخر ما قال ، وهكذا يُحِبُّ الناس أن يُرَى أثر إنعامهم على مَن يُنعِمُون عليهم ، رَوَى أبو هلال العسكرى عن العُتْبِيِّ ما يَلِى : أراد جعفرُ بنُ يحيي حاجةً كان طَرِيقُهُ إليها على باب الأصمعِي فدفع إلى خادمٍ له كِيساً فيه ألفُ دينار وقال : إنى سأعَرِّج فى رَجْعَتِي على الأصمعِي ، ثم سَيُحَدِّثُنِي ويُضحِكُنِي ، فإذا ضحِكْتُ فضعِ الكِيس بين يديه ، فلما رَجع ودَخل إليه رأى حُبًّا مكسورَ[1] الرأس وجَرَّةً مكسورةَ العُنقُ ، وقَصْعَةً مُشَعَّبَةً ، وجَفنَةً أعْشاراً ، ورآه على مُصلًى بالٍ وعليه بَرْنَكانٌ[2] أجْرَدُ ، فغَمَزَ غُلامَهُ أن لا يَضع الكيس بين يديه ، فلم يدَع الأصمعىُّ شيئا مما يُضحِكَ الثكلان والغضبان إلا أورده عليه ، فلم يتبسم ، ثم خرج فقال لرجل يُسايِرُه : مَنِ استَرْعَى الذئبَ ظَلَم ، ومن زرع السَّبِخَة[3] حصد الفقْر ، إنى والله لمّا علمت أنّ هذا يكْتُمُ المعروف بالفِعْل ما حَفِلتُ بنشرِه له باللسان ، وأين يقعُ مديحُ اللسانِ من آثار العِيان ! إن اللسان قد يكذب ، والحالُ لاتكذِب ، ولله درُّ نُصَيبٍ حيث يقول :

فعاجُوا فأثنَوْا بالذى أنْتَ أهلُهُ ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائب

ثم قال : أعلمت أنّ ناووسَ أبرَيز أمْدحُ لأبرويزَ من زهير لآل سِنانٍ !

---

(١) الحب : الخابية ، فارسى معرب (٢) برنكان على وزن زعفران : ضرب من الأكسية . (٣) أرض سبخة : ذات ملح ونز

وقالت الحكماء: لسان الحال أصدق من لسان الشكر: وقد أجاد ابن الرومى فى هذا المعنى فقال:

حالى تبُوح بمَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنٍ فكُلُّ ما تَدَّعِيه غَيْرُ مَرْدُود

كلِّى هِجَاءٌ وقَتْلِى لايحِل لكم فما يُداوِيكمُ منِّى سِوَى الجودِ

وقالوا: شهاداتُ الأحوال أعدل من شهادات الرجال

لا يَمدَحون إلا إذا أُعطوا

واعتذارهم عن ذلك

قالت بنو تميم لسلامَةَ بنِ جَنْدَل: مَجِّدْنا بشعرك، فقال: افعلوا حتى أُثْنِيَ، ونحوه قول عمْرو بن مَعْدِيكَرِب:

فلو أن قومى أنْطَقَتْنى رِماحُهم نطقْتُ ولكن الرِّماحَ أجَرَّتِ

«أجَرَّت: قطعت، يقول: لو قاتل قومى أوْ أبْلَوْا لَذَكَرْتُ ذلك وفخَرْتُ به، ولكنّ رماحَهُم أجَرَّتْنى: أى قطعت لسانى عن الكلام بفِرارهم، أراد أنهم لم يقاتلوا»

وقال بعضُ الأكابر لأبى هفّان [1]: مالَكَ لاتمدحنى؟ فقال:

لِسَانُ الشُّكْرِ تُنْطِقُهُ العَطَايا ويخْرَسُ عند مُنْقَطع النّوالِ

وعاتب يوماً محمد بن عبد الملك الزيات الوزير أبا تمام على مدْحِه سواه فاعتذر إليه بأبيات يقول فيها:

أمّا القوافى فقَدْ حَصَّنتَ عُذْرَتَها فما يُصابُ دمٌ منها ولا سَلَبُ

---

(١) أبو هفان: هو عبد الله بن أحمد بن حرب المهزمى العبدى، راوية عالم بالشعر والغريب، وشعره جيد إلا أنه مقل وهو من شعراء الدولة الهاشمية.

مَنَعْتَ إلا مِنَ الأكْفَاءِ ناكِحَها ... وكان منكَ عليها العَطْفُ والحدَبُ
ولو عَضَلْتَ عن الأكْفَاءِ أيِّمَهَا ... ولم يكُنْ لك فى أطْهارها أرَبُ
كانَتْ بناتِ نُصَيْب حينَ ضَنَّ بها ... على الموالى ولم تحفِل بها العرب

« العذرة : البكارة ، والحدَب : الإشفاق ، وعضَل الأيِّمَ : فالأيم : التى لازوج لها بكرا كانت أو ثيبا والجمع : أيامَى وأيايم ، وعضَل الرجلُ أيِّمَه يعضُلُها و يَعضِلُها عضلًا : مَنَعها الزواج ظُلما قال تعالى : فلا تعضُلوهُنَّ أن يَنكِحنَ أزواجهُنَّ ، نزلت فى مَعْقِل بن يسار المُزَنِىِّ ـ وكان زوَّجَ أختَه رجلا فطلَّقها ، فلما انقضَتْ عِدَّتُها خطبَها ، فآلَى أن لا يُزوِّجه إياها ورَغِبَت فيه أُختُه فنزلت الآية ... وكان نُصيب الشاعر الأسودُ له بناتٌ وكان يَرغَب عن أن يُزَوِّجهنَّ من الموالى ، والعرب لاترغَبُ فيهنَّ ، فبَقِينَ بلا زواج ، قيل له يومًا : ماحالُ بناتِك ؟ فقال : صببت عليهن من جِلْدى فكسدن علىَّ ... »

وكتَب هذا الوزير الزيات إلى أبى تمام يوما يحتَجُّ عليه بأنه يمدَح غيره وأنه لو اقتَصر عليه لأغناه وأنّ كثرةَ مَدْحِه الناسَ زهّدَته فيه :

رَأيتُكَ سَمحَ البَيْعِ سَهلا وإنما ... يُغالِى إذا ماضَنَّ بالشىء بائعه
هو الماءُ إنْ أجْمَمْتَه طابَ وِرْدُه ... ويَفْسُدُ منه ما تُباحُ شرائعُهْ

فكتب إليه أبو تمام :

أباجعفرٍ إنْ كنتُ أصبحتُ شاعراً ... أُساهِلُ فى بيْعى له مَنْ أُبايِعُه
فقد كنتَ قبلى شاعراً ذارَوِيَّةٍ ... تُساهِلُ مَن هانَتْ عليه بضائعُهْ
وصِرْتَ وزيراً والوِزارةُ مَشْرَبٌ ... يَغَصُّ به بعد اللَّذاذةِ كارِعُهْ
وكم من وزيرٍ قد رأينا مُسلَّطًا ... رأيناه قد سُدَّتْ عليه مَطالِعُهْ
ولله قوسٌ لا تَطِيشُ سِهامُها ... ولله سَيفٌ لا تُفَلُّ مَقاطِعُهْ

« يقول : إنّ سِهام الله مصيبةٌ لا تُخطئ وسيفَه لا ينثلم ألبتَّة ، فهو الذى جعلك وزيرا ولو شاء لأزلك عن دستك »

حثهم على الشكر ولو لمن ليس على دينهم

قال رجلٌ لسعيد بن جُبَير : المجُوسِىُّ يُولِينى خيرا فأشكرُه ، ويُسَلِّمُ علىَّ فأرُدُّ عليه ؟ فقال سعيد : سألتُ ابنَ عباسٍ عن نحوِ هذا ، فقال لى : لو قال لى فِرعَونُ خيرا لرَدَدْت عليه ... وسلّم نصرانىٌّ على الشَّعْبىِّ ، فقال الشعبىُّ : وعليك السلام ورحمةُ الله ، فقال له رجلٌ : سبحان الله ، تقول لهذا النّصرانى ورحمة الله ! فقال الشَّعْبىُّ : أليس فى رحمة الله يعيشُ ؟ قال : بلَى ، قال : فما وجْهُ الإنكار علىَّ عافاك الله ورحمنا وإياك برحمته ؟

استحياؤهم من المديح

ولا سيما إذا كان مُتكلَّفا أو مُبالغا فيه

سمع سيدنا رسول الله رجلا يُثْنى على آخر ، فقال : قَطَعْت مَطاه ، لو سمع ما أفْلح « المطا : الظهر » وقالوا : استحياءُ الكريم من المدح أكثرُ من استحياء اللئيم من الذمِّ ... وأثنى رجلٌ على هِشام بن عبد الملك ، فقال : إنا نَكرَه المدح ، فقال : لستُ أمدحك ولكنى أحمَدُ الله فيك ... وكان أبو بكر الصِّدِّيق رضوان الله عليه يقول إذا مُدِح : اللهم ، أنت أعلم مِنّى بنفسى منهم ، اللهم ، اجعلنى خيرا مما يَحسَبون ، واغفِرلى مالا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون ... وكان رجل يُكثِر الثناء على علىٍّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وعَلِمَ من قلبِه خِلافَ قوله ، فقال له : أنا دونَ ماتقول ، وفوق مافى نفسِك ؛ وقال الجاحظ : شرُّ الشكر ، ثناءُ المُواجهِ لك المُسْرِف فى مدحك ،

وخيْرُه، ثناء الغائب عنك ، المقْتصِد فى وَصْفِك . وقالوا : كنْ ممن أفرط فى تزكيتك أحْذَرَ ممن أفرط فى الزرايةِ بك. وقالوا : مَن مَدَح الرجل بما ليس فيه فقد بالغ فى ذمّه. وقال أبو فراس الحمدانىّ :

ولا تَقبَلَنّ القولَ من كلّ قائلٍ سأُرْضِيكَ مَرْأًى لستُ أرضيكَ مَسْمَعا

وقال الفضيل بن عياض : لوشَمَمْتم رائحة الذنوب منى ما قَرِبتمونى ... وأُثنِيَ على زاهدٍ ، فقال : لوعَرفْتَ منّى ماعرَفْتُ من نفسى لأبغَضْتنى .
وقال المتنبّى :

يُحَدِّثُ عن فضلِه مُكرَهاً كأنّ له منه قلباً حسُودا

من يمدح نفسه

خطب معاوية بن أبى سُفيان رضى الله عنه خُطبةً حسنةً ، فقال : هل من خللٍ ؟ فقال رجل من عُرْضِ الناس : خللٌ كخللِ المُنْخُلِ ، فاستدعاه وقال : ماذاكَ الخلل ؟ قال: إعجابُك به ومدْحُك له ... وقيل لحكيم : ماالذى لايَحسُنُ وإن كان حقّا ؟ قال : مدحُ الرجل نفسَه...وقال معاوية لرجلٍ : مَن سيّدُ قومك ؟ فقالَ : أنا ، فقال له : لوكنتَ كذلك لم تقُلْهُ ...! ومن طُرفِهم فى ذلك مارُوى عن بعض الشعراء أنه سُئلَ : كيف أصبحتَ ؟ فقال : أصبَحْتُ والله أظرفَ الناس وأشعرَ الناس وآدَبَ الناس ، فقال السائل: أسكت حتى يقول الناس ذلك ، فقال : أنا مُنْذ ثلاثين سنة أنتظر أن يقولَ الناس وليسُوا يقولون... ومدَحَ أعرابىٌّ نفسَه فعُوتِب فى ذلك، فقال : أأكِلُهُ إليكم ! إذن والله لاتقولوا أبدا ...

عذر من يُضطرّ إلى مدح نفسه

قال ابن الرومى فى ذلك :

وعَزيزٌ علىَّ مَدْحى لنَفْسى   غيرَ أنّى جُشّمْتُه لِلدَّلالَهْ
وهْوَ عيْبٌ يكادُ يسْقُطُ فيه   كلُّ حُرٍّ يُريدُ يُظْهِرُ حالَهْ

ووُصفَ لأبى جعفر المنصور بعضُ الأفاضل ، فأمر بإشخاصِه إليه ؛ فلما دخل قال له : أعالِمٌ أنت ؟ فقال : أكرَهُ أن أقول : نعَمْ ، وفيه مافيه ، أو أقول : لا ، فأكون جاهلا . فأُعجِبَ المنصور بجوابِه وألْزَمَه المهدىَّ

نهيهم عن المدح قبل الاختبار

قالوا : لاتَهرِف قبلَ أن تعرِف «أى لاتمدح قبل التجربة» وأصل الهَرْف : الهذيان قال الأزهرى : الهَرْف : شِبْه الهذيان من الإعجاب بالشىء يقال : هو يهرف بفلانٍ نهارَه كلَّه هَرْفا ، وقالوا : لاتَحمَدَنَّ أمَةً عامَ شِرائِها ، ولا حُرَّةً قبل بنائها « قبل الدخول بها » ... وقال رجل لعمر رضى الله عنه : إنّ فلانًا رجلُ صِدْقٍ ، فقال : هل سافرْتَ معه ، أو ائْتَمَنْتَه ؟ قال : لا ، فقال : إذَن لاتمدَحْهُ ، فلا عِلْمَ لك به ، لعلَّكَ رأيتَه يرفَعُ رأسَه ويخفِضُه فى المسجد !

خِتام الباب

عبقريات شتى فى الشكر

قال أبو ذَرّ : قلتُ للنبىِّ صلى الله عليه وسلم : الرجل يَعْمَل العملَ ويُحِبُّه الناس ؟ قال : تِلك عاجِلُ بُشْرَى المؤمن ... وقال صلوات الله عليه : إذا أردْتُم أن تعْلَموا ماللعبد عند الله فانظروا ماذا يتْبَعُه من الثناء ...

وقال شاعر :

عُثمانُ يَعْلمُ أنّ الحمدَ ذُو ثمنٍ لـكنه يَشْتَهِى حَمْداً بمجّانِ
والناسُ أكْيَسُ من أنْ يحْمَدوا رَجُلًا حتى يَرَوا قَبْلَه آثارَ إحْسانِ

وقال معاوية بن أبى سفيان يُعاتِب قُريشا :

إذا أنا أعْطيْتُ القليلَ شَكوْتُمُ وإن أنا أعْطيتُ الكثيرَ فلا شُكْرُ
وما لُمْتُ نفسى فى قضاءِ حُقوقِكم وقد كان لى فيما اعْتذَرْتُ به عُذْرُ
وأمْنحُكمْ مالى وتُكْفَرُ نِعْمَتى وتَشْتِمُ عِرْضِى فى مَجالِسِها فِهْرُ (١)
إذا العُذْرُ لم يُقْبَلْ ولم يَنْفَعِ الأَسَى وضاقَتْ قلوبٌ منهمُ حَشْوُها الغِمْرُ (٢)
فكيف أُداوى داءَكم ودَواؤُكم يزيدُكم غَيًّا ! فقد عَظُمَ الأمْرُ (٣)
سأُحْرِمُكمْ حتى يَذِلَّ صِعابُكم وأَبْلَغُ شىءٍ فى صلاحِكمُ الفقرُ (٤)

وقال ابنُ الرومى :

كَمْ مِنْ يَدٍ بَيْضاءَ قدْ أسْدَيْتَها تَثْنِى إليْكَ عِنانَ كُلِّ وِدادِ
شَكَرَ الإلهُ صَنائِعاً أوْلَيْتَها سَلَكَتْ مع الأرواح فى الأجسادِ

وقال الشريف الرضى :

أَلْبَسْتَنِى نِعَمًا على نِعَمٍ وَرَفَعْتَ لى عَلَماً على عَلَمِ
وعَلَوْتَ بى حتَّى مَشَيْتُ على بُسُطٍ مِنَ الأعْناقِ والقِمَمِ
فلأَشْكُرَنَّ يَدَيْكَ ماشَكَرَتْ خُضْرُ الرِّياضِ مَصانِعَ الدِّيَمِ

---

(١) فهر : هو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ثم سمى به القبيلة وقريش كلهم ينسبون إليه (٢) الأسى: العلاج والدواء والإصلاح والعدل ، والغمر : الحقد (٣) الغى : الضلال (٤) يذل : ينقاد

فالحمدُ يُبقِي ذِكْرَ كُلِّ فتًى ويُبِينُ قَدْرَ مَوَاقِعِ الكَرَمِ
والشُّكْرُ مَهْرٌ لِلصَّنِيعَةِ إنْ طُلِبَتْ مُهُورُ عَقائِلِ النِّعَمِ

« القمم جمع قِمّة : أعلى الرأس وأعلى كل شىء ، والديم جمع ديمة : المطر الذى ليس فيه رعد ولا برق يدوم ثلث نهار أو ثلث ليل فأكثر ، والصنيعة : ما أسديت من معروف ، والعقائل : كرائم الأموال ، وقال رجل لبعض ذوى السلطان : المواجهَةُ بالشكر ضَرْبٌ من الملق ، منسوبٌ من عُرف به إلى التَّخَلُّقِ ، وأنت تمنعنى من ذلك ، وترفع الحال بيننا عنه ، ولذلك تَرَكْتُ لِقَاءَكَ به ، غيرَ أنى مِن الاعترافِ بمعروفك، ونَشْرِ ماتَطْوِى منه ، والإشادة بذكره عند إخوانك ، والانتساب إلى التقصير مع الإطناب فى وصفه ، على ما أرجو أن أكون قد بلغتُ به حالَ المُحْتمل للصَّنيعة الناهِض بحق النِّعْمَةِ . وقال أبو يعقوب الخُرَيمىُّ :

زاد معروفُك عِنْدِي عِظَمًا أَنَّهُ عِنْدَكَ مَحْقُورٌ صَغِيرُ
تتناساهُ كأنْ لمْ تأتِهِ وهو عند الناس مَشهورٌ كبيرُ

وقال بعضهم : لا تثق بِشُكْرِ من تُعْطِيه حتى تَمْنَعَهُ ، فإن الصابر هو الشاكرُ ، والجازع هو الكافر ... وقال الشاعر :

إذا أنا لم أشْكُرْ على الخَيْرِ أهْلَهُ ولمْ أذْمُمِ الجِبْسَ اللَّئِيمَ المُذَمَّمَا[1]
فَفِيمَ عرفْتُ الخَيْرَ والشَّرَّ باسْمِهِ وشَقَّ لىَ اللهُ المَسامِعَ والفَمَا

وقال ابنُ التَّوْءَمِ[2] : كلُّ من كان ، جودُه يرجِعُ إليه ، ولولا رُجوعُه إليه لما جاد عليك ، ولو تهيّأ له ذلك المغنَى فى سواك لما قصد إليك ، فليس يجبُ له عليك شُكْرٌ ، وإنما يوصف بالجود فى الحقيقة ويُشكر على

(١) الجبس : النذل الدنىء (٢) هو عقبة بن التوءم من رجال الحديث

النَّفع فى حُجَّة العَقْل ، الذى إن جاد عليك فلكَ جاد ، ونفعَك أراد ، من غير أن يرجعَ إليه جودُهُ بشىءٍ من النفْع على جهةٍ من الجهات ، وهو الله وحده لاشريك له ، فإن شكَرْنا الناسَ على بعضِ ماجرى لنا على أيديهم ، فلأَمْرَين : أحدُهما التَّعَبُّدُ ، وقد أمر اللهُ تعالى بتَعْظِيم الوالدين وإن كانا شيْطانَيْنِ ، وتعْظِيمِ من هو أسَنُّ مِنَّا وإن كُنَّا أفضَلَ منه . والآخرُ : لأنّ النفس مِا لا تُحَصِّلُ الأُمورَ وتُمَيِّزُ المعانى ، فالسابق إليها حُبُّ مَن جرى لها على يديْهِ الْخَيْرُ وإن كان لم يُرِدْها ولم يقصد إليها . ألا ترى أن عطيّةَ الرجل صاحبَهُ لاتخلو أن تكون لله أو لغَيْرِ الله ، فإن كانت لله فثوابه على الله ، وكيفَ يجبُ فى حُجَّةِ العقْلِ شكرُه وهو لوصادفَ ابنَ سَبيل غيرى لما أعْطانى ، وإما أن يكون إعطاؤُه إيایَ للذِّكْر ، فإن كان كذلك فإنما جعلنى سُلَّما إلى حاجته وسبباً إلى بُغْيَتِهِ ، أو يكون إعطاؤه إياى طلباً للمُكافأةِ فإنما ذلك تجارةٌ ، أو يكون إعطاؤه لخوفِ يدى أولسانى أو اجْترار معونتى ونصرتى ، وسبيل هذا معروف ، أو يكون إعطاؤه للرَّحْمَةِ والرِّقَّةِ ولما يجدُ فى فؤاده من الْعَصْرِ والألم ، فإنما دَاوَى بتِلْك العطية مِن دائِه ، ورفّهَ من خناقه ... وقال بشارُ بنُ بُرد :

أُثْنِي عليك ولى حالٌ تُكَذِّبُنى ... فيما أقول فأَسْتَحْيي من الناسِ
قدقلتُ إنّ أباحَفْصٍ لأكرمُ مَنْ ... يَمْشِى فخاصمنى فى ذاك إفلاسى

وكانت السيدة عائشة رضى الله عنها كثيرا مّا تتمثَّلُ بقول الشاعر :

يَجْزِيك أو يُثْنى عليك وإنّ من ... أثْنى عليك بما فعلت كمَنْ جزى

وقالوا : خمسةُ أشياءَ ضائعةٌ : سِرَاجٌ يُوقَدُ فى شَمْسٍ ، ومَطَرٌ جَودٌ فى سَبِخَةٍ ، وحسْناءُ تُزَفُّ إلى عِنِّينٍ ، وطعامٌ اسْتُجِيدَ وقُدِّمَ إلى سكْرانَ ، ومعروفٌ صُنِعَ إلى من لا شُكْر له ...

البـــاب الثالث

فى الصبر وعبقرياتهم فيه ، وفى الدنيا وأكدارها ، وفى هادم اللذات

ماذا يُراد بالصبر فى هذا الباب ؟

قال علماءُ اللغة : الصبرُ : نقيض الجزَع ، أو حبْسُ النفس عند الجزع ، يقال : صبرَ فلانٌ عند المصيبة يَصْبِرُ صَبْراً ، وصبرْتهُ أنا : حبَسْتُه ، والتَّصبُّرُ : تكلُّفُ الصبْر . قال عمر رضى الله عنه : أفضلُ الصبرِ : التَّصَبُّرُ ... وقال الراغب الأصفهانى فى الذريعة : الصبرُ ضربانِ : جِسْمِىٌّ ونفْسِىٌّ ، فالجِسْمِىُّ : هو تحمُّل المشاقِّ بقدر القوة البدنية ، وأكثرُها لذوى الجسوم الخَشِنَة ، وليس ذلك لفضيلة تامَّة ، وذلك فى الفعل كالمشى ورَفع الحجر ، وفى الانفعال كالصبر على المرض ، والنفسِىُّ - وبه تَتعلَّقُ الفضيلة - ضربان : صبرٌ عن تناول مُشْتَهًى ، ويقال له : العِفَّة ؛ وصبر على تحمل مكروه أو مَحْبُوب ، وهذا تختلف أسماؤه بحسب اختلاف مواقعِه ، فإذا كان فى نزول مُصيبَةٍ فإنه مما استَبَدَّ به اسم الصبر ، وضده الجزع والهلع والحزن ، وإن كان فى احتمال غِنًى فقد سُمِّى ضبط النفس ويُضادُّه الدَّقَع والبَطَر ،[1] وإن كان فى محاربة سُمِّى شجاعة ويضادُّه : الجبن ، وإن كان فى إمساك النفس عن قضاء وطر الغضب سمى حِلْماً ، ويضادُّه : التذمُّر[2] ، وإن كان فى نائبةٍ مُضْجِرَةٍ سُمِّى سَعة الصدر ؛ ويضادُّه ضيق الصدر والضجر والتبرُّم ، وإن كان فى إمساك كلامٍ

---

(١) الدقع : الرضا بالدون من المعيشة وسوء احتمال الفقر ، والبطر : الطغيان فى النعمة

(٢) التذمر : التغضب ومنه : فلان حامى الذمار وهو كل ما يلزمك حفظه وحياطته . وحمايته وما يجب على أهله التذمر له والغضب من أن ينال منه

فى الضمير سُمِّى كتمان سرّ ، ويضادُّه : الإفشاء ، وإن كان فى الإمساك عن فضولات العيش سمى قناعة وزهداً ، وهذا يضادُّه : الحِرص والشَّرَه...

«وبعد» فها أنت ذا ترى مما أوردنا عليك من كلام الراغب : أن الصبر ألوانٌ ، ومن أخص ألوانه : الصبر على المصائب ، ذلك الذى يضادُّه الجزع وهذا اللون هو الذى سوف نتصدَّى له فى هذا الباب ، أمَّا سائر الألوان فإن لكل منها باباً لقد عقدناه فيما يلى هذا الباب من الأبواب.

عبقرياتهم فى الصبر

قال الراغب فى فصل عنوانه «مداواة الغم وإزالة الخوف» مع شيء من التصرُّف : خليقٌ بالإنسان أن يعلم أن الدنيا جَمَّةُ المصائِب رَنِقَةُ المشارب تُثْمِرُ لِلْبَرِيَّةِ أَضْعَافَ الْبَلِيَّةِ(١) ، فيها مع كلِّ لُقْمَةٍ غُصَّة(٢) ، ومع كلِّ جُرْعَةٍ شَرْقَة(٣) ، فهى عَدُوَّةٌ ومَحْبُوبَةٌ كما قال أبو نواس :

إذا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لبِيبٌ تَكَشَّفَتْ ... لَهُ عن عَدُوٍّ فى ثِيَابِ صَدِيقِ

وكما رُوِىَ عن الحسن البَصْرِىُّ أنه قال : مامثلُنا مع الدنيا إلا كما قال كُثَيِّرٌ :

أَسيئِى بِنَا أَوْ أَحْسِنِى لاَمَلُومَةٌ ... لَدَيْنا وَلاَمَقْلِيَّةٌ إنْ تَقَلَّتِ(٤)

---

(١) البرية : الخلق، وأضعاف البلية يريد البلية مضاعفة والبلية : المحنة

(٢) الغصة : الشجى ـ ماينشب فى الحلق من عظم وغيره

(٣) الجرعة من الماء : حسوة منه، والشرقة : الغصة ولكنه بالماء والريق ونحوهما قال عدىُّ بنُ زيد :

لَوْ بِغَيْرِ المَاءِ حَلْقِى شَرِقٌ ... كُنْتُ كالغَصَّانِ بالماءِ اعْتِصارِى

(٤) مقلية : مكروهة، وتقلت بحذف احدى التاءين وتقلى الشيء : تبغض. خاطب كثير ثم غايب

فما أحدٌ فيها إلا وهو فى كلِّ حالاته غَرض لِسِهامها :

تُناضِلهُ الآفاتُ مِنْ كلِّ جانب فتُخطِئُهُ يوماً ويوما تصيبُهُ (١)

وقال بعض الحكماء : أسباب الحزن فقـدُ محبُوبٍ أو فوتُ مطلوب ، ولا يَسلَمُ منهما إنسان ، لأنَّ الثبات والدوامَ معدومان فى عالم الكوْن والفسادِ فمَن أحبَّ أن يعيش هو وأهلهُ وأحبابُه سالِمين فهُوَ غيرُ عاقل ، لأنه يريدُ أن يَملِكَ ما لا يُملَكُ، ويُوجَدَ له ما لا يُوجَد ، فحَقِيقٌ بالمرء أن لا يُخلِيَ قلبه من الاعتبار بما يَرَى ، من ارتجاع لودائعها من أربابها ، وحلول لنوائبها بأصحابها .

ثم مِن حقِّه أن يقلِّل من اقتناءِ ما يُورِثُه الحزن ، فقد قيل لحكيم : لِمَ لا تغتمُّ ؟ فقال : لأنى لم أقتنِ ما يَغُمُّنى فقْدُه ، أخذه الشاعر فقال :

فمَنْ سَرَّهُ أن لا يَرَى مايسوؤُه فلا يَتَّخِذْ شيئا يَخاف له فَقْدا

وقيل لحكيم : هل للإنسان أن يعيش آمنا ؟ قال : نعم ، إذا احترس من الخطيئة ، وقنِع بحلالِه ، ولم يحزن لما هو واقع به لامحالة . واعلم أنَّ الجزع على مافات لا يلُمُّ ماتشعَّثَ ولا يُبرِمُ ما انتكث ؛ فأما غمُّه على المستقبل فلا يخلو من ثلاثة أوجهٍ : إمَّا فى شيء ممتنِعٍ كونُه ، أو واجبٍ كونُه ، أو ممكن ، فإن كان على ماهو ممتنع كونُه فليس ذلك من شأن العقلاء ، وكذلك إذا كان من قبيل الواجب كونه ، كالموت الذى هو حتمٌ فى رقاب العباد ، وإن كان ممكنا كونه فإن كان من الممكن الذى لاسبيل إلى دفعِه كإمكان الموت قبل الهرَم فالحزن له جهل ، واستجلابُ غمٍّ ، وإن كان من الممكن الذى يصحُّ دفعُه فالوجه أن يحتال إلى دفعِه بفعلٍ غـير مشوبٍ بحزن ، فإنْ دفعَه وإلا

(١) ناضله مناضلة فنضله : باراه فى الرمى نغلبه

تلقّاه بصبرٍ، وليتحقق قوله عز وجل: ما أصاب مِن مُصيبةٍ فى الأرض ولا فى أنفسِكم، فمن عَلِمَ أنَّ ما جرى فى حكمِه وسبَق فى عِلمِه لاسبيل إلى أن لا يكون، هانت عليه النُّوَبُ، واعلم أن الذى يَغُرُّ النّاسَ هو حسنُ ظنِّهم باغترارِ الآفات، واغترارُهم حالة بعد حالة بصَفاء الأوقات، ولو تأمّلوها لتحقّقوا أنها كما قال علىٌّ رضى الله تعالى عنه: ماقال الناس لقومٍ طوبَى لكم إلا وقد خبأَ الدهرُ لهم يومَ سوءٍ:

إنَّ الليالِيَ لم تُحسِنْ إلى أحدٍ ... إلا أساءتْ إليه بعدَ إحسانِ

انتهى كلام الراغب، ومن أبدع ماقيل فى الصبر والجزع قول ابن الرومى:

أرَى الصبرَ محمودًا وعنه مذاهِبٌ ... فكيف إذا لم يَكُنْ عنه مذهَبُ (١)

هُناكَ يَحِقُّ الصبرُ والصبرُ وَاجِبٌ ... وما كان منه كالضَّرورةِ أوْجَبُ (٢)

فشَدَّ امْرُؤٌ بالصبرِ كَفًّا فإنه ... له عِصْمَةٌ أسبابُها لا تَقَضَّبُ (٣)

هو المَهْرَبُ المُنْجِي لمَنْ أحدقَتْ به ... مَكارِهُ دهرٍ ليس منهنّ مَهرَبُ (٤)

أُعَدُّ خِلالًا فيه ليس لِعاقِلٍ ... من النّاسِ ـ إنْ أُنصِفْنَ ـ عنهنّ مَرْغَبُ (٥)

لَبُوسُ جَمالٍ، جُنّةٌ من شَماتةٍ ... شِفاءُ أسًى يُثْنَى به ويُثَوَّبُ (٦)

(١و٢) يقول: إن صبر الإنسان على ماينالهُ من مكروه أو عما يريد نيله من محبوب: محمود، ولو أنه يجد طرقا كثيرة يتخلص بها من المكاره أو يحصل بها على الرغائب، فكيف إذا لم يجد وسيلة إلى إزالة المكروه أو إدراك المرغوب؟ لا شك أن الصبر إذن واجب وما كان منه أشبه بالضرورة أعظم وجوبا

(٣و٤) فشدّ امرؤ بالصبر كفا يقول: خليق بالمرء أن يستظهر بالصبر على تحمل المكاره، اذ أن الصبر عصمة وثيقة لاتنقطع حبالها فنعم الملجأ هو لمن أحاطت به نوائب الدهر التى لامحيص عنها

(٥و٦) يقول: إن فى الصبر خلالا لايليق بعاقل أن يتركها إذا كان هناك إنصاف

فياعَجبًا للشيءِ هـذى خِلالُه وتاركُ مافيه من الحظ أعْجَبُ
وقد يَتَظَنَّى الناسُ أنَّ أساهُمُ وصبرَهُمُ فيهم طِباعٌ مُركَّبُ [1]
وأنهما ليسا كشيءٍ مُصرَّف يُصرِّفُه ذو نكبةٍ حين يُنكَبُ
فإن شاء أن يأسَى أطاع له الأسَى وإنْ شاء صبرا جاءه الصبرُ يُجْلَبُ
ولكِنْ ضروريان كالشيء يُبتَلى به المرء مغلوبا وكالشيءِ يذْهبُ
ولَيْسا كما ظَنُّوهُمَا ، بل كِلاهُما لكُلِّ لبيبٍ مُسْتطاعٌ مُسبَّبُ [2]
يُصَرِّفُه المُختارُ مِنَّا ، فَتارةً يُرادُ فيأتى أوْ يُذادُ فيَذهَبُ [3]

ومعدلة، وهـذه الخلال هى : أن الصبر لبوس جمال ، أى أنه زينة وحلية جميلة ، وأنه جنة من شماتة، أى وقاية من فرح الأعداء بما يصاب به المرء :

وتجلُّدِى للشامتين أُرِيهِمُ أنى لرَيب الدهر لاأتضَعْضَعُ

وأنه شفاء أسى ، أى مذهب للحزن ، وأنه يثنى به ، أى أنه مدرجة للحصول على الثناء ، وأنه يثوب ، أى يجازى عليه

(١) يتظنى أصلها : يتظنن ، أى يُعملون الظن ، أى يذهبون مع ظنهم ، والأسى : الحزن ، وطباع : أى طبع ، يقول : وقد يظن الناس أن الحزن والصبر طبع ، لاحيلة لمن طبعه الحزن فى أن يصبر ، ولا لمن طبعه الصبر أن يحزن ، ثم قال فى البيت التالى : وأن كلا الحزن والصبر ليسا من الأشياء التى يمكن تحويلها من حال إلى حال حتى يحولها المنكوب المصاب فإذا أراد الحزن أطاعه الحزن وإن أراد الصبر والتجلد جلبا اليه ـ وهـذا معنى قوله فإن شاء ... البيت ، ثم قال : ولكن يظن الناس أن كلا من الأسى والصبر ضروريان كأن الحزن شىء يملك على الإنسان أمره لا حيلة له فى التخلى عنه وكذلك الصبر ترى الإنسان يصبر كما لو ضاع منه شىء لا بد أن يتحمل فقده أى يصبر على ضياعه ثم فند هذا بقوله : وليسا كما ظنوهما ... الأبيات

(٢) يقول : وليس الحزن والصبر كما يظنهما الناس وإنماهما مما يقدر عليه ومن المستطاع التصرف فيهما والتسبب لتحويل كلٍّ منهما وتركه إلى الآخر

(٣) المختار : ذو الإرادة ، ويذاد : يدفع ويبعد

إذا احْتَجَّ مُحْتَجٌّ على النَّفْسِ لم تَكَدْ ... على قَدَرٍ يُمْنَى لها تَتَعَتَّبُ (١)

وساعدَها الصَّبْرُ الجميلُ فأَقبلَتْ ... إليهِ له طَوْعاً جنائِبُ تُجْنَبُ (٢)

وإنْ هو مَنَّاها الأباطِيلَ لم تَزَلْ ... تُقاتِلُ بالعَتْبِ القضاءَ وتُغْلَبُ (٣)

فتُضحِي جَزوعاً إنْ أصابَتْ مُصيبةٌ ... وتُمسِي هَلوعاً إنْ تَعذَّرَ مَطْلَبُ (٤)

فلا يَعذِرَنَّ التارِكُ الصَّبْرَ نفسَه ... بأنْ قِيلَ: إنَّ الصبْرَ لا يُتكَسَّبُ (٥)

وقال الأصمعيُّ: أحسنُ ما قيل في الصبر مع الشرح قول أبي ذُؤيب الهذلي:

وتَجَلُّدِي للشامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنّي لِرَيْبِ الدَّهر لا أتضَعْضَعُ

حتى كأني للحوادِثِ مَرْوَةٌ ... بِصَفَا المُشَقَّرِ كلَّ يوْمٍ تُقْرَعُ

«لا أتضعضع: لا أذلُّ ولا أخضع، وريب الدهر: صَرفُه، والمروَة واحدة المَرْو وهي: حجارة بيض براقة يقدح منها النار: ومروَة المَسْعَى التي تذكر مع الصفا في الحج ـ وهي أحد رأسيه اللّذين ينتهي السعي إليهما ـ سميت بذلك، وبصفا

---

(١) يمنى: يقدر يقول: إذا أقمت للنفس الدليل على أن الصبر اختياري مكتسب ثم ألمت بها المصائب فإنها تقتنع ولا تعتب على القضاء والقدر

(٢) الجنائب جمع جنيب وهو الفرس يجنب إلى الفرس حتى إذا فتر المركوب ركب المجنوب، وله متعلق بجنائب أي جنائب للصبر، يقول: متى اطمأنت النفس إلى الدليل على أن الصبر مكتسب وتركت عتاب القدر ساعدها على تحمل مصائبها صبر جميل يواتيها مسعفا

(٣) يقول: أما إذا تركت النفس تذهب مع الأوهام والأباطيل فإنها لا تزال في عتب على القضاء والقدر مما أصابها ولا تزال تعتب عبثا وبلا فائدة حتى تقهر وتغلب

(٤) الهلوع: الجزوع جزعا شديدا يقول: فيشتد جزعها إذا أصابتها مصيبة ويشتد أكثر إذا فاتها مطلب من مطالبها

(٥) يقول: لا عذر لمن يترك الصبر اغترارا بقول القائل: إن الصبر طبع غير مكتسب إذ ظهر أن هذا القول باطل وأن الحق أن الصبر اكتسابي

المَشَقَّر يروى : بِصَفا المشَرَّق ، أما المشقَّر فهو : موضع أو حصن بالبحرين قديم بناه كسرى ، والمشرّق فهو : جبل بِسُوق الطائف ، والصفا : جمع صفاة : صخرة مَلْساء وبه سمى أحد جبلى المسعى ؛ وهذان البيتان من قصيدة أبى ذؤيب [١] التى يَرْثِى بها بَنيه الخمسةَ وقد ماتوا فى عام واحد ، وأولها :

أمِنَ المَنُونِ ورَيبِه تتوجَّعُ   والدَّهرُ ليسَ بمُعتِبٍ مَن يَجزَعِ [٢]

قالت أُمامَةُ : مالِجِسْمِك شاحِبًا   مُنْذُ ابْتُليتَ ومِثلُ مالِكَ يَنفَعُ [٣]

أمْ مالجِسْمِكَ لا يُلائمُ مَضْجَعًا   إلا أقَضَّ عليكَ ذاكَ المَضْجَعُ [٤]

يروى أن عبد الله بن عباس رضى الله عنه استأذن على معاويةَ فى مرض موته لِيَعودَه ، فادَّهَن واكتحل ـ أى معاوية ـ وأمرَ أن يُقعَدَ ويُسنَدوقال : إئذَنوا له ، ولْيُسلِّم قائما ولينصرف ، فلما سلَّم عليه وولّى ، أنشد معاوية قول أبى ذؤيب : وتجلّدى للشامتين ... البيت ؛ فاجابه ابن عباس على الفور :

وإذا المنِيَّةُ أنشبَتْ أظفارَها   ألفَيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تَنْفَع

ثم ماخرج من داره حتى سَمِع نعيَّه ... وقال ضابئُ بن الحارث البُرْجُمِىُّ من أبيات قالها فى سجن عُثمانَ بنِ عفّان رضى الله عنه :

ورُبَّ أُمورٍ لا تَضيرُكَ ضَيْرَةً   وللقلبِ من مَخْشاتِهِنَّ وجيبُ

ولا خيرَ فى مَن لا يُوَطِّنُ نفسَه   على نائبات الدّهرِ حينَ تنُوبُ

---

(١) أبو ذؤيب الهذلى : شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم

(٢) المنون هنا : الدهر فلذلك ذكره ، ومن أراد به المنية أنثه ، معتب : مزيل عتبة ، أى مُرضٍ

(٣) ومثل مالك ينفع ، يقول : مالجسمك شاحبا ومثل مالك لا يكون معه هزال ولا شحوب لأنه واسع مبذول

(٤) إلا أقض عليك ذاك المضجع : أى تجده كأن فيه قضة وهى : الحصا الصغار

« قوله : لا نضيرك ضيرةً ، فالعرب تقول : ضارَهُ يضيرُه ضيراً وضَيْرَةً ـ المرَّة من الضير ـ ولا ضيرَ عليك ، وضرَّه يضُرُّه ولا ضرَرَ عليه ، والمخشاة : مصدر خشيَه يخشاه خشية ومخشاة ومخشِية : خافه ، وفى معنى هذا البيت يقول أبو العتاهية :

وقد يَهْلِكُ الإنسانُ من بابِ أَمْنِه ... ويَنْجو بإذنِ الله من حيثُ يَحْذَرُ

والأصل فى هذا قوله عز وجل : وعسَى أن تكرهوا شيئا ويجعلَ اللهُ فيه خيراً كثيرا ، وقوله : ولا خير فيمن لا يوطن نفسه... البيت : نظيره قول كُثَيِّر عزة :

أقول لها : ياعَزُّ ، كلُّ مُصيبة ... إذا وُطِّنَت يوماً لها النفسُ ذلَّت

قال عبد الملك : لو قال كثير هذا البيت فى صفة الحرب لكان أشعرَ الناس ، وفى الأثر : للمِحَنِ أوقاتٌ ولها غايات ، واجتهادالعبد فى محْنَتِه قبل إزالة الله لها ، زيادةفيها قال تعالى : إن أرادَنِيَ الله بِضُرٍّ هل هُنَّ كاشفات ضُرِّه أو أرادنى برحمةٍ هل هُنَّ مُمْسِكاتُ رحمته ، قلْ حسبِيَ الله عليه يتوكَّلُ المُتوكِّلون... وقالوا : المُمْتَحَنُ كالمُخْتَنِق كلما ازدادَ اضطراباً ازداد اختناقاً... وحُكِى عن بعض الصالحين : أن ابناً له مات فلم يُرَ به جَزَعٌ ، فقيل له فى ذلك فقال : هذا أمرٌ كنا نتوقعُه ، فلما وقع لم نُنْكِرْه... وقالوا : مَن أراد طولَ البقاء فليُوَطِّن نفسَه على المصائب ؛ وقالوا : المصيبة للصابر واحدة وللجازع اثنتان ، وقال أكثمُ بن صَيْفِيّ : حيلةُ مَن لا حيلةَ له : الصبر . وسيِّد الكلام فى الصبر قول المصطفى صلوات الله عليه : لوكان الصبرُ رجلا لكان رجلا كريما ، الكريم ضد اللئيم »

عود إلى أسباب الحزن

وقال الفيلسوف أبو يعقوب الكِنْدِيّ : أسباب الحزنِ : فَقْدُ محبوب ، أو فَوتُ مطلوب ، ولا يَسلمُ منهما إنسانٌ ، لأن الثَبَاتَ والدوامَ معدومان فى عالَم الكَوْنِ والفساد ؛ وقال الحسن البَصرى : الدنيا دارُ غُمومٍ ، فمن عُوجِلَ فُجِع بنفسه ، ومن أُجِّلَ فُجِع بأحبابه ؛ وقال بعض الفلاسفة : مَن أراد أنْ لا يُصابَ بمُصيبةٍ ، فقد أرادَ مالا يكون ، لأن المصائب فى عالم الكون والفساد طبع بالطبع ؛ فينبغى أن يكون منّا على بال : أن جميع الأشياء التى تَصِل إلينا كانت قَبْلَنا لغيرنا ، فانتقلت إلينا على شريطةِ ما كان لمن قَبْلنا ... وقيل لسُقراطَ : مالكَ لاتجزعُ ؟ قال : لأنى لاأقتنى مايُحْزِنُنى فَقْدُه ... وقال ابن الرومى فى هذا المعنى :

ومَن سَرَّه أنْ لا يَرى مايَسُوؤُه   فلا يَتَّخِذْ شيئًا يَخاف له فَقدَا

أقول : يريدون بذلك : أنه لابُدَّ فى هذه الدنيا من المصائب مادام ، هناك قُنْيةٌ من مال وولد وما إليهما من كل ماهو مُسْتهدَفٌ لسهام الأيام ، ومن أراد أن لا يصابَ فلا يَقتنى مايسوؤه فقدُه - والقِنْيَةُ لابُدَّ منها فى هذه الحياة الدنيا ، وإذَن لابد من توطين النفس وإعدادِها لتَلَقّى المصائب ... وإذا كان هناك مَن يترامى بمثل هذا الكلام إلى الحثِّ على الزهد ، فهذا مَرْمًى آخرُ ، منهم مَن يفزعُ إليه لمثل هذا الغرضِ - تَوَقّى المصائب ماأمكن - ولأغراض أخرى تراها بعدُ ... وقالوا : الجزَعُ مَنْقَصةٌ للحياة ، ومن أعان على نُقْصانِ حياته ، فقد عظُمت خطيئتُه ... وقالوا : التأسف على الفائت تضييع وقتٍ ثانٍ ، إن كنتَ جازعًا لِمَا أفلَتَ منك فاجزَعْ على مالم يَصِلْ إليك ؛ وقال

عليّ كرّم الله وجهه : الصبر مَطِيّةٌ لاتكبُو ، والقَناعةُ سيفٌ لا ينبُو . وقال عمر رضى الله عنه : لوكان الصبرُ والشكرُ بَعيرَيْنِ مابالَيتُ أيَّهُما رَكِبت ؛ وقيل : الصبر يُناضِلُ الحدَثان ، والجزع من أعوانِ الزمان ، وما فى الشكوى إلا أن تُحْزِنَ صديقَك وتُشمِتَ عدُوَّك ؛ وقيل : اجْعَلْ صبرَك على النوائب كِفاءَ شُكرك على المواهب ، الصبرُ عند النِقَم ، والشكر عند النِعَم ، وقال حكيم : جميعُ مَكارِه الدنيا تنقسم قسمين ، ضربٌ فيه حيلةٌ ، فالاضطرابُ [١] دواؤه ، وضرب لاحيلةَ فيه ، فالصبر شِفاؤه ، وقالت الفُرْس : كلمتان يقولهما العاقِلُ عند نائبته : إحداهما : هذه الحال خيرٌ مما هو شرٌّ منها ، والأخرى : لعلَّ الله أن يجعَل فى هذا المكروه خيرا ! وكلمتان يقولهما الجاهل : لعلَّ ماأصابنى يدعو إلى شرٍّ منه ! والأخرى : لوكان بَدَلَ كذا كذا من المصيبة ! وقالوا : الصبر على مرارة العاجل ، يُفضِى إلى حَلاوةِ الآجل ، إنك لاتَنالُ قليل ماتُحِب إلا بالصبر على كثير ماتَكره ، وقالوا : لكل شىء ثمرَة ، وثمرة الصَبر الظَفَر ، والصبر كاسْمِه ، وعاقبتُه العسل ، . والصبرُ على المصيبة مُصيبةٌ على الشامت . وقال علىّ : إن صبَرْتَ فأنت مأجور ، وإن جزِعْتَ جرَى عليك المقدور .

حثهم على تصوّر المصائب
والاستعداد لها كَىْ تَخِفَّ وطأتها

وقالوا فى ذلك : من كان مُتَوَقِّعا ، لم يُلْفَ مُتَوَجِّعا ، وقال بعضهم

(١) الاضطراب : يريد : الحركة والاحتيال فى دفعه

ـ قيل لابن الرومى، ولم أرها فى ديوانه، وإن كانت أشبهَ بمذهب ابن الرومى ـ :

أَلَمْ تَرَ رُزْءَ الدَّهْرِ مِنْ قَبْلِ كَوْنِهِ كِفاحًا إذا فكَّرْتَ فى الخلواتِ
فما لَكَ كالمَرْمِىِّ فى مأمَنٍ لهُ بِنَبْلٍ أَتَتْهُ غيرَ مُرْتَقَباتِ
فإنْ قُلْتَ مَكْرُوهٌ أتانى فُجاءةً فما فُوجِئَتْ نَفْسٌ مَعَ الخَطَراتِ
ولا عُوقِبَتْ نَفْسٌ بِبَلْوَى وقد رأَتْ عِظاتٍ من الأيام بَعدَ عِظاتِ
إذا بُعِثَتْ أشياءُ قد كان مِثْلُها قديمًا فلا تَعْتَدَّها بَغَتاتِ

وهذه الأبيات من الوضوح والإنارةِ بحيث لايعوزها شرح ، وقالوا : ما أمْتَعَ الدَّهْرُ إلا ليمنع ، ولا أعْطى إلا ليَسْتَرِدَّ ، ولولا اغترارُ الجاهل بعوائده ، لخَلَتِ النفوسُ من الحسرةِ على نوائبه ، وقالوا : لا تُخْلِ فِكْرَكَ مِن عوارِضِ الفِكر وخواطِرِ الذِّكر فيما تعروكَ به الأيامُ ، من ارتجاع ودائعها ، وحلول وقائعها ، ـ وهذا ما قاله ابن الرومى آنفا ،

الغمّ يورث السقَم والهرَم

قال المتنبي :

والهَمُّ يَخْتَرِمُ الجسيمَ نَحافَةً ويُشِيبُ ناصِيَةَ الصَّبي ويُهرِمِ

« يخترم : يستأصل ويقتطع ، والجسيم : العظيم الجسم ، والنحافة : الهزال ، والناصية : شعر مقدّم الرأس ، يقول : إن الحزن إذا استولى على المرء أذهب جسمَ العَظِيم الجسَد وهَزَلهُ حتى يأتى عليه من الُهزال ، ويشيب الصبيَّ قبل الأوان حتى يصير كالهَرِم من الضعف والعجز » ... وسئل عبد الله ابنُ عبّاس عن الحُزْن والغضب فقال : أصلاهما واحدٌ ، وذلك وقوعُ الأمر

على خلاف المحبّة ، فأما فرعاهما فمختلفان ، فالمكروهُ ممَّنْ فوقك ينتج حزنا وممَّنْ دونك يُنْتِجُ غضبا

* فحُزْنُ كلِّ أخِي حُزْنٍ أخو الغَضَبِ (١) *

الحزن يَبلَى بتقادم العهد

وقالوا فى الحزن يَبْلَى بعد انقضاء مُدّة : الْحُزْنُ يَنْضُو عن ابن آدم كما يَنْضُو الصِّبْغُ عن الثوب (٢) ولو بَقِيَ لقَتَلَه .

وقال المتنبي :

إذا اسْتَقْبَلَتْ نَفْسُ الكَرِيمِ مُصابَها بِخُبْثٍ ثَنَتْ فاسْتَدْبَرَتْهُ بِطِيبِ
وللواجِدِ المكروبِ من زَفَراتِهِ سُكونُ عَزاءٍ أو سُكونُ لُغُوبِ

« قوله : إذا استقبلت ... البيت ، فالمصاب مصدر بمعنى الإصابة ، والخبث هنا : الجزع ، والطيب هنا : الصبر وترك الجزع ، وثنت : صرفته ـ أى الجزعَ ـ النفسُ ، يقول : إذا جزع الكريم ـ ضد اللئيم ـ فى أول نزول المصيبة ، وراجع أمره ، عاد إلى الصبر والتسليم ، ومَن لم يُوَطِّنْ نفسه على المصيبة فى أول الأمر صَعُبَ عليه عند وقوعها . وقوله : وللواجد المكروب ... البيت

(١) للمتنبي فى مرثيته التى يرثى بها أخت سيف الدولة وأوله :

جَزاكَ رَبُّكَ بالأحْزانِ مَغْفِرَةً فحُزْنُ كلِّ أخي حُزْنٍ أخُو الغَضَبِ

يقول : غفر الله لك أحزانك إذ الحزن مما يستغفر منه ، لأن الحزن كالغضب ممن هو دونك اذا أصابك بما تكره والحزن ممن هو فوقك ، والإنسان إذا حزن على مصيبة تصيبه فكأنه يغضب على القدر حيث لم يجر بمراده ، والغضب على المقدور مما يستغفر منه

(٢) يقال : نضا الخضاب ونضوًّا : ذهب لونه ونصل

يقول : لابدّ للمحزونِ من سكون ، إما أنْ يَسْكُنَ عَزاءً ، أو يَسكُنَ إعياء ، وإذن لحقيق بالعاقل أن يَسكُن تَعزّيا ، كما قال محمود الوراق :

إذا أنْتَ لمْ تَسْلُ اصْطِباراً وحِسْبَةً   سلوتَ على الأيامِ مِثْلَ الْبَهائِمِ

وكما قال أبو تمّام :

أتصْبِرُ لِلْبَلْوَى عَزاءً وحِسْبَةً   فتُؤْجَرَ أمْ تَسْلوا سُلُوّ البهائِمِ

« الحسبة : طلب الأجر والثواب »

ومن أحسن ما قيل من الشعر القديم ، فى أن الحزن يبلى إذا تقادم عهده قول أبي خراش الهُذلى - شاعر مخضرم أسلم وهو شيخ كبير ، يوم حنين - :

على أنها تَعْفُو الكلومُ ، وإنما   نُوَكَّلُ بالأدنى وإنْ جلّ ما يَمْضِى

وقبل هذا البيت :

حَمِدْتُ إلَهى بَعد عُرْوَة إذْ نجا   خِرَاشٌ ، وبعضُ الشَّرِّ أهْوَنُ من بَعضِ

فوالله : ما أنْسَى قَتِيلا رُزِئتُهُ   بجانِبِ قُوسَى ما مَشَيْتُ على الأرْضِ

على أنها تعفو الكلام ... البيت

ولمْ أدرِ مَنْ ألْقَى عليه رداءَهُ   على أنه قد سُلَّ عن ماجد مَحْضِ

وكان من حديث هذا الشعر ، أنّ عُرْوَةَ بن مُرّة أخا أبى خِراش ، وخراشَ ابنَ أبى خراش ، اصطحبا فى مُتَصَرَّف لهما ؛ فأسرهما بطنان من ثُمالة : بنو رازم وبنو بلال - وكانا موتورَيْن - فاختلفوا فى الإبقاء عليهما وقتلهما ، فمال بنو بلال إلى قتلهما ، وتفاقم الأمرُ بينهما فى ذلك ، إلى أن صار يُؤَدِّى إلى المقاتلة ، فتفرَّد أولئك بعُرْوَةَ فقتلوه ، وتفرَّد هؤلاء بخراش فخلا به واحدٌ منْهُمْ ؛ مُنْتَهِزاً للفرصة فى الإسداء ، فقال له : كيف دليلاك؟ فقال : قطاةٌ ، فألقى عليه رِداءه وقال : انْجُهْ ، فمرَّ لِطِيَّتِه ، فلما انحرفوا للنظر

فى أمْرِه قال لهم مُمْسِكه ! إنه أفلتَ ، فطردوه ـ أى تَبِعُوا خراشا ـ فأعياهم ، فلما وصل خِراش إلى أبيه وخَبَّرَه بما جَرَى على عُرْوَة وبما اتفق من صاحبه فى بابه ، اقتصَّ قِصَّتَهُ فى هذه الأبيات ... وقوسى اسم مكان ، وقوله : على أنها تعفو الكلام ... البيت فإنّ هذا يجرى مَجْرَى الاعتذار منه والاستدراك على نفسه فيما أطلقه من قوله : « لا أنسى قتيلا رُزِئته ما مشيت على الأرض » أى مدة حياتى ؛ والضمير فى أنها : للقصة ، وخبر أنّ : الجملة بعدها ؛ والعفاء : الدروس والذهاب ؛ والكلوم جمع كلم ؛ ويعنى به : الحزّ عند ابتداء الفجيعة ، وجلّ : عَظُمَ ؛ يقول : لا أنساه ولو طال عهده وعفت آثاره ؛ وإنما قال هذا لأن الإنسان يُوَكَّلُ بالجزَع المصيبة القريبةِ العهد ؛ فأما المتقادم من الأرزاء فإنّ مُضِىَّ الزّمَن يُعْفيه . وقوله : ولم أدر ... البيت ؛ قال الأصمعى وأبو عبيدة لانعرفُ مَن مَدَح من لا يعرفه غير أبى خراش »

التأسى بمن مصابه كمصاب المصاب أو يُربى عليه

وقولهم فى عكس ذلك

أما قولهم فى عكس ذلك فأحسنُ ماقيل فيه قول ابن الرومى :

ليس تأسو كُلُومُ غيرى كُلُومى مابه مابه ومابِىَ مابى

« تأسو : تُداوى ، والكلوم : الجروح » وقبل هذا البيت ـ وهى أبيات يندُبُ بها الشباب ـ :

ياشبابى ! وأينَ مِنِّى شبابى ؟ آذنَتْنى حِبالُه بانقِضابِ

لهْفَ نفسى على نعيمى ولهْوى تحتَ أفنانِه اللِّدانِ الرِّطاب

ومُعَزٍّ عن الشبابِ مُؤَسٍّ بمَشيبِ اللِّدَاتِ والأتراب

قلت ـ لمّا انتحى يعدُّ أساهُ   من مُصابٍ شبابُه فُمصابِ :

ليس تأسو كلوم غيرى كلومى   ... ... ألبيت

وأما قولهم فى التأسى بمن مصيبته كمصاب المصاب أو تربى عليه فمن ذلك قول أفلاطون لرجل رآه مغمومًا : لوأحضرْتَ قلبكَ مافيه الناسُ من المصائب ، لقَلَّ همُّك ... « انظر مقالة الكاتب أديسون آخرَ هذاالباب »...

وقالت الخنساء :

ولولا كثرةُ الباكِين حولى   على إخوانِهم لقتَلْتُ نفسى

وما يَبْكُون مثلَ أخى ولكنْ   أُسَلِّى النفسَ عنهُ بالتأسِّى

وقال حُرَيث بن سَلمةَ بنِ مُرارة بن مُحَفِّص ، أحد بنى خزاعىّ بن مازن ـ شاعر جاهلى ـ :

ولولا الأُسَى ماعِشتُ فى الناس بعدَه   ولكن إذا ماشئتُ جاوَبَنى مِثلِى

« عروة بن الزبير »

« مثل أعلى للصبر والتأسى »

كان عُروةُ بن الزُّبير ، أحدُ الفقهاء السبعة بالمدينة ، وابنُ الزبير بن العوّام ـ أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وابنِ صفيَّةَ عمّةِ سيدنا رسول الله ـ وشقيقُ عبد الله بن الزبير ـ الذى وَلِى الخلافة فى الحجاز حينا من الدهر أزمانَ بنى أُميَّة والذى تولّى قتله الحجّاج ـ وأمُّ عروةَ أسماءُ بنت أبى بكر الصديق ـ وهى ذاتُ النِّطاقَين [1] ، وخالتُه عائشةُ أمُّ المؤمنين رضى الله عنها ، وكان عالمًا صالحا ،

(١) النطاق : شقة أو ثوب تلبسه المرأة ثم تشد وسطها بحبل ثم ترسل الأعلى على الأسفل إلى الركبة عند معاناة الأشغال لئلا تعثر فى ذيلها ، وكان لأسماء نطاقان تلبس

أقول : كان عروةُ هذا من قوة الإيمان والتسليم والرضا بالقَدَر خيرِه وشرّه ورجحانِ العقل ، بحيث يُعَدُّ مثلا أعلى للصبر والتسلّى ، وذلك أنه وفَدَ من المدينةِ على الوليد بن عبد الملك بِدِمَشْقَ - عاصمة الأمويين - وكان معه ابنه محمد - وكان من أجمل الناس ، فيقال : إن الوليد عانَه - أصابه بعينه - فدخل محمد دارَ الدّوابّ ، فضربتْه دابّةٌ فخرّ مَيّتًا ، ووقعت فى رِجلِ عروة الآكِلَة - داء فى العضو يأتكل منه - ولم يَدَع وِرْدَه تلك الليلة ، فقال له الوليد : اقطَعْها وإلا أفسدَت عليك جسدَك ، فلما دُعِىَ الجزار ليقْطَعَها قال له : نَسقِيك الخمرَ حتى لاتجد لذلك ألمًا ، فقال : لاأستعين بحرام الله على ماأرجو من عافية ، قالوا : نَسقِيك المُرْقِدَ « دواء يُرْقِد شاربَه كالأفيون » قال : ماأُحِبُّ أن أُسلَبَ عضوا من أعضائى وأنا لاأجد ألمَ ذلك فأحتسِبُه « أحتسبه : أطلب به الأجر » . ودخل عليه قومٌ أنكرَهم فقال : ماهؤلاء؟ قالوا : يُمسكونك فإن الألم رُبّما يعزُب معه الصبر « يعزب : يَبعُد » قال : أرجوأن أَكْفِيَكم ذلك من نفسى ، فقُطِعَت كَعْبُه بالسكين ، حتى إذا بلغ العَظْمَ وُضِع عليها المِنشار ، فقُطِعَتْ وهو يُهلِّل ويُكبِّر « يهلل : يقول : لاإله إلا الله ، ويكبر : يقول : الله أكبر » ثم إنه أُغْلِيَ له الزيت فى مَغارف الحديد ، فحُسِمَ به ، فغُشِى عليه ، فأفاق وهو يَمسَحُ العرَق عن وجهه ، ولمّا رأى القَدَمَ بأيديهم دعا بها فقلّبها

أحدهما وتحمل فى الآخر الزاد الى سيدنا رسول الله وأبى بكر وهما فى الغار ، فلذلك سميت ذات النطاقين ، وروت عائشة : أن النبى صلوات الله عليه لما خرج مع أبى بكر مهاجرين صنعنا لهما سفرة « طعام المسافر » فى جراب « وعاء من جلد » فقطعت أسماء بنت أبى بكر من نطاقها وأوكت به الجراب « شدته بالوكاء : الحبل الذى يشد الوعاء » فلذلك كانت تسمى ذات النطاقين

فى يده ، ثم قال : أمَا والذى حَملنى عليك ، إنه ليَعْلَمُ أنى مامشَيْتُ بكِ إلى حرامٍ ، ولما دخل ابنُه إصطَبْلَ الوليد بن عبد الملك وقتلتْه الدابّة كما تقدَّم لم يُسْمع فى ذلك منه شىء إلا قولَه « لقد لَقِينا من سفرنا هذا نَصَبا » ولمّا قُطِعَت رِجله قال : اللهم ، إنه كان لى أطرافٌ أربعة فأخذت واحدا وأبقيت لى ثلاثة ، فلك الحمد ، وأيمُ اللهِ ، لئن أخذت لقد أبقيت ، ولئن ابتَلَيْتَ لقد عافيت ... ولما مات ابنه وقُطعت رِجله ، وفَدَ فى هذه الأيام على الوليد قومٌ من بنى عبْس فيهم رجل ضرير ، فسأله الوليد عن عينيه ، فقال : ياأمير المؤمنين ، بتُّ ليلةً فى بطنِ وادٍ ولا أعلم عَبْسِيًّا يزيد ماله على مالى ، فطَرَقَنا سَيلٌ فذهب بما كان لى من أهْل وولد ومالٍ ، غيرَ بعير وصبيٍّ مولود ، وكان البعير صعباً ، فندَّ ، فوضعْتُ الصبىَّ واتَّبَعْتُ البعير فلم أجاوز إلا قليلا حتى سمعت صيْحَةَ ابنى ورأسُه فى فم الذئب وهو يأكله ، فلحقت البعير لأحبِسَه فنفَحَنى برجله « ضربه بحدِّ خُفِّيه » على وجْهِى ، فحطمه وذهب بعينَىَّ ؛ فأصْبَحْت لا مال لى ولا أهل ولا ولدَ ولا بصر ؛ فقال الوليد : انطلقوا به إلى عروة ليعلم أنَّ فى الناس من هو أعظم منه بلاء ...

وممن عَزّى عُروةَ : ابراهيم بن محمد بن طلحة قال له : والله ما بك حاجةٌ إلى المَشْى ولا أرَبٌ فى السّعْى ؛ وقد تقدمك عِضوٌ من أعضائك وابنٌ من أبنائك ؛ إلى الجنة ؛ والكُلُّ تبعٌ للبَعْضِ ؛ إن شاء الله تعالى ؛ وقد أبقى الله لنا منك ما كنا إليه فقراءَ ؛ وعنه غيرُ أغنياء ، مِن علمك ورأيك ؛ نفعك الله وإيانا به والله ولىٌّ ثوابك ؛ والضمينُ بحسابك ...

مطرح الهموم

وهذه كلمة طَريفة فى معنى ما نحن بصدده، كتبها الكاتب «أدِيسون» ونقلها المرحوم محمد السباعى إلى مجلة البيان التى كان يقوم بإخراجها مؤلف هذا الكتاب، قال أدِيسون :

مما يُؤثَرُ عن الحكيم سُقْرَاط أنه قال: إذا جُمِعَتْ مَصائب البشر كُلُّها فى وِعاءٍ، ثم قُسِمَتْ على جميع الناس بالسواء لأصبح من كان يحسَبُ نفسه أشقى الناس وأخسَرَهم يُفضِّل أولى الحالتين على الثانية، وجاء بعد سُقْراط الشاعرُ الرومانىُّ «هوراس» فعدّل هذا المعنى فقال : إنّ ما يُكابِدُ أحدنا من المصائب أخفُّ عليه من مصائب أىّ إنسانٍ آخر إذا وقع بين الرجُلَين تبادلٌ... فبينا أنا ذات يوم مُتَّكِئٌ فى خَلْوَتى أُفكِّرُ فى هاتَيْنِ الحِكْمَتَيْنِ وقد أخذتنى سِنَة من النوم إذْ خُيِّل إلىّ أنَّهُ بأمْرِ إلٰهِ الآلهةِ قد نودِىَ فى الناس: أن يحمِلَ كلُّ امْرِئٍ مصائِبَه فيأتوابها جميعاً فيَطْرَحوها بعضَها فوق بعضٍ، فى سَهْلٍ فسيح، فوقفت وَسْط ذلك السهل، وسرّنى أنْ أرى الناس طُرًّا يأتون واحداً بعد واحد يُلقون أثقالهم العَديدة، حتى ارتفع من مجموعها جبل طالَتْ[1] ذُؤابتُه السحاب .

وكان هنالك امرأةٌ نحيلة خفيفةٌ قد شَمَّرَتْ عن ساعدِ الجِدِّ وَسْط هذه

---

(١) سمت فوق السحاب قال :

إنّ الفرزدقَ صَخرةٌ عاديّة طالت ـ فليس تنالها ـ الأجبالا

فليس تنالها جملة معترضة والأجبالا مفعول طالت والتقدير : طالت الأجبالا فليس تنالها الأجبال .

الخلائق، تحمِل فى إحدى يديها مِجْهَراً، وعليها ثوبٌ نَضْفاضٌ هفهافٌ سابغُ الذَّيل مُوَشَّى بعدد عديد مِن تصاوير الجان والعفاريت، كلما ضربت الريح الجلبابَ تلوَّنَتْ وتشكَّلت تلك التهاوِيلُ أشكالا وألوانا؛ وكان فى عينها وَلَهٌ وتلهُّفٌ وحَيرَةٌ، وكان اسْمُها «الوهم» وهى التى كانت تسوقُ كلَّ فردٍ من البشر إلى المكان المعين بعد إعانتها إياه على ربط حُزْمَتِه وحَبْكِها وإلقائها على عاتقِه، فأذاب قلبى رُؤْيَةُ إخوَتى وأبناءِ أُمّى وأبى ينوؤنَ بأحمالهم. ويئِنُّون تحت أثقالهم؛ وفتَّتَ كَبِدِى أن أُبصِرَ ذلك الجبلَ البَاذِخَ الذى من أحزانهم تكوَّن، ومن آلامهم تألَّف، على أنَّهُ ألهانى عند ذلك، وسلَّانى هنالك: عِدَّةٌ من القوم، لغريب أحوالهم وعَجيب هيئاتِهم؛ فمِنْ بين هؤلاء رَجُلٌ فى حُلَّةٍ مُطَرَّزَةٍ أقبَل يسعى حتى جاء المكان، فأخرج من تحت حُلَّتِهِ الموَشَّاةِ المزركشَةِ حِمْلا، فألقاهُ فَحَدَّجت ببصرى أتبيَّنُهُ، فإذا هو: الفقْرُ؛ وأقبل آخرُ يَرْزَحُ تحت ثِقْلِه، وبعد كثيرٍ من التنفُّس والزفير ألقى حِمْلَه؛ فنظرتُ؛ فإذا هو؛ زَوْجَتُه؛ ورأيت عددا عديدا من العُشَّاق على كواهلهم أثقالٌ عجيبة من سهام وشُعَلٍ؛ ولكن أعْجَبُ من ذلك أنه برغْمِ ما رأيْتُهُ يكاد يُمَزِّق قلوبَهم من غُلَوَاءِ الوجْدِ وبُرَحاء الكمد؛ وبرغْمِ زَفْرَةٍ لهم تَرقَى؛ وعَبْرَةٍ لاتَرقا [1] كانوا لا يستطيعون مطاوَعةَ عقولهم على إلقاء تلك الأثقالِ عند ما بلغوا الكثيبَ؛ ولكنهم بعد قليل من المحاولة — محاولةِ المتثاقِلِ المُتَكرِّه — هزوا رُؤسهم ورَجَعُوا بأثقالهم أشَدَّ ثِقْلا وأفْدَحَ حِمْلا، وأبْصَرتُ كثيرا من العجائز يُلقِين تغاضِينَ وُجُوهِهِن

(١) أى: لاتغيض ولا تجف وأصل ترقا: ترقأ فخفف، وترقى الاولى: ترتفع

وكثيرا من الفَتَيات يُلقين سُمْرَ جُلودِهِنّ . ورأيت كُومًا [١] من أُنوفٍ حمراءَ وأسنانٍ قَلْحاء [٢] وشِفاهٍ فَلْحاء [٣] . والعَجَب العُجاب أنى رأيت معظم الجبل مؤلَّفاً من عاهاتٍ بدنية . وآفاتٍ جسَديَّة ، ثم لمحتُ من بعيد رجلا على ظهرِه حِمْلٌ لم أرَ فى سائر الأحمالِ ما يُدانيه عِظَمًا ، فأنعمْتُ النظرَ فإذا هى حَدَبَةٌ ، فألقاها ـ فرِحا بذلك ـ بين سائر البلايا الآدميـة . ورأيت كذلك عِلَلًا وأمراضا من كلِّ ضَربٍ وصِنفٍ ، غـير أنى رأيت الوَهْمىَّ من ذلك أكثرَ من الحقيـقىّ وشاهدتُ بين هذه نَوْعا قد أُلِّف من جميع الأمراض والعِلل يحمِـله فى الأكُفِّ عددٌ عظيمٌ من ذوِى النعمةِ والرَّفاهِيةِ ، واسمُ هـذا الداءِ : المَلَلُ ، وأعظمُ عَجبي وحَيْرَتى أنى لم أر أحـداً قطُّ ألْقى بين هذه الآفاتِ والمصائبِ شـيئا مما ابتُلِيتْ به نفوسُ البَشَر من الرذائل والحماقات والأضاليل والنقائص والسخافاتِ والأباطيل ، فأدهشنى ذلك أيَّما دَهَش ، إذ كنتُ قد ظننتُ أنها فرصةٌ لا يدَعُها أحد حتى يطهِّرَ نفسَـه من أدران الأهواءِ والشهوات . ويُخلِّص طبْعه من أكدار العيوب والعورات . ورأيت فى الجماعة رجلا فاسقا لم أشُكَّ فى أنه جاء مُثْقَلا بأوْزارِه وآثامِه : فلما أقبلتُ على مارماه أُفتِّشه ألفَيْتُ أنه لم يَرْمِ شـيئا من تلك الذنوبِ والآثام وإنما رَمَى ذاكرتَه ، وتبعه رجلٌ ساقطٌ جاهلٌ ، فنظرْتُه فإذا هو قد نبذَ حياءَه لا جَهْله ... ولمـا فرَغ الناس من طَرْح أثقالهم وفرغتِ الجِنّيَّةُ النحيلة الخفيفة [٤] من عَمَلِها ، وكانت قد رأت منِّى رجلا ينظرُ

---

(١) جمع كومة ، يقال : كوم كومة بالضم : إذا جمع قطعة من تراب ورفع رأسها ونظيره : الصبرة من الطعام

(٢) القلح : صفرة فى الأسنان (٣) فلحاء : مشقوقة

(٤) الوهم كما يذكر القارئ

ولا يَعمَلُ، دنَتْ منّى، فلم يَرُعْنى إلا رفعُها المِجْهَر إزاءَ عينى، وكنت أعرِف فى وجهِى القِصَر، فإذا هو قد تناهى قِصراً حتى عاد أبشعَ شىءٍ، فساءنى مَنْظَرُه، فألقيتُه كما يُلقَى القِناع. وكنت قبل ذلك ببُرْهةٍ أبصرْتُ رجلا رَمَى بوجهِه لفرْطِ طوله، وكان أطولَ وجهٍ حتى لَذَقْنُه وحدَها تطولُ[1] وجهى بأكمله؛ فاستراح من مصيبته واسترحتُ، واستراح الخلق طُرّا؛ وأُطلِق لكلِّ امرئٍ أن يستبدِلَ ببَلْواه مِحْنةَ غيره.

على أنه لم يبق فى الجمع إلا متعجِّبٌ من هـذه المِحَن كيف عدَّها أهلُها مِحَناً وكيف كان قد غُرَّ بها وخُدِع فيها، فحسِبَها نِعَما وفوائدَ! وبينا نحن نتأمّل خليطَ المصائب، ومزيج النوائب، صدر أمر الإلٰهِ الأكبر أن يستبدل كلُّ امرئ بمُصابِه ويَرْجِعَ إلى مثواه بحظِّه الجديد، عنـد ذلك تحركت «الوهْمُ» وقسَـمَتْ الـكَثيبَ فى أخفِّ نشاطٍ وأكمل سرعة، فأعطَتْ كُلاًّ نصيبَه، ـ وكأنى باليَرَاعِ يَعجِز أن يَنعَتَ ما حـدَث إذ ذاك من هَرْجٍ ومَرْجٍ[2]، ثم كانت أمورٌ كثيرةٌ أذكرُ الآن بعضَها:

رمَى شيْخٌ كبير على كثيبِ المصائب عـلّةً كانت فى بطنِه، وكان عاقرا، يتمنَّى ولداً يكون عمادَ شيخوختِه ووارِثَ ثروَتِه، فمدَّ يدَه ليَعتاضَ من دائِه الذى طرَحه فاختطف ولدا فاجرا عاقّا، كان آفةَ أبٍ له، وكان ذلك الأبُ قد نبـذَه فى النَّبائذ[3] يريد به بديلا، وقد أخذ بدلَه مرَضَ البطْنِ الذى رَمَى به الرجُلُ الأوّلُ. فلم تمضِ إلا برْهةٌ حتى رأيت ذلك الغلامَ قد ثارَ بالشيخ الـكبير فأخذ بلِحيتِه وناصـيتِه، وهَمَّ أن يَفلِقَ رأسه. فـما هو إلا أن أبْصَرَ الأبَ

(١) تزيد عليه طولا (٢) اختلاط (٣) المنبوذات، أى: الأشياء المنبوذة يعنى بها الآفات التى كان الناس يرمونها تخلصاً منها وليتقاضوا بدلها

الأصليّ، وكان يسْعَى نحوَه ممسكا بحَشاه من وَجَع المَعِدة حتى صاح به: يرحمُك الله وإيانا، خُذْ ولدَك بارك الله فيه وأعطِني عِلّتى، ولكن قُضىَ الأمر، وكان مالا يكونُ تبديله، ولا يُستطاع تحويله...

يا ابْنَ بُورَانَ لامَفرَّ مِنَ الله ه ولا مِنْ قضائِه المحتومِ

ورأيت أسيرا مُقَيَّدا خُلِع قَيْده، وقُلِع صفَدُه، فاعتاض منه النِقرِس(١) ولكن أبْدَى من التَّأَوّه والتأَفُّف والتلوِّى والتَّنزِّى ما دَلّ على أنه لم يكن فى تجارتِه تلك بالرابح الصَّفْقة.

ولقد كان من المُمْتِع اللّاذّ أن تُبصِرَ ما وقع إذ ذاك من المبادلاتِ والمقايضاتِ، من عِلّة بخَلّة(٢) وجوع بِفِقدانِ شهوة، وهَمٍّ وتسهيد، بأَسْرٍ وتقييدٍ. أما النساءُ فكُنّ من تبادُلِ الأعضاء ـ أعضاء الوجه والجسم ـ فى شُغُلٍ شاغِلٍ، فواحدةٌ تستعيضُ لِمّةً شَمْطاء، من جلدةٍ سمراء، وثانيةٌ تأخذ عنقا قصيرا، وتُعطى أنفاً كبيرا، وثالثةٌ ترْمِى عِرْضاً مفضوحا. وتلتقِط وجها مقبوحا، وما منهُنّ إلا من تُدرِكُ فى الحال أنها اعتاضت من سيِّئٍ أسوأَ، ومن ردىءٍ أرْدَأ، وكذلك حال سائر الجمع فى كل بليَّة وآفة، لعلّه لأنَّ ما أصابنا به الله مناسِبٌ لمقدار صبرِنا واحتمالنا، أو لأنّ كل مصيبةٍ تذلّلها العادة...

فقلت لها: ياعَزُّ، كلُّ مصيبةٍ إذا وُطِّنتْ يوما لها النفْسُ ذلّتِ

ولقدرَحِمْتُ من صميم مُهْجتى ذلكَ الأحدبَ الآنِفَ الذِّكْرِ، إذ راح معتدلَ القامةِ وافِىَ الشَّطاطِ، لكن بداء فى كُلاه؛ وعِلّة فى حَشاه، كما رَحِمْتُ مُعاقِدَهُ ومُبايعهُ الذى راح مُحْدَوْدِبَ الظهرِ يظْلَعُ وَسْطَ سِرْبٍ من الفتياتِ كُنّ قبل به مُولَعات

(١) من مرض بفقر (٢) داء فى الرجلين يمنعهما من الحركة.

وفيه هائمات. ولست ناسياً ذِكرَ شأنى وشأنِ ذِى الوجهِ الطويل، فإن ذلك الرفيقَ ما كادَ يأخُذُ وجهى القصيرَ حتى أضحى فيه أعجوبةَ الأعاجيب، فاستَلْقيتُ ضاحِكا من وجهى حتى أخجلْتُ وجهى، وأدرك الرجل المِسكينُ خطيئتَه وعرَف غَلْطته، فخجِل واستَحْيَ، غير أنى ما لَبِثْتُ أنْ فِئتُ [١] إلى نفسى فعلمتُ أنه ليس لى أن أزْهَى وأختالَ وأسخرَ من الغير وأنا سُخْرَة، وأضحك منهم وأنا ضُحْكة [٢]، وإن لى فى غرابة هيئتى لشُغُلًا عن اللهو بهيئاتِ الناس ومَندُوحَةً، وذلك، أيها القارئ، أنى رفعتُ يدى أُرِيدُ جَبْهَتى فلم تقع لِطولِ وجهى إلا على الشَّفَةِ العُليا، وكذلك بينا أنا أُجيل يدى فى وجهى أُريد إحدى عينىَّ صَكَّت يدى أنفى، لِبُروزِهِ وضخامتِه، مِراراً.

ثم نظرْتُ ناحيةً منِّى فأبصرْتُ رَجُلين فى مِثلِ حالِنا من السُخْرِيَةِ قد أحدثا تبادُلًا فى زوجين من الأرْجُل، زوج غليظ أعوج قصير، وزوج طويل نحيل، فكان صاحبُ الرِجْلَينِ النحيلتين كأنما قد رُفِع فى الهواء على عودَىْ بيتٍ، فهامَتُه تَدورُ مع الرِّيح حيثما دارَت، وأما صاحب الرِّجلين العَوجاوَيْنِ القَصيرتين فكلما حاولَ السَيرَ دارَ فى مكانِه لا يَبْرَحُه. ولما رأيت على مُحَيَّاه سِيما الحِلْمِ والظَّرْفِ والفكاهةِ أقبلْتُ عليه أُمازِحُه فقلت له: سأجْعَلُ لك كذا وكذا إنِ استطعتَ أن تبلُغَ هـذا، ورَسَمْتُ له خَطًّا على مسافة ذِراعيْنِ من مُرْسَى قدَميه، فى مُدَّة نصف ساعة.

* * *

وأخيراً تَمَّ توزيعُ كثيبِ المِحَنِ والآفاتِ على أهلِها، من ذَكرٍ وأنثى.

---

(١) رجعت (٢) يقال: فلان سخرة كسفرة: يسخر منه، وسخرة كهمزة: يسخر من الناس، وضحكة بسكون الحاء: يضحك منه وبفتحها: كثير الضحك

وأقبلوا جميعاً تحت أثقالها الجديدةِ رُزَّحاً حَسْرى . وُلّهاً حَيْرَى . وقد مَأَوُا السَّهلَ والحَزْنَ ضَجَّةً وأنينا . ورَنَّةً وحنينا . ثم أدركتهم رحمةُ الله ، فأمرهم بطَرحِ أثقالِهم كَرَّةً أخرى، فألقَوْها فرِحين بإلقائها مسرورين . وأمَر « الوهمَ » تلك الشيطانة التى غرَّرَتْ بهم وضلَّلتْهم ، أن تنصرف ، فانصرفتْ ، وأرسَل الإلهُ بدَلها ملكا كريماً ، جِدَّ مُخالِفٍ لها هيئة وشكلا . مُبايناً لها خَلقاً وخُلقا ، رزينَ الحركة ثابتَ الجَنانِ ، قد جَمع فى هيئتِه بين الطلاقةِ والجِدِّ والوَقارِ والبِشْر ، لا ينفكُّ من حينٍ إلى آخر يَرْفَعُ نحو السماء طَرْفَه ، ويسمو إلى عرشِ الله بأَمَلِه ؛ واسمُ هذا الملك . « الصَّبْرُ » وأعجبُ مارأيتُ أن هذا الملك ماقامَ بجانب جبلِ الآلامِ إلا وأخذ الجبلُ يَهبِط ويضؤُلُ حتى لم يَبقَ منه أكثرُ من رُبْعه ، ثم أعادَ ملَكُ الصبر إلى كلٍّ حَظَّهُ الأول ، وألهمَه الصبرَ الجميلَ ، وأشعَرَ قلبَه قوّةَ الجلَدِ ونورَ اليقين ، فَراحَ مُغْتبِطاً سعيداً يحمَد الله على كل ماأعطاه ، تائباً مما اقترفه من الجهل وجَناه .

فمّا أفَدْتُ من هذه العظات والعِبَر أنى لستُ حقيقاً أن أتبرّم بشيءٍ مما يُصيبُنى به الله أو أنفِس على امرئٍ هِبةً أو نِعمةً ، إذ كان مُستحيلًا على امرئٍ أن يعلمَ حقيقة جارِه ويَعرِف سِرَّ صاحِبه ويقِفَ على مبالغِ أحزانِه وأشجانِه وكُرَبه ، ونُوبه ، وبلاياه ، ورزاياه ، فلكلٍّ لِكُلِّ سِرٍّ غامِضٌ وخزانةٌ مُقْفلة وسِفْرٌ مُطْبَقٌ . ولكنّى آليْت على نفسى أن آخُذَ نفسى بثلاث : كِتمان العلّة ، وكتمان الفاقة ، وكتمان المصيبة ، مع الصبر عليها جميعاً ، وأنْ لا أحْسُدَ امْرأً على شيءٍ ، وأن أكونَ أبداً حاضِرَ الصَّفحِ للناس ، وواسِعَ العفوِ ، إذ كان أعْقلُ الناس أعْذرَهم للناس ...

عبقرياتهم فى الدنيا
وأنها دار مِحَن وأكدار

ولأن الدنيا التى أسماها سيدنا رسول الله : أمّ دَفر ـ والدَّفْرُ ، النَّتْنُ ، دَفْرًا دافِراً لهذه الدنيا ـ أقول : لما كانت هذه الدنيا دارَ مَصائبَ ومِحَن، وأكدار ، وحسْبُك بهادِمِ اللذاتِ ـ الموت ـ الذى فضح هذه الدنيا وبَدِيها أيّما فضيحة والذى هو نهاية كل حىّ ، من مصيبة أى مصيبة ـ لأجل هذا قال الأوائل والأواخر فى هذه الدنيا وأبدعوا وافتنُّوا كلّ الافتنان ؛ ونحن فسوف نورد عليك أطيب ماقالوا فى ذلك ، لِما بينه وبين الصبر من واشجة الرحم ، ولأنه كلامٌ خالد ، لأنه حق وصِدق ، لايليق بعاقلٍ أن لايكترث له ، وإنما الواجب أن يجعله دائما نُصب عينيه ، وأن ينظر إليه نظرة رجل ثاقب الرأى بعيد أفق الفكر . لانظرة رجل أحمق مُمْتَلَخ العقل أعمته أباطيل هذه الحياة وألْهاهُ التكاثر وبَهْرَجُها عن كُنْهها فارتطم فى أوحالها وصار يَملَخ فى لذاذاتها مَلْخاً ، لاهيا عن المنهاة المؤسفة التى تنتظرنا جميعا ، جالباً بنفسه على نفسه مايضاعف آلامَها ، لاما يُخفِّف أحزانها ويهوّن ماأمكن شدائدها وأكدارها . ونحن إذ نورد فى هذا الكتاب ماقالوا فى الدنيا فإنا لاندعو إلى الزهد فيها وفى تعميرها ـ كما سيمر عليك فى هذا الفصل ـ ولكن مادام كِتابُنا فى عبقريات الأوائل والأواخر ، فى كل شىء ، كان واجبا علينا أن نورد عبقرياتهم فى الدنيا ، وفى الموت ، كما نورد عبقرياتهم فى سائر المعانى التى يعالجها الناس ويتداولونها فيما بينهم ، على أنهم إذ ذمّوا الدنيا إنما يترامَوْن بذلك «أوّلا» إلى أن يَصدَعوا بالحقيقة وهى أن الدنيا فى الواقع دار أحزان وأكدار ، و«ثانيا» إلى حثّ الناس على الإجمال فى الإقبال عليها ، والتعقل فى

التهافت على شهواتها، والاعتبار بعبَرها، والتزوُّد فيها لما بعدها، ومَن يُنكِر أنّ ذلك جميل ونافعٌ! ذمَّ رجلٌ الدنيا بحضرة علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقال علىّ: اسكُت، إن الدنيا دارُ صِدْق لمن صدَقها، ودار غِنًى لمن تزوَّد منها، ودار عافيةٍ لمن فَهِم عنها، ودار موعظةٍ لمن اتّعظ بها، مَهبِط وحىِ الله، ومَتجَر أوليائه... إلى آخر ما قال. ومن كلامه أيضا رضوان الله عليه: الناسُ أبناء الدنيا ولا يُلامُ المرءُ على حُبّ أُمّه... وسيمر عليك كثير من أمثال هذا...

أسماء الدنيا

الدنيا: اسم لهذه الحياة، وتُكنَى الدنيا: أمَّ دَفْرٍ، أسماها بذلك - كما أسلفنا - سيدنا رسول الله، والدَّفرُ. النَّتْنُ، وتُكنى كذلك: أمَّ شَمْلَةَ، أنشد ابن الأعرابى:

مِنْ أُمّ شَمْلَةَ تَرمينا بذائفِها   غَرّارةٍ زَيَّنتْ منها التَهاويلُ

وكذلك تُكنَى [illegible]: أمّ شملة، قال أبو عمرو بن العلاء: إنما سُمّيت الدنيا والخمر بذلك - [illegible] بذلك - لأنهما يشتملان على عقل الإنسان فيغيّبانه...

أقول: ومَن يُنكر أن أبناء الدنيا، من شدّة تعلُّقهم بها وتكالُبهم عليها، وضراوتهم بشهواتها، وافتتانهم بزينتها وخوضهم غمراتِها، بحيث يعُدُّون كأنهم مُنزَفون مُستلَبو العقول حتى إذا رماهم هاذم اللذات بسهامه صَحَوْا وأفاقوا... وصدق سيدنا رسول الله إذ يقول صلوات الله عليه: الناس نِيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا...

أما الدهر - وهو اسم لزمان متصل، والزمان اسم لدهر منفصل - فقد سَمَّوْهُ أبا العجب قال: ✿ وما الدَّهر فى فِعْله إلا أبو العَجَبِ ✿

والنسبة إلى الدنيا: دنياوى، ويقال: دُنْيَوِى ودُنْيِىّ - وجمعها دُنًى، وإنما

سميت دنيا : لِدُنُوِّها ، لأنها دَنَتْ وقَرُبت ، وتأخرت الآخرة ، أما الدهر فالنسبةُ إليه دُهْرِيٌّ بضم الدال تقول : رجل دُهرى : أى قديم مُسِنّ ، أما رجل دَهرى بفتح الدال فمعناه : ملحد لا يؤمن بالآخرة يقول ببقاء الدهر ، وقوله صلى الله عليه وسلم : لا تَسُبُّوا الدهر فإن الله هو الدهر ، فمعناه : أن العرب كان من شأنها أن تَذُمَّ الدهرَ وتَسُبَّه عند الحوادث والنوازلِ تنزل بهم من موتٍ أو هَرَم فيقولون : أصابتهم قوارِعُ الدهر وحوادثه وأبادهم الدهر ، فيجعلون الدهر الذى يفعلُ ذلك فيذُمُّونه ، وقد أخبر الله بذلك فى كتابه العزيز ثم كذَّبهم فقال : وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموتُ ونحيا وما يُهلِكنا إلا الدهر ، ثم قال الله : وما لهم بذلك من علم إنْ هُمْ إلا يظنون ، وجمع الدهر أدْهر ودهور ، أما الدهارير فهى تصاريف الدهر ، وقيل جمع للدهر على غير قياس ، قال الشاعر القديم (١) :

فاستَقدِرِ الله خيراً وارْضَيَنَّ به ... فبينما العُسْرُ إذْ دارَتْ مَياسيرُ
وبينما المَرْءُ فى الأحياءِ مُغْتَبِطٌ ... إذا هو الرَّمْسُ تعفوهُ الأعاصيرُ
يبكى عليه غريبٌ ليس يَعرِفُهُ ... وذو قرابتِهِ فى الحىِّ مسْرورُ
حتى كأنْ لم يكن إلا تذَكُّرُهُ ... والدهر أيَّتما حِـينٍ دهاريرُ

« قوله : فاستقدِر الله خيراً : أى اطلب منه أن يقدر لك خيراً ، وقوله : فبينما العسر ؛ فالعسر مبتدأ خبره محذوف تقديره فبينما العسر كائن أو حاضر ، إذ دارت مياسير : أى حدثت وحلّتْ ، والمياسير جمع ميسور ، ومغتبط أى فى غبطة : أى مَسَرَّة وحُسن حال ، والرمس : القبر ، وتعفوه : تدرسه وتمحو أثره ،

---

(١) قال أبو عمرو بن العلاء : لرجل من أهل نجد . وقال ابن برّى : لعثير بن لبيد العذرىّ ، قال : وقيل لحريث بن جبلة العذرى

والأعاصير جمع إعصار وهى : الريحُ تهُب بشدَّة ، وقوله : كأن لم يكن إلا تذكره فيكن تاءة وإلا تذكُّره فاعل بها واسم كأن مضمر تقديره كأنه لم يكن إلا تذكره والهاء فى تذكره عائدة على الهاء المقدّرة ، والدهر مبتدأ ودهارير خبره وأيتما حال ظرف زمان والعامل فيه مافى دهارير من معنى الشدة ، والدهارير قال الزمخشرى : تصاريف الدهر ونوائبه ، مشتق من لفظ الدهر ليس له واحد من لفظه كعباديد

قلة لبث الإنسان فى الدنيا

قال المصطفى صلوات الله عليه : فِيمَ أنا من الدنيا ؟ ومالى ولها ! وإنما مَثَلى ومثَلُها كراكبٍ سار فى يوم صائفٍ ، فرُفِعَت له شجرةٌ فقال تحتها ساعة من نهارٍ ، ثم راح وتركها « قال : من القيلولة وهى الاستراحة نصف النهار وإن لم يكن معها نوم ، يقال : قال يقيل قيلولة فهو قائل »

وقال علىّ بن أبى طالب : الدُّنيا دارُ ممرّ لا دارُ مَقَرّ والناسُ فيها رَجُلانِ رجُلٌ باعَ نفْسَه فأوبَقَها ورَجُلٌ ابتاعَ نفسه فأعتقها « أوبقها : أهلكها بسبب تهافته على الدنيا وإعراضه عن الآخرة ، وابتاع : اشترى ، وأعتقها أى من النار ، بتجنبه المعاصى وشهواتِ الدنيا » وقيل لنوح عليه السلام ـ وهو الذى عاش ألف سنة إلا خمسين عاماً ـ : كيف وجدت الدنيا ؟ قال : كدار لها بابان دخلتُ من أحدهما وخرجت من الآخر

قِلة متاع الدنيا

قال الله تعالى : « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قليل والآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى » قليل : سريع التقضى » وقال سبحانه : إنَّمَا مَثَـلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كماءٍ أنزَلْنَاهُ مِنَ

السماءِ فاختلطَ به نبَاتُ الأرضِ مِمَّا يأكُلُ الناسُ والأنعامُ حتَّى إذا أخذَتِ الأرْضُ زُخْرُفها وازَّيَّنَتْ وظَنَّ أهْلُها أنَّهُمْ قادِرونَ عليها أتاها أمْرُنا ليْلًا أوْ نَهارًا فجعلناها حَصِيدا كأنْ لمْ تَغْنَ بالأمْسِ»

« قوله سبحانه: إنما مثل الحياة الدنيا، أى فى سرعةِ تقضّيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها واغترار الناس بها، وزخرفها: حسنها وبهجتها، وقادرون عليها: أى متمكنون من حصدها، وأتاها أمرنا، أى نزل بزرعها مايجتاحه فجعلها الله كأنها حُصِدت من أصلها فصار زرعها كأنه لم يكن » وقال أبو جعفر المنصور حين حَضَرَتْهُ الوفاة: بِعْنَا الآخرةَ بِنَوْمَة ... وقال شاعر:

أراها وإنْ كانت تُحبُّ فإنّها ... سَحابَةُ صَيْفٍ عن قليلٍ تَقَشَّعُ

وقال أعرابيٌّ: ماكانت الدنيا على بنى فُلان إلا طَيْفاً لما انْتَبَهُوا ولّى عنهم، وقال آخر:

مَرَرْتُ بِدُورِ بَنى مُصْعَبٍ ... بدُورِ السرور ودُور الفَرَحْ
فَشَبَّهْتُ سُرعةَ أيامِهِمْ ... بِسُرْعَةِ قَوسٍ يُسَمَّى قُزَحْ
تَلوّنَ مُعْتَرِضًا فى السماء ... فلمّا تَمَكّنَ مِنْهَا نَزَحْ

الماضى والحاضر والمستقبل

قال الحسنُ البَصرىُّ: أمْس أجل، واليوم عمل، وغدا أمل ...، وقال حكيم: بَيْنى وبين الملوك يومٌ واحد؛ أما أمس فلا يجدون لذّتَه ولاأجدُ شِدّتَه وأما غد فإنى وإياهم مِنه على خطر، وماهو إلااليوم، فما عسى أن يكون!

تحذيرهم من تضييع الأيام

قال حكيم: الليل والنهارُ يعملانِ فيك فاعْمَل فيهما

وقال الحَسنُ البَصْرِيُّ: ما وَعَظَنى شىءٌ مِثْلُ ماوَعَظَنِي كلامُ الْحَجّاج فى خُطْبَته: إنّ امْرَأً أتت عليه ساعَةٌ مِنْ عُمُره لم يَذْكُرْ فيها رَبّهُ أَوْ يَسْتَغْفِرْ مِنْ ذَنْبِهِ أَوْ يُفَكِّرْ فى مَعادِهِ، لَجَدِيرٌ أَنْ تَطُولَ حَسْرَتُهُ يوم القيامة ... وكان الحجاج بليغا ومن مصاقع الخطباء، ومن كلماته التى تشبه كلمات الحسن البصرى، وهى مما قاله على ذؤابة المنبر: أيها الناس: اقدعوا هذه الأنفُسَ، فإنها أسألُ شىءٍ إذا أُعطِيَتْ، وأمْنَعُ شىء إذا سُئِلت، فَرَحِمَ الله امْرأً جعل لنفسه خِطاما وزماما، فقادها بخِطامِها فى الله، وعَطَفَها بزِمامِها عَنْ مَعْصِية الله، فإنى رأيتُ الصَّبْرَ عن محارِمِ الله أيْسَرَ من الصَّبْر على عذابه ... «اقدعوا: أى امْنعوا، والخطام: حَبْل من ليف أو شَعْر أو كَتّان يُثْنى طَرَفُه على مِخْطَم البعير ليقادَ بِهِ، والزمامُ: حَبْلٌ دقيقٌ يُجْعَل فى أنفِه»

الأيام تهدم الحياة

قال حكيم: مَنْ كان الليلُ والنهارُ مَطيتَه، سارَا بِهِ وإنْ لم يَسِرْ، أخذه الشاعر فقال:

رأيتُ أخا الدُّنيا وإنْ كان خافِضا … أخا سَفَرٍ يُسرَى به وهو لايَدْرِى

«خافضاً: يريد مقيما فى خفض ودَعة»

وقالوا: أنفاسُ المرءِ خُطاه إلى أجَلِه، وأمَلُه خادعُه عن عمله؛ وقال الشاعر:

ما ارْتَدَّ طرفُ امرئٍ بلَحْظتِه … إلا وشىءٌ يموتُ من جَسدِهِ

وقال أبو العتاهية:

تظَلُّ تَفْرَحُ بالأيام تقطعُها … وكُلُّ يوم مضى يُدْنِى من الأجلِ

وقال عمرو بن قميئة ـ شاعر قديم فى الجاهلية ـ :

كأنى وقد جاوزتُ تسعين حِجَّةً   خلعتُ بها عنى عِذارَ لجامى
على الراحتين مرّةً وعلى العصا   أنوءُ ثلاثاً بعدهنّ قيامى
رمتنى بناتُ الدّهرِ من حيثُ لا أرى   فكيف بمن يُرمى وليس برامِ
فلو أنها نَبلٌ إذن لاتّقيتُها   ولكننى أُرمى بغيرِ سِهامِ

« قوله : خلعت بها عنى عذار لجامى : فالعرب تقول : خلع فلان العذار يريد : خلع الحياء ، مثلٌ للشاب المنهمك فى غيّه كما يخلعُ الفرسُ العذارَ فيجمح ويطمح لأن اللجام يمسكه ، والعذار : الذى يضمُّ حبل الخطام إلى رأس البعيرِ والناقة وعلى ذلك يكون معنى قوله : أنه أسام سرح اللهو حيث أسام الغواة فى هذا العمر المديد ، ولعله يريد بذلك عدم التماسك كما بينه فى البيت الثانى ، وقوله : « أنوءُ ثلاثا يعنى : أنه ينهض ثلاثَ مرات بانحناء ثم يستقيم ، وبنات الدهر : نُوَبُه »

البقاء فى الدنيا سبب الفناء

قال سيدنا رسول الله : لو لمْ يَكْسِبِ ابنُ آدمَ إلا الصحّة والسلامة لكفى بهما داءً « لأن السلامة تُسلِمُه إلى الهرَم وما يستتبعه من الهمِّ والسَّقَم »

وقيل لأعرابى : كيف حالُك ؟ فقال : ماحالُ مَن يَفْنَى ببقائه ، ويَسْقَمُ بسلامتِه ، ويُؤْتَى مِن مأمَنِه » ! وقال حُمَيْدُ بنُ ثَوْرٍ الهلالى ـ وهو شاعر إسلامى ترجم له أبو الفرج فى الجزء الرابع من أغانيه ـ :

أرَى بَصَرى قد رابَنى بَعدَ صِحّة   وحَسْبُكَ داءً أنْ تَصِحَّ وتَسْلَما
ولا يَلبَثُ العصران : يومٌ وليلةٌ   إذا طلَبا أنْ يُدرِكا ما تيمَّما

وقال أبو حَيَّةَ النُّمَيْرِىُّ — من شعراء الدولتين — :

أَلَا حَيِّ مِن أجل الحبيبِ المَغانِيا   لَبِسْنَ البِلَى مما لَبِسْن اللياليا
إذا ما تَقاضَى المرءَ يومٌ وليلةٌ   تَقاضاهُ شىءٌ لا يَمَلُّ التقاضِيا

وقال بعضُ شعراء الجاهلية — وقيل: القائل عبدالرحمن بنُ سُوَيْدٍ المُرِّىّ —

كانت قَناتِى لا تَلينُ لِغامزٍ   فألانها الإصباحُ والإمْساءُ
ودَعَوْتُ رَبِّى فى السلامةِ جاهِداً   لِيُصِحَّنى فإذا السلامةُ داء

«كانت قناتى لا تلين لِغامزٍ: من الغمز، وهو العصرُ باليد وهو مَثَلٌ يريد: أنه كان صُلبَ العُود شديد القوة على من يشتد ويجترئ عليه» وقال النَّمِرُ بن تَولَب — شاعر جاهلى إسلامى، وفَد على سيدنا رسول الله وحَسُنَ إسلامُه، ومن قوله: صومُ شهر الصبر، وصومُ ثلاثةِ أيام يُذهِبْنَ كثيراً من وَحَرِ الصدْر — قال:

تَدارَكَ ما قَبْلَ الشبابِ وبَعْدَه   حوادثُ أيامٍ تَمُر وأَغْفُلُ
يَسُرُّ الفتى طُولُ السلامةِ والبَقَا   فكيف يَرى طولَ السلامةِ يَفعَلُ
يَرُدُّ الفتى بَعدَ اعتدالٍ وصِحَّةٍ   يَنُوءُ إذا رام القيامَ ويُحْمَلُ

«والبقاء مقصورٌ لضرورة الشعر وتُروى: والغِنَى»... وقال الصَّلَتانُ العبْدِىُّ — شاعر إسلامى كان فى زمن جرير والفرزدق — :

إذا ليلةٌ هَرَّمَتْ يومَها   أتَى بعد ذلك يومٌ فَتِى

وهذا البيت من أبيات جميلة للصلتان اختارها أبو تمام فى حماسته يقول فيها:

أشابَ الصغيرَ وأفْنَى الكبيرَ   كَرُّ الغَداةِ ومَرُّ العَشِى
إذا ليلة ... البيت

نَرُوحُ ونَغْـدو لحاجاتنـا   وحاجةُ مَن عاش لا تنقضِى
تموتُ مع المـرء حاجاتُهُ   وتَبقَى له حاجـةٌ ما بَقِى

فرح الدنيا مشوب بالترح

مُعَقَّب بالهموم

نَظَر كِسْرَى أنو شروان إلى مُلكه يوما فأعجبه فقال : هـذا مُلك إلا أنه هُلْك ، ونعيم إلا أنه عَدِيم ، وغَنَاء لولا أنه عَنَاء ، وسُرور لولا أنه شُرور ، ويوم لوكان يُوثق له بِغَد... وقال المُغيرة بنُ حَبْنَاء ـ هو وأخواه صخر ويزيد كانوا شعراء ، وكان المغيرة من رجال المهلب بن أبى صفرة توفى سنة ٩١ هـ :

وكذاكَ الدهرُ مأتمُهُ   أقربُ الأشياءِ من عُرُسِه

الدنيا هموم وغموم

سَمِعَ حكيمٌ رجلا يقولُ لآخرَ : لاأراكَ الله مكروها ، فقال : دَعَوْتَ عليه بالموتِ ، مَن عاش لابُدّ له من مكروه ، وقيل للنّظام ـ إبراهيم بن سَيَّار المعتزلى ـ وفى يدِه قَدَح دواء ـ : كيف حالك ؟ فقال :

أصبحْتُ فى دارِ بليّاتِ   أدْفَعُ آفاتٍ بآفاتِ

وقال أبو الحسن على بن محمد التّهامى المتوفّى سنة ٤١٦ هـ يصف الدنيا ـ :

طُبِعَت على كَدَرٍ وأنتَ تُريدها   صَفْوًا من الأقذاءِ والأكدار
ومُكَلِّفُ الأيامِ ضِـدَّ طِباعِها   مُتطلِّبٌ فى المـاء جُذوة نارِ
وإذا رَجَوْتَ المُستحيـلَ فإنما   تَبْنِى الرجاءَ على شَفِـيرٍ هارِ

« الجذوة : الجمرة ، والشفير : ناحية الوادى من أعلاه ، وهار : يقال : هار الجرف والبناء : انهار وانهدم »

وقال شاعر :

أَمَرَّ الزمانُ لنا طَعمَهُ فما إنْ تَرى ساعَةً عَذْبَه

وقال آخر :

أُفٍّ من الدنيا وأسبابِها فإنها للحُزْنِ مَخْلوقَهْ
هُمُومُها ما تنقضى ساعَةً عن مَلِك فيها ولا سُوقَه

وقال آخر :

تأتى المكارِهُ حين تأتى جُمْلَةً وترى السُّرورَ يجىءُ فى الفَلتَاتِ

وقال ابن نُباتة السعدى :

وما خيرُ عَيْشٍ نِصفُهُ سِنَةُ الكَرَى ونِصفٌ به نَهْتَمُّ أو نَتوَجَّع
مع الوقتِ يَمضِى بُؤْسُه ونعيمُه كأنْ لم يكن والوقتُ عُمْرُك أجْمَعُ

وقال الشريف الرضى :

يا آمِنَ الأقدارِ بادِرْ صَرْفَها واعْلَمْ بأنَّ الطَّالِبِينَ حِثَاثُ
خُذْ مِن تُراثِكَ ما اسْتَطَعْتَ فإنما شُرَكاؤُكَ الأيَّامُ والوُرَّاثُ
لمْ يَقْضِ حَقَّ المالِ إلا مَعْشَرٌ وَجَدوا الزَّمانَ يَعيثُ فيه فَعَاثُوا
تَحْثُو على عيْب الغنيِّ يدُ الغِنى والفقر عن عيْبِ الفتى بحَّاثُ
المالُ مالُ المرءِ ما بلَغت به الشَّهواتُ أو دَفعتْ به الأحداثُ
ما كان منه فاضِلاً عن قُوتِهِ فليَعلَمَنَّ بأنَّه ميراثُ
مالى إلى الدنيا الغرورةِ حاجةٌ فليَخزَ ساحِرُ كيْدِها النَّفَّاثُ
سَكَناتُها محذورةٌ وعُهودُها منقوضةٌ وحِبالُها أنكاثُ

أُمُّ المصائبِ لا يزالُ يَرُوعُنا   منها ذُكورُ نَوائِبٍ وإناثُ
إنِّى لأعجَبُ مِن رجالٍ أمْسكوا   بحبائلِ الدنيا وهُنَّ رِثاثُ
كَنَزُوا الكُنوزَ وأغفلوا شهواتِهم   فالأرضُ تَشْبَعُ والبُطونُ غِراثُ

«صَرفها : حَدَثانها ونوائبها ، وحِثاث : سِراع ، وحَثا التراب : صبه ، يقول فى هذا البيت : إنّ الغِنَى يغطى عيوبَ الأغنياء أما الفقر فإنه يحمل الناس على أن يفتشوا عن عيوب الفقراء ويلصقوا بهم العيوب إلصاقاً . ونكث الحبل : نقضه ، ورثاث جمع رث : بالٍ ، وغراث : جائعات » ...

النقصان بعد التمام

قالوا : مَن بلَغ غايةَ ما يُحِبُّ فليَتَوقَّعْ غايةَ ما يَكرَه ... وقال الأصمعىُّ : وجدتُ لبعضِ العرب بيتين كأنهما أُخِذا من قوله تعالى : حتى إذا فَرِحُوا بما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بغتة ، وهما :

أحسنتَ ظَنَّكَ بالأيامِ إذْ حَسُنتْ   ولم تَخفْ غِبَّ مايأتى به القَدَرُ
وسالمَتْكَ الليالى فاغْتَرَرْتَ بها   وعندَ صَفْوِ الليالى يَحْدُثُ الكَدَرُ

ومِن دُعاء بعضهم : صَرَف الله عنك آفاتِ التَّمام ...

والبيت المشهور فى هذا المعنى :

إذا تمَّ أمْرٌ بَدَا نقْصُه   توقَّعْ زوالا إذا قِيلَ تمّ

وقال عبد الله بن مسعود : عَرَضُ الدنيا عاريَّة ، ومَن فيها ضَيفٌ ، والعارية مُؤدّاة ، والضيف مُرتَحِل «العارية : ما تَستعيرُه من قريبك أو صديقك أو جارِك لتنتفِعَ به حِينًا ثم تَرُدُّه إلى صاحبه ، وعرَض الدنيا . ما نِيلَ منها من متاعها وحُطامِها »

وقال حكيم: الدنيا تُطعِمُ أولادها، وتأكلُ أولادها. وقال الشاعر:

وما المالُ والأهلونَ إلا وَدائعٌ ولا بُدَّ يوماً أنْ تُرَدَّ الودائعُ

وقال المتنبّي:

أبداً تَسترِدُّ ماتهَبُ الدنـيا فياليتَ جُودَها كانَ بُخلا

فكَفَتْ كَوْنَ فرْحةٍ تُورِثُ الغمَّ وخِلٍّ يُغادِر الوَجْدَ خِلاَّ

« يقول المتنبي: شيمة الدنيا أن تستردَّ ماتَهَبُ وتعطى، فليتَها بخِلت وما جادَت إذ لو بخلتْ ولم تُعطِ لكفتنا الفرح بوجود شيء يُعقِب لفَقْدِه الغمَّ، والفرحَ بوجود خليل يُؤْنِس بقُرْبِه ثم تخترمه المنية فيغادِرُ الهمَّ خليلا للحازن عليه، وفى هذه القصيدة يقول المتنبي:

ولذِيذُ الحياةِ أنفسُ فى النَّفْـ ـس وأشهَى من أنْ يُمَلَّ وأحْلَى

وإذا الشيخُ قال أُفٍ فما مَلَّ حياة وإنما الضعفَ مَلاَّ

آلَةُ العَيْشِ صِحَّةٌ وشبابٌ فإذا وَلَّيا عن المَرْءِ وَلَّى

الدنيا لا يدوم فيها فرح ولا ترح

قال شاعر:

هل الدهر إلا ساعةٌ ثم تنْقَضى بما كان فيها مِن بلاءٍ ومِن خَفْضِ

فهَوْنَكَ لاتحفِلْ إساءَةَ عارِضٍ ولا فرحةً تأتى فكِلْتاهُما تمضى

« الخفض: الدَّعة ولينُ العيش وسَعَته، والهوْنُ مَصْدر الهيِّنُ فى معنى السكينة والتثبُّت والوقار والرفق قال:

فَهوْنَكُما لايَرُد الدَّهْرُ مافاتا لاتَهْلِكا أسَفا فى إثْرِ مَن ماتا

وقال آخر:

وما اكتأبتْ نفسٌ فدامَ اكتئابُها ولا ابتهجتْ نفسٌ فدام ابتهاجُها

ودخل أعرابيٌّ عُمرِ مائةً وعشرين سنةً على معاوية رضى الله عنه ، فقال له : صِفْ لنا الدُّنيا . فقال : سُنَيّاتُ بلاء وسُنيّاتُ رَخاء ، يولدُ مولودٌ ويَهلِكُ هالك ولولا المولود بادَ الخَلْق ، ولولا الهالك ضاقت الأرض .

الدنيا غرّارة

قال بعضهم : هذه الدُّنيا قَحْبَةٌ يوما عند عطار ، ويوما عند بيطار . . .

وقال المتنبي :

فَذِى الدارُ أخْونُ مِن مُومس وأخدَعُ من كفَّة الحابِلِ
تَفَانى الرجالُ على حُبِّها وما يَحْصُلون على طائل

« الحابِل : الصائدُ ذو الحِبالة ، وهى الشَّرَك ، والطائل : ما كان له قدر . يقول المتنبي : إن هذه الدنيا فاجرة خوّانة لبنيها كالمومس تُخلِفُ مَن وثِق بها ، وهى كذلك أخدَعُ من حِبالة الصائد تَصرَعُ من اطمأن اليها ، ثم قال فى البيت الثانى : تفانى الناس على حُبِّها ومع ذلك لم يحصُلوا من أمرها على طائل لأنها تستردُّ ماتعطيه وتهدِم ماتبنيه ، وتَمَرُّ بعد حلاوتها وتعوج بعد استقامتها » .

وقالوا : مَثلُ الدنيا مَثلُ الحيّة لَيِّنٌ مَسُّها وفى جوفِها السُّمّ الناقع ، يَهْوِى اليها الصبيُّ الجاهل ، ويحْذَرها الحازمُ العاقل . « يهْوِى إليها : يُسرِع وذلك كما تقول رأيت فلانا يَهْوِى نحوك ، معناه : يريدك ، قال تعالى : فاجعل أفئدةً من الناس تَهْوِى اليهم : أى تريدهم وتسرع » وقال أبو عَمرو بنُ العلاء : كُنتُ أدورُ فى ضَيْعَتِى فى شِدَّةَ الحر فسمعتُ هاتِفا يقول :

وإنَّ امْرَأً دُنياهُ أكبَرُ همِهِ لَمُسْتَمْسِكٌ منها بحبلِ غُرورِ

فنَقَشتُ ذلك على خاتَمِي . وقال الشاعر :

ومَنْ عَرَفَ الأيامَ لم يرَ خفضَها نعيما ولمْ يعْدُدْ تصرفَها بَلْوَى

حب الدنيا على الرغم من عيوبها

قال عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه ـ وقد ذُكِرَ له قومٌ يُحِبُّون الدنيا ـ : هُمْ أبناؤها ، أفيُلامُ الرجل على حُبِّ والدَيه ! وقال الشَّعبيُّ : ماأعْلم لنا وللدنيا كقول كُثَيِّر عَزَّة :

أَسِيئِي بنا أو أحْسِنِي لا مَلومةٌ لَدَيْنا ولا مَقْلِيَّةٌ إنْ تَقَلَّتِ

« وقد تقدم » وقال شاعر :

يَذُمُّون دُنيا لا يُريحون دَرَّها ولم أرَ كالدنيــا يُذَم ويُحْلَبُ

« لايريحون درَّها فالدَّرُّ : اللبن يقول : إنهم مع ذمِّهم إياها يُلِحُّون فى الإقبال عليها ويكلبون ويَشْرَهون حتى ما يتركون دَرَّها يستريح ، وهذا على المثــل . » ...

وقال أبو العتاهية :

كُلنا يُكْثِرُ المَذَمَّةَ للدُّنْيا وكلٌّ بحُبِّها مفتونُ

الدنيا تضر محبيها

قالوا فى ذلك : الدنيا تَضُرُّ مُحِبِّيها ، وما كرُمَتْ على أحد نفْسُه إلا هانت عليه الدنيا ، وقالوا : أوْحَى اللهُ إلى الدنيا : أنِ اخْدُمِي مَنْ جفاكِ واستَخْدِمِي مَنْ يَهواكِ « وهـذا تمثيلٌ جميلٌ وحَقٌّ ، وقال عُمَرُ بنُ عبـد العزيز : الدنيا لاتَضُرُّ إلّا مَنْ أمِنَها ولا تَنفعُ إلا مَنْ حَذِرَها . وقال الفاروقُ رضى الله عنه : ماكانت الدنيا هَمَّ امرئٍ إلا لَزِمَ قلبَـهُ خِصالٌ أربَع : فقرٌ لا يُدْرَكُ

غِناه، وهَمٌّ لا يَنقضِى مَداه، وشُغْلٌ لا يَنفَدُ أُولَاه، وأَمَلٌ لا يُدْرَك مُنتهاه.

وقال الشاعر:

أرَى الدنيا لِمَنْ هى فى يدَيْه　　عَذاباً كلما كثُرتْ لَدَيْه

تُهِينُ المُكْرِمين لها بصُغْرٍ　　وتُكْرِمُ كلَّ مَنْ هانت عليه

« الصُّغر: الصَّغار، أى الذل والضيم »

وقال المتنبي:

ومَنْ لم يَعْشَقِ الدنيا قديماً؟　　ولكن لا سبيل إلى الوِصالِ

« مَن: استفهامية، يقول المتنبي: مَن ذا الذى لم يعشق الدنيا من قديم الدهر؟ كلُّ أحدٍ يَهوَى الدنيا ولكن لاسبيل إلى دوام وصالها، أى أنّ كثيراً من عُشّاقِها واصلها ووَاصلته ولكن لاسبيل إلى دوام الوصال فإنّ وِصالها يعقبه الهجر وسرورها يعقبه الحزن وأيادها تنتهى بالموت »

بنو الدنيا أغراض لضروب المحن

قيل للحسن البصريّ: كيف أصبحتَ؟ فقال: كيف يُصْبِحُ مَن هو غَرَضٌ لثلاثةِ أسْهُم: سَهْمُ رَزِيّة، وسهمُ بَلِيّة، وسهمُ مَنيّة. وقالوا: مَن أخطأهُ سَهمُ المنية لم يُخطِئْه سَهمُ الرزية، وقال ابن المعتز:

الدّهْرُ يَطرِفُ بالعَنا　　والناسُ بين جُفونه

« يقال: طَرَفَ بصَرَه يَطْرِفُه طَرْفا: إذا أطبَق أحدَ جَفنيه على الآخر؛ والعنا هو العناء أى النصب » وقال أبو العتاهِية:

أُفٍّ لدُنْيا تَلاعَبَتْ بى　　تَلاعُبَ المَوج بالغَريقِ

الأيام تمضى فى تراذلها

سَمِع زيادُ بن أبيه امرأةً تقول : اللهم اعْزِلْ عنا زيادا ، فقال : زيدى فى دعائكِ : وأبْدِلْنا خيرا منه ، فإن الأخيرَ أبدا شَرٌّ ... وقال أبو الدَّرداء[1] : مَعروفُ زمانِنا مُنكَرُ زمانٍ قد فات ، ومُنكَرُهُ معروفُ زمان لم يأتِ ،

حمدهم ماضىَ الزمان وذمّهم حاضره

كانت السيدة عائشة رضى الله عنها كثيرا ما تُنْشِدُ قولَ لَبيد :

ذَهبَ الذين يُعاشُ فى أكْنافِهِم وبَقِيتُ فى خَلْفٍ كجِلْدِ الأجْرَبِ

وتقول : رَحِم اللهُ لَبيدا ، كيف لو عاشَ إلى زمانِنا ! وكان عبد الله بنُ الزبير يُنْشِد هـذا البيت ويقول : رحم الله عائشة ، كيف لو عاشت إلى زمانِنا ! ومن كلام الحسن البَصرىّ : كان الناسُ وَرَقًا بلا شَوكٍ فصاروا شَوكا بِلا ورَق ... وقالوا :

رُبَّ يومٍ بكيتُ فيه فلَمَّا صِرْتُ فى غيره بكيتُ عليه

وهناك مَن يذهب إلى أن ماضِىَ الزمان كحاضره، لا يفْضُل قديمُ الزمان حديثَه ، وإنما الأيامُ كلها، أو الناسُ جميعا، قُداماهم ومُحدَثُوهم وأوَّلُهم وآخرهم سواسِيَةٌ فى أنهم خَلْفٌ كجلدِ الأجرَب ، ومن أحسن ماقيل فى ذلك تلك الكلمة التى كتبها بديعُ الزمانِ الهَمَذانىُّ فى رسالة له إلى أستاذه أبى الحسين ابن فارس صاحب المجمل فى اللغة ، جوابا على رسالة كتبها ابن فارس إلى البديع

(١) هو عويمر بن قيس بن زيد الأنصارى ، الصحابى المشهور ، شهد مع سيدنا رسول الله وقعة أحد وما بعدها وتوفى فى آخر خلافة عثمان بن عفان

فى ذَمّ الزمان [١]، قال البديع : نَعم أطالَ اللهُ بقاءَ الشيخ الإمام ، إنه الحَمأُ المَسنُون [٢] ، وإن ظُنَّت الظُنون ، والناسُ لآدم ، وإنْ كان العَهدُ قد تقادَم ، وارتبكت الأضداد ، واختلط الميلاد ؛ والشيخ يقول : فَسَدَ الزّمان ، أفلا يقول : مَتَى كان صالحا ؟ أفى الدَّولةِ العباسيّة وقد رأينا آخِرَها وسَمِعنا أوَّلَها ؛ أم المُدّةِ المَرْوانيّة وفى أخبارها « لا تَكْسَعِ الشَوْلَ بأَغْبارها » [٣] ... أمِ السِّنين الحَرْبيّة [٤] :

والسّيفُ يُغمَلُ فى الطُّلَى والرُّمْحُ يُرْكَزُ فى الكُلَى [٥]

---

(١) قيل : ذكر الهمذانىّ فى مجلس ابن فارس فقال مامعناه : إن البديع قد نسى حق تعليمنا إياه ، وعقنا وشمخ بأنفه عنا ، فالحمد لله على فساد الزمان ، وتغير نوع الإنسان ، فبلغ ذلك البديع ، فكتب إلى ابن فارس هذه الرسالة .

(٢) الحمأ : الطين الأسود . والمسنون : المتغير المنتن

(٣) هذا من قول الحارث بن حلزة :

لا تَكْسَع الشَوْلَ بأَغْبارِها إنّكَ لاتَدْرى مَنِ النّاتِجُ
واحْلُبْ لِأضيافِكَ ألْبانَها فإنَّ شَرَّ اللّبَنِ الوالِجُ

والكسع : ترك بقية من اللبن فى خِلف الناقة يراد بذلك تغزيرها ، وهو أشدّ لها والشول من النوق : مامضى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فقلّ لبنها وخف ضرعها والأغبار . جمع الغبر وهو بقية اللبن فى الضرع ، والوالج : الذى يلج فى ظهورها من اللبن المكسوع يقول الحارث : لاتغزر إبلك تطلب بذلك قوة نسلها واحلبها لأضيافك فلعل عدوا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك . ولعل البديع يشير بهذا إلى بخل بنى مروان وقلة الخير فى أيامهم

(٤) الحربية : نسبة إلى حرب بن أمية بن عبد شمس ، يريد بذلك خلافة معاوية ويزيد ابنه

(٥) الطلى : الأعناق واحده طلية بضم الطاء ، وركز الرمح . دفنه وأثبته والكلى : جمع كلية وكلوة ، والكليتان أو الكلوتان معروفتان

وَمَبيتُ حُجْرٍ فى الفَــلَا والحَرَّتانِ وكَرْبَلَا [١]

أمِ البَيعة الهاشمية وعلىٌّ يقول : ليتَ العشرةَ منكم براس ، من بنى فِراس ؛ أمِ الأيام الأُموية [٢] والنفيرُ إلى الحجاز ، والعيونُ إلى الأعجاز ؛ أم الإمارةُ العَدَوِيّةِ [٣] وصاحبُها يقول : وهل بعد البُزول إلا النزول ؛ [٤] أم الخلافةُ التيميّة [٥] وهو يقول : طُوبَى لِمَن مات فى نأناةِ الإسلام [٦] أم على عَهدِ الرِّسالة ويومَ الفَتْح قِيل : اسْكُتى يا فُلانة ، فقد ذهبتِ الأَمانةُ ؛ أم فى الجاهلية ولَبيدٌ يقول :

ذهَبَ الذين يُعاشُ فى أَكْنافِهم وبَقيتُ فى خَلْفٍ كجِلْدِ الأَجْرَبِ

(١) حجر : هو حجر بن عدى الكندى من أهل العراق وقد قتله معاوية بن أبى سفيان سنة إحدى وخمسين لإظهاره التشيع إلى على ولعنه معاوية وأصحابه والبراءة منهم ، وكان يجتمع عليه كل من وافقه فى هذا الرأى من أهل المصرين حتى ولى زياد على العراق فكتب إلى معاوية فى أمر حجر وأكثر فأمر معاوية زياداً أن يبعث به إليه مشدوداً بالحديد ، ففعل ، فلما قدم عليه أمر به معاوية فضربت عنقه ، وكان حجر من أشراف العراق وخياره ، انظر تاريخ الطبرى فى حوادث سنة إحدى وخمسين، ويشير بقوله والحرتان إلى وقعة الحرة التى كانت بين جنود يزيد بن معاوية وأهل المدينة سنة ثلاث وستين وكانت هذه الوقعة فى حرة واقم وهى شرقى المدينة وقد قتل فيها من أهل المدينة خلق كثير ، وكربلاء موضع فى طرف البرية عند الكوفة وهو الذى قتل فيه الحسين بن على رضى الله عنه فى خلافة يزيد بن معاوية

(٢) يريد خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه لأن أمية رهطه

(٣) يريد خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والعدوية نسبة إلى عدىّ بن كعب ابن لؤىّ ، وهم رهط عمر

(٤) البزول : تشقق ناب البعير ، وذلك فى السنة التاسعة ، يريد بهذا : وهل بعد الوصول إلى الغاية إلا الأخذ فى النقصان؟ (٥) يريد خلافة أبى بكر رضى الله عنه. والتيمية : نسبة إلى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى ، وهم رهط أبى بكر

(٦) النأناة : أول الإسلام قال الزمخشرى : ومعناها : الضعف قبل أن يقوى ويعز

أمْ قبلَ ذلك وأخو عادٍ يقول :

بلادٌ بها كُنّا وكنا نحبُّهـــا إذِ الناسُ ناسٌ والزّمانُ زمانُ

أم قَبلَ ذلك ويُروَى لآدمَ عليه السلام :

تغيّرَتِ البلادُ ومَنْ عليها فوَجْهُ الأرْضِ مُغْبَرٌّ قَبيحُ

أم قبل ذلك والملائكةُ تقول لبارِئها « أتجْعَل فيها مَنْ يُفسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّماءَ » ؛ [١] ما فَسَـد الناس ، ولـكن اطّرَدَ القِياس ؛ ولا أظلمَتِ الأيام ، وإنما امتدَّ الإظلام ؛ وهل يَفسُدُ الشيءُ إلا عن صلاح ، ويُمسِى المرءُ إلا عن صباح !

إنـكار ذمّ الدهر

رَوَوا لنا عن سيدنا رسول الله « لا تسُبُّوا الدهر فإن الدهرَ هو الله ، وفى رواية : فإن الله هو الدهرُ » يقول صلوات الله عليه : إنّ ماأصابك من الدهر فالله فاعـله ليس الدّهرَ ، فإذا شتمت الدهر فـكأنك أرَدْت به الله : وكان من شأنِ العرب أن تَذُمَّ الدهرَ وتَسُبّه عند الحوادث والنوازِل تَـنْزل بهم من مَوت أو هَرَمَ ويقولون : أبادهم الدَّهرُ وأصابَتْهم قوارِعُ الدهر وحوادثُهُ ، فيجعلون الدهرَ الذى يفعَل ذلك فيذُمُّونه ، وقد ذكروا ذلك فى أشعارهم وأخبَرَ الله تعالى عنهم بذلك فى كتابه العزيز ثم كَذّبَهم فقال « وقالوا ماهى إلا حياتُنا الدنيا نَموت ونَحْيا وما يُهْلِـكُنا إلا الدهر » ، قال الله عز وجل : وما لهم

---

(١) قال الشيخ صلاح الدين الصفدى فى شرحه على لامية العجم للطغرائى : استدل بعضهم بهذه الآية الـكريمة على أنه كان قبـل خلق آدم خلق آخر فى الأرض وأنهم أفسدوا فيها وأهلـكهم الله تعالى ، لأن الملائكة قالت : أتجعل فيها من يفسد فيها !

بذلك من عِلم إنْ هم إلا يَظنُّون ، والدهرُ : الزمانُ الطويل ومُدّةُ الحياة الدنيا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تَسُبُّوا الدهر ، على تأويل : لا تَسُبُّوا الذى يفعل بكم هذه الأشياء فإنكم إذا سَبَبْتُم فاعِلَها فإنما يَقعُ السَّبُّ على الله تعالى لأنه الفاعلُ لها لا الدهر ... « وقد تقدم ذلك »

وقال أبو بكر الخوارزمى قريبا من هذا المعنى الذى نعالجه :

وكم نَكْنِي وكم نَهْجُو اللّيالى وليس بِخَصْمِنا إلا القضاءُ [1]

وقال رجلٌ للأصمعى : فسَدَ الزّمان ، فقال :

إنّ الجديدَينِ فى طُولِ اخْتِلافِهما لا يَفْسُدَانِ ولكن يَفْسُد الناس [2]

والبيت المشهور فى هذا هو قول بعضهم :

نَعيبُ زَمانَنا والعيبُ فينا ولو نَطق الزمان بنا هَجانا

وقال المتنبى :

ألَا لا أرِى الأحداثَ حَمْدًا ولا ذَمّا فما بَطْشُها جهلًا ولا كَفُّها حِلما [3]

وقال بعض الصالحين لأبى العتاهية : أىُّ خَلْقِ الله أصْغَرُ عنده ؟ قال : الدنيا ، لا تُساوى عند الله جَناحَ بعوضة ، قال : أَصْغرُ منها مُحِبُّها ...

المسرة من حيث تُخشَى المضرة

قال أبو عمرو بن العلاء : طَلبَ الحجاجُ بنُ يوسف الثَّقَفِىّ أبِى ، فخرج

(١) يقال . كنى عن الامر بغيره يكنى كناية وهو : أن تتكلم بشىء وتريد غيره

(٢) الجديدان : الليل والنهار وذلك لانهما لا يبليان أبدا

(٣) يقول المتنبى ، لا أحمد الحوادث السارة ولا أذم الضارة فإنها إذا بطشت بنا أو آذتنا لم يكن ذلك جهلا منها وإذا كفت عن البطش والضرر لم يكن ذلك حلما ، يعنى : أن الفعل فى جميع ذلك ليس لها

منه هاربا إلى اليمنِ ، فإنّا لَنسير بصحراءِ اليمن إذْ لَحِقَنا لاحِقٌ يُنْشِدُ :

رُبَّما تَكْرَهُ النُفوسُ من الأمـــرِ له فَرْجَةٌ كَحَلِّ العِقالِ

فقال أبى : ماالخبر ؟ قال : مات الحجاج ، قال أبو عَمْرو . فانا بقوله : له فَرْجَة أَشَدُّ سرورا مِنّى بموتِ الحجاج ، قال : فقال أبى : آصرِفْ ركابَنا إلى البصرة ، قال : وكنت يومئذٍ قد خَنَّقْتُ بِضْعا وعشرين سنة ... « ربما تكره النفوس ... . ألبيت هو لأمَيّة بنِ أبى الصلت وقبله :

لا تَضِيقَنَّ فى الأمور فقد تُكْـشَفُ غَمّاؤها بغــيرِ احْتيالِ

ومن بديع هـذه اللغة العربية الكريمة أنها تَفرِق بين فَرجة « بفتح الفاء » وبينها بالضم ، فالأولى : التَفَصّى من الهمّ ، والأخرى ، أى الفُرجة بالضم : كلّ منفرج بين جَبَلَيْن ونحوهما . والغماء : الكَرْب ، وقالوا : خَفِ المضارَّ من خَلَلِ المَسارّ [1] ، وارْجُ النَفْعَ من مَوضِع المنعِ ، فأكْثرُ مايأتى الأمْنُ من محلِّ الفزَع ؛ وقالوا : أعْناقُ الأمور تتشابَه ، فرُبَّ محبوب فى مكروه ومكروهٍ فى محبوب ومَغبوط بنعمة هى داؤه ومَرحوم من داءٍ فيه شِفاؤه ... وقالوا : رُبَّ سلامةٍ تكونُ للتلَفِ سببا ، ومكروهٍ يكونُ للنَجاةِ مِفتاحا :

وقد يَأْسَفُ المرءُ مِن فَوتِ ما لعــلَّ السلامةَ فى فَوْتِه

وقال حكيم : للهِ مَصالحُ فى مَكارهِ عِباده ، وقالوا : العاقِــلُ لايَجْزَع لأولِ نَكبَة ولا يَفرَح بأوّل نعمة فرُبَّما أقلَعَ المحبوب عما يَضُرّ وأسْفَرَ المكروه عما يَسُرّ ... وقال سيدنا رسولُ الله « اشتَـدِّى أَزْمَةُ تنفرِجى » « الأزمَة : الشدة والقحط » ويقال فى ذلك : إنّ الشدَّة إذا تتابعت انفرجت وإذا تَوالَت تولّت ... والأصل فى هذا المعنى قول الله جَلّ شأنه « فعسى أن تكرَهوا شيئا ويجعلَ الله فيه خيرا كثيرا »

(١) من خلل المساز : أى من خلالها .

الفرج بعد الشدّة

أُتِىَ يَزِيدُ بخارِجىٍّ، فهَمَّ بقتْـلِه فقال الخارجى:

عسَى فرَجٌ يأتى به الله إنَّهُ   له كلَّ يومٍ فى خليقتِه أمْرُ

فقال يزيد: والله، لأضرِبَنَّ عُنُقَك، اقتلوه، فدخل الهيثمُ بن الأسود النَخَعِى، فقال: أَمسِكوهُ قليـلا، فدَنا منه فقال: ياأميرَ المؤمنين، هَبْ مُجرِمَ قومٍ لوافدِهم، فقال: هو لكَ، فخرج الخارجىُّ وهو يقول: تأبَّى على الله فأبَى إلا أن يُـكْذِبَه وغالَبه فأَبى إلا أنْ يَغْلِبَه... وأُحْضِرَ رجلٌ أمامَ بعض الملوك، فدعا بطعام فأَخذ يأكلُ ويضحَك، فقيل له: تضحكُ وأنت مَقتول؟ فقال: مِنَ الساعةِ إلى الساعة فَرَج، فسُمِعَت صيْحَة فقيل: مات الملك، فخلّوا الرجل... وشَدَّ بعض العُمّال ـ الوُلاة ـ رجُلا إلى أُسْطوانة ـ عَمُود ـ يُرِيدُ ضربه، فقال حُلّنى من هذه إلى هذه، فحَلّه، فما حَـلّه إلا وقد عُزِلَ وشُدَّ إلى الأسْطُوانةِ بعينِها...

من زال كربه فنسِىَ صُنع الله

قالوا: ماصاحب البلاء الذى طال بلاؤه بأحقَّ بالدعاء من المُعافَى. وقيل: مَنْ سَبح فى النَّهرِ الذى فيه التِّمساح عَرَض نفسَه للهَلَكة. وشكا يوسف عليه السلامُ طُولَ الحبْس، فأوْحى الله تعالى إليه: أنت حبَسْتَ نفسك حيث قلت: السجن أحبُّ إلىّ. وقال الله عزّ وتقدّس «وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُرُّ دعانا لِجَنبه قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضُرّه مرّ كأنْ لم يدْعُها إلى ضُرّ مَسّه كذلك زُيِّنَ للمُسْرِفين ماكانوا يعملون»... وقال سبحانه: قُلْ من يُنَجّيكم من ظُلُمات البرّ والبحر تَدْعُونَه تضرُّعا وخُفْيَة لئن أنجانا

من هذه لنكونَنَّ من الشاكرين ، قُلِ الله يُنجِّيكم منها ومن كلِّ كرْب ثم أنتُم تُشرِكونَ .

لا تُعرَفُ النعمةُ إلا عند فقدها

قالوا : كم من نعمةٍ عُرِفَتْ ببَليَّة نزلت ، ونقمةٍ جُهلَتْ بسلامةٍ لَبِثَتْ .
وقالوا : شيئان لا يَعرف فضلَهما إلا من فَقدَهما : الغِنى والعافية ... وقال الشاعر :

فالوَجْهُ مِثْلُ الصُّبحِ مُبْيَضّ   والشَّعْرُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسْوَدُّ
ضِدّانِ لمّا استجمعا حَسُنا   والضدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ

وقال المتنبي :

* وبِضِدّها تَتَبَيَّنُ الأشْياءُ *

وقال أبو تمام :

وليس يَعرِفُ طيبَ الوَصْلِ صاحبُهُ   حتَّى يُصابَ بِنَأيٍ أو بهِجْرانِ

وقال المتنبي :

ولولا أيادِي الدهرِ فى الجمْع بيننا   غَفَلْنَا فلم نَشْعُر لهُ بِذُنوب

« يقول المتنبي : إنّ الدهر تارةً يُحْسِنُ وتارةً يسيء فلو لم يحْسِنْ إلينا بالجمع بيننا لما شعرنا بذنوبه فى تفريقنا ، فبإحسانه عرفنا إساءته»

فضل العافية وسلامة الدين

قال سيدنا رسول الله « مَنْ أصبح آمنا فى سِرْبه مُعَافًى فى بَدَنه عندهُ قُوتُ يومِه فكأنما حيزَتْ له الدُّنيا »

« قال ابنُ برى : قال جماعةٌ من أهل اللغة : السِّرْب : النفس قال : وأنكر

ابنُ دَرَسْتَوَيْه قولَ من قال فى نفْسِه قال : وإنما المعنى : آمِنٌ فى أهله وماله وولده، ولو أمن على نفسه وحدها دون أهله وماله وولده لم يُقَلْ هو آمِنٌ فى سِرْبه ، وإنما السِّرْب ههُنا : ماللرجل من أهْل ومالٍ، ولذلك سمى قطيع البقَر والظباء والقَطا والنساءِ سِرْبا، وكان الأصلُ فى ذلك أنْ يكون الراعى آمناً فى سِرْبه والفَحْلُ آمناً فى سرْبه ، ثم اسْتُعْمِل فى غير الرعاة استعارَة فيماشُبِّه به . وحيزت : جُمِعَتْ وضُمَّتْ ، وبحذافيرها : بأسْرِها »

وقال ابن الرومى :

إذا ماكساكَ اللهُ سِرْبالَ صِحَّةٍ ولم تَخْلُ من قُوتٍ يَحِلُّ ويَعْذُبُ

فلا تَغْبِطَنَّ الُمتْرَفِينَ فإنهم على حَسْبِ ما يُعْطِيهمُ الدهْرُ يَسْلُبُ

«السربال : القميص ، وحَلٌّ : من الحلال مقابل الحرام ، والغبطة : أن تتمنى مثل حال المغبوط ـ الحسن الحال ـ من غير أن تريد زوالها ، وعلى حسب : على قدر وعدد» وقالوا : مَن أُوتِيَ العافيةَ فظَنَّ أنَّ أحداً أُوتِيَ أكثرَ منه فقد قلَّلَ كثيراً وكثَّرَ قليلا « كثَّر قليلا ، لأن ماعدا العافية فهو قليل بالإضافة إليها » ...

عبقريات شتى فى الدنيا

قال أبو حازم : وما الدُّنيا ! أمَّا ماضى فحُلْمٌ وأما ما بَقِى فأمانِىُّ . وقال بكر بن عبد الله : المسْتَغْنى عن الدنيا بالدنيا كالُمطْفئ النارَ بالتِّبْنِ . وقال ابنُ مسعود : الدنيا كُلُّها غموم ، فما كان فيها من سرور فهو رِبْح .

وقال بعضُ الحكماء : مَثَلُ الدنيا والآخرة مثلُ رجُلٍ له ضَرَّتان إن أرْضَى إحداهما أسْخَطَ الأُخرى ... وقال سُفيان الثَّورى : تركَ الملوكُ لكم الحِكْمة فاتْرُكوا لهم الدنيا . وقال يحيى بنُ خالد البرمكى : دَخلنا فى الدنيا دُخولا

أخرجَنا منها . وكان الحسن البَصرى كثيرا ما يَتمثّل كلما جَرى ذِكْر الدنيا ـ :

اليومَ عِندَك دَلُها وحديثُها وغداً لغيرك كَفُّها والمِعْصَم

وهذا البيت كذلك يقال فى غدر المرأة ونلة وفائها . وكان إبراهيمُ بن أدهم العِجْلىُّ يقول :

نُرَقِّعُ دُنْيانا بتمزيقِ دِيننا فلا دِينُنا يَبْقَى ولا ما نُرَقِّعُ

وقال السيد المسيح : أنا الذى كَفَأْتُ الدنيا على وَجْهها ، فليست لِى زوجةٌ تموتُ ولا بيتٌ يَخْرَبُ . وقيل لمحمد بن واسع : إنك لترضَى بالدون فقال : إنما رَضِىَ بالدون مَنْ رَضِىَ بالدنيا ... وقالت امرأةٌ لزوجها ورأتْهُ مَهْموما : مِمَّ هَمُّك ؟ أبالدنيا فقد فَرَغ اللهُ منها أم بالآخرةِ فزادك الله هَمًّا ؟ وقال السيد المسيح : حُبُّ الدنيا أصْلُ كلِّ خطيئة والمالُ فيها داءٌ كثير ، قيل : ما داؤه ؟ قال : لا يَسْلَمُ صاحبه من الفخر والكِبر ، قيل : وإنْ سَلِم ؟ قال : يَشْغَلُه إصلاحُه عن ذِكْرِ الله . وقال سيدنا رسول الله : مَن أصبَحتِ الدُّنيا هَمَّهُ وسَدَمَه [1] نزَعَ اللهُ الغِنى من قلبه ، وصَيَّرَ الفقْر بين عيْنَيْه ولم يأتِه من الدُّنيا إلا ما كُتِبَ له ؛ ومَن أصْبحَتِ الآخرةُ همَّه وسَدَمَه نزَعَ الله الفقْرَ من قلبه وصَيَّرَ الغِنى بين عيْنَيْه وأتتْهُ الدنيا وهى رَاغِمَة ... وقال سيدنا رسول الله للضَّحَّاك بن سُفيان : ماطعامُكَ ؟ قال : اللحمُ واللبنُ قال : ثم يَصيرُ إلى ماذا ؟ قال : ثم يَصيرُ إلى ماقد علمْتَ ، قال : فإنَّ اللهَ ضَرَبَ مايخرُجُ من ابن آدمَ مثلا للدنيا ... وكان بشرُ بنُ كعبٍ يقول لأصحابه إذا فَرَغ من حديثه : انطلِقوا حتى أُرِيَكُمُ الدنيا ، فيجىءُ فيقِفُ بهم على السُّوقِ ، وهى يومئذ مَزْبَلةٌ ، فيقول : انظروا إلى عَسَلِهم وسَمْنِهم وإلى دَجاجِهم وبَطِّهم

(١) السدم : الولوع بالشىء .

صارَ إلى ما تَرَوْن ...

وقال محمد بنُ وُهَيب : (١)

نُراعُ لِذِكْرِ الموتِ ساعةَ ذِكْرِه وتَعْتَرِضُ الدنيا فنَلْهو ونَلْعَبُ

ونحنُ بنُو الدنيا خُلِقْنا لِغيْرِها وما كُنْتَ منه فهو شيءٌ مُحَبَّبُ (٢)

يَقينٌ كأنَّ الشَّكَّ غالِبُ أمْرِه عليه وعِرفانٌ إلى الجهل يُنْسَبُ

أقول : لعله ينظر إلى قول جرير :

تُرَوِّعُنا الجنائزُ مُقْبِلاتٍ فنَلْهُو حين تَذْهَبُ مُدْبِرَاتِ

كرَوْعةِ ثَلَّةٍ لمُغارِ ذِئْبٍ فلما غابَ عادتْ راتعاتِ (٣)

قال أبو عمرو بن العلاء : جلستُ إلى جَرير وهو يُمْلِي :

* وَدِّعْ أُمامةَ حانَ منك رَحِيلُ *

ثم طَلعت جِنازة فأَمْسَك وقال : شَيَّبَتْنى هذه الجنائز ، قلتُ : فلِمَ تُسابُّ الناسَ ! قال : يبدأوننى ثم لا أعْفُو وأعْتدى ولا أبتَدى ، ثم قال هذين البيتين ... وقول محمد بن وهيب : يقين كأنّ الشك أغلب أمره ... ألبيت فمأخوذ من قول الحسن البصرى : ما رأيتُ يقيناً لا شَكَّ فيه أشْبهَ بشكٍّ لا يقين فيه ، إلا الموت ...

---

(١) شاعر بصرى من أهل بغداد مدح المأمون والمعتصم ويعدّ وسطاً فى طبقة دعبل وأبى سعيد المخزومى ، وكان يتشيع ويستميح الناس بشعره ، انظر ترجمته فى معاهد التنصيص

(٢) يقول : إننا أبناء الدنيا وما دمنا كذلك كانت الدنيا محبوبة لنا .

(٣) الثلة : بفتح الثاء . جماعة الغنم ، أما الثلة بضم الثاء فالجماعة من الناس ، وهذا من غرائب هذه اللغة الكريمة .

وقال أحد الظُّرَفاء : إن الدنيا قدِ استودَقتْ وأنعَظ الناس : « استودقت يقـال : ودَقت الفرس تَدِقُ وَدْقاً واستودَقت : إذا طلبت الفحل » وقال حـكيم : من أراد الدنيا فليَتَهيَّأ للذل . ومن كلمة لعلىّ بن أبى طالب : أهلُ الدنيا كَرَكْبٍ يُسارُ بهم وهم نيام . . ومن كلامه رضى الله عنه ـ وقد قال له رجلٌ وهو فى خُطبة : يا أمير المؤمنين ، صِفْ لنا الدنيا فقال : ما أصفُ من دارٍ أوَّلها عَناء وآخِرُها فَناء ، فى حَلالها حساب وفى حَرامِها عقاب ، مَن صَحَّ فيها ماأمِنَ ، ومن مَرِضَ نَدِمَ ومَن استغنى فُتِنَ ، ومن افتقر فيها حَزِن ! وقال أيضاً : إنما المرءُ فى الدنيا غَرَضٌ تَنْتضِلُ فيه المَنايا ، ونَهْبٌ للمصائب ، ومع كلّ جَرْعةٍ شَرَقٌ ، وفى كلّ أُكْلةٍ غَصَصٌ ، ولا يَنالُ العبدُ فيها نِعْمةً إلا بفراقِ أخرى ، ولا يَستقبِلُ يوماً من عمره إلا بهَدْمِ آخَرَ من أجَله ، فنحنُ أعوانُ الحُتوف ، وأنفُسنا تسوقُنا إلى الفَناء ، فمن أين نرجو البقاء ! وهذا الليلُ والنهار لم يَرْفعا من شيء شرَفا إلّا أسرَعا الـكرّة فى هَدْم ما بَنَيا ، وتفريق ماجَمَعا ، فاطلبوا الخيرَ وأهْلَه ، واعلموا أن خيراً من الخـير مُعْطِيـه ، وشرًّا من الشرّ فاعِـلُه ... « الغرض : الهـدَف ، والنهب : المـال المنهوب غنيمةً والجمع نِهاب وقد تقدم شرح الجرعة والشرق والغصَص ، وقوله : فنحن أعوان الحتوف فالحتف : الموت ، ومعنى أننا أعوان الموت : أنا نأكل ونشرب ونجامع ونركـب الخيل والسفن والطـائرات ونحوها ونتصرف فى أسبابنا وحاجنا ومآربنا ، والموت إنما يكون بأحد هذه الأمور إما من أخلاط تُحدِثها المـآكل والمشارب ، أو من سـقطة يسقط الإنسان من دابةٍ هو راكبها أو من ضَعف يلحقه من الجمـاع المفرط أو مصادمات واصطكاكات تصـيبُه عند تصرفه فى مآربه وحركته وسعيه ونحو ذلك ،

فكأنّا نحن أعنّا الموت على أنفسنا »

وقال على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم : مالَكَ من عيشك إلا لذّةٌ تزدلِفُ بك إلى حِمامك وتقرّبُك من يومك ، فأيةُ أُكْلة ليس معها غَصص أو شَربة ليس معها شرق ! فتأمل أمرك فكأنك قد صِرْتَ الحبيبَ المفقودَ والخيالَ المخترمَ ، أهْلُ الدنيا أهلُ سفَر لايحُلُّون عَقْدَ رحالهم إلا فى غيرها « قوله : تزدلِفُ بك إلى حمامك : أى تُقرِّبك إلى موتك ، والمخترم المسْتأصل والمُقتطع ».

وقال حكيم : مَن ذاالذى يَبْنى على مَوج البحر داراً ! تلكم الدنيا ، فلا تتخذوها قرارا ... وقيل لبعض الرُّهبان : كيف ترى الدهر ؟ قال : يُخْلق الأبدان ، ويُجدِّد الآمال ، ويُقرِّبُ المنيَّة ، ويُباعِد الأمْنِيّة ، قيل : فما حال أهله ؟ قال : مَنْ ظَفِرَ به تعب ، ومن فاته اكتأب ، وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

ومن يحمَدِ الدُّنيا لِعَيْشٍ يسُرُّهُ فسوف لعَمْرى عن قليلٍ يَلومُها
إذا أدْبَرت كانت على المرءِ حَسْرَةً وإن أقبلت كانت كثيرا همومها

قال حكيم : مِن عَيب الدنيا أنها لا تعطى أحدا ما يستحق ، إما أن تَزيد له وإما أن تَنقص ... وقال أبو العتاهية :

تعالى الله يا سَلْمُ بنَ عمْرو أذَلَّ الْحِرْصُ أعناقَ الرجال
هَبِ الدُّنْيا تُساقُ إليْكَ عَفْوًا أليس مَصيرُ ذاكَ إلى الزَّوالِ
وما دُنْياكَ إلا مِثْــلُ فَىْءٍ أظَلَّكَ ثمَّ آذَنَ بانتِقـالِ

ولنجتزئ بهذا المقدار فَعَبقرياتهم فى الدنيا لايكاد يبلغها الإحصاء.

عبقرياتهم فى الموت

أسماء الموت وَوصْفه

الموت : ضدُّ الحياة ، ويقال : مات يَمُوتُ و يَمَاتُ — لغةٌ طائية — وقالوا : مِتَّ تَموت ؛ قال ابن سيده ؛ ولا نظير لها مِنَ المعتلّ ، ورَجُلٌ ميّت ومَيْت ، وقيل : الميْت : الذى مات ، والميّت والمائت : الذى لم يمُتْ بعدُ ، يقال : هو ميّتٌ غدا ومائت ولا يقال : مَيْتٌ ، قالوا : وهذا خطأ ، وإنما مَيِّت يصلح لما قد مات ولما سيموت ، وقد جمع بين اللغتين عَدِيّ بن الرَّعْلاء الغسّانى ـ والرعلاء أُمّه ـ فقال :

ليسَ من مات فاسْترَاحَ بميْتٍ إنّما الميْتُ مَيِّتُ الأحْياءِ
إنَّما الميْتُ من يعيش كئيبا كاسفـاً بالُه قليلَ الرجاء
فأُناسٌ يُمَصَّصُونَ ثِمَادًا [١] وأُناسٌ حُلوقُهُمْ فى الماء

فجَعَل الميْتَ كالميِّت ... ويقال للموت : الهِمْيَع ، وقيل : الهِمْيَعُ : الموتُ المُعَجل . أقول : ولعله سُمى كذلك لأن الرُوح تهْمَع : أى تسيل ، من هَمَع الدمْعُ والماء : سال . ومن أسماء الموت أيضا : النَيْط ، رُوى عن على رضى الله عنه أنه قال : لَوَدَّ مُعاوِيَةُ أنه مابقى من بنى هاشم نافخ ضَرَمَةٍ إلا طُعِنَ فى نَيْطه [٢] ، معناه : إلّامات ، قال ابن الأثير : والقياس : النَوْط ، لأنه من ناط ينوط : إذا عُلِّق ، وقيل : النيط : نياط القلب ، وهو : العِرْق الذى يتعلق به القلب ... ومن أسماء الموت : الرَّمْدُ قال أبو وَجْرة السعدىّ :

صَبَبْتُ عليكم حاصِبِى فتركتُكم كأصْرامِ عادٍ حين جَلّلها الرَّمْدُ

ه الحاصب . العذاب يكون بالريح الشديدة تحمل الحصباء ، والأصرام : الجماعات

---

(١) الثماد : الماء القليل الذى لامادة له (٢) الضرمة بتحريك الميم : الجمرة أو النار نفسها ، ويقال مابالدار نافخ ضرمة : أى مابها أحد .

من الناس » والرّمادة : الهلاك؛ ومنه قيل: عام الرمادة؛ لأن النّاس والأموال هلكت فيه كثيرا [1] ومن أسمائه: أمّ قَشعَم، قال أبو عُبيد: أُم قشعم: المَنيّة، ويقال للشيخ الكبير والمُسنّ من النُسور والرَّخَم: قشعم، لِطول عمره. وأُمّ قَشْعَم فى قول زُهير فى معلقته:

فَشَدَّ ولَمْ يُفزِعْ بُيوتا كثيرةً لَدَى حَيثُ ألقتْ رَحْلَها أُمُّ قَشْعَمِ

قيل: الحرب، وقيل: المنية، وقيل: الضَّبُع، وقيل: العنكبوت، وقيل: الذِلة ... ومن أسمائه: أُمّ اللهَيْم. قال الخليل بن أحمد: أُمُّ اللهَيم: المنية، لأنها تلتهم كل شىء. ومن أسمائه: شَعُوبُ، قال ابن السكّيت: شَعوبُ: اسم المنية، مؤنثة مَعْرفة لاتنصرف وأنشد:

* ومَن تَدْعُ يَوماً شَعُوبُ يُجِبْها *

قال: وإنما سميت المنية شَعوبَ لأنها تَشعَبُ — أى تُفرّق — يقال: شَعَبَ وأشْعَبَ وانْشعَبَ: هَلَك. . ومن أسمائه: الفَوْدُ، فادَ يَفودُ فَوداً: مات، قال لبيدُ بنُ رَبيعةَ يَذْكر الحارثَ بن أبى شمر الغَسّانىَّ، وكانَ كلُّ مَلك منهم كلما مضت عليه سَنةٌ زادَ فى تاجِهِ خَرَزَةً، يُرادُ بذلك أنْ يُعلمَ عددُ السنينَ التى ملكها، فأراد أنه عُمِّرَ حتى صارَ فى تاجه خَرزاتٌ كثيرةٌ:

رَعَى خَرَزاتِ المُلْكِ سِتّينَ حِجَّةً وعِشرينَ حَتَّى فادَ والشيبُ شامِلُ

ومن أسمائه: الحِمامُ. يقال نَزَل به حمامُه: أى مَوتُه وقَدَرُه، منْ حُمَّ كذا أى قُدِّر أنشدَ ابنُ بَرّى لخَبّابِ بنِ غُزَىٍّ:

---

(١) عام الرمادة كان سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة من الهجرة أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وأرْمِي بنفسى فى فروجٍ كثيرةٍ وليس لأمرٍ حَمَّهُ اللهُ صارِف

ومن أسمائه : المَنُون ، قيل : المنونُ تكون واحدا وجمعا ، قال أبو ذُؤيب الهذلىُّ ...

* أمِن المَنُونِ ورَيْبه تتوجَّع *

وَمِن جَمْعِه قول عَدى بنِ زيد العبادى :

مَنْ رأيتَ المنونَ خَلَّدْنَ أم مَن ذا عليه مِن أنْ يُضام خَفِيرُ

وقال الأصمعىُّ : المنونُ واحدٌ لاجمعَ له ، فأما قول عدىّ بن زيد فعلى معنى العموم والكثرة فى الموت ، إذ كان أدهى الدواهى ؛ وقال ابن جنى : من أنث المنون ذهب إلى معنى المنيّةِ ومَن ذَكَّر أراد الدهر ، وسُمّى الدّهر مَنُونا لأنه يذهب بمُنَّةِ الإنسان : أى قُوّته ... ومن أسمائه : المُوتان والمَوْتانُ ، قال صاحب اللسان : المُوتان والمَوتان والمُوات كله : الموت ؛ وفى الحديث : يكونُ فى الناس مُوتانٌ كقُعاصِ الغَنم ، فالمُوتان : الموت الكثير الوقوع .

* * *

ومن صفات المَوت : مَوتٌ زؤام : أى كريه ، وقيل : عاجلٌ ، وقيل : سَريعٌ مُجْهِزٌ ، والمعنى الأوّل هو الأصحّ ؛ ومن أوصافه أيضاً : مَوْتٌ زُعافٌ وذُعاف وزُؤاف وجُحافٌ وجُحاف : شديد يذهب بكل شىء يقال : سيل جُحاف وجُراف : يذهب بكل شىء ، وزُعاف وذؤاف وذعاف : سريع وحِىّ ، وقيل : شديد ، ومنها : ماتَ قَعْصًا : أى مَوْتاً وحِيا ، ويقال لمن مات نُجاءةً : فَقَسَ يفقِسُ فقُوسا ، وفَطَسَ يَفطِسُ فُطوساً ، ويقال لَعِقَ إصْبَعَهُ وطَنَّ وتَدَبَّلَ : أى مات ، ويقال أطْلَى الرجُلُ : أى مالت عنقه عند الموت ، ويقال : جَرِضَ بريقه ، وأصلُ الجَرَض : الغُصّة ، والمراد : عانى غَصص الموت

ومن ذا المثلُ : حالَ الجريضُ دون القَرِيض ، قاله عَبيد بن الأبرص للمنذر حين أراد قتله وقال له : أنشدنى من قولك ، فقال عند ذلك : حال الجريض دون القريض ، «الجريض : الغَصصُ واختلاف الفكّين عند الموت ، والقريض : الجِرّة[١] - لأنه إذا غُصّ لم يقدر على قرضِ جِرّته ، والقريض أيضاً : الشِّعْر ، ويقال اسْتَأثر الله به ، وانحلّ تركيبُه ، ومَضى لما خُلِقَ له ، وأتاه ما كان يحْذَر ، وأكل الدهرُ عليهم وشَرِبَ ، وهذا مقلوب ، وإنما هو : أكلوا على الدهر وشربوا ؛ وصَفِر وِطَابه ، ومعناه : أن جِسْمَه خلا من روحه ؛ وأجود وصف للموت قول سيدنا رسول الله : أكثِروا من ذكر هاذِم اللذّات[٢] ... ولنجتَزِئ بهذا المقدار[٣]

تعظيم أمر الموت

قال الحسن البَصرىّ : إنّ الموتَ قد فَضَحَ الدنيا ...

وكان كثيراً ما يقول : عند الموت يأتيك الخبَر ... وقال له رجُلٌ يوماً إنْ عِشتَ تر مالمْ ترَه ، فقال : إنْ مِتّ تر مالمْ تره ... وفى الأثر : ما رأيتُ منظَراً فظيعاً إلّا والموتُ أعظم منه ...

---

(١) الجرة : مايخرجه البعير وكل ذى كرش ليمضغه ثم يباعه

(٢) تقرأ هادم بالدال المهملة وبالذال المعجمة ومعناها مزيل الشىء من أصله والرواية بالمعجمة .

(٣) إذا أردت التوسع فى أوصاف الموت وأسمائه فإلى الجزء السادس من المخصص لابن سيده

حثهم على تصور الموت

كان الحسنُ البَصْرىُّ إذا خَوَّف من الموت يقول للشُّيوخ : الزرْعُ إذا بلغ ما يُصنَع به؟ قالوا : يُحْصَد ، ويقول : للشُّبَّان : يامعشَرَ الشُّبّان كَمْ من زرع لم يبْلُغْ أدركته الآفة !

وقال بعضُ الْخُلفاء لابن السماك[1] : عِظْنى وأوْجِزْ ، فقال : اعْلَمْ أنك أوّلُ خليفة تموت ؛ وهذا كما سأل أرْدَشِيرُ بعض الحكماء عن دار بناها وقال : هل ترى فيها عيبا؟ قال الحكيم : نعَم ، عيبا لايمكنك إصلاحه ، فقال وماهو؟ قال : لك منها مَخْرَجة لاعود بعدها أودَخْلَةٌ لاخروج بعدها ... وقالوا : من ضاق به أمرٌ فليتذكر الموت فإنه يتّسعُ عليه ··· ونحوه : مَن أحسّ بأنه يموتُ فليس ينبغى أن يغْتَمّ لأمرٍ صَعْبٍ ينزل به .

وشكا رجلٌ إلى سيدنا رسول الله قساوة قلبه فقال صلوات الله عليه : أكثِرْ من ذكر هاذم اللذات ، فإنه ماذكرهُ أحدٌ فى ضيقٍ إلا وسَّعَهُ عليه ولا فى سَعَةٍ إلا ضيّقها عليه ... وقال بعض الصالحين : نِعْمَ نصيحةُ القلب ذِكْرُ الموت ، يطرُدُ فضول الأمل ، ويُكفْكِفُ غَرْبَ المُنَى ويهوّنُ المصائب ، ويحول بين القلب وبين الطُّغيان ... وقال الحسنُ البَصرى ـ وقد قعد عند رأس مَيِّتٍ : إن أمرا هذا آخره لأهلٌ أن يُزْهَدَ فيما قَبْلَه ، وإن أمرا هذا أوله لأَهْلٌ أن يُحذرَ ما بعده ، ونظر الحسن إلى صبيَّة بين جِنازة أبيها تقول : يا أبتِ مِثْلَ يومك لم أرَه ، فضمَّها الحسن وقال : أىْ بُنَيَّة ، وأبوكِ مثلَ هذا اليوم لم يره ؛ فبكى الناس ··· ومر علىُّ بن أبى طالب رضى الله عنه بمقابر

---

(١) هو أبو العباس محمد بن صبح العابد المحدث المتوفى سنة ١٨٣

الكوفة فقال : السلامُ عليكم أهلَ الديار الموحشة ، والمحالِّ المُقفِرة ، أنتم لنا سَلف ونحن لكم تَبعٌ ، أما الأزواجُ فقد نُكِحَتْ ، وأما الديارُ فقد سُكِنَتْ ، وأما الأموالُ فقد قُسِمَتْ ؛ هذا خبَرُ ما عندنا ، فما خبَرُ ما عندكم ؟ ثم التفت إلى أصحابه فقال : أمَا إنهم لو تكلموا لقالوا : إنّا وجدنا خيرَ الزاد التقوى .

استدلال الإنسان

على موته بمن مات من أهلِه

قال أبو نواس من أبيات قد أوردناها عليك فى باب التقوى :

ألا يا ابنَ الذين فَنُوا وماتوا أمَا واللهِ ما ماتوا لتبْقَى

وقال بعض الصالحين : إنّ امرأً ما بينه وبين آدمَ أبٌ إلا مَيِّتٌ لَمُعْرِقٌ فى الموت ... وقال لبيد :

فإنْ أنتَ لم تَصدُقْك نفسُك فانتَسِبْ لعلّكَ تَهديك القُرونُ الأوائلُ

فإنْ لم تجِدْ مِن دونِ عدنانَ باقِيا ودُون مَعَدٍّ فلتَزَعْك العواذل

« وهذان البيتان من قصيدة يرثى بها النعمان بن المنذر ملك الحيرة وأولها :

ألا تسألانِ المرءَ ماذا يُحاوِلُ أنحْبٌ فيُقْضَى أمْ ضلالٌ وباطل

وفيها يقول :

ألا كلُّ شىءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ وكلُّ نعيمٍ لا مَحالة زائل

وكُل أُناسٍ سوف تَدخُلُ بينهم دُوَيهِيَةٌ تَصْفَرُّ منها الأنامل

وقوله : فإن أنتَ لم تَصدُقك . . ألبيت يقول : إنْ لم تَصدُقْكَ نفسُك عن هذه الأخبار ، بل كذَبتْكَ ، فانتَسِبْ : أى قل : أين فلان بن فلان ، فإنك لا ترى أحدا بقِى ، ولعلك تهديك القرونُ وتُرشِدُك ، وقوله : فإن لم تجد... ألبيت

فزعك : تكفك ، والعواذل هنا : حوادثُ الدهر وزواجره ، وقال بعض الشراح : العواذِل : النساء ، يقول : لم يبق لك أبٌ حيٌّ إلى عدنان فكُفَّ عن الطمع فى الحياة ، ومعنى البيتين : إن غايةَ كلِّ حيّ الموتُ ، فينبغى للإنسان أن يتعظ : بأن يَنسُبَ نفسه إلى عدنان ، فإن لم يجدْ مَن بينَه وبينه من الآباء باقياً فليعلم أنه يَصير إلى مصيرهم ، فينبغى له أن يَنزِعَ عما هو عليه »

ومثله قول امرئ القيس :

فبَعضَ اللَّوْمِ عاذِلَتى فإنّى ... سيَكفينى التجارِبُ وانتِسابى

إلى عِرْقِ الثَّرَى وشَجَتْ عُروقى ... وهذا الموت يَسْلُبُنى شَبابى

«وشَجَتْ : اشتبكت » وقال أبو تمام فى قصيدة له يمدح مالكَ بنَ طوقٍ ويعزيه عن أخيه القاسم :

تأَمَّلْ رُوَيْدًا هَلْ تَعُدَّن سالما ... إلى آدمٍ أم هل تَعُدُّ ابنَ سالمِ

متى تُرْعِ هذا الموتَ عيْنًا بَصيرَةً ... تجِدْ عادِلاً منه شبيهًا بظالمِ

« قوله : متى تُرْعِ البيت يقول : متى أنعمت النظر وأفكرت فى أمر الموت وجدت منه عادلا أشبه بظالم ، وذلك أنه قد يَخترمُ من يكون اخترامُه أصلحَ له لدى العزيز الحكيم الذى يعلم مصالح خَلْقه وقد يَخْفَى عليك وَجْهُ الحكمة فتظنُّ العدلَ جورا »

وقال البُحترى

وما أهْلُ المنازل غيرُ رَكْبٍ ... مَناياهم رَوَائحُ وابتِكارُ

لنا فى الدَّهرِ آمالٌ طِوالٌ ... نُرَجِّيها وأعمارٌ قِصارُ

والبيت الثانى مثله قول ابن هانئ الأندلسىّ من أبيات يَرْثِى بها والدة يحي وجعفر ابنَىْ علىّ صاحب المَسِيلة بالمغرب ، وهذه هى الأبيات :

صَدَق الفَناءُ وكُذِّبَ العُمُرُ وجَلاَ العِظاتِ وبالَغَ النُّذُرُ
إنَّا ، وفى آمالِ أنفُسِنا طُولٌ وفى أعمارِنا قِصَرُ
لنَرَى بأعْيُنِنا مَصارِعَنا لو كانتِ الألبابُ تَعتبِرُ
مِمّا دَهانا أنَّ حاضِرَنا أجفانُنا ، والغائِبُ الفِكَرُ
وإذا تَدبَّرْنا جوارِحَنا فأَكَلُّهُنَّ العَيْنُ والنَّظَرُ
لو كانَ للألبابِ مُمْتَحَنٌ ماعُدَّ منها السمْعُ والبَصَرُ (١)
أىُّ الحياةِ ألَذُّ عِيشَتَها مِن بَعد عِلْمِى أننى بَشَرُ
خَرِسَت لَعمرُ اللهِ ألْسُنُنا لمّا تكلّمَ فوقَنا القَدَر

الاعتبار بمن مات من الكبار

قال عدِىُّ بنُ زيد العِبادىّ :

أيُّها الشّامِتُ المُعيِّرُ بالدَّهْـ ـرِ أأنت المُبَرَّأُ المَوْفورُ (٢)
أمْ لَدَيْكَ العهدُ الوَثِيقُ من الأيّا مِ بلْ أنتَ جاهلٌ مغْرُورُ
مَنْ رَأَيْتَ المَنُونَ خَلَّدْنَ أمْ مَنْ ذا عليه مِن أن يُضامَ خَفِيرُ (٣)
أينَ كِسْرَى كِسْرَى الملوكِ أنُوشَرْ وانَ أمْ أينَ قَبْلَهُ سابورُ (٤)
وبَنُو الأصفرِ الكرامُ ملوكُ الرُّو مِ لم يَبْقَ منهمُ مذكورُ

(١) أى ما عد من الممتحنات : السمع والبصر ، لأن السمع يسمع المواعظ فلا يتعظ والبصر يبصر العبر فلا ينزجر

(٢) الموفور : يريد الذى لم تصبه نوائب الدهر

(٣) المنون : المنية أو الدهر كما تقدم

(٤) هناك سابور الجنود وهو ابن أردشير، وسابور ذو الأكتاف وهو سابور ابن هرمز وكلاهما من ملوك العجم قبل كسرى أنو شروان

وأخو الحَضْرِ إذْ بَناهُ وإذْ دِجْ ـلةُ تُجْبَى إليـه والخابورُ (١)
شـادَهُ مَرْمَرًا وجَلّله كِلْـ ـسًا فللطَّيرِ فى ذُرَاهُ وُكورُ (٢)
لمْ يَهِبْهُ رَيبُ المَنونِ فبـادَ الـ ـمُـلكُ عنه فبـابُه مَهْجورُ
وتَذَكَّرْ رَبَّ الخَوَرْنَقِ إذ أصْـ ـبحَ يوما ولِلْهُدَى تفْـكِيرُ (٣)
سَرَّهُ حَالُه وكثرةُ ما يَمْـ ـلكُ والبحْرُ مُعْرِضًا والسَّديرُ (٤)
فارْعَوَى قلبُه فقـال : وما غِبْـ ـطةُ حَيٍّ إلى المماتِ يَصـيرُ
ثمَّ بعدَ الفَلاَحِ والمُلكِ والنِّعْـ ـمةِ وَارَتْهُمُ هنـاكَ القبور
ثُمَّ صاروا كأنهم وَرَقٌ جَـ ـفَّ فألْوَتْ به الصَّبا والدَّبور (٥)

ومما كان يصح أن يذكر فى هذا الباب مرثية الوزير الشاعر الأندلسى عبد المجيد ابن عبدون التى يرثى بها بنى الأفطس ـ من ملوك الطوائف بالأندلس ـ وذكر فيها عدّة من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدهر بحوادثه ونكباته، ووثب عليهم الزمن فما وَجَدوا أُجُنَّةً تقيهم من وثباته ، ودبت عليهم الأيام بصروفها ، وسقتهم

(١) الحضر : قصر كان بجبال تكريت بين دجلة والفرات ، وأخو الحضر كان صاحب تلك الناحية وسائر أرض الجزيرة : وله حديث طريف انظره فى الأغانى ج ٢ فى ترجمة عدى بن زيد طبع دار الكتب ، والخابور . اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة

(٢) الكلس : الصاروج أى النورة وأخلاطها تطلى بها المنازل وغيرها، وذراه : أعاليه ، والوكور : جمع وكر: العش

(٣) صاحب الخورنق ـ وهو القصر الذى بناه سنمار ـ هو النعمان بن امرئ القيس عامل يزدجرد بن سابور على أرض العرب وله قصة انظرها فى الأغانى وهو الذى ساح على وجهه فلم يعرف له خبر

(٤) معرض بمعنى متسع ومنه أعرض الثوب أى اتسع وعرض ، والسدير : نهر

(٥) ألوت به : ذهبت به

المَنِيّة بكأس حُتوفها ، ومطلعها :

الدَّهْرُ يَفْجَع بَعْدَ العَين بالأَثَر فما البُكاءُ على الأشباح والصُّوَر

يد أنا لِطولها رأينا أن نضْرِب عن إيرادها هنا صفحا ، وتراها فى المجلد الخامس من نهاية الأرب للنويرى الذى قامت بطبعه دار الكتب المصرية ...

وقد شرحها ابن بدرون ، ومن أبياتها :

فلا تَغُرَّنْكَ مِنْ دُنياك نَوْمَتُها فما صِناعةُ عينَيْها سِوَى السَّهَرِ

مالِلَّيالى — أقالَ اللهُ عَثْرَتنا مِن اللَّيالى وخانَتْها يدُ الغِيَرِ

فى كلِّ حِينٍ لها فى كل جارحة منا جِراحٌ وإن زاغتْ عنِ البَصَرِ

تَسُرُّ بالشيءِ لكِنْ كىْ تَغُرَّ به كالأيْمِ[1] ثارَ إلى الجانِي من الشَّمَرِ

وقال المتنبي :

أبَنِي أبينا نحْنُ أهْلُ مَنازِلٍ أبدًا غُرابُ البَيْنِ فيها يَنْعِقُ

نَبْكِى على الدُّنيا وما مِنْ مَعْشرٍ جَمَعتْهُم الدنيا فلمْ يَتفرَّقُوا

أَيْنَ الأكاسِرَةُ الجبابرةُ الأُلَى كَنَزُوا الكُنوزفما بَقِينَ ولا بَقُوا

مِنْ كلِّ مَنْ ضاق الفضاءُ بجَيْشِه حتى ثَوَى فحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّق

خُرْسٌ إذا نُودُوا كأنْ لمْ يَعْلَموا أنَّ الكلامَ لهمْ حَلالٌ مُطْلَقُ

والمَوْتُ آتٍ وَالنُّفوس نَفائِسٌ والمُسْتغِرُّ بما لَدَيْهِ الأحْمقُ

والمرْءُ يَأْمُلُ ، والحياة شَهِيّةٌ والشَّيْبُ أَوْقَرُ ، والشَّبيبةُ أنْزَقُ

« أبنى أبينا : يا إخوتنا ، يابنى آدم ، وأراد بغراب البين : داعى الموت يقول : نحن نازلون فى منازل يَتفرّق عنها أهلُها بالموت ، فقوله : نبكى على

(١) الأيم : الأفعى .

الدنيا ... ألبيت مثله قول جرير يرثى امرأته :

لا يَلْبَثُ القُرَناء أنْ يَتفرَّقوا ليلٌ يَكُرُّ عليهم ونَهارُ

وثوى ـ بالمثلثة : أقام فى القبر ؛ وبالمثناة : هلك ، وهذا البيت من قول أشجع :

وأصبحَ فى لَحْدٍ مِن الأرض ضَيِّقٍ وكانت به حَيًّا تَضِيقُ الصحاصح

« الصحاصح جمع صحصح : وأصله ما استوى من الأرض وكان أجرد »

والمستغر : المغرور ، يقول فى هذا البيت : النفوس يأتى عليها الموت وإن كانت عزيزة نفيسة لا يمنعه ذلك من أخذها ، والأحمق هو المغرور بالدنيا وبما يجمعه فيها ، أما العاقل فإنه لا يغتر بما جمعه لعلمه أنه لا يبقى هو ولا ما جمعه ، وقوله : والمرء يأمل ... ألبيت يقول : المرءُ يَرجو الحياةَ لِطِيبها لَدَيْه ، والشيبُ أكثرُ له وقاراً من الشّباب ، يعنى : أن المرء يكرهُ الشيبَ ويُحِبُّ الشباب والشيبُ خيرٌ له ، لأنه يُكْسِبُه الحلم والأناة والوقار ، والشبابُ شر له ، لأنه يَحمِلُه على الطيش والنزَق والحُمق ، وقال الشاعر :

رُبَّ قومٍ عَبَرُوا من عيشِهم فى نعيمٍ وسرورٍ وغَدَقْ

سكَت الدهرُ زمانا عنهمُ ثم أبكاهم دماً حين نَطَقْ

« الغدق المراد به الخصب والسعة » وقال مالك بن دينار :

أتيتُ القُبورَ فناديتُهنَّ أينَ المعظَّم والمحتقَرْ

وأين المُدِلُّ بسُلطانِه وأينَ المُزَكَّى إذا ما افتخَرْ

قال : فنوديتُ من بينها ولا أرى أحدا :

تفانَوْا جميعاً فما مُخْبِرٌ وماتوا جميعا ومات الخبرْ

تَرُوحُ وتغدُو بَناتُ الثَّرَى وتَمْحُو محاسِنَ تلك الصُّوَرْ

فياسائلى عن أناسٍ مَضَوْا أمالَكَ فيما ترى مُعتَبَرْ !

« بنات الثرى : الدود » ...

ونزل النُعمانُ بنُ المنذر ومعه عدىُّ بنُ زيد العِبَادىُّ فى ظِلٍّ شجرة عظيمة لِيَلْهُوَا ، فقال له عدىّ : أتَدْرى ماتقولُ هـذه الشجرة ؟ قال : لا ، قال : تقول :

رُبَّ رَكْبٍ قد أناخُوا حَوْلَنا   يَمزُجُونَ الخمرَ بالماء الزُلالِ
ثمَّ أضْحَوْا عَصَفَ الدهرُ بهم   وكذاكَ الدهرُ حالًا بعد حالِ

ونظَرَتِ امرأةٌ إلى جعفر بنِ يحيي البَرْمكى وزير الرشيد ، وهو مصلوب فقالت : لئن كنتَ فى الحياة غايةً فلقد صِرتَ فى المماتِ آية ... ولما ماتَ الإسْكَنْدَرُ المقدونىُّ وقَفَ عليه أرِسطو الفيلسوف فقال : طالَمَا كان هذا الشخْصُ واعظا بَليغًا ، وما وَعَظ بمَوعِظَةٍ فى حياتِه أبلغَ من عِظَتِه فى مَماتِه ، أخذَ هذا المعنى أبو العتاهية فقال :

وكانت فى حياتِكَ لى عِظاتٌ   وأنْتَ اليومَ أوعَظُ منكَ حيًّا

من مات فقد تناهى فى البُعدِ

قال النابغةُ الذُبيانىُّ :

حَسْبُ الخليلَيْنِ نأىُ الأرضِ بينَهما   هذا عليها وهــذا تحتَها بالِى

وقال أبو حيَّةَ النميرىَ :

فـلا غائبٌ من كان يُرجَى إيابُه   ولـكنَّه مَن ضُمِّنَ اللّحدَ غائبُ

غفلة الناس عن الموت

قال أبو العتاهية :

النـاسُ في غَفلاتِهم ورَحى المنيَّةِ تَطْحَنُ

وقال الحسن البصريُّ : مارأيتُ يَقِينا لاشَكَّ فيه أشبه بشَكٍّ لايقين فيه مِثلَ الموت « وقد تقدم » وقال عمرُ بنُ عبد العزيز فى خطبةٍ له : ماهذا التغافُلُ عمّا أُمِرْتُم به ، والتسرُّعُ إلى مانُهيتُم عنه ! إن كنتُم على يقين فأنتم حَمْقَى ، وإن كنتم على شَكٍّ فأنتم هَلْكى ...

وقال شاعر :

ونأمُلُ من وعْدِ المُنَى غيرَ صادِقٍ ونأمَنُ من وعْدِ المَنَى غيرَ كاذِبِ

نُراعُ إذا ماشِيكَ إخمَصُ بعضِنا وأقدامُنا مابين شَوكِ العَقارِبِ

« المُنَى : جمع المُنْية وهو مايتمنّاه المرء، والمَنَى : الموت، وأصله القدَر تقول : منَى اللهُ لكَ مايسرُّك : أى قدر الله لك مايسُرُّك ويسمى الموت بالمَنَى لأنه قُدِّر علينا » وقيل : مَن لم يرتَدِعْ بالموتِ وبالقرآن ثم تناطَحتِ الجِبالُ بين يدَيهِ لم يرتَدِع .

لاينجو من الموت أحد

قيل : من لَمْ يَمُتْ عاجِلا ماتَ آجِلا ؛ وقال أُمَيَّةُ بن أبى الصَّلتِ :

مَنْ لمْ يَمُتْ عَبْطةً يمُتْ هَرَمًا للموْتِ كأسٌ والمرءُ ذائقُها

مالَذَّةُ النفسِ فى الحياةِ وإنْ عاشَتْ قليـلا فالموت لاحِقُها

يَقودُها قائدٌ إليــه ويَحْـدُوها حَثِيثاً إليــه سائقُها

« يقال : مات فلانٌ عَبطةً : أى شابا ، وقيل : شابًّا صحيحا ، وأصل العبيط من اللحم : ماكان سليما من الآفات ويقال : عَبَط الشاة والناقةَ وكلَّ دابَّةٍ : نَحَرها أوذبحها من غير داء وهى فتِيَّةٌ »

وقيل لابن المقفَّع : قد كنتَ نُعِيت لنا ! فقال : مابعُدَ كائن ولا قَرُبَ بائن ... وقال ابن المعتز :

أَلَا إنما جِسْمِى لِرُوحى مَطِيَّةٌ ولا بُدَّ يوماً أن يُعَرَّى مِنَ الرَّحْلِ

« الرحل : المنزل ، و السرج يوضع على ظهر الدابة ، وعُرِّى منه نُزِع عنه وهذا على المثل » وقال محمود الورّاق :

وماصاحِبُ السَّبعينَ والعشرِ بعدها بأقْرَبَ ممَّن حَنَّكَتْهُ القوابلُ
ولكِنَّ آمالا يُؤَمِّلُها الفتَى وفيهنَّ للراجِينَ حَقٌّ وباطِلُ

« القوابل جمع قابلة : المرأة تتلقى الولد لَدَى الولادة « المولِّدة » وحنَّكته فالتحنيك : أن تمضغَ التمرَ ثمّ تدلُكه بحَنَكِ الصبي داخِلَ فمِه » ...

وقال المتنبى :

وأوْفَى حَياةِ الغابِرِينَ لصَاحِبٍ حَياةُ امرئٍ خانَتْهُ بعد مَشِيبِ

« يريد المتنبي : أن الحياةَ وإن طالت فهى إلى انقضاء ، يقول : أوفى عُمر أن يَبقى حتى المشيب ثم يخونهُ عُمْرُهُ بعد ذلك ، وتصاراهُ الموت ؛ أو تقول : إذا عاش المرءُ إلى بلوغ المشيب ثم خانته حياته يومئذ فقد تناهت فى الوفاء »

ومرَّ شيخ من العرب بِغلام فقال له الغلام : أحْصَدْتَ ياعمّاه ، فقال : يا بُنىّ ، وتُخْتَضَرُون « أحصدت : آن لك أن تُحصَدَ ، وتختضرون : تموتون خُضْرًا فى شبابكم »

الموت لا يتحرز منه بشيء
ولو كان الطب

قال المتنبي :

يموتُ راعي الضأنِ في جَهْلِهِ مِيْتَةَ جالينُوسَ في طِبِّهِ
ورُبَّمَا زَادَ على عُمْرِهِ وزاد في الأمْنِ على سِرْبِهِ (١)

وقبل هذين البيتين :

لا بُدَّ لِلإنسانِ مِن ضَجعةٍ لا تَقْلِبُ المُضْجَعَ عن جَنْبِهِ (٢)
يَنْسَى بها ما كان مِنْ عُجْبِهِ وما أذاقَ الموْتُ مِن كَرْبِهِ (٣)
نحْنُ بنو المَوْتَى فما بالُنا نَعافُ ما لا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ (٤)
تَبْخَلُ أيدينا بأرْواحِنا على زمانٍ هِيَ من كَسْبِهِ (٥)
فهذِهِ الأرْوَاحُ مِنْ جَوِّهِ وهذِهِ الأجسامُ من تُرْبِهِ (٦)

---

(١) السرب : النفس (٢) لابد للإنسان من اضطجاع في القبر يبقى بتلك الضجعة لا يقلبه ذلك الاضطجاع إلى يوم البعث .

(٣) إذا نزل القبر نسي الإعجاب وما ذاق من شدة الموت ، وهكذا الميت .

(٤) نحن بنو الأموات والموت كأس مدارة علينا ولابد لنا من شربها فما بالنا نكرهها ! فكما مات آباؤنا فنحن على آثارهم . كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض أصحابه يعزيه في أبيه : أما بعد ، فإنا أناس من أهل الآخرة سكنا في الدنيا ، أموات ، آباء أموات ، أبناء أموات ، فالعجب لميت يكتب إلى ميت يعزيه عن ميت ...

(٥) تبخل أيدينا بأرواحنا وتمسك بها بخلا بها على الزمان والأرواح مما أكسبه الزمان ! قال حكيم : إذا كان تناشؤ الارواح من كرور الأيام فما لنا نعاف رجوعها إلى أما كنها !

(٦) الإنسان مركب : من جوهر لطيف وجوهر كثيف ، فالأرواح من الجو والهواء ، والأجسام من التراب ، وكل عنصر عائد إلى عنصره

لَوْ فَكَّرَ العاشقُ فى مُنْتَهَى ... حُسْنِ الذى يَسْبِيهِ لمْ يَسْبِهِ [(١)]

لمْ يُرَ قَرْنُ الشمْسِ فى شَرْقِهِ ... فشَكَّتِ الأنفُس فى غَرْبِهِ [(٢)]

إلى أن قال بعد البيتين المذكورين آنفا :

وغايةُ المُفرِط فى سِلْمِه ... كغايةِ المُفرِطِ فى حَرْبِهِ [(٣)]

فلا قَضَى حاجتَه طالبٌ ... فؤادُه يَخْفِقُ مِن رُعْبِهِ [(٤)]

وقيل للربيع بن خُثَيم فى مَرَضِه : ألا ندعو لكَ طبيبا ؟ قال : أَنْظِرُونى ، ثم فكَّر فقال : وعادًا وثمُودَ وأصحابَ الرَّسِّ وقُرونًا بين ذلك كثيرًا ، لقد كان فيهم أطِبّاءُ ، فما أرَى المُداوِى بَقِىَ ولا المُداوَى صَلُح ....

ودخل الفَرَزدَقُ على مريضٍ يعودُه فسَمِعَه يطلب طبيبا فقال :

ياطالِبَ الطِّبِّ مِن داءٍ تخَوَّنَهُ ... إن الطبيبَ الذى أَبْلاكَ بالداء

هو الطبيبُ الذى يُرْجَى لِعافيَةٍ ... لامَن يَدُوفُ لك التِّرْياقَ بالماءِ

« الذى أبلى المريض بالداء والذى يرجى لعافية : هو الله عز وجل . ويدوف : يخلط . وتخوّنه : غيّر حاله إلى أسوأ منها ، ويروى : تحونه والترياق : الدواء هنا ، وأبلاه : صنع به مايمتحن به ويختبر

---

(١) العاشق للشىء المستهام به لو أفكر فى منتهى حسن المعشوق وأنه يصير إلى زوال لم يعشقه ولم يملك عشقه إياه عليه أمره . وهذا يطرد فى كل شىء

(٢) لابد من الفناء فالشمس من رآها طالعة علم أنها غاربة لامحالة، كذلك كل شىء مصيره إلى الزوال .

(٣) إن الذى أفرط وجاوز الحدّ فى السلم كالذى أفرط وجاوز الحد فى الحرب ، الكل إلى فناء وإذن لا عذر لمن يجزع قال حكيم : آخر إفراط التوق أول موارد الحتوف (٤) من خاف الموت لاأدرك حاجته ، يدعو المتنبي على الجبان ـ لأنه إذا كان الهلاك متيقناً فلم يخاف الإنسان من الموت ويجزع فزعا منه !

وقال ابن الرومى :

غَلِطَ الطبيبُ علىَّ غلطةَ موردٍ عجزتْ مواردُه عن الإصدارِ
والناسُ يلحَوْنَ الطبيبَ وإنما غَلَطُ الطبيبِ إصابةُ المقدارِ (١)

وقال أبو ذُؤَيْب الهُذَلى :

وإذا المَنيَّةُ أنشبَتْ أظفارَها ألفيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

وقال علىّ بن الجَهم :

كمْ مِنْ عَليلٍ قد تخطَّاهُ الرَّدَى فنَجا وَمات طبيبُه والعُوَّدُ

وقد أخذ هذا من قول عدىّ بن زيد :

أينَ أهلُ الدِّيارِ من قومِ نُوحٍ ثُمَّ عادٌ مِن بَعدهم وثمُودُ
بَيْنَما هُمْ على الأسِرَّةِ وَالأنْـ ماطِ أفضتْ إلى التُّراب الخدودُ
ثمَّ لمْ يَنْقَضِ الحديثُ وَلكِنْ بَعْدَ ذَا الوعْدُ كُلُّهُ وَالوَعِيدُ
وَأَطِبَّاءُ بَعْـدَهُم لحِقُوهُم ضَلَّ عَنْهُمْ سَعُوطُهمْ واللَّدُودُ
وَصَحِيحٌ أَضْحَى يَعودُ مَريضًا وهو أَدْنَى لِلمَوْتِ مِمَّن يَعودُ

« السَّعوط : الدواء الذى يُؤخذُ من الأنف ، واللدود : مايؤخذ من الدواءِ بالمِسْعَط ويُصبُّ فى أحد شِقَّى الفم » ويُرْوَى : أنَّ عبدَالملكِ بنَ مَرْوانَ هَرَبَ من الطاعون ، فرَكبَ ليلا وأخرَج غلاماً معهُ ؛ وكان ينامُ على دابَّته ، فقال للغُلام : حدِّثنى ، فاقل وَمَن أنا حتَّى أُحدِّثك ! فقال : على كلِّ حال حدِّث حَديثاً سَمِعْتَه ، فقال : بلغنى : أنَّ ثعلباً يخدُمُ أسَدًا ليَحميَهُ ويمنعَهُ مِمَّن يُريدُه فكان يحميه ، فرأى الثعلب عُقَاباً ، فلجأ إلى الأسد ، فأقعدَهُ على ظَهره ، فانقضَّ العُقابُ واختلسهُ ، فصاح الثعلبُ : يا أبا الحارث ، أغِثنى واذكرْ عهدَكَ لِى

(١) يلحون : يلومون ، والمقدار : القدر

فقال الأسدُ: إنمـا أقدر على منْعك من أهل الأرض، وأمّا أهلُ السماء فلا سبيل لى إليهم، فقال عبدُ الملك: وَعَظْتَنى وأحسنت، انصرفْ ورَضِى بالقضاء...

ولمناسبة الهرب من الطاعون نورد هنا ماأوردنانظيرَه فى قوْلِناعلى التّوكل، وهو أن عُمَرَ بنَ الخطاب رضوانُ الله عليه لمَّـا بلغَهُ أن الطاعونَ وقع بالشام فانصرَف بالناس: قال له أبو عبيدةَ بنُ الجرَّاح: أفِرارًا مِن قدر الله يا أميرَ المؤمنين؟ فقال عمر: لَوْ غيرُكَ قالهـا يا أبا عبيدة! نعم نَفِرُّ من قَدَر الله إلى قدر الله؛ أرأيت لو أنَّ لك إبلا هَبَطْتَ بها واديًا له جِهتان إحداهما خصيبة والأخرى جَديبَة، أليسَ لو رَعَيْتَ فى الخصيبة رعَيْتَها بقدرِ الله، ولو رعيْتَ الجديبة رعيتها بقَدَر الله؟ وكان عبد الرحمن بن عوف غائبا فأقبل، فقال: عندى فى هذا عِلمٌ سَمِعتهُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إذا سمعتمُ به ـ بالطاعون ـ فى أرض فلا تَقدَموا عليها، وإذا وقع فى أرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فِراراً منه، فحمِد اللهَ عُمرُ ثم انصرف بالناس...

وقال المتنبي:

نُعِدُّ المشْرَفِيَّةَ والعَوالِي ... وتقْتُلُنا المنونُ بِلا قِتالِ

ونَرْتَبِطُ السوابِقَ مُقْرَباتٍ ... وَمَا يُنْجِينَ من خَبَبِ الليالى

وَمَن لم يعْشَقِ الدنيا قديما؟ ... ولـكن لاسبيلَ إلى الوِصالِ

«المشرفية: السيوف ـ، والعوالى: الرماح، والمنون: الموت، والسوابق جمع سابق وسابقة، والمقْربات من الخيل هى الكرامُ التى تُرتبط لكرامتها على أصحابها أو لِفَرطِ الحاجةِ إليها والخبب: عَدْوٌ لا يَسْتفرِغُ الجهد؛ يقول المتنبي: نحن نُعِدُّ السّيوف والرماح لمنازَلةِ الأعداء ومُدافعَة الأقران: والموتُ يخترمُ نُفُوسنا

دُون قِتالٍ أو نزال، لا يُمكِننا حِذارُه ولا يتهيأ لنا دفاعُه، ثم قال فى البيت الثانى: ونرتبُط الخيولَ الكريمةَ ومَعَ هذا لا تُنْجِينا مِن طَلب الدهر إيانا وخَبَب لياليه فى آثارنا:

كأننا فى حُروبٍ مِن حَوادثه فنَحْنُ مِن بين مَجْروحٍ ومطعونِ

وقد تقدم معنى البيت الثالث.

موت الفجاءة والصحيح يموت

قيل لأعرابىّ: ماتَ فلانٌ أصحَّ ما كان! فقال: أوصحيحٌ مَنِ الموتُ فى عُنُقه! وكان الحسنُ البصرىُّ يقول فى دُعائه: اللَّهُمَّ أجِرْنى مِنْ أن أكُون مُختلساً «أى يختلِسُه الموت على غفلة» وفى الحديث: بادروا بالأعمال مَرَضا حابِسًا أو مَوتا خالسا، وقيل لأعرابى: كيف ماتَ أبوك؟ قال: مات سِرًّا «أى فَجأةً» وقال الشاعر:

ورُبَّما غُوفِصَ ذو غِرَّة أصَحَّ ما كانَ ولَمْ يَسْلَمِ

«يقال: غافص الرجلَ مُغافصة وغِفاصا. أخذه على غِرَّة فركِبَهُ بمَساءَة» وقيل لرجُلٍ: ما كان سببُ موتِ فُلان؟ قال: كَوْنه «أى وُجُوده» والبيت المشهور فى هذا:

مَن لمْ يمُتْ بالسيفِ مات بغَيْرِه تَنَوَّعتِ الأسبابُ والموتُ واحِدُ

كل إنسان مُعرّض لموته أو موتِ أحبته

قال حكيم: من طال عُمُرُه رأى المصائبَ فى إخوانِه وجيرانِه، ومن قَصُرَ عُمْرُه كانت مصيبتُه فى نفسِه؛ وقال الشاعر:

فمُؤَجَّلٌ يَلقَى الرَّدَى فى أهْلِه ومُعَجَّلٌ يَلْقَى الرَّدَى فى نَفسِه

وقال يزيدُ بن الحكَم الثقفيُّ :

كلُّ امرئٍ سَتَئِيمُ مِنْــه العِرْسُ أو منها يَئيم

« العرس : الزوجة ، وآمَت المرأة من زوجها تَئِيمُ وتأيَّمَتْ مات عنها زوجها أو قُتِل وأقامت لاتتزوّج ، وكذلك الرجل » ......

جهل الإنسان بوقت موته

قال الله جل شأنه : وما تَدْرِى نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غداً وما تَدْرِى نفسٌ بأىِّ أرضٍ تموت ... وقيل لجعفر بن محمد بن على رضى الله عنهم : كيف يأتى الموتُ مِن وُجوهٍ شَتّى ، على أحوالٍ شتى ؟ فقال : إنّ الله أراد أنْ لا يُؤْمَنَ فى حالٍ ... وقالوا : أمْرٌ لا تَدْرِى مَتى يغشاك ألَا تَسْتَعِدُّ له قبل أنْ يَفْجَأَك ! وقال دِيك الجِنّ (١)

والناسُ قد عَلِموا أن لا بَقاءَ لهم لو أنهم عَمِلوا مِقْدارَ ما عَلِموا

الموت يسوّى بين الأفاضل والأراذل

قال المتنبي فى رثائه أبا شجاع فاتكا :

---

(١) هو أبو محمد عبد السلام بن رغبان الملقب بديك الجن من شعراء الدولة العباسية ولد سنة ١٦١ هـ وتوفى سنة ٢٣٦ ومن قوله فى الخمر وقد أعجب به أبو نواس :

ظَلِلْنا بأيدينا نُتَعْتِعُ رُوحَها فتأخذُ مِن أقدامِنا الراحُ ثارَها

مُوَرَّدة مِن كَفِّ ظَبْيٍ كأنما تناوَلَها مِن خَدِّه فأدارَها

وصَلتْ إليْك يدٌ سَواءٌ عِندَها ... أَلبازُ الْأَشْهَبُ والغُراب الأبْقَعُ

« البازُ الأشهب : الذى غَلَب عليه البياض ، والأبقع : الذى فى صدره بياض يقول المتنبي : وصلت إليك يدٌ - يريد المنية - الشريف والوضيع لديها سواء ، فِعلُها مع الباز الأشهب مع كرمه كفعلها بالغراب الأبقع مع قُبحه ودَمامته ، وهذا على المَثَل » ... ويُرْوَى أنّ الإسكَنْدَرَ المقدونىَّ مَرَّ بمدينة قد مَلَكَها غيرُه من الملوك ؛ فقال : انظروا هل بَقِىَ بها أحدٌ مِن نَسْلِ ملوكِها ؟ فقالوا : رَجلٌ يَسْكُنُ المقابر ، فأَحْضرَه وسأله عن إقامتِه هذه ؛ فقال : أردتُ أن أُميِّزَ عِظامَ الملوك من عِظامِ عَبيدهم فوجدْتُها سواءً ، فقال : هلْ تَتَّبِعُنى فأُحْيي لك شرَفك إن كان لك هِمَّةٌ ؟ فقال : هِمّتِى عظيمةٌ إن أنالْتَنيها ، فقال : ماهى ؟ قال : حياةٌ لا مَوتَ معها ، وشبابٌ لاهَرَم معه ، وَغِنًى لا فَقْرَ معه ، وسُرورٌ لامكْروهَ فيه ، فقال : ليس عندى هذا ، فقال : دَعْنى أَلتمسْه ممَّنْ هو عنده ، فقال : مارأيتُ مثلَه حكيما ؛ ... وقال مالِكُ بن دينار : قَدِم علينا بِشْرُ بنُ مروانَ أخو الخليفة — عبد الملك بن مروان — فطُعن - أصابه الطاعون - فمات فأخرجناه إلى القبرِ ، فلما صِرْنا إلى الجَبَّان - الجبَّانةِ - إذا نحنُ بسُودانٍ يَحمِلون صاحبًا لهم إلى القبر ، فدفنّاه ودَفنوا صاحبَهم ، فعُدْتُ قبل الأسبوع فلم أعرِفْ قبْرَ الأسْوَدِ من قبرِه ؛ وفى هذا يقول الشاعر :

ولقد مررْتُ على القبور فما ... ميزْتُ بين العَبْدِ وَالمَولى

وقال صالح بن عبدِ القدوس :

فيامنزِلاً سَوَّى البِلَى بين أهْلِه ... فلم يَسْتَبِنْ فيه الملوك من السُّوَق

انقضاء ناس بعد ناس
ورُجوعهم إلى الموت

قال علىٌّ كرّم الله وجهه : إنّ لله فى كل يومٍ ثلاثَ عساكرَ : عسْكَرٌ ينزِلُ من الأصْلاب إلى الأرحامِ، وعسكرٌ ينزل من الأرحامِ إلى الأرضِ، وعسكرٌ ينْتقِلون من الدنيا إلى الآخرة ؛ [1] وقال الشاعرُ :

وما نحنُ إلا رُفْقةٌ غيرَ أننا أقمْنا قليـــلا بعدَهم ونرُوحُ

وقال آخر :

إذا زُرْتُ أرْضاً بعدطُولِ اجْتِنابِها فقَدْتُ صديقا والبلادُ كما هِيَا

وقال: ✡ أرَى الأرضَ تَبقَى والأخِلّاءُ تَذْهَب ✡

وقيلَ للبُهْلُول [2] ـ وقد أقبل من الجبَّانِ ـ : مِن أيْنَ ؟ فقال : مِن عسكر المَوتى ، فقيل ماقلت وما قالوا ؟ فقال: سألْتُهم : متى يَرحَلون ؟ فقالوا : نَنْتَظِر قدومَكم ثم نرتحِل ... ورَوَوْا : أن راهِبَيْنِ دخلَا البَصرةَ من ناحيةِ الشام فنَظرا إلى الحسنِ البصرىّ ، فقال أحدهما : مِلْ بِنا إلى هذا الذى كأنّ سَمْتَه سَمْتُ المَسيح ، فعَدَلا إليه، فألْفَياهُ مُفْـترشا بِذَقَنِه ظاهِرَ كَفِّه وهو يقول : ياعجبا [3] لقوم قد أُمِرُوا بالزّاد وأُذِنوا بالرَّحيل ، وأقام

(١) العسكر : الجماعة من كل شىء يقال : عسكر من رجال ومن خيل

(٢) كان البهلول هذا مجنونا ممرورا وكان ظريفا وكان يتشيع ، قال له قائل : اشتم فاطمة وأعطيك درهما فقال . بل أشتم عائشة وأعطنى نصف درهم ا ومرّ به بعضهم وهو يأكل خبيصا ، فقال له : أطعمنى ، فقال : ليس هو لى ، إنما هو لعاتكة بنت الخليفة بعثته إلىّ لآكله لها ...

(٣) ياعجبا : لك أن تقرأه بالتنوين وبدونه أما بدونه فإنه يريد : ياعجبى فقلب ياء المتكلم

أوَّلُهم على آخرهم ، فليْتَ شِعرى ماذا ينتظرون ! وفى رواية أخرى هذه الزيادة بعد قوله : وأقام أوَّلهم على آخرهم : وآخِرُهم قُعود يلعبون » قوله : أُمِروا بالزاد يعنى زاد الآخرة ، وهو العمل الصالح ، وقوله : وأُذنوا بالرحيل : أُذنوا : أُعلِموا ، والرحيل يريد به الموت ، وقوله : وأقام أولهم على آخرهم : لعله يريد : أن أولهم يرضى فعل آخرهم فلم يُنْكِرْ عليه ، ولعله يريد أن موت أولهم كان يجب أن يكون عبرة لآخرهم ، ومن المشهور فى هذا أبيات قُسّ بن ساعدة الايادى :

فى الذّاهبِـينَ الأوّلِـينَ من القُرونِ لنا بَصائرْ
لَمّا رأيْتُ مَـواردًا للموتِ ليس لها مَصادِرْ
ورأيتُ قـومى نحوها يَمْضى الأصاغِرُ والأكابرْ
لا يَرْجعُ الماضى إلىَّ ولا مِنَ الباقِينَ غابِرْ
أيْقَنْتُ أنى لامحـا لَةَ حيثُ صار القومُ صائرْ

« فى الذاهبين : متعلق ببصائر فى آخر البيت ، وبصائر : عِبَر ، والقرون جمع قرن والقرن من الناس : أهل كل زمان ، قال :

إذا ذهبَ القَرْنُ الذى أنت فيهِمُ وخُلِّفْتَ فى قرنٍ فأنت غريبُ

ولعله مأخوذ من الاقتران ، فكأنه المقدار الذى يقترن فيـه أهل ذلك الزمانِ فى أعمارهم وأحوالهم ، ومن هنا اختلفوا فى تحديد القرن من الزمان فقيل : أربعون سنة ، وقيل : ثمانون ، وقيل مائة سنة ، والموارد جمع مورد وهو :

ألفا وأما بالتنوين فلك أن تجعل عجبا منادى منكراً ، ولك أن تجعل «يا» حرف تنبيه وعجبا مصدر منصوب بفعل محذوف أى تعجبوا عجبا وأن تجعل «يا» حرف نداء والمنادى محذوف أى ياقوم ، وعجبا كذلك ...

محلُّ الورود ، أى الاتيان. والمصادر جمع مصدر ، وهو : موضع الصدور ، أى الانصراف والرجوع ، وغابر اسم فاعل من غَبَر بمعنى : مَكَثَ وبَقِى ، وبمعنى : مضى أيضا ، فهو من الأضداد »

من يخاف الموت ولا يَستعدّ له

وحثُّهم على تَعاطى مايهوّن أمرَ الموت

جاءَ رجلٌ إلى سيدنا رسول الله فقال : يانبىَّ الله ، مالى لاأُحِبُّ الموت؟ فقال له : هل لك مالٌ ؟ قال : نعم ؛ قال : قَدِّمه بين يديك ؛ قال : لاأُطِيقُ ذلك ، فقال سيدنا رسول الله : إنَّ المَرءَ مع ماله إنْ قدَّمه أحبَّ أن يلحَقَ به وإن أخَّرَه أحبَّ أن يتخلَّف معه ... وقال الحسن البصرىُّ لشيخ فى جنازة :[1] أتُرى هـذا الميِّت لورجع إلى الدنيا أكان يعمل صالحا ؟ قال : نعم ، قال : إن لم يكن ذاك فكن أنت ذاك ... وقال القاضى أبو الحسن علىّ بن عبد العزيز الجرجانى :

إذا قلت لم يبلغ بىَ السِّنُّ مَبلغا ... وُعِظْتُ بِطِفْلٍ صار قَبلى إلى التُربِ

وقال على رضى الله عنه لرجل : كيف أنتم ؟ قال : نرجو ونخاف ، قال : من رَجا شيئا طلبَه ومَن خاف شيئا هرَبَ منه ... وقال أبو الدَّرداء : العجبُ

(١) قال علماء اللغة : الجنازة بكسر الجيم : السرير محمولا عليه الميت : أما بفتح الجيم فالميت قال أبو على الفارسى : لايسمى جنازة ـ بالكسر ـ حتى يكون عليه ميت وإلا فهو نعش أو سرير قال الليث : وقد جرى فى أفواه الناس جنازة بالفتح والنحارير ينكرونه ، وقال بعضهم إن اللفظ نبطى وقال آخرون : إنه مشتق من جنز الشىء يجنزه جنزا ستره وذكروا أن النوار امرأة الفرزدق لما احتضرت أوصت أن يصلى عليها الحسن البصرى فقيل له فى ذلك فقال : إذا جنزتموها فآذنونى

لمن يَكْرَهُ الموت لإساءَتِه ولا يَكرهُ الاساءةَ فى حياته ! ... وقال رجل لأبى الدَّرداءِ : مابالنا نَكرَه الموت ! قال : لأنكم أخرَبتم آخِرتكم وعَمَّرتم دُنياكم فكرِهْتم أن تُنقَلوا من العُمْران إلى الخراب ... وقال أبو حازم : كلُّ عَمَلٍ تكْرَهُ الموت لأجلِه فدَعْه كيلا تخاف منه مَتى أتاك ...

من أمر ذويه بالبكاء عليه

رُوى عن سيدنا رسول الله : إنّ الميّتَ ليُعَذَّبُ ببكاء أهله عليه ... « قال العلماء : أراد صلوات الله عليه إذا وصَّى الميتُ بذلك وأمَرَ به على نحوما كان يفعل أهلُ الجاهلية ، كقول طرَفة بن العبْد :

إذا مِت فانعَيْنى بما أنا أهْلُه وشُقّى علىَّ الجيبَ يابنةَمَعْبَدِ[1]

وقول الفرزدق :

إذا مِت فانعَيْنى بمَا أنا أهله فكلُّ جميلٍ قُلتِ فِىَّ مصَدَّق

وقول ابن المعتزّ :

إذا مِتّ فانعَيْنى بمـا أنا أهـله ولا تَدَّخِرى دَمْعًا إذا قام نائحُ
وقُولِى : تَوَى طَودُ المكارِمِ والعُلَى وعُطِّلَ ميزانٌ من الحِلْم راجِحُ

« تَوَى : هلك ، وتقرأ : ثَوَى والطود : الجبل العظيم ، والحلم : الأناةُ والعقل »

وقال بعض العلماء : الأولى : أن يقال فى تأويل الحديث : بَماعُ صوتِ البكاء هو نفس العذاب ، كما أنَّا نعذَّبُ ببكاءِ الأطفال ، فالحديث على ظاهره »

---

(١) من معلقة طرفة، ومعبد أخوه يوصى ابنة أخيه بأن تشيع خبر هلاكه إذا هو مات ـ بالثناء الذى يستحقه وشق جيبها عليه وبعد البيت :

ولا تجعَلِينى كامْرِئٍ ليس همُّهُ كهمّى ولا يُغنِى غَنائى ومَشْهَدى

« الهم : الهمة والطموح إلى العلا ، والغناء : الكفاية . والمشهد : الشهود أى ملابسة

من أظهر الندم عند الموت على مافرط منه

لمَّا احْتُضِر عمْرو بنُ العاص جَعَلَ يدَه في «وضع الغُـلّ» «القيد» من عنقه ثم قال : اللهم إنَّكَ أمَرْتَنا فَفرَّطْنا ، ونهيتَنا فرَكِبْنا ، اللهمَّ إنه لا يَسَعُنا إلا رَحْمتُك ، فـلم يَزلْ ذلك هِجِّيراه حتى قُبِض ... وقيل لبعض الملوك حين احْتُضِرَ : ما حالك ؟ فقال : ما حالُ مَنْ يُريد سَفَرا بعيدا بلا زاد ، وينزلُ حُفْرةً من الأرْض مُوحِشةً بِلا مُؤْنِس ، ويَقْدَمُ على مَلِكٍ جبَّار قد قَدَّمَ إليه العُذْرَ بلا حجّة ! وقال عبدُ الملِك بنُ مَرْوان عند موتِه : وَدِدْتُ أنِّي كنت غسَّالا آكُلُ كلَّ يومٍ كَسْبَ يَومي لا يَفْضُلُ عني ... فقيل ذلك لأبي حازم فقال : الحمد لله الذي جعَلنا بحيث يتمَنَّى الملوكُ حالنا عند الموت ولا نتمنَّى حالهم ... ولمَّا أَدْنَف[1] المأمون بن الرشيد أمر أن يُفْرَش له جِلٌّ — بِساط — فجعل يَتمرَّغُ فيه ويقول :

كلُّ عيْشٍ وَإن تَطاوَلَ دهْرا ... صائِرٌ مَرَّةً إلى أنْ يَزولَا
ليْتَني كنْتُ قبْلَ ما قدْ بَدَالِي ... في رُؤوسِ الجبال أرْعَى الوُعولَا[2]

وأُغْمِيَ عليه ثم أفاق وهو يقول :

لبَّيْكُما لبَّيْكما ... ها أنا ذا لَدَيْكُما

اللهم لا بَرِيءٌ فأعتذِر ولا قويٌّ فأنتصر

ثم أُغْمِي عليه فلما أفاق قال :

إنْ تغْفِرِ اللهمَّ تغْفِرْ جَمًّا ... وأيُّ عبدٍ لكَ لا ألَمَّا[3]

---

(١) أدنف المريض : ثقل مرضه ودنا من الموت.

(٢) الشعر لأمية بن أبي الصلت . والوعول : جمع وعل : تيس الجبل

(٣) لأمية بن أبي الصلت كذلك وألم الرجل من اللمم وهو مادون الكبائر من الذنوب قال سبحانه : الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم وقيل : اللمم : أن يلم المرء بالمعصية ولم يصرّ عليها

وقال أبو جعفر المنصور عند موته : اللهم إنْ كنتَ تعلمُ أنّى قدِ ارتكبْتُ الأمورَ العِظامَ جُرْأةً منّى عليك ؛ فإنك تعلمُ أنى قد أطَعْتُك فى أحبِّ الأشياءِ إليك : شهادةِ أنْ لا إله إلا أنت ، مَنًّا مِنْكَ لامَنًّا عليك ... وكان سببُ إحرامِه من الخضراء أنَّه كان يوماً نائمًا فأتاه آتٍ فى منامه فقال :

كأنّى بهذا القصرِ قَدْ بادَ أهلهُ ... وَعُرّىَ مِنْهُ أهلُهُ ومَنازلُهْ

وَصَارَ عَميدُ القَومِ من بَعْدنعْمَة ... إلى جَدَث تُثْنَى عَليه جَنادِله

فَلمْ يَبْقَ إلا رَسْمُه وَحدِيثُهُ ... تُبكِّى عليه مُعْولاتٍ حلائله (١)

فاستيقظ مَرعوبا ثمَّ نام فأتاه الآتى فقال :

أبا جعفرٍ حانتْ وفاتكَ وانقضتْ ... سِنُوكَ وأمْرُ الله لابدَّ واقعُ

فهلْ كاهنٌ أعْدَدْتَهُ أو مُنَجِّمٌ ... أبا جعْفر عنك المنيَّة دافعُ

فقال : ياربيعُ ائتنى بِطَهُورى ، فقَامَ واغْتسل وصلَّى ولبَّى وتجهز للحجِّ ، فلما صارَ فى الثُلُث الأوّلِ اشتدّت علتهُ ، فجعل يقول : ياربيع أَلْقِنى فى حرَمِ الله ، فمات بِبِئْر ميمون (٢) ... وقالوا : لَقِّنْ ميِّتَكَ ـ أى لا إله إلا الله ـ فإذا قالها فدَعْه يتكلم بغيرها من أمرْ الدنيا ولا تُضجِرْه .

من امتنع من التوبة عند موته

اعْتَلَّ أعرابىٌّ ، فقيل له : لو تُبْتَ ، فقال : لستُ ممن يُعطِى على الذلِّ ،

---

(١) تبكى ـ بالتشديد ـ مثل تبكى بالتخفيف ، وحلائله : زوجاته ، ومعولات : رافعات أصواتهن بالبكاء .

(٢) بئر ميمون : بمكة منسوب إلى ميمون بن خالد بن عامر الحضرمى .

إن عافانى الله تُبْتُ وإلا مِت هكذا ... وقيل للحجاج : ألا تتوب ؟ فقال : إن كنتُ مسيئا فليستْ هذه ساعةَ التَّوبة ، وإن كنتُ مُحسنا فليست ساعةَ الفزَع « الفزع : الاستغاثة والاستصراخ ، ولعله يريد : أن وقت الموت ليس وقت الحساب والمجازاة وإنما ذلك يوم الفزع الأكبر - يوم البعث - ولعل المعنى : مادمت محسنا فليس ثمت داع للخوف »

من يحبون الموت

قال عبد الله بن مسعود : مامن نفسٍ حيَّةٍ إلَّا والموتُ خيرٌ لها ، إن كان برا فإن الله تعالى يقول : وما عِنْدَ اللهِ خيرٌ للأبرار ، وإن كان فاجرا فإن الله تعالى يقول : وَلا يحْسَبنَّ الذين كفروا أنمـا نُملى لهم خيرٌ لأنفسهم إنمـا نملى لهم ليزدادوا إثما ، ولهم عذابٌ مُهين [1] وحضرَ أحدَ الصالحين الموتُ ، ففرحَ فقيل له : تستبشرُ بالموت ؟ فقال : أتجعلون قدومى على خالق أرجوه كمقامى على مخلوقٍ أخافه ! وسُئل حكيم عن الموتِ ، فقال : هو فزَعُ الأغنياء وشهوةُ الفُقراء .. وقال بعضهم : لايكون الحكيم حكيما حتى يعلم أن الحياة تسْترقُّهُ والموتَ يُعْتِقُهُ .. وقال المتنبي :

تغُرُّ حَلاواتُ النُفُوسِ قلوبَنَا فتَخْتَارُ بعضَ العَيْش وَهْوَ حِمامُ

« يقول المتنبي : حُبُّ الحياة يغرُّ القلب حتى يختار عيشًا فيه ذل :

(١) قرئ : ولا تحسبن على أنه خطاب للرسول عليه السلام وقرئ ولا يحسبن فالذين فاعل ومافى إنما نملى لهم مصدرية وكان حقها أن تفصل فى الخط ولكنها وقعت متصلة فى الإمام - المصحف العثمانى - فاتبع ، والإملاء : الإمهال وإطالة العمر ؛ وقيل . تخليتهم وشأنهم من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء ، واللام فى قوله سبحانه ليزدادوا إثما لام الإرادة وعند المعتزلة لام العاقبة

وشَرُّ الحامين الزُّوَّامين عِيشَةً ... يَذِلُّ الذى يختارها و يُضامُ »

وقال أيضا :

وما الدَّهرُ أهلٌ أن تُؤَمَّلَ عنده ... حياةٌ وأنْ يُشتاقَ فيه إلى النَّسْلِ

«وقد تقدم»وفى هذه القصيدة يقول المتنبى :

نُبَكِّى لِموتانا على غيرِ رَغْبَةٍ ... تفُوتُ من الدنيا ولا مَوْهِبٍ جَزْلِ

إذا ما تأَمَّلْتَ الزمانَ وصَرْفَهُ ... تيَقَّنْتَ أن الموتَ ضَرْبٌ من القَتْلِ

« يقول : نحن نَبْكى على موتانا ونحزَن لهم ونأسف لفراقهم ونحن على يقين من أنهم لايفوتهم من الدنيا ما يُرغَبُ فى مِثلِه ولا يمتعون منها بمايصحُّ أن يتنافس فى نيله ؛ ثم قال فى البيت التالى : وأنت إذا ماتأملت وأنعمت النظر فى تصاريف الدهر وخطوبه تيقَّنْت أن الموت المحتوم على المرء كالذى يتوقعه من القتل وإذن لاداعىَ للجُبن والذعر ولا مُوجِبَ لحب الحياة والتهافت عليها قال عنترة :

فأجبتُها : إنَّ المنِيَّة مَنْهَلٌ ... لا بُدَّ أنْ أُسقَى بذاكَ المَنْهَلِ

فاقْنَىْ حياءكَ لا أبالك واعلمِى ... أنِّى امرؤٌ سأموتُ إنْ لم أُقتَلِ

« فاقْنَى خباءك : فالزَميه واحفظيه واتخذيه قِنيَة » وقال الإمام الجنيد : مَن كان حياتُه بنفسه يكون مَماته بذهاب رُوحه ، فتَصْعُبُ عليه، ومن كان حياته بربِّه فإنه يَنْتَقِلُ من حياة الطبع إلى حياة الأصل ، وهى الحياة الحقيقيَّة .

تمنى الموت

قال أعرابىٌّ : خيرٌ من الحياة ما إذا فقَدْته أبغَضْتَ لفقْدِه الحياة ، وشَرٌّ

من الموتِ ماإذا نزلَ بكَ أحببْتَ لنزولِه الموتَ ... وقال المتنبى :

كفى بكَ داءً أن ترى الموتَ شافِيا   وحسْبُ المَنايا أنْ يكُنَّ أمانيا
تمنَّيتَها لمـا تمنيت أنْ ترى   صديقا فأعيا أو عدُوًّا مُداجيا

وقال المُهلَّبي الوزير [١] :

ألا موتٌ يُبـاعُ فأشتريه   فهذا العيش مالا خيرَ فيه
ألَا موتٌ لذيذُ الطَعم يأتى   يُخلِّصُنى من العيش الكريهِ
إذا أبصَرْتُ قبراً من بعيد   وددْت لوَ أنّنى ممـا يليهِ
ألَا رَحِم المُهَيْمِنُ نفسَ حُرٍّ   تَصدَّقَ بالوَفاةِ على أخيهِ

واعْتَلَّ الشبْلِيُّ ثم برَأ ، فقال له بعضُ أصحابه كيف أنت :فقال :

كلمـا قُلتُ : قد دنا حَلُّ قيدِى   قدَّمُونى وأوْثقـوا المِسمارَا

الحياة لاتمل

قال حكيم : الحياةُ وإنْ طالت لا تُمَـلُّ ، وإنما يَمَـلُّ المرءُ تكاليف الحياة ،

(١) كان وزير معز الدولة البويهى ، وكان أديباً فاضلا محبا لأهله وكان قبل اتصاله بمعز الدولة فى ضيق شديد وكان قد سافر مرة ولقى فى سفره مشقة عظيمة واشتهى اللحم فلم يقدر عليه فقال هذه الأبيات ارتجالا ، وكان معه رفيق يسمى عبدالله الصوفى فلما سمع الأبيات اشترى له بدرهم لحما وطبخه وأطعمه وضرب الدهر من ضرباته وافترقا حتى تولى المهلبي الوزارة وضاقت الأحوال برفيقه هذا فقصده وكتب إليه :

ألَا قلْ للوَزير فدَتْه نفسِى   مَقالة مُذْكِر ماقـد نسيهِ
أتذْكرإذتقولُ لضنك عيش   ألَا موتٌ يبـاع فأشتريه

فلما وقف على ذلك هزته أريحية الكرم وأمر له فى الحال بسبعمائة درهم ووقع فى رقعته : مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ، ثم دعا به فخلع عليه وقلده عملا يرتفق به

ولهذا فُضِّلَ قولُ زُهَير بن أبي سُلْمَى :

سَئِمْتُ تكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِش ثمانينَ حولًا لا أبالكَ يَسْأَمِ

على قول لبيد :

ولقد سئِمْتُ من الحياةِ وطولِها وسُؤالِ هذا الناس : كيف لَبِيدُ

« تكاليف الحياة : مشاقها وشدائدها ، أما لبيد فإنه يكادُ يكون معذورا إذا هو مَلَّ الحياة نفْسَها ولمَ لا وقد عُمِّر حتى بلغ ثلاثين ومائة سنة؟ » وقال المتنبي :

ولذيذُ الحياة أنفَسُ فى النَّـ ـفسِ وَأَشْهَى مِن أن يُمَلَّ وأَحْلَى

وإذا الشيخُ قال أُفٍ فما مَـ ـلَّ حياةً وإنما الضُّعْفَ مَلاَّ

آلةُ العيشِ صحةٌ وشبابٌ فإذا وَلَّيَا عنِ المرءِ وَلَّى

« وقد تقدمت » ودخل سليمانُ بنُ عبد الملك مسجدَ دِمَشْقَ ، فرأى شيخا ، فقال : ياشُيَيْخ ، أيسُرُّك أن تموتَ ؟ فقال : لا والله ، قال : ولِمَ وقد بلَغْتَ مِنَ السِّنّ ما أرَى ! قال : مَضى الشبابُ وشَرُّه ، وبقِيَ الشيبُ وخيرُه ، فأنا إذا قعدْتُ ذكَرت الله ، وإذا قمتُ حمِدت الله ، فأُحِبُّ أن تدومَ لى هاتان الحالتان ...

تسلى الناس عمن مات

قالوا : إذا أردتَ أن تنظرَ الناسَ مِن بَعْدك فانظُرْ إليهم بعدَ مَنْ مات قبْلَك ... وقال أبو العتاهية :

سيُعْرَضُ عن ذِكْرِى وتُنْسَى مودّتى ويَحْدُثُ بعدِى للخليلِ خليلُ

وقال منصور الفقيه[1] :

---

(١) هو أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر التميمى الفقيه المصرى الشافعى

كلُّ مذكورٍ من النَّا ... سِ إذا ما فقَـدوهُ
صارَ فى حُكْمِ حديثٍ ... حَفِظوه فنَسُـوه

وقال آخر:

هالُوا عليه التُّرْبَ ثمَّ انْثَنَوْا ... عنه وخَلَّوْهُ وأعمالَه
لَمْ يَنْقَضِ النَّوْحُ مِن دارِه ... عليه حتى اقتَسَموا مالَه

سهم المنايا بالذخائر مولع

قال أبو تمام (١)

عليكَ سلامُ اللهِ وَقفًا فإنَّنى ... رأيتُ الكريمَ الحُرَّ ليس له عُمْرُ

وقال من أبيات يرثى بنى حميد أيضا:

إنْ يَنْتَحِلْ حَدثانُ الموْتِ أنفسَكم ... ويَسْلمِ الناس بين الحوض والعَطَنِ
فالماءُ ليس عجيبًا أنَّ أعذبَه ... يَفْنَى ويَمتدُّ عُمرُ الآجِنِ الأسِنِ

وقال ابن النبيه المِصْرى من أبيات مختارة نوردها عليك:

النَّاسُ لِلموْتِ كخَيْلِ الطِّرَادْ ... فالسابقُ السابِقِ منها الجوادْ

الضرير، كان فقيهاً شافعيا وكان أديبا شاعرا متقنا توفى بمصر سنة ٣٠٦ هـ ومن شعره السائر:

لى حِيلةٌ فيمن يَنُمُّ ... وليس فى الكذَّابِ حِيلَه
مَنْ كانَ يَخْلُقُ مايقو ... ل فحيلتى فيه قليله

ومنه: إذا تخلَّفْتَ عنْ صَديقٍ ... ولمْ يُعاتِبْكَ فى التَّخلُّفْ
فلا تَعُدْ بعْدَها إليْه ... فإنما وُدُّه تكلُّفْ

(١) من مرثيته التى يرثى بها محمد بن حميد الطوسى وأولها:

كذا فلْيَجلَّ الخَطْبُ ولْيَفْدَحِ الأمْرُ ... فليس لعين لم يَفِضْ ماؤُها عُذْر

والله لا يدْعُو إلى دارِه إلا مَنِ اسْتَصْلَحَ مِن ذِى العِبادْ
والموتُ نَقَّادٌ على كَفِّه جواهرٌ يختارُ منها الجِيادْ
والمرْءُ كالظِّلِّ ، ولا بُدَّ أن يَزولَ ذاكَ الظِّلُّ بَعْدَ امْتِدادْ
لا تَصلُحُ الأرواحُ إلاّ إذا سَرَى إلى الأجْسادِ هذا الفَسادْ
أرْغَمْتَ يا مَوْتُ أُنوفَ القَنَا وَدُسْتَ أعناقَ السيوف الحِدادْ

وقال شاعرٌ :

فلا تَجْزَعَنْ مِنْ مَوْتِهِ وهْو ناشِئٌ ولا يُنْكِرَنْ هذا مَنْ جَرَّبَ الدَّهْرَا
فكلُّ طويلِ الجِدِّ يَقْصُرُ عُمْرُه كذاكَ سِباعُ الطَّيْرِ أقْصَرُها عُمْرَا

إنكارهم الشماتة فى الموت

قال عدى بن زيد العِبادى :

أيُّها الشَّامِتُ المُعيِّرُ بالدهـ ـرِ أأنتَ المُبرَّأُ الموفورُ
أمْ لَدَيْكَ العَهْدُ الوَثِيقُ من الأيا مِ بل أنت جاهلٌ مغرورُ

« وقد تقدمت هذه الأبيات » ... وقال شاعر :

تمَنَّى رِجالٌ أنْ أموت وإن أمُتْ فتِلْكَ سبيلٌ لسْتُ فيها بأوْحَدِ

ولما مات الحسنُ بنُ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما دخلَ عبد الله ابن عباس على معاويةَ ، فقال له معاويةُ : يا ابنَ عباس ، مات الحسنُ بنُ على ؟ قال : نعم ، وقد بَلَغَنى سُجودُك ، أمَا والله : ما سَدَّ جُثمانُه حُفْرَتَكَ ، ولا زادَ

═ وقول أبى تمام : إن ينتحل البيتين . فينتحل : يأخذ النفوس نحلة أى عطية ، ولك أن تقرأها ينتخل ، والعطن : مبرك الإبل حول الحوض ، والآجن : الماء المتغير الطعم واللون ومثله الآسن

انقضاءُ أجلِه فى عُمرك ، قال : أحسَبُه ترَكَ صِبْيةً صِغارا ولم يَترُكْ عليهم كثيرَ معاش ؟ فقال : إن الذى وكلَهم إليه غيرُك ، ... وقال الفرزدق :

فقُلْ لِلشّامِتين بنا أفيقُوا سيَلْقَى الشّامِتُون كما لقينا

وحَكى المبرِّدُ عن بعضِهم : أنه شَهِد رجُلا على قبرٍ وهو يُكثِرُ البكاءَ ، فقلت : أعَلَى قريبٍ أو على صديق ؟ فقال : أخَصُّ منهما ، قد كان لى عدوًّا ، فخرج إلى الصيْدِ ، فرأى ظَبياً فتبِعَه ، فعثَرَ بالسَّهم ، فخرّ هُو والظَّبيُ ميّتيْن ، فدُفِنَ ، فانتهيتُ إلى قبْره شامتاً به ، فإذا عليه مكتوبٌ :

وما نحنُ إلا مثلُهمْ غيرَ أننا أقَمْنا قليلا بعدَهم وترَحّلوا

فها أنا ذا واقفٌ أبكى على نفسى... ولما مات الفَرَزْدَق بكى عليه جريرٌ ورثاه ، فقيل له : أبَعْدَ تلك العداوة ! فقال : لم أرَ اثنيْن بلغا الغاية ومات أحدُهما إلا ولحِقه الآخر عن كثب، فكان كذلك...وقال سيدنا رسول الله : لا تُظهِرِ الشماتَة لأخيك فيعافيه الله ويبتليك ــ أقول : يبدو أن الشماتَة ــ وهى أن تفْرَح بالبَليَّة تنزلُ بمَنْ يُعاديك ــ من الغرائز الإنسانية اللئيمة ، ومن ثَمَّ لم يَنْهَ سيدنا رسول الله عن كوْنِها ــ وجودها ــ وإنما نَهى عن إظهارها ، لأن ذلك هو الذى فى استطاعة المرء ، مَثلُها مَثلُ الحسد والظن والطِّيَرَة ، ولذلك ورد فى الأثر أيضاً : إذا ظَنَنْتم فلا تحقّقوا ، وإذا حَسَدْتم فلا تَبْغُوا ، وإذا تطيَّرْتم فامْضُوا ، وعلى الله فتوكلوا .. يقول صلوات الله عليه : إذا حَسَدْتم : أى تمنيْتم زوالَ نعمةِ الله على من أنعمَ عليه فلا تَتعدَّوْا وتفعلوا مايقتضيه هذا الخلق الذميم ، وإذا ظننتم سُوءا بمَنْ ليس محَلا لسوء الظن به فلا تتحققوا ذلك باتباع موارِده والعمل على مقتضاه « يا أيها الذين آمنوا اجْتَنِبُوا كثيرًا من الظنِّ إنّ بعْضَ الظنِّ إثمٌ » والظن أكذَب الحديث : ومن أساء الظن فى غير موضِعه دلَّ على عدم

استقامته فى نفسه كما قال المتنبى :

إذا ساء فِعْلُ المرْءِ ساءتْ ظنونُه   وصدَّق ما يعتاده مِن تَوَهُّم

أما من كان مَظِنَّةً للظن، بأن كان رجلا شريرا فالحزم سوء الظن والاحتراس والحذر، ثم قال صلوات الله عليه : وإذا تشاءمتم بشىء فامْضُوا طِيّتِكم ولا يلتفت خاطركم لذلك .... وسيمر عليك كل هؤلاء فى «كتاب طبائع المذمومة» ... ومما يتصل بما نحن فيه من الشماتة بالميت ما يُروَى : أنه لما أتَى عبدَ الله بن الزبير خَبرُ قَتلِ مُصْعَبٍ أخيه احتَجبَ أياماً، فخُبِّرَ بمَجىء قَوْمٍ للتعزِيةِ، فقال: أكْرَهُ وُجوهاً تُعزّى ألسِنتُها وتَشْمَتُ قلوبُها.

لا عار بالموت

قالت ليلى الأخيلية :

لعَمْرُكَ مابالموت عارٌ على امْرِئٍ   إذا لم تُصِبْه فى الحياة المَعاير

«المعاير : المعايب والمسابّ يقال : عارَه : إذا عابه، وتعاير القوم : عَيّر بعضهم بعضا»

الموت نهاية كل حىّ

قال أبو بكر العَنْبرىُّ : كنتُ قاعدا فى الجامعِ فمرّ بى مَعْتوهٌ فأقبل علىّ وقال :

فَهبْكَ ملكْتَ هذا النَاسَ طُرا   ودانَ لكَ العبادُ فكان ماذا

ألَستَ تَصيرُ فى لَحْدٍ ويَحْوِى   تُراثَكَ عنكَ هذا ثُمَّ هذا

وقال الشاعر :

هَبْكَ قد نلْتَ كُلّ ما تَحْمِلُ الأر   ضُ فهَلْ بعْدَ ذاكَ إلا المَنِيّهْ

وقال القائلُ :

لِدُوا للموْتِ وابْنُوا لِلخَرابِ فكلُّكمُ يَصير إلى ذهابِ [1]

وصية الميت

قالوا : كُنْ وَصِيَّ نفسك ولا تجعلِ الرجالَ أوصِياءك ، واعْلم صدق

(١) جاء فى الخزانة للإمام البغدادى ماخلاصته: هذا المصراع ـ لدوا للموت وابنو للخراب ـ هو من أبيات فى الديوان المنسوب إلى على بن أبى طالب وهى :

عَجِبْتُ لجازِعٍ باكٍ مُصابٍ بأهْلٍ أوْ حبيبٍ ذِى اكتئابِ
شَقيقِ الجيب داعى الويل جَهْلا كأن الموت كالشَّىء العُجاب
وسَوَّى اللهُ فيه الخلق حتى نبىَّ اللهِ عنه لمْ يُحابِ
له مَلِكٌ يُنادِى كلَّ يَومٍ لِدُوا للموت وابنُوا لِلخَراب

، نبى الله : مفعول مقدم ليحاب بمعنى يخص ، قال : ورأيت فى جمهرة أشعار العرب أنه قد روى أن بعض الملائكة قال ـ وأورد البيت الذى أوردناه ، ثم قال : ولسابق البربرى فى هذا المعنى :

فللموتِ تَغذُو الوالِداتُ سِخالَها كما لخراب الدار تُبْنَى المَساكِنُ

هذا : وأما اللام فى قولهم للموت فقد سماها الكوفيون لام العاقبة ، مثلها مثل قوله تعالى : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّا وحزنا ، وأنكر البصريون لام العاقبة قال الزمخشرى : والتحقيق أنها لام العلة وأن التعليل فيها وارد على طريق المجاز وذلك أنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوا وحزنا بل المحبة والتبنى غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعى الذى يفعل الفعل لأجله واللام مستعارة لما يشبه التعليل كما استعير الأسد لمن يشبه الأسد . انتهى ... وسابق البربرى : هو أبو سعيد سابق بن عبد الله من موالى بنى أمية ، سكن الرقة ووفد على عمر بن عبدالعزيز ، وله أشعار حسنة فى الزهد وليس منسوبا إلى البربر وإنما البربرى لقب له ، والسخال فى بيته المذكور : جمع سخلة وهى ولد الشاة من الضأن والمعز ، وقد أقام الظاهر مقام الضمير فى المصراع الثانى إلا أنه باللفظ المرادف إذ الأصل : كما تبنى المساكن لخرابها .

الذى يقول :

ولا يغْرُرْكَ من تُوصِى إليه   فقَصْرُ وصِيَّة المَرْءِ الضَّياعُ

« قَصْرهُ وقُصاراه أن يَفْعل كذا : أى آخر أمره وغاية جهده هو أن يفعل كذا » ... وقال مالك بن ضيغم : لمّا احْتُضر أبى قلنا له : ألا تُوصِى ؟ قال : بَلى ، أُوصيكم بما أوْصى به إبراهيمُ بَنيه ويعقوب : « يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدِّين فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مُسلمون » ، وأُوصيكم بصلةِ الرَّحم وحُسْن الجوار وفِعْلِ ما اسْتطَعْتُمْ مِنَ المعروف ، وادْفِنونى مع المساكين ...

وقيل لِهَرِم بنِ حِيَّانَ : أوْصِ ، فقال : قدْ صدَقتْنى نفسى فى الحياة ، ما لى شيء أُوصى فيه ، ولكن أُوصيكم بخواتيم سورة النحل [1] ...

إنكارهم وصية الميت بما ليس له

عن سعد بن أبى وقّاص رضى الله عنه قال : جاء النبىُّ صلى الله عليه وسلم يعُودُنِي وأنا بمكة ، وهو يكرهُ أن يموت بالأرْض التى هاجَرَ مِنها ، قال : يرْحَمُ الله ابنَ عَفْرَاءَ [2] ، قلتُ : يارسول الله : أُوصى بمالى كُلّه ؟ قال : لا ، قلتُ : فالشَّطْرُ ؟ قال : لا ، قلت : الثُّلُثُ ؟ قال : فالثلث ، والثلث كثير ، إنك أن تَدعَ وَرَثَتَكَ أغنياءَ خَيْرٌ مِن أن تَدعَهُم عالةً يتكفَّفون فى أيديهم ، وإنك مهما أنفقتَ من نفقة فإنها صدقةٌ ، حتى اللقمةَ ترفعُها إلى فِى امْرأتك ، وعَسى اللهُ أن يرفعك فيَنْتفِعَ بك ناسٌ ويُضَرَّ بك آخرون ،

(١) راجع سورة النحل ، ومن آياتها الكريمة ، الآية الأخيرة : إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

(٢) هو سعد بن خولة وعفراء أمه ، ويلاحظ أن قول سعد : وهو يكره الخ التفات من التكلم إلى الغيبة كما سيمر عليك

ولم يكن له يومئذ إلا ابنَـةٌ ..٠. رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن وغيرهم

« وإليك شرح هذا الحديث الشريف : لمـا كان سيدنا رسول الله بمكة فى حجة الوداع ذهب إلى سـعد بن أبى وقاص ـ وهو الصحابى الجليـل الذى هاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها الرسول صلوات الله عليه ، وقد شهِد بدرا والمشاهدَ كُلّها ، وبشره الرسول بالجنة ، وهو أحد رجال الشُّورى الستة الذين رشّحهم الفاروق للخلافة : وهو قائد جيوش عمر فى فتح العراق ، ثم مات بقصره فى العقيق على مقربة من المدينة سنة ٥٥ هـ بعد أن كُفَّ بصره رضى الله عنه ـــ أقول : لمـا كان الرسول بمكة ذهب إلى سعد يعوده لمرض اشْتَدَّ به حتى أشْفَى على المَوت ، وكان سعد يكره أن يموت بالأرض التى هاجر مِنْها ـ مكة ـ كما مات سعد بن خولة [1] فلما سمع الرسول اسم سعد ابن خولة من ابن أبى وقاص ترحّم عليه ، وكان لسعد بن أبى وقاص إذ ذاك ٱبنةٌ واحدة [2] ثم قال سعد لسيدنا رسول الله ـ كما جاء فى بعض الروايات ـ إنه قد بلغ بى من الوجع ما ترى وأنا ذو مال ، ولى ٱبنةٌ واحدةٌ ، أفأُوصِى بمالى كُلّه ؟ قال الرسـول : لا ، قال : أفأوصى بالنصف ؟ قال : لا ، قال : أفأُوصى بالثلُث ؟ قال : فالثلثُ توصى به ، والثلث كثير ، ثم قال الرسول : ـ مُبينا عن الحكمة فى ترك الوصية بالكثير إلى الوصية بالقليـل : إنَّ تركَ ورَثَتِك أغنياءَ خيرٌ من تركهم فقراء يمدُّون أكفَّهم إلى الناس مُسْتَجدِين ..

(١) من المهاجرين الأولين الذين شهدوا بدرا وقد توفى بمكة فى حجة الوداع وأمه عفراء كما تقدم

(٢) أما بعد أن برئ من هذا المرض بفضل دعوة الرسول فقد عاش كثيرا كما قلنا ورزقه الله من الذرية بضعة عشر ابنا واثنتا عشرة بنتا

ثم بين الرسول أن كل ما يُنفقه على زوجه أو ولده أو أقاربه أو خَدَمه صدقةٌ ولو كان قليلا ، حتى اللقمة يرفعُها إلى فم امرأته ، يريد صلوات الله عليه : أن المرء إن استقلَّ أمر الوصية بالثلث أو مادونه فليَسْتكثره بالإنفاق ، والأقربون أولى بالمعروف ، فإنِ امتدّت به الحياة فليَسْلك هذا الطريق ، ثم رَجا لهُ الرسول أن يَبْرَأ وتطول حياته ويرتفِعَ شأنه حتى ينتفع به أناس ويستضرّ به آخرون ، وقد تحقق هذا كُله حتى عَزَّ به الإسلام . هذا الوصية بالثلث فأقل قد استقر عليه الإجماع إذا كان هناك ورثة واختلفوا فيمن ليس له وارث « راجع كتب الفقه »... وعن أبي هُريرة : قال رجل للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : يارسول الله ، أىُّ الصدقة أفضل ؟ قال : أن تَصَّدَّقَ وأنت صحيحٌ حَرِيصٌ تأمُلُ الغِنَى وتخشى الفقرَ ولا تُمْهِل حتى إذا بَلَغَتِ الْحُلقُومَ قلتَ : لِفلانٍ كذا ولفلانٍ كذا ... وفى الأثر أيضاً : مَثلُ الذى يُعتق ويتصدق عندموته ، مثل الذى يُهدِى إذا شَبِع ... وقال بعض الصالحين عن بعض المُترفين : يَعْصُون الله فى أموالهم مَرَّتين ، يَبْخلون بها وهى فى أيديهم ـ يعنى فى الحياة ـ ويسرفون فيها إذا خَرَجتْ من أيديهم ـ يعنى بعدالموت .

من أوصى بِشرّ وكان قاسيا

لمَّا حضرت الحُطَيْئةَ الوَفاةُ اجتمع إليه قومُه فقالوا : ياأبا مُلَيكة : أوصِ ؛ فقال : وَيْلٌ للشِّعْر من راوية السُّوء ؛ قالوا : أوْصِ رحمك الله ياحُطَيْءُ قال : مَن الذى يقول :

إذا أَنْبَضَ (١) الرامون عنها تَرَنَّمَتْ ترنُّمَ ثَكلَى أوجَعتْها الجنائزُ ؟

(١) أنبض القوس وأنضها : جذب وترها لتصوت

قالوا : الشَّمَّاخ ؛ قال : أَبلِغوا غَطَفان أنه أشعرُ العرب ؛ قالوا : وَيْحَك ! أهذه وصيَّة ! أَوْصِ بما ينفعُك ! قال : أبلغوا أهلَ ضابئ (١) أنه شاعرٌ حيث يقول :

لِكلِّ جديدٍ لَذَّةٌ غيرَ أنني رأيتُ جديدَ الموتِ غيرَ لذيذ

قالوا : أوصِ ويحك بما ينفعك ! قال : أبلِغوا أهلَ آمرئ القيس أنه أشعرُ العرب حيث يقول :

فيالَكَ من ليلٍ كأنَّ نجومَهُ بكلِّ مُغارِ الفَتْل شُدَّت بيَذْبُلِ (٢)

قالوا : اتَّقِ الله ودَعْ عنك هذا ؛ قال : أبلغوا الأنصارَ أنَّ صاحبهم (٣) أشعرُ العرب حيث يقول :

يُغْشَوْن حتى ماتَهِرُّ كِلابُهم لا يَسْألون عن السَّواد المُقْبِلِ

قالوا : هذا لا يُغْنِى عنك شيئا ، فقلْ غيرَ ماأنتَ فيه ؛ فقال :

الشِّعْرُ صعبٌ وطويلٌ سُلَّمُه إذا آرتَقى فيه الذى لا يَعْلَمُه
زَلَّتْ به إلى الحَضِيض قَدَمُه يريدُ أن يُعرِبَه فيُعْجِمُه (٤)

قالوا : هذا مِثْل الذى كنتَ فيه ؛ فقال :

قد كنتُ أحياناً شديدَ المعتَمَدْ وكنتُ ذا غَرْبٍ (٥) على الخَصْمِ أَلَدّ

---

(١) هو ضابئ بن الحارثى البرجمى الشاعر من بنى تميم

(٢) من معلقته ، ومغار الفتل : محكمه ، وهو اسم مفعول من أغار الحبل إغارة : شد فتله ، ويذبل : جبل

(٣) هو حسان بن ثابت الأنصارى شاعر سيدنا رسول الله وقد تقدم شرح هذا البيت

(٤) الفاء هنا للاستئناف ، والمعنى : فإذا هو يعجمه ولا يصح نصبه عطفا على قوله « يعربه »

(٥) الغرب : الحد ومنه غرب السيف : حده

لاأحدُ ألأمُ من حُطيّهْ هجا بنيهِ وهجا المُرَيّهْ
☼ من لُؤمهِ ماتَ على فُرَيّهْ ☼

« المريه: تصغير مَرَة ـ امرأة ـ يريد: زوجته ، والفريه يريد الفرا أى الحمار »

نهيهم عن الإفراط فى البكاء وإظهار الجزع

دخلت أعرابيةٌ الحَضَرَ فسمعت بُكاءً من دار فقالت: ماهذا ! أراهم من ربّهم يَستغيثون ، ومن استرجاعه يتَضجّرون ، ومن جزيل ثوابه يتبرّءون... وقال أبو سعيد البَلْخى . مَن أصابَتْه مصيبة فأكثَرَالغمَّ جعل الله عُقوبتَه غمًّا مِثلَه ، قال الله تعالى : فأثابكم غمًّا بغمٍ لكيلا تحزنوا ... الآية ..

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ليس مِنّا مَن لَطم الخدود ، وشَقَّ الجيوب ، ودعا بدَعوى الجاهلية... « ودعا بدعوى الجاهلية : أى من نحو قولهم : واأبتاه ، واأمّاه ، واولداه ، وامصيبتاه ، ونحو ذلك من ضروب النياحة والنُّدْبة ... » أما البكاء والجزع دون إفراط فرُخّصَ فيه ، حدّث أنس بن مالك قال : دخَلْنا على أبى سَيْف القين [1] ـ وكان ظِئْراً لإبراهيم عليه السلام [2] ، فأخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إبراهيمَ ، فقبّلَه وشمّه ، ثم دَخلْنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجودُ بنفسه ، فجعلَت عينا رسول الله تذرِفانِ فقال له عبدُ الرحمن بن عوف

(١) هو البراء بن أوس زوج أم بردة خولة بنت المنذر مرضع إبراهيم بن سيدنا رسول الله . والقين : الحدّاد

(٢) الظئر : المرضع وأطلق عليه ذلك لأنه كان زوج المرضعة

* فوَرَدَتْ نفسى وما كادت تَرِدْ (١) *

قالوا : ياأبا مُلَيكة ، ألك حاجة ؟ قال : لاوالله ، ولكن أجزع على المديح الجيِّد يُمدَح به من ليس له أهلا . قالوا : فمَنْ أشعر الناس ؟ فأومأ بيده إلى فيه وقال : هذا الجُحَيْر إذا طمِعَ فى خير (يعنى فمه) وآستعبَرَ باكيا ؛ فقالوا له : قل لاإله إلا الله ؛ فقال :

قالت وفيها حَيْدَةٌ وذُعْرُ عَوْذٌ بربِّى منكمُ وحُجْرُ (٢)

فقالوا له : ماتقول فى عبيدك وإمائك ؟ فقال : هم عبيدٌ قِنٌّ ماعاقبَ الليلُ النهارَ ؛ قالوا : فأَوْصِ للفقراء بشىء ، قال : أُوصِيهم بالإلحاح فى المسئلة فإنها تجارةٌ لاتبُورُ ، وآستُ المسئول أضيق (٣) . قالوا : فما تقول فى مالك ؟ قال : للأنثى من ولدى مثل حظ الذكر . قالو ليس هكذا قضى الله جلَّ وعز لهنَّ ، قال : لكنِّى هكذا قضيتُ . قالوا فما توصِى لليتامى ؟ قال : كُلوا أموالهم وانكحوا أمَّهاتِهم ؛ قالوا : فهل شىء تَعْهَدُ فيه غيرُ هذا ؟ قال : نعم ، تحمِلُونى على أتانٍ وتتركونى راكبَها حتى أموتَ ، فإن الكريمَ لايموت على فراشه ، والأتانُ مَرْكَبٌ لم يمُتْ عليه كريمٌ قطُّ ؛ فحملوه على أتانٍ وجعلوا يذهبون به ويجيئون عليها حتى مات وهو يقول :

---

(١) وردت : أشرفت ، يقال : ورد فلان بلد كذا إذا أشرف عليه وإن لم يدخله ولعله يريد من الورود : الإشراف على الموت

(٢) حيدة : من حاد عن الشىء إذا صد عنه أو تغير خوفا منه ، وحجر : أى دفع ومنع ، والعرب تقول عند الأمر تنكره : حجراً له ، (بالضم) : أى دفعا

(٣) هذا كناية عن العجز ، يقال للرجل يستضعف : استك أضيق من أن تفعل كذا ، ويقال للجماعة أنتم أضيق أستاها من أن تفعلوا كذا .

رضى الله عنه: وأنتَ يا رسولَ الله ! فقال: يا ابن عَوْف، إنها رَحْمَةٌ، ثم أَتْبَعَها بأخرى — أى أَتْبَع الدمعةَ الأولى بأُخْرى — وقال صلوات الله عليه: إن العَيْنَ تَدْمَع، والقلبَ يَحْزَن، ولا نقول إلا ما يُرضِى الله، وإنَّا بفِراقك يا إبراهيمُ لمحزونون ... قوله صلوات الله عليه: ولا نقول إلا ما يرضِى الله وفى رواية: ولا نقول ما يُسْخِطُ الرب: أى من النياحة والصراخ وما إلى ذلك مما يوجب سُخْطَ الله عز وجل » وقيل لأعرابى: اصْبِرْ فالصَّبرُ أجرٌ، فقال: أعَلَى الله أتجلَّد ! والله: للجَزَعُ أحبُّ إليه، لأن الجَزَعَ استكانة والصَّبرَ قَسَاوَة ... وقيل لفيلسوف: أخْرِجِ الحُزْنَ من قلبك فقال: لم يَدْخُلْهُ بإذنى فأُخْرِجُه بإذنى ... وأفرطت امرأةٌ فى الجزَعِ على ابنها، فعوتِبَتْ فى ذلك، فقالت: إذا وَقَعَ حُكمُ الضَّروريات لم يقع عليها حُكْمُ المكتسبات، فأما جَزَعِى فليس فى الطاقة صَرْفُه، ولا فى القُدرةِ مَنْعُه، ولِى عُذْرٌ للضرورة، فإن الله تعالى يقول: فَمَنِ اضْطُرَّ غيْرَ باغٍ ولا عاد فلا إثمَ عليه ...

فى البكاء تخفيف من الحزن

قال ابن عباس رضى الله عنه: كنت إذا أصابتنى مُصيبةٌ وأنا شابٌّ لا أبكى، وكان يُؤْذِينى ذلك، حتى سمعت أعرابيا يُنْشِدُ:

لعَلَّ انحِدارَ الدَّمْعِ يُعْقِبُ رَاحةً من الوَجْدِ أوْ يَشْفِى شَجىَّ البلابِلِ

فسألته لِمَن الشعر؟ فقال: لِذى الرُّمَّة، فكنتُ إذا أُصبتُ بكيتُ، فاسْتَرَحْتُ ....

ضعف بِنية الإنسان

سُئل جالينوسُ عن الانسان فقال: سِرَاجٌ ضعيف، وكيف يدومُ ضَوْؤه

بين أرْبَع رياح ! » يعنى بالسراج : رُوحَه ، وبالرياح الأرْبَع : طبائعَهُ[1] ،
وقال الشاعرُ لَبِيد :

وما المرءُ إلا كالشِهابِ وضَوئِه   يحورُ رَماداً بعد إذْ هو ساطِعُ

« كل شيء تغيّر من حال إلى حال فقد حارَ يحور حورا » وقال أفلاطون :
إذا كانت الطينة فاسِدةً والبِنْيةُ ضعيفةً ، والطبائع مُتَنافيةً ، والعُمُرُ يسيراً ،
والمَنِيّةُ صادِقةً ، فالثِقَةُ باطلة ...

استنكافهم من أن يموت المرء حتف أنفه

قال خالد بن الوليد : لقد لقِيت كذا وكذا زَحْفاً ، وما فى جَسَدى
مَوضِعُ شِبْرٍ إلا وفيه طَعْنَةٌ أو ضَرْبَةٌ أو رَمْيَةٌ ثم ها أنا ذا أموتُ على فِراشى
حَتْفَ أنفى ، فلا نامت أعيُنُ الجُبَناء . وقال الشَنْفَرَى :

---

(١) قال وهب بن منبه : قرأت فى التوراة : أن الله عز وجل حين خلق آدم ركب جسده من أربعة أشياء ، ثم جعلها وراثة فى ولده ، تنمى فى أجسادهم وينمون عليها إلى يوم القيامة : رطب ، ويابس ، وسخن ، وبارد ، قال : وذلك أن الله سبحانه وتعالى خلقه من تراب وماء ، وجعل فيه نفسا وروحا ، فيبوسة كل جسد من قبل التراب ، ورطوبته من قبل الماء ، وحرارته من قبل النفس ، وبرودته من قبل الروح ثم خلق للجسد بعد هذا الخلق الاول أربعة أنواع أخر وهى ملاك الجسد لا يقوم الجسد إلا بهن ، ولا تقوم واحدة منهن إلا بالأخرى : المرة السوداء ، والمرة الصفراء ، والدم الرطب الحار ، والبلغم البارد ، ثم أسكن بعض هذا الخلق فى بعض ، فجعل مسكن اليبوسة فى المرة السوداء ، ومسكن الرطوبة فى الدم ، ومسكن البرودة فى البلغم ، ومسكن الحرارة فى المرة الصفراء ، فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع وكانت كل واحدة فيه وفقا لا تزيد ولا تنقص ، كملت صحته واعتدلت بنيته . فإن زادت واحدة منهن غلبتهن وقهرتهن ومالت بهن ، دخل على أخواتها السقم من ناحيتها بقدر مازادت وإن كانت ناقصة عنهن . ملن بها وعلونها ودخلن عليها السقم من نواحيهن : لقلتها عنهن حتى تضعف عن طاقتهن وتعجز عن مقاومتهن .

ولا تَقْبِرُونى إنّ قبرى مُحَرّمٌ عليكم ولكنْ أبشِرى أمَّ عامِرِ (١)

وقال السموأل أو غيره :

وما مات منا سيّد حَتفَ أنفه ولا طُلَّ مِنا ـ حيث كان ـ قتيل

تسيل على حد السيوف نفوسُنا وليس على غير السيوف تسيل

«طُلَّ : أُهدر دمُه، وقيل : أن لا يُثأَرَ به وتقبل ديته» وقال أبو تمام :

لولم يَمُتْ تحتَ أسيافِ العِدَا كرَماً لمَاتَ ـ إذ لم يَمُتْ ـ من شدّة الحَزَنِ

وقال آخر :

إنّ موتَ الفِراشِ ذُلٌّ وعارٌ وهْوَ تحتَ السيوفِ فضلٌ شريف

وقال : ✿ وأتعَبُ ميتٍ من يمُوت بداء ✿

وسيمر عليك كثير من عبقرياتهم فى هذا المعنى، فى « باب الشجاعة»

تمّ الجزء الأول

من الذخائر والعبقريات

---

(٢) أم عامر وأم عمرو : كنية الضبع ، قال الراجز :

ياأمّ عمرٍو أبشِرى بالبُشْرى موتٌ ذريعٌ وجَرادٌ عَظْلَى

وهم يزعمون أن الضبع من أحمق الدواب : لأنهم إذا أرادوا صيدها يجيء الرجل إلى وجارها فيسد فمه بعد ماتدخله لئلا ترى الضوء فتحمل الضبع عليه فيقول لها : أبشرى ياأم عامر بجراد عظلى وكمر رجال قتلى . فتذل له حتى يلقمها ثم يجرها ويستخرجها . جراد عظلى : ركب بعضها بعضا كثرة ؛ وأصل العظال : الملازمة فى السفاد من الكلاب والسباع والجراد ، وقولهم وكمر رجال قتلى ، فإنهم يزعمون أن الضبع إذا وجدت قتيلا قد انتفخ غرموله ألقته على قفاه ثم ركبته قال عباس بن مرداس :

ولو مات منهم من جرَحنا لأصبحت ضباع بأعلى الرقمتين عرائسا

فهرس

الجزء الأول من الذخائر والعبقريات

المقـــدمة

الكتاب الأول

فى الفضائل وصالح الأخلاق والمثل العايا

الباب الأول فى البر والتقوى

البر وألوانه

بر الوالدين وصلة الرحم وعبقرياتهم فى الآباء والأبناء والأقارب - من بابات شتى

الإحسان

وعبقرياتهم فى الجود واصطناع المعروف وقرى الأضياف وذم البخل والسؤال

السؤال وعبقرياتهم فيه من جميع نواحيه

حسن الخلق

التقوى

الباب الثانى

فى الشكر والحمد والثناء

الباب الثالث

فى الصبر وعبقرياتهم فيه وفى الدنيا وفى المرض وفى هاذم اللذات

تصحيحات واستدراكات

نرجو القارئ الكريم أن يبادر إلى تصحيح هذه الأخطاء

المطبعية التى ننبه إليها هنا

سطر	صفحة	خطأ	صواب
٢٠	٤	فاهاً	فَاهَا
٢٣	٣		الاقول خالد لأبى ذؤيب « أنظر الأغانى فقد جاء فيها « ج٦ ص ٢٧٥ » أن البيت لأبى ذؤيب وهناك بقية الأبيات وهى قصيدة جميلة
١	٣٣	مع الوضم	على الوضم
٥	٤٢	فزَعت	فزِعت
٣و٤	٤٣	وقوله ولم تك منهم الخ	وقوله لست منهم يروى ٭ إذا كنت فى قوم عِدًى ولم تك منهم ٭
٥	٤٣	فأما قوم عِدى	فأما قوم عدى بمعنى أعداء
٦	٦٠	فى الغُبار	من الغبار
١١	٧٠	وقال آخر	وقال بشار بن بُرد
١٢	٧٠	وتهلع	وتفرق
٢	٧١	يَئُس	يَئِس
١٢	٧٤	مع غيرَ	مع غيرِ
١٤	٧٨	بعض الشعراء	عبيد الله بن عبد الله بن طاهر
١٥	٧٨	وأنفق إذا أنفقت	وأنفق إذا أيسرت غير مُقَتّر

سطر	صفحة	خطأ	صواب
»	٧٨	سقط فى هذه الصفحة شرح لقول الشاعر سطر ١٦ : على ماخيّلات ، وهذا هو الشرح : على ماخيّلتْ : أى شَبَّهت ولونت ، يريد : على أى حال »	
٦	٨٤	والجودَ	والجودِ
١٥	١١٩	تدهده	تُهَذْهد « أى تصوت كما يهدهد البعير ويهدر »
٢١	١٤٧	عذرتها	عذرت
٧	١٥٩	صقيل	صَيْقَلُ
٥	١٩٥	بخُوَيِّصَة	بخُوَيْصَّةِ « ويوضع بعد كلمة تصغير خاصة فى الشرح هذه الزيادة : قال الزمخشرى : الخويصة تصغير خاصة بسكون الياء لأن ياء التصغير لا تكون إلا ساكنة وجوز التقاء الساكنين فيها أن الأول حرف لين والثانى مدغم »
١٥	١٩٦	وكلُّ شىء	وكلِّ شىء
١٩	٢٠٢	ماأوليتنيها	ما أوليتنيه
٢٠	٢٠٠	قول البحترى	قول إبراهيم بن العباس الصُّولى
١٩	٢٠٤	مُنْكَشِفًا	مُنْكَشِفًا

سطر	صفحة	خطأ	صواب
٢	٢٢١	وفى هادم اللاذات	وفى هادم اللذات وفى المرض
٢٠	٢٢٢	ونضواً	نَضْوا ونُضُوّاً
١٣	٢٢٩	مُسْتَهْدَف	مُسْتَهْدِف
١٨	٢٥٥	والضيف مُرْتَحَل	والضيف مُرْتَحِل
١٩	٢٥٥	ثم تَرُدُّه	ثم تَرُدُّه
٦	٢٧٠	أقول لعله	قوله زاع ... ألبيت لعله
٢	٢٨٣	لا يَلْبَثُ القُرناء	لا يُلْبِثُ القرناءَ
١٣	٢٨٨	ويروَى تَخَوَّنه	ويُروَى: تَخَوَّفَهُ
١٥	٣٠١	خباءك	حياءك

عبد الرحمن البرقوقي

الذخائر والعبقريات

معجم ثقافي جامع

الجزء الثاني

مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بور سعيد - الظاهر
القاهرة/ ت: ٩٣٦٢٢٧٧ - ٩٢٢٦٢٠

بســـم الله الرحمن الرحيم

ومنه سبحانه نستمد العون والتوفيق

فهو المُسدِّد إلى سواء الطريق

« وبعد » فإنَّا نَفتَتِحُ هذا الجزءَ الثانىَ من « الذخائر والعبقريات » بصَدْ
من عبقرياتهم فى أكثرِ المعانى التى أوردنا ما أوردنا من عبقرياتهم فيها ، فى
أبواب الجزء الأول ، وكان المُتَوقَّعُ أن نَفْتَتِحَ هذا الجزءَ بسائر عبقرياتهم
فى التعازى ، وفى المرض ، بَيْدَ أنَّا قد استحسنَّا أن نُصدِّرَ هذا الجزءَ الثانىَ
بطائفة من عبقرياتهم فى معانٍ شتَّى تَندَرِجُ فى الأبواب السابقـة ، وذاك
لأمرين : أما أولهما فلأن فى هذا الصَّنيعِ مُبادَرَةً باستِدْراكِ ما قد كان يصحُّ
إيرادُه هناك ، وأما الآخَرُ : فذلك لأنا لم نَستَحْسِنْ أن نَفجَأَ المتصفح لهذا
الجزء بمـا عسى أن يُفزِعَه ويَنفِرَ منه ، وتنقَبِضَ نفسُه عنه ، على أن هذه
العبقرياتِ وإن جاءت فى البَيْنِ وفَصَلَت بين عبقريات الباب الثالث غـير
أنها جاءت كالدُّرَّةِ الفريدة تفصِـل بين ذَهَب القِـلادة ؛ إلى ما فى ذلك من
استراحة للقارئ وتنقُّـل به من معانٍ قد تكثَّرنا منها إلى معانٍ أُخرى قد
يستريح إلى جِدَّتها ؛ وبعد أن نفرُغَ من هذه العبقريات نَعْطِف على عبقرياتهم
فى التعازى ، وفى المرض ، وقانا الله جميعاً مِحْنَته ، وخفَّفَ ــ إذا هو قَـدَّر
علينا ــ وطْأَتَه .

غبـــقريات شَـــتَّى

تندرج فى الأبواب السابقة

☆ ☆ ☆

سموّ أخلاق الخلفاء الراشدين

ومما يُؤثَر فى باب حسن الخلق ما حدَّث به العُتبىُّ [1] فى إسناد ذكره قال: دعا طَلْحَةُ بنُ عُبَيد الله أبا بكر وعمر وعثمانَ رَحْمَـةُ الله عليهم، فأبطأ الغلامُ ـ الخادم ـ عنه بشىءٍ أراده، فقال طلحةُ: ياغلام، فقال الغــلام: لَبَّيك، فقال طلحةُ: لا لبَّيك؛ فقال أبو بكر: ما يَسُرُّنى أنى قُلتُها وأنّ لِىَ الدنيا وما فيها، وقال عمر: ما يسرنى أنى قلتها وأن لى نِصفَ الدنيا، وقال عثمان: ما يسرنى أنى قُلتها وأن لى حُمْرَ النَّعَم [2]؛ قال العُتبىُّ: وصَمَتَ عليها أبو محمد ـ هو طلحة ـ فلما خَرَجوا من عِنْدِه باع ضَـيعَةً بخمسةَ عشرَ ألفَ دِرهم، فتَصدَّق بِثَمَنِها ... فهل رأيتَ أو سَمِعتَ بمثل هـذا الأدب العُلْوىّ الرَّبانىّ! وأنت إذا نظرت إلى هذا الحديث من أىّ أقْطاره رأيت أدباً باسِقاً وخُلقا ساميًا! فهذا الصِّديقُ رضى الله عنه يُنـكر فى كِياسَة وأدب قَولةَ

---

(١) هو أبوعبد الرحمن محمد بن عبيد الله ... بن عتبة بن أبى سفيان: شاعرأديب راوية للأخبار والأدب ... تتابعت عليه مصائب فى أولاده الذكورالستة فى الطاعون الذى كان بالبصرة سنة ٢٢٩ هـ فرثاهم بمراث كثيرة منها قوله:

كَلّ لسانى عن وصف ما أجد ... وذقت ثُكلا ما ذاقه أحد

ما عالج الحزنَ والحرارة فى ... الأحشاء من لم يمت له ولد

وله من الأبيات السائرة:

قالت عهدتك مجنوناً فقلت لها ... إن الشباب جنون بُرؤه الـكبر

(٢) النعم: الإبل خاصة والعرب تقول: خير الإبل حمرها وصهبها؛ لأن الحمراء أصبر على الهواجر، والصهباء أحسن حين ينظر إليها

أبى محمد لغلامه: لا لبيك، ثم يجىء بعده عمر فينكر هو الآخَرُ إنكارًا لاحظ فيه التأدب مع الخليفة أبى بكر، وكذلك فعل عثمانُ مع عُمَر، وأخيرا يكفِّر أبو محمد عن هذه البادرة بخمسةَ عشرَ ألفَ درهم... لاجرم لقد أدبهم المصطفى صلوات الله عليه، الذى أدَّبه ربُّه فأحسن تأديبَه.

طلحة بن عبيد الله

وهذا طلحة بن عبيدالله هو الصحابى الجليل أحَدُ العشرة المبشَّرين بالجنة(١) وأحدُ الثمانية الذين سَبقوا إلى الإسلام، وأحَدُ الخمسةِ الذين أسلموا على يد أبى بكر، وأحد الستة أصحاب الشُّورى(٢) وأحَدُ أغنياءِ الصحابة، وأحدُ أجواد قريش، بل كان نبىَّ الجود، إن كان للجود نبىٌّ... وقد كان يقال له: طلحة الفيّاض، وطلحة الجود، وطلحة الخير، يقال إنه فرّق فى يوم سبعمائة ألف، باع أرضاً له من عثمانَ بنِ عفانَ بسبعمائة فحملها إليه، فبات ورُسُله تختلف بها فى سككُ المدينةِ حتى أسْحَر(٣) وما عنده منها دِرْهم! ويُروى أنه وصل أعرابيًّا من أقاربه بثمانمائة ألف درهم؛ وكان لايَدَعُ أحدا من بنى تيْم عائِلًا إلا كفاه مُؤْنته ومُؤْنةَ عِياله وزوّج أياماهم(٤) وأخدم عائلهم وقضى دينَ غارمِهم! وكان يُرسل إلى السيدة عائشة إذا جاءتْ غَلّتُه كلَّ

(١) وقال له سيدنا رسول الله يوم أحد: إنه قد أوجب؛ أى أتى بما أوجب له الجنة.

(٢) أى الذين عهد إليهم الفاروق رضى الله عنه أن يتشاوروا ويختاروا من بينهم خليفة بعده.

(٣) أسحر: صار فى السحر، والسحر: ماقبل انصداع الفجر

(٤) الأيامى جمع أيم والأيم من النساء: التى لازوج لها بكراً كانت أو ثيباً ومن الرجال: الذى لا امرأة له

سنة بعشرة آلاف ... إلى آخر أنباء جوده وكرمه ؛ ولما انقضى يومُ الجمل [(١)] خرج عليٌّ بن أبي طالب في ليلة ذلك اليوم ومعه قَنْبَر [(٢)] ، وفي يده مَشْعَلَةٌ من نار يتصَفَّح القتْلى ، حتى وقف على طلحة فقال : أعْزِزْ عليَّ أبا محمد أن أراك مُعَفَّراً [(٣)] تحت نجوم السماء وفي بطون الأودية : شَفَيتُ نفسي وقَتَلْتُ مَعْشَرِي ! إلى الله أشكو عُجَرِي وبُجَرِي [(٤)] ثم تمثّل [(٥)]

فتًى كان يُدْنِيه الغِنَى من صديقه إذا ماهو استغنَى ويُبعِدُه الفَقْرُ

فتًى لا يَعُدُّ المال رَبًّا ولا تُرَى به جَفْوَةٌ إن نالَ مالاً ولا كِبْرُ

فتًى كان يُعْطِي السيف في الرَّوْعِ حَقَّهُ

إذا ثَوَّبَ الداعي وتَشْقَى بِهِ الجُزُرُ [(٦)]

وهَوَّنَ وَجْدِي أنّني سَوْفَ أغْتَدِي على إثْرِهِ يَوْماً وإنْ نَفَّسَ العُمْرُ

« قوله فتى كان يدنيه الغنى من صديقه ... البيت : هو معنى جميل مطروق وفيه يقول إبراهيم بن العباس الصولي في محمد بن عبد الملك الزيات :

---

(١) هو تلك الوقعة التي نشبت بين علي وبين عائشة ومن معها ، وكانت عائشة تمتطي جملا فسمي ذلك اليوم يوم الجمل

(٢) هو خادم علي

(٣) معفراً : أي ملصق الوجه بالتراب ويقال للتراب : العفَر . والعفْر

(٤) أي ما ظهر من أمري وما بطن ، وأصل العجر : العروق المنعقدة في الظهر والبجر : العروق المنعقدة في البطن ، وقال الأصمعي : هو قول سائر في أمثال العرب يقال : لقي فلان فلانا فأبثه عجره وبجره

(٥) هذه الأبيات لسلمة بن يزيد بن مشجعة الجعفي أحد الصحابة يرثي أخاه لأمه

(٦) ثوب الداعي ، فالتثويب : التلويح بالثوب مع صوت فيه استغاثة وقال عمرو ابن العلاء : التثويب : الترجيع من ثاب يثوب إذا رجع يريد : إذا رجع الداعي دعاء بعد دعاء ، يصفه بإجابة الصريخ وقوله : وتشقى به الجزر ، يصفه بكرم الضيافة

أَسَدٌ ضارٍ إذا ما نَعتَه وأبٌ بَرٌّ إذا ما قَدَرَا
يَعرِف الأبعدَ إن أثرَى ولا
يَعرف الأدنى إذا ما افتقَرا

ويقول الأديب أبو بكر الخوارزمى :

رأيتُك إنْ أيسَرْتَ خَيّمتَ عندنا لزاماً وإن أعسَرْتَ زُرْت لماما
فما أنت إلا البدرُ إن قلّ ضَوْءُهُ أغبّ وإنْ زاد الضياءُ أقاما

وقد تقدمت أبيات لعبد الله بن الزَّبير الأسدى فى هذا المعنى ؛ وما أبرع أبياتاً لابن المعتز يقول فيها :

إذا ما أراد الحاسدون انهِدَامَهُ بناهُ إلهٌ غالب العِزِّ قاهِرُهْ
وماذا يريد الحاسدون من امرئٍ تَزِينُهُم أخلاقُه ومآثِرُهْ
إذا ماهو استغنَى اهتدى لافتقارِهم
ولاتهتدى يوماً إليهم مفاقِرُهْ (١)
وكانوا كَرَامٍ كوكَباً بِبُصاقِهِ فَرُدّ عليهم وَبْلُه ومواطِرُهْ (٢)

حادث تلاقى فيه الكرم بالشجاعة والمروءة والحياء والنُّبل

تحدَّث رجلٌ من الأعراب قال : نزَلْتُ برَجُلٍ من طَيّئٍ ، فنَحَرَ لى ناقة

(١) المفاقر : وجوه الفقر ، أو جمع فقر على غير قياس كالملامح والمشابه
(٢) هذا البيت كما قال بعض العرب :

رَمَانِى بِأَمْرٍ كُنتُ مِنْهُ ووالدى بَرِيئاً ومن جالِ الطَّوِىِّ رَمَانى

« الجال والجول : الناحية ، والطوى : البئر ، يريد : رمانى بما عاد عليه »

فأكلتُ منها ، فلما كان الغدُ نحرَ أُخرى فقلت : إنّ عندك من اللحم ما يُغني ويكفى ! فقال : إنى والله لاأُطعِمُ ضيفى إلا لحماً عَبيطاً ! قال : وفعل ذلك فى اليوم الثالث ، وفى كلِّ ذلك آكُلُ شيئاً ويأكلُ الطائىُّ أكلَ جماعة ، ثم نُؤتَى باللبن فأشرَبُ شيئا ويَشرَبُ عامّةَ الوَطْبِ ! فلما كان فى اليوم الثالث ارتقَبْتُ غفْلَته ، فاضطجع ، فلما امتلأ نوماً اسْتقْتُ قطيعا من إبِله ، فأقبلْتُه الفَجّ ، فانتبه ، واختصر علىَّ الطريق حتى وقف لى فى مَضِيقٍ منه ، فألقمَ وتَرَه فُوقَ سَهمِه ، ثم نادَى بى : لِتَطِبْ نفسُك عنها ، قلتُ : أرِنى آيةً ، فقال : انْظُر إلى ذلك الضّبّ ، فإنى واضِعٌ سهمى فى مَغْرِزِ ذنَبِه ، فرماه ، فأندَر ذنَبَه ، فقلت : زِدْنى ، فقال : انظر إلى أعلَى فَقارِه ، فرماه ، فأثبت سهمه فى الموضع ، ثم قال لى : الثالثةُ والله فى كَبِدك ! فقلت : شأنك بإبلِك ! فقال : كلا ، حتى تسوقَها إلى حيث كانت ! قال : فلما انتهيتُ بها قال : فكَّرْتُ فيك فلم أجِدْ لى عندك تِرَةً تطالِبُنى بها ، وما أحسَبُ الذى حَمَلك على أخذِ إبلى إلا الحاجة ! قال : قلت : هو والله ذاك ، قال : فاعْمِدْ إلى عشرين من خِيارِها فخُذْها ! فقلت : إذَنْ والله لاأفعل حتى تَسْمَعَ مَدحَك ، والله مارأيتُ رجلا أكرَمَ ضِيافةً ولا أهْدَى لسبيلٍ ولا أرْمَى كفا ولا أوسَعَ صدراً ولا أرغب جوفاً ولا أكرَم عفوًا ، منك ! قال : فاستَحْيا فصرَفَ وجهَه عنى ، ثم قال : انْصَرِف بالقَطيع مُبارَكا لك فيه ...

« قوله : عبيطا : يقال : عَبَط فلانٌ ناقته : إذا نحرها من غير داء ولا كسر وهى شابّةٌ سمينةٌ ، والعبيط أيضاً : اللحم الطرِىُّ غير النضيج ، والوطب : سِقاءُ اللبن خاصة من جلد ، والفج : الطريق الواسع بين جبَلين ، والجمع : فِجاج ؛ واختصر الطريق : سَلَكَ أقرَبَه ، وفُوقُ السهم : مَشَقُّ رأسِه حيث

يقع الوَتَر ، وقوله : فأَندرَ ذَنبه : أى أسْقَطه ، وقد نَدَر الشيءُ يندُرُ ندورا : سقط أو سقط من جوفِ شيء أو من بين أشياء فظهر ، ومنه نوادرُ الكلام وهى ماشَذّت وخرجَت عن جمهوره فظهرت . وقوله : ولا أرغب جوفا : من الرُغب وهو : سَعة البَطْن وكثرة الأكلِ ،

حلم وأدب وسموّ خلق

رَوى المُبرِّد : أنَّ رجلا من أهل الشام قال : دخلْتُ المدينة ، فرأيتُ رجلا راكِباً على بغْلة لم أرَ أحسنَ وجهاً ولا سَمْتاً ولا ثوباً ولا دابَّةً ، منه ! فمالَ قلبى إليه ، فسألت عنه فقيل لى : هذا الحسن بنُ علىٍّ بن أبى طالب ، فامتلأ قلبى له بُغضاً [١] وحَسَدْتُ عليا أن يكون له ابنٌ مثله ! فصِرتُ إليه [٢] ، فقلت له : أأنت ابن أبى طالب ؟ فقال : أنا ابنُ ابنه ، فقلت : فبِك وبأبيك أسُبُّهما ، فلما انْقضَى كلامى قال لى : أحسَبُكَ غريبا ! قلت : أجَلْ قال : فمِلْ بِنا فإن احتجْتَ إلى منزلٍ أنزلناك ، أو إلى مالٍ آسيناك ، أو إلى حاجةٍ عاوَنّاك ، قال : فانصَرفْتُ عنه ووالله ماعلى الأرض أحدٌ أحبُّ إلىّ منه ... وقال رجل لرجلٍ من قريش : إنى مَرَرْتُ بقومٍ من قريش يَشتِمونك شَتما رَحِمْتُك منه ! قال القرشى : أفسَمِعْتنى أقول إلا خيرا ؟ قال : لا ، قال : إياهم فارحَم ... وقال ابن مسعود : إن الرجلَ لَيظلِمُنى فأرْحَمه !

وقال رجل للشعبىِّ كلاما أَقْذَعَ له فيه ، فقال له الشَّعبىُّ : إن كنتَ صادقاً فغفر الله لى ، وإن كنتَ كاذباً فغفر الله لك ... ويُروَى أنه أتى مَسْجدا ، فصادفَ فيه قوما يغتابُونَه ، فأَخذ بعِضادَتى الباب ثم تمثل بقول كُثَيِّر عَزّة :

---

(١) لأن الرجل من أشياع معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه (٢) توجهت إليه

هَنيئًا مَرِيئًا غيرَ داءٍ مُخامِرٍ ... لِعزَّةَ من أعراضِنا مااستحلتِ

وقال محمود الورّاق :

إنى شَكَرْتُ لِظالِمى ظُلمى ... وغَفَرتُ ذاكَ له على عِلْمى

ورأيتُه أسْدَى إلىَّ يدًا ... لمَّا أبانَ بجهْلِه حِلمى

رَجَعَتْ إساءتُهُ عليه وإحْساني ... فعادَ مُضاعَفَ الجُرْمِ

وغَدَوْتُ ذا أجْرٍ ومَحْمَدَةٍ ... وغدا بكَسْبِ الظُلمِ والإثْمِ

فكأنما الإحسانُ كانَ له ... وأنا المُسِيءُ إليه فى الحُكمِ

مازالَ يَظلِمُنى وأرْحَمُه ... حتى بَكَيْتُ له من الظُلمِ

خير مايرزقه العبد

قال بعض الملوك لبعض وُزرائه ـ وأراد مِحْنَته ـ : ماخيرُ ما يُرزَقُهُ العَبد ؟ قال : عقلٌ يعيش به ، قال : فإن عَدِمَه ؟ قال : فأدبٌ يتحلى به ، قال : فإن عَدِمَه ؟ قال : فمالٌ يسْتُره ، قال : فإن عدِمَه ؟ قال : فصاعِقةٌ تُرِيحُ منه العِبادَ والبلاد ...

لاتزال العرب عربا
ماحافظت على زيها

كان الأحنف بن قيس يقول : لاتزال العربُ عرباً مالَبِسَت العمائم ، وتَقلَّدَتِ السيوف ، ولم تعُدَّ الحِلمَ ذُلا ، ولا التَّواهُبَ فيما بينها ضَعَةً ... «قوله : مالَبِسَت العمائم ، يريد : ماحافظتْ على زِيِّها ، وقوله : وتقلدت السيوف ، يريد : الامتناع من الضّيم ، وقوله : ولم تَعْدُدِ الحِلمَ ذُلا ، يقول : ماعَرفَت مَوضع الحلم ، وذلك أن الرجل إذا أغضَى للسلطان ، أو أغضى

عن الجواب وهو مأسورٌ لم يُقَلْ: حَلُمَ، وإنما يقال: حَلُمَ، إذا ترك أن يقول الشيء لصاحبه مُنتصرا ولا يخاف عاقبةً يكرهها. فهذا الحِلْمُ المحض، فإذا لم يفعَلْ ذلك ورأى أنَّ تركَهُ الحِلمَ ذُلٌّ فهو خطأٌ وسَفَهٌ؛ وقوله: ولم ترَ التواهُبَ بينها ضَعَةً، نحوٌ من هذا، وهو: أنْ يهَبَ الرجل من حقِّه مالا يُسْتَكْثَره عليه ... وكان يقال: أحْيُوا المعروف بإماتته، ومعنى ذلك: أن الرجل إذا امْتَنَّ بمعروفِهِ كَدَّرَه؛ وقيل: المِنَّةُ تَهْدِم الصنيعة، وقد قال قيسُ بن عاصِمٍ المِنْقَرِى: يابَنى تميم، اصْحَبُوا مَن يذكُرُ إحسانَكم إليه وينسى أياديَه إليكم ...»

توقير العالم والشريف والكبير

والترفع عن الوضيع

كان زياد بن أبيه يقول: أوصيكم بثلاثة: بالعالِم، والشريف - يعنى العظيم القدر - والشيخ - يريد: الذى تقدمت به السن - فوالله لاأوتى بوضيع سَبَّ شريفا، أو شابٍّ وَثَبَ بشيخ، أو جاهلٍ امتَهَنَ عالما، إلا عاقبتُ وبالغتُ ... وقال عُمارَة بن عقيل بن بلال بن جرير لبنى أسد ابن خزيمة:

يأيها السائلى عمدًا لِأُخْبِرَه ... بذاتِ نفسى وأيدى الله فوقَ يدى
إنْ تستقِمْ أسَدٌ ترْشَدْ وإنْ شَغَبَتْ ... فلا يَلُمْ لائمٌ إلا بنى أسد
إنى رأيتكمُ يُعْصَى كبيرُكم ... وتَكنَعون إلى ذى الفَجْرَةِ النَّكِدِ[1]

(١) تكنعون: تخضعون، من كنع يكنع - بالفتح فيهما - كنوعا: خضع، والفجرة اسم لكل قبيح، من فجر الرجل يفجر فجرا وفجورا: انبعث فى المعاصى، والنكد: اللئيم، من النكد - بالتحريك - وهو الشؤم واللؤم

فباعَد اللهُ كلَّ البُعْـد دارَكُمُ ولا شَفاكُم من الأضغانِ والحَسَدِ

فرأى عِصيانَهم الـكبيرَ من أقبح العيب وأدَلِّه على ضِغْنِ بعضهم لبعض وحسَدِ بعضهم بعضا ، والوضيع ينقلب إلى الشريف لأنه يرى مُقاولته فخرا ، والاجتراءَ عليه رِبْحا ، كما أن مقاولةَ الشريف للئيم ذُل وضعة قال الشاعر :

إذا أنت قاوَلْتَ اللئيمَ فإنما يكونُ عليك العَتْبُ حين تُقاولُهْ

ولسْتَ كمن يَرضى بما غيرُهُ الرضا ويمسَحُ رأسَ الذئب والذئب آكله

قال المبرد : وفى هذا الشعر بيتان يقدّمان فى باب الفتك ـ وفى باب العزم والشجاعة والإقدام ـ وهما :

فلا تَقرِنَنْ أمرَ الصريمةِ بامْرِئٍ إذا رامَ أمْرًا عَوَّقَتْه عواذِلُهْ[1]

وقُلْ للفُؤادِ إنْ نَزابكَ نَزْوَةٌ من الرَّوْع:أفرِخْ أكثرُ الرَّوْع باطِـلُه[2]

قال المبرد : وقـد امتنع قوم من الجواب ـ أى من مقاولة اللئيم ـ تنبلا ـ يريد ترفعاً ـ ومَواضِعُهم تُنبِئُ عن ذلك ـ أى أن مراكزهم تدل على أن امتناعهم ترفع ـ وامتنع قوم عِيًّا بِلا اعْتِلال ـ يريد دون أن يبدوا علّة لهذا الإعراض عن اللئام ـ وامتنع قوم عجزو واعتَلُّوا بـكراهة السفه ، وبعضهم معتلٌّ بِرِفعةِ نفسه عن خَصمه ، وبعضهم كان يُسُبُّه الرجل الركيكُ من العشيرة ، فيُعرِضُ ويَسُبُّ سيِّدَ قومه ، وكانت الجاهليةُ ربَّما فعلته فى الذُّحول

(١) فلا تقرنن : من قرن الشيء بالشيء : شده إليه ، وكذلك قرنه إليه ، والصريمة : العزيمة

(٢) إنْ نزا بك نزوة : فالنزوة : المرة من النزو وهو الوثوب إلى فوق ، يريد : إن تسلط عليه الفزع والرعب فاضطرب ، وأفرخ يريد : أفرخ روعك ، ومعناه : ليخرج عنك رعبك ويذهب فزعك كما تفرخ البيضة إذا انفلقت عن الفرخ فخرج منها وقوله : أكثر الروع باطله ، يريد : ليس الأمر على ماتحاذر

ـ جمع ذُحل وهو : الثأر ـ قال الراجز :

إنّ بجيلا كلما هجانى   مِلْتُ على الأغطشِ أو أبانِ
أو طلحةِ الخيرِ فتى الفتيان   أولاكَ قومٌ شأنُهم كشانى
ما نِلْتُ من أعراضِهم كفانى   وإنْ سكتُّ عرفوا إحسانى

وقال أحد المحدّثين :

إنى إذا هرَّ كلبُ الحىِّ قلتُ له   إسلَمْ وربُّك مخنوقٌ على الجِرَر (١)

وفى مِثل اختيار النّبيل لتتكافأ الأعراضُ قولُ الأخطل :

شفَى النفسَ قتلَى من سُليمٍ وعامرٍ   ولم يَشْفها قتلَى غنىّ ولا جسْرِ
ولا جُشَمٍ شرِّ القبائلِ إنها   كبيضِ القَطا ليْسُوا بسُودٍ ولا حُمْرِ
ولو ببَنِى ذُبيانَ بُلَّتْ رِماحُنا   لقرَّتْ بهم عينى وباءَ بهم وِتْرِى

وقال رجل من المحدّثين ـ هو حمْدان بنُ أبان اللّاحِق :

أليسَ من الكبائرِ أنَّ وغداً   لِآلِ مُعَذَّلٍ يهجو سَدوسا
هجا عِرْضاً لهم غضًّا جديداً   وأهْدَفَ عِرْضَ والدِه اللّبيسا (٢)

وقال آخر :

اللؤمُ أكرَمُ من وَبْرٍ ووالدِه   واللؤمُ أكرمُ من وبْرٍ وما وَلدَا
قومٌ إذا جَرَّ جانى قومهم أمِنوا   من لُؤمِ أحْسابهم أن يُقتلوا قَوَدا
اللؤمُ داءٌ لِوَبْرٍ يُقتلون به   لا يُقتلون بداءِ غيرِه أبدا

وقال أحد المحدّثين هو ـ دِعْبِل بن على الخزاعى ـ :

---

(١) الجرر : جمع جرّة وهى : الجذب كالجرّ والاجترار

(٢) يريد . جعله هدفا يرمى ، واللبيس : مستعار من قولهم ثوب لبيس إذا كثر لبسه فأخلق

أما الهجاءُ فدَقّ عِرْضُك دونه والمدحُ عنك كما علِمتَ جليلُ
فاذْهَبْ فأنتَ عتيقُ عِرْضِك إنه عِرْضٌ عَزَزْتَ به وأنتَ ذليلُ

وقال آخر:

نُبِّئْتُ كلباً هابَ رَمْيِي له يَنْبَحُنِى من موضعٍ نائى [١]
لوكنتَ من شيء هجَوْناك أو لو بِنْتَ للسَّامِع والرائى [٢]
فعَدِّ عن شتمي فإنى امْرُؤٌ حَلَّمنى قِلَّةُ أكفائى

وقال دعبل أيضاً:

فلو أنى بُليتُ بهاشِمِيٍّ خُؤُولَتُه بنو عبدِ المدَانِ
صَبَرتُ على عَداوتِه ولكن تعالَىْ فانْظُرِى بمَن ابْتلانى

ووَقف رجلٌ عليه مُقَطَّعاتٌ على الأحنفِ بن قيس يُسُبّه، وكان عمرو ابن الأهتم جعلَ له ألفَ دِرْهمٍ على أنْ يُسفِّه الأحنف، فجعل لا يألو أنْ يَسُبَّه سبًّا يُغضِب، والأحنفُ مُطرِقٌ صامتٌ، فلما رآه لا يُكلمه أقبل الرجلُ يَعَضُّ إبْهامَيه ويقول: ياسَوْأتاه، والله مايمنعُه من جوابى إلا هَوانى عليه... وفعَل ذلك آخَرُ فأمسكَ عنه الأحنف، فأكثرَ الرجلُ، إلى أن أراد الأحنف القيامَ للغَدَاء فأقبَل على الرُجل فقال: ياهذا، إنَّ غَداءَنا قد حضَر فانهَضْ بنا إليه إنْ شئتَ فإنك مُذ اليوم تحْدو بجمَلٍ ثِفَال. [٣]

عِبرة

قال المنصورُ لعمرو بن عُبَيد: عِظْنى قال: بما رأيتُ أو بما سَمِعتُ؟

(١) ينبحنى: يريد تلحقنى شتائمه على سبيل المجاز
(٢) يريد: لوأحس بك الأعمى والبصير
(٣) الثفال من الإبل: البطيء الثقيل الذى لايكاد ينبعث...

قال : بما رأيت ، قال : مات عُمَرُ بنُ عبد العزيز وخَلَّفَ أحدَ عشرَ ابنا وبلغت تَرِكَتُهُ سبعةَ عشرَ دينارا ، كُفِّن منها بخمسة ، واشترى موضعاً لقبره بدينارين ، وأصاب كلُّ واحد من أولاده ثمانية عشر قيراطا من دينار ... ومات هشام بن عبد الملك فخلَّف أحد عشر ابنا أصاب كل واحد من أولاده ألفَ ألفِ دينار ، فرأيت رجلا من أولاد عمر بن عبد العزيز قد حَمَّل في يوم واحد على مائة فَرَسٍ في سبيل الله ، ورأيت رجلا من أولاد هشام على قارعة الطريق يسأل الصدقة ...

لا تشكُ إلى غير الله

حدَّث بعضهم قال : سمعني شُريحٌ القاضي وأنا أشكو بعضَ حالي إلى صديق لي ، فأخذ بيدي وقال : يا ابن أخي ، إياك والشكوى إلى غير الله عز وجل ، الصديقُ تُحزنه ، والعدو تُشْمته ؛ انظر إلى عيني هذه ـ وأشار إلى إحدى عينيه ـ وقال : والله ، ما أبصرْتُ بها شخصاً ولا طريقاً مُنذ خمسَ عشْرةَ سنة ، وما أخبرت بها أحدا إلى هذه الغاية سواك ...

نبالة ومروءة

حدَّث العَسْجَدِيُّ قال : جاء رجل إلى أبي إسحاق الكسائيِّ ليلا فقال : ما جاء بك ؟ قال : رَكِبني دَيْنٌ ، فقال : كم هو ؟ قال : أربعمائة درهم ، فأخرج كيساً فأعطاه ، فلما رَجَع عنه بكى ، فقال له أهله : ما يُبكيك ؟ فقال : بُكائي أني لم أبحث عن حاله وألجأته إلى الذل ...

دعوة الله

قال أعرابى :

وإنى لأُغضِى مُقْلَتَىَّ على القذى ... وألبَسُ ثَوْبَ الصبر أبيضَ أبلجا

وإنى لأدعو الله والأمر ضيقٌ ... علىَّ فما يَنفكُّ أن يتفرّجا

وكم من فتًى ضاقتْ عليه وجوهُه ... أصاب لها فى دَعْوَةِ الله مَخْرجا

✡ ✡ ✡

كلمات فى السؤال

قال الأصمعى : سمعت أعرابيا يقول : فَوتُ الحاجة خيرٌ من طلبها من غير أهلها ... قال : وسمعت آخر يقول : عِزُّ النزاهة أشرف من سرور العائدة قال : وسمعت آخر يقول : حَمْلُ المِنَن أثقلُ من الصبر على العَدَم ... وفى الحديث الشريف : والذى نفسى بيده لأن يأخُذَ أحدُكم حبلَه ثم يغدو إلى الجبل فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خيرٌ له من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه.

كانوا يَرَوْن أنّ الملوكَ لا يُستحَى من مَسألتهم

ولمناسبة السؤال نورد عليك ما يلى : كان لَبيد بن ربيعة الشاعر المخضرم شريفا فى الجاهلية والاسلام ، وكان نَذَر أنْ لا تَهُبَّ الصَّبا [1] إلا نَحَرَ وأطعم حتى تَنقَضى ، فهبّت بالاسلام وهو بالكوفة [2] مُقْتِرٌ مُمْلِق ،

(١) الصبا : الريح التى تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار وتسمى القبول لأنها تستقبل الكعبة

(٢) يقال : إنه أقام بالكوفة فى عهد عمر بن الخطاب ولم يزل بها حتى مات فى آخر خلافة معاوية عن خمس وأربعين ومائة سنة ، رحمه الله

فعَلِمَ بذلك الوليدُ بن عُقْبَةَ بن أبي مُعَيط ـ وكان واليها لعثمانَ بنِ عفَّانَ ـ وكان أخاه لأمّه ـ فخطب الناس وقال : إنّكم قد عرفتم نَذْرَ أبي عقيل وما وكّد على نفسه ، فأعينوا أخاكم ، ثم نَزَل ، فبعث إليه بمائة ناقة وأبيات يقول فيها :

أرَى الجزّارَ يشْحَذُ شَفْرَتَيه إذا هَبَّتْ رِياحُ أبي عَقيلِ (١)
أشَمُّ الأنفِ أصْيَدُ عامِرىٌّ طويلُ الباعِ كالسَّيفِ الصَّقيلِ (٢)
وَفَى ابنُ الجعفرىّ بما نواه على العِلاَّتِ والمالِ القليلِ (٣)
بِنَحْرِ الكُومِ إذ سُحِبَتْ عليه ذُيولُ صَباً تجاوَبُ بالأصيلِ (٤)

فلما أتتْهُ قال : جزى الله الأميرَ خيراً ، قد عرَفَ الأمير أنى لا أقول شعراً (٥) ولكن اخرُجى يا بُنَيّتى ، فخرجت خُماسيّةٌ (٦) فقال لها : أجيبى الأمير ، فأقبلت وأدبرت ، وبَعث الناسُ ، فقَضى نَذْرَه ، ففى ذلك تقول ابنةُ لبيد :

إذا هَبَّت رِياحُ أبى عَقيلٍ دَعَوْنا عند هَبَّتها الوليدا
طويلَ الباعِ أبيضَ عَبْشَمِيًّا أعانَ على مُرُوءتِه لبيدا (٧)

---

(١) الشفرة : السكين ، والشحذ : التحديد بالمشحذ ، بكسر الميم ، وهو المسن
(٢) الأصيد : الذى يرفع رأسه كبرا لا يلتفت يميناً ولا شمالا
(٣) على العلات : على كل حال أو على ما فيه من الحالات والشئون
(٤) الكوم : العظام الأسنمة واحدتها كوماء
(٥) لأنه حرّم على نفسه قول الشعر منذ أسلم
(٦) خماسية : طولها خمسة أشبار ، وكذلك غلام خماسى ولا يقال إذا بلغ ستة أشبار أو سبعة : سداسى ولا سباعى
(٧) أبيض : إذا قالت العرب : فلان أبيض فالمعنى : نقاء العرض من الدنس والعيوب لا يريدون بياض اللون وهذا كثير فى شعرهم . وعبشمى : من بنى عبد شمس بن عبد مناف

بأمثالِ الهِضاب ، كأنّ رَكْباً عليها من بنى حامٍ قُعودا [1]
أبا وَهْبٍ جزاكَ الله خيراً نحَرْناها وأطعمنا الثّريدا
فَعُدْ إنَّ الكريمَ له مَعادٌ وظَنّى بابنِ أرْوَى أن يَعودا

فقال لها لبيد : أحسَنتِ يا بُنيّتى لولا أنكِ سألت ! فقالت : إن الملوك لا يُستَحى من مَسألتهم ! ولو كان سُوقةً لم أفعلْ ... فقال لها : وأنتِ فى هذا أشعرُ !

مَثلٌ فى الرياء

عن وهب بن مُنَبّه قال : نَصَبَ رجلٌ من بنى إسرائيل فخّاً ، فجاءت عُصفورةٌ فنزلت عليه ، فقالت : مالى أراك منحنيا ؟ قال : لكثرة صلاتى انحنيت ! قالت : فمالى أراك باديةً عظامُك ؟ قال : لكثرة صيامى بَدَتْ عِظامى ! قالت فمالى أرَى هذا الصُّوفَ عليك ؟ قال : لِزَهادتى فى الدّنيا لبِستُ الصوف ! قالت : فما هذه العَصا عندك ؟ قال : أتوكّأُ عليها وأقضى حوائجى ، قالت : فما هذه الحَبّةُ فى يدك ؟ قال : قُربانٌ إن مَرّ بى مِسكين ناوَلْتُه إياه ، قالت : فإنى مِسكينة ! قال : فخُذِيها ، فَدَنَتْ فقبَضَت على الحبة ، فإذا الفخّ فى عُنقها ، فجعلت تقول : قعى قعى ! تفسيره : لا غَرّنى ناسِكٌ مُراءٍ بعدكَ أبدا ...

---

(١) بأمثال الهضاب : جمع هضبة بسكون الضاد وهو كل جبل خلق من صخرة واحدة ! أو هى كل صخرة ضخمة ، تصف ضخامة الإبل ، وقولها : كأن ركباً الخ تصف اسنمتها السود ، وحام : أحد أولاد نبى الله نوح عليه السلام وهو فيما زعموا أبو السودان

الهم نصف الهرم

من كلمة لسيدنا على بن أبى طالب : والهمُّ نصف الهرَم ، وقال حكيم : الهمُّ يُشيبُ القلب ، ويُعقِم العقل ، فلا يتولد معه رأىٌ ، ولا تَصْدُقُ معه رَوِيَّة ، وقال أبو تمام :

شابَ رأسِى وما رأيت مشيب الرأ ... سِ إلا مِن فَضلِ شَيب الفؤادِ
وكذاك القلوبُ فى كلِّ بُؤس ... ونَعيم طلائعُ الأجساد

وقال أبو نواس :

وما إنْ شِبتُ من كِبَرٍ ولكن ... لَقيتُ من الحوادِث ماأشابا

وقد تقدم قول المتنبي :

والهمُّ يَختَرم الجسيمَ نحافةً ... ويُشِيبُ ناصيةَ الصَّبىِّ ويُهرِمُ

مثل الدنيا وآفاتها

والخوف من نهايتها

جاء فى كتاب كَليلة ودِمنة : وَجدْتُ مَثَلَ الدنيا والمغرورِ بها ، مع امْتلاء بالآفاتِ ، مثَلَ رجُلٍ ألجأه خوفُ فِيلٍ هائجٍ إلى بئر ، فتَدلَّى فيها وتعلَّق بغُصْنَين نابتَينِ على شَفير البئر ، فوقعت رجلاهُ على شىء فى طَىِّ البئر ، فنظر فإذا بحيَّاتٍ أربَعٍ قد أطْلَعْنَ رؤُوسَهُنَّ من جُحُورِهنَّ ، ونظر إلى أسْفلِ البئرِ فإذا بتِنِّينٍ [١] فاغِرفاه نحوه ، مُنْتَظِرٍ له ليقع فيأخُذَه ، فرَفعَ بصَره

(١) التنين : ضرب من الحيات

إلى الغُصنَين فإذا فى أصلِهما جُرَذان أسْوَدُ وأبيض ، وهما يَقرِضانِ الغُصنَين دائِبَين لا يَفتُرانِ ، فبينما هو فى النظرِ لأمرِه والاهتمام لنفسِه ، إذْ أبصَرَ قريباً منه كِوارةً فيها عسلُ نحْلٍ (١) ؛ فذاقَ العَسل ؛ فشغَلَتْه حلاوتُه وألْهَتْهُ لَذَّتُه عن الفِكرة فى شيءٍ من أمرِه ، وأن يلْتمِس الخلاصَ لنفسِه ؛ ولم يَذْكر أنَّ رِجليْه على حيَّاتٍ أربعٍ لا يَدْرى متى يَقع عليهنَّ ، ولم يذْكر أن الجُرَذين دائبانِ فى قطعِ الغُصنين ؛ ومتى انقَطعَا وقَعَ على التِّنِّين . فلم يزلْ لاهِياً غافِلا مشْغولا بتلك الحلاوةِ حتى سَقَط فى فَمِ التِّنين فهلَك . فشبَّهْتُ بالبئرِ الدُّنيا المْلوءةَ آفاتٍ وشُروراً ، ومَخافاتٍ وعاهات ، وشَبَّهتُ بالحيَّات الأربع الأخلاطَ الأربعةَ الّتى فى البَدَنِ : فإنها متى هاجَتْ أو أحدُها كانت كحُمَةِ (٢) الأفاعى والسُّمِّ المُميت ، وشَبَّهتُ بالغُصْنين الأجلَ الذى لا بُدَّ مَن انقِطاعِه ؛ وشَبَّهْتُ بالجُرذين الأسودِ والأبيض الليلَ والنهارَ اللذين هما دائبانِ فى إفناءِ الأجل ؛ وشَبَّهتُ بالتِّنِّين المَصيرَ الذى لا بُدَّ منه ؛ وشَبَّهتُ بالعسَل هـذه الحلاوةَ القليلةَ التى ينَالُ منها الإنسانُ فيَطْعَمُ ويَسمع ويَشَمّ ويَلمِس ، ويتشاغَل عن نفسِه ، ويَلهو عن شأنِه ، ويُصَدُّ عن سبيل قَصْدِه ...

عمرو بن العاص يصف حاله فى احتضاره

قال عبد الله بن عبَّاس : دخلْتُ على عمرو بن العاص وقـد احْتُضِر ، فدخل عليه ابنُه عبد الله فقال له : ياعبدَ الله ، خُذ ذلك الصُندوق ، فقال : لاحاجة لى فيه ، قال : إنه مملوءٌ مالا ، قال : لاحاجة لى به ، فقال عمرو :

(١) الكوارة : خلية النحل

(٢) الحمة : ابرة النحلة ونحوها

لَيْتَه مملوءٌ بَعْرا ! قال ابن عباس : فقلت : ياأبا عبد الله ، إنك كنت تقول : أشتهى أنْ أرى عاقلا يموتُ حتى أسأله : كيف يجـد ، فـكيف تجدُكَ ؟ قال : أجدُ السماء كأنها مُطْبَقَة على الأرض وأنا بينهما ، وأرانى كأنما أتنفَّس من خَرْتِ إبْرة ! ثم قال : اللهم ، خُذْ مِنى حتى تَرْضَى ، ثم رفَعَ يديه فقال : اللهم ، أمَرْتَ فعصَينا ، ونَهيت فركِبنا ، فلا برىءٌ فأعتذر ولا قوىّ فأنتصر ولـكن لاإله إلا الله ـ ثلاثاً ـ ثمَّ فاظَ ... » قوله : مِن خَرْتِ إبرة يعنى : مِن ثَقْبِ إبرة ، وقوله : فاظ : أى مات »

ماذا قال عبدالله بن الزبير

حين أتاه خبر مقتل أخيه المُصعَب [1]

لمّـا أتى عبدَ الله بنَ الزُبير خبرُ قتـل المصعب بن الزبير خطبَ الناسَ فحمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال : إنه أتانا خبرُ قتلِ المُصعَب فسررْنا به واكتأبْنا له ، فأما السرورُ : فـلِمَا قُدِّر له من الشهادة وحِيز له من الثواب ، وأما الكآبةُ فلَوْعةٌ يجدُها الحميمُ عند فِراقِ حميمِه ، وإنَّا والله مانموت حَبَجاً كَميتة آل أبي العاصِى ، إنما نموت والله قتلا بالرِّماح وقَعْصاً تحتَ ظِلال السيوف ، فإن يَهلِك المُصعبُ فإنّ فى آلِ الزبير منه خَلَفاً ... » الحبج : أن يأكلَ البعيرُ لِحاء العَرْفَج فيتكبَّبُ فى بَطنِه ويضيق مَبْعَرُه عنه فلا يخرُجُ من جوفه فيَهلِك ، يُعرِّض ببنى مروان ويَنعَى عليهم كثرة أكلهم وإسرافَهم فى مَلاذِّ الشهوات وأنهم يموتون بالتُخَمة . واللّوعة : الحرقة ، والقعص : القتل المعجل وقد قعصه : إذا ضربه أو رماه فمات مَكانَه ، وأقعصه كذلك والمقعص : المقتول »

(١) عبد الله بن الزبير بن العوام هو خليفة الحجاز ومصعب أخوه

إذا ضيقت شيئا ضاق جدا

ومما يؤثر في باب الصبر قول الشاعر :

إذا ضَيَّقْتَ شيئاً ضاقَ جدًّا وإنْ هوَّنْتَ ما قد عَزَّ هانا
فلا تَهلِكْ لشيء فاتَ يأسا فكَمْ أمرٍ تَصَعَّبَ ثمَّ لانا
سأصْبِرُ عن رفيق إنْ جفاني على كلِّ الأذى إلا الهوانا
فإنَّ المرءَ يجْزَعُ في خلاءٍ وإنْ حضرَ الجماعةَ أن يُهانا

« يأسا مردود إلى قوله تهلك يقول : لاتهلك يأساً . وقوله : فإن المرء... البيت يقول : إن المرء يجزع أن يهان كان وحده أو في جماعة »

لاتلهفنّ على مافاتك

ونورد هنا هذا المثل البديع وإن كانت شهرته قد كادت تبتذله ... رَوَى الشَّعْبيُّ : أنَّ رجلا من بني إسرائيلَ صادَ قُبَّرَة ، فقالت : ماتُريد أن تَصْنَعَ بي ؟ قال : أذبحُكِ فآكُلُكِ ! قالت : والله ما أشفِي من قَرَم ولا أُغْنِي من من جوع ، أُعلِّمُكَ ثلاثَ خصال هي خيرلك من أكلي : أما الواحدةُ فأُعلِّمُكَها وأنا في يدك ، والثانية إذا صرتُ على هذه الشجرة ، والثالثة إذا صرتُ على الجبل ، فقال : هاتي ! قالت : لا تَلْهَفَنَّ على ما فاتك ، فخلّى عنها ، فلما صارت فوقَ الشجرة قال : هاتي الثانية ، قالت : لا تُصدِّق بما لا يكون أنه يكون ، ثم طارت فصارت على الجبل ، فقالت : ياشَقِيُّ ! لو ذبحْتَني لأخرجْتَ من حَوْصلتي دُرَّةً فيها زِنَةُ عشرين مثقالا ! قال : فعَضَّ على شَفَتيْه وتَلهَّفَ ؛ ثم قال : هاتي الثالثة ، قالت له : أنت قد نسيتَ الاثنتيْنِ ، فكيف أُعلِّمُكَ الثالثة ! ألمْ أَقُلْ لك لا تَلْهَفَنَّ على مافاتك ؟ فقد تلهَّفتَ عليَّ إذْ فُتُّكَ ، وقلتُ لك لا تُصدِّقَنَّ بما

لا يكون أنه يكون ! فصدَّقت ! أنا وعَظْمِي وريشى لاأزِنُ عشرين مثقالا ، فكيف يكون فى حَوْصَلَتى ما يزنها !

ومن قولهم فى الحث على التعزى

وبما قيل فى الحث على الصبر والتعزى قولُ صالح بن عبد القدوس [1]

إن يكنْ ما أُصِبْتُ به جليلا فذهابُ العَزاءِ فيه أَجَلُّ
كلُّ آت لاشَكَّ آتٍ وذو الجَهْلِ مُعَنى والغَمُّ والحزْنُ فَضْلُ [2]

وقال عبدُ الله بن محمد بن أبى عُيَيْنَة بن المهلّب بن أبى صُفرة لطاهر ابن الحسين : [3]

لَمَّا رأيتُكَ قاعِدًا مُسْتقْبِلا أَيْقَنْتُ أنَّكِ للهمومِ قرينُ
فارْفُضْ بها وتَعَزَّ من أثوابها إن كان عندك للقضاءِ يقين [4]
ما لا يكون فلا يكونُ بحِيلةٍ أبداً وما هو كائنٌ سيكونُ
يَسْعَى الذَّكِىُّ فلا ينالُ بِسَعْيه حَظًّا ويَحْظَى عاجزٌ ومَهِينُ

وكان ابن شبْرُمَة [5] إذا نزَلتْ به نازِلة يقول : سحابةٌ ثم تَتَقَشَّع [6] وكان

---

(١) كان متهماً بالزندقة ومن ثم قتله المهدى الخليفة العباسى إذ ضربه بالسيف فقده نصفين وعلقه ببغداد

(٢) فضل يريد : زيادة ، أى لايليق بالعاقل ، إذ لاجدوى من ورائه

(٣) أكبر أعوان المأمون بن الرشيد على أخيه الأمين

(٤) فارفض بها : من رفض الشىء يرفضه (بالكسر والضم) رفضا : تركه ، والباء زائدة

(٥) هو عبد الله بن شبرمة بن الطفيل بن المنذر من بنى سعد بن ضبة بن أدّ ، ولى القضاء لطارق بن زياد خليفة خالد بن عبد الله القسرى لما أقام بواسط

(٦) تنقشع : تنجلى

يقال : أربعٌ من كنوزِ الجنة : كِتمانُ المصيبةِ ، وكِتمانُ الصدقة ، وكتمانُ الفاقة ، وكِتمان الوَجع ...

لكل غد طعام

قال أوس بن حَجر :

ولستُ بخابئٍ أبداً طعامًا حِذارَ غَدٍ لكلِّ غدٍ طعامُ

وقبل هذا البيت :

وليس بطارقِ الجيرانِ مِنّى ذُبابٌ لا يُنيم ولا يَنامُ [(١)]

ولستُ بأطْلَسِ الثَّوبيْنِ يُصْبِي حليلتَه إذا هَدَأ النِّيامُ [(٢)]

ومن كلام سيدنا على : يا ابنَ آدمَ ، لاتحمِلْ همَّ يومِكَ الذى لم يأتِ على يَومك الذى أنت فيه ، فإنّه إنْ يُعْلم أنه من أجَلِك يأتِ فيه رزقُكَ ، واعلم أنك لاتكسِبُ من المالِ شيئاً فوق قُوتِكَ إلا كنتَ خازِناً لغيرِك فيه ... والأصل المقدّم فى هذا المعنى قول سيدنا رسول الله : من كان آمِناً فى سِرْبه [(٣)] ، مُعافًى فى بدنِه ، عنده قوتُ يَومِه ، كان كمن حِيزت له الدنيا بحذافيرها ... وقد تقدم

---

(١) كنى بالذباب عن الشر والأذى

(٢) حليلته : لا يريد امرأته ولكن أراد جارته التى تحل له فى حلته ، وكنى بأطلس الثوبين عن رميه بالقبيح من قولهم : رجل أطلس الثوب : وسخه ، والطلسة : الغبرة تميل إلى السواد

(٣) المراد بالسرب ههنا : ما للرجل من أهل وولد ومال

اللئام مُولَعون

بإيذاء الكرام

من أحسن ماقيل فى شقاء الكرام باللئام والأخيار بالأشرار قول الشاعر الطِّرِمّاح بن حكيم ـ شاعر إسلامى ، قال بعض العلماء : لو تقدمت أيامه قليلا لفُضِّل على الفرزدق وجرير ـ انظر ترجمته فى الأغانى ـ قال :

لقد زادنى حُبا لنفسىَ أننى بَغيضٌ إلى كل امرئٍ غيرِ طائل
وأنى شَقِىٌّ باللئامِ ولا تَرَى شقيا بهم إلا كريمَ الشَّمائِلِ
إذا ما رآنى قَطَّعَ الطَّرْفَ بينَهُ وبيْنىَ فِعْلَ العارِفِ المتجاهِلِ
ملأْتُ عليه الأرْض حتى كأنَّها من الضيق فى عَيْنيه كِفَّةُ حابِلِ
أكُلُّ امرئٍ ألفَى أباه مُقَصِّراً مُعادٍ لأهلِ المكْرُماتِ الأوائِلِ
إذا ذُكِرَتْ مَسْعاةُ والده اضْطَنَى ولا يَضطَنِى من شَتْمِ أهلِ الفضائِلِ

« قوله : لقد زادنى ... ألبيت يقول : لقد زادنى أننى بغيض إلى كل رجلٍ لا فَضْلَ فيه ولا خير عنده حُبا لنفسى ، لأن التمايُزَ بينى وبينه هو الذى أدّاهُ إلى بُغضِى ، ولو كان بيننا تشاكلٌ لما كان كذلك ، فازددْتُ بذلك حُبّا لنفسى ، لأنى لو كنت مثله لأحبَّنى ؛ وغير طائل قال الخليل بن أحمد : يقال للشىء الدون : هذا غيرُ طائل ... وقوله : وأنى شقى باللئام ... ألبيت يقول : وزادنى حُبا لنفسى أيضاً شِقْوتى باللئام حتى تنقَّصونى وأصغَوْا إنائى واغتابونى ؛ ثم قال : ولا ترى أحدا يَشقَى بهم إلا وهو كريمُ الأخلاق وقوله : إذا ما رآنى ... ألبيت يقول : إذا أبصرنى آرتد طرفهُ عنى وقطع

نظره ، فِعْلَ من يعرف الشيء ويتكلف جهله ؛ ويقال : ملأتُ عليه الأرضَ إذا ضيَّقْتَها عليه ، أما إذا قلتَ : ملأتُ منه الأرض فمعناهُ : أنك قمتَ وقعدتَ بِذِكرِه ؛ والحابِل : ناصبُ الحِبالة وهى التى يُصادُ بها ، وكِفَّةُ الحابل : حِبالَتُه التى بها يصيد ، وكل ما استدار فهو كِفَّة : يقول فى هذا البيت : قد ضاقت به الأرض مِن عداوتى فكأنى مَلأْتُها عليه ، ويجوز أن يكون المرادُ : أنه يخافُنى فى كل مسلكٍ يسلكه ... وفى معنى هذا البيت قول القائل :

كأنَّ فِجاجَ الأرضِ وهْىَ عَريضةٌ
على الخائف المطْلوبِ كِفَّةُ حابِلِ

وقوله : إذا ذُكِرَت ... البيت فالمسعاةُ : السَّعْىُ ، وهو العملُ ، واضطنى : افْتَعَل من الضَّنَى ، يقال : ضَنِى يَضْنَى : إذا دَقَّ وصغُرَ جسمه ، ومن ثَمَّ سُمِّىَ المرض ضَنًى ، لما يُورِثُ من الُهزال ، يقول : إنه يضْنى إذا ذُكِر صَنيعُ والِده ؛ لقُبْحِه ؛ ومع هذا يَشْتُم أهلَ الفضائل ولا يَضْنَى من ذلك ، يصفه بالقِحَة » .

أبيات فى الصبر والشجاعة والكرم

قال عبدالعزيز بن زرارة الكلبي ـ وقد كان فى الجيش الذى بَعثه معاويةُ بن أبى سفيان لغزو بلاد الروم سنة ٤٩ هـ فاوغلوا فيها حتى بلغوا القسطنطينية ، فاقتتل المسلمون والروم قتالا شديدا ، ولم يزل عبدالعزيز هذا يتعرض للشهادة وهو يقول هذه الأبيات ، ثم حَمَل على من يليه فقتل خلقاً كثيرا وانغمس بينهم فشجَرهُ الروم برماحهم فقتلوه ؛ والأبيات :

قد عِشْتُ فى الدهرِ ألواناً على طُرُقٍ شتّى وقاسيتُ فيها اللِّينَ والفَظَعا

كُلاًّ بَلَوْتُ فلا النَّعماءُ تُبْطِرُنى ولا تخشَّعْتُ مِن لأْوائِها جزَعا
لا يَملأُ الهولُ صدرى قبْل موقِعه ولا أضيق به ذَرْعاً إذا وقعا

«على طرق يروى: على خاق، والفظع: مصدر فَظِع الأمر فظاعة: اشتد وشَنُع وجاوز المقدار، وتبطرنى: تَحمِلُنى على البطر، وهو: الطغيان فى النعمة، واللأواء: الشدّة والمشقة وضيق العيش، وقوله: لا يملأ الهول ... البيت: من أحسن ما قيل فى الشجاعة»، وقال الحطيئة من أبيات يَمدَح بها بعض الأجواد:

فَتًى غَيْرُ مِفْرَاحٍ إذا الخيرُ مَسَّهُ ومِن نائبات الدهر غيرُ جزوع
وذاكَ فَتًى إنْ تاتِهِ فى صَنيعَةٍ إلى مالِهِ لا تأْتِهِ بشفيع

«الصنيعة: اسم لكل ما تُسْديه من إحسان يد وصلة معروف»

وأنشدوا: [1]

إذا اشتملَتْ على اليأس القلوبُ وضاق بما به الصَّدْرُ الرحيبُ
وأوطنتِ المكارهُ واطمأنت وأرسَتْ فى مكامِنها الخطوبُ
ولم تر لانكشافِ الضُّرّ وجْهاً ولا أغْنَى بحيلتِه الأريبُ
أتاك على قُنوط منك غَوْثٌ يَمُنُّ بِهِ اللطيفُ المُسْتَجيب
وكل الحادِثاتِ وإنْ تناهت فمقْرُونٌ بها الفَرَجُ القريبُ

أبيات حكيمة

وإليك أبياتاً حكيمةً لشاعر جاهليٍّ قديم يسمَّى: الأضبط بن قُريع بن عَوْف بن كعب بن سعد، رهط الزِّبرِقان بن بدر، وهو الذى أساءَ قومُه

(١) رواها أبو بكر بن دريد عن أبى حاتم راوية الأصمعى

مُجَاوَرَته ، فانتقل عنهم إلى آخرين ففعلوا مثل ذلك ، فقال : « أينما أُوَجّه أَلْقَ سعدا »[1] وقال : « بكلّ وادٍ بنو سعد » وإليك هذه الأبيات :

لِكُلِّ ضِيقٍ من الهموم سَعَهْ والمُسْىُ والصبْحُ لافلاحَ مَعَهْ
مابالُ مَن غَيُّهُ مُصِيبُك لو يملِكُ شيئاً من أمرِه وزَعَهْ
أذُودُ عن حَوضِه ويَدْفعُنى ياقومِ مَنْ عاذِرِى من الخُدَعهْ
حتى إذا ماانجلت عَمَايتُهُ أقبَــلَ يلْحَى وغَيُّه فَجعَهْ
قد يَرْقَعُ الثَّوْبَ غَيرُ لابِسـهِ ويَلْبَسُ الثَّوْبَ غيرُ مَنْ رَقَعَهْ
فَاقْبَــلْ من الدهرِ ما أتاكَ بِهِ مَنْ قَرَّ عيناً بِعَيْشِه نَفَعَـهْ
وصِلْ حِبالَ البعيد إن وصلَ الحبْلَ وأقْصِ القَرِيبَ إنْ قَطَعَهْ
ولا تُهِينَ الفقيرَ علّكَ أنْ تَركعَ يوما والدهْرُ قد رَفَعَهْ

« المسى : اسم من الإمساء ، والصبح : اسم من الإصباح ، والفلاح هنا : البقاء والعيش قال عَبيد بن الأبرص :

أَفلِحْ بما شِئْتَ فَقَدْ يُدْرَكُ بالضَّعْفِ وقد يُخْدَعُ الأريبُ

يقول : لابقاء مع كر الليل والنهار . والفلاح أيضا : الفوز ومنه قولهم فى الأذان : حىّ على الفلاح ، والغى : الخيبة والحرمان قال المرقش الأكبر :

فَمَن يلق خيرا يَحْمَدِ الناسُ أمْرَهُ ومَنْ يَغْوَ لا يَعدَمْ على الغَىِّ لائما

وجملة : لو يملك ؛ حاليّة ، ووزعه : منعه وكفه ، يقول : مابال من تتألم لخيبته وسوء حاله فإذا وجد شيئا من الخير كفه عنك ، ويروى هذا البيت على وجه آخر ، وقوله أذود عن حوضه : هو مثل للحماية ودفع المكروه عنه ، والخدعة : قوم من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم ... .

(١) يريد : أفر من الأذى إلى مثله

والعماية : الشدة التى تلتبس منها الأمور ، يقال : عَمِىَ عليه الأمر : إذا التبس، وأقبل : شرع ، ويلحى : يلوم ،وغيه : ضلاله ، وبجّمه : أصابه بمكروه وصل حبال البعيد ... ألبيت يعنى : تقرب إلى البعيد النسب إذا طلب قربك واهجر القريب النسب إذا هجرك ، أخذه الأعشى فقال :

ولا تَدْنُ وصْلًا من أخٍ متباعد ولا تَنْأَ عن ذى بِغْضَةٍ أن تَقَرّبا
فإن القريب من يُقرِّب نفسَه لَعمْرُ أبيك الخيرِ لا مَنْ تنسّبا

وقوله ولا تهين الفقير الخ فالإهانة : الإيقاع فى الهون (بضم الهاء) والهوان وهما بمعنى الذل والحقارة ، وعلّ : لغة فى لعل وهى هنا بمعنى عَسَى ، والركوع : أراد به الانحطاط فى المرتبة والسقوط فى المنزلة ، ومثل هذا البيت فى المعنى قول القائل :

عسى سائلٌ ذو حاجةٍ إن مَنَعْتَه فى اليوم سُؤْلاً أن يكون له غدُ

وهذا البيت يستشهد به النحاة على أن نون التوكيد الخفيفة تحذف لالتقاء الساكنين والأصل تُهينَنْ بالنون الخفيفة ، ويروى : ولا تعاد ، ويروى لا تحقرن الفقير فلا شاهد فيه ؛ وفى معنى هذا البيت أيضا يقول عبّاد بن عَبّاد بن حبيب ن المهلّب :

إذا خَلّةٌ نابَتْ صديقَكَ فاغْتَنِم مَرَمّتَها فالدهرُ بالناس قُلّبُ
وبادِرْ بمَعْرُوفٍ إذا كنتَ قادِرا زوالَ اقتِدارٍ أو غِنًى عنك يُعْقِبُ

« الخلة : الحاجة والفقر وفى المثل « الخَلة تدعو إلى السَّلّةِ » والسَّلّة : السرقة ومرمتها : إصلاح ما فسد منها ، وقلب : كثير التقلب من حال إلى حال ، وزوال : مفعول لبادر ، وعنك : متعلق بزوال ، ويعقب : صفة له ، يقول : يأتى الزوال عقب الاقتدار والغنى » ويقول تميم بن مقبل :

فأخلِفْ وأتلفْ إنما المالُ عارَةٌ فكُلْهُ معَ الدهرِ الذى هُو آكله
فأهْوَنُ مفقودٍ وأيسرُ هالِكٍ على الحيِّ مَن لم يبلغِ الحيَّ نائـلُهْ

«وأخلف : يريد استفِدْ خَلَف ماأتلفت ، وقد أخلف فلان لنفسه : إذا ذهب له شىء فجعل مكانه آخر ، وعارة : معار ، والعارة والعاريّة : مايتداول بين الناس » ويقول جرير:

وإنى لأسْتَحيي أخِي أن أرَى له علىَّ من الحق الذى لا يَرَى لِيا

« يقول جرير : إنى لأستحيي أخي أن يكون له علىَّ فضل ولا يكون لى عليه فضل ومنى إليه مكافأة ،فأستحيي أن أرى له علىَّ حقا لما فعل إلىّ ولا أفعل إليه ما يكون لى به عليه حق ، قال المبرد : وهذا من مذاهب الكرام ومما تأخذ به أنفسَها »

أبيات من لم يروها فلا مروءة له

وهذه أبيات كانوا يقولون : إنه مَنْ لم يرْوِها فلا مُروءةَ له . وهى لشاعر يسمى أيْمَنَ بن خُرَيم بن فاتِك الأسدى ، شاعر شريف فارس ، وكان يتشيع ، وأبوه خريم له صحبة ، وهو ممن اعتزل الجمل وصفِّين وما بعدهما من الأحداث ، وقيل : إن هذه الأبيات للأُقَيْشر ، وهو شاعر إسلامى ، قال :

وصَهْباءَ جُرْجانيّةٍ لم يَطُفْ بها حَنيفٌ ولم تَنْغَرْ بها ساعةً قِدْرُ
ولم يَحْضُرِ القَسُّ المُهَيْمِنُ نارَها طُرُوقاً ولم يَشْهَدْ على طَبْخِها حَبْرُ
أتانى بها يَحيى وقد نِمْتُ نَوْمةً وقد غابت الشِّعْرَى وقد طلَعَ النَّسْرُ
فقلتُ : آغتبِقْها أو لغيْرِىَ فاسْقِها فما أنا بعْدَ الشّيْبِ وَيْبَكَ والخمْرُ
تعفّفْتُ عنها فى العُصور التى خلَتْ فكيف التّصابى بعْدَ ما كلأَ العُمْرُ
إذا المرْءُ وَفّى الأربعينَ ولم يكنْ له دونَ ما يأتى حياءٌ ولا سِتْرُ

فدَعْه ولا تَنْفَسْ عليه الذى ارتأى وإنْ جَرّ أسبابَ الحياةِ له الدَّهْرُ

« الصهباء : الخمر، سميت بذلك للونها ـ والصُّهبةُ من الألوان : الشقرة ـ قيل : الصهباء هى الخمر التى عُصِرَتْ من عِنَبٍ أبيضَ ، وقيل : هى التى تكون من العنب ومن غيره إذا ضَرَبَتْ إلى البياض ، وقال أبو حنيفة الدِّينَوَرِى : الصهباء اسم للخمر كالعَلَم . وجرجانية : نسبة الى جرجان ، وكانت مشهورة بنوع من الخمر والحنيف : المسلم ، ونغرت القدر : غَلت ، والمهينم : الذى يقرأ بصوت خفى غير بيِّن لا يفهم ، والطروق : الحضور ليلا ، والحبر واحد الأحبار : رئيس من رؤساء الدين المسيحى ، ورئيس الكهنة عند اليهود ، وقوله : وقد غابت الشعرى ... قال البكرى شارح الأمالى : هذه الرواية الصحيحة ، أما رواية : وقد غابت الشعرى وقد جَنَح النسر ، فهى خطأ ، قال : لأن الشعرى العَبور اذا كانت فى أفق المغرب كان النسر الواقع طالعاً من أفق المشرق على نحو سبع درجات ، وكان النسر الطائر لم يَطلُع ، وإذا كانت الشعرَى الغُميصاء فى أفق المغرب كان النسر الواقع حينئذ غير مُكبِّد ـ كبَّد النجم السماء : توسطها ـ فكيف أن يكون جانحاً ؟ وكان النسر الطائر حينئذ فى أفق المشرق طالعاً على نحو سبع درجات أيضاً قال الشاعر :

وإنى وعبدَ الله بعد اجتماعِنا لكالنسر والشعرَى بشرق ومغرب

يلوح ـ إذا غابت من الشرق ـ شخصُه وإنْ تَلُح الشعرَى له يتغيَّبُ

وقال أبو نواس :

وخَمّارةٍ نَبَّهْتُها بعد هَجْعةٍ وقد لاحتِ الجوزاءُ وانْغَمَسَ النَّسْرُ

فقالت : مَنِ الطُّرّاق ؟ قلت : عصابةٌ خِفافُ الأداوَى يُبْتَغَى لهم الخمرُ

والشِّعرَى سابقةٌ فى الطلوع للجوزاء ولذلك سميت كلبَ الجبار ، والجبار

اسم للجوزاء... والاغتباق : شُرْب العشيّ ، وويبك : ويلك ، وكلأ : انتهى إلى آخره وأقصاه ، ويقال : بلغ الله بك أ كلأ العمر : أى آخره ، ولا تنفس : لاتحسد ، وارتأى : افتعل من الرأى . وفى هذا المعنى يقول الأعور الشَّنِّى :

إذا ما المرءُ ـ قَصَّرَ ثم مَرَّتْ عليه الأربعونَ ـ من الرجال
ولم يلحَق بصـالِحِهم فدَعْه فليس بلاحِقٍ أُخْرَى الليالى

حِكم ومواعظ

قال عبد الله بن عباس : كَتَب إلىّ على بن أبى طالب رضى الله عنه بموعظة ماسُرِرْتُ بموعظةٍ سُرورى بها ! أما بعد ، فإن المرْءَ يَسُرُّه دَرْكُ مالم يكنْ لِيَفُوتَه ، ويَسوءُه فَوتُ مالم يكن ليُدْرِكَه ، فما نالَكَ من دُنياك فلا تُكثِرْ به فرحا ، وما فاتَك منها فلا تُتْبِعْه أسَفا ، فلْيكن سرورُك بما قَدَّمت ، وأسَفُك على ماخَلَّفت ، وهمُّك فيما بعد الموت ... « يقول علىٌّ : إن كلَّ شىء يُصيب الإنسانَ فى الدنيا مِن نَفْع وضَرٍّ فبِقضاء من الله تعالى وقَدَرِه ، غير أنّ الناسَ لاينظُرون حقَّ النظر فى ذلك ، فَيُسَرُّ الواحد منهم بما يُصيبُه من النفع ، ويُساءُ بفَوت مايفوتُه منه ، غير عالم بأنّ ذلك النَّفْع الذى أصابه كان لابُدّ أن يُصيبَه ، وأن مافاتَه منه كان لابُدّ أن يفُوتَه ؛ ولو عَرَف ذلك حق المعرفة لم يَفرَح ولم يَحزَنْ ، وإنما الأخلق بالعاقل أن يأسف على مافاته ويُسَرَّ بما قَدّمه ، من الخير والعمل الصالح الذى يُجدى عليه فى العالم الباقى ـ الآخرة »

ومن كلمة للحسن البَصرىّ : تَلقَى أحدَهم أبيضَ بضًّا يمْلَخ فى الباطل مَلْخا ، ينْفُض مِذْرَوَيْه ، ويَضْرِبُ أَصْدَرَيْه ، يقول : هاأناذا فاعرِفونى ! قد عَرَفْناك فمقَتَك الله ومَقتَك الصالحون ... « قوله : أبيض بضا

فالبضّ : الرقيقُ اللّون الصافِيهِ الذى يُؤثّر فيــه كلّ شىء ، ويَروُون : أن مُعاوية بنَ سُفيانَ قَدِم على عُمَر بن الخطاب رضى الله عنه من الشام وهو أبَضُّ الناس ـ أرَقُّهم لونا وأحسنهم بَشرَة ـ فضَرَب عمر بيده على عَضُدِه ، وقال : هذا ، والله ، لِتَشاغُلِكَ بالحمّامات وذَوو الحاجات تُقَطَّعُ أنفُسُهم حَسرات على بابك... وقوله : يملخ فى الباطل ملخا : أى يَكثُر تردُّده فى الباطل ، أو يمُرُّ فيــه مَرّا سَهْلا ، وقوله : يَنفُضُ مذرويه ويضرب أصدريه فينفض ويضرب : يحرك ، ومذرواه : جانباه ، وقيل : فرعا الألْيتين ، وقيل : طرفا كل شىء ، وأراد الحسن : فرعى المَنكِبَيْن . ولا واحد لهما ، وهو الصحيح ، والأصدران : عِرقانِ يضربان تحت الصُدْغين ، لا يفرد لها واحد كذلك ، ويريد الحسن : منكبيه أيضا ، والعرب تقول : جاء فلان يضرب أصدريه وينفض مذرَويه يريدون : جاء مختالا ، وقد يريدون : جاء باغيا يتهدد كما قال عنترة :

أحَوْلِى تَنفُضُ اسْتُكَ مِذرَوَيها لتَقْتُلَنى فها أنا ذا عُمارا

« عمارا يريد : ياعُمارة »

وقال بعضهم : شَهِدتُ الحسنَ البَصْرىَّ فى جَنازةِ أبى رَجاء العُطارِدىِّ وهو على بَغْلةٍ والفرزدق يُسايرُه على نجيبٍ ، وكنتُ على حِمارٍ لى ، فدَنوْتُ منهما ، فسمِعت الفرزدق يقول للحسن : ياأبا سعيد ، أتَدرى مايقولُ أهْل الجنازة ؟ قال : وما يقولون ؟ قال : يقولون : هذا خيرُ شيخ بالبَصْرَة ، وهذا شرّ شيخ بالبَصْرَة ، قال : إذَنْ يَكذِبوا ياأبا فِراس ! رُبَّ شيخ بالبصرة مُشرِكٍ بالله ، فذلك شَرٌّ من أبى فِراس ، ورُبَّ شيخ بالبصرة ذِى طِمْرَين لا يُؤْبَهُ

له لو أقسمَ على الله لأبَرّه [١] ، فذلك خير من الحسن يا أبا فراس ...
ولهذا الحديث تتمة ولكنا نجتزأ بهذا الشَّطْر منه لتكون المعانى متصلةً
بعضها ببعض .

ونختم هذا المعنى بأبيات مَشهورة ولكنها لاتزال جديدة لأنها بعيدةُ
الغَور مُوفِية على الغاية فى الصدق والسَّداد ، وهى أبيات اختارها أبو تمّام
فى حماسته ونسبها لعباس بن مِرْداس الصحابى الشاعر ، وقال أبو رياش : إنها
لمعاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب مُعَوِّد الحكماء [٢] وهذه هى الأبيات كما
رَواها أبو علىّ القالى فى الأمالى :

تَرى الرَّجلَ النَّحيفَ فتزْدَريه ... وفى أثوابِه أسدٌ هَصُورُ [٣]
ويُعْجِبُك الطَّريرُ فتَبْتليه ... فيُخلِفُ ظَنَّك الرجُل الطَّرير [٤]
بُغاثُ الطير أطوَلُها رِقاباً ... ولم تَطُل البُزاةُ ولا الصُّقورُ [٥]

(١) الطمر : الثوب الخلق البالى . وهذه كلمة الحسن من الحديث : ربّ ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره ، يقول : رب ذى خلقين أطاع الله حتى لو سأل الله تعالى أجابه

(٢) سمى معود الحكماء بقوله :

سأُعقِلها وتحملها غَنِيٌّ ... وأُورِثُ مجْدَها أبدا كِلابا
أُعَوِّد مِثلها الحُكماءَ بعْدى ... إذا ما مُعضِلُ الحدَثانِ نابا

(٣) هصور يروى : مزير ، والهصور : الأسد الشديد الذى يفترس ويكسر والمزير : الشديد القلب القوىّ النافذ ومن معانيه : العاقل الحازم

(٤) الطرير : ذو الرواء والمنظر والجمال والهيئة الحسنة

(٥) البغاث بفتح الباء وضمها : كل طائر ليس من جوارح الطير ، أى لايصيد ، ويضرب بها المثل فى اللؤم والشر ، وفى الضعف ، قالوا : إن البغاث بأرضنا يستنسر ، يضرب مثلا للئيم يرتفع أمره

خَشاشُ الطيرِ أكثرها فِراخًا وأُمُّ الصَقرِ مِقلاتٌ نَزورُ (١)

ضِعافُ الأُسْدِ أكثرُها زَئيرا وأصرَمُها اللَّـواتى لا تَزِيرُ

وقد عَظُمَ البعيرُ بغير لُبٍّ فلم يَستغْنِ بالعِظَمِ البعيرُ

يُنَوَّخُ ثم يُضرَبُ بالهراوَى فلا عُرفٌ لَدَيهِ ولا نَكيرُ (٢)

يُقوِّدُه الصبىُّ بكلِّ أرْضٍ ويَنْحَرُهُ على التُّربِ الصغيرُ

فما عِظَمُ الرِّجالِ لهم بزَينٍ ولكن زَيْنُهُم كرَمٌ وخِيرُ (٣)

فى الموت

قال المتنبي فى الموت :

وما المَوتُ إلا سارِقٌ دَقَّ شخصُه يَصولُ بِلا كَفٍّ ويَسْعَى بلا رِجْلِ

ومن غريب ماقيل فى مَدْحِ الموت قولُ ابن الرومىّ :

قد قلتُ إذ مَدَحوا الحياةَ فأكثروا للموت ألْفُ فضيلةٍ لا تعرفُ

فيها أمانُ لِقائه بلِقائه وفِراقُ كلِّ مُعاشِرٍ لا يُنصِفُ

أقول : لعل ابن الرومى يريد أن يقول : إنّ للموت مزايا لاتحصى ، وقلّ من يعرفها ، ولو لم يكن فيها إلا أننا بلقاء الموت نظفر بلقاء المَرْثِىّ ـ وناهيك بفضائله ـ وبفراق غيره من المعاشرين القليلى الإنصاف لكان فى ذلك الفضل كله للموت ، وقال المتنبي :

---

(١) خشاش الطير : شرارها ومالا يصيد منها ، كالبغاث ، والمقلات : التى تلد واحداً ثم لاتلد بعد ذلك وقيل : التى لايعيش لها ولد ، والقلت : الهلاك تقول أقلتت المرأة : إذا هلك ولدها ، والنزور : القليلة الاولاد

(٢) ينوخ : يبرك ، نوخ الجمل وأناخه : فاستناخ : أبركه فبرك

(٣) الخير: الكرم ، وهو أيضاً : الشرف

وقد فارَقَ الناسُ الأحبَّةَ قبلنا … وأعيا دواءُ الموت كلَّ طبيب

سُبِقْنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها … مُنِعْنا بها من جَيْئةٍ وذُهوب

تملَّكها الآتى تملُّكَ سالِبٍ … وفارَقَها الماضِى فِراق سليب

ولا فَضْلَ فيها للشجاعةِ والنَّدَى … وصَبْرِ الفَتى لولا لِقاءُ شَعُوب

« يقول فى البيت الرابع : لولا الموت لمَا كان لهذه المعانى فَضْل ، وذلك أن الناسَ لو أَمِنُوا الموت لما كان للشُجاع فضل على الجَبان ، لأنه قد أيقن بالخلود ، وكذلك لو أمِنوا الموت لاستوى الكريم والبخيل والصابر والجازع ، وكذلك كلُّ الأشياء » وقال أيضاً :

إلْفُ هذا الهواءِ أَوْقعَ فى الأنفُـ … ـسِ أنَّ الحِمامَ مُرُّ المَذاقِ

والأسَى قبلَ فُرقةِ الرُّوحِ عَجْزٌ … والأسى لا يكونُ بعدِ الفِراق

قال أبو العلاء المَعَرِّى : إن هذين البيتين يَفْضُلان كُتُبَ الفلاسفَة لأنهما متناهيانِ فى الصدق وحُسْن النظام ، ولو لم يَقُل شاعرُهما سِواهما لكان له شرفٌ منهما وجَمال …

يقول المتنبي : إنّ خوفَ الموت من أكاذيب النفس ، ومن إلْفنا هـذا الهواء ، وإلا فقد عُلم أن الحُزنَ على فِراقِ الرُّوح قبل فِراقه عجزٌ ، وعُلم أيضاً أن الحُزن على المفارقة لا يكونُ بعد الموت ، فلماذا يحزن الإنسان ؟

طائفة من عبقرياتهم فى التعازى

ولنعطف الآن على الباب الثالث « عبقرياتهم فى الصبر والدنيا والموت والمرض » فلْنَسِرْ فيه ولنورد عليك سائر عبقرياتهم فى التعازى ثم نختم الباب بعبقرياتهم فى المرض ومايتصل به.

التسلية بعد وقوع المحذور

قالوا: كلُّ شيء يبدو صغيراً ثم يَعْظُم، إلا المصيبة، فإنها تبدو عظيمة ثم تَصْغُر
واشتكى ابنٌ لِعُمَرَ بن عبد العزيز رضى الله عنه فجزِع عليه، ثم مات، فرُؤى مُتَسَلِّياً، فقيل له فى ذلك؟ فقال: إنما كان جَزَعى رِقَّةً له ورحمةً، فلما وقع المصابُ زال المحذور ... ومَرِض ابن لبعض السلف فجزِع، ثم مات فلم يَجزَع، فقيل له! فقال: أما بعد وقوع الأمر فلم يبق إلا الرضا والتسليم ... وقال البحترى:

صُعُوبة الرُّزْء تُلْقَى فى توقُّعِه مُسْتَقبَلا وانقِضاءُ الرُّزْء أن يَقَعا

وقَبْله قال أوسُ بن حَجَر:

أيَّتُها النفسُ أجْمِلى جَزَعا إنّ الذى تحذَرين قد وقَعا

ومما يتصل بهذا المعنى قول أبى نواس يرثى المأمون:

وكنتُ عليه أحْذَرُ الموت وَحْدَه فلم يَبقَ لى شىءٌ عليه أُحاذِر

وقال بعضهم: نزلَتُ بامرأة ذاتِ أولاد وثَروة، فلما أردتُ الارتحال قالت: لا تُخْلِنِى إذا وَرَدْت هذا الصُقْعَ، ثم أتيتُها بعد أعوام، فوجدتُها قد آفتقَرت وثَكِلَت أولادها، وهى ضاحكةٌ مسرورة، فسألتُها؟ فقالت: إنى كنتُ ذاتَ ثروة وجاه، وكانت لى أحزانٌ، فعلِمْتُ أنّ ذلك لقِلة الشكر،

وأنا اليوم بهذه الحالة أضحك شكرا لله تعالى على ماأعطانى من الصبر ...
وقيل : إذا استأثر الله بشىء فالهَ عنه « الهَ عنه : اتركه وتسلَّ »

من دواعى التسلى قرب اللحوق بالميت

كَتب بعضهم : فِيم الجزَع ونحن على مَدْرجة المُتوفَّى ! « المدرجة : الطريق والمسلك » ... دخل أحدهم على آخر وقد توفى له أخٌ فاشتدَّ جزعُه عليه ، فقال : اذكر مصيبتَك فى نفسك تُنْسِك فَقْدَ غيرك ، واذكر قول الله تعالى : إنك مَيِّت وإنهم ميِّتون ، وخُذْ بقول الشاعر :

وهَوَّنَ ما أَلقى من الموتِ أن ما   أصابك منــه يا بُنَىَّ مُصيبى

وقال إبراهيم بن المهدى :

وإنى وإن قُدِّمْتَ قبلى لَعالمٌ   بأنى وإن أبطأتُ عنك قريبُ

وقال آخر :

وهَوَّنَ وجْدى أنى سوفَ أغتدى   على إثْرِه يوماً وإن نَفَّس العمر

من تعازى الملوك

وتسليهم بأن الناس جميعا مُصابون

لما حَضَرَت الإسكندرَ المَقْدُونىَّ الوفاةُ كتب إلى أُمه : أنِ اصْنَعى طعاما يحضُرُه الناس ، ثم تقدَّمى إليهم : أنْ لا يأكل منه محزونٌ ، ففعلت ، فلم يَبْسُط أحدٌ إليه يده ، فقالت : مالكم لا تأكلون ؟ فقالوا : إنَّكِ تقدمْتِ إلينا أن لا يأكلَ منه محزون ، وليس مِنَّا إلا من قد أُصيب بحميم أو قريب ! فقالت : مات ـ والله ـ ابنى ! وما أوصَى إلىَّ بهذا إلا ليُعَزِّيَنى به ...

التسلى بأنه معزى
لا مُعَزًّى به

قال أبو فراس الحَمدانىُّ فى أبياتٍ يُعَزِّى بها سيف الدولة بأخته :

هَيهاتَ مافى الناسِ من خالِدِ   لابُدَّ من فَقْدٍ ومن فاقِدِ
كُنِ المُعَزَّى لا المعزَّى به   إذْ كان لابُدَّ من الواحِدِ

وقال المتنبي من أبيات يمدح سيف الدولة ويرثى ابن عمه أبا وائل :

مَهما يُعزِّ الفَتى الأميرَ به   فلا بإقدامِهِ ولا الجودِ (١)
وَمِن مُنَانا بقَاؤه أبدا   حتى يُعَزَّى بكلّ مولودِ (٢)

التسلى عمن مضى بمن بقى

قيلَ لرجل ماتت امرأتُهُ نُفَساءَ (٣) : عَظَّمَ الله أجرَك فيما أباد وبارَك فيما أفاد . . . وقال المتنبي فى مرثية يعزى سيف الدولة بأخته الصغرى ويسلّيه بالكبرى :

قاسَمَتْكَ المَنونُ شخصَيْن جَورًا   جعَل القسمَ نفسَه فيكَ عَدلا (٤)

---

(١) يقول : إذا عزاه معز بهذا الميت فلا عزاه بجوده ولا شجاعته ، أى لاعدمهما

(٢) يقول : أمنيتنا التى نتمناها هى بقاؤه أبداً حتى يعزى بكل من ولد ، يتقدمونه ويبقى هو فيعزى بهم

(٣) النفاس : ولادة المرأة إذا وضعت ، والوالدة نفساء

(٤) يقول : قاسمك الموت شخصين فذهب بإحداهما وترك الأخرى ، فكانت هذه المقاسمة جورا لأنه كان من حقك أن يتركهما ولكن هذا الجور عدل فيك حيث تركك حيا وكانت المقاسمة فى الأختين ، يعنى : إذا كنت أنت الباقى فالجور عدل ؛ هذا إذا نصبت القسم وجعلت الفعل للجور ، أما من رفع القسم فيكون المعنى : أن القسم جعل نفسه عدلا فى الجور لأنه وإن أخذ الصغرى فقد أبقى الكبرى

فإذا قِسْتَ ماأخذْنَ بما أغْـ ـدَرْنَ سَرَّى عن الفؤادِ وسَلَّى [١]

ولمّا ماتت الأخت الكبرى بعد ذلك رثاها فقال :

قد كان قاسَمكَ الشخصينِ دهرُهما وعاشَ دُرُّهما المَفْدِيُّ بالذّهب [٢]

وعادَ فى طلَبِ المتروكِ تارِكُه إنّا لنَغْفُـل والأيامُ فى الطّلَب

ما كانَ أقْصَرَ وقتا كان بينهما كأنه الوقتُ بينَ الوِرْدِ والقَرَبِ [٣]

وفى هذه المرثية الثانية هذان البيتان البديعان :

طَوَى الجزيرةَ حتى جاءنى خبرٌ فَزِعْتُ فيه بآمالى إلى الكَذِب

حتى إذا لم يَدَعْ لى صِدْقُه أملا شَرِقتُ بالدمعِ حتى كاد يَشرَقُ بى

من تسلى بماله من الثواب

وبعض تعازيهم

دخل عمر بن عبد العزيز على ابنه عبد الملك ـ وكان قد أصابه الطاعون ـ فقال : دَعْنى أمَسّ قَرْحتك ، ـ وكان يقال : إذا كان القَرْحُ لِيّنا يُرجَى ، وإن كان خَشِنا لايُرجَى ـ فامْتنع عبد الملك من أنْ يَمَسَّها ، فعَلِمَ عمر لِمَ مَنَعَه ! فقال : دَعْنى أمَسُّها ، فوالله لَأنْ أُقدِّمَك فتكونَ فى ميزانى أحَبُّ إلىَّ من أنْ أكون فى ميزانك ! فقال : والله ، لأن يكون ماتُريد أحَبُّ إلى

(١) أغدرن : مثل غادرن أى تركن وأبقين ، وسرى : أذهب ، وسلى : عزى وهذا البيت يؤيد رواية رفع القسم

(٢) يريد بالشخصين : أختيه الكبرى والصغرى وجعل الكبرى كالدر لنفاسته وجعل الصغرى ذهبا ، وجعل الكبرى كدر فدى بالذهب

(٣) من عادة القوم أنهم يرعون الإبل وهم فى ذلك يسيرون نحو الماء فإذا بقى بينهم وبين الماء عشية فتلك الليلة ليلة القرب يقول : ما كان أقصر ما كان بينهما من الزمان فكأنه مابين القرب الى الورد ، وهو ليلة

من أن يكون ماأريد ! فلَمَسَها ، فقال : ياعبدَ الملك ، الحقُّ من ربِّك فلا تكونَن من المُمتَرين ... فقال : ستَجِدُنى إن شاءَ الله من الصابرين . . .

ولما مات عبد الملك عزّى أباه الحسنُ البَصرى بهذا البيت :

وعُوِّضتَ أجرا من فقيدٍ فلا يكن فقيدُك لا يأتى وأجْرُكَ يَذْهَبُ

وروى : أن رجلا جزع على ابن له ، فشكى ذلك إلى الحسن ، فقال له : هل كان ابنُك يغيب عنك ؟ فقال : نعم ، كان مَغيبه عنى أكثرَ من حُضوره قال : فاتركْهُ غائبا ، فإنه لم يَغِب عنك غيبةٌ الأجْرُ لك فيها أعظمُ مثل هذه الغيبة . . . وقال أعرابى : وقد مات له ثلاثة بنين فى يوم واحد ، فدفنهم وعاد إلى مجلسه ، فجعل يتحدّث كأنْ لم يَفقِدْ واحدا ، فلِيمَ على ذلك ، فقال : ليْسُوا فى الموتِ ببِدْع ، ولا أنا فى المصيبةِ بأوْحَد ، ولا جَدْوى للجزَع ، فعلَامَ تلومُوننى !

من مات له كثير من أهله
فصبر

نظر رجل بالبَصرة إلى امرأة فقال : مارأيتُ مثلَ هذه النَضارة ! وماذاك إلا من قِلة الحزن ! فقالت : ماحُزنٌ كحزنى ! ذَبح زوجى شاةً ، ولى صَبيّان يلعَبان ، فقال أحدُهما للآخر : تعالَ أريك كيف ذَبح أبى الشاة ، فذبحه ، ثم خاف فهَرَب إلى الجبل ، فرهِقه ذئبٌ ، فافْتَرسه ، وخرج زوجى فى طَلَبه ، فاشتد عليه الحرُّ فمات عَطَشا ! فقيل لها : كيف صَبرْتِ ؟ فقالت : لووجَدْتُ فى الحُزنِ دَرَكا مااخْترْتُ عليه . . . « رَهِقه : غَشِيَه ، ودَرَكا : تريد مداركة لما فات »

ومن أدعيتهم لذَوِى المصيبة

ومن قولهم فى الدعاء لِذَوِى المصيبة : وَهَب الله لك عمْراً طويلا وأجرا جزيلا وصبرا جميلا ؛ لَقَّاك الله الصبر وَوَقاك ما يُحبط الأجْر . وقال رجلٌ لابنِ عمر : عَظَّمَ الله أجرك ، فقال : بل جعل الله لِيَ العافية ... » وذلك أن تعظيمَ الأجر فى تعظيم ما يؤجرُ عليه من المصيبة » وقالوا : التعزية بعد ثلاثٍ تجديدٌ للمصيبة ، والتهنئة بعد ثلاث اسْتِخْفافٌ بالمَوَدَّةِ ...

☆ ☆ ☆

« وبعد » فأما عبقرياتهم فى المرائى فإنَّ لها موضعا آخر فى هذا الكتاب كما أنّ عبقرياتهم فى المدح والثناء تراها فى باب قد أفردناه لها .

عبقرياتهم فى الطب والمرض وعيادة المرضى

معنى الطب

كلُّ حاذِقٍ بعمله : طبيبٌ عند العَرَب ، ورجل طَبٌّ بكذا : أى عالمٌ به ثم صار الطبيبُ اسما للعالِم بمداواةِ أبدان الناس ، وقالوا : حَدُّ الطب : معرفة الداء وتَنَقِّيه بالدواء ، أو هو : اسْتِدامةُ الصحة ومَرَمَّةُ السَّقَم .

وصف طبيب حاذق

قال السَّرِىُّ الرَّفَّاءُ فى طبيب حاذق :

أوْضَح نَهْجَ الطِّبِّ فى مَعْشَرٍ مازالَ فيهم دارِسَ الرَّسْمِ (١)
كأنه مِن لُطْفِ أفكارِه يَجُولُ بين الدَّم واللحْمِ

(١) الرسم : الأثر ، ودرس الرسم : عفا

لو غَضِبَت رُوحٌ على جِسمِها أصْلحَ بينَ الرُّوحِ والجِسمِ

وقال أيضاً :

يَبْدو له الداءُ الخفيُّ كما بدا للعَين رَضْراضُ الغَديرِ الصَّافي [1]

الطبيب الجاهل

رأى فيلسوف طبيبا جاهلا فقال : هذا مُسْتَحِثُّ الموت ... وقال الشاعر المعروف بالخبزَأُرْزِيّ [2] فى طبيب اسمه نُعمانُ :

أقولُ لنُعمانٍ وقد ساقَ طِبُّه نُفوسا نَفيساتٍ على ساكِنى الأرض

« أبا مُنذِر أفْنَيْت فاسْتَبْقِ بعضنا حنانَيْكَ بعضُ الشَّرِّ أهوَنُ من بعضِ »

« أقول : إن البيت الثانى لطرفةَ بنِ العبْد » ضَمَّنَه الخبزَأُرْزِيّ شِعره »

وقال آخر فى طبيب :

لمْ يأتِ فى الأربعا عَليلا إلا دَفنّاهُ فى الخميسِ

وكان رجل يحْتَرِف التصوير ثم تركه وتَطَبَّب ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : الخطأ فى التصوير تُدْرِكه العيون ، وخطأ الطبيب تُوارِيه القبور ...

مدح الحمية وذمّها

قال قائلٌ للحارثِ بن كَلَدَة - وكان طبيبَ العرب - : ما الطِّبُّ فقال : هو الأَزْم ... ومرَادُه بالأزم : الحِمْيةُ والإمساكُ عن الاستكثار من الطعام ... وقيل لجالينُوسَ أو لأبُقراط : إنك تُقِلُّ من الطعام ! قال : غَرَضى من الطعام أن آكلَ لِأحْيا ، وغرضُ غيرى من الطعام أنْ يحْيا

---

(١) الرضراض : مادق من الحصى

(٢) اسمه نصر وكان شاعرا أميا وكان يخبز خبز الارز ، ترجم له ابن خلكان وياقوت

ليأكل ... وقالوا: لا تأكل ما تَشْتهى فيُصيرُك إلى ما لا تشتهى ... وفى الحديث: لا تُكْرِهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإنّ الله يُطعِمُهم ويَسقيهم ... وقالوا: الحِمْية للصحيح ضارّة، كما أنها للعليل نافعة ... وقال الرشيد للمفضل: ماأطيبُ مافى هذه الدنيا؟ فقال: رَفْضُ الحِشْمةِ وتركُ عِلمِ الطِّب، فلا عَيشَ لِمُحتَشِمٍ ولا لَذّةَ لِمُحْتَمٍ ... وقالوا: مَن عرَف ما يَضُرّه مما ينفعُه فهو مريض ... وقال أفلاطون: الموت موتان: طبيعىّ وإرادىّ؛ فالطبيعىُّ مفارقةُ الروح للبَدَن، والإرادىُّ مَنْع الأبدان من الشهوات ... وقالوا: الأبدانُ التى اعتادت الحِمْية آفتُها التخليط، والأبدانُ التى اعتادت التخليط آفتُها الحِمْية ...

شرب الدواء

قال سيدنا رسول الله: مَنِ اسْتقلّ بدائه فلا يتداوَنّ، فإنه رُبَّ دواء يُورِث الدَّاء ... وكانت الحكماء تقول: إياكَ وشُرْبَ الدواء ماحَمَلَتْ صِحّتُك داءَك ... وقالوا: مَثَلُ شرب الدواء مَثل الصابون للثوبِ، يُنقِّيه ولكن يُخلِقُه ويُبْليه ... وقال أُبقراط: الدواءُ من فوقُ، والدواء من تحتُ، والدواء لافوق ولا تحت، وفَسّر ذلك مُفَسِّروه فقالوا: مَن كان داؤه فى بطنِه فوقَ سُرّتِه سُقِى الدواء، ومَن كان داؤه تحت سرّتِه حُقِن، ومَن لم يكن به داءٌ لامن فوق ولا من تحت لم يُسقَ الدواء، فإن الدواء إذا لم يجدْ داءً يعملُ فيه وَجدَ الصّحة فعمِل فيها ...

سياسة الأبدان

بما يصلحها من الطعام وغيره

قال الحجاجُ بن يوسف الثّقفى لتياذُوقَ مُتَطَبِّبِه [1] : صِفْ لى صِفةً آخُذُبها ولا أعْدُوها ، قال تِياذوق : لاتتزوج من النساء إلا شابّة ، ولا تأكل من اللحم إلا فَتِيًّا ، ولا تأكله حتى يُنعَمَ طبخُه ، ولا تشْرَبَنَّ دواءً إلا من عِلَّة ، ولا تأكل من الفاكهة إلا نَضيجها ، ولا تأكل طعاما إلا أجَدْتَ مَضْغَه ، وكلْ ماأحبَبتَ من الطعام واشْرَبْ عليه ، وإذا شرِبْتَ فلا تأكل عليه شيئا ، ولا تحبِس الغائط والبَول ، وإذا أكلْتَ بالنهارِ فنَم ، وإذا أكلْتَ بالليل فتَمَشَّ ولو خمسين خُطوة ... فقال له بعض مَن حَضر : إذا كان الأمر كما تقول فلِمَ هَلك أبقراط ولِم هلك جالينوس وغيرهما ولم يبْقَ أحد منهم ؟ قال : يا بُنى ، قد احتَجَجْتَ فاسْمَع : إن القوم دبَّروا أنفُسهم بما يملكون ، وغَلبَهم مالا يملكون - يعنى الموتَ وما يَرِدُ من خارج ، كالحرّ والبرد والوقوعِ والغَرَق والغمّ وما أشبه ذلك - ... وقال تِياذوق أيضاً للحَجَّاج : أربعةٌ تَهْدِم العمرَ ورُبَّما قتَلْنَ : دُخول الحمّام على بِطنةٍ ، والمجامعَة على الامْتلاء ؛ وأكل القَديد الجافّ [2] ، وشُرْبُ الماء البارد على الرِّيق ؛ وما مجامعةُ العَجوز ببعيدة منهُنَّ ... ووَجد الحجاج فى رأسِه صُداعاً فبَعثَ إلى تياذُوقَ وأحضَره ، فقال : آغسِل رِجليك بماء حارّ وادْهُنهما ، وخَصِىٌّ للحجاج قائمٌ على رأسِه ، فقال الخِصِىّ : والله ، مارأيت طبيباً أقلَّ معرفةً

(١) ترجم له ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء

(٢) القديد : اللحم المجفف

بالطِّب منك ! شكى الأميرُ الصُّداع فى رأسِه فوَصف له دواءً فى رِجليه ! فقال له : أمَا إنَّ علامةَ ماقلتُ فيك بَيِّنةٌ ! قال الخصِىُّ : وما هى ؟ قال : نُزِعَت خُصْيتاك فذهَب شعرُ لحيَتِك ! فضحِك الحجاجُ ومَن حضر ...

✿ ✿ ✿

وقال عبد الملك بن مروانَ لأعرابىٍّ : إنك حَسَنُ الكِدْنة ! قال : إنِّى أُدفِئُ رِجْلَىَّ فى الشتاء ، وأُغفِلُ غاشية الغَمِّ ، وآكلُ عند الشهوة ...

ويقال : ثلاثة أشياء تُورِث الهُزال : شرب الماءِ على الرِّيق ، والنوم على غير وِطاءٍ ، وكثرةُ الكلام برَفع الصوت ... وقالوا : الدَّواءُ الذى لاداءَ معه : أنْ تجلِسَ على الطعامِ وأنتَ تشتهيه وتقومَ عنه وأنت تشتهيه .

وقال أرسطوطاليس : المَطْعمُ والمَشرب إذا كـثُرا على المَعِدَةِ أطفآ نارَها نَجرت الأغذية فى البَدَنِ غيرَ نضيجةٍ ، فصارَ ذلك نُقصانا للبَدن يورِث الفَتْرَة (١) ، كالشجرة ، إذا كثُر ماؤها عَفِنَت وإنْ قلَّ جفَّت ، وكالسِّراج ، إذا قلَّ دُهْنُه أو كثُر انْطفأ ... وقال بعضُهم : مَن تغدَّى وتعشَّى ولم يأكل فيما بينهما ، سَلِمَ من الأوجاع ، لِقول الله عز وجلَّ : ولهم رزقُهم فيها بُكرة وعَشيًّا ... وقال بعض الأطباء : أحَبُّ الناس إلينا : الرَّغيب البَطنِ ، لكثرةِ حاجاتِهم إلينا . . وأُخبِرَ بعض الأمراء بشيخ قـد أتتْ عليه مائة وخمسون سنة فى اعتدالِ جسمٍ ونَضارة لون ، فاستدعاه وسأله فقال : إنْ كان لِما ترى من هذه المَوهِبة الجميلة سَبَبٌ بعد تقدير الله تعالى فما أصِفُه : مااحْتمَلْتُ مُهمًّا تَبْعُد علىَّ مُدافعتُه ، ولا رأيتُ من زوجة مكروها ، ولا اجتمَعَ فى بَطْنى طعامان ، وإذا شَرِبتُ شرابا تناوَلتُه رقيقا طيِّبا لاأثمَلُ منه (٢) ، ولا أستدْعى

(١) الفترة : الضعف والانكسار (٢) ثمل يثمل : أخذ منه الشراب والسكر

الطبيعة من غيرِ عارض ، وماالستدعَيتُ للباهِ[1] حركةً إلا أن يَهيجَ بالطبيعةِ على القلب ، وإذا فعلتُ ذلك أقللتُ الحركةَ بقيّةَ يومى . . . وقالوا : أضرُّ الأشياء للبَدَنِ : الفكرُ والسهر ، وأنهكُ الأشياء للبدن : الخوف . وقال المأمون : قد أصبتُ دواءً يُمرِئُ ولا يُؤكلُ ولا يُشرب ! فقيل : ماهو ؟ قال : النومُ إثْرَ الغذاء . . . وقالوا : إذا أكلت فاضْطَجِع على جنبِك الأيسر ، فإن الكبِدَ يقع على المعِدَة فيُنضِجُ الطعام فيَهْضِمُه . . . وقالوا : غِشيانُ المرأةِ المُولِّية يُضعِف القُوّة ويُسْقِمِ البَدن ، لأنها كالشَّنِّ البالى[2] ، ماؤها سُمّ قاتل ، تأخذ منك ولا تُعطيك . . .

من تناول طعاما

وتحقق تولُّدَ عِلّة منه

اجتازَ رجلٌ بصديق له محموم فسأله عن سبب عِلّتِه ؟ فقال : أكلتُ فى هذا الصيف فِراخاوعَسَلاوشَرِبْتُخمراً صُلبا ـ شديدة ـ ونِمْتُ فىالشمس ! فقال له : علىّ كلُّ يمينٍ ، لوكانت الحُمّى من حَمَلةِ الشمس ورأتكَ بهذه الحالة لتركَتْ عملَها ووافتك . . . ونظر طبيبٌ إلى دِهْقانٍ[3] يَغرِسُ شجرة مشمش فقال له : ماتصنَعُ ؟ قال : أعملُ لى ولك ! ، يعنى أنّ الطبيب ينتفع بالمشمش ، لسوءِ أثره على آكليه ، وحاجتهم إلى الطبيب ، لِمَا يتولّدُ فيهم من الأدواء لأكلِ الطرىّ منه ، وفى هذا المعنى يقول ابنُ الرومىّ :

إذاما رأيتَ الدّهرَ بُستانَ مِشْمش فأيقِن بحَــقٍ أنه لِطبيبِ
يُغِلُّ له مالا يُغِلّ لِرَبِّه يُغـلّ مريضا حَمْلُ كلِّ قضيبِ

(١) الباه والباهة والباه والباءة : الجماع (٢) الشن : القربة الخلق
(٣) رئيس القرية

« يُغل له : أى يعطى الطبيبَ من الغَلة ـ وهى الدّخل ـ مالا يُعطيه لصاحبه ، وذلك أن حَمْلَ الغصنِ الواحد من كل شجرة مشمش من أشجار ذلك البُستان إذا أكله إنسان فإنه ينقلب مريضا فيلجأ إلى الطبيب »

الحمى

قال المتنبي :

وزائرَتى كأنَّ بها حياءً فليس تزورُ إلا فى الظلامِ

بَذلْتُ لها المَطارِفَ والحشايا فعافَتها وباتَتْ فى عِظامى

يَضيقُ الجِلدُ عن نفَسى وعنها فتُوسِعُه بأنواعِ السَّقامِ

إذا مافارَقتْنى غَسّلَتنى كأنَّا عاكِفانِ على حَرامِ

كأنَّ الصُبحَ يَطرُدُها فتَجرى مَدامِعُها بأربعةٍ سِجامِ

أُراقِبُ وقتَها من غيرِ شوقٍ مُراقبةَ المَشوقِ المُستَهامِ

ويَصدُق وعْدُها والصِّدق شرٌّ إذا ألقاكَ فى الكُرَبِ العِظامِ

« وقوله : وزائرتى ... البيت يقول : إن الحُمَّى التى كانت تأتيه ليلا ، كأنها حَيِيّةٌ فليست تزور إلا فى الليل ... والمطارف فى البيت الثانى : جمع مُطْرَف وهى : أَرْدِيَةٌ مُربَّعة من خزٍّ فى جنبها علَمانِ ، والحشايا جمع حَشِيّة : ماحُشِى من الفرش مما يُجلس عليه ، يقول . إن هذه الزائرة ـ الحُمّى ـ لاتبيت فى الفراش وإنما تَبيت فى عظامى . وقوله : يضيق الجلد . البيت يقول : يضيق جلده فلا يَسَعُها ولا يسعُ أنفاسى التى أتنَفسُها ، وهى مع ذلك تَذهب بالحمى فتُوسِع جلدى بما تورد عليه من ضرُوب السقم ، وقوله : إذا مافارَقتنى غَسّلَتنى . . . يقول : إنه يَعرَق عند فِراقِها ، فكأنه

تغسله لعكوفهما على ما يوجب الغُسْل ، وإنما خَصَّ الحرام لأنه جعلها زائرةً غريبةً ولم يجعلْها زوجةً ولا مملوكة ... وقوله : كأن الصبح ... البيت يقول : إنها تفارقه عند الصبح فكأنَّ الصُّبْحَ يطرُدُها ، وأنها إذا فارقَته تجرى مدامعُها من أربعة سِجام ، يريد : كثرة العَرَق ـ عَرَق الحُمَّى ـ فكأنها تبكى عند فراقه لِحُبِّها إياه ، وأراد بالأربعة : اللَّحاظَين والمُوقَين للعينَين . وقوله : أراقب وقتها الخ يقول : أنتَظِر وقت مجيئها كما ينتظر المَشُوق مجىء حبيبه ، وذلك أن المريض يجزَع لورود الحمى ، فهو يراقب وقتَها خوفاً لا شوقاً . ثم قال : ويصدق وعدُها ، يقول : إنها صادقة الوعد فى الورود وذلك الصدق شرٌّ من الكذب ، لأنه صدق يضُرُّ ولا ينفع كمن أوْعد ثم صدق فى وعيده ... »

وقال المتنبى أيضاً :

ومنازِلُ الحُمَّى الجسومُ فقُلْ لنا ... ما عُذْرُها فى تركِها خيراتِها
أعجَبْتَها شرَفاً فطال وُقوفُها ... لتـأمُّـلِ الأعضاءِ لا لأذاتِها

« يقول المتنبى لهذا الممدوح — وكان مُصاباً بالحُمَّى — إنَّ جِسْمَكَ خيْرُ الأجسام فلا عُذرَ للحُمى فى تَركه ، لأن محلَّها الأجسام ! ثم قال : إن الحمى لمّا رأتك فى المحل الأرفَع من الشرف والكرم والنُّبل أعجبْتها فأقامت فى بدنِك لتأمُّل أعضائك التى اشتملت على تلك المحامد ، لا لأنها تريد أن تُؤذيَك » ... وقال الشاعر أبو الفتح كُشاجم [1] فى علىِّ بنِ سليمانَ الأخفش :

ولقدْ أخطأَ قومٌ زعموا ... أنَّها من فضْلِ بَرْدٍ فى العصَبْ

(١) هو محمود بن الحسين بن السندى بن شاهك ، وشاهك أمه

هو ذاكَ الذِّهنُ أذكى نارَهُ والمِزاجُ المُفرِطُ الحَرِّ التَهَبْ

ودخل بَخْتَيْشُوعُ[1] على يَحيي بنِ خالدِ بن بَرمَك بِعَقِب حُمّى فقال له : تَوَقَّ فإن حمّى ليلةٍ يبقى فى البدنِ تأثيرها سنة ! — وعنده وكيع فقال : صدق ، فقال يحيي : ما أقربَ تصديقَكَ إياه ! قال : لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال . حُمّى ليلةٍ كفّارةُ سنة ، فعلِمْتُ أنّ هذا مِنْ ذاكَ ...

الرمــد

مما يُستَحسَنُ فى عَيْنِ مَحْبوب رَمْداءَ قولُ ابن المُعْتَزّ :

قالوا : اشتكَتْ عينُه فقلت لهم : مِن شدَّةِ الفتْك نالها الوَصَبُ[2]
حُمْرَتُها مِن دماءِ مَن قتَلَتْ والدَّمُ فى النَّصْلِ شاهِدٌ عَجَبُ[3]

وفى معنى هذين البيتين قولُ بعضهم :

قالوا : الحبيبُ شكا جُعِلْتُ فِداءَه رمداً أضرَّ بعينِه كالعنْدَمِ[4]
فأجبتُهم : مازالَ يفتِكُ لَحظُهُ فى مُهْجتى حتى تلطَّخ بالدمِ

---

(١) بختيشوع بن جورجس هو طبيب يونانى الاصل ، اتصل بهرون الرشيد وخدمه وكانت له منزلة عنده ، وكان أبوه جورجس طبيب أبي جعفر المنصور ، وابنه يدعى جبرائيل بن بختيشوع ؛ كان من أمهر الأطباء اتخذه جعفر بن يحيي البرمكى طبيبه الخاص وحظى عند الخلفاء ونال منهم أموالا لم ينلها أحد غيره منهم

(٢) الفتك يروى : القتل ، والفتك أحسن ، والوصب : المرض والوجع الدائم وقد يطلق على التعب

(٣) النصل : نصل السهم والسيف والرمح وقد يسمى السيف نصلا

(٤) العندم : صبغ أحمر يختضب به

النقرس(*)

كان أبو الفضل بن العميد يَكثُر برجله النِّقْرس، فقيل له: لا تغتمّ فإن ذلك يُؤذِنُ بطولِ العمر! فقال: طول العمر هو أنَّ مَن به النقرسُ يسهرُ، فيصير ليلهُ نهاراً، فكأنما يتضاعفُ عُمره ... وقال المبرِّدُ: ذكر أعرابيٌّ رجلا قد أثرَى فقال: تنقّرس! كأنه سَمِعَ أن النِّقرِسَ يكون معَ النعمة... ومنه قول الأعرابيِّ:

ألا فاعْجَبُوا مِن مُفْلِسٍ حِلْفِ نِقْرِسٍ   أما نِقْرِسٌ فى مُفْلِسٍ بعَجيبِ

«فلان حِلْفُ كذا أى: حليفه وملازمه»

عودٌ إلى عبقرياتهم فى التداوى والأدوية

قيل لأبقراطَ: مابالُ الإنسان يكون أثْوَرَ مايكون بدَناً إذا شرب الدواء؟ فقال: مثل البيت تراهُ أكثرَ ما يكون غباراً إذا كُنِس...

ومن قولهم: مَثلُ الدواءِ مَثلُ عدُوٍّ إلى جانبه صديق، ترْمِي العَدُوَّ فلا تأمنُ أن تُصيب الصديق ... وقالوا: لا تُستَعْمَلُ الأدوية فيما تنفع فيه الأغذية.

وفى الحديث الشريف: تداوَوْا فإن الله ما أنزل داءًا إلا أنزل له دواء، إلا الهَرَم ...

وقالوا: حقُّ الطبيب أن يتأنَّى فى المُداواة فعَثْرَتُه لا تقال ... وقالوا المُتَأنِّى فى علاج الداء بعد معرفةِ الدواء كالمُتَأَنِّى فى إطفاء النار وقد أخذت بحواشى ثيابه

(*) النقرس: داء معروف يأخذ فى الرجل وهو ورم يحدث فى مفاصل القدم وفى إبهامها أكثر

شهوة المريض إلى الطعام

قال أُبقراط : المريض الذى يَشتَهِى أرْجى عنـدى من الصحيح الذى لا يشتهى ... وقال المتنبي :

ومن يكُ ذا فمٍ مُرٍ مريضٍ يجِدْ مُرًّا به الماءَ الزُّلالا

وقيل للخليل بن أحمد فى عِلّته . أتشتهى شيئاً ؟ قال : لا ! وبودّى أن أشتهى . وقيل ذلك لآخر فقال : أشتهى أن لا أموت .

شكوى العلة

وكان منهم من لا يرى بأساً فى شكوى علته ، ومنهم من يُنكر ذلك فممّن شكا علّته أبو نواس إذ يقول :

دبَّ فِىَّ السَّقَامُ سُفْلًا وعُلْوًا وأرانى أموتُ عِضْواً فَعِضْوا

ليسَ يمضِى مِن ساعَةٍ بىَ إلا نَقَّصَتْنِى بِمَرِّها بى جُزْوا

لَهْفَ نفسِى على ليالٍ وأيا مٍ تمتّعْتُهن لِعباً ولَهْوَا

وقالوا : ﴿ ولا بد من شكوى إذا لم يكن صبرُ ﴾

ولما مرض بعض الصالحين وعاده الناس قالوا له : كيف تجِدُك ؟ قال : بِشَرٍّ ، قالوا : هذا كلامُ مثْلك ! قال : أجل ، إنّ الله تعالى يقول : « وَنَبْلُوكُمْ بالشّرّ والخير فتنَةً » فالخير الصِّحّة ، والشّرّ المرض

وقالوا : الشكوى تُخفِّفُ الهَمّ وتُزِيلُ الألم ...

ولما وجه المُتَوكلُ فى السنةِ التى قُتِل فيها أن يُحمَلَ إليه الجاحظُ من البَصرة قال لمن أراد حمله : وما يصنعُ أميرُ المؤمنين بامرئٍ ليس بطائل ، ذى شِقٍّ مائِلٍ ، ولُعاب سائل ، وفَرْج بائِل ، وعقل حائل ! «حائل : متغيّر»

وحدّث المُبرِّد قال : دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون مَن نصفه مفلوج لو حُزَّ بالمناشير ماشعَر به ، ونصفه الآخر مُنَقْرَس[1] لو طار الذباب بقُرْبِه لآلمَهُ ، وأشدُّ من ذلك ستٌّ وتسعون سنة أنا فيها ، ثم أنشدنا :

أترْجو أن تكون وأنت شيخٌ كما قد كنتَ أيامَ الشبابِ
لقد كذَبتْكَ نفسُك ؛ ليس ثوبٌ دَريسٌ كالجَديد من الثياب

« دريس : بال »

وقيل لآخر : ما تشكو ؟ فقال : تمامُ العِدّة وانقضاء المُدّة ... وقال بعضُهم لمن يشكو : أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ! وقيل لسعيد بن عمْرو بن سعيد بن العاص وهو مريض : إن المريض يتفرجُ إلى الأنين وإلى أن يصف مابه إلى الطبيب ، فقال : أما الأنين فوالله إنه لجزع ولا يسمعُ الله منى أنينا فأكونَ عنده جزوعا ، وأما الطبيب فوالله لا يحكم غير الله فى نفسى ، فإن شاء قبضها إليه وإن شاء منَّ بها علىّ ...

فضل الصحة والعافية

قالوا : شيئان لا يَعرِفُ فَضْلَهُمَا إلّا من فقَدَهما : الشَّبَابُ والعافية . وقالوا : لا يَعرفُ طعمَ العافيـة إلّا مَن نالته يدُ العِلّة ، ولا طعمَ الرَّخاء إلا من مسَّتْه يدُ البلاء .

(١) منقرس : مصاب بالنقرس وهو ورم أو وجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين وفى إبهامهما أكثر

نفع المرض

اعتلّ الفضلُ بن سَهْل بخراسانَ ، ثم برَأ ، فجلس للناس فهنّأوه بالعافية وتصرّفوا فى فنون الكلام ، فلما فرغوا أقبل على الناس فقال : إن فى العلل نِعَما ينبغى للعاقل أن يعرفَها : تمحيصَ الذنب ، والتعرضَ للثواب ، والإيقاظَ من الغفلة ، والإذكارُ بالنّعمة فى حال الصّحة ، والاستدعاء للتوبة ، والحضُّ على الصدقة ، وفى قضاءِ الله وقدره الخيار ...

واعتل بعضهم فقال : اللهُمَّ اجعله أدباً لا غَضَباً ... وفى الحديث الشريف : إن المريض تتحاتُّ عنه خطاياه كما يتحاتُّ ورقُ الشجر (١) ... وذُكِرَت الأدواءُ عند أبى الدرْدَاء فقال رجلٌ : ما اشتكيتُ قطُّ ، فقال لا جرم أن ذنوبَك لم تحطّ عنك ...

وصف العلة بأنها تنال الأماثل

قال أبو تمام من أبيات فى مرض إلياس بن أسد :

فإن يَكُنْ وَصَبٌ عايَنْتَ سَوْرَتَه فالوِرْدُ حِلْفٌ لِلَيْثِ الغابةِ الأضِمِ
إنّ الرِّياحَ إذا ما أعْصَفَتْ قَصَفَتْ عَيْدانَ نَجْدٍ ولا يَعبأنَ بالرَّتَمِ
بناتُ نَعْشٍ ونَعْشٌ لا كُسوفَ لها والشمسُ والبَدْرُ منها الدهرَ فى الرَّقَمِ
قد يُنعِمُ اللهُ بالبَلْوَى وإن عَظُمتْ وَيبتَـلى الله بعضَ القومِ بالنِّعَمِ

« الوصب هنا : المرض ، وسَورَته : شِدّتُه : والوِرد : الحُمّى ، والأضِم : الغضبان : وعَيدان (بالفتح) جمع عَيدانة وهى : النخلة الطويلة والشجرة

(١) تحات الشىء : تناثر ، وتحات الورق : سقط عن الغصن

الصُّلْبة القديمة . والرَّتم : نبات من أدق الشجر، وبنات نَعْش كبرى وهى سبعة كواكب أربعة منها نَعشٌ وثلاث بنات؛ وصُغْرَى : وهى مثلها، ومنها أى من دونها، والرقم : السواد، ويدنى به الخنغاء للكسوف والخسوف »

وقال البحترى :

وما الكلبُ محموماً وإنْ طالَ عُمْرُه ألَا إنما الحُمَّى على الأسَدِ الوَرْدِ

« قيل للأسد وَرْد لأن لونه أحمر يَضرب إلى صُفْرة » وفى الحديث الشريف : مَثَلُ المؤْمن مَثَلُ الخامَةِ من الزَّرْع ، تُفيِّئُها الريحُ مرة وتَعدِلُها مرة ، ومَثَلُ الكافرِ مثلُ الأَرْزَة لاتزالُ حتى يكونَ انجِعافُها مرةً واحدة .

« الخامَة : الزرع أول ماينبت على ساقٍ واحدة ، وقيل : السُّنبُلة ، وقيل : الطاقة الغَضَّة من الزرع ، وقيل : الشجرة الغَضَّة الطرية . وتُفيِّئُها : تحركها وتُميلها يميناً وشمالا ، والأرْزَة : واحدة الأرز : شجر معتدل صُلب لا يحركه هبوب الريح يقال له الأَرْزة معروف بلُبْنان ، وقيل : شجر الصَّنَوْبر والجمع أَرْز ، وانجعافها : انقلاعها . ومعنى الحديث : أن المؤمن ينبغى له أن يَتلقَّى المكارِهَ صابراً راجياً الخير من ورائها ، وأن يَعُدَّ نفسه كأوائل الزرع تُميله الرياح يَمْنةً ويَسرةً ، فهو فى الدنيا هَدَفٌ تَنتضِلُ فيه الرزايا ، فليس له إلا أن يَعتصِمَ بالصبر والرضا ، وأن يَعلمَ علماً ليس بالظن أن كل ما يُرزَؤُه من فُقدان مال وولد وماإليهما ، وما يصيبه من مَرَض ووَصَب ، إنما هو مكفِّرٌ لسيئاته رافع لدرجاته ؛ أما الكافر ، أما العِفرِية النِّفْرية ، فإن كل هَمِّه أن يَستمْتِعَ بشهوات الدنيا ولذاتها ، فإذا رُزِئَ فى ماله وولده ونفسه تسخَّط ولم يَدَّخر لنفسه ما ينفعُه فى آجله ومن ثَمَّ يموت إذ يموتُ كما تنجعِفُ شجرةُ الأَرْزَة وتُجتَث من أصلها فيلقَى الله بذنوبِه حائنًا . هذا ، ولك أن

تقول: إن المعنى بسبيل من قولهم: المؤمن مُصابٌ ، ومعنى هذا أن المؤمن لأنه يتقى الله فى سائر أسبابه ولا يُقدِم على ما حرَّم الله ، لا تواتيه الدنيا كما تواتى من لا يتقى الله فيعيشَ من كان هذا شأنه مُرَزَّأً وإن كان فى آخرته من الفائزين. وهذا فى الغالب ، وإلا فهناك من المؤمنين الصادقين من كان إيمانهم مَدْرَجةً إلى أن يعيشوا عيشة راضية يُحسدون عليها . وعلى أية حال فإن المراد بمثل هذا الحديث هو تعزية المصابين فى الدنيا من المؤمنين بأن الآخرة خيرٌ وأبقى...»

عيادة المريض

وجوب عيادة المريض

ورد فى الحديث الشريف: حقُّ المسلم على المسلم ثلاثٌ: عِيادةُ المريض، وتَشميتُ العاطِسِ ، وتشييعُ الجنازة؛ وفى الحديث أيضاً: من عاد مريضاً لم يَزَلْ فى خُرْفةِ الجنة حتى يرجِعَ ... « الخُرْفة (بضم الخاء وفتحها) : ما يُخترَفُ أى يُجتنَى من الثمر ، أى لم يزل فى بستانٍ يَجتنى منه الثمرَ ، شَبَّه صلوات الله عليه ما يَحُوزُه من يعودُ المريضَ من الثوابِ بما يَحُوزُه المُخْترِفُ من الثمر »

أدب عيادة المريض

قالوا: سُوءُ العيادةَ تلقيحٌ للعِلة ... وقال الفضلُ بنُ الربيع: لا تقولوا: كيف حال أمير المؤمنين ، ولا تسألوه عن حاله فتُكلِّفوه الجواب ، ولعله يثْقُلُ عليه الكلام ، ولكن اجعلوا مسألتَكُم الدعاءَ له وقولوا بَدَل كيف يَجِدُ أميرُ المؤمنين نفْسه: أنزل الله عليه الشِّفاءَ والرحمة ... ودخل قومٌ على

السّرِىّ السقطى رحمه الله وهو عليل فأطالوا الجلوس وقالوا : ادْعُ لنا ، فقال : ارْفعوا أيديكم وقولوا : اللهمّ اجعلنا ممّن عَلَّمْتَهم عيادةَ المرْضى . . . ودخل قومٌ على مريض فأطالوا الجلوسَ ثم قالوا : أوصنا ، فقال : أُوصيكم ألّا تطيلوا الجلوس عند المريض إذا عُدْتُموه ... ودخل ثقيلٌ على مريض فأطال الجلوس ثم قال : ما تشتكى ؟ قال : قُعودك عندى . . .

شكاية من لا يعوده إخوانه

قال : جَحظة البرمَكى (*) :

مَرِضْتُ فلم يَكُنْ فى الأرضِ حُرٌّ ‍ ‍ ‍ يُشرِّفُنى ببِرٍّ أو سلامِ

وضَنُّوا بالعِيادةِ وهْىَ أجرٌ ‍ ‍ ‍ كأن عِيادتى بَذْلُ الطعامِ

الاعتذار عن ترك العيادة

قال شاعر :

إنْ كنتُ فى ترْكِ العِيادةِ تارِكًا ‍ ‍ ‍ حَظى فإنّى فى الدعاءِ لجاهِدُ

ولَرُبَّما تَرَكَ العِيادةَ مُشفِقٌ ‍ ‍ ‍ وأتى على غِلِّ الضَّميرِ الحاسِدُ

من عاده ممرّضه

قال العوّام بن كعب بن زهير فى ليلى الغطفانية :

وخُبِّرْتُ لَيْلَى بالعراقِ مريضةً ‍ ‍ ‍ فأَقبلْتُ من أهلى بمِصْرَ أعودُها

(*) هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك ، فهو من ذرية البرامكة كما ترى وكان من ظرفاء عصره وكان أديباً شاعرا صاحب فنون وأخبار ونوادر ومنادمة ، وجحظة لقب لقبه به عبد الله بن المعتز توفى سنة ٣٢٦ ، انظر ترجمته فى معجم البلدان لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان .

فوالله ما أدرِى إذا أنا عُدتُها أأُبرِئُها من دائِها أم أزيدُها

مريض عاد صحيحا

قال العباس بن الأحنف :

قالت : مَرِضتُ فعُدتُها فتبرَّمَتْ وهىَ الصحيحةُ والمريضُ العائدُ

والله : لو أنَّ القُلوبَ كقَلْبِها ما رَقّ للولَدِ الضعيفِ الوالدُ

وقال آخر :

إذا مَرِضْنا أتيناكم نعودُكُمُ وتُذْنِبون فنأتيكم ونَعْتَـذِرُ

حثهم العائد على تنشيط المريض

قال بعضُ الأطباء القُدامَى : بشّرُوا المريض بالبُرْء ، ونَشّطوه لشُرْبِ الدواء ، ولا تُصَعّبوا عليه العِلة ، فتخافَ نفسُه ، ويموتَ حِسُّه ، وقال : أبُقْراطُ : حدِّثوا المريضَ بحالِ مَن كان فى أصْعَبَ من عِلّتِه فبَرأ ، ولا تحدّثوه عمّن كان فى مِثْل علته فمات ...

حثهم على تخويفه ليتجنب المضارّ

قالوا : خَوّفوا المريض ليَتَجنّبَ المضارّ ، فمن خَوّفكَ لِتَأْتِىَ الأمْنَ خيرٌ لكَ مِمّنْ أمّنكَ لتأتِىَ الخوف . . . وقالوا : مَن أوْجَرَكَ المُرّ لِتَبْرأَ خيرٌ مِمّن أوْجَرَكَ الحُلوَ لِتَسْقَمَ .

تغير اللون

قال الصُّولى : لم يُسْمَعْ أحسنُ من قول البُحتُرِىِّ فى صُفْرةِ اللون :

بَدَتْ صُفْرةٌ فى لونِه ، إنَّ حَمْدَهُم مِنَ الدُّرِّ ما اصْفَرّتْ نواحِيه فى العِقْد

وقال أبو تمام :

لم تَشِنْ وَجْهَهُ البهيجَ ولكن جَعَلَتْ وَرْدَ وَجْنَتَيْهِ بَهارا

« البهار : نبتٌ برّى طيب الرائحة له فُقّاحةٌ — زهرة — صَفْراءُ يَنْبُتُ أيام الربيع ، يقال له : العَرار وعين البقر .. »

تهنئة من برأ من المرض

قال أبو تمام :

سُقْمٌ أُتِيحَ له بُرءٌ فزعْزَعَهُ والرُّمحُ يَنْآدُ طوراً ثمَّ يَعتدِلُ

قد حالَ لَوْنٌ فَرَدّ الله نَضْرَتَهُ والنَّجْمُ يَخْمُدُ حيناً ثم يَشْتَعِلُ

يقال : زعزع الشيءَ : حرّكهُ ليقْلَعَه ، والمراد هنا : دفعه وأزاحه ، وينآد : يميل ، وحال لونٌ : تَغيَّرَ ، والنّضرة : الحسن والجمال »

وقال أشجع بن عمرو السُّلَمىّ : (١)

لئن جرحت شكاتُكَ كلَّ قلب لقد قَرَّتْ بِصِحّتِكَ العيون

وقيل لأعرابى برأ من علتِه : الحمد لله الذى سلمكَ ، فقال : أوَ يَسْلمُ مَن الموتُ فى عُنقِه ؟ وقد تقدم

وقال المتنبى :

المجدُ عُوفِيَ إذ عوفيتَ والكَرَمُ وزالَ عنك إلى أعدائِك الألمُ

صَحَّتْ بِصِحّتِك الغاراتُ وابتَهَجتْ بها المكارِمُ وانْهلّتْ بها الدِّيَمُ

---

(١) كان شاعرا خلا ولد فى اليمامة ونشأ فى البصرة ومدح البرامكة وانقطع إلى جعفر بن يحيى فقربه من الرشيد ومن أبياته السائرة قوله فيه :

وعلى عدوّك يا ابنَ عمّ محمد رَصَدان ضوءُ الصبح والإظلامُ

فإذا تنبه رُعْتَه وإذا غفا سلتْ عليه سُيوفَك الأحلامُ

وراجعَ الشَّمْسَ نُورٌ كان فارَقَها كأنما فَقْدُهُ فى جِسْمِها سَقَمُ

قوله : وزال عنك إلى أعدائك الألم : إنما هو خبرٌ وليس دُعاءً ، يريد : أن أعداءَه تُؤْلِمُهُم عافيتُه لعوده بعد ذلك إلى غزوهم ، كما أشار إلى ذلك فى البيت التالى . وانهلت : سالت ، والديم جمع ديمة وهى : المطر الدائم فى سكون . يقول : كانت الغارات على بلاد الروم قد انقطعت فلما شُفِىَ وصح اتصلت الغارات عليها ، فكأن الغارات كانت عليلة بعلته ثم صحت بصحته ، وسُرَّتْ المكارمُ بصحته لأنه صاحبها ، وكانت الأمطارُ مُنْقَطِعةً فلما شُفِى صادف اتصالها شفاءَه ، ويقول فى البيت الثالث : إن الشمس فقدتْ بهجَتها فى عيون أوليائه لاغتمامِهم لعِلته فلما شفى عاد إليها حُسْنُها »

تغدية المريض

قال البُحتُرِىُّ :

بأنفسِنا لا بالطَّوارف والتُّلْدِ
نَقِيك الذى تُخفِى من الشكوِ أو تُبْدِى

بِنا معشرَ العافِينَ مابك من أذًى
فإنْ أشفقوا مما أقول فبى وحدى

« الطوارف : جمع طارفة مؤنث طارف وهو المال المستحدث وعكسه التُّلْد وهو المال القديم ، والشكو مصدر شكا كالشكوى والشكاة ، والعافى طالب المعروف ، وأشفقوا : خافوا »

وقال آخر :

ياليْتَ علتَه بى غير أن له أجرَ العليل وأنّى غيرُ مأجور

عبقريات شتى

فى الطب والمرض والعيادة

قال جالينوس : المرضُ هَرَم عارض ، والهرم مرَض طبيعيّ ؛ وله : مجالسَةُ الثقيل حُمّى الرُّوح .

وقال ثابت بن قُرَّةَ : ليس شيء أضر بالشيخ من أن تكون له جاريةٌ حسناء ، وطبَّاخ حاذِق ؛ لأنه يُكثر من الطعامِ فيَسْقُم ، ومن الجماع فيَهْرَم :

وقال آخر : ليس لثلاثٍ حيلة : فقرٌ يخالُطه كسَل ، وخصومة يخامِرُها حسَد ، ومرَض يمازِجُه هَرَم ...

وقالوا : ثلاثةٌ يُعْذَرُون على سوءِ الخلق : المريض ، والمسافر ، والصائم . . .

وقالوا : فرْطُ الغمِّ والسرور يَقتُلان ، أما الغم فإنه يُجمِّد الدم . والسرور يُلهبُه حتى تعلُوَ حرارَته على الحرارة الغريزية . . . وقال كسرى لوزيريه يوماً : أىُّ الفراش ألذّ ؟ فقال أحدهما : ألذُّ الفراش الخَزُّ محشوًّا ، وقال الآخر : ألذُّ الفراش الحرير محشوًّا — وكان بين يديه غلام من الحجّاب فقال : أيها الملك ، أتأذن لى فى الكلام ؟ فقال : نعم ، قال : ألذُّ الفراش الأمْنُ ، قال : صدقت ، قال : فما ألذ الطعام ؟ قال : ما لا يهيج على طبيعة علةً ، ولا يعْقِدُ فى عُنق آكله منّة ، فقال : أحسَنْت ، فما ألذ الشراب ؟ فقال : ما لا يُزيلُ عَقلًا عن محله ولا يهيجُ على طبيعةٍ شيئاً من عِللٍ ؛ قال : أحسنت ، فما ألذ الرَّيحان ؛ قال : الولد السارُّ ريحانُ أبيه فى حياته وخلَفٌ له بعد وفاته ؛ فرفع محله وألحقه بأكابر حشمه . . .

ونالت أبا الطيِّب المُتَنبي وهو بمصر علةٌ ، فكان بعضُ إخوانه المصريين

يكثر الإلمام به ، فلما أبلّ قطعه ، فكتب إليه : وصلتنى — أعزّك الله — مُعتلاً ، وقطعتَنى مُبِلاّ ، فإن رأيت أن تُكدر الصحة علىَّ ، وتُحبّبَ العلة إلىّ ، فعلتَ . . .

وقال شاعر :

إن الجهولَ تضرّنى أخلاقُه ضررَ السُّعالِ لِمَنْ بِهِ استسقاء[1]

وقال البُسْتى[2]

أنا كالورْدِ فيه راحـةُ قَومٍ ثم فيه لآخَرينَ زُكامُ[3]

---

(١) الاستسقاء لدى الأطباء : تجمع سوائل مَصلية فى تجويف أو أكثر من تجاويف الجسد أو فى خلاياه .

(٢) هو أبو الفتح على بن محمد البستى الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٤٠٠ هـ من شعره :

وقد يَلْبَسُ المرءُ خزّ الثياب ومن دونها حالةٌ مُضْنِيَهْ
كمن يكتسى خَدُّهُ حُمْرَةً وعِلّتُها ورمٌ فى الرِّيَهْ

وله :

تحمّلْ أخاكَ على مابه فما فى استقامتِه مطمعُ
وأنّى له خُلقٌ واحدٌ وفيه طبائعُه الأربعُ

ومن ألفاظه : مَن أصْلَح فاسِدَه أرغَمَ حاسِدَه . من أطاع غَضَبه أضاعَ أدَبه . الفَهم شُعاعُ العقل . المنية تضحك من الأمنية . حدُّ العفاف الرضا بالكفاف

(٣) قبله :

لايغرُّنك أننى ليّن المَسّ وعَزْمِى إذا انتضيت حُسام

وقال المتنبي :

لعلَّ عَتْبَكَ محمودٌ عواقبُهُ ورُبما صحَّتِ الأجسامُ بالْعِلَلِ

وقال :

أُعيذها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسَبَ الشحم فيمن شَحْمه وَرَمُ

وقيل لبعض الأطباء وقد نهكَتْه العلة : ألا تتعالج ؟ فقال : إذا كان الداء من السماء، بطل الدواء، وإذا قدَّر الربُّ بَطل حذرُ المربوب، ونِعمَ الدواءُ الأمل، وبئس الداءُ الأجل .

ومن أدعيتهم : أغناك الله عن الطِّبِّ والأطباء، بالسلامة والشفاء، وجعل علتك تمحيصاً لا تنغيصاً، وتذكيراً لا تنكيراً، وأدباً لا غضباً .

الباب الرابع

فى

كتمان السر وإفشائه

وعبقرياتهم فى ذلك وفيما يجرى هذا المجرى

من الشورى والاستبداد بالرأى والنصح والأناة والعجلة

وهذا كتمان السر هو الآخَرُ لَوْنٌ من ألوان الصبر الذى أسلَفْنا القول عليه فى الباب الثالث ، وهو معنى من المعانى الخُلُقِيَّة التى عُنى بالقول عليها والحث على الاستمساك بعروتها سائر عقلاء الناس فى كل جيل ممن حنَّكتهم التجاريب ، ذاهبين إلى أن إفشاء السر ـ كان ما كان لونه ـ آيةٌ من آيات الضعف ودليل على أن فى عقل صاحبه عُهْدَةً تُغْتَمَزُ فيه ، وأنه ناشئ من قلة الصبر وضيق الصدر ، وأنه من خلائق ضَعَفَة الرجال والنساء والصبيان .

ومن السر ما يعدّ كتمانه من الحزم والاحتياط . وهذا أخصُّ ما يكون بالملوك والساسة ومن إليهم ، وهذا اللون من السر قد يؤدى إفشاؤه إلى سفك الدماء وضياع الممالك والدول والدمار وخراب الديار . . . ومن السر ما يحدث من الإنسان مما تستقبح إشاعته ويشْنُعُ سماعه . وإلى هذا اللون يشير سيدنا رسول الله بقوله صلوات الله عليه : من أتى منكم من هذه القاذورات بشىء فليستتر بستر الله . . .

وبعد فإياك يا أخى أن يَخدَعكَ عن سرك مثل قول القائل :

☆ وأكتمُ السر فيه ضَرْبَةُ العُنُق ☆

وقول الآخر :

ويُكاتم الأسرارَ حتى إنه   ليصونها عن أن تَمُرَّ بباله

فذلك قول من يستنزِلُكَ عما فى نفسِكَ حتى إذا استقْصَى ما عندك لم يَرْعَ فيه حقك ، وقد قالوا : إن الصبر على القبض على الجمر أيسر من الصبر على كتمان السر ...

حفظ اللسان

من قديم ما قيل فى حفظ اللسان قولُ امرئ القيس :

إذا المرءُ لم يَخزُن عليه لسانَهُ   فليس على شىء سواه بخزَّانِ

« لم يخزُن عليه لسانه : لم يُحرِزْ لسانه فيجعله فى خِزانة قلبه ، قال صاحب اللسان : وخِزانة الإنسان قلبه ، وخازِنُه : لسانه ، وقال لقمان الحكيم لابْنه : إذا كان خازنك حفيظا وخزانتك أمينةً رَشَدْتَ فى أمريْكَ : دُنْياك وآخرتك ، يعنى : اللسان والقلب »

وقالوا : من ضاق قلبُه اتّسع لسانه ...

وقال أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن البصرى : لسان العاقل من وراء قلبه . فإن عرَض له القول نظر فإن كان له أن يقول قال ، وإن كان عليه القول أمسَك ، ولسان الأحمق أمام قلبه ، فإذا عرَض له القول قال ، كان عليه أو لَهُ ... وقالوا : مقتَلُ الرجل بين فَكَّيْه .

ومن كلامهم : قِ فاك ما يقرع قفاك « قِ : فعل أمر من الوقاية » ومنه : إن لم تملك فضل لسانك ، ملَكت الشيطان فضل عنانك .

وفى اللسان ومكانته يقول زُهيرٌ :

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدم

منع إظهار السر قبل تمامه

قال سيدنا رسول الله : استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كلّ ذى نِعْمَة مَحْسُود ... « يقول صلوات الله عليه : إنكم إن أظهرتم الناس على حوائجكم حسدوكم فعارضوكم فيما تترامون إلى قضائه ووقفوا فى سبيل تحقيقه »

وقالوا : مِن وَهْيِ الأمر إعلانُه قبل إحكامه؛ وقالوا : مَن حصَّنَ سِرَّه فله من تحصينه إياه خَلّتانِ : إما الظفرُ بما يريد ، وإما السلامة من العيب والضرر إنْ أخطأهُ الظَّفر ...

حثهم على حفظ السرّ

قال الشاعر الجاهلى قيس بن الخطيم :

إذا ماجاوزَ الإثنينِ سرٌّ فإنهُ بِبَثٍّ وإفشاءِ الحديثِ قمينُ [1]
وإن ضيّع الإخوانُ سرًّا فإننى كَتُومٌ لأسرارِ العشيرِ أمينُ
يكونُ له عندى إذا ماضَمِنْتُه مَقَرٌّ بسوْداءِ الفؤاد كنينُ

روَوْا : أن ابن المقفّع لما سمع هذا البيت قال : أراد بالإثنَيْن الشَّفتَيْنِ كأنه يقول : لا تُفْشِ سرك إلى أحد ... وهذا لَعَمْرِى بديع من ابن المقفع

---

(١) هو معلوم أن الألف فى اثنين ألف وصل فإذا جاءت مقطوعة فى الشعر كما فى هذا البيت فإنما ذلك ضرورة شعرية ، والبث : نشر الحديث الذى كتمانه أحق من نشره ، وقمين : خليق وجدير ، وببث متعلق بقمين

وكان عليُّ ابن أبي طالب رضي الله عنه كثيراً ما يتمثّل بهذين البيتين :

فلا تُفشِ سِرَّك إلا اليك فإن لكلِّ نصيح نصيحا
وإنِّى رأيتُ غُواةَ الرجا ل لا يتركون أديماً صحيحاً

وقال الصلَتانُ العبدِيُّ من أبيات أوردَها أبو تمّام فى حماسته :

أشابَ الصغيرَ وأفنى الكبـيرَ كَرُّ الغداةِ ومَرُّ العشِىْ
إذا ليلةٌ هَرّمَتْ يومها أتى بعد ذلك يومٌ فتىْ
نروحُ ونغدُو لحاجاتنا وحاجَةُ من عاش لا تنقضىْ
تموت مع المرءِ حاجاتُه وتبْقَى له حاجة ما بَقِىْ
بُنَىَّ بدَا خَبُّ نجوى الرجال فكُنْ عندَ سرِّكَ خِبَّ النَّجِى(١)
وسِرُّك ما كان عند امْرِئٍ وسرُّ الثلاثةِ غيرُ الخفِىْ
كما الصَّمْتُ أدْنَى لبعضِ الرشاد فَبَعْضُ التكلمِ أدْنَى لِغَىّ

ومن قولهم : سرُّك مِن دمِك « يعنون : أنه ربما كان فى إفشاء السِّرِّ سَفْكُ الدم » وقال آخر لأخ له وحدَّثَهُ بحديث : أجعلْ هذا فى وعاءٍ غير سَرِبٍ « السرب : السائل »

من يُكره اطّلاعه على السر

قيل : لا تُطلِعوا النساءَ على سِرِّكم تَصْلُحْ أمورُكم ، وقالوا : ما كَتَمْتَهُ عدُوَّك فلا تُطْلِعْ عليه صديقك

---

(١) الخب بكسر الخاء : المكر وبفتحها : المكار ، والنجوى مصدر ، وهو مستعمل فيما يتحدث فيه اثنان على طريق السر والكتمان ، يقول : إذا ناجيت صاحبالك فكن خبا فيما تودعه من سرك فإن نجوى الرجال إذا بدا خبها عادت وبالا

المفتخر بحفظ السر

قال المتنبي :

وللسر مني موضع لا يناله نديم ولا يُفضي إليه شرابُ

وقال مِسكين الدارمي :

وفتيانِ صِدْقٍ لستُ مُطْلِعَ بعضِهم على سِرِّ بعضٍ غيرَ أنى جِماعُها (١)

لِكلِّ امْرِئٍ شِعْبٌ من القلبِ فارغٌ وموضِعُ نجْوَى لا يُرامُ اطِّلاعُها (٢)

يظَلُّون شتَّى فى البلادِ وسِرُّهُم إلى صَخْرةٍ أعْيا الرجالَ انصِداعُها

الممدوح بحفظ السر

قال الأحوص — شاعر إسلامى ترجم له صاحب الأغانى فى الجزء الرابع — :

كريمٌ يُميتُ السرَّ حتى كأنهُ عَمٍ بنواحِى أمرِه وَهْوَ خابِرُ

وقال قيسُ بن الخَطيم :

---

(١) أضاف الفتيان إلى الصدق كما يقال : فتيان خير ، والمعنى : أنهم يصدقون فى الودّ ولا يخونون ؛ والجماع : اسم لما يجمع به الشيء كما أن النظام اسم لما ينظم به الشيء ، والضمير فى جماعها : لك أن ترجعه إلى الفتيان أو إلى ما دل عليه الكلام من ذكر الأسرار يقول : رب فتيان هكذا استناموا إلىّ واستودعونى أسرارهم فكنت أنا نظامها لا يفوتنى من خبيآت صدورهم شيء ثم أفردت كلا منهم بالوفاء وكتمان ما أودعنى من سره

(٢) يقول : لكل رجل منهم جانب من القلب فرغ له وخص بموضع سره ، والشعب فى الأصل : الطريق فى الجبل وجمعه شعاب أراد به مكانه من قلبه ، والنجوى اسم للسر، واطلاعها : علمها يقال : اطلع الشيء واطلع عليه : علمه، وأنث الضمير العائد على الموضع لتأنيث المضاف إليه

كَتومٌ لأسرارِ الخليلِ أمينُها يَرى أنّ بَثّ السرّ قاصِمةُ الظَّهرِ

وقال كُشاجِم :

ويُكاتِمُ الأسرارَ حتى إنه لَيَصونُها عن أنْ تمُرّ ببالِه

« وقد تقدم آنفاً »

ودخل ابنُ أبي مِحْجَن الثَّقَفى (١) على مُعاويةَ ، فقال له معاويةُ : أبوك الذى يقول :

إذا مُتُّ فادْفِنِّى إلى أَصْلِ كَرْمةٍ تُرَوِّى عِظامى بعد مَوْتى عُروقُها

ولا تَدْفِنِنِّى فى الفَــلاةِ فإننى أخافُ وراءَ الموتِ أنْ لا أذوقُها

فقال ابنُ أبي مِحْجَن : لو شئتَ ذكرت أحسنَ من هـذا من شِعرِه !

فقال معاويةُ : وما ذاك ؟ قال : قوله :

---

(١) أبو محجن الثقفى هوالصحابى الشاعر المشهور بقصته مع سعد بن أبى وقاص فى يوم القادسية وذلك أنه أتى به إليه وهو سكران ـ وكان صاحب شراب ـ فأمر به فقيد ، وكان بسعد جراحة فاستعمل غيره ، وصعد سعد فوق البيت لينظر ما يصنعه الناس فجعل أبو محجن يتمثل :

كفى حزناً أن تردى الخيلُ بالقَنا وأُترَكُ مشدوداً علىّ وَثاقيا

ثم قال لامرأة سعد : ويلك خلينى ولك على إن سلمت أن أرجع فأضع رجلى فى القيد وإن قتلت استرحتم منى ؛ فخلته ووثب على فرس لسعد يقال لها البلقاء ، ثم أخذ الرمح وانطلق حتى أتى الناس فجعل لايحمل فى ناحية إلاهزم الناس ، فجعل الناس يقولون : هذا ملك ، وسعد ينظر فجعل يقول : الضبر ضبر البلقاء (١) والطفر طفر أبى محجن وأبو محجن فى القيد ، فلما هزم العدو رجع أبو محجن فوضع رجله فى القيد ، فأخبرت امرأة سعد سعداً بالذى كان فقال : لاوالله لاأحد اليوم رجلا أبلى الله المسلمين على يديه ما أبلاهم ، فخلى سبيله فقال أبو محجن : لقد كنت أشربها إذ كان يقام علىّ الحد أطهر منها فأما إذ بهرجتنى فوالله لاأشربها أبدا

---

(١) الضبر : عدو الفرس

لا تسألى القومَ ما مالى وما حَسَبى وسائِلِى القومَ ما حَزْمى وما خُلُقى
ألقومُ أعلمُ أنى مِن سَراتِهِم إذا تَطيشُ يدُ الرِّعْدِيدَةِ الفَرِقِ
أُعطِى السِّنانَ غَداةَ الرَّوْعِ حِصَّتَه وعاملَ الرُّمْحِ أُرْوِيه من العَلَقِ[1]
قد أَطْعَنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلاءَ عنْ عُرُضٍ وأَكْتُمُ السرَّ فيه ضَرْبَةُ العُنُقِ

فقال معاويةُ : لئنْ كنا أسأنا الذولَ لنُحْسِنَنَّ الفعلَ ، وأجزلَ صِلتَه ..

صعوبة حفظ السرّ

قالوا : أَصْبَرُ الناس من صبر على كتمان سرِّه فلم يُبْدِه لصديق فيوشِكَ أنْ يَصيرَ عدوًّا فيُذيعَه

وقالوا : الصبرُ على لَهَبِ النار أهْونُ من الصبرِ على كِتمان السِّر ...

من لا يحفظ سره و يستحفظه غيره

قال الشاعر :

فلا تُودِعَنّ الدَّهْرَ سِرَّكَ أحْمَقاً فإنك إنْ أوْدَعْتَه منه أحمقُ
إذا ضاق صدْرُ المرءِ عن كتْمِ سرِّه فصدْرُ الذى يَسْتودَعُ السرَّ أضيقُ

وقال بشار :

تَبُوحُ بسِرِّكَ ضَيقاً به وتَحْسَبُ كلَّ أخٍ يَكْتُمُ
وكِتمانُك السِّرَّ ممَّنْ تخافُ ومَنْ لا تخافُنَهُ أحْزَمُ
إذا ذاع سِرُّكَ من مُخْبَرٍ فأنتَ متى لُمْتَه ألْوَمُ

ذمّ من يفشى السر

يقولون : فلانٌ أَضْيَعُ للأسرار من الغِرْبالِ للماء ، وقال الحُطيئة :

---

(١) العلق : الدم

أغِرْبالاً إذا اسْتُودِعْتَ سرًّا وكانُوناً على المتحــدِّثينا

« الكانون : الثقيل من الناس ، وقيـل : الكانون : الذى يجلس حتى يَتحصَّى الأخبارَ والأحاديثَ لينقُلَها ، قال أبو دَهْبَل :

وقد قَطَعَ الواشـون بينى وبينَها ونحنُ إلى أن يُوصَلَ الحَبْلُ أحْوَجُ

فلَيْتَ كَوانينا منَ آهلى وأهلِها بأجْمَعِهم فى لُجَّـةِ البحرِ لَجَّجُوا »

وقالوا : فلانٌ أَنَمُّ من النسيمِ على الرِّياض . وقال ابنُ الرومىُّ :

كأنَّ سِرِّىَ فى أحشائِهِ لَهَبٌ فما تُطيقُ لهُ طَيًّا حَواشيها

الأحوال التى يفشو فيها السرّ

قالوا : إذا أردتَ أن تُنزِلَ الرجُلَ عن سِرِّه فتوصَّلْ إليـه فى حال سُكْرِه « فالسُّكرُ يُظهِرُ سرَّه المكْنونا »

المسارزة فى المحافل

قال سيدنا رسولُ الله : إذا كنتم ثلاثةً فلا يتناجَى اثنان دونَ الثالث .

وكان مالكُ بنُ مِسْمَع إذا سارَّه إنسانٌ يقول : أظْهِرْه فلو كان خيراً لم يكن مكتوماً ، وهذا من قول زهير بنِ أبى سُلْمى :

والسِّتْرُ دونَ الفاحشات ولا يَلقاكَ دون الخيرِ من سِترِ

« يقول : إنّ بين الممدوح وبين الفاحشاتِ سِتراً من الحياء والتُّقى ، ولا سِترَ بينه وبين الخير يحجبه عنه »

وقال الخُبْزَأرْزِىّ :

إذا أنت سارَرْتَ فى مَجْلِسٍ فإنك فى أهـلِه مُتَّهَمْ

فهذا يقول : قـد آغتابنى وذا يَسْتَريبُ وذا يَتَّهم

المتبجح بإظهار أسرار أصدقائه

قال أعرابيّ :

ولا أكْتُمُ الأسرارَ لكن أُنمُّها ولا أَدَعُ الأسرار تَغلِى على قلبى
وإنَّ قليلَ العقْلِ مَن بات ليلَه تُقلِّبُه الأسرارُ جَنْباً إلى جَنْبِ

وقال آخر :

ولا تُودِع الأسرارَ قلبى فإنما تَصُبّنَّ ماءً فى إناءٍ مُثَلَّمِ

وقال رجل لصديق له : أُريدُ أن أُفشِىَ إليك سرًّا تحفظُه ، فقال : كلا لستُ أُشغَلُ قلبى بنجواك ، ولا أجْعَلُ صدرى خِزانة شكواك ، فيُقْلِقَنى ما أقلقك ، ويُؤرِّقَنى ما أرَّقك ، فتَبيتَ بإفشائِه مُستريحاً ، ويبيتَ قلبى بحَرِّه جَريحاً ... ولَعَمْرِى ما أصْدَقَ هذا وأكثرَه انطباقاً على الواقع ! وفى الحق أن هذا وأمثاله يجب أن يكون عظةً لمن لايطيقون كتمان أسرارهم

الرخصة فى إفشاء السر إلى الصديق

قال بعض الشعراء :

وأبْثَثْتُ عَمْرًا بعضَ ما فى جوانِحى وجَرَّعْتُه من مُرِّ ما أتجرَّعُ
فلا بُدَّ من شَكْوَى إلى ذى حَفِيظةٍ[1] إذا جعلت أسرارُ نَفْسِى تَطَلَّعُ

---

(١) الحفيظة : إما يراد بها : حفظ الأسرار ، وإما أن يراد بها : الغضب لحرمة تنتهك من حرماتك أوجار ذى قرابة يظلم من ذويك أوعهد ينكث قال الحطيئة :

يَسُوسون أحلاماً بعيداً أناتُها وإن غَضِبُوا جاءَ الحفيظةُ والجِدُّ

والمحفظات : الأمور التى تحفظ الرجل أى تغضبه إذا وتر فى حميمه أو جيرانه قال القطامى :

أخوكَ الذى لاتملكُ الحِسَّ نفسُه وتَرفضُّ عند المحفظاتِ الكتائفُ =

وقال أبو تمام :

شَكوتُ وما الشَّكْوَى لمثلِيَ عادةٌ ولكن تَفيضُ الكأسُ عند امتلائها

وقالوا : لايزالُ المرْءُ فى كُربة ووَحْشة مالم يجدْ من يشكو إليه . . . ومما يتصل بهذا أن يُخبِرَ المريضُ طبيبَه بكُنْه دائه .

وقال محمود الورّاق :

إذا كتَم الصَّديقُ أخاه سراً فما فَضْلُ الصديقِ على العدُوّ

عبقريات شتى فى كتمان السر

قال المهَلَّبُ بن أبي صُفرة : أدْنى أخلاقِ الشريف كتمانُ السرِّ ، وأعْلا أخلاقِه نسيانُ ما أُسِرَّ إليه .

ويُروَى أن معاويةَ بن أبي سُفيانَ أسَرَّ إلى ابن أخيه عثمانَ بن عنبسة بن أبي سفيان حديثاً ، قال عثمانُ : فجئتُ إلى أبي فقلتُ : إن أمير المؤمنين أسَرَّ إلىَّ حديثاً أفأُحدِّثك به ؟ قال : لا ، إنه مَن كتَم حديثَه كان الخيار إليه ومن أظهرَه كان الخيارُ عليه ، فلا تجعلْ نفسَك مملوكا بعد أن كنتَ مالكا ، فقلت له : أوَيَدخُلُ هذا بين الرجل وأبيه ؟ فقال : لا ، ولكنّى أكْرَهُ أنْ تذَلّلَ لسانَك بإفْشاء السر ! قال : فرجعتُ إلى معاويةَ فذكرتُ ذلك له ، فقال مُعاويةُ : أعتقكَ أخي من رِقّ الخطإ . . .

وكان معاويةُ يقول : أُعِنْتُ على عليٍّ رحمه الله بأربعٍ : كنتُ رجلا

= (الكنائف : جمع كنيفة وهى السخيمة والحقد والعداوة يقول القطامى : إذا استوحش الرجل من ذى قرابته فاضطغن عليه سخيمة لإساءة كانت منه إليه فأوحشته ثم رآه يضام زال عن قلبه ما احتقده عليه وغضب له فنصره وانتصر له من ظلمه ،

أكتمُ سِرّى ، وكان رجلا ظُهَرَةً [١] وكنت فى أطوَعِ جُندٍ وأصلحه ، وكان فى أخبثِ جُندٍ وأعصاه ، وتركتُه وأصحابَ الجملِ وقلت : إنْ ظفِروا به كانوا أهونَ علىَّ منه ، وإن ظفِرَ بهم اعتدَدْتُ بها عليه فى دينه ، وكنتُ أحبَّ إلى قريشٍ منه ...

وجاء رجلٌ إلى القاضى شُرَيح فكلمه بشىء وأخفاه ، فلما خرج قال له رجلٌ : يا أبا أميَّة ، ما قال لك ؟ قال : يا ابنَ أخى ، أوَ ما رأيته سَتَرَه عنك !

وأسَرَّ رجلٌ إلى صديق له حديثاً فلما آستقصاهُ قال : أفهِمتَ ؟ قال : لا ، بل نَسيتُ ..

وقال عُبيدُ الله بنُ عبدِ الله بنِ عُتْبَةَ بن مسعودٍ الفقيه :

إذا كان لى سِرٌّ حَدَّثْتُه العِدا وضاق به صدرى فلَلناسُ أعْذَرُ
هو السِّرُّ ما اسْتُودِعْتَه وكَتَمْتَه وليس بسِرٍّ حين يَفْشُو ويَظْهَرُ

ويقال : إذا انتهى السُّر من الجَنان إلى عَذَبةِ اللسانِ فالإذاعةُ مُسْتَوْلِيَةٌ عليه ..

وقال عمر بن عبد العزيز : القلوبُ أوعيةٌ الأسْرارِ ، والشِّفاهُ أقفالُها والألْسُنُ مفاتيحُها ، فلْيَحفَظْ كُلُّ امرئٍ مِفتاحَ سِرِّه ..

وقال شاعر :

صُنِ السِّرَّ عن كلِّ مُسْتَخْبِرٍ وحاذِرْ فما الحَزْمُ إلا الحَذَرْ
أسِيرُكَ سِرُّك إنْ صُنْتَه وأنت اسيرٌ له إنْ ظَهَرْ

وقال جَميل بنُ مَعْمَر :

(١) ظهرة بضم ففتح : يظهر أمره للناس

أموتُ وألقى اللهَ يا بَثْنُ لم أُبحْ ... بسِرِّكَ والمُستَخبِرون كثيرُ

وقال عمر بن أبى رَبيعة :

ولما تلاقَينا عَرفتُ الذى بها ... كمِثْلِ الذى بى حَذوكَ النَّعْلَ بالنَّعْلِ

فقالتْ وأرْختْ جانبَ السِّتْرِ إنما ... مَعِى فتكلَّمْ غيرَ ذى رِقْبةٍ أهلِى

فقلتُ لها ما بى لهمْ من ترقُّبٍ ... ولكنّ سِرّى ليس يَحْمِلُه مثلى

«يريد : أنه ليس يَحمِله أحدٌ مثلى فى صيانتِه وسَترِه ، أى فلا يُبْديه لأحد»

وقال شاعر :

اخفِضِ الصَّوْتَ إنْ نَطقْتَ بليْلٍ ... والتفِتْ بالنَّهارِ قبلَ الكلامِ

وقال مسلم بن الوليد صَريعُ الغوانى فى الكتاب يأتيكَ فيه السر :

الحزمُ تخريقُه إنْ كنتَ ذا حَذَرٍ ... وإنما الحزمُ سُوءُ الظَّنِّ بالناسِ

إذا أتاكَ وقد أدَّى أمانتَه ... فاجعَلْ صِيانتَه فى بطْنِ أرْماسِ

« أرماس جمع رَمْس وهو القبر ، والمراد إخفاؤه وتَعفيتُه حتى لا يبقَى له أثر »

وقال المعَرّى :

فظُنَّ بسائرِ الإخوانِ شراً ... ولا تأمَنْ على سِرٍّ فؤادا

وقبله :

نلومُ على تبلّدِها قلوباً ... تكابِدُ من معيشتِها جهادا

إذا ما النّارُ لم تُطعَمْ وَقوداً ... فأوشِكْ أن تمُرَّ بها رَمادا

فظُنَّ ... ... البيت

وبعده :

فلو خَبَّرتْهمُ الجوْزاءُ خُبْرى ... لما طلعَتْ مخافةَ أن تُكادا

عبقرياتهم فى المشورة

والاستبداد بالرأى

المشورة مُشتقة من: شُرْت الدابة: إذا أجْرَيْتها لتَعْرِفَ قُوّتها، وهى: استِنْباطُ المرءِ رأىَ غيرِه فيما يَعرِض له من الأمور المُعضِلة . حتى يَنبثِقَ له حاقُّ الأمر.. ونِعْمت العُدَّة هى إذا كان المستشارُ صديقاً مجرَّباً حازماً ناصحاً رابطَ الجأش غيرَ مُعجَب بنفْسه ولا مُتلوِّن فى رأيه ولا كاذب فى مقاله ـ فإنَّ من كذَبَ لسانُه كذَبَ رأيُه ـ فارغ البال حين استشارته :

فأَنْفعُ مَن شاوَرْتَ مَن كان ناصِحاً ... شفيقاً فأَبصِرْ بَعدَها من تُشاوِر
وليس بشافيكَ الشفيقُ ورأيُه ... عزيبٌ ولا ذُو الرأى والصدْرواغِرُ (١)

✡ ✡ ✡

وما كُلُّ ذِى لُبٍ بمُؤتيك نُصْحه ... وما كلُّ مُؤتٍ نُصحَه بلبيبِ
ولكن إذا مااستَجمَعا عند واحدٍ ... فُحُقَّ له من طاعةٍ بنصيبِ (٢)

مدح المشورة

أمرَ اللهُ عزَّ وجل نبيَّه صلوات الله عليه بمشاوَرة من هو دونَه من أصحابه فقال سبحانه: (وشاوِرْهم فى الأمرِ فإذا عزَمْتَ فتوكلْ على الله) ذهَب المفسِّرون إلى أن الله تعالى لم يأمُرْ نبيَّه بمشاوَرة أصحابه لحاجة منه إلى رأيهم ولكن ليُعْلَم مافى المشاوَرة من البركة والنَّماء، وقيل: أمره

(١) عزيب: بعيد غائب

(٢) لأبى الأسود الدؤلى وقوله: فحق لهمن طاعة بنصيب، يريد: فهوإذن وفى هذه الحالة جدير بأن يطاع وينتصح بنصحه

بذلك تألفاً لهم وتطييباً لنفوسهم ، وقيل : لِيَسْتَنَّ بذلك المسلمون ... وقال سبحانه : وأمرُهم شُورَى بينهم

وفى الأثر : والمشاورة حِصْنٌ من الندامة وأمْنٌ من الملامة وقالوا : ماهلَك آمرؤٌ عن مَشورة

وقال عُمَر بن الخطاب : الرأىُ الفَرْدُ كالخَيْط السَّحِيل ، والرَّأيان كالخَيْطَيْنِ المُبرَمين ، والثلاثةُ مِرارٌ لايكادُ يَنْتقض ...

« السحيل : الخيط غير المفتول ، والمِرار : الحَبْلُ الذى أُجِيدَ فَتْلُه »

وقالوا : نِصْفُ رأيِكَ مع أخيك فاستشِرْه ...

حثهم على مشاورة الحازم اللبيب

قال بَشارُ بنُ بُرْدٍ :

إذا بلَغَ الرأىُ المَشورةَ فاستَعِنْ ... بعَزْمِ نَصيحٍ أو بتأييد حازِمِ

ولا تجْعَلِ الشُّورَى عليك غَضاضةً ... مكانُ الخَوافِى نافعٌ للقَوادِمِ (١)

وخَلِّ الهُوَيْنَى للضعيفِ ولا تكنْ ... نَؤُوماً فإن الحَزْمَ ليس بنائِمِ (٢)

وما خيرُ كَفٍّ أمسَكَ الغُلُّ أُخْتَها ... وما خيرُ سَيْفٍ لمْ يُؤيَّدْ بقائمِ (٣)

وأدْنِ مِنَ القُرْبَى المُقرِّبَ نفْسَه ... ولا تُشْهِدِ الشُّورَى آمرأً غيرَ كاتِمِ

فإنكَ لا تَستطْرِدُ الهَمَّ بالمُنَى ... ولا تَبلُغُ العُلْيا بغيرِ المكارِمِ (٤)

---

(١) الخوافى : ريشات صغار من الجناح إذا ضم الطائر جناحيه خفيت ، والقوادم : الريشات الكبار التى فى مقدم الجناح يقول : إن الضعيف قد يمد القوى بالمعونة

(٢) الهوينى : تصغير الهونى والهونى تأنيث الأهون يقال : إنك لتعمد للهوينا من أمرك : أى لأهونه

(٣) الغل : واحد الأغلال طوق من حديد أو جلد يجعل فى اليد أو فى العنق

(٤) الهم : ما يهم به الرجل أو أجال فكره فيه ليفعله

إذا كنتَ فَرْداً هَرَّكَ الناسُ مُقْبِلا وإن كنتَ أَدْنَى لم تفُزْ بالعَزائمِ[١]
وما قَرَعَ الأقوامَ مثلُ مُشيَّعٍ أريبٍ ولا جَلّى العَمَى مثلُ عالِمِ[٢]

قال الأصمعى : قلت لبشار : إنى رأيت رجال الرأى يتعجبون من أبياتك فى المشورة ؛ فقال : أمَا علمت أن المشاور بين إحدى الحُسْنَيَيْن : بين صواب يفوز بثمرته أو خطإٍ يُشارَك فى مكروهِه ؛ فقلت أنت والله أشعَرُ فى هذا الكلام منك فى الشعر .

استشارة الكبار والصغار

ومن يُعتمد على مَشورته ورَوِيّته

كانت العربُ تَحْمَدُ آراء الشيوخ ؛ لتقدُّمها فى السن ، ولما مرَّ عليها من التجارِب التى عَرفت بها عواقب الأمور حتى كأنها تنظُرُها عِياناً ، وطرأ عليها من الحوادث التى أوضَحَتْ لها طريق الصواب وبيّنته تِبيانا ، ولما مُنِحَتْهُ من أصالةِ رأيها ، واستفادَتْه بجميل سعْيِها ، قال علىُّ بن أبى طالب رضى الله عنه : رأى الشيْخ خيرٌ من مشْهَدِ الغُلام . ومن أمْثالهم «زَاحِمْ بِعَوْدٍ أوْ دَعْ»[٣]

وقال بعض الحكماء : عليك بمشورة من حلَبَ أشْطرَ دهره ، ومَرَّتْ عليه

(١) يقال : فلان هرّه الناس إذا كرهوا ناحيته ، والعزائم : الحاجات التى يعتزم المرء فعلها يقول : إذا انفردت برأى نفسك ولم تستعن بآراء ذوى التجارب باعدك الناس وأصغروا من شأنك وإن كنت أدنى القوم شأناً لم تفز بحاجاتك التى اعتزمت عليها .

(٢) المشيع : الشجاع كأنه قد شيع قلبه بما يركب من الأهوال أو بقوة قلبه

(٣) العود : المسن من الإبل أى لا تستعن إلا بأهل السنّ والتجربة فى الأمور

ضروبُ خيره وشره ، وبلغ من العمرِ أشُدَّه ، وأورَثْ التجربة زَنْدَهُ ،
واستشارَ زيادُ بن أبيه رجلا ، فقال الرجل : حقُّ المستشار أن يكون
ذا عقلٍ وافر ، واختبار مُتَظاهر ، ولا أرانى كذلك .

وقال ابن الرومى يمدح يحيٰى بن على المنجم :

أَلْمَعِيٌّ يَرى بأوَّلِ ظَنٍّ آخِرَ الأمْرِ من وراءِ المَغيب
لا يُرَوِّى ولا يُقَلِّبُ كَفاً وأكُفُّ الرجال فى تقْليبِ

وقال :

تراهُ عَنِ الحَرْب العوانِ بمعْزِلٍ وآراؤه فيها وإن غابَ شُهَّدُ
كما احتجَب المقدار والحكم حُكمه على الخلق طُرّاً ليس عنه مُعَرَّدُ (١)

وقال ابراهيم بن العباس الصُّولى فى الفضل بن سهل :

يُمْضِى الأمورَ على بَديهَتِهِ وتُرِيه فِكْرَتُه عواقِبَها
فَيَظَلُّ يُصْدِرُهَا ويُورِدُها فيَعُمُّ حاضِرَها وغائِبَها
وإذا الحروب غَلَتْ بعَثْتَ لَهَا رَأْياً تفُلُّ بِهِ كتائِبَها
رأياً إذا نَبَتِ السيوفُ مَضَى عَزْمٌ بها فشفَى مَضارِبَها
وإذا الخطوبُ تأَلَّتْ ورَسَتْ هَدَّتْ فَواصِلُه نوائِبَها
وإذا جَرَتْ بِضَميرِه يدُه أبْدَتْ بِهِ الدُّنْيا مناقِبَها

وقبلهُمَا قال أوس بن حجر :

الألْمَعِيُّ الذى يَظُنُّ بك الظَّنَّ كأنْ قَدْ رأى وقَدْ سَمِعَا

وقال علىُّ بنُ أبى طالب فى عبد الله بن عباس : إنه ليَنْظُر إلى الغَيْب من
سِتْرٍ رَقِيق

---

(١) ليس عنه معرّد : ليس عنه مهرب

وقال الشاعر :

بصيرٌ بأعقابِ الأمورِ كأنما يرَى بصَوابِ الرأى ما هُو واقِعُ

وقال الآخر فى مثله :

عليمٌ بأعقابِ الأمورِ برأيِه كأنَّ له فى اليوم عيْناً على الغَدِ

وقال :

بَصيرٌ بأعقابِ الأمورِ كأنما يخاطِبُه من كلّ أمرٍ عواقِبُهْ

وأين مَقَرُّ الحزمِ منه وإنما مَرائِى الأمورِ المُشْكِلاتِ تجارِبُه

ولقد بالَغوا فى الحَثّ على مُشاورَة ذوى الرأى والتجربة حتى ولو كانوا أعداء، قال ابنُ المقفَّع فى كليلة ودِمْنة : لا ينبغى للعاقل أن يترُك استشارة عدوّه ذى الرأى فيما يَشْرَكه ذلك العدوُّ فى نفْعِه وضَرّه ...

وقالوا: اسْتَشِرْ عدوَّك تعْرِف مقدار عداوتِه ...

وقد رأى قوم خِلاف ذلك وذهبوا إلى أن رأىَ الشباب هو الرأى الصائب، وفهمَهم هو الفهمُ الثاقب، إذ أن عقولهم سليمةٌ من العوارض، وآراءَهم خَضِرَةٌ نَضِرةٌ لم يهْتَصِرْ غُصْنَها هرَم[1]، ولا أذوَى زَهْرَتها قِدَم ولا خَبا من ذَكائِها بِطوُلِ المُدّةِ ضرَم . قالوا : إن رأْىَ الشَّيْخ كالزَّنْدِ قد انْثلم، أما رأىُ الشاب فكالزند الصحيح الذى يُورِى بأيْسر اقْتداح

وقال الشاعر :

رأيتُ العقْلَ لم يكن انْتِهاباً ولم يُقْسَمْ على عَددِ السِّنينا

ولو أن السنين تَقَسَّمَتْه حَوَى الآباءُ أنْصبة البَنينا

(١) يهتصر الغصن : يقطعه ويكسره من غير انفصال

من يجب أن تجتنب آستشارته

قال قُسّ بن ساعدة الإيادى لابنه : لا تشاوِرْ مشغولا وإن كان حازماً ولا جائعاً وإن كان فَهِماً ، ولا مَذعوراً وإن كان ناصِحاً ، ولا مَهموماً وإن كان عاقلا ، فالهَمّ يَعقِلُ العقل فلا يَتولَّدُ منه رأىٌ ولا تَصدُقُ به رَوِيّة ...
وقالوا : لاتُدْخِل فى مَشُورَتِك بخيلا فيُقَصِّرَ بفعلِكَ ، ولا جَباناً فيُخوِّفَكَ ، ولا حَريصاً فيَعِدَكَ ما لا يُرْجَى ، وإن البُخْلَ والْجُبْنَ والحِرصَ طبيعةٌ واحدةٌ يَجمعُها سُوءُ الظنِّ بالله ...

وقالوا : لاتُشاوِرْ مَن ليس فى بيتِه دقيق ...

وكان كسرى إذا أراد أن يستشيرَ إنساناً بَعثَ إليه بنفقةِ سنةٍ ثم يستشيرُه .

وقال علىّ رضى الله عنه : إياكَ ومُشاوَرةَ النّساء فرَأْيُهنَّ إلى أَفن وعَزْمُهُنّ إلى وَهن (١) ... وورَد فى الأثر : شاوِروهُنَّ وخالِفوهُنَّ ...

وجوب نصيحة مستشيرك

قال سيدنا رسول الله : المُستشارُ مُؤْتَمَن ...

وقال صلوات الله عليه : الدِّينُ النّصيحة ، قالوا : لِمَن يارسولَ الله ؟ قال : لله ولكتابِه ولرسولِه ولأئمةِ المسلمين وعامّتِهم ...

« قال ابن الأثير فى النهاية : النصيحة كلمة تُعبّرُ عن جملة هى : إرادة الخير للمنصوح له ، وليست كلمةٌ تُعبر عن هذا المعنى سواها ، وأصل النُّصح فى اللغة . الخُلوص ، يقال : نَصحته ونَصحْتُ له . . هذا : والنصيحة لله : الإيمانُ به

(١) الأفن : النقص ، ورجل مأفون : ناقص العقل ، والوهن : الضعف

وطاعةُ أمرِه واجتنابُ نَهْيِه ، ومُوالاةُ من أطاعه ، ومُعاداة من عصاه وما إلى ذلك مما ترجع عائدته فى الحقيقة إلى العبد ، فهى نصيحة إلى نفسه وكسبُ خيرٍ لها ؛ والنصيحة لكتابه : الإيمان بأنه من عند الله ، وتحليل ما حلله وتحريم ما حرّمه ، والاهتداء بما فيه ، إلى أمثال ذلك ؛ والنصيحة للرسول : تصديقه والاستنان بسُنّته ، إلى آخره ؛ والنصيحة لأئمة المسلمين - والمراد بهم أولوا الأمر - إعانتُهم على الحق ونصحُهم فى رفق وعدْل ، إلى آخره ، والنصيحة لعامّة المسلمين : إرشادهم إلى مافيه خير الدنيا والآخرة » .

وقال حكيم : لا تُشيرَنَّ على عدُوِّك وصديقِك إلا بالنصيحة ، فالصديقُ تقضى بذلك حقّه والعدوُّ يهابك إذا رأى صوابَ رأيك ...

وقال آخر : إذا استشارَك عدُوُّك فجَرِّدْ له النصيحة ، لأنه بالاستشارة قد خرج من عَداوَتِك إلى مُوالاتك ..

ويُروَى : أن زيادَ بنَ أبيه كتب إلى معاويةَ : يا أميرَ المؤمنين ، قد ضبطْتُ لك العراقَ بشِمالى وفَرَغتْ يمينى لطاعتِك ، فولِّنى الحجازَ ، فبلَغ ذلك الرجلَ الصالحَ عبدَ الله بنَ عُمرَ رضى الله عنه ، - وكان مُقيما بمكة — فقال : اللهمَّ اشْغَلْ عنا يمينَ زِياد ، فأصابه الطاعونُ فى يمينِه ، فجمع الأطباءَ واستشارَهم ، فأشاروا عليه بقطعِها ، فاستَدْعَى القاضىَ شُرَيْحاً وعرَض عليه ما أشار به الأطبّاءُ ، فقال : لك رِزْقٌ معلوم ، وأجلٌ محتوم ، وإنى أكرهُ إن كانت لك مُدّة أن تعيش فى الدنيا بلا يمين ، وإن كان قد دنا أجلُك أنْ تَلْقَى ربَّكَ مقطوعَ اليدِ ، فإذا سألك لِمَ قطَعْتَها قلتَ : بُغضاً فى لِقائك ، وفِراراً من قضائك ؛ فمات زيادٌ من يومِه ، فلامَ الناسُ شُريحاً على مَنْعِه من القطْع ، لبُغْضِهم زياداً ، فقال : إنه استشارَنى والمُستشارُ مُؤتمَن ... ولولا

الأمانةُ فى المشورة لوَدِدْتُ أن تُقْطَعَ يدُه يوماً ورِجلُه يوماً وسائرُ جسدِه يوماً يوماً ...

الحث على قبول النصح وإن كان مُرًّا

قالوا : مَن أحبَّك نهاك ، ومَن أبغضك أغْراك

وقال بعضُ الحكماء : مَن أوْجرَك المُرَّ لِتَبرأَ أشفقُ عليك ممن أوْجرك الحُلْوَ لتَسْقَم . « يقال : أوْجَره الدواء : سقاه إياه . والوَجور : الدواء الذى يصب فى الفم »

عتاب من لم يقبل النصح

قالوا : مَن لم يَقبلْ رأىَ أصحابِه وإن أحزَنُوه عاد ضررُه عليه ، كالمريض الذى يَتركُ ما يَصِفُ له الطبيب ويَعْمِد إلى ما يشتهيه فيَهْلِك . وقال الله تعالى حكايةً عن صالح : « لقد أبلغتُكم رسالاتِ ربى ونَصحْتُ لكم ولكن لا تُحِبون الناصحين »

وقال العرْجِىُّ (١) :

عَرَضْتُ نصيحةً منى لِيَحْيَى فقال : غَشَشْتَنى والنُّصحُ مُرُّ

ضياع النصح لمن لا يقبله

قال الشاعر : ✡ وما خيرُ نُصحٍ قِيل لا يُتقبَّلُ ✡

---

(١) هو عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، سمى العرجى لأنه ولد بالعرج فى الطائف وقيل : بل كان له فيه مال فكان يكثر الاختلاف إليه فشهر به ، شاعر مطبوع فى الغزل والنسيب ، ترجم له صاحب الأغانى (ج ١)

وقال غيره :

إن كان حَمْدِىَ ضاع فى نُصْحِكم فإنَّ أجرىَ ليس بالضائع

وقيل : أخذ رجلٌ ذئباً فجعل يَعِظه ويقول له : إياك وأخذَ أغنام الناس فيُعاقِبَك الله ، والذئب يقول : خفِّفْ واختصِرْ فقُدَّامى قطيعٌ من الغنم لئلا يفوتنى ...

معاتبة من يستنصح الناس ويَستغِشّ الناصح

قال عبد الله بن هَمَّام السَّلُولىُّ[1] :

وقد يَستغِشُّ المرءُ مَن لا يَغُشُّه ويأمَنُ بالغيبِ آمرءًا غيرَ ناصِح

وقال أيضا :

ألا رُبَّ مَنْ تَغْتَشُّه لك ناصحٌ ومُؤْتمَنٍ بالغيْبِ غيرُ أمين

« تغْتشُّه : تعُدُّه غاشًّا لك »

وقال غيره :

نَصَحْتُ فلم أفلِحْ وغشُّوا فأفلَحُوا فأنزَلَنى نُصحى بشرِّ مكانِ

---

(١) هو القائل :

وأنتَ آمرُؤٌ إما ائتمنْتُكَ خاليا فخُنْتَ وإما قلتَ قولا بلا عِلْمِ

فأنتَ من الأمر الذى كان بينَنا بمنزلة بين الخيانةِ والإثمِ

وكان قد وشى به واش إلى زياد بن أبيه وقال له : انه هجاك ، فقال : أأجمع بينك وبينه ؟ قال : نعم ، فبعث زياد الى ابن همام فأتى به وأدخل الرجل بيتاً فقال زياد : ياابن همام ، بلغنى أنك هجوتنى ، فقال : كلا . أصلحك الله ! مافعلت ولا أنت لذلك أهل ، فقال : إن هذا الرجل أخبرنى ! وأخرج الرجل، فأطرق ابن همام هنيهة ثم أقبل على الرجل وقال هذين البيتين :

وقال يزيدُ بن الحكَمِ الثقفى [١] من قصيدة جيدةٍ فى بابها [٢] يُعاتِبُ ابنَ عمِّه عبدَ الرحمن بنَ عُثمانَ بنِ العاص وأولها :

تُكاشِرُنى كُرْهاً كأنك ناصحٌ
وعَينُك تُبْدِى أنَّ صدْرَك لى دَوِى [٣]

لسانُك لى أرْىٌ وغيْبُك عَلْقَمٌ ... وشرُّكَ مبسوطٌ وخيرُك مُنْطَوِى [٤]

تُصافِحُ مَن لاقيْتَ لى ذا عَداوةٍ ... صِفاحاً وعَنِّي بين عينيْكَ مُنْزَوِى [٥]

تُفاوِضُ مَن أطْوِى طَوَى الكَشْحِ دونَهُ ... ومِنْ دونِ مَنْ صافيْتُه أنت مُنْطَوِى [٦]

الناصح متهم

من أمثالهم : المبالغة فى النصيحة تَهْجُمُ بك على عظيم الظِّنَّة . « الظِّنَّة : التُّهْمة » وقال أكثمُ بنُ صَيْفِيٍّ : إياكم وكثرةَ التَّنَصُّح فإنه يورثُ التُّهْمة . « التنصُّح : كثرة النصح » وقال قائلهم :

* وقد يَستفيدُ الظِّنَّةَ المُتنصِّحُ *

---

(١) شاعر إسلامى فحل ، ترجم له صاحب الأغانى ج ١١ ساسى
(٢) انظرها فى الأمالى والخزانة
(٣) يقال : كاشر الرجلُ الرجلَ إذا كشر كل واحد منهم لصاحبه ، وهو أن يبدى له أسنانه عند التبسم ، وكرهاً : بضم الكاف وفتحها مصدر وضع موضع الحال ، والدوى وصف من الدوى بالفتح : المرض ردوى صدره : ضغن
(٤) الأرى : العسل ، والعلقم : الحنظل
(٥) وغى يروى وعنى ، وزوى ما بين عينيه : قبضها
(٦) فاوضه : أظهر له أمره . وأطوى ضد أنشر ، والطوى : الجوع يقول : تظهر أمرك لمن أخفى عنه جوعى أى تنبسط فى الكلام عند عدوّلى لا أظهره على شىء من أمورى ، وتنقبض عن أصدقائى ولا تظهرهم على شىء من أمرك نكاية فىّ .

وشاوَر المأمونُ يَحيَ بنَ أكْثم، فكان الرأىُ مخالفاً لهوى المأمون، فقال يحي: ما أحدٌ بالَغ فى نصيحة الملوكِ إلا استغشُّوه، قال: ولِمَ يا يحي؟ قال: لِصَرْفِه لهم عما يُحبُّون إلى ما لعلَّهم يَكرَهون فى الوقْتِ! والهوى إلهٌ مَعْبود!

وصف غاش فى نصحه

من أمثالهم فى الذى يَنصَحُ القومَ وهو غاش: «أنت شَوْلةُ الناصِحةَ» قال ابن السِّكِّيت: كانت شولة أَمَةً رَعْناءَ تَنْصَحُ لمواليها فتعودُ نَصيحتُها وبالا عليهم، لحُمقِها.

وقال معاويةُ يوماً لعَمْرو بن العاص: هل غَشَشْتَنى مُذ استنْصَحْتُك؟ قال: لا، فقال: ولا يومَ أشرْتَ علىَّ بمبارَزةِ علىّ وأنت تعلمُ مَن هو؟ فقال: كيف وقد دعاكَ رجلٌ عظيمُ الخَطر كنتَ من مُبارَزَتِه إلى إحْدَى الحُسنيَيْن!! إن قتلْتَه فُزْتَ بالمُلْكِ وازددْتَ شرَفاً إلى شرف، وإن قتَلكَ تعجَّلْتَ من الله تعالى ملاقاة الشهداء والصِّدِّيقين! فقال: وهذه أشدُّ من الأولى! فقال: أوَ كنتَ من جهادِك فى شكٍّ؟ فقال: دَعْنى من هذا....

وقال شاعر:

أعاذِلَ إنَّ نُصْحَكِ لى عَناءٌ   فحَسْبُكِ قد سمِعْتُ وقد عَصَيْتُ

الاستبداد وكراهة المشورة

ومِنَ الناس مَن آثر الاستبدادَ برأيه وكَرِه أن يستشيرَ، قال المُهلّب ابن أبي صُفْرَة: لوْ لَمْ يكن فى الاستبداد بالرأى إلا صونُ السِّرِّ وتوفيرُ

العقل لوجب التَّمَسُّكُ به ... وقال عبد الملك بن صالح : ما أستَشَرْتُ أحداً قطُّ إلا تكَبَّر عليَّ وتصاغرْتُ له ، ودخلَتْه العِزَّةُ ودخلَتْنى الذِّلة : فعليك بالاستبدادِ ، فإن صاحبَه جليلٌ فى العُيون ، مَهِيبٌ فى الصدور ؛ واعلم أنك متى استشرت تَضَعْضَعَ شأنُك ، ورَجَفَتْ بك أركانك ؛ وما عَزَّ سلطانٌ لم يُغْنِه عقْله عن عقولِ وُزرائه ، وآراءِ نصحائِه ؛ فإياك والمشورةَ وإن ضاقَتْ عليك المذاهب ، واشتبَهَتْ لديك المسالك .

ورَوَوا : أن أبا جعفرٍ المنصور كان يَسْتَشِير أهلَ بيته حتَّى مدحه ابن هَرْمَة[1] بقوله :

يَزُرْنَ امرَأً لا يُصْلِحُ القومُ أمرَه
ولا يَنْتَجِى الأدْنَيْنَ فيما يُحَاوِلُ[2]

فاسْتَوى جالِساً وقال : أصبتَ واللهِ ! واستعادَه ، وما استشار بعدها .

وقال بعضُ جُلساء هارونَ الرشيد . أنا قتلتُ جعفَر بن يحي البرمكى وذلك أنى رأيت الرشيد يوماً وقد تنفَّس تنفُّساً مُنْكراً فأنشدت فى إثر تنفسه :

واسْتَبَدَّت مرةً واحدةً إنما العاجِزُ من لا يستبِدْ[3]

وأصغى إليه واستعاده ، ثم قتل جعفراً ...

---

(١) هو إبراهيم بن على بن سلمة بن هرمة ، من متقدمى الشعراء وممن أدرك الدولتين الأموية والهاشمية ترجم له صاحب الأغانى « ج ٤ »

(٢) انتجاه : إذا أفضى إليه بسره وخصه به

(٣) لعمر بن أبى ربيعة وقبله :

ليت هِنداً أنجزتنا ما تَعِدْ وشَفَتْ أنفُسَنا مما نجد

وكانت الفُرْسُ والرُّومُ مُخْتَلِفِيْنِ في الاستشارة، فقالت الروم: نحن لا نُمَلِّكَ من يحتاج إلى أن يستشيرَ، وقالت الفُرْسُ: ونحن لا نُمَلِّكُ من يَسْتَغنى عن المشاوَرَة؛ وقد فُضِّل الفُرْسُ لقوله تعالى «وشاوِرْهم في الأمر».

المتفادى من أن يُستشار

ومن الناس من يَكْرَه أن يُشِير:

استشارَ عبدالله بن عليّ عبدَ الله بن المُقَفَّع فيما كان بينَه وبين أبي جعفر المنصور، فقال ابنُ المقفَّع: لَسْتُ أقودُ جيشاً، ولا أتقلَّدُ حرْباً، ولا أُشِير بسفْكِ دم، وعَثْرَةُ الحرْب لا تُستقال، وغيرى أولى بالمشورة في هذا المكان ...

واجتمع رؤساءُ بنى سعدٍ إلى أكْثَمَ بنِ صيْفِيّ يستشيرونه فيما دهمهُم يوم الكُلَاب، فقال: إنّ وَهْنَ الكِبَر قد فشَا في بدنى، وليس معى من حِدَّةِ الذِّهن ما أبتدئُ به الرأى، ولكن اجتمِعوا وقولوا، فإنِّى إذا مَرَّ بى الصوابُ عرفته.

الأناة والروية والعجلة

مدح الأناة والروية وذم العجلة

وكانوا يَمدحون الأنَاةَ في الرأى وإجالةَ الفِكْرَة فيه وعدمَ التسرُّع.

كان عبدُ الله بنُ وهْبٍ الراسبىُّ يقول: إيَّاىَ والرأىُ الفَطِير! وكان يستعيذُ بالله من الرأيِ الدَّبَرِىّ.

« الفطير: كلُّ ما أُعْجِل عن إدراكه، تقول: فطرْتُ العجينَ، وهو

أن تَعجِنَهُ ثم تختَبِزَه من ساعَتِه . والدَّبَرِى : الذى يسنَح بعد الفَوْتِ يقال : شرُّ الرأى الدَّبَرِىّ ، وهو الذى يَسْنَحُ أخيراً عِند فوْتِ الحاجَة ، أى أنّ شرَّه إذا أدْبَرَ الأمرُ وفات ، ومن ذا قولهم : عَرَف الأمرَ تدَبُّراً ، أى بأَخَرَة قال جرير :

ولا تتَّقون الشَّرَّ حتى يصيبَكم   ولا تعرفون الأمر إلا تدبُّرا

ويقال : إن فُلاناً لو استقبَل من أمرِه ما استَدْبَرَه لَهُدى لِوِجْهَة أمرِه ، أى لو علم فى بدْءِ أمْرِه ما علِمَه فى آخِرِه لاسْتَرْشَد لأمره »

وكان عامِرُ بنُ الظَّرِب حكيمُ العرب يقول : دعوا الرأى يَغِب حتى يختَمِر ، وإياكم والرأىَ الفطير ! يريد الأناة فى الرأى والتثُّبتَ فيه

وقال الشعبى — عامر بن شراحيل — : أصابَ مُتأَمِّلٌ أوكاد ، وأخطأ مُسْتَعْجِلٌ أو كاد « المُتأمِّل : المُتَثَبِّت تقول : تأمل فلان : إذا تثبَّت ونظر فى الأمر »

وقال شاعر :

تأنَّ وشاوِرْ فإن الامو   رَ منها مُضِىءٌ ومُسْتَغْمِضُ

فرأيانِ أفضَلُ من واحد   ورأىُ الثلاثَة لا يُنقَضُ

وقال المتنبي :

الرأىُ قَبلَ شجاعةِ الشجْعانِ   هو أوّلٌ وَهْىَ المحلُّ الثانى

فإذا هما اجتَمَعا لنفسٍ مُرةٍ   بَلَغَتْ من العَلْياءِ كُلَّ مكانِ (١)

ولَرُبَّما طَعَن الفَتى أقْرانَهُ   بالرأىِ قبلَ تطاعُنِ الأقرانِ

---

(١) لنفس مرة : من المرارة ، وتروى مرة بكسر الميم : القوة والشدة ، وأصل المرة إحكام الفتل يقال : أمرّ الحبل إمرارا ، وتروى : حرة

لولا العقولُ لكان أدنَى ضَيْغمٍ أدنى إلى شرف من الإنسانِ (١)

ولما تفاضلتِ العقولُ ودَبَّرَتْ أيْدِى الكُماةِ عَوالِىَ المُرَّانِ (٢)

وفى الأثر : ما دخَل الرفقُ فى شىء إلا زانه ، ولا الخُرق إلا شانه .

وقال القطامى :

قد يُدْرِكُ المُتأَنِّى بعْضَ حاجتِه وقد يكونُ مع المُسْتعْجِلِ الزَّلَلُ

وقال :

وخيرُ الأمرِ ما اسْتقْبلْتَ منه وليس بأن تَتَبَّعَهُ اتِّباعا (٣)

وقبله :

ومعصية الشَّفيقِ عليك مما يَزيدُك مرة منه اسْتِماعا (٤)

مدح العجلة وانتهاز الفرص

وهناك من الخطوب ما تُمدَحُ فيه العَجَلة :

قيل لأبى العَيناء : لا تَعْجَلْ فالعَجلةُ من الشيطان ! فقال : لو كان ذلك كذلك لما قال نبىُّ الله موسى « وعَجِلْتُ إليك رَبِّ لِتَرْضَى »

وقال معاوية : مامِن شىءٍ يَعْدِلُ التثَبُّتَ ! فقال الأحنف بن قيس : إلا أن تُبادِرَ بالعملِ الصالحِ أجَلك ...

(١و٢) الضيغم : الأسد والمراد بأدنى ضيغم : أدون وأخس ، وأدنى إلى شرف : أقرب ، والعوالى : صدور الرماح ، والمران : الرماح اللينة ، والكماة جمع كمى وهو البطل المشتمل بالسلاح

(٣) يقول : خير الأمر ما قد تدبرت أوله فعرفت إلام تؤول عاقبته ، وشره ماترك النظر فى أوله ، وتتبعت أواخره بالنظر

(٤) يقول : اذا عصيت الشفيق عليك الحريص على رشدك تبينت فى عواقب أمرك الزلل فزادك حرصاً على أن تقبل نصحه .

وقالوا: المتأنِّي في علاجِ الدَّاء، بعد أنْ عرف الدواء، كالمتأني في إطفاء النار وقد أخذت بحَواشي ثيابِه ...

وسأل أبو عليّ البصيرُ بعضَ الأمراء حاجة: فقال له: رُحْ إلى وقتِ العصْرِ، فجاء وقتَ الظُّهر، فقال: ألم أعِدْكَ وقتَ العصر؟ فقال: نعم، ولكن رأيتُ الإفراطَ في الاستظْهارِ أحْمَدَ من الاستظهارِ في التواني ... «والاستظهار هنا معناه: الاحتياط والاستيثاق»

ومن قولهم في انتهاز الفرص: الهَيْبة خَيْبة والفُرصة تمُرُّ مَرَّ السحاب... وقالوا: انْتَهِز الفُرصة قبل أن تعودَ غُصَّة. وقالوا: الافتراصُ اقْتِناص ...

عبقريات شتى في المشورة

قال عبد الله بنُ معاويةَ بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب — شاعر ضخم أدرك الدولة العباسية — :

إذا كنتَ في حاجةٍ مُرْسِلا ... فأَرسِلْ حكيما ولا تُوصِه
وإنْ بابُ أمرٍ عليك التوَى ... فشاوِرْ لَبيباً ولا تَعْصِه
ولا تَنطِقِ الدهرَ في مجلسٍ ... حديثا إذا أنتَ لم تُحْصِه
ونُصَّ الحديثَ الى أهلِه ... فإنَّ الوثيقةَ في نَصِّه [1]
وإنْ ناصحٌ منك يوماً دَنا ... فلا تَنْأَ عنه ولا تُقْصِه
وكم من فتًى شاخص عقلُه ... وقد تَعجَبُ العينُ من شخصِه
وآخَرَ تحسَبُه جاهلا ... ويأتيك بالأمرِ من فَصِّه [2]

(١) نص الحديث: رفعه وأسنده؛ والوثيقة في الأمر: إحكامه والأخذ بالثقة
(٢) فص الأمر: أصله وحقيقته تقول: أنا آتيك بالأمر من فصه، يعني: من مخرجه الذي قد خرج منه

وقال ابنُ المقفَّع : لا يُقْذَفَنَّ فى رُوعِكَ أنك إذا اسْتَشَرْتَ الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأى غيرك فتنقَطِعَ بذلك عن المشورة ، فإنك لاتريد الرأى للفخْرِ ولكن للانتفاع به ، ولو أنك أردْت الذكر لكان أحسَنُ الذِّكر عند الألبَّاءِ أن يُقال : لا ينفَرِدُ برأيه دون ذوِى الرأى من إخوانِهِ ...

ولما سار سيدنا رسول الله إلى قُريشٍ فى غَزاة بدْر نزل صلى الله عليه وسلم أدْنى ماءٍ من مياه بدْر ، فقال له الحبَاب بنُ المُنْذِر : يارسول الله ، أرأيت هذا المنزل أمنزِلٌ أنزلَكَهُ اللهُ عز وجل ليس لنا أن نتقدَّمه ولا أن نتأخر عنه ، أم هو الرأىُ والحربُ والمكيدة ؟ قال : « بل هو الرأىُ والحربُ والمكيدة » ؛ فقال : يارسول الله ، فإن هذا ليس لك بمنزل ، فانهضْ بالناس حتى نأتىَ أدْنى ماءٍ من مياهِ القوم فننزلَه ، ثم نُعَوِّرَ [1] ما سواهُ من القُلُبِ ، ثمَّ نبْنِىَ عليه حوْضاً فنمْلأهُ ماءً ، ثمَّ نُقاتِلَ القومَ فنَشْرَب ولا يشْرَبوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقدْ أشرْتَ بالرأى » وفعلَ ما أشارَ به الحُبَاب .

وفى حديث أبى هريرةَ : مارأيتُ أحداً أكثر مشورة لأصحابه من النبي صلى الله عليه وسلم ... « أقول : وإنما كان يشاوِرُهم — كما قال علماؤُنا — فيما ليس فيه نصٌّ ، وفى أمور الدنيا ، ومن ظنَّ أنَّهُ كان يشاورُهم فى الأحكام فقد غفل غفلةً عظيمة كما قال الأئمة ، وكذلك إنما كانت المشاورة قبل العزم والتبيُّنُ ، فإذا عزم الرسول لم يكن لِبَشرٍ التَّقدُّمُ على الله ورسوله ، قال العلماء : فلقد شاورَ النبي أصحابه يوم أُحدٍ فى المُقام

(١) عور الركية : كبسها بالتراب حتى تنسد عيونها

والخروج ، فرأوا له الخروج ، وكان صلوات الله عليه يرى أن يُقيمَ بالمدينة فيقاتلهم فيها ، فما زالوا برسول الله حتى لبِسَ لأمْتَه (١) فلما لبِسها نَدِموا وقالوا : يارسول الله أقِمْ فالرأىُ رأيك ، فلم يَمِلْ إليهم بعد العزم وقال : لا ينبَغِى لنبي يلبس لأمْتَه أن يضعها حتى يحكُمَ الله ... وكذلك كان الخلفاء الراشدون يستَشِيرون الأُمناءَ من أهلِ العلم فى الأمور التى لم يكن فيها نَصٌّ بحُكمٍ مُعَيَّنٍ ليأخُذوا بأيْسَرها ، فإذا وَضَحَ الكتابُ والسنة لم يتعدَّوه إلى غيره ، فقد كان أبو بكر رضى الله عنه إذا ورَد عليه أمرٌ نَظر فإن وجد فى كتاب الله أو سُنّةِ رسوله ما يَقْضِى به قضى وإلا دعا رؤس المسلمين وعلماءَهم واستشارهم ، وكذلك كان يفعل الفاروق وسائر الخلفاءِ رضى الله عن الجميع »

قالوا : وكانت الرومُ والفُرْسُ لايجمعون وُزراءهم على الأمْرِ يستشيرون فيه ، وإنما كانو يسْتَشِيرون الواحِدَ مِنْهم من غير أن يعلمَ الآخرُ به : وذلك لمَعانٍ : مِنْها أن لايقعَ بين المُستَشارينَ مُنافَسةٌ تذهب بأصالةِ الرأيِ وصحةِ النظر ، لأن من طِباع المشتركين فى الأمر التنافُسَ والتغالُبَ والطَّعنَ من بعضِهِمْ على بعْض ، ورُبما أشار أحدُهم بالرأى الصواب وسبق إليه لحسده الآخرون فتعقَّبُوه بالإعراض والتأويل والتَّهجين وكدروه وأفسدو ومنها أن فى اجتماعهم على المشورة تعريضَ السر للإضاعة والإفشاء والإذاعة ولذلك قالت الفُرْس : إنما يُرَاد الاجتماع والكثْرَةُ والتناصُرُ فى الأمور التى يُحتاج فيها إلى القوة ، أما الأمورُ الغامضة فإن الاجتماعَ يُفسِدُها ويُوَلِّدُ فيها التضاغُنَ والتَّنافُس ...

وجاء فى كتاب للهند : أنَّ ملكا استشارَ وُزراء له ، فقال أحدُهم :

---

(١) أداة الحرب من درع وبيضة وغيرهما من السلاح

الملك الحازمُ يزدادُ برأيِ الوزراء الحزَمَةِ كما يزدادُ البحرُ بموادِّه من الأنهار وينال بالحزْم والرأى ما لا يناله بالقوة والجنود ؛ وللأسرار منازلُ : منها ما يدْخلُ الرهْطُ فيه ، ومنها ما يُستعان فيه بقوم ، ومنها ما يُستَغْنَى فيه بواحد وفى تحصين السر الظّفر بالحاجة والسلامةُ من الخَلل ، والمُستشير وإن كان أفضلَ رأياً من المُشير فإنه يزداد برأيه رأيا كما تزداد النارُ بالسّليط ضَوْءاً (١) ؛ وإن كان الملِكُ مُحصِّناً لسِرِّه بعيداً من أن يُعرَف ما فى نفْسه مُتَخَيِّراً للوُزَراء مَهيباً فى أنفُس العامّةِ كافياً بحُسْن البلاء لا يخافُهُ البرىء ولا يأمَنُه المُريب مُقدِّراً لما يُفيد وينفِق ، كان خليقاً لبقاءِ مُلكه . ولا يصْلُح لسِرِّنا هذا إلا لسانان وأربعُ آذانٍ . ثم خلا به ...

✿ ✿ ✿

(وبعد) فإن دولة الاستبداد قد أُديل منها فى هذه الأجيال وشال أمرها فى الميزان ، ورجَحت كِفّةُ الشورى ونفقَت سُوقها ، وخطَت فى عصرنا هذا خُطُوَاتٍ رغيبةً مُوَفَّقَةً ، وعمّت أكثر الأمم التى أعْرَقت فى الحضارة ، وظهر أن مجالسَ الشورى على عِلاتها هى خَيرُ ألوان الحُكم ، ومَن الذى يقول إن الاستبداد أو الحكم المطلق الذى لا رِقبة عليه هو أفضل من الشورى أيًّا كان لونُها ! اللهم إلا رَجُلٌ أحمق مأفون ليس بثاقب الرأى ، وإذا كانت الشورى لا تعرى من العيوب فأين لا أين الخير مَحْضاً والكمال صرفاً ...

---

(١) السليط : الزيت والمراد زيت المصباح

عبقرياتهم فى الوعظ
والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

ومما يتصل بهذا الباب عبقرياتهم فى الوَعْظ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فلنورد لك صدراً من ذلك إن شاء الله

نهى من لم يتعظ عن الوعظ

قال رجلٌ لعلىٍّ بن أبى طالب رضى الله عنه : عِظْنِي وأَوْجِزْ ، فقال : تَوَقَّ ما تَعِيب .

وجاء رجل إلى عبد الله بن عباس رضى الله عنه فقال : إنِّى أُريد أن أَعِظ ، فقال : أَوَ بَلَغْتَ ذلك ! إن لم تخْشَ أن تفْتَضِح بثلاث آياتٍ من كتاب الله فافْعَلْ ، قال : ماهى ؟ قال : قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون ! كَبُرَ مَقْتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون» وقوله تعالى : « أتأمرون الناس بالبرِّ وتَنْسَوْنَ أنفُسَكُمْ » ، وقول العبد الصالح شُعيب « ما أُريد أن أُخالِفَكُمْ إلى ما أنهاكم عنه » أأَحْكَمْتَ هذه الآيات ؟ قال : لا ، قال : فابدأ إذن بنفسك .

وقال شاعر :

يا واعِظَ الناسِ قد أصبَحْتَ مُتَّهَماً إذْ عِبْتَ منهم أموراً أنت تأتيها
كَمَنْ كسا الناس مِن عُرْيٍ وعورَتُهُ للناسِ بادِيَةٌ ما إنْ يُوَارِيها

حثهم على الوعظ بالفعال دون المقال

قال بعضهم : ليس الحكيم الذى يُلقِّنُك الحِكمة تلقينا ؛ إنما الحكيم

الذى يعملُ العَمَل الحكيم فتقْتَدِى به .

وقال آخر : أَخْذُ المرءِ نَفسَه بحُسْنِ الأدب تأديبٌ لأهله .

ومن هذا يقول محمود الورّاق :

رأيتُ صلاحَ المرْءِ يُصْلِحُ أهلَهُ ويُعْدِيهِمُ داءُ الفسادِ إذا فَسَدْ

التلطف واللين فى الوعظ

تَصَدَّى رجل للرشيد فقال : إنِّى أُرِيد أن أُغْلِظَ عليك فى المقال ، فهل أنت مُحْتَمِل ؟ قال : لا ؛ لأن الله تعالى أرْسل من هو خيْرٌ مِنْكَ إلى من كان شَرًّا منى ، وأمره باللِّين ، فقال تعالى : « فقولا له قولا ليِّناً لعَلَّهُ يتَذَكَّرُ أوْ يَخْشَى »

وقالوا : واجِبُ مَن يَعِظُ أن لا يَعْنُفَ ، ومَن يُوعَظُ أن لا يأنَف

الحث على الاتعاظ

قالوا : السعيد من وُعِظ بغيره والشَّقِيُّ من وُعِظ به غيره . وقالوا : مَن لم يتّعظ بغيره وعَظ الله به غيره .

وعظ من لا يتعظ

قالوا : لا يَنْجَحُ الوعظُ فى القلوب القاسية ، كما لا يزكو البذر فى الأرض الجاسية .

وقالوا : صَقْلُكَ سيفاً ليس له سِنْخٌ[1] تعَب ، وبَذْرُكَ أرْضاً سَبِخة نَصَب .

---

(١) السنخ : الاصل من كل شىء . تقول : رجع فلان إلى سنخه الكريم وإلى سنخه الخبيث

وقالوا : من استثقل سماع الحق فهو للعمل به أكثر استثقالا ...

حثهم على قبول وعظ من ليس بمتعظ

قالوا : لا يمنعنكم سوء ما تعلمون عنا أن تعملوا بأحسن ما تسمعون منا .

وورد فى الأثر : مُرُوا بالمعروف وإن لم تعملوا به، وانهَوْا عن المنكر وإنْ لم تنتهُوا عنه :

وقال الحسنُ البَصْرِىُّ يوماً لبعض الصالحين : عِظْ أصحابَك ، فقال له : إنى أخاف أن أقول مالا أفعلُ ، فقال له : يَرْحَمُك الله ، وأيُّنا يقول ما يفعل ! يوَدُّ الشيطانُ أنه ظَفِرَ بهذه منكم فلم يأمر أحدٌ بمعروف ولم يَنْهَ عن مُنْكر ...

النهى عن الاقتداء بذوى الزلات

قال بعض العلماء : إياك والاقتداءَ بزَلَّاتِ أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فتقول: فلانٌ شَرِب النبيذ ، وفلان سمع الغِناء ، وفلانٌ لعب بالشَّطْرَنج فيخرُجَ منك فاسِقٌ تامّ ... وقالوا : من أخذ برُخْصةِ كلِّ فقيه خَرج منه فاسق ...

الحث على الأمر بالمعروف والحال التى يجوز فيها

قال الله تعالى : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدعُون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المُنكر وأولئك هم المُفلحون »[1]

(١) قال الإمام البيضاوى فى تفسيره : مِن فى منكم للتبعيض لأن الأمر

وقال سيدنا رسول الله : «مَن رأى منكم منكراً واستطاع أن يُغَيِّرَه بيده فليُغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعفُ الإيمان .

وفى الأثر : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده عمَّهم الله بعقابه .

وأما قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسَكم لا يضُرُّكم مَن ضلَّ إذا اهتديتم » فقد قال الإمام البيضاوى : قوله : عليكم أنفسَكم ، أى احفظوها والزموا إصلاحَها ، ولا يضركم ... الآية : أى لا يُضرُّكم الضلال إذا كنتم مُهتدين ، قال : ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته ، وقال : نزلت هذه الآية لمّا كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة ويتمنَّون إيمانهم ، وقيل كان الرجل إذا أسلم قالوا له : سَفَّهْتَ آباءَك ، فنزلت »

وقال الراغب الأصبهانى : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلوات الله عليه : ائتمروا بالمعروف وتناهَوا عن المنكر ، وإذا رأيت شُحّاً مُطاعاً وهَوًى مُتَّبعاً وإعجابَ كلِّ امرئٍ برأيِه فعليك بخُوَيْصَّةِ نفسِكَ

بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفاية ، ولأنه لا يصلح له كل أحد إذ للمتصدى له شروط لا يشترك فيها جميع الأمة ، كالعلم بالأحكام ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها والتمكن من القيام بها ، خاطب الجميع وطلب فعل بعضهم ليدل على أنه واجب على الكل حتى لو تركوه رأساً أثموا جميعاً ، ولكن يسقط بفعل بعضهم ، وهكذا كل ماهو فرض كفاية ثم قال : والدعاء إلى الخير يعم الدعاء إلى مافيه صلاح دينى أودنيوى ، وعطف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عليه عطف الخاص على العام للإيذان بفضله

ودَعْ أمرَ العَوامّ [١] ، ثم قال الراغب : وقال أكثر المتكلمين : لا يجوز ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى كلّ موضع ، لكن مَن علم أوظن أنّ قوله يَنْفُذُ وأن لا يناله مكروه إذا أمرَ أو نهى فعليه أن يفعل ذلك ، ومتى خافَ على نفسه فعليه أن يُنكِرَ المنكر بقلبه دون لسانه ...

---

(١) خويصة : تصغير خاصة بسكون الياء لأن ياء التصغير لاتكون إلا ساكنة وجوز التقاء الساكنين فيها أن الأول حرف لين والثانى مدغم ، وعليك بخويصة نفسك : جاهد نفسك وانكمش فى الأعمال الصالحة ، ثم قال : ودع أمر العوام يريد : دع السواد الأعظم فيما هم فيه سادرون

الباب الخامس

فى

الحلم وكظم الغيظ

والعفو والغضب والانتقام

وما إلى هذه المعانى

والحلم كذلك لونٌ من ألوان الصبر ، أليس هو تجرُّع الغيظ أو إمساكَ النفس عن ثورةِ الغضب وهيْجِه وانبعاثه ؛ وهو فضيلة عليا ما يُلقَّاها إلا الذين صبروا وما يُلقَّاها إلا ذو حظٍ عظيم[1] ومن كلام النُّبوَّة : كادَ الحليم أن يكون نبيًّا . وهو نِتاجُ العقل والأناة ، أو قلْ : إنه هما . قال عَزَّ وَجلَّ يَذُمُّ الكفَّار مُتَعَجِّباً منهم : « أمْ تأمُرُهم أحلامُهم بهذا ! »

وسأل عليٌّ رضى الله عنه كبيرَ فارِسَ عن الغالبِ كان على كِسْرَى أنو شروان ؛ قال : الحلم والأناة ، قال : هما توأمانِ يَنْتِجهما عُلُوُّ الهمة

وقال الشاعر :

لَنْ يُدْرِكَ المَجْدَ أقْوَامٌ وإن كرُمُوا
حتى يَذِلُّوا — وإن عزُّوا — لأقوام
ويُشْتَمُوا فترى الألوانَ مُسْفِرةً لاصفحَ ذُلٍ ولكن صَفْحَ أحلام[2]

---

(١) آية كريمة هى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم

(٢) مسفرة : مشرقة مضيئة سرورا

قالوا : ولن يَتِمَّ حِلمُ الإنسانِ إلا بإمساكِ الجوارح كلِّها : اليدِ عن البَطْشِ ، واللسان عن الفُحْش ، والعينِ عن النظَر الشَّزْر ، وأقربُ لفظ يقابل الحِلم هو التذمُّرُ . وقال أبو هلالِ العسكرى : ومِنْ أشرفِ نُعُوتِ الإنسان أن يُدْعى حليما ، لأنه لا يُدْعَاه حتى يكون عاقلا وعالما ومُصْطَبِراً وعَفوًّا وصافحاً ومحتملا وكاظما ، وهذه شرائف الأخلاق وكرائم السجايا والخصال .

والحلمُ : منه ماهو غريزىٌّ ، وهو هبَةٌ من الله لعبده يَعْفُو عمَّن ظلَمه ، ويَصِلُ مَنْ قطَعَه ، ويُحْسِنُ إلى مَن أساء إليه ، يَصْدُرُ فى ذلك عن نحيزة كريمة وغريزة سليمة وصدْرٍ سالِم من الغوائل والأذى ، صافٍ من شوائب الكدر والقَذَى ، وهذا هو الحلم الذى لا يُستطاعُ تعلما ولا يُكتَسَبُ تحلماً :

وإذا الحِلْمُ لم يكن فى طِباعٍ   لم يُحَلِّم تقادُم الميلاد   [المتنبي]

رُوى أن سيدَنا رسولَ الله قال لأَشَجِّ عبد القَيْس : يا أبا المنذِر ، إنَّ فيك خَصْلتَيْنِ يرضاهما اللهُ ورسولُه : الحلمُ والأناةُ ، فقال : يارسولَ الله ، أشىءٌ جبَلَنى اللهُ عليه أم شىء اخترعْتُه من قِبَل نفسى ؟ قال : « بل شىء جبلك الله عليه » قال : الحمد لله الذى جَبَلَنى على خُلُقٍ يرضاه اللهُ ورسوله .

وهناك من يقولُ : إن الحِلمَ ليس غريزةً ولا طبيعةً بل مُكْتَسَبٌ مستفاد . وأيا كان الحال فليس من يُنكِر أن من الحلم ماهو غريزىٌّ كما قلنا ، كما أن هناك حِلْماً يُكتَسَبُ بالتَّحلُّم كما أن العلمَ بالتعلم

قال حاتم :

تحلَّمْ عن الأدْنَيْنَ واستَبْقِ وُدَّهم   فلن تستطيعَ الحِلمَ حتى تحلَّما

يُروَى أنه كان عند جعفرٍ الصادِق رضى الله عنه عبْدٌ سيِّئُ الخُلق ، فقيل له : أما تأنَفُ مثل هذا عندك وأنْتَ قادرٌ على الاستبدال به ؟ فقال :

إنما أتركه لأتعلّم عليه الحلم...

وقال الشاعر:

وليس يَتِمُّ الحلمُ للمرءِ راضِياً إذا هو عند السُّخْطِ لمْ يَتَحلَّمِ

كما لا يَتِمُّ الجُودُ للمرءِ مُوسِرًا إذا هو عند القَتْرِ لمْ يَتَحشَّمِ

[يتحشم: يَتذمّم ويَستحى]

وهناك حلم حادث عن الكِبْر والعَجرفة، لا يَرى المُسيءَ أهْلا أن يُجارِيَه، كما أن هناك حِلمَ مَهانةٍ وذِلة وعجز وضَعْف نفس وصِغر همّة

الممدوح بالحلم وتمدّحهم به

قال مِهيار الديلمى:

وإذا الإباءُ المرُّ قال لكَ: انتَقِمْ قالت خَلائِقُكَ الكرامُ: بلِ آحْلُمِ

شَرْعٌ منَ العَفْوِ انفَرَدْتَ بدِينِه وفضيلةٌ لِسواكَ لم تتقدّمِ

حتى لقد وَدَّ البرِيءُ لوَ آنهُ أدْلَى إليك بفضْلِ جاهِ المُجْرِمِ

وقال بعضُهم:

فدَهْرَهُ يَصْفَحُ عن قُدْرَةٍ ويَغفِرُ الذَّنْبَ على عِلْمِهِ

كأنه يأنَفُ من أن يَرَى ذنبَ امرئٍ أعظمَ من حِلْمِهِ

وقال المتنبي:

وأحْلُمُ عن خِلِّي وأعلمُ أنَّهُ متى أجْزِه حلماً على الجَهْلِ يَنْدَمِ

وقال سالم بن وابِصة [1]:

---

(١) شاعر إسلامى تابعى، وهو صاحب هذه الأبيات: ـ وهى من أبيات الحماسة

أُحِبُّ الفتى يَنْفِي الفواحشَ سَمْعُه كأنَّ به عن كلِّ فاحشة وَقْرا

ونَيْرَبٍ من مَوَالِي السُّوءِ ذي حَسَدٍ ... يَقْتَاتُ لحمي وما يَشفيه من قَرَمِ (١)

داوَيْتُ صَدراً طويلا غِمْرُه حَقِداً ... منه وقَلَّمْتُ أظفاراً بلا جَلَمِ (٢)

بالحزمِ والخيرِ أُسْديه وأُلْحِمُهُ ... تَقْوَى الإلهِ وما لم يَرْعَ من رَحِمِ (٣)

فأَصبَحَتْ قوسُـهُ دوني مُوتَّرةً ... تَرمِي عدُوِّي جِهاراً غيرَ مُكْتَتِمِ (٤)

وإنّ في الحلم ذُلاً أنتَ عارِفُه ... والحلمُ عن قُدْرةٍ فَضلٌ من الكَرَمِ

وقال مَعْنُ بنُ أَوْس المُزَني : (٥)

وذِي رَحِمٍ قَلَّمْتُ أظفارَ ضِغْنِه ... بحِلْميَ عنه وهْو ليس له حِلْمُ

سَليمُ دواعي الصَّدْرِ لا باسِطاً أذًى ... ولا مانعاً خيراً ولا قائلاً هُجْرا

إذا شئت أن تُدْعَى كريماً مُكرَّماً ... أديباً ظريفاً عاقلا ماجداً حُرا

إذا ما أتتْ من صاحبٍ لك زَلّةٌ ... فكنْ أنت مُحْتالا لِزَلَّتِه عُذرا

غِنى النفسِ ما يَكْفِيك من سَدّ خَلّةٍ ... فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فَقْرا

(١) النيرب : الشر والنميمة ، أراد : وذى نيرب، والقرم : شدة الشهوة إلى اللحم يقول : رب ذى نيرب حسود من موالى السوء يغتابنى ويأكل لحمى ولا يشفيه ذلك من قرم ، ويقتات : يفتعل من القوت .

(٢) الغمر : الحقد والغل ، والجلم : أحد شقى المقراض وإنما هما جلمان يقول : صابرته على مداجاته وانطوائه على حقدى فدفعت شره عن نفسى بطول مداراتى . وحقدا : أى حاقدا وداويت صدره: أى مكنون صدره

(٣) بالحزم متعلق بداويت أو قلمت وقوله : تقوى الإله يرجع إلى أسديه، وما لم يرع من رحم : يرجع إلى ألحمه

(٤) يقول : مازلت أتلطف وأصلح الأمر الفاسد بالرفق قليلا قليلا حتى صار يقاتل عدوى مجاهرة بعد أن كان يعادينى مكاشرة

(٥) شاعر فحل من مخضرمى الجاهلية والإسلام وأبياته هذه من أبيات له طويلة تراها فى الأمالى ج ٢

يُحاوِلُ رَغْمى لا يُحاولُ غيرَه وكالموتِ عندى أنْ يَحُلَّ به الرَّغْمُ[(١)]
ويَشتِمُ عِرْضى فى المُغيَّبِ جاهداً وليس له عندى هَوانٌ ولا شَتْمُ
إذا سُمْتُهُ وصْلَ القرابةِ سامَنى قطيعتَها ، تلك السَّفاهةُ والإِثْمُ
فما زِلْتُ فى لِيـنى له وتعطُّفى عليه كما تحْنُو على الولَدِ الأُمُّ
وصَبْرى على أشياءَ منه تَرِيبُنى
وكَظْمى على غَيْظى وقد يَنْفعُ الكَظْمُ[(٢)]
لأَسْتَلَّ منه الضِّغْنَ حتى اسْتَلَلْتُه وقد كان ذا ضِغْنٍ يَضِيقُ به الحَزْمُ
فداوَيْتُه حتى ارْفأَنَّ نِفارُه فعُدْنا كأنَّا لم يكن بيننا صَرْمُ[(٣)]
وأطفأْتُ نارَ الحرْبِ بينى وبينَه فأَصبحَ بعدَ الحربِ وهْو لنا سَلْمُ

وقال شاعر :

لقد أَسمعُ القولَ الذى هو كلما تُذكِّرُنيه النَّفْسُ قلبى يُصَدَّعُ
فأُبْدِى لمَنْ أبْداهُ مِنى بشاشةً كأنِّىَ مسرورٌ بما منه أسْمَعُ
وما ذاك من عَجْزٍ به غيرَ أنَّنى أرى أنَّ تَرْكَ الشَّرِّ للشرِّ أَدْفَعُ

فضل كظم الغيظ

يقال : كَظَم الرجل غيْظه يكظِمه كظْما : رَدَّهُ وحَبَسه وتجرَّعه . قال تعالى : «والكاظِمين الغَيْظ » قال بعض اللغويين : يعنى أعدّت الجنة للذين جرى ذكرهم وللذين يكظمون الغيظ »

---

(١) الرغم : الذل والقسر
(٢) رابه فلان وأرابه : إذا رأى منه مايكره
(٣) ارفأنّ : سكن مأخوذ من رفأ الثوب : لأم خرقه وضمّ بعضه إلى بعض

وفى الحديث : « مامن جُرعة يَتجرّعُها الإنسانُ أعظمَ أجراً من جُرعةِ غيظ فى الله عز وجل »

وقالوا : الكظْمُ يَدْفعُ محذورَ النَّدم ، كالماء يُطْفِئُ حَرَّ الضَّرَم

وقال بعضهم : كظْمٌ يَتردَّد فى حَلْقى أحبُّ إلىَّ من نقْصٍ أجِدُهُ فى خُلُقى .

وقال : ✲ وأفضلُ حِلْمٍ حِسْبةً حِلمُ مُغْضَبِ ✲

وقال مُعاوِيةُ : ما وَجدْتُ لذّةً هى عندى ألذ من غيظٍ أتجرَّعُه وسَفَه بحِلم أقْمَعُهُ . وقال لابنِه يزيدَ : عليك بالحلم والاحتمال حتى تُمكِنَكَ الفُرْصةُ فإذا أمكَنَتْكَ فعليك بالصَّفْح ، فإنه يَدْفعُ عنك مُعْضِلات الأمور ، ويَقِيك مصارِعَ المحذور

الغضب وألوانه
وما يسكن به ثورانه

قال الراغب : مَثَلُ الغضبِ مثَلُ نارٍ ما يَشْتعِلُ ، والناس فيه مختلفون ، فبعضُهم كالحَلْفاء[1] سريعُ الوُقود سريع الخُمُود ، وبعضهم كالغَضا[2] بطىء الوُقود بطىء الخُمود ، وبعضهم سريع الوُقود بطىء الخُمود ، وبعضهم على العكس من ذلك ، وهو أحْمَدُهم ، ما لم يؤدِّ بِه ذلك إلى زوال حَمِيّته ، وفُقْدان غَيْرَته . واختلاف الناس فى الغضب قد يكون مَرَدُّه اختلافَ الأمزجة ، وقد يكون

(١) الحلفاء : نبت أطرافه محددة كأنها سعف النخل والخوص : ينبت فى مغايض المياه .

(٢) الغضا : شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب وجمره يبقى زمناً طويلا لا ينطفئ الواحدة منه غضاة .

العادة ، إذ من الناس من اعتاد السكون والهدوء من جرّاء إلفِهِ الذلَّ والانقيادَ والاستخذاء ، ومنهم من تعوّد الطيش والانزعاجَ فيحتدُّ من أدنى ما يُلمّ به ، مَثَله مثلُ كلب يسمع صوتاً فيَنبح قبل أن يَعرِف مصدرَه : وأكثر الناس غضباً الصبيانُ والنساء ، وأكثرُهم ضجَراً الشيوخ ، وأجل الناس شجاعةً وأفضلُهم مجاهدةً وأعظمهم قوةً من كظَم الغيظ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس الشديدُ بالصُّرَعة ، إنما الشديدُ الذى يملِكُ نفسَه عند الغضب ، ومرّ صلوات الله عليه بقوم يرفَعون حجَراً فقال : (ألا أُخْبِرُكم بأشدّكم ؟ : من ملَكَ نفسَه عند الغضب) واعلمْ أنّ نارَ الغضب متى كانت عنيفةً تأجّجَتْ واضطرمت واحتدّ غَلَيانُ الدّم فى القلب وامتلأت الشرايينُ والدماغُ دُخاناً مُظلماً يَسوءُ منه حالُ العقل ويَضْعُفُ فِعلُه . وكما أن الكهْفَ الضيق إذا امتلأ حَريقاً واختنَقَ فيه اللّهَبُ والدُّخان وعلا الأجيج صَعُبَ علاجُه وإطفاؤه ، وصار كل ما يدْنُو منه مادّةً لقوّتِه ، كذلك النفْسُ إذا اشتعلت غضباً عَمِيت عن الرشدِ وصَمّت عن الموعظة حتى تصيرَ المواعظ مادّةً لغضَبِها ، وربما أدّى الغضبُ إلى تلَف ، وهو اختناقُ الحرارة فى القلب الأمرُ الذى قد يكون سبباً لأمراضٍ مُسْتعْصِيةٍ تُؤدّى إلى التلف ؛ ثم قال وحقٌّ من يعتريه الغضبُ أن يُفكِّر ، فإن كان المغضوبُ عليه تحت يده فلا معنى لاستشاطتِه ؛ إذ هو متمكّنٌ من الانتقام منه مع سكون الجأش ، وإن كان غضبُه على من لا سبيلَ إليه فلا معنى لتعذيبه نفسَه فى الوقت وإنما الأخلقُ به أن يَصبِرَ حتى يتمكنَ منه ثم يفعلَ الواجب . قال حكيم : سُدَّ طريق الغَضَب قبل تلهُّب ناره فى لحمِك ودمِك فإنك إن لم تُطفِئْ نار الغضب

قبل انتشارها صعُب عليك إطفاؤها بعد أن تنتشر. وقال بعضُ الملوك لحكيم: كيف لى أن لاأغضب؟ فقال: بأن تكون كلَّ وقتٍ ذاكراً أنه يجب أن تُطيع لاأن تُطاع فقط، وأن تَخْدُم لا أن تُخدَم فقط، وأن تتحقق أن الله تعالى يراك دائما، فإذا فعلت ذلك لم تغضب وإن غضبت غضبت قليلا ...

وقالوا: مَن غضِب قائما فقعد سكَن غضبُه، وإن كان قاعداً فاضطجع سكَن.

وكانت العرب تقول: إنَّ الرَّثيئةَ تَفْثَأُ الغضب: « الرثيئة: اللبنُ الحامضُ يُصَبُّ عليه الحليب، وهو أطيبُ اللبن، وتَفْثأ الغضب: تُسكِّنه وتَكسِرُ حِدَّتَه »

وخطب معاويةُ يوماً فقال له رجلٌ: كذَبْتَ، فنزَل مُغْضَباً، فدخل منزلَه، ثم خرج عليهم تَقْطُرُ لحيتُه ماءً، فصعِد المنْبرَ فقال: أيها الناسُ، إن الغضبَ من الشيطان، وإن الشيطانَ من النار، فإذا غضِب أحدُكم فليُطْفِئه بالماء؛ ثم أخذ فى الموضع الذى بلغه من خُطْبتِه.

وفى الحديث: إن الغضبَ جَمْرةٌ تُوقَدُ فى جَوْفِ ابنِ آدمَ، ألم ترَوْا إلى حُمْرةِ عيْنيه وانتفاخ أوداجه ...

من اجتهد فى إغضابه فحلم

خاطَرَ رجلٌ آخرَ (١) على أن يُغْضِبَ الأحْنَفَ بنَ قيس، فجاء فخطب إليه أُمَّه، فقال: لسنا نردُّك انتقاصاً لحسَبك، ولا قِلّةَ رَغْبةٍ فى مُصاهَرتك ولكنها امرأةٌ قد علا سِنُّها، وأنت تحتاج إلى امرأة وَلُود وَدُود تأخذُ مِن خُلُقِك، وتَسْتَمِد من أدبِك؛ ارْجِع إلى قوْمك وأخبِرْهم أنك لم تُغْضِبْنى.

(١) يقال: خاطره على الأمر: راهنه عليه.

وخطب آخر إلى معاوية أُمّه : فقال . ما الذى رغّبك فيها وهى عجوزٌ؟ فقال . إنها عجوز عثايمةُ العَجُز ! فقال : لعلّك خاطرت على أن تُغضِب سَيِّدَ بنى تميم ؟ قال : نعم ، قال : آرْجع فلست بِه .

وشتَم رَجُلُ الأحنفَ وألحَّ عليه ، فلما فرَغ قال له : يابنَ أخى ، هل لك فى الغَداء ؟ فإنك مُنذ اليوم تحْدُو بجَمَلٍ ثَفَالٍ ... « الثفال : البَطىءُ الثَّقيلُ الذى لاينبَعِثُ إلا كَرْهاً »

ورُوِى أنّ رجلاً خاطَرَ آخر على أنْ يقُومَ إلى مُعَاوِيَةَ إذا سَجدَ فيَضعَ يدَه على كَفَلِه ويقول : سُبْحان الله ياأمير المؤْمِنِين ! ماأشْبَهَ عُجَيزَتك بعُجَيزةِ أُمّك هِند ! ففعل ذلك ، فلما انْفَتل مُعاوِيَةُ عن صلاتِه قال له : ياأخى ، إنّ أبا سُفْيانَ كان مُحتاجاً إلى ذلك مِنها ؛ فخذ ماجعَلوه لك ، فأخذه ثم خاطره آخر بعد ذلك أنْ يقومَ إلى زيادٍ وهو فى الخُطبَةِ فيقول : أيها الأمير مَنْ أُمّك ؟ ففعل ؛ فقال زياد : هذا يُخبِرُك — وأشارَ إلى صاحب الشُّرْطة — فقَدّمَهُ وضرَبَ عُنُقَهُ ، فلما بلغ ذلك مُعاوِيَةَ قال : ماقتَلَهُ غيرى ، ولو أدّبتُه على الأولى ماعاد إلى الثانية ...

وقيل للأحنَف : مِمّنْ تَعلّمْتَ الحِلْمَ ؟ قال : من قيس بن عاصِم المِنقَرِىّ ، رأيتُه قاعداً بفِناءِ داره مُحْتَبِياً بحمائِل سيفِه يُحَدِّثُ قومَه ، حتى أُتىَ بمكتُوفٍ ورَجُلٍ مقْتولٍ ، فقيل له : هذا ابنُ أخِيك قتَلَ ابنَك . قال : فوالله ماحلّ حُبْوَتَهُ ولا قَطع كلامه ، ثم التفت إلى ابنِ أخيه فقال : ياابن أخى أثِمتَ بربّك ، ورميت نفسك بسهمِك ، وقتلت ابنَ عمِّك ؛ ثم قال لابن له آخر : قُم يابُنَىّ فوارِ أخاك وحُلَّ كِتافَ ابن عمِّك وسُقْ إلى أُمّك

مِائة ناقة ديةَ ابنها فإنها غَريبة ، ثم اتّكأ على شِقِّهِ الأيسَر وقال :

إنّي امرؤٌ لا يعترى خُلُقِى دَنَسٌ يُفَنِّدُه ولا أَفْنُ (١)

مِن مِنْقَرٍ فى بيْتِ مَكْرُمَةٍ والفرْعُ يَنْبُتُ فوقه الغُصْنُ

خُطَباءُ حين يقولُ قائِلُهُم بِيضُ الوجوهِ أَعِفَّةٌ لُسْنُ

لا يَفطِنُونَ لِعَيْبِ جارِهِمُ وهُموا لِحفْظِ جِوارِه فُطْنُ

وأسمَع رجلٌ عُمرَ بنَ عبد العزيز بعضَ ما يَكره ، فقال : لا عليك إنما أردتَ أن يَسْتَفِزَّنى الشيطانُ بعِزِّ السلطان فأنالَ منك اليومَ ما تنالُهُ منِّى غداً ، انصرِفْ إذا شِئْت ...

وأمر محمدُ بنُ سليمانَ برجُلٍ أن يُطرَحَ من القصْر كان قد غضب عليه فقال الرجل: اتّقِ الله ، فقال : خَلُّوا سبيله ، فإنى كرهتُ أن أكون من الذين قال الله فيهم : « وإذا قيل له اتّقِ الله أخذَتْهُ العِزَّةُ بالإثْمِ »

حثهم على ترك الغضب

المؤدى إلى الاعتذار

قال حكيم : إياكَ وعِزَّةَ الغضب فإنها تصيرُ بِك إلى ذِلَّةِ الاعتذار

وقال شاعر :

متى تُرِدِ الشِّفاءَ لكُلِّ غيظٍ تكنْ مما يَغيظُكَ فى ازديادِ

---

(١) وروى هذا البيت أيضاً هكذا :

إنّى امرؤ لا يَطَّبى حسَبى دَنسٌ يُهَجِّنُه ولا أفْنُ

اطباه : دعاه ، والأفن : النقص ، ويفنده : يكذبه

حثهم على التصامم عن القبيح وتمدحهم بذلك

قال المهلَّبُ بنُ أبى صفرة : إذا سمع أحدُكم العوراءَ فَلْيُطَأْطِئْ لها تَتَخَطَّاهُ ... « العوراء : الكلمةُ القبيحة أوِ الفَعلَةُ القبيحة : ويقال للكلمة القبيحة عوراء ، وللكلمة الحسناء عيناء قال الشاعر :

وعَوْرَاءَ جاءت من أخٍ فرَدَدْتُها ... بِسالِمَةِ العَيْنَيْنِ طالِبَةً عُذرا

« بسالمة العينين : أى بكلمة حسناء لم تكن عَوْرَاء. وعُورَانُ الكلام : ما تَنْفِيه الأُذن قال :

وعوراء قد قِيلتْ فلمْ أسْتَمِعْها ... وما الكَلِمُ العُورانُ لى بقَتُولِ[1]

وقال حاتم طيئ :

وأَغفِرُ عَوْرَاءَ الكريم ادخارَهُ ... وأُعرِضُ عن شَتْمِ اللئيم تكرُّما[2]

وقال ابن عَنقاءَ الفزارى من أبيات يمدح بها ابنَ عمه عُمَيلةَ :

إذا قِيلَتِ العوراءُ أغضَى كأنه ... ذَليلٌ بِلا ذُلٍّ ولوشاءَ لانتَصَرْ

وقد تقدم هذا البيت مع أبيات أخرى له جميلة . »

حثهم على العفو مطلقا

قال الله جلّ شأنه : « وليَعْفُوا وليَصْفَحُوا ألا تُحِبُّونَ أن يغفِرَ الله لكم ، والله غفور رَحيم » ، وقال سبحانَه : « فمَنْ عَفا وأصلحَ فأجْرُهُ على الله » ،

(١) وصف الكلم بالعوران لأنه جمع وأخبر عنه بالقتول وهو واحد لأن الكلم يذكر ويؤنث وكذلك كل جمع لايفارق واحده إلا بالهاء

(٢) ادخاره : أى لادخاره

وقال عزَّ وتقدَّس : « وأن تعفوا أقْرَبُ للتقْوَى » ، وقال تعالى لِنَبيِّه : « خُـذِ العفو وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عن الجاهلين »... « خـذ العفو ، فالعفو : السهل المُيَسَّر والمعنى : احْتَمِلْ أخلاقَ الناس واقبَلْ مِنْها ما سَهُل وتيسَّر ولا تَسْتَقْصِ عليهم فيَسْتَقْصِى الله عليك مع ما فيه من العداوة والبغضاء، أقول : ولما حقَّق سيدنا رسول الله ما أدبه الله به قال سبحانه فى حقِّهِ : (وإنك لَعَلَى خُلُقٍ عظيم) »

وقال الأحنف بن قيس : إياك وحَمِيَّةَ الأوْغاد ، قيلَ : وما حَمِيَّتُهُم قال : يرَون العفو مغرَماً والتَّحَمُّلَ مَغْنَماً ... « التحمل هنا : الغضب وقد جاء فى بعض الروايات بدل التحمل : والبُخل »

وقيل لبعضهم : هل لك فى الإنصاف أو ماهو خيرٌ من الإنصاف ؟ فقال : وما هو خير من الإنصاف ؟ قال : العفو ...

وقالوا : العفو زكاةُ النفس

وقالوا العفوُ عنِ المُذْنِب من واجبات الكرم ...

وقالوا: لَذَةُ العفو أطْيَبُ من لَذَّةِ التَّشَفِّى ؛ لأن لذة العفو يلحَقُها حَمْدُ العاقبةِ ، ولَذَةُ التَشَفِّى يلْحَقُها ذمُّ الندم ... وقال الشاعر وقد نظم هذا المعنى :

لَذَةُ العفوِ إن نَظَرْتَ بعَيْنِ الـ ... ـعَدْلِ أشْفَى منْ لَذَّةِ الإنتِقَام
هـذه تكسِبُ المحامِدَ والأجْـ ... ـرَ وهـذه تجىءُ بالآثامِ

التحلم عن الخدم

نظر معاوية إلى ابنه يزيدَ وهو يضرب غلاماً له ، فقال له : أتُفسِدُ أدبَك بأدَبِه ! فلم يُرَ ضارباً غلاماً له بعد ذلك .

وقيل ليحيى بن خالد البرمكى : إنك لاتؤدِّبُ غلمانَك ولا تضْرِبهم !
قال : هم أُمَنَاؤنا على أنفُسِنا فإذا نحن أخفْناهم فكيف نأمَنُهم !

الرحمة ومدح ذويها

قالوا من كَرُمَ أصْلُه لان قلبُه
وقالوا : مِن أمارات الكرم : الرحمة ، ومن أمارات اللؤم : القسوة
« الكرم نقيض اللؤم »
وفى الحديث الشريف « ارْحَمْ مَنْ فى الأرْض يَرْحَمْكَ مَنْ فى السماء
وفيه أيضاً « لا تُنزَع الرحمة إلا من قَلْبٍ شَقى »
أما من ذَمّ الرحمة ونعاها على أهلها مثل الوزير محمد بن عبد الملك الزيات إذ يقول : الرحمة خَوَرٌ فى الطبيعة ، ومثل غيره من فلاسفة هذا الجيل كالفيلسوف نيتشه ومَن على شاكلته فأولئك إنما يترامون إلى أهداف أخرى ، وإلى مدح القُوّة فى مواضعها ، وهذه سوف تمر عليك عبقرياتهم فيها .

ما يستحسن فيه الحلم من الكبار
وما يُستقبَح

أغلظ رجلٌ لمعاويةَ فحَلُم عنه ، فقيل له : تحْلُمُ عن هذا ! فقال : إنى لا أحولُ بين الناسِ وبين ألسنتِهم مالم يحولوا بيننا وبين سُلطاننا ... وقال المأمونُ : يجمُلُ الحلم بالملوك إلا فى ثلاثة مواضع ، مُذيعٍ لسِرٍّ ، ومُتعرِّض للحُرَم ، وقادح فى مُلْك ... « حُرَم الرجل : عيالُه ونساؤه وما يحميه »

وقال السفّاح: الحِلمُ يَحسُنُ إلا ما أوضع الدينَ والسلطان .

حثهم على درء الحدود

فى الحديث الشريف : « آدرَؤا الحُدودَ بالشُّبُهات ، وأقيلوا الكرامَ عَثَراتِهم ، وإنّ الإمامَ لأنْ يُخطئَ فى العفو خيرٌ من أن يُخطِئ فى العقوبة » «ادرؤا : ادفعوا ، والحدود جمع حد ، وهو لغة ، المنع وشرعا : العقوبة التى جعلت لمن يَقترف مانهى عنه كحدّ السارق ، وهو قطع يمينه فى ربع دينار فصاعداً ، وكحدّ الزانى البكر وهو جَلْدُه مائة وتغريبه عاماً ، وكحد المُحْصَن إذا زنى ، وهو الرجم ، سميت حدوداً لأنها تَحُدُّ : أى تمنع من إتيان ماجعلت عقوبات فيها [1] ، والشُّبُهات جمع شبهة وهى الالتباس يقال : تشابهت الأمور واشتبهت ، أى التبست لاشتباه بعضها ببعض ، والعثرات : الزلاّت والكرام : خيار الناس ووجوههم حسباً ونسبا وعلماً وديناً وصلاحا ، ومعنى أقيلوا عثراتهم : لا تعاقبوهم عليها ولا تؤاخذوهم بها ، إلا فى حد من حدود الله فإنه لا تجوز إقالتُهم فيه إذا ثبت عند الإمام وخلا عن الشبهة ولم يجد إلى دفعه سبيلا ، ومعنى ادرؤا الحدود بالشبهات : اعملوا ما وَجدتم السبيلَ على أن لا تقيموا العقوبة على مسلم إلا بأمرٍ متيقن لا يتطرّق إليه التأويل .

حث القادر على العفو

قالت عائشةُ رضى الله عنها : إذا ملَكْتَ فأَسْجِحْ « قالت ذلك لعلى

(١) وتطلق الحدود ويراد بها المعاصى قال تعالى : « تلك حدود الله فلا تقربوها » .

ابن أبي طالب رضى الله عنه يومَ الجَمَل حين ظهر على الناسِ فدَنا من هَوْدَجِها ثم كلمهَا بكلام ، فأجابته : ملكت فأَسْجِح ، أى ظَفِرْتَ فأَحْسِنْ وقَدَرْتَ فَسَهِّلْ وأحسِن العفوَ ، فجهّزها عند ذلك بأحسنِ الجهازِ إلى المدينة فالإسجاح : حُسْنُ العفو »

ومن كلمة لعلى رضى الله عنه : إذا قَدَرْت على العدُوِّ فاجعلِ العفوَ شُكْرَ قُدرتك .

وقالوا : المقدِرةُ تُذهبُ الحفيظة « الحفيظة : الغضبُ ، وقولهم : إنَّ الحفائظ تذهبُ الأحقاد فمعناه : إذا رأيت حميمك يُظلَم حَمِيت له وإن كان عليه فى قلبك حِقْدٌ ... وظَفِرَ الإسكندر المقدونىُّ ببعضِ الملوك ، فقال له : ما أَصْنَعُ بك ؟ قال : ما يَجْمُلُ بالكرام أن يصنعوه إذا ظَفِروا ، فخلَّى سبيله وردّه إلى مملكته .

ولما ظَفِرَ أنو شروانَ ببُزُرْجُمْهَرَ قال : الحمد لله الذى أظفَرَنى بك ، فقال : كافِئْ من أعطاك ما تُحِبّ بما يُحِب ...

وقيل ليوسُف عليه السلام : بعَفْوك عن إخوتك عند قُدْرَتك رُفِع قَدرُك ...

ذمّ المتشفى من الغيظ

قال معاويةُ رضى الله عنه : العُقوبةُ ألأَمُ حالات ذى القُدْرة ...

وقال حكيم : التشفِّى طَرَفٌ من الجزع ، فمَنْ رَضِىَ أن لا يكون بينه وبين الظالِم إلا سِتْرٌ رقيقٌ وحِجابٌ ضعيفٌ فلينْتَصِف ...

مدح من صفح عن قدرة

قال الأخطل من أبيات يمدح بها بنى أمية :

شُمْسُ العـداوةِ حتى يُسْتَقَادَ لهم
وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قدروا (١)

وقال أشجع السُّـلمى :

يعفو عن الذنب العظيـ ـم وليس يُعجِزُه انتِصارُهْ (٢)
صَفْحًا عن الجـانى عَلَيْـ ـهِ وقد أحاطَ بِهِ اقْتِدَارُهْ

وقال المتنبي :

فَتًى لا تَسْلُبُ الْقَتْلَى يَدَاهُ وَيَسْلُبُ عفْوُه الأسْرَى الوَثاقا

« يقول المتنبي : إذا قتَلَ الممدوح قتيلا لم يأخذْ سلَبَهُ ، ترفُّعاً عن ذلك ولكنَّ عَفْوَه يَسْلُبُ أسْرَاهُ أغلالهم وقُيُودَهم ، أى يعفُو عنهم ويُطْلقهم »

الحث على إقالة من سلم ظاهره

قالوا : لا تَعْتَدَّ بما لم تَسْمَعْهُ أُذناك ، فإن السيِّد إذا حضَرَ هيب وإذا غاب اغْتِيب .

وقال بعض الملوك : إنما نَمِلكُ الأجساد دون النيّات ، ونَفْحَصُ عن الأعمال لا عن السرائر ... وقال البُحْتُرِىُّ :

إذا عَدُوُّكَ لم يُظْهِرْ عداوَتَه فما يضُرُّك إن عاداك إسرارا

---

(١) شمس : جمع شموس وهو : الصعب العداوة ، وقوله : حتى يستقاد لهم : أى حتى يؤخذ حقهم ممن اعتدى عليهم ، من قولهم ، استقدت الأمير من القاتل فأقاد لى منه أى قتله (٢) الانتصار : الانتصاف والانتقام

وقال العلاء بن الحضرمىّ [١] يخاطِبُ سيدنا رسول الله :

وإنْ دَحَسُوا بالشرِّ فاعْفُ تكرُّماً
وإن خَنَسُوا عنك الحديث فلا تَسَلْ [٢]

« وإن دحسوا : قال ابن الأثير يريد : إن فعلوا الشَّر من حيث لا تعلمه. وخنسوا الحديث يريد : وارَوْه وغَيبوه وأخروه عنك »

العفو عمن سلم باطنه

قد يهفو المرءُ ونيَّته سليمة ، ويَزِلّ وطريقتُه مستقيمة .

قال إبراهيم بن المهدى فى عَيْنِيَّته للمأمون وقد عفا عنه :

قسماً وما أُدْلِى إليك بحُجَّةٍ إلا التَّضَرُّعَ من مُحِبٍّ خاشِع
ما إن عَصَيْتُكَ والغُواةُ تَمُدُّنى أسبابُها إلا بنيةِ طائِع

وقال الفرزدق :

فلستَ بمأخوذٍ بلغوٍ تقولُه إذا لمْ تعَمَّدْ عاقِداتُ العزائم [٣]

« تعمد : تتعمد »

---

(١) صحابى جليل استعمله سيدنا رسول الله على البحرين وأقره أبو بكر ثم عمر مات سنة ٢١ هـ

(٢) بعده :

فإن الذى يؤذيك منه استماعُه وإن الذى قالوا وراءك لم يُقَلْ

(٣) لعل الفرزدق أخذ هذا المعنى من قوله تعالى : لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان .

عتب من يحفظ الذنب بعد تقادمه

قال البُحْـتُرى :

تناسَ ذنوبَ قومِكَ إن حِفْظَ الذنـ ـوبِ ـ إذا قَدُمْنَ ـ مِنَ الذنوب

العفو عن المقرّ المعترف

قال بعضهم :

إذا ما امرُؤٌ من ذنبه جاءَ تائباً إليك فلم تغْفِرْ له ، فلك الذنْبُ

ومن قولهم : التوبة تغْسِل الحوبة « الحوبة : الخطيئة »

وقالوا : لاعَتْبَ مع إقْرَار ، ولا ذَنْبَ مع استغفار .

وقال بعضهم لصديق له أنكرَ ذنباً : إما أن تُقِرَّ بذنبك فيكونَ إقرارُكَ حُجَّةً لنا فى العفو ، وإلا فَطِبْ نفساً بالانتصار منك ، فإن الشاعر يقول :

أقرِرْ بذنبِكَ ثم اطْلُب تجاوُزَنا عنه فإنّ جحود الذنب ذَنْبانِ

ومن كلامٍ لابن المُعْتَز : تجاوَزْ عَنْ مُذْنِبٍ لم يَسْلُكْ بالإقرار طريقاً حتى اتخذ من رجائِكَ رفيقاً .

وقال بعض الأمراء لرجل عاتبَه : بَلغنى أنك تُبْغِضُنى ، فلم يُنْكِرِ الرجل وقال : أنت كما قال الشاعر :

فإنك كالدُّنيا نَذُمُّ صُروفَها ونُوسِعُها ذَمًّا ونحنُ عَبيدُها

وقال أبو فِرَاس الحَمْدانىّ :

إنْ لَمْ تجافَ عنِ الذنو ... بِ وجدْتَها فينا كثيرهْ[1]
لـكِنَّ عادَتَك الجميـ ... ـلَةَ أنْ تغضَّ عنِ الجريرهْ[2]

وقال السَّرِىّ الرَّفّاء :

فإن تعْفُ عَنِّى تعفُ عن غير جاحِدٍ
لِما كانَ والإقْرَارُ بالذنبِ أرْوَحُ

وقال آخر :

فلَسْتُ بأوّلِ عَبْدٍ هفا ... ولستَ بأوّلِ مَوْلَى عفا

وقال غيره :

صَفْحًا فلوْ شُقَّ قلبى عن صَحِيفَته ... لظلَّ يُقْرَأُ منه الخوفُ والنَّدَمُ

وأُتىَ أبو جعفر المنصورُ برجُلٍ أذْنَب . فقال : إن الله يأمُرُ بالعدْلِ والإحسان : فإنْ أخَذْتَ فى غيرى بالعدل فخذْ فىَّ بالإحسان ...

حسن العفو عن المصِرّ

سمعَ حكيمٌ رجلا يقول : ذَنْبُ الإصرار ، أولى بالاغتمار ؛ فقال : صدَقَ والله ، ليس فضلُ من عفا عن السهو القليل كمن عفا عن العمد الجليل ...

استعفاء من خلط إقرارا بإنكار

قال بعضهم فى ذلك :

---

(١) تجاف بحذف إحدى التاءين أى تتجافى وتتجافى عن الذنوب : تبتعد وتغض الطرف عنها

(٢) الجريرة : ما يجره الإنسان من ذنب

هبْنى أسأتُ كما ظَنَنْـ ـتَ فأين عاقِبَةُ الأُخُوَّهْ
وإذا أسأتَ كما أسأ تُ فأين فضلُكَ والمُرُوَّهْ

وقال آخر :

وهبْنى — وما أجرَمْتُ — أجرَمْتُ كلَّ ما
أتاك بِهِ الواشِى تُجِـدْ باحْتِمالِهْ

وقال الشعبي لبَعْض الوُلاة — وقد كلمَهُ فى قَوْمٍ حَبَسَهم — : إنْ حَبَسْتَهُمْ بالباطل فالحقّ يُخْرِجُهم ، وإن حبستَهم بحق فالعفوُ يسَعُهم ؛ فأمر بإطلاقهم .

معتذر مع إنكار

قال الرشيد لرجل يُرْمَى بالزندقة : لأضرِبَنَّك حتى تُقِرّ بالذنب ، فقال : هـذا خـلافُ ما أمر الله به ، لأنه أمر أن يُضْرَبَ الناسُ حتى يُقِرُّوا بالإيمان وأنت تَضرِبُنى حتى أُقِرَّ بالكفر ا فخجل وعفا عنه .

وكان الرشيد قد حبس عبد الملك بن صالح ، فلما أخرجه الأمين من الحبس ، وذكر الرشيد وفِعْلَهُ به قال : والله إن المُلْكَ لَشىءٌ ما نَوَيْته ولا تَمَنَّيْتُه ، ولو أردْتُه لكان إلىّ أسرَع من الماء إلى الحَدور [1] ، ومن النار إلى يَبِس العَرفَج [2] ، وإنى لمأخوذ بما لم أجنِ ، ومَسئولٌ عما لا أعْرِف ، ولكن لمَّا رآنى بالمُلْكِ قمينا ، وإن لمْ أتَرَشَّح له فى سِرٍّ ولا جَهْرٍ ، ورآه يحِنّ إلىّ حنين الوالِدَةِ الوالِهَةِ ، وتميلُ مَيلَ الهَلوك [3]

(١) الحدور بوزن رسول : المكان الذى ينحدر منه
(٢) العرفج : نبات سهلى
(٣) الهلوك من النساء : الفاجرة الشبقة

عاقَبَنى عِقابَ من سهر فى طلبه ، فإن كان إنما حسِبَنى أنّى أصْلُح له ويَصْلُحُ لى فليس ذلك ذنباً فأتوبَ منه .

وقال التَّنُوخِىّ :

إن كان إقرارى بما لم أجْنِه يُرضيك عنى قُلتُ إنى ظالِمُ

معتذر بتكذيب نفسه

خرج النعمانُ بن المنذر فى غِبِّ سماءٍ فمرَّ برجلٍ من بنى يَشْكُرَ جالساً على غَدير ماءٍ، فقال له : أتعرِفُ النعمانَ ؟ قال اليَشْكُرِى : أليس ابنَ سَلْمَى ؟ قال : نعم ، قال : والله لربَّما أمْرَرْتُ يدى على فرجها ، قال له : وَيْحَك ، النعمان بن المنذر ! قال : قد خبَّرْتُك ، فما انقضَى كلامُه حتى لحِقتْه الخيل وحَيَّوْه بتحيةِ المُلْك ، فقال له : كيف قلتَ ؟ قال : أبيتَ اللَّعْن [1]، إنك والله ما رأيتَ شيخاً أكْذَبَ ولا ألأمَ ولا أوضعَ ولا أعَضَّ ببَظْرِ أمه [2] من شيخ بين يديك ؛ فقال النعمان : دَعُوه ، فأنشأ يقول :

تعفو الملوكُ عن العظيـ ـم من الذنوبِ لفضْلِها
ولقد تُعاقِبُ فى اليَسيـ ـر وليس ذاك لجهلها
إلاّ لِيُعرَفَ فضلُها ويُخافَ شِدّةُ نَكْلِها

وانقطع عبدُ الملك بن مروان عن أصحابه . فانتهى إلى أعرابىّ ، فقال :

---

(١) كلمة كانت العرب تحيى بها ملوكها فى الجاهلية ومعناها : أبيت أيها الملك أن تأتى ماتلعن عليه ، واللعن : الإبعاد والطرد من الخير

(٢) البظر: هنة بين الأسكتين من المرأة لم تخفض ـ لم تختتن ـ ومن قولهم فى السب : يا ابن مقطعة البظور :جمع بظر ، يريدون أن أمه خاتنة وقد يقولونها فى معرض الذم وإن لم تكن أمه خاتنة

أتعرِفُ عبدَ الملِك ؟ قال : نعم ، جائِر بائِر ، قال : ويحك أنا عبد الملك ! قال : لاحَيَّاكَ الله ولا بيَّاكَ ولا قرَّبك ، أكلتَ مالَ الله ، وضيَّعْتَ حُرمتَه ، قال : ويحك أنا أضُرُّ وأنفع ، قال : لارزَقنى الله نفعَك ولا دفع عنِّى ضُرَّك ؛ فلما وصلت خيلُه علِمَ صِدْقَه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، اكْتُمْ ماجرَى فالمجالِس بالأمانة . . .

استعفاء من زعم أن ذنبه كان خطأ

قال غلام هاشميٌّ أراد عمُّه أن يُجازِيَه بِسَهْوٍ منه : ياعمِّ ، إنى قد أسأتُ وليس معى عقلى فلا تُسِئْ ومعك عقلُك . . .

وقال المتنبى :

وعينُ المُخطِئين هُمُ ولَيْسُوا بأوَّلِ مَعْشَرٍ خَطِئُوا فتابوا

وأنت حياتُهم غَضِبَتْ عليهم وهَجْرُ حياتِهم لهُمُ عِقابُ

وما جَهِلتْ أيادِيَكَ البَوادِي ولكن ربما خَفِىَ الصَّوابُ (١)

وقال أبو تمام :

فإنْ يَكُ جُرْمٌ عنَّ أوْ تكُ هَفْوَةٌ على خطَإٍ منى فعُذْرِى على عَمْدِ

والأصل فى هذا المعنى قول سيدنا رسول الله : « رُفِع عن أمَّتى الخطأُ والنسيانُ وما استُكرِهُوا عليه » وقال تعالى : وليس عليكم جناح فيما أخطأتُم به ولكن ما تعمَّدَتْ قلوبُكم وكان الله غفوراً رحيما »

---

(١) أياديك : نعمك ، والبوادى : خلاف الحواضر أى أهل البوادى يقول : إنهم لم يجهلوا بعصيانك سوابق نعمك ولكن قد يخفى الصواب على المرء فيأتى غيره

مستعف سأل أن يقوّم ويؤدّب

قال أحمد بن أبى فَنَن (١) :

أحِينَ كَثرْتَ حُسّادِى وساءَهُمُ   جميلُ فِعْلِكَ بى أشْمَتَّ حُسّادى !
فإن تكنْ هفوةٌ أوْ زَلّةٌ سلفَتْ   فأنتَ أولَى بتقويمى وإرشادِى

مستعف سأل العفو

لفرط خوفه

قال على بنُ الجهم من أبيات أرسلها إلى المتوكل وهو محبوس :

وعفوَكَ عن مُذنبٍ خاضعٍ   قَرنْتَ المقيمَ به المُقْعِدا (٢)
إذا ادَّرَع الليلَ أفْضَى به   إلى الصبح من قبلِ أن يَرْقُدا
ألمْ تَرَ عبداً عدا طورَهُ   ومولًى عفا ورشيداً هَدَى
ومُفْسِدَ أمرٍ تلافَيْتَهُ   فعاد فأصْلحَ ما أفسدا
فلا عُدْتُ أعصيك فيما أمَرْ   تَ حتى أزُورَ الثَّرى مُلْحَدا
وإلاّ فخالفتُ ربَّ السماء   وخُنْتُ الصديقَ وعِفْتُ النَّدَى

مستعف اتّكل على سالف حرمته

قال من لاأذكُر اسمَه :

أيَذهَبُ يومٌ واحدٌ إن أسأتُهُ   بصالحِ أيامى وحُسْنِ بلائيا (٣)

---

(١) شاعر مجيد من شعراء بغداد شهر بالشعر فى أيام المتوكل واستفرغ شعره فى الفتح بن خاقان

(٢) يقال : أخذه المقيم المقعد أى مايوجب الاضطراب من خوف ونحوه

(٣) أسأته : أسأت فيه

وقال جل شأنه : « إن تجتنبوا كبائرَ ما تُنهَوْنَ عنه نُكفِّرْ عنكم سيئاتِكم ونُدخِلكُم مُدْخلًا كَريما » « والمراد بالسيئات : الصغائر ، والكبائر هن : الذنوب التى رتّب الشارع عليها حدوداً أو صرّح بالوعيد فيها »

الاستعفاء لمذنب من قوم محسنين

قال ابراهيم بن العباس الصُّولِي :

أساؤا وفيهم مُحسنون فإن تَهَبْ لمحسِنِهم أهلَ الإساءةِ يَصلُحوا

متوصل إلى العفو بمراجعة أو حجة

رَوَوْا أن الفاروق رضى الله عنه كان يَعُسُّ ليلةً ، فسمع غِناءَ رجلٍ من بيت ، فتسوَّرَ عليه ، فرآه مع امرأةٍ يشرَبانِ الخمر ، فقال : يا عدُوَّ الله ، أظننتَ أن يستُرَك الله وأنت على معصية ؟ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، لا تَعجَل إن كنتُ عصَيتُ الله فى واحدةٍ فقد عصيتَ فى ثلاثٍ : قال الله تعالى : ولا تجَسَّسُوا وقد تجسّسْتَ ، وقال : وأتُوا البيوتَ من أبوابها وقد تَسوَّرْت علىَّ ، وقال : لا تدخُلوا بيوتاً غيرَ بُيُوتِكم حتى تستأنسُوا وتُسلِّموا على أهلها وقد دخلتَ بغير سلام ، فقال عمر : أساأتُ فهل تعفُو ؟ قال : نعم ، وعلىَّ أن لا أعودَ ... «وقد أورَدنا هذه الأحدوثة كما أوردها الأدباء، وإنّ فى النفس منها بعدُ لأشياء»

مستعف ذكر فرط خوفه من الوعيد

قال سَلْمٌ الخاسر :

لقد أتتنى من المَهدِىِّ مَعتَبةٌ تَظَلُّ من خوفها الأحشاءُ تَضطَرِبُ

وقال أبو تمام من قصيدة يمدح بها أحمد بن أبى دُواد ويعتذر إليه :

أتانى عائرُ الأنباء تَسْرِى عقاربُه بداهيــةٍ نآدِ (١)
فياخبراً كأنَّ القلبَ أَمْسَى يُجَرُّ به على شوكِ القَتادِ (٢)

وقال البحترى :

عَذيرى مِنَ الأيامِ رنَّقْنَ مَشْرَبِى ولقَّيْنَنى نَحْساً من الطَّيْرِ أشْأَما (٣)
وأكْسَبْنَنى سُخْطَ امرئٍ بِتُّ مَوْهِناً أرَى سُخْطَه ليلا مع الليل مُظْلِما (٤)

من استعفى واستوهب معا

أخذ مُصعَبُ بنُ الزبيرِ رجلا من أصحاب المختار ، فأمر بضَرْب عُنُقِه ، فقال : أيها الأمير ، ما أقْبَحَ بك أن أقومَ يوم القيامة إلى صورَتِك هذه الحسنةِ ، ووَجهِك هذا الذى يُستضاءُ به ، فأتعلَّقَ بأطرافِك وأقول : أىْ رَبِّ سَلْ مُصعَباً فيمَ قَتلَنى ، قال : أطلِقوه ، قال : اجْعَلْ ما وَهَبْتَ لى من حيــاتى فى خَفْض ، قال : أعْطوه مائةَ ألْفٍ ، قال : بأبى أنت وأمى ، أُشْهِدُ الله أن لابْنِ قَيس الرقَيَّاتِ منهما خمسين ألفا ، قال : ولِمَ ؟ قال : لِقولِه فيك :

إنَّما مُصْعَبٌ شهابٌ من الله تجَلَّت عن وجهِهِ الظَّلْماءُ
مُلكُه مُلكُ رحمةٍ ليس فيــه جَبَروتٌ يُخْشَى ولا كبرياءُ
يَتَّقى الله فى الأمور وقد أفْـ ـلَحَ مَنْ كان هَمَّه الاتِّقاءُ

---

(١) عائر : كقولهم : قصيدة عائرة : أى سائرة ، ويقال : داهية نآد فالنآد : الداهية تحلّ .

(٢) فيا خبرا : يروى : نثا خبر ، ونثى الخبر : أذاعه وأفشاه ، والقتاد : شجر صلب له شوك كالإبر

(٣) رنّق الماء : كدره ، والمشرب : موضع الشرب ، والماء

(٤) الموهن : نحو من نصف الليل

فضحك مُصْعَب وقال : أرى فيك موضعاً للصنيعةِ ، وأمره بلزومِه وأحسنَ إليه ، فلم يَزلْ معه حتى قتِل . . .

وقال المتنبي :

فاغفِرْ فِدًى لك واحبُنى مِن بَعدِها لِتَخُصَّنى بعطيَّةٍ منهـا أنا (١)

المتوصل إلى العفو بالتثبت إلى حين التبين

قال تعالى : يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبإٍ فتبيَّنُوا أنْ تُصيبوا قوماً بجَهالةٍ فتُصبِحُوا على ما فَعلتُمْ نادِمين ... « قال الإمام البيضاوى : « فتَبيَّنوا : فتعرَّفوا وتصفَّحوا قال : وتنكير الفاسق والنبأ للتعميم ؛ وتعليق الأمر بالتبين على فسق المخبر يقتضى جواز قبول خبر العدل ··· وأن تصيبوا : أى كراهة إصابتكم »

وغضِب الرشيد على رجل ، فقال له جعفرُ بن يحي : غضِبْتَ لله ، فأطِع الله فى غضبِك بالوُقوف إلى حال التبيُّن كما غضِبْت له . . وقال الشعبى لعبد الملك بن مَرْوان : إنك على إيقاعِ مالم تُوقِع أقدرُ منك على رَدٍّ ما أوقعت . . .

نهى العافى عن التثريب

رضِىَ بعضُ الملوك عن رجل ، ثم أخذ يُوبِّخُه ، فقال : إن رأيتَ ألا

---

(١) فاغفر أى فاغفرلى ذنبى ، وفدى خبرعن محذوف أى أنا فدى لك ، وحباه : أعطاه ، ومن بعدها : أى من بعد هذه المغفرة يقول : إذا عفوت عنى وأعطيتنى كنت قد خصصتنى بعطاء أنا من جملته ، لأنه إذا عفا عنه فقد وهبه نفسه

تخدِشْ وجْهَ رِضاك بالتَّثريب فافعل (١)

وقالوا : ماعفا عن الذنب مَن قَرَّع به ...

وقال شاعرٌ فيمن يعاقب ثم يعاتب :

إذا عُوقِبَ الجانى على قدر جُرمِه فتعنيفُه بعـد العقـابِ من الرِّبا

نهيهم عن الاعتذار وصعوبته

جاء فى الحديث الشريف : إياكَ وكُلَّ أمرٍ يُعتذَرُ منه :

وفى حديث آخر : إياكم والمعاذيرَ فإنها مفاجِرُ ...

« ومعنى الحديثين : إياكم أن تتكلموا أو تفعلوا ما تحتاجون إلى أن تعتذروا عنه . »

وقال بعضهم : دعْ ما يسبِقُ إلى القلوب إنكارُه ، وإن كان عندك اعتذارُه فلستَ بمُوسِع عُذرا كُلَّ من أسْمَعْتَهُ نُكْرا ...

وكتب الحجَّاجُ إلى بعض من اعتذر إليه : إن يَسلَم ٱللهُ ذلك من نِيَّتِك تُكْفَ المقال .

وكتب كاتبٌ : لستُ أعْتذر إليك من الذَّنب إلا بالإقلاع عنه .

وكتب آخر : إن تركتُ الاعتـذار فلِمَا قال الشاعر — هو محمود الورَّاق — :

إذا كان وَجْهُ العُذرِ ليس ببيّنٍ فإن اطِّراحَ العُذْر خيرٌ من العذر

وقالوا : الإغراقُ فى العذر يحقِّق التُّهمة ، كما أن الإفراط فى النصيحة يوجب الظِّنَّـة ...

---

(١) التثريب : تقبيح الفعل والاستقصاء فى اللوم

وكتب بعضهم : إن كان مابلَغك حقًّا فما تُغنِي المعاذير ، وإن كان كذِباً فما تضر الأباطيل .

وقال شاعر :

تعالَوْا نصطلح وتكونُ منَّا مُعاوَدَةٌ بلا عَدٍّ الذنوب
فإنْ أحببتُمُ قلتمُ وقلنا فإنّ القول أشفَى للقلوب

وخطب الحجاُج يوماً فأطال ، فقام رجل فقال : الصلاة ، الوقتُ لاينتظِرك، والربّ لا يَعذِرُك ، فأمر بحبسه ، فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون فإن رأىأن يُخَلِّيَ سبيله ! فقال : إن أقرّ بالجنون خلّيْتُه ، فقيل له ذلك، فقال : معاذ الله ، لا أزعُمُ أن الله ابتلانى وقد عافانى ، فبلغ ذلك الحجاجَ ، فعفا عنه لِصِدقه . .

تأسف من يعاتب من غير ذنب

من أمثالهم : رُبَّ مَلومٍ لا ذنب له .

وقال البُحْتُرِىّ :

إذا محاسِنَ اللائى أُدِلُّ بها كانت ذنوبى فقُلْ لى كيف أعتذِر

عبقرياتهم فى ذمّ الحلم
ومدح العقاب

النهى عن الحلم إذا كان يسبب ذلا أو ضرّا

قال النابغة الجَعْدى :

ولا خير فى حِلْمٍ إذا لم تكن لهُ بوادِرُ تحمِى صَفْوَهُ أن يُكَدَّرَا (١)
ولا خَير فى جهلٍ إذا لم يكنْ له حليمٌ إذا ما أوْرَد الأمرَ أصْدَرَا

يُروَى أنه لمّا أنشَدَ هذين البيتين سيدَنا رسول الله قال صلوات الله عليه : أجَدْتَ لا يَفْضُضِ اللهُ فاكَ ؛ فعاش مائةً وثلاثين سنةً لم تَنْفَضّ له ثَنِيَّة ... وأنشد المُبَرِّد :

أبا حَسَنٍ ما أقْبَحَ الجهلَ بالفتى وَلَلحِلْمُ أحياناً من الجهل أقْبَحُ
إذا كان حِلْمُ المرءِ عونَ عدوِّه عليه فإن الجهل أعفَى وأرْوَحُ

« أقول : إن مرادهم بالجهل ههنا ما قابل الحلم »

وقال المتنبي :

مِن الحِلْمِ أن تَستعمِلَ الجهلَ دونه إذا اتّسعَتْ فى الحِلم طُرْقُ المظالِمِ

وقال :

إذا قيل : رِفقاً قال : للحِلْمِ موضعٌ وحِلمُ الفتى فى غير موضِعِه جَهْلُ

وقال أبو يعقوبَ الخُرَيْمِى :

أرى الحِلم فى بعض المواطِنِ ذِلّةً وفى بعضِها عزًّا يُسَوِّدُ صاحِبَهْ

---

(١) البوادر جمع بادرة : ما يبدر من الرجل فى حال الغضب من قول أو فعل

وقال الأحنف بنُ قيس : لا حِلْمَ لمن لا سَفيه له . وقال : ماقلّ سفهاءُ قوم إلا ذلوا . . .

وقال الجاحظ : من قابَلَ الإساءَةَ بالإحسان فقد خالف الله فى تدْبيره ، وظن أن رحمة الله دون رحمته ، فإن الله تعالى يقول : « من يَعْمَلْ سوءاً يُجْزَ به » وقال : « وجزاءُ سَيِّئة سيئةٌ مثلها »

وقال الشعبىُّ : يُعجِبُنى الرجلُ إذا سيم هَواناً دَعَتْه الأَنَفَةُ إلى المكافأةِ وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مِثْلُها ؛ ورُفِع كلامُه إلى الحجاج فقال : لله دَرُّه ! أىُّ رَجُلٍ بين جنبَيْه ! وتمثل بقول الشاعر :

ولا خيرَ فى عِرضِ آمرئٍ لا يَصونُه ... ولا خيرَ فى حِلمِ آمرئٍ ذَلَّ جانبُه

دفع الجهل بالجهل

قال محمد بن وُهَيب :

لئن كنتُ مُحْتاجاً إلى الحلم إنّنى ... إلى الجهل فى بعض الأحايين أحْوَجُ

ولِى فَرَسٌ للحلمِ بالحلمِ مُلْجَمٌ ... ولِى فرَسٌ للجهل بالجهل مُسرَجُ

فمَنْ رام تَقْويمى فإنى مُقوَّمٌ ... ومن رام تعويجى فإنى مُعَوَّجُ

وماكنتُ أرْضى الجهلَ خِدْناً وصاحباً ... ولكننى أرْضَى به حين أُحْرَجُ

وإن قال بعضُ الناس : فيه سماجةٌ ... فقد صدَقوا ، والذّلّ بالحُرّ أسْمَجُ

وقال إياسُ بنُ قتادةَ ـ وهو بارعٌ جدا ـ :

تُعاقِبُ أيدينا ويَحْلُمُ رأيُنا ... ونَشْتِمُ بالأفعالِ لا بالتكلّم

وقال أوْسُ بن حَبْناءَ ـ شاعر إسلامى تميمى وحبناء أمه ـ :

إذا المرءُ أولاكَ الهوانَ فأَوْلِه ... هَواناً وإن كانت قريباً أَواصِرُهْ (١)

(١) يقول : إذا سامك إنسان ذلا وهواناً فأوله من الذل والهوان ما ترد به=

وإنْ أنت لم تَقدِرْ على أن تُهينَهُ ... فَذَرْه إلى اليومِ الذى أنتَ قادِرُهْ[١]

وقارِبْ إذا ما لمْ تكُنْ لك حِيلةٌ ... وصَمِّمْ إذا أيقنْتَ أنك عاقِرُهْ[٢]

وقالوا: الشر لا يَدْفَعُه إلا الشر والحديدُ بالحديد يُفْلَحُ[٣] ...

من نهى عن الاغترار بحلمه

قال المتنبي:

وأطْمَعَ عامِرَ البُقْيا عليها ... ونَزَّقَها احتمالُكَ والوَقار[٤]

وقال آخر:

ولا يَغرُرْكَ طُولُ الحِلمِ منى ... فما أبداً تُصادِفُنى حليما

وقال آخر:

احْذَرْ مغايظَ أقوام ذوى أنَفٍ ... إنّ المَغيظَ جهولُ السيفِ مجنونُ

الحلم مغرٍ وضار مذل

قال الأحنف لِرَجل: ليتَ طُولَ حِلْمِنا عليك لا يَدْعو جَهْلَ غيرنا إليك.

كيده عنك وتشفى به نفسك وإن كان الذى سامك الخسف يمت إليك بسبب من القرابة وقوله قريباً خبر كان ولم يقل قريبة على حدّ قوله تعالى: إن رحمة الله قريب من المحسنين

(١) قادره: أى قادر فيه

(٢) عاقره: قاتله

(٣) يفلح: يشق

(٤) منع عامر من الصرف لأنه أراد القبيلة، والبقيا اسم من الإبقاء يقول: وأطمعهم فى العصيان إبقاؤك عليهم وعدولك عن الإيقاع بهم، وحملهم على الطيش حلمك عنهم وامتناعك من الانتقام منهم

وقيل للأحنف : ما الحلم ؟ فقال : الرضا بالذلّ ...

وقالوا : الشهْرةُ بالملاينةِ والخير شرٌّ من الاشتهارِ بالغِلْظةِ والشرّ ، لأن مَن عُرِفَ بالخير اجترأ عليه الناس ، ومَن عُرِفَ بالشر هابَهُ الناس وتجنّبُوه .

وقال معاوية : ما وَلَدَتْ قُرَشيَّةٌ خيراً لِقُرَشِيٍّ منى ، فقال رجل كان حاضراً : بل ما وَلَدَتْ شراً لهم منك ، فقال : كيف ؟ قال : لأنك عَوَّدْتَهم عادة يطلبُونها ممن بَعْدَكَ فلا يُجيبونهم إليها فيَحمِلون عليهم كحَمْلِهم عليك وكأنى بهم كالزِّقاقِ المنفوخةِ على طُرقاتِ المدينة ...

نهيهم عن إكرام اللئام

قال المتنبي :

إذا أنت أكرمْتَ الكريمَ ملكْتَه وإن أنتَ أكرمتَ اللئيم تمرَّدا
ووضعُ الندَى فى موضع السيفِ بالعُلا
مُضِرٌّ كوضعِ السيفِ فى موضع الندى

وقبلهما :

وما قتل الأحرارَ كالعفْو عنهمُ ومن لك بالحُرّ الذى يَحفَظُ اليَدا

وقالوا : استعمالُ الحلم مع اللئيم أضرّ مع استعمال الجهل مع الكريم .

وقال يزيد بن مُعاوية لأبيه : هل ذَممْتَ عاقبةَ حِلم ؟ قال : ما حلُمت عن لئيم وإن كان وليا إلا أعقبَنى نَدماً ، ولا أقدمتُ على كريم وإن كان عدوا إلا أعقبنى أسفا ...

وقال الشاعر :

متى تضع الكرامةَ فى لئيمٍ فإنك قد أسأتَ إلى الكرامهْ

الاستعانة بالجهل لدى الحاجة إليه

قال العباس بنُ الأحنف :

ومَن يَحْلُمْ وليس له سفيه يُلاقِ المُعْضِلاتِ من الرجال

وقال غيره :

ولا يلبثُ الجُهّالُ أن يتهضّموا أخا الحِلمِ مالم يَسْتَعِنْ بجَهُولِ

وبَينَا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضى الله عنه جالسٌ إذ أقبلَ أعرابىٌّ ، فلطَمَه ، فقام إليه رجلٌ فجلَد به الأرض ، فقال ابنُ عمر : ليس بعزيزٍ من ليس فى قومه سفيهٌ . . .

حث القادر على العقاب قبل فوته

قد أسلفنا كثيراً من عبقرياتهم فى هذا المعنى ، وقال أبو أذينة الغسانى : يُحرِّض ابنَ عمِّه الأسودَ بن المنذر على قتل جماعةٍ من ملوك الشام كان قد أسرهم فأراد أن يعفُوَ عنهم :

ما كُلَّ يومٍ ينالُ المرءُ ما طلبا ولا يُسوِّغُه المقدارُ ما وَهبا
وأنصفُ الناسِ فى كلِّ المَواطِنِ مَنْ سَقَى الأعادِىَ بالكأسِ التى شَرِبا
وليس يَظلِمُهمْ مَن بات يضْرِبُهم بحَدِّ سَيْفٍ به من قَبلِهم ضُرِبَا
فالعفْوُ إلا عن الأعداءِ مَكْرُمةٌ من قال غيرَ الذى قد قُلتُه كذَبا
قَتَلْتَ عَمْراً وتَسْتَبْقِى يزيدَ لقدْ رأيتَ رَأْياً يجُرُّ الوَيْلَ والحَرَبا
لا تَقْطَعَنْ ذَنَبَ الأفعَى وتَترُكَها إنْ كُنْتَ شَهْمًا فأتْبِعْ رَأْسَها الذَنَبا[1]

(١) الشهم : الذكى الفؤاد المتوقد النجد النافذ فى الأمور

هم جَرَّدوا السيفَ فاجْعَلْهُم به جزَراً
هم أوقَدوا النارَ فاجْعَلْهم لها حَطبا [١]

ومنها :

لاعفوَ عن مِثلِهم فى مثلِ ما طَلَبُوا لكنَّ ذلك كان الهُلْكَ والعَطبا
عَلَامَ تَقْبَلُ منهم فِدْيَةً وَهُمُ لا فِضَّةً قَبِلوا منَّا ولا ذَهَبا

وكتب يحيى بن خالد البرمكى إلى الرشيد من الحبس : إن كان الذنبُ خاصًّا . فلا تُعَمِّمْ بالعقوبة ، فمَعِى سلامةُ البرىء ومودّةُ الولىّ ؛ فكتب إليه : قُضِىَ الأمْرُ الذى فيه تَسْتفتِيان ...

وقال بعضُهم لأبى جعفر المنصور : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تَسْمَع بالعفو ! فقال : لأنّ بنى مروان لم تَبْلَ رِمَمُهم ، وآلُ أبى طالب لم تُغْمَدْ سُيوفُهم ، ونحن بين أقوام قد رأَوْنا بالأمس سُوقة واليومَ خُلفاء ، فليس تتمهَّدُ الهيْبَةُ فى صُدورهم إلا باطِّراح العفْو واستعمالِ العقوبة ...

التبجح بقسوة القلب وقلة الرحمة

كان محمدُ بنُ عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق قد اتخذ تَنُّوراً من حديد ، وأطرافُ مَساميره قائمة مثل رُؤس المَسالّ ، فى أيام وزارته ، وكان يعذِّبُ فيه المصادَرين وأربابَ الدواوين المطلوبين بالأموال ، فيجدون لذلك أشدَّ الألم ، ولم يَسبِقْهُ أحدٌ إلى هذا النَّوع من العقاب ، وكان إذا قال له أحدٌ منهم : أيها الوزيرُ ، ارْحَمْنى ، يقول له : الرحمةُ خَوَرٌ فى الطبيعة ، فلما

(١) اجعلهم جزرا : أى قطعاً ومن ذا قولهم : تركهم جزراً للسباع والطير أى قتلهم حتى صاروا قطعا تأكلها السباع والطير

اعتقله المتوكلُ أمَرَ بإدخاله فى التَّنُّور وقيَّدَهُ بخَمْسةَ عشر رِطلا من الحديد ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، ارحَمْنى ، فقال له : الرحمةُ خَوَرٌ فى الطبيعة ، كما كان يقول للناس . ثم يتمثل :

* فلا تَجزَعَنْ من سِيرةٍ أنتَ سِرْتَها [1] *

ووقَّع مرةً فى قصةِ رجل : دَعْنى من ذِكر الرحمة والإشفاق ، فما هما إلا للنسوان والصبيان ...

وقال المتنبي :

يَدْخُلُ صَبرُ المرءِ فى مَدحِه ويدخُلُ الإشفاقُ فى ثَلْبِه [2]

« الثلب : الذم والعاب ، يقول : إنّ الصبر مما يمدح به الإنسان والإشفاق مما يعاب به »

أخذ البرىء بذنب الجانى

قال الله تعالى : « واتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصيبنَّ الذين ظلَموا منكم خاصَّة »

وقال الحارث بنُ حِلِّزةَ اليشكرى من معلقته التى ارتجلها بين يدى عمرو بن هند ملك الحيرة فى شىء كان بين بكر وتغلب :

عَنَناً باطِـلًا وظُلْماً كما تُعْـ ـتَرُ عن حَجْرةِ الرَّبيضِ الظِّباءُ

« العنن : الاعتراض يقـال : عَنَّ يَعِنُّ ويَعُنُّ عَنًّا وعُنوناً واعتَنَّ : عَرَض واعترض ، والاسمُ العَنَن ، والحَجرة : الناحية ، والجمع : حَجْر

(١) هذا مثل تقدم القول عليه فى الجزء الأول صفحة ٢٣

(٢) من قصيدته التى يعزى بها أبا شجاع عضد الدولة بعمته وأولها :

آخرما المَلْكُ مُعَزًّى بِهِ هذا الذى أثَّر فى قلبِه

وحَجَرات مثل جَمْرة وجَمْرٌ وجَمَرات ، والعتر ، ذبح العتيرة ، وهى ذبيحةٌ كانت تذبح للأصنام فى رجب ، والربيض : الغنم الرابضة فى مرْبَضِها ، وقد كان الرجلُ فى الجاهلية ينذر : إن بَلَّغ الله غَنَمه مائةً ذبح منها واحدةً للأصنام ، ثم رُبَّما ضَنّتْ نفسُه بها فأخذ ظبياً وذبَحه مكانَ الشاة الواجبة عليه يقول : ألزَمتمونا ذنبَ غيرنا عَنَناً باطلا كما يُذبح الظَّبْيُ لِحَقٍّ وجب فى الغنم »

وقال النابغة الذبيانى من أبياته العينية التى يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر

أتانِى أبَيْتَ اللَّعْنَ أنكَ لُمْتَنى وتلك التى تَسْتَكُّ منها المسامعُ
مقالةُ أنْ قدْ قلتَ : سوفَ أنالُه وذلك من تِلقاءِ مثلِكَ رائعُ
أتُوعِدُ عَبـداً لم يَخُنْكَ أمانةً وتترُكُ عبداً ظالما وهْوَ ظالِعُ
وحَمَّلْتَنى ذنبَ امرئٍ وتركْتَه كذى العُرِّ يُكْوَى غيرُه وهْوراتعُ
وذلك أمرٌ لم أكن لِأقولَهُ ولو كُبِّلَتْ فى ساعِدَىَّ الجوامعُ
أتاك بقولٍ لَهْـلَهِ النَّسْخِ كاذبا ولم يأتِ بالحقِّ الذى هو ناصِعُ
لَعَمْرِى وما عَمْرِى علَىَّ بهَيِّنٍ لقد نَطَقَتْ بُطْلًا علىَّ الأقارِعُ

ومنها :

وَعيدُ أبِى قابوسَ فى غير كُنْهِه أتانى ودُونِى راكِسٌ فالضَّواجِعُ
فبِتُّ كأنى ساوَرَتْنى ضَئِيلةٌ من الرُّقْشِ فى أنيابها السُّمُّ ناقِعُ
يُسَهَّدُ فى ليـلِ التِّمامِ سليمُها لِحَلْىِ النساء فى يَدَيْهِ قَعاقِعُ
تناذَرَها الراقونَ من سوء سُمِّها تُطلِّقُه طَوْراً وطَوْراً تُراجِعُ

ومنها :

حلفتُ فلم أترُكْ لنفسِكَ رِيبةً وهل يأْثَمَنْ ذو إمَّةٍ وهْو طائِعُ
فإنك كالليل الذى هو مُدْرِكى وإن خِلْتُ أنَّ المُنْتأَى عنك واسعُ

« وإليك شرح هـذه الأبيات : أبيتَ اللعن : أبيتَ أنْ تأتِىَ من

الأخلاق المذمومة ما تُلعَنُ عليه ، وكانت هـذه تحيّة لَخم وجُذام ، وكانت منازلهم الحِيرة وما يَليها ، وكانت تحيةُ ملوك غَسّان : يا خيرَ الفِتيان ، وكانت منازلهم الشام : وتستكُّ : تَنْسَــدُّ ولا تَسمَع ؛ ورائع : مُفْزِع ومُخَوِّف . وإضافة مقالة إلى أن قد قلت من إضافة الأعمّ إلى الأخص ، وهى من الإضافة البيانية أى مقالة هى هذا القول . وظالِع : مائل . والعُرّ : قَرْح يأخذ الإبل فى مَشافِرها وأطرافها شبيه بالقَرَع ، وربما تفرّق فى مشافرها مثل القُوباء ، يَسيل منه ماءٌ أصفرُ ، وكان الأعرابُ إذا وقع العُرُّ فى إبل أحدهم اعترضوا بَعيراً صحيحاً من تلك الإبل فكَوَوْا مِشْفَرَه وعَضُدَه وفَخْذَه يرون أنهم إذا فعلوا ذلك ذهَب العُرُّ من إبلهم . وقيل : إنما كانوا يَكوُون الصحيحَ لئلا يَتعلقَ به الداءُ لا لِيَبْرَأَ السقيم . وكُبِّلَتْ : قُيِّدت . والجوامع : الأغلال ، جمع جامعة . وثوبٌ لَهْـلَهُ النسج وهلهل النسج : إذا كان رقيقاً ، وناصع : بيّن واضح . وقوله : لعَمْرى ... البيت فالعَمر بفتح العـين هو العُمر بضمها لكن خُصَّ استعمال المفتوح فى القَسَم ، أى ما قَسَمِى بعُمْرى هين على حتى يتهمنى متهم بأنى أحلف كاذباً ، والبطل ـ بالضم : ـ هو الباطل والأقارع : هم بنو قُريع بن عوف الذين كانوا سعَوْا به إلى النعمان بن المنذر حتى تغيّرَ له . وأبو قابوس : كنية النعمان بن المنذر . وقوله فى غير كنهه : أى جاءنى وعيدُه فى غير قدر الوعيد ، أى لم أكُن بلغتُ مايغضب علىّ فيه . وراكس : وادٍ ، والضواجع جمع ضاجعة وهو مُنْحَنى الوادى . وقوله : فبتُّ ... ألبيت فالمساورة : المواثبة ، والأفعى لا تَلدَغُ إلا وَثبا . وضـئيلة : هى الحية الدقيقة القليلة اللحم . والرُّقش من الحيّات : المنَقّطة بسواد ، وهى من شِرارِها ، والسم مبتدأ وناقع خبر ويجوز فى غير الشعر ناقعاً على الحالية وفى أنيابها هو الخبر . وليل التِّمام بكسر التاء أطول ليلة فى السنة ، والسليم :

اللديغ ، وسمت العرب الملسوع سليما تفاؤلا . وقوله : لحلى النساء فى يديه قعاقع : فقد كان الملدوغ يُجعَل الحَلْىُ فى يديه والجلاجل حتى لا ينام فيَدِبَّ السُّمُّ . فيه وتناذرها الراقون يروى أيضاً : تناذَرها الحاوُون ، وهو جمع حاوٍ ، وهو الذى يُمْسِكُ الحيَّاتِ ، أى أنذر بعضهم بعضاً بأنها لا تُجِيبُ راقياً وقوله : تُطَلِّقُهُ : تخِفُّ عنه مرة وتشتدُّ عليه مرة ، ومثل ذلك قول الآخر :

تبيتُ الهمومُ الطارِقاتُ يعُدْنَنِي كما تعْتَرِى الأوصابُ رأسَ المُطَلَّقِ

يقال : طُلِّقَ السَّليم : رَجَعَتْ إليه نفْسه وسكن وجَعُه بعد العِدَاد[1] فهو مُطلَّق ، قال المبرِّد : وهذا هو الذى ذكره النابغة قال : وذلك أن المنهوش إذا ألحَّ الوجعُ به تارةً وأمسك عنه تارةً فقد قارب أن يُؤْيَسَ من بُرئه ، وإنما ذكر خوفه من النعمان وما يعتريه من لوعة فى إثر فترة والخائفُ لاينامُ إلا غِراراً ، فلذلك شبه بالملدوغ المُسَهَّدِ . والإمَّة لغة فى الأُمَّة : الدِّين والخير ثم شبهه فى البيت الأخير فى حال سخطه بالليل الشديد الظلمة لا يُهتَدى فيه »

وقف رجلٌ على الحجاج فقال : أصلحَ الله الأمير ، جَنَى جانٍ فى الحىِّ فأُخِذْتُ بجريرتِهِ وأُسْقِط عطائى . فقال الحجاجُ : أما سمعتَ قولَ الشاعر :

جانيك من يجنِى عليك وقد تُعْدِى الصحاحَ مبارِكُ الجُرْبِ[2]

---

(١) العداد : اهتياج وجع اللديغ . وأصله من العدد ، وقيل : عداد السليم : أن تعد له سبعة أيام فإن مضت رجوا له البرء وما لم تمض قيل : هو فى عداده

(٢) جانيك من يجنى عليك ، يريد : صاحب جنايتك من يجنى عليك فلا تأخذ

ولَرُبَّ مأخوذ بذنبِ صديقه ونجا المُقارِفُ صاحبُ الذنبِ [1]

فقال : أعزَّ الله الأمير ، كتابُ الله أولَى ما اتُّبِع ، قال الله تعالى : «معاذ الله أن نأخُذَ إلا من وجدنا متاعنا عنده» فقال الحجاج : صدقتَ ياغلام ، رُدَّ اسمه وأثبِتْ رَسْمَه ؛ وأسْنِ له عطاءَه .

عذر من بدر منه سخط

قال البحترى :

إذا أحرَجْتَ ذا كرمٍ تَخَطَّى إليك ببَعْضِ أخلاق اللئام

طائفة من عبقرياتهم فى العداوات

الاحتراس من غرس العداوة

جاء فى كليلة ودمنة : لا ينبغى للعاقل أن تحمله ثقتُه بقُوَّته على أن يَجْتَرَّ العداوة ، كما لا يجبُ لصاحب التِّرْياق أن يشرب السُّمَّ اتكالا على أدويَته .

وقالوا : احذر مُعاداةَ الرجال فالناس رَجُلان : عاقل فاحذر خَتْله ، وأحمقُ فاحذر حُمْقَه

بالعقوبة غيره ، قال أبو عبيد : قولهم : جانيك من يجنى عليك يضرب مثلا للرجل يعاقب بجناية ولا يؤخذ غيره بذنبه ، إنما يجنيك من جنايته راجعة إليك ، وذلك أن الإخوة يجنون على الرجل ، وقال غيره : معناه : الذى تلحقك منفعته هو الذى يلحقك عاره ، يعنى : الذى يجنى لك الخير هو الذى يجنى عليك الشر ، فقولهم : جانيك معناه الجانى لك ، ومبارك الحرب : مواضع بروكها أى : مرابضها ، والجرب : المصابة بالجرب .

(١) قارف فلان الخطيئة : خالطها

وسيمر عليك كثير من عبقرياتهم فى هذا المعنى فى كتاب الإخوانيات والأصدقاء والصداقة .

نهيهم عن الاغترار بالودّ

تُستَبطن معه العداوة

دخل سُدَيف مولى أبى العباس السفاح [1] على أبى العباس أمير المؤمنين وعنده سُليمان بن هِشام بن عبد الملك وقد أدناهُ وأعطاه يده فقبَّلها ، فلما رأى ذلك سُدَيف أقبل على أبى العباس وقال :

جَرِّد السيفَ وارْفَع العفْوَ حتى لا ترى فوقَ ظَهْرِها أُمَوِيّا

لايغُرَّنْك ماتَرَى من أُناسٍ إنّ تحتَ الضُّلوع داءًا دَوِيًّا

فأقبَلَ عليه سُليمانُ فقال : قتلتنى أيها الشيخ قتلك الله وقام أبو العباس فدخَل ، فإذا المِنديلُ قد أُلقِىَ فى عُنُقِ سليمان ، ثم جُرَّ فقُتِلَ .

ودخل شِبْلُ بنُ عبد الله مولَى بنى هاشم على عبد الله بن علىّ ، وقد أجلسَ ثمانينَ رجلا من بنى أُمَيّة على سُمُطِ الطعام ، فمَثَل بين يديه وقال :

أَصْبَحَ المُلْكُ ثابتَ الآساسِ بالبَهالِيل من بنى العَبّاس [2]

---

(١) ذكر أبو الفرج فى الأغانى أنه مولى خزاعة وكان سبب ادعائه ولاء بنى هاشم أنه تزوج مولاة لأبى لهب ويقال : بل أبوه هو الذى تزوجها فولدت له سديفاً وسديف شاعر مقل من مخضرمى الدولتين شديد التعصب لبنى هاشم مظهراً لذلك أيام بنى أمية

(٢) الآساس واحدها أسّ ، وقد يقال للواحد : أساس وجمعه أسس ، والبهلول : العزيز الجامع لكل خير

طلبـوا وِتْرَ هاشِمٍ فشَفَوْها بعد مَيْلٍ مِنَ الزّمانِ ويَاسِ (١)
لا تُقِيلَنَّ عبدَ شمْسٍ عِثارًا واقْطَعَنْ كلَّ رَقْلَةٍ وأَوَاسِى (٢)
ذُلُّها أظـهَرَ التَّوَدُّدَ مِنْهَا وبها مِنْكُمُ كحَزِّ المَوَاسِى
ولقـدْ غاظَنِى وغاظ سَوائِى قُرْبُهُمْ من نمـارِقٍ وكراسِى (٣)
أنزِلوها بحَيْثُ أنْزَلَهَا الله بدار الهوان والإتعاسِ
واذكُروا مصرع الحسين وزيداً وقتيلاً بجانب المِهْرَاسِ (٤)
والقتيلَ الذى بحَرَّانَ أضحَى ثاوِياً بين غُرْبَةٍ وتَنَاسِ (٥)
نِعْمَ شِبْلُ الهِراش مولاك شِبْلٌ لو نجا من حبائل الإفلاسِ

فأمر بهم عبد الله ، فشُدِخوا بالعَمَدِ ، وبُسِطَتْ عليهم البُسُط ، وجلس عليها ودَعا بالطعام وإنه ليَسْمَعُ أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً ، ولمـا فرغ من الأكل قال : ما أعلَمنِي أكلتُ أكلةً قطُّ أهنأَ ولا أطيب لنفسى منها ! وقال

---

(١) يقال فيك ميل علينا بسكون الياء أما كل منتصب مثل الحائط فيقال : فى الحائط ميل بالتحريك

(٢) الرقلة : النخلة الطويلة ويقال ـ إذا وصف الرجل بالطول ـ : كأنه رقلة ، والاواسى : جمع آسية وهى : أصل البناء بمنزلة الأساس

(٣) النمارق جمع نمرقة وهى : الوسائد

(٤) زيد هو زيد بن على بن الحسين ، خرج على هشام بن عبد الملك سنة ١٢١ هـ وقتله يوسف بن عمر الثقفى أمير العراق لهشام وصلبه بالكناسة ـ محلة بالكوفة ـ عريانا هو وجماعة من أصحابه ، وقوله : وقتيلا بجانب المهراس فالمهراس : ماء بأحد ويريد : حمزة بن عبد المطلب ، وإنما نسب شبل قتل حمزة إلى بنى أمية لأن أباسفيان ابن حرب كان قائد كفار قريش يوم أحد

(٥) القتيل الذى بحران هو إبراهيم بن محمد بن على ، وهو الذى يقال له الإمام

لِشِبْل : لولا أنك خلطتَ كلامك بالمسألةِ لأغْنَمْتُكَ جميعَ أموالهم [١] ، ولَعَقَدْتُ لك على جميع موالى بنى هاشم .

وقال المتنبى :

فـلا تَغْرُرْكَ أَلْسِنَةٌ مَوالٍ ... تُقَلِّبُهُنَّ أَفْئِدَةٌ أعادى [٢]

وكُنْ كالمَوتِ لا يَرْثى لِباكٍ ... بكى منه ويَرْوَى وهو صادِ [٣]

فإن الجُرْحَ يَنْفِرُ بعد حينٍ ... إذا كان البِناءُ على فسادِ

« قوله : فإن الجرح ... ألبيت : مثله قول البُحْتُرى :

إذا ما الجُرحُ رُمَّ على فسادٍ ... تبَيَّن فيه تفريطُ الطبيب

وفى كليلة ودمنة : لا يَغُرُّ العاقلَ سكونُ الحقد فى القلب مالم يجدْ مُحَرِّكا فإنه كالجمْر المكنون مالم يجد حَطَباً ؛ والعداوةُ إذا وَجَدَت فُرْصَةً اشتعلَتْ فلا يُطْفِئها شىء دون النفس ...

---

(١) بالمسألة يريد : سؤاله إذ قال :

نعم شبل الهراش مولاك شبل ... لو نجا من حبائل الإفلاس

(٢) موال : جمع مولى وهو الولى والصديق يقول : لا تغتر بما تراه من إظهار ودهم فإن تلك الألسنة الموالية تقلبها أفئدة معادية

(٣) لا يرثى : لا يرحم . والصادى : العطشان ، يقول : كن قاسياً عليهم كالموت لا يرحم الباكى من خوفه ، ويروى وهو صاد كأنه لطلبه الشرب بعد الرى صاد ، أى لطلب النفوس ، ومعنى يروى : ينال مالو أدركه لروى

* كالموت ليس له رى ولا شبع *

(٤) نفر الجرح : هاج وورم بعد البرء وقوله : إذا كان البناء على فساد أى إذا نبت اللحم على ظاهره وله غور فاسد ، يعنى . أنهم يطوون العداوة فى أنفسهم إلى أن تمكنهم الفرصة .

نهيهم عن السكون إلى من تقدم منك إليه إساءة

يُحكى أن رجلا كان له عبدٌ سِنْدِيٌّ ، فتعرَّض لامرأتِه ، فعلِمَ الرجلُ بذلك ، فأخذَه وجَبَّه ، ثم تحوَّبَ لذلك ، فداواه ، فلما برأ اتَّفق أن غاب الرجل يوماً ، فعَمَدَ السِّنْدِيُّ المجبُوبُ إلى ابنيْنِ كانا لسيِّدِه فأخذهما وصَعَد السُّورَ ، فلما بصُرَ بالرجُل قال : والله إن لم تجُبَّ نفْسَك كما جَبَبْتَنى لأقذِفنَّهما من السور لِيَمُوتا ، وإنّ نفْسِى لأهْونُ من شربة ماء ، فلما رأى الرجلُ منه الجِدَّ جَبَّ نفْسَه ، فرَمَى العبدُ بالابْنَيْنِ من السُّور وقال : إنّ جَبَّك نفسَك قِصاصٌ لِمَا جببْتَنى ، وقتلَ ابنيْكَ زِيادةٌ أعْطيْتُكَها ...

وتزعمُ العرب : أن أخوَيْنِ كانا فى إبِلٍ لهما ، فأجْدبَتْ بلادُهما ، وكان بالقُرْب منهما وادٍ خَصِيبٌ وفيه حَيَّة تحميه من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان ، لو أنى أتيتُ هذا الوادىَ المُكْلِئَ فرعَيتُ فيه إبلِى وأصلحتُها ؟ فقال له أخوه : إنى أخاف عليك الحيَّة ، ألا ترى أن أحداً لا يَهبِطُ ذلك الوادى إلا أهلكَتْه ، قال : فوالله لأفعَلَنَّ ، فهبَطَ الوادى ورَعَى به إبلَه زَماناً ، ثم إن الحيةَ نَهشَتْه فقتلته ، فقال أخوه : والله ، ما فى الحياة بعد أخِى خير ، فلأطْلُبَنَّ الحية ولأقتلنَّها ، أو لأتبعَنْ أخى ، فهبط ذلك الوادىَ وطلَب الحية ليقتُلها طلباً بثأره ، فقالت له الحيةُ : فهلْ لك فى الصُّلح ، فأدعُك بهذا الوادى تكون فيه وأعطيك كلَّ يومٍ ديناراً ما بَقيت ؟ قال : أوَفاعلةٌ أنتِ ؟ قالت : نعم ، قال : إنى أفعل ، فحلف لها وأعطاها المواثيق : لا يَضرها ، وجعلت تعطيه كلَّ يوم ديناراً ؛ فكثُر مالُه حتى صار من أحسن الناسِ حالا ؛ ثم إنه ذكر أخاه فقال : كيف ينفعُنى العيشُ وأنا

أنظُرُ إلى قاتِلِ أخِى ! فعمَد إلى فأسِه فأخَذَها؛ ثم رَصَد لها، حتى خرجتْ، فضرَبها ضَربةً شَجَّتْ رأسَها، فلما رأت ما فعل قَطعَت عنه الدينار، فخاف الرجل شرَّها ونَدِم، فقال لها: هل لَكِ أن نتواثَقَ ونعودَ إلى ما كُنَّا عليه؟ فقالت: كيف أعاوِدكَ وهذا أثرُ فأسك وهذا قبرُ أخيك! وقد ذكر هذه الحكاية النابغة الذبيانى فى أبيات له لا داعى إلى إيرادها وقد جاء فى ختامها هذا البيت:

أبَى لكَ قبرٌ لا يزال مُواجِهى وضربةُ فأسٍ فوقَ رأسِىَ فاغِرَهْ

نهيهم عن احتقار العدو

قال ابن نُباتة السعدىّ:

وإذا عجزْتَ عن العدُوّ فدارِه وامْزُجْ له إن المِزاجَ وِفاقُ
فالنارُ بالماءِ الذى هو ضِدُّها تُعطِى النِّضاجَ وطبعُها الإحراقُ

وقالوا: لا يُتَّقَى العدوُّ القوى بِمثْلِ الخُضوع واللين، ومَثَلُ ذلك مثل الريح العاصف تَقْلَعُ الأشجار العِظام، لتأبِّيها عليها، ويَنْسَلِمُ منها النباتُ اللين لتمايُله معها.

ومن أمثالهم: إذا عَزَّ أخوك فهُنْ

« قال الإمام ثعلب: هذا مثل ومعناه: إذا تعظَّم أخوك شامخاً عليك فالتزِمْ له الهَوان؛ وعبارة الأزهرىّ: المعنى: إذا غلبك وقهرك ولم تقاوِمْه فتواضع له، فإنّ اضطرابك عليه يزيدك ذُلاًّ وخَبالا؛ وقال الزجّاج: الذى قاله ثعلب خطأ، وإنما الكلام. إذا عزَّ أخوك فهِنْ ـ بكسر الهاء ـ ومعناه إذا اشتدَّ عليك فهِنْ له ودارِه، وهذا من مكارِم الأخلاق، كما رُوِى عن

معاويةَ رضى الله عنه أنه قال : لو أنّ بينى وبين الناس شَعْرةً يمدّونها وأمُدّها ما انقطعت ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : كنت إذا أرْخَوها مَدَدْتُ ، وإذا مَدّوها أَرْخَيْت ، فالصحيح فى هذا المثل ، فهِنْ بالكسر، من قولهم : هان يَهِينُ : إذا صار هيناً لينا ، كقوله :

هَيْنُون لَيْنُون أيْسارٌ ذَوُو كَرم   سُوّاس مَكْرُمةٍ أبناءُ أطْهارِ

وإذا قالوا : فهُنْ فهو من الهَوان ، والعربُ لاتأمر بذلك ، لأنهم أعِزة أباؤن للضَّيم . وقال ابنُ سِيدَه . وعندى أن الذى قاله ثعلب صحيح لقول ابن الأحمر ـ شاعر إسلامى ـ :

وقارِعةٍ من الأيامِ لولا   سبيلُهم لزاحتْ عنك حِينا
دَبَبْتُ لها الضَّراءَ وقلتُ : أَبْقِى   إذا عزَّ ابنُ عمِّك أن تَهُونا[1]

المتبجح بإظهار الليان وإضمار العداوة

قال المتنبى :

وجاهِلٍ مَدَّه فى جَهْلِه ضَحِكى   حتى أتتْهُ يدٌ فَرّاسةٌ وفَمُ
إذا نَظَرْتَ نُيُوبَ اللَّيْث بارِزةً   فلا تَظُنّنَّ أنَّ الليث مُبْتَسِمُ

« مَدّه : أمهله وطوّل له ، وأصل الفَرْس : دق العنق يقول : رُبَّ جاهل خدَعَتْه مُجاملَتى وتَركَهَ فى حُمْقِه ضَحِكى منه حتى افترسته وبطشتُ به بعدَ زمان يعنِى أنه يُغضى عن الجاهل ويَحلُم إلى أن يُجازيَه ويَعصِف به ، ثم قال فى

(١) الضراء فى الأصل : الشجر الملتف فى الوادى يقال : فلان يمشى الضراء : إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر ، والضراء أيضا : المشى فيما يواريك عمن تكيده وتختله يقال : فلان لا يدب له الضراء ، يقال للرجل ـ إذا ختل صاحبه ومكر به : هو يدب له الضراء

البيت التالى : إذا كشر الأسد عن نابه فليس ذلك تبسّما ، بل قصداً للافتراس ، يريد: أنه وإن أبدَى بِشرَهُ ، وتبسُّمَه للجاهل فليس ذلك رضًى عنه ، وفى مثل هذا يقول أبو تمام :

قدْ قَلَّصتْ شفتاهُ من حَفِيظتِهِ   فَخِيلَ من شدّةِ التعْبِيسِ مُبتَسِما

العدوّ يكاشرك إذا حضرك

قال المثقّب العبدى ـ شاعر جاهلى ـ :

إنَّ شَرَّ الناس مَن يَكْشِرُ لى   حِينَ ألقاهُ وإن غبتُ شَتمْ

وقال ابن الرومىّ :

يُبيحُ لى صفحةَ السلامة والسِّلْـ   ـمِ ويُخفِى فى قلبــه مرَضا

وقال المتنبي :

أبْدُو فيسجدُ مَنْ بالسُّوءِ يذكرُنى   ولا أُعاتبهُ صفْحاً وإهْوانَا (١)

ومما يصح أن يذكَرَ هنا ما رُوى : أنه قيلَ لأعرابى : كيف فلانٌ فيكُمْ ؟ فقال : إذا حَضر هِبناه ، وإن غاب اغتبناه ، قال : ذاك هو السيد فيكم ...

من نظره ينبئ عن عداوته

وتحذيرهم من العداوة المستورة

قال شاعر :

سُتورُ الضمائِرِ مَهتوكةٌ   إذا ما تلا حظَت الأعيُنُ

وقال زُهَيرُ بن أبى سُلمَى :

وما يكُ فى عدوٍّ أو صديقٍ   تُخَبِّرْكَ العيونُ عن القُلوب

(١) يقول : إذا ظهرت لمن يذكرنى بالسوء فى غيبتى عظمنى وخضع لى وأنا أعرض عن عتابه إعراضا عنه واحتقارا له لأنه لايقدر أن ينظر إلىّ فى حضرتى

وقال عُمَيْرُ بن حُباب :

أَلَا رُبَّ مَن تدعو صديقاً ولو ترى مَقالتَه فى الغيب ساءك ما يَفْرِى (١)

يُسُرُّكَ بادِيهِ وتحت أديمهِ نَمِيَّةُ شَرٍّ تبترى عصبَ الظهْرِ (٢)

تُبِينُ لك العينان ما هو كاتمٌ من الضغْنِ والشحناءِ بالنَّظرِ الشَّزْرِ

وَفينا ـ وإن قيل اصطلحنا ـ تضاغنٌ كما طَرَّ أَوْبارُ الجِراب على النَّشْر (٣)

وقال أبو نواس :

كَمَنَ الشَّنْئانُ فيه لنا كَكُمُونِ النار فى حَجَرِهْ (٤)

وقبلَه :

وابنِ عَمٍّ لا يُكَاشِفُنا قد لَبِسْناهُ على غَمَرِهْ (٥)

وهى الأبيات التى يقول فيها :

لا أذودُ الطيرَ عن شجَرٍ قد بَلوتُ المُرَّ من ثمرِهْ

وقال زُفَرُ بن الحارث :

وقد ينبُتُ المرْعى على دِمَنِ الثَّرى وتبقَى حَزازاتُ النفوسِ كما هِيا (٦)

---

(١) يفرى : يختلق ويكذب ، من الافتراء

(٢) تبترى : تبرى وتنحت

(٣) جاء فى اللسان : النشر : الكلأ يهيج أعلاه وأسفله ندى أخضر تدفى منه الإبل إذا رعته ، واستشهد بالبيت ثم قال : يقول : ظاهرنا فى الصلح حسن فى مرآة العين وباطننا فاسد كما تحسن أوبار الجربى عن أكل النشر وتحتها داء منه فى أجوافها . وقال أبو منصور الأزهرى : وقيل النشر فى هذا البيت نشر الجرب بعد ذهابه ونبات الوبر عليه حتى يخفى ، قال : وهذا هو الصواب

(٤) الشنآن : البغض . يقول : البغض قد كمن فيه واستتر مثل كمون النار فى الحجر الذى يوريه ويقدحه

(٥) لا يكاشفنا : لا يظهرنا على العداوة ، ولبسناه على غمره : عاشرناه على ما به من حقد (٦) الدمن جمع دمنة والمراد : الموضع الذى يتلبد فيه السرقين وأبعار الغنم والبقر ، وفى الحديث : إياكم وخضراء الدمن ، قيل : وما ذاك . قال صلى الله

وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر الفتن فقال : يكون بعدها هُدْنَةٌ على دَخَنٍ وجماعةٌ على أقْذَاءٍ «وأصل الهُدنة : السكون بعد الهيج ، ومنه قيل للصلح بعد القتال بين كل مُتحاربين : هُدنة ، لأنها مُلاينَة وفترة سكون بين المتقاتلين ، والدخن : الكُدُورَةُ إلى السوادِ كالدخان . والمراد سكون على غِل»

ثبات العداوة الذاتية

قالوا فى ذلك : الوُدُّ والعداوة يُتَوارثان .

وفى كَليلةَ ودمنةَ : ليس بين العداوة الجوهرية صُلحٌ وإن اجتُهد ، فالماء وإن أُطيل إسخانُه فليس يمتنِع من إطفاءِ النار إذا صُبَّ عليها . ويُحكى : أنَّ أعرابيًا أخذ جَروَ ذئب ، فرباه بِلَبن شاةٍ عنده ، وقال : إذا ربيتُه مع الشاة أنِسَ بها ، فيذُبُّ عنها ويكونُ أشدَّ من الكلب ، ولا يعرف طبع أجناسه ، فلما قوىَ وَثبَ على شاةٍ فافترسها ، فقال الأعرابى :

أكلتَ شُوَيهتى ونشأتَ فينا فما أدرَاك أن أباك ذِيبُ

حمد المداجاة طلبا للفرصة

قال على كرّم اللهُ وجهه : أنكى الأشياء لعدُوّك أنْ لا تُعلمه أنك اتخذته عَدُوًّا .

وقال القاضى التَّنُوخِيّ :

آلقَ العدوَّ بوجهٍ لا قُطوبَ به يَكاد يقطُرُ من ماءِ البَشاشاتِ
فأحزمُ الناسِ مَن يَلقى أعادِيَه فى جسمِ حِقدٍ وثوبٍ من مَوَدّات

عليه وسلم : المرأة الحسناء فى المنبت السوء ، شبه المرأة بما ينبت فى الدمن من الكلأ يرى له غضارة وهو وبىء المرعى منتن الأصل

الرِّفقُ يمْنٌ وَخيرُ القوْلِ أصْدَقُه وكثرةُ المزحِ مِفتاحُ العداواتِ

المسرة بوقوع العداء بين أعدائك

فى كليلة ودِمْنة : من حق العاقل أن يرى معاداةَ بعضِ عَدوه لبعض ظَفَراً حَسناً ، ففى اشتغال بعضهم ببعض خَلاصه منهم .

دنىء يعاديك بلا سبب

قال المتنبي :

وأتعبُ مَن ناداكَ مَن لا تجيبُه وأغيَظُ من عاداكَ مَن لا تُشاكلُ

« يقول : أتعبُ مُناد لك مَن ناداك فلم تجبه ، لأنك لا تشفيه بالجواب ، فيَجْهَدَ فى النِّداء ، كما أنَّ أغيظ الأعداء لك مَن عاداك وهو دونك ، لأنك تترفَّع عن معارضتِه فلا تشتفى منه »

وقال شاعر :

يسْطو بلا سببٍ وتلك طبيعةُ الكلْبِ العقُورِ

تأسف من يعاديه لئيم أو دنىء

قال المتنبي فى عذر مَن يخاصم دنيئاً ويدافعه :

إذا أتتِ الإساءَةُ من لئيم ولم ألُم المسيءَ فمن ألومُ

وقال علىُّ بن الجهم فى تأسُّف من يعاديه لَئيم :

بَلاءٌ ليس يُشبههُ بَلاء عدَاوةُ غير ذى حسب ودينِ

يُبيحُك منه عِرضاً لم يَصُنه ويرتَع منكَ فى عِرضٍ مَصونِ

ويُحكى : أن خِنزيراً بَعث إلى الأسد وقال : قاتلْني ، فقال الأسد :

لستَ بكُفْئى ، وإن أنا قتلتُك لم يكن لى ذلك فخراً ، وإن قتلتنى لحقنى عارٌ عظيم ، فقال الخنزير : لَأُخبرنّ السباع بنُكولك ، فقال الأسد : احتمالُ العارِ فى ذلك أيسرُ من التلطّخِ بدمِك .

حثهم على العداوة بالقول لا بالفعل

قالوا : غَضبُ الجاهل فى قوله ، وغضبُ العاقل فى فعله

وقالوا : « ونشتُمُ بالأفعال لا بالتكلم » وقد تقدم

* * *

طائفة من عبقرياتهم

فى الناس وما جُبِل عليه السواد الأعظم من الحقد والحسد

وسوء الظن والشماتة وما جرى هذا المجرى

ولمناسبة عبقرياتهم فى العداوات نورد عليك هاهنا صدراً من عبقرياتهم فى النّاسِ وما جُبِل عليه السواد الأعظم من الحقد والحسد وسوء الظن والشماتة والمُزاح وما جرى هذا المجرَى

النـــاس

لا يزال الناس بخير ما تباينوا

من أروع ما قيل فى النّاسِ وحكمة تباينهم واختلافهم قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال الناسُ بخير ما تباينوا ؛ فإذا تساوَوْا هلكوا » «قال ابن الأثير فى النهاية مَعْناه : أنهم إنما يتساوَوْنَ إذا رَضُوا بالنقص وتركوا التنافس فى طلب الفضائل ودَرْكِ المعالى ، وقد يكون ذلك خاصا فى الجهل ؛ وذلك أن الناس لا يتساوَوْن فى العلم وإنما يتساووْن إذا كانوا كلهم جُهَّالا ، وقيل :

أراد بالتّساوى التحزّبَ والتّفرُّق وأنْ لا يجتمعوا على إمام ويدَّعِىَ كل واحد الحقَّ لنفسه فينفردَ برأيه . . . وقال أبو عبيد : أَحْسَبُ قوله : فإذا تساوَوا هلكوا ، لأن الغالبَ على الناس الشرُّ ، وإنما يكون الخيرُ فى النّادرِ من الرجال ، لعزّته ، فإذا كان التساوى فإنما هو فى السُّوء ... » وقال شاعر :

النَّاسُ أخيافٌ وشتّى فى الشِّيَمْ وَكُلُّهُمْ يجمَعُهُم بَيتُ الأدَمْ

« أخياف : ضُروبٌ مختلفة الأخلاق والأشكال . والأدَمُ . قيل : أراد آدمَ ، وقيل الأرضَ ، ولعله يشير بهذا إلى ما جاء فى الأثر : كلكم لآدم وآدمُ من تُراب ؛ وقال مُسْلمُ بنُ الوليد :

النّاسُ كلهُمُ لِضِنءٍ واحدٍ ثم اختلافُ طبائع فى أنفُس

« الضنء : الأصل » وقالوا : الناسُ فى اختلافِهم فى خُلقِهِم كاختلافهم فى خَلْقهم . وقال خالد بنُ صَفْوان : الناس أخيافٌ ، منهم مَنْ هو كالكلب ، لا تراه الدهرَ إلا هَرّارا على النـاس ، ومنهم كالخِنْزير ، لا تراه الدهر إلا قَذِراً ، ومنهم كالقرْدِ ، يَضحك من نفسه . وقال بعضهم : النـاس أخياف : عِلْق مَضِنَّة لا يُباع ، وعلقُ مَظِنة لا يُبتاع ، وقال أبو العتاهية :

مَن لَكَ بالمحْضِ وليسَ مَحْضُ يخبثُ بعضٌ ويطيبُ بَعضُ

« وقديما قلت فيما قلت ، فى كتابى « الفردوس » : ولِمَ لا يكون هذا الاختلافُ فى الحياة الدنيا بين الأفراد والجماعات إنما يُقصدُ به إلى معنى جميل ما منه بُدٌّ ! ألسْنا قد نُشِّئنا كأنغام آلات الموسيقى ، هِى وإن اختلفتْ غير أن اجتماعَها يُؤَلّف من هذا الاختلاف نغما موسيقيًّا متجانساً بديعاً يُطرب السمع ويملِكُ على المرءِ مشاعرَه . ولعل الأصل فى هـذا كله قوله عزَّ وجلَّ : قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شاكِلَتِه فَرَبُّكم أعلمُ بمَنْ هوَ أهدَى سبيلا . . وقوله :

ولا يزالون مختلفين إلا مَن رَحِم رَبُّك ولذلك خَلقهم وتمت كلمةُ رَبِّكَ لأملأنَّ جهنمَ مِنَ الجِنَّةِ والناسِ أجمعين . . .

وجدت الناس آخبر تقله

ومن أبدع ما قيل فى ذَمّ الناسِ ما جاء فى حديث أبى الدرداء : وَجدْتُ الناسَ آخْبُرْ تَقْلِهْ .. قال ابن الأثير فى النهاية : القِلَى : البغض ، يقال : قَلاَهُ يقْليهِ قِلًى و قَلًى : إذا أبغضه ، قال الجوهرى : إذا فتحت مددْتَ ، ويقلاه : لغة طيئ . يقول جرِّبِ الناس فإنك إذا جرَّبتهم قَلَيْتهم وتركتهم ، لما يظهر لك من بواطن سرائرهم . لفظُه لفظ الأمر ومعناه الخبر ، أى من جَرَّبهم أبْغضهم وتركهم : والهاء فى تقله : للسَّكت . ومعنى نَظْمِ الحديث : وجدت الناس مقولا فيهم هذا القول .

الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة

وجاء فى الحديث الشريف : الناسُ كإبلٍ مائةٌ لا تجدُ فيها راحِلَة . . .
« يعنى أنَّ المَرْضِىَّ المنْتخبَ من الناس فى عِزّة وُجُوده كالنجيب من الإبِلِ القوىِّ على الأحمال والأسفار الذى لا يوجد فى كثير من الإبل . وقال الإمامُ الأزهرِىُّ : الذى عندى فى هـذا الحديث : أنَّ الله تعالى ذَم الدنيا وحذَّرَ العبادَ سوء مَغبَتها وضربَ لهم فيها الأمثالَ لِيَعْتَبروا ، ويحذَروا ، وكان النبىُّ صلى الله عليه وسلم يحذِّرُهم كما حذَّرَهم الله ، فرَغِبَ بعضُ أصحابه بعدَه فيها وتنافسوا عليها حتى كان الزهْدُ فى النادِر القليل مِنهم فقال : تجدون الناس بعدى كإبل مائةٌ ليس فيها راحلة ، أى أنَّ الكاملَ فى الزهد فى الدنيا والرغبَةِ فى الآخرة قليل كقِلة الراحلة فى الإبل ، والراحلةُ هي

البعيرُ القوى على الأسفار والأحمال ، النجيبُ التامُ الخلْق الحَسَنُ المنظرِ ، ويقعُ على الذكَر والأنثى ، والهاء فيه للمُبالغة »

✡ ✡ ✡

وقال الشاعر :

الناس مِثل بُيوت الشِّعر كم رَجُلٍ منهمْ بألفٍ وكم بيْتٍ بديوانِ

وفى هذا المعنى يقول المعرّى :

الناس كالشِّعْرِ تُلفَى الأرضَ جائشةً بالجمعِ يُزْجَى وخيرُهُ منهمُ رَجُلُ

لو تكاشفتم ما تدافنتم

ومن كلمة لسيدنا رسول الله صلوات الله عليه : لَوْ تكاشَفْتم ما تدافَنْتم . يقول : لو علم بعضكم سريرة بعض لاستثقل تشييعَهُ ودَفْنه . ولعل أبا العتاهية قد أخذ من هذا الحديث قوله :

وفى الناس شرٌ لو بدا ما تعاشرُوا ولكن كساهُ اللهُ ثوبَ غِطاء

✡ ✡ ✡

وقالوا فى ذم الناس :

عَوَى الذئب فاسْتأنسْتُ بالذئب إذْ عَوَى
وَصَوَّتَ إنسانٌ فكدت أطيرُ

وقال المعرّى :

يَحْسُنُ مَرْأَى لبنى آدمٍ وكلهم فى الذَّوْق لا يَعْذُبُ
ما فيهمُ بَرٌّ ولا ناسِكٌ إلاَّ إلى نَفْعٍ له يجذِبُ
أفْضلُ من أفضلِهم صخرةٌ لا تَظْلِمُ الناس ولا تَكذبُ

وقال محمد بن يَسير :

سوْأَةً للنــاس كلهمُ أنَا فى هــذا منَ أوَّلهمْ
لسْتَ تدرى حينَ تَنْسُبُهم أين أدْناهم منَ أفضلِهم

وقال بعضهم : كنتُ عند الحسن البَصرىّ ، فقال : أسْمَعُ حَسيسا ، ولا أرَى أنيسا ، صِبيانٌ حيارَى ، مالهم تفاقدُوا عقولهم ، وفَرَاشُ نار ، وذِبّان طمع . وقيل لسفيان الثَّورى : دُلَّنا على رجل نجلس إليه ، فقال : تلك ضالة لا توجد ... وقال فُلانٌ : رأيتُ كُلثومَ بن عمرو العتّابىَّ يأكل خُبزاً فى الطريق ، فقلت له أما تستحى أن تأكل بحضرة الناس ؟ فقال : أرأيت لو كنتَ فى دار فيها بقرٌ ، أما كنتَ تأكل بحضرتهم ؟ قلت : نعم ، قال : فهؤلاء بقر ! ثم قال : إن شئتَ أريتُك دلالة على ذلك ، ثم قام ووعظ ، وجمع قوما ثم قال : رُوى عن غير وجه : أنّ من بلغ لسانهُ أرْنبَةَ أنفه أدخله الله الجنة ، فلم يبق أحد إلا أخرج لسانه ينظر هل يَبْلُغ !

وقال رجل لأحد الشعراء : أين سِكةُ الحمير ؟ فقال : اسلك أىَّ سِكة شئت فكُلّها دروبُ الحمير ... ومثل هذا من النَّوادر المستطرفة . . .

وقال بعضهم : الناس أربعة أصناف : آساد ، وذئاب ، وثعالب ، وضأن ، فأما الآساد فالملوك ـ ومَن إليهم من الحكام المستبدين ـ وأما الذئاب فالتجار ، وأمَّا الثعالب فالقُرَّاء المخادعون [1] . وأما الضأن فالمؤمن ـ يريد الطيب الكريم ـ يَنْهشه كلُّ من يراه . وقال كُثيِّر عَزّة :

سَوَاسٍ كأسْنان الحمار فما تَرى لِذِى شَيْبَةٍ منهم على ناشِئٍ فَضْلاَ

---

(١) لعل المراد بالقراء : النساك . وقد جاء فى الحديث : أكثر منافقى أمتى قراؤها قال ابن الأثير فى النهاية . أى أنهم يحفظون القرآن نفياً للتهمة عن أنفسهم وهم معتقدون تضييعه وكان المنافقون فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم بهذه الصفة

« يقال هُمْ سَوَاسِيَةٌ وسَواس وسُوَاسية : إذا استوَوْا فى اللؤم والخسّة والشر » وقال آخر :

شَبابُهُمُ وشِيبهم سواءٌ سَوَاسِيَةٌ كأسْنانِ الحمارِ

« وأسنان الحمار مستوية »

وقال طرفة بن العبد :

كلُّ خليلٍ كُنتُ خاللتُهُ لا تَرَكَ اللهُ لهُ واضحهْ (١)

كلهم أرْوغُ من ثعلبٍ ما أشبه الليلة بالبارحهْ

وقال المتنبي :

ولما صارَ وُدُّ الناس خِبا جَزَيْتُ على ابتسام بابتسام

وصِرت أشكُّ فيمن أصطفيه لِعلمى أنه بعض الأنام

وقال ابن الرومى :

واعلمْ بأن الناسَ من طينَة يَصدُقُ فى الثَّلْب لها الثالب (٢)

ولا علاجُ الناسِ أخلاقَهم إذَنْ لَفاحَ الحمأُ اللازِبُ (٣)

وقال المتنبي:

أذُمُّ إلى هـذا الزمانِ أُهَيْلَهُ فأعلمُهُم فَدْمٌ وأحْزَمُهم وغْدُ

وقال :

إنمـا أنفُسُ الأنيسِ سِباعٌ يَتفارَسْنَ جَهْرَةً واغتيالا

مَن أطاقَ التماسَ شيءٍ غِلاباً واغْتِصاباً لم يَلتمِسهُ سُؤالا

كلُّ غادٍ لحــاجةٍ يَتَمنى أنْ يَكونَ الغَضَنْفَرَ الرِّئبالا

(١) الواضحة : الأسنان التى تبدو عند الضحك . (٢) الثلب : العيب

(٣) الحمأ : الطين الأسود المنتن ، واللازب . الذى يلزق ويصلب

وقال :

إنّا لِفِى زمن تَركُ القَبيح به مِنْ أكْثرِ النَّاسِ إحسانٌ وَإجْمال
لولا المشقة سادَ الناسَ كُلُّهُمُ الجودُ يُفقِرُ والإقدام قَتَّال

* * *

وقالوا فى أن من شِيم الناس أن تَحْمَدَ مَنْ رَشَدَ وَتلومَ مَنْ يَغْوِى وفى ذلك يقول القُطامِىُّ :

والناس مَن يَلقَ خَيْرا قائلونَ لَهُ ما يَشتَهِى ولِأُمِّ المخطئ الهَبَلُ[1]

وقد أخذه من قول المُرَقّش الأصغر :

وَمَن يلقَ خيراً يَحْمَدِ الناس أمرَه ومَن يَغْوِ لا يَعْدَمْ على الغَىِّ لائما

وهذا لَعَمْرِى من عَناوين اللؤم المركب فى الطباع .

وقالوا فى انتكاس الأحوال وارْتِفاعِ السَّفِلَة الأنذال والقائل : خِدَاشُ بنُ زهير ـ شاعر جاهلى من شعراء قيس ـ وهو ابن عمّ لبيد :

فإنَّك لا تُبالى بَعدَ حَوْلٍ أظبيٌ كان أُمَّك أمْ حِمَارُ
فقد لِحَق الأسَافلُ بالأعالى وماج اللؤْمُ واختلط النِّجارُ
وعادَ الفِنْدُ مِثلَ أبى قُبَيْسٍ وسِيق معَ المُعَلهَجَةِ العِشارُ

« النِّجارُ : الأصل . والفِنْدُ : قطعةٌ من الجَبَلِ طُولاً ، وأبو قُبَيس جَبل بمكةَ ، والمراد به : الرَّجُلُ الشريف ، كما يُراد بالفِند ، الرجل الوضيع ، والمعلهجة : المرأة اللئيمة الأصل الفاسدة النسب . والعشار : جمع العُشَراء : الناقة مضى حملها عشرة أشهر ؛ يقول هذا الشاعر : أمّا وقد لحق الأسافل بالأعالى واختلطت الأصول وماج أمر الناس واضطرب وعظم شأن اللؤم ونفقت

---

(١) الهبل : الثكل ـ الفقد ـ

سُوقهُ وعاد الخسيس مثلَ الشريف حتى سِيقت الإبل الحوامل فى مهر اللئيمة وتغير بذلك الزمان واطرحت مراعاة الأنساب فلا تبالى بعد قيامك بنفسك واستغنائك عن أبويك ، مَنِ انتسبت إليه ، شريفاً كان أم وضيعاً ... وضرب المثل بالظبي والحمار وجعلهما أُمَّيْنِ وهما ذكران لأنه مثل لا حقيقة ، وقصد قصد الجنسين ولم يحقق أبوّة . وذكر الحول ، لِذِكْر الظبي والحمار ، لأنهما يستغنيان بأنفسهما بعد الحول ؛ فهذا شاعر ساخط كما ترى »

وقال ابن الروميّ :

دَهْرٌ عَلَا قَدرُ الوضيع به ... وَهوَ الشريفُ يَحُطّهُ شَرَفُهْ
كالبَحرِ يَرْسُبُ فيه لُؤْلُؤُه ... سُفْلًا وتَطفُو فوقهُ جِيَفُهْ

وقال :

رأيتُ الدَّهرَ يَرْفَعُ كلَّ وَغْدٍ ... ويَخْفِضُ كلَّ ذى شِيَمٍ شَرِيفَهْ
كمِثْلِ البحرِ يَغرَقُ فيه حَيٌّ ... ولا ينفَكُّ تطْفُو فيه جِيفَهْ
أوِ الميزان يَخفِضُ كلَّ وافٍ ... ويَرْفعُ كُلَّ ذِى زِنَةٍ خَفِيفَهْ

وقال الوزير المغربى :

إذا ما الأمورُ اضطَرَبْنَ اعتَلَى ... سَفِيهٌ يُضَامُ العُلَى باعتلائه
كَذا الماء إنْ حَرَّكتْهُ يَدٌ ... طَفا عَكِرٌ راسبٌ فى إنائه

وقال المعرى فى الناس :

لقد فَتَّشتُ عن أصحابِ دِينٍ ... لَهُم نُسكٌ وليس لَهُم رِيَاءُ
فألفَيْتُ البهائِمَ لا عُقولٌ ... تُقيمُ لها الدليلَ ولا ضِياءُ
وإخوانُ الفَطانةِ فى اختيالٍ ... كأنهُم لِقومٍ أنبياءُ
فأمَّا هؤلاءِ فأهلُ مَكْرٍ ... وأما الأولون فأغبياءُ

فإن كان التُّقى بَلَهًا وعِيًّا فأعْيــارُ المذلّةِ أتقياء

« الأعيار : جمع عَير ، وهو الحمار يضرب به المثل فى الذل قال المتلمس :

ولا يقيم على ضَيْمٍ أَلَمَّ به إلاَّ الأذلاَّنِ عَيْرُ الحىّ والوَتِدُ

فذاك يُخْسَفُ مَرْبوطا بِقُوَدِه وَذا يُشَجُّ ولا يَرْثِى له أحد

وقال :

بَنِى الدهر مَهْلًا إن ذَمَمْتُ فِعالكم فإنى بنفسى لا مَحالة أبدأُ

مَتى يَتَقَضَّى الوقتُ والله قادِرٌ فنَسْكُنُ فى هذا التراب ونهدأُ

تجاوَرَ هذا الجسمُ والرُّوح بُرهَةً فما بَرِحَتْ تأذَى بذاك وتَصْدَأُ

وقال المعرى :

جَرَّبْتُ دَهْرِى وأهْلِيهِ فما تَرَكَتْ لِىَ التجارب فى وُدِّ امْرِئٍ غَرَضا

وقال :

أولو الفضل فى أوطانهم غُرباءُ تَشِذُّ وتَنأَى عنهم القُرَباءُ

تواصَلَ حَبلُ النسل ما بين آدمٍ وبينى ولم يُوصَلْ بِلامِىَ باءُ

تَثاءَبَ عَمْرٌو إذ تثاءَبَ خالِدٌ بِعَدْوَى فما أعدتنى الثُّوباءُ

وزَهَّدَنِى فى الخَلْقِ مَعرفتى بهم وعِلمِى بأن العالَمِينَ هَباءُ

وقال المعَرّى :

أُرائيك فلْيغفِرِ لِىَ الله زَلّتى بذاك ودِينُ العالمين رِئاءُ

وقد يُخْلِفُ الإنسانُ ظَنَّ عَشِيرِه وإنْ راقَ منه مَنْظَرٌ وَرُواءُ

إذا قومُنا لم يَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَه بِنُصْحٍ فإنّا مِنْهُمُ بُرَآءُ

وقال :

إذا بَكرٌ جَنَى فتَوَقَّ عَمْرًا فإنّ كِلَيْهما لأبٍ وأُمّ

وفى كُلِّ الطباع طباعُ نَكْزٍ وليس جميعهُنّ ذواتِ سُمٍّ

« النكز : لسع الحية »

رأيتُ الحقَّ لؤلؤةً توارتْ بلجٍّ من ضلال النّاس جَمٍّ

وقال :

رِياءُ بَنِي حوّاءَ فى الطبع ثابتٌ فمنهم مُجِـدٌّ فى النفاقِ وهازلُ

سَخَوْا لِيقُولَ النّاسُ جادوا وأقْدَمُوا لِيُذْكَرَ فى الهيجاءِ قِرنٌ مُنازلُ

وقال :

النّاسُ مِثلُ الماء تَضرِبهُ الصَّبا فيكونُ منه تَفرُّقٌ وتَأَلُّفُ

والخيْرُ يَفعَلهُ الكريم بِطَبْعِه وإذا اللئيم سَخا فَذاكَ تكلُّفُ

شَكَوْتَ مِنَ أهل هذا العصر غَدْرَهُم

لا تُنكِرَنْ فَعَلَى هذا مَضَى السَّلَفُ

وقَلَّما تَسْكُنُ الأضغانُ فى خَلَدٍ إلّا وفى وجْه مَن يَسْعَى بها كَلَفُ

أمسَى النفاقُ دُرُوعا يُسْتَجَنُّ بها منَ الأذى ويُقوِّى سَرْدَها الحلِفُ

« الحلف : اليمين »

تَحَسَّنَ الوَعْدَ بالإنجاز تتبعه إذا مَواعِدُ قوم شانَها الخُلفُ

وقال :

إذا فَزِعنا فإنَّ الأمنَ غايتُنا وإن أمِنَّا فما نخلو من الفَزَعِ

وشيمة الإنسِ ممزوجٌ بها مَلَلٌ فما تدومُ على صَبرٍ ولا جَزَعِ

وقال :

إذا ما أسَنَّ الشيخُ أقصاه أهْلُهُ وجارَعليه النَّجلُ والعَبْدُ والعِرْسُ

« العرس : الزوجة »

يُسَبِّحُ كيما يَغفِرَ اللهُ ذنبَه رُوَيْدَكَ فى عَهدِ الصِّبا مِلءُ الطِّرْسُ

وقال :

اهْرُبْ من النَّاس فإن جئتَهُم فمِثلَ سَأبٍ جَرَّه السَّاحِبُ [1]

يَنْتَفِع الناسُ بما عِنْدَه وهْوَ لَقًى بينهم شاحِبُ [2]

وقال :

إنْ مازتِ الناسَ أخلاقٌ يُعاشُ بها فإنهم عنــد سُوءِ الطبع أسْوَاءُ

أوْ كان كلُّ بَنِي حَوَّاءَ يُشْبِهُنِي فبِئْسَ ما وَلَدَتْ فى الخَلْقِ حوَّاءُ

بُعْدِى من الناس بُرءٌ من سَقامِهِم وقُرْبُهم لِلْحِجَى والدِّين أدواءُ

كالبَيْتِ أُفْرِدَ لا إيطاءَ يُدْرِكُه ولا سِنادَ ولا فى اللفظ إقْواءُ [3]

وقال :

قد حُجِبَ النُّورُ والضِّياءُ وإنما دِينُنــا رِياءُ

يا عالِمَ السُّوءِ ما علمنا أنَّ مُصَلِّيكَ أتقِياءُ

كم وَعَظَ الواعظونَ مِنَّا وقامَ فى الأرض أنبِياءُ

فانصَرَفوا والبــلاءُ باقٍ ولم يَزُلْ داؤُكِ العَيـاءُ

« زال يزول : راح وذهب؛ والعياء : الذى لا يبرأ منه »

حُكمٌ جَرَى للمليك فينا ونحن فى الأصل أغبِياءُ

---

(١) السأب : زق الخمر

(٢) اللقى : الملقى على الأرض ، والشاحب : المهزول المتغير اللون لعارض كمرض ونحوه

(٣) الايطاء : تكرر القافية بلفظها ومعناها ، والاقواء : اختلاف إعراب القوافى ، والسناد أنواع وهو كل عيب يحدث قبل الروى كارداف قافية وتجريد أخرى وهذه من عيوب القافية

وقال :

مُلَّ المقامُ فكم أعاشِرُ أُمَّةً أَمَرَت بِغَيرِ صلاحِها أُمراؤُها
ظلموا الرَّعيَّةَ واستجازوا كيدَها فَعَدَوا مَصالِحَها وهُم أُجَراؤُها

وقال بشار بن برد :

خَيرُ إخوانِكَ المُشارِكُ فى المُـــرِّ وأينَ المُشارِكُ فى المرِّ أينا
الذى إن شهِدْتَ سَرَّك فى الحــــىِّ وإنْ غِبْتَ كان أُذْناً وعَينا
مِثلُ سِرِّ الياقوتِ إن مَسَّهُ النا رُ جَلَاهُ البَـلاءُ فازداد زَينـا
أنتَ فى مَعْشَرٍ إذا غِبْتَ عنهم بَدَّلوا كُلَّ ما يَزِينُكَ شينا
وإذا ما رَأَوْكَ قالوا جميعـا أنتَ مِنْ أكْرَمِ البَرَايا علينا
ما أرَى الأنام وُدًّا صحيحا عادَ كُلُّ الوِدادِ زُوراً ومَيْنا

وقال ابن الرومى :

ذُقْتُ الطُّعومَ فما التذذتُ براحة مِنْ صُحْبَةِ الأخيارِ والأشرارِ
أمَّا الصديقُ فلا أُحِبُّ لِقــاءه حَذَرَ القِلَى وكراهَةَ الإعوارِ
وأرى العَدُوَّ قَذًى فأكرهُ قُرْبَه فهجرت هــذا الخلقَ عن إعْذار
أرنى صديقاً لا ينوء بِسَقْطةٍ من عَيْبه فى قدرِ صَدْرِ نهار
أرنى الذى عاشَرْتَه فوجدتَه مُتَغاضِياً لكَ عن أقلِّ عِثــار
أأُحِبُّ قوماً لم يُحِبُّوا رَبَّهم إلا لِفِرْدَوْسٍ لديه ونار

وقال :

عدوُّك مِنْ صَديقِكَ مُسْتفادٌ فلا تَسْتَكْثِرَنَّ منَ الصِّحابِ
فإنَّ الداء أكْثَرَ ما تَراه يَحُولُ من الطعام أو الشراب
إذا انقلبَ الصّديقُ غداً عَدُوًّا مُبيناً والأمورُ إلى انْقلاب

ولو كان الكثيرُ يَطيب كانت مُصاحبةُ الكثير من الصواب
وما اللُّجَجُ المِلاحُ بِمرْوِيات وتلقى الرِّيَّ فى النُّطَفِ العِذَابِ

وبعد فإن هذا الباب مُتَسِع جدا، وسيمر عليك كثير من عبقرياتهم فيه فى باب الإخوانيات وباب الطبائع، فلْنَجتزئ بهذا المقدار.

* * *

الغــــوغاء

ولهم فى السُّقَّاط والسَّفِلةِ وهذه الزِّجْرِة من الناس كلام كثير، فمن ذلك قولُ واصِل ابن عَطاء: ألا قاتلَ اللهُ هذه السَّفِلة، تُوادُّ مَن حادَّ الله ونبيَّه، وتُحادُّ مَن وادَّ الله ونبيه، وتَذُمّ مَن مَدَحه الله، وتمْدَحُ مَن ذمَّه الله، عَلَى أنَّ بهم عُلِمَ الفَضلُ لأهل الطبقة العاليةِ، وبهمْ أُعطِيتِ الأوساط حَظّا من النُّبل...

ومنه قول سيدنا على رضى الله عنه. وقد أُتِىَ بجَانٍ ومعه غوغاء — فقال: لا مَرحباً بوجوه لا تُرى إلا عند كُلِّ سَوْأةٍ... وقولُه رضى الله عنه: هم الذين إذا اجتمعوا ضَرُّوا وإذا تفرقوا نفَعُوا؛ فقيل له: قد عَلِمْنا مَضَرة اجتماعهم فما منفعةُ افتراقهم؟ فقال: يرجِعُ أصحاب المِهَن إلى مِهنِهم، فينتفعُ الناس بهم، كرجوع البنّاء إلى بِنائه، والنساجِ إلى مَنسِجه، والخبّاز إلى مَخبزه.

وكان الحسن البَصرى إذا ذُكر الغوغاء والسُّوَق يقول: قتلَةُ الأنبياء، وكانوا يقولون: العامّة كالبَحْر إذا هاج أهْلك راكبه، وكان المأمون الخليفة العباسى يقول: كُلُّ شَر وظُلم فى العالم فهو صادرٌ عن العامّة والغوغاء؛ لأنهم قتلة الأنبياء، والسُّعاة بين العلماء، والنمّامون بين الأوِدّاء، ومنهم اللصوص

وقُطّاع الطريق والطَّرارُونَ والمحتالون والساعون إلى السلطان ، فإذا كان يوم القيامة حُشِرُوا على عادتهم فى السعاية ، فقالوا : رَبنا أطَعْنَا سادَتنا وكبراءنا فأضلونا السَّبيلا ، ربنا وآتهم ضِعفَين منَ العذابِ والعَنْهُم لعْناً كبيرا ... وقال الجاحظ : الغاغة والباغة[1] والحاكة كأنهم إعذارُ[2] عامٍ واحد ، ألا ترى أنك لا تجد أبداً فى كل بلدة ، وفى كل عصر ، هؤلاء ، إلا بمقدار واحد وجهة واحدة ، من السخف والنقص والخمول والغباوة .

ومن كلمة لسيدنا على فى فَضْل العِلم على المال ووَصف الطَّغامِ — قال كُمَيْلُ بن زياد النخَعى : أخذ بيدى أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فأَخرجنى إلى الجبّان[3] ، فلما أَصْحَرَ تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ[4] ، ثم قال : يا كميلُ بنَ زياد ، إن هذه القلوبَ أوْعيَةٌ فخيرها أوْعاها ، فاحفَظْ عنى ما أقول لك ، الناس ثلاثةٌ ، فعَالِمٌ ربّانِىٌّ ، ومُتَعلِّمٌ على سَبيل نجاةٍ ، وهَمَجٌ رَعاعٌ ، أَتْباعُ كُلِّ ناعِقٍ يَميلون مع كل ريح ، لم يَسْتضِيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركنٍ وَثيق ، يا كميلُ ، العلم خَيرٌ من المال ، العلم يحرُسُك وأنت تحرُسُ المال ، والمال تَنْقُصهُ النَّفقَة والعلمُ يَزْكو على الإنفاق ، وصنيعُ المال يَزول بِزواله ؛ يا كُمَيلُ بنَ زياد ، هَلَكَ خُزّانُ الأموال وَهم أحياء ، والعلماء باقون ما بَقِىَ الدهر . إلى آخر هذه الخطبة العُلْوِيَّة التى تراها فى نهج البلاغة ...

---

(١) الذى فى اللسان : وبوغاء الناس : سفلتهم وطاشتهم وحمقاهم .

(٢) الإعذار : الختان وطعام الختان وفى الحديث : كنا إعذار عام واحد ، أى ختنا فى عام واحد ، وكانوا يختنون لسن معلومة فيما بين عشر سنين وخمس عشرة

(٣) الجبان والجبانة يريد الصحراء .

(٤) تنفس الصعداء : أى تنفس تنفساً ممدودا طويلا

وقال معاوية لِصَعْصَعَةَ بن صوحان : صِف لى الناس ، فقال : خُلِق الناس أطوارا ، طائفة للسيادة والولاية ، وطائفة للفِقْه والسُّنة ، وطائفة للبأْسِ والنَّجْدة ، ورِجْرِةٌ بين ذلك ، يُغْلُونَ السعر ، ويُكَدِّرون الماء ، إذا اجتمعوا ضرّوا ، وإذا تفرقوا لم يُعرَفوا .. ومن طريف التفاسير وغريبها ما قيل فى قوله تعالى : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم » أى من السلطان « أو من تحت أرجلكم » أى من السِّفِل .

وقال دِعْبِل :

ما أكثرَ الناسَ لا بل ما أقلَّهُمُ ... الله يعــلم أنّى لم أقُلْ فَنَدَا
إنّى لأفتَحُ عَيْنِى حين أفتَحُها ... على كثير ولـكن لا أرى أحدا

وهم يشبهون سوادَ الناس بالدَّبا ، والدَّبا مقصور : الجراد قبل أن يطير ، وفى حديث عائشة قالت : كيف الناس بعـد ذلك ؟ قال : دَبًى يأكل شِدادُهُ ضِعافَه حتى تقومَ عليهم الساعة ...

قلة الوفاء فى الناس وشيوع الغدر والمكر فى عامّتهم

وقالوا فى قلة الوفاء فى الناس ووصف عامتهم بالغدر ، والمكر السيئ ، ومن أروع ماقيل فى ذلك قوله عز وجل : « وما وَجَدْنا لأكْثَرِهِمْ مِن عَهْدٍ وإنْ وَجَدْنا أكثرهم لفاسقين » ..وقال سبحانه : « الذين يَنقُضون عَهْدَ آللهِ من بعدِ ميثاقه ويَقطعون ما أمرَ اللهُ به أنْ يُوصَلَ ويُفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنةُ ولهم سُوءُ الدَّارِ » ...

وقال : « أفأَمِنَ الذين مَكَرُوا السيئاتِ أن يَخسِفَ اللهُ بهمُ الأرْض أو يأتِيَهمُ العذابُ من حيثُ لا يَشعُرُون » وقال : ولا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ

إلا بأهـلِه ... وقال : ومَن نـكَثَ فإنمـا يَنـكُثُ على نفْسِه . وقال : إنمـا بَغيُكم على أنفسكم ... وقال المتنبي :

غَيرِى بأكْثرِ هذا الناسِ يَنخدعُ   إنْ قاتَلوا جَبُنوا أو حدَّثوا شَجُعوا
أهـلُ الحفيظة إلاَّ أن تُجرِّبَهم   وفى التجارِب بعد الغَيِّ ما يَزَع

وقال أبو فراس الحمدانى :

بمَنْ يَثِقُ الإنسان فيما ينوبُه   ومن أين للحُرِّ الكريم صحاب
وقد صارَ هذا الناسُ إلا أقلَّهم   ذئاباً على أجسادهن ثيابُ

وقال أبو تمام :

إنْ شئت أن يَسْوَدَّ ظنُّكَ كلُّه   فأَجِـلْهُ فى هذا السواد الأعظم
ليس الصديق بمن يعيرك ظاهراً   متبسما عن باطن متجِّهم

« يقول : إن شئت أن لاتظن بأحد خيراً فاختبر من شئت من هذاالناس »

وكان يحي بن خالد البرمكى إذا اجتهد فى يمينه يقول : لا والذى جعل الوفاء أعزَّ مايرى . وكان يقول : هو أعزُّ من الوفاء . وقالوا : من عامل الناس بالمكر كافأوه بالغدر

وكانت العرب إذا غَـــدَرَ منهم غادر ، يوقدون له بالموسم ناراً وينادون عليه يقولون : ألاَ إن فلاناً غدر ... وقالوا : رُبَّ حيلة أهلكت المحتال ، وقال امرؤ القيس :

أَحارِ بْنَ عَمْرٍو كأنِّى خَمِرْ   ويَعْدُو على المْرءِ ما يأتمِرْ

« رجل خَمِر : خالطه الداء ، وقوله ويعدو الخ : أراد أن المرء يأتمر لغيره بسوء فيرجع وَبالُ ذلك عليه » وقال شاعر لاأذكره :

وكم من حافِرٍ لأخيه ليلا   تَرَدى فى حفيرته نهـارا

ومن قولهم فى وصف الغـادر : فلان يَحْـو الأماناتِ حَسْواً ، وفلان

أغدر من الذئب، قال: ❊ هو الذِّئْبُ ولَلذِّئْبُ أَوْفَى أمانة ❊

وقال: ❊ والذِّئْبُ يأدُو للغزالِ يأكُلُهْ ❊

« يأدو للغزال: يَختِله ليأكله، قال الشاعر:

حَنَتْنِى حانيات الدهر حتَّى كأنى خاتلٌ يأدو لِصَيد »

ويقال: رَكِبَ فلان السَّخْبَرَ: إذا غدر، قال حسان بن ثابت:

يا حارِ مَن يَغـدِرْ بذمّة جاره منكم فإن محمداً لم يَغـدِر

إنْ تَغدِرُوا فالغَدْرُ مِنكُمْ شِيمَةٌ والغدر يَنْبُتُ فى أصول السَّخْبَرِ

قال ابن برّى: إنما شُبّه الغادر بالسخبر، لأن السخبر شجر إذا انتهى استرخى رأسه ولم يبق على انتصابه، يقول حسان: أنتم لا تثبتون على وفاء كهذا السخبر الذى لا يثبت على حال، بينا يُرَى مُعتدلا منتصباً، عاد مسترخياً غير منتصب »

وبعد فإنهم على هـذا نصحوا بمداراة الناس ما دام الاستغناء عنهم غير مستطاع. قال رجل لابن عباس: ادعُ الله لى أن يُغنِيَنى عن الناس فقال: إنّ حوائج الناسِ تتصل بعضها ببعض كاتصال الأعضاء، فمتى يَستغنِي المرء عن بعض جوارحه؟ ولكن قل: أغنِنى عن شِرار الناس. وروى: أن بعضهم كان يطوف ويقول: من يشترى منى بضائع بعشرةِ آلافِ دِرهم؟ فدعاه بعض الملوك وبذل له المال فقال له: اعلم أن اللهَ لم يخلق خلقاً شرا من الناس، وإن لم يكن بُدٌّ من الناسِ فانظر كيف تحتاج أن تعامِل ما لا بُدّ منه ولا غِنَى بك عنه ... ثم قال: هل يساوى هذا الكلام عشرة آلاف درهم؟ قال: دونك المال، ولم يأخذه ... وقالوا: ثلثا التعايش، مداراة الناس. وقال النَّظّام ـ إبراهيم بن سيار أحد شيوخ المعتزلة ـ: ما يَسُرّنى ترك المداراة ولى حُمْرُ النَّعم ،

قيل له : لِمَ ؟ قال : لأن الأمر إذا غَشِيَك فشَخَصت له أرْداك ، وإذا طأطأت له تخطّاك . . . وقال معاوية : لو كان بينى وبين الناس شَعَرةٌ ما انقطعت ، لأنهم إذا جذبوها أرسلتُها ، وإذا أرسلوها جذبْتُها . . . وقال أكثم بن صَيْفِيّ : الانقباضُ من الناس مَكْسبةٌ للعداوة ، وإفراط الأنس مَكْسَبة لقرناء السوء ، ومن أمثال العرب : لاتكن حُلْوًا فتُسْتَرَط ولا مُرًّا فتُلْفَظ « استرطه ابتلعه » وجاء فى كتاب للهند : بعض المقاربة حزم ، وكل المقاربة عَجْز ، كالخشبة المنصوبة فى الشمس ، تُمالُ فيزيد ظلها ، ويُفْرَطُ فى الإمالة فيَنْقُص الظِّلُّ . . .

وقال الطغرائى فى لاميته المشهورة المعروفة بلامية العجم :

وحُسْنُ ظَنِّكَ بالأيام مَعْجَزةٌ فظُنَّ شرا وكن منها على وجل
غاض الوفاءُ وفاضَ الغدر وانفرجَتْ مَسافةُ الخُلْفِ بين القول والعمل
وإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعوّل فى الدنيا على رجل

الأنذال واللئام

اللؤم : ضِدُّ العِتْقِ والكَرَم ، واللئيم : الدَّنِىء الأصلِ الشَّحِيحُ النَّفْس . والنَّذالَة : الخِسَّةُ والسَّفالة ورَكاكةُ العقل والتأخُّرُ عن المكارِم ، والنذلُ : الخسيسُ الحقيرُ الفَسْل الذى لامُرُوءَة له . ومن عبقرياتهم فى هذا الصنف من الناس قولُ أبى الأسد نُباتة بنِ عَبد الله التميمى — شاعر كان معاصِراً لأبى تمام : —

إنْ يَبْخلوا أوْ يَجبُنُوا أوْ يَغْدِروا لا يَحفِلوا
يَغْدُوا عليكَ مُرَجِّلِينَ كأنهمْ لمْ يفعَلوا

كأَبِي بَراقِشَ كلَّ لَوْ ن لَوْنُهُ يَتَخَيَّلُ

« وَصَفَ قوماً مشهورينَ بالمقابح لا يَسْتَحُونَ ولا يَحْتَفِلون بمَنْ رآهم على ذلك. وقوله : يغدوا هو بَدَلٌ مِن قوله : لا يَحْفِلوا ، لأنَّ غُدُوَّهم مُرَجِّلِين دليل على أنهم لم يَحْفِلوا . والتَّرْجيل : مَشْطُ الشَّعَر وإرْساله. وأبو بَراقِشَ طائرٌ صغير أَعْلَى ريشه أغبر وأوسَطُه أحْمر وأسْفَلُهُ أسْوَدُ فإذا انْتَفَش تغَيَّرَ لَونُه ألوَاناً شتَّى. وهذا أبو بَراقِشَ غيرُ بَراقِشَ التى وَرَدَتْ فى قولهم: على أهلها دَلَّتْ براقِشُ ، فهذه اسم كلبةٍ لِقَوْم مِنَ العَرَبِ أُغِيرَ عليهم فى بعض الأيام، فهَرَبوا وتبِعَتهم بَراقِشُ فرجع الذين أغاروا خائبين؛ فسمعتْ براقش وَقْعَ حَوَافِرِ الخيل ، فَنبحَت فاسْتَدَلُّوا على مَوضِعِ نباحِها ، فَعَطَفُوا عليهم واستباحُوهم ، فذهبتْ مثلاً وقالوا : على أهلها تجنى براقش ، قال حَمْزَةُ بنُ بِيض :

لَمْ تَكنْ عن جنايةٍ لَحِقَتْنى لا يَسارِى ولا يمينى جَنَتْنِى

بَل جَناها أخٌ عَلَىَّ كريمٌ وعَلَى أهلها بَراقِشُ تَجْنِى

وقال آخر — وهى من أبيات الحماسة — حَماسَةِ أبى تمام :-

أناخَ اللؤْمُ وَسْطَ بَنِى رَباحٍ مَطِيَّتَهُ فأَقْسَمَ لا يَرِيمُ

كذلِكَ كلُّ ذى سَفَرٍ إذا مَا تَناهَى عنـد غايَتِهِ يُقِيمُ

« يقال : أَنَخْتُ البَعِيرَ فَبَرَك ، ولا يقال فَناخَ ، وهذا من باب ما استُغْنِيَ عنه بِغيْرِه ، ولا يَرِيم : لا يَبْرَح ، وقوله : كذلك فى مَوضع الحال لأن كل ذى سَفر مبتدأ ومقيم خبره ، كأنه قال : وكلُّ مسافِر إذا ما انتهى إلى غايته يُلقى عَصاهُ كذلِك ، أى مثلَ إقامةِ اللُؤْمِ فيهم ، وقد نَقلَ البُحْتُرِىُّ هـذا المعنى إلى المَدْحَ فقال :

إذا ما رأَيْتَ المجْدَ ألقَى رَحْلَهُ فى آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لمْ يَتحَوَّلِ »

وقال جرير :

وَكُنْتَ إذا نَزَلْتَ بدَارِ قومٍ رَحلْتَ بِخزْيَةٍ وتَرَكْتَ عارا

وقال :

تَميمٌ بِطُرْقِ اللُّؤْم أَهْدَى مِنَ القَطا وَلَوْ سَلكَتْ سُبْلَ المكارِمِ ضَلَّتِ

وقالوا فيمن لا يَصْلُح لِخَيْرٍ ولا شَرٍّ : فُلانٌ أمْلَسُ ليسَ فيه مُسْتَقَرٌّ لِخَيْرٍ ولا شَرّ . وقالوا : فلانٌ ما هو بِرَطْب فيُعْصَر ولا بِيابِس فَيُكْسَر .

وقالوا : شَرُّ الناس الذى لا يَتَوَقَّى أن يَرَاهُ الناس مُسِيئاً ، وقد تقَدّم .

وقال الشاعر :

قومٌ إذا خرجُوا مِن سَوْأَةٍ وَلَجُوا فى سَوْأَة لَمْ يَخْبأُوها بأَسْتارِ

الظن

ولِتَفَشّى الغَدْرِ والمكْرِ فى هذا الناسِ مَدحُوا الاحْتِرَاسَ والحذَرَ وسُوءَ الظَّنّ بالناسِ . قيلَ لبعضِهم : ما الحزْمُ ؟ قال : سُوءُ الظّنِّ بالناس . وقال الشاعرُ البَبْغاءُ :

وأكثَرُ مَن تَلْقَى يَسُرُّكَ قَوْلُه ولكنْ قَليلٌ مَن يَسُرُّكَ فِعلُهُ

وَقدْ كانَ حُسنُ الظنِّ بَعضَ مَذاهِبى

فأَدّبَنِى هــذا الزَّمانُ وأَهْلُهُ

وقالوا عليكَ بِسوءِ الظنِّ ، فإنْ أصابَ فالحزْمُ ، وإنْ أَخطأَ فالسلامة . وقال بَعضُهم : إنَّ قَولَهُ تعالى : إن بَعضَ الظَّنِّ إثمٌ : دَلالَةٌ عَلَى أَنَّ جُلَّهُ صَوَاب . وقال عبد الملك بنُ مَرْوَانَ : فَرْقُ ما بينَ عُمَرَ وعُثمانَ أنَّ عُمَرَ أساءَ ظَنَّهُ فَأَحكَمَ أمْرَهُ ، وأنَّ عُثمانَ أحْسَنَ ظَنَّهُ فأَهمَلَ أمْرَهُ . وقيل

لبعضهم: أسأتَ الظنَّ! فقال: إنّ الدُّنيا لَمّا امتلأت مكارِهَ وَجبَ على العاقِل أنْ يملأها حَذرًا ...

ولّما رَأَوْا أن الظنَّ هو الغالبَ على الناس وأنه لذلك يكاد يكونُ غَريزةً منَ الغرائز الإنسانيّة، وأن تحقيقَهُ ولا سِيَّما بين الأصدقاء يُعَدُّ من الإفراطِ الممقُوت، وأنه لايليق بمكارم الأخلاق، ذَمُّوهُ ونَعَوْهُ على أهْله، قال تعالى: اجتنبُوا كثيراً منَ الظّن إن بَعْضَ الظّنْ إثم. وقال سَيِّدُنا رَسول الله: ثلاثَةٌ لا يَسْلَمُ مِنهُنَّ أحد: الطِّيرَةُ، والظَّنُّ، والحَسَدُ، قيلَ: فما المَخْرَجُ مِنهُنّ يارسولَ الله؟ قال: إذا تَطيّرْتَ فلا ترْجِع، وإذا ظَنَنْتَ فلا تُحَقِّقْ، وإذا حَسَدْتَ فلا تَبْغِ ... وقال صلوات الله عليه: إيّاكُم والظّنّ فإن الظَّن أكْذَبُ الحديث» وقال ابن الأثير فى النهاية: أراد: إياكم وَسُوءَ الظّنِّ وتحقيقَه، دُونَ مَبادئ الظُّنون التى لا تُملَك وخواطِرِ القلوب التى لا تُدْفع، وقيل: أراد: الشَّكَّ يَعْرِضُ لك فى الشىء فَتُحَقِّقُهُ وتحْكُمَ به. وأكذب الحديث: أى حديث النفس؛ لأنه يكون بإلقاء الشيطان فى نفس الإنسان» وقال المتنبى:

إذا ساءَ فِعْلُ المَرءِ ساءَتْ ظُنُونُه ... وَصَدَّق ما يَعْتادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ
وَعَادَى مُحِبِّيه بِقَوْلِ عِداتِه ... فأَصْبَحَ فى دَاجٍ من الشَّكِّ مُظْلِمِ

وقال شاعر:

مَن ساءَ ظَنًّا بما يَهْواهُ فارَقَهُ ... وَحَرَّضَتْهُ على إبعادِه التُّهَمُ

ومِنْ هُنا مَدَحوا التَّثَبُّتَ والتغافل. وترَى سائر عبقرياتهم فى الظن فى باب الطبائع وباب الإخوانيات.

الشماتة

والشّماتة : الفرح ببَليّة تنزِل بمَنْ تُعاديه ، تقول : شَمِتَ به يَشْمَتُ شَماتةً وَشَماتاً ، وأَشْمَتَهُ الله به ، وفى القرآن الكريم : فلا تُشْمِتْ بِىَ الأعداء . . . وقد تقدم طَرَف من عبقرياتهم فى الشماتة بالموت ، ومن عبقرياتهم فى الشماتة مطلقا قول الفرزدق :

إذا ما الدَّهْرُ جَرَّ علَى أُناسٍ حوادثَهُ أَناخَ بآخَرينا
فَقُل لِلشامِتينَ بِنا أَفِيقُوا سَيَلقَى الشامِتونَ كما لقِينا

وقيل لِأيُّوبَ النَّبىِّ عليه السلام : أىُّ شىءٍ كان أشَدَّ عليك فى بلائك ؟ قال شَماتةُ الأعداء .

الحقد

الحِقْدُ — كما جاء فى اللسان — : إمْساكُ العَداوَة فى القلْبِ والتربُّص لفُرْصَتِها ، قال : والحقدُ : الضِّغْن . قال : وحَقَدَ عَلَىَّ يَحْقِدُ حِقْدًا ، وحَقِدَ — بالكسر — حَقَدًا وحِقْدًا فهو حاقِد ؛ فالحَقْدُ : الفعل ، والحِقْدُ . الاسْمُ ، وتحقَّدَ : كحَقَدَ ، قال جرير :

يا عَذْنَ إنَّ وِصالَهُنَّ خِلابَةٌ ولقَدْ جَمَعْنَ مَعَ البِعادِ تَحَقُّدَا

« وبعد » فالحِقْدُ علَى أنه خَلّةٌ لا تَتفِق والنُّبلَ والتُّوَدَد ومكارِمَ الأخلاقِ فإنه دليلُ الحَيَوِيةِ ، ومَن ثَمَّ يكاد يكونُ خلّةً مَرْكوزةً فى الطباع ، وإذا كانوا قد مَدَحوه فإنما يتراءَوْن — كما قلنا — إلى أنه عُنْوانُ الحَيَوِيةِ وأن مَن لا يحْقِدُ لا يَشكر ، وإذا هم ذَمُّوه ، فإنهم إنما يَدعون إلى تناسيه وأنَّ مِن سُمُوِّ الأخلاق أن لا يحْمِل المرءُ الحقدَ القديم ، كما قال المُقَنَّعُ الكِنْدِىُّ

واسمُه محمد بنُ عُمَيْرَة ، وهو شاعر كِنْدِيٌّ إسلاميٌّ (١) ، وكان أحسَن الناس وَجْهاً فإذا سَفَرَ لُقِعَ ، أى أصابته العين ، فيَمْرَض ويَلحقُه عَنَتٌ ، فكان لا يمشى إلا مُقَنَّعاً ، قال من أبيات جيِّدة تراها فى حماسةِ أبى تمّام وغيرها :

ولا أحمِلُ الحِقْدَ القديمَ عليهم
وليس رئيسُ القومِ مَن يَحْمِلُ الحِقْدا

ذم الحقد ومدحه

أما عبقرياتهم فى ذم الحقد : فمن ذلك ما يُروَى : أنه قيل للأحْنَف بن قَيس : مَن أسْوَدُ الناس ؟ فقال الأخْرَقُ فى مالِه المُطَّرِحُ لحِقْدِه :

وقال ابن الرومى يَذُمُّه بعد أن مَدَحه ، كما سيأتى :

يا مادحَ الحقْد مُحْتالاً له شَبَهاً لقد سَلَكتَ إليه مَسْلَكاً وَعَثا (٢)
لَنْ يقلِبَ العيبَ زَيْناً مَنْ يُزَيِّنُهُ حتَّى يَرُدَّ كبيراً عانياً حَدَثا (٣)

---

(١) وهو صاحب هذه الأبيات الجيدة فى صاحب السوء :

وصاحبُ السَّوْءِ كالداءِ العَياء إذا ما ارْفَضَّ فى الجوفِ يَجْرى هاهُنا وهُنا
يُنْبى ويُخْبِرُ عن سَوْآتِ صاحبِهِ وما رأى عنده مِن صالحٍ دَفَنا
كمُهْرِ سَوْءٍ إذا رَفَّعتَ سِيرَتَهُ رامَ الجِمَاحَ وإن خَفَّضْتَهُ حَرَنا
إنْ يَحْيَ ذاك فَكُنْ منه بمَعْزِلَة أوْ مات ذاك فلا تَعْرِف له جَنَنا

« داء عياء : لا يُبرأ منه ، ورفّعت سيرته : حملته على أن يزيد فى سرعة سيره ؛ والجنن ـ بالتحريك ـ القبر »

(٢) وعث الطريق : تعسر سلوكه والكلام على المثل

(٣) عانيا : جاوز الحد

إنَّ القَبيحَ ، وإنْ صَنَّعْتَ ظاهِرَهُ يَعُودُ ما لُمَّ منه مَرَّةً شَعِثا [١]
كم زَخْرَفَ القَولَ ذُو زورٍ ولَبَّسهُ على القُلوب ولكن قلّما لَبِثا
قد أبْرَمَ اللهُ أسْبابَ الأُمُورِ مَعاً فلنْ ترَى سَبباً منهُنَّ مُنْتَكِثا
يا دافِنَ الحقْد فى ضِغْنَىْ جَوانِحِه ساءَ الدَّفينُ الذى أمْسَتْ له جَدَثا [٢]
الحقْدُ داءٌ دَوِىٌّ لا دواءَ لهُ يَرِى الصُّدُورَ إذا ماجَمْرُهُ حُرِثا [٣]
فاسْتَشْفِ منه بِصَفْحٍ أوْ مُعاتَبةٍ فإنما يَبْرَأُ المَصْدورُ ما نَفَثا [٤]
واجْعَلْ طِلابَكَ بالأوْتار ما عَظُمَتْ
ولا تَكُن لِصَغيرِ الأمرِ مُكترِثا
والعفوُ أقربُ لِلتقْوَى وإنْ جُرُمٌ مِن مُجْرِمٍ جَرَحَ الأكبادَ أوْ فَرَثا [٥]
يَكفيكَ فى العفوِ أنَّ اللهَ قَرَّظَهُ وَحْياً إلَى خَيْرِ مَنْ صَلَّى وَمَنْ بُعِثا
شَهِدتُ أنكَ لوْ أذنبْتَ ساءَكَ أن
تَلْقَى أخاكَ حَقُودًا صَدْرُهُ شَرِثا [٦]

---

(١) شعث : منتشر مفرق

(٢) الجدث : القبر

(٣) حرث : هيج ، ويرى الصدور : يأكلها

(٤) المصدور : الذى يشتكى صدره ، وما فى قوله : ما نفثا مصدرية ، ونفث : رمى بالنفاثة وهو مايلقيه المصدورمن فيه وفى المثل : لابد للمصدور أن ينفث وقد يستعار ذلك للمعانى كما هنا وكما ورد أن بعضهم قال لشاعر : متى تقول هذا الشعر ، فقال : أويستطيع المصدور أن لا ينفث ! أى لا يبزق ، شبه الشعر بالنفث لأنهما يخرجان من الفم .

(٥) الفرث : تفتيت الكبد بالغم والأذى

(٦) الشرث ههنا : الغليظ الخشن ، من شرث الكف غلظ وتشقق ، والشرث أيضا : الخلق البالى من كل شىء فلعله من هذا أيضا .

إذَنْ وسَرَّكَ أنْ يَنْسى الذُّنوبَ معاً ... وأنْ تُصادِفَ منـه جانباً دَمِثا
إنّى إذا خَلَطَ الأقوامُ صالِحَهُم ... بسَيِّئ الفعْلِ جِداً كان أوْ عَبَثا
جعلتُ صَدْري كظَرْفِ السَّبْكِ حينئذٍ ... يَسْتخْلِصُ الفِضَّةَ البيْضاءَ لا الْخَبَثا
ولستُ أجْعَلُه كالحَوْضِ أمْدَحُه ... بحِفْظِ ما طابَ مِنْ ماءٍ وما خَبُثا

وقال يمدح الحِقد :

حَقَدْتُ عليكَ ذنْبًا بعْدَ ذَنْبٍ ... ولوْ أحْسَنْتَ كان الحِقْدُ شُكرا
أدِيمى مِنْ أديمِ الأرْضِ فاعْلَمْ ... أُسِيءُ الرَّيْعُ حين تُسيءُ بَذْرا
ولمْ تكُ ، يالكَ الْخَيْرَاتُ ، أرْضٌ ... لِتُزْرَعَ خَرْبقًا فتُرِيعَ بُرّا
أُؤَدِّى إنْ فعَلْتَ الخيرَ خيراً ... إليكَ وإنْ فعلتَ الشَّرَّ شرًّا
ولستُ مُكافِئاً بالنُّكْرِ عُرفاً ... ولست مُكافئاً بالعُرف نُكْرا
يُسَمَّى الحِقْـدُ عَيباً وهو مَدْحٌ ... كما يَدْعُونَ حُلوَ الحق مُرًّا

« الخَرْبَق : نبات كالسُّمّ ورقه أبيض وأسود ، والبُرّ : القمح »

وأراد يحيى بنُ خالدِ بن بَرْمَك وزير الرشيد أن يَضَعَ من عبدِ الملك ابن صالح فقال له : ياعبدَ الملِك بَلَغَنى أنك حَقود ! فقال عبدُ الملك : أيها الوزير ، إن كان الحِقدُ هو بقاءَ الخير والشرّ إنهما لَباقيان فى قلبي ، فقال الرشيد : ما رأيتُ أحداً احتجَّ لِلحِقْد بأحسن مما احتج به عبد الملك

وقال ابنُ الرومى يَمْدَحُ الحقدَ أيضا وقد عابَهُ عائب :

لـئِنْ كنْتَ فى حفْظِى لِما أنا مُودَعٌ
من الخير والشَّر انتَحيْتَ على عِرْضِى
لَما عِبْتَنى إلاّ بفَضْلِ إبانَة ... ورُبَّ امْرِئٍ يُزْرِى على خُلُقٍ مَحْضِ
ولا عَيبَ أنْ تُجْزَى القُرُوضُ بمِثْلِها ... بلِ العيبُ أن تدَّانَ دَيناً ولا تَقْضِى

وخيرُ سَجياتِ الرجالِ سَجيَّـــةٌ ... تُوَفِّيكَ ما تُسْدى من القَرْضِ بالقَرْضِ
إذا الأرضُ أدَّتْ رَيْعَ ما أنتَ زارعٌ ... من البَذْرِ فيها فَهْىَ ناهيكَ من أرْضِ
ولولا الحُقودُ المُسْتَكِنَّاتُ لم يكُنْ ... لينْقُضَ وِتراً آخرَ الدَّهْرِ ذو نَقْضِ
وما الحِقْدُ إلاَّ تَوأمُ الشُّكْرِ فى الفتَى ... وبعضُ السَّجايا ينتَهِينَ إلى بَعْضِ
فَحيثُ ترَى حِقْدا على ذِى إساءةٍ ... فثَمَّ ترى شُكْرًا على حَسَنِ القَرْضِ

وفى هذا القدر من عبقرياتهم فى الحقد كفاية. وترى فى باب الطبائع ما ينقع غُلّتك إن شاء الله.

الحســـد

الحسدُ وقانا اللهُ شرَّه — داءٌ من الأدواء المتأصلة الخبيثة الشائعةِ فى هذا الناس إلا مَنْ عَصَمَ ربُّك، قال علماؤنا: الحسد: أن يَرَى الرجلُ لأخيه نِعمة فيتمنّى أن تزولَ عنه وتكونَ له دُونَه، أما الغَبْطُ أو الغِبْطةُ فهى: أن يتمنى أن يكونَ له مثلُها ولا يتمنى زوالَها عنه، وهى كما قال الإمام الأزهرى -: ضرب من الحسد، ولكنها أخفُّ منه، قال: ألا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما سُئِل: هل يضُرُّ الغَبْط؟ فقال: نعم، كما يضُرُّ الخَبط فأخبر أنه ضارٌّ وليس كضرر الحسد الذى يتمنى صاحبُه زوال النعمة عن أخيه، والخبط: ضَربُ ورق الشجر حتى يتحاتَّ عنه ثم يستخلف من غير أن يضُرّ ذلك بأصل الشجرة وأغصانها

وقال الله عزّ وجلّ: ولا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللهُ به بعضَكم على بعض ...

قال الإمام البيضاوى: ما فضَّلَ الله به بعضَكم على بعض: أى من الأمور الدنيوية كالجاه والمال، قال: لا تتمنّوْه. فلعلَّ عَدَمَه خيرٌ، قال:

والمقتضى للمنع كونُه ذريعةً إلى التحاسُد والتعادى مُعْرِبةً عن عدم الرضا بما قَسم الله له ، وأنه تَشهٍّ لحصول الشىء له من غير طلب ، وهو مذموم لأن تمَنِّىَ ما لم يُقْدَر له معارضة لحكم القدر وتمنى ماقدر له بغير كسب ضائع ومحال ؛ وقد نعى الله فى غير ما آية على أولئك الذين يحسدون الناس على ماآتاهم الله من فضله »

وفى الحديث : لاحسدَ إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وأطراف النهار ، ورجل آتاه الله قرآنا فهو يتلوه ... قال الإمام الأزهرى : هو أن يتمنى الرجل أن يرزقه الله مالًا يُنْفِقُ منه فى سبيل الخير أو يتمنى أن يكون حافظاً لكتاب الله فيتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، ولا يتمنى أن يُرزَأ صاحب المال فى ماله أو تالى القرآن فى حفظه . وقال ثعلب : معناه ليس حسد لايضر إلا فى اثنتين ، أقول : ومعنى ذلك أن كل حسد ضار إلا فى هاتين أى أن حسد صاحب المال ينفقه فى سبيل الخير وحافظ القرآن يتلوه ، غير ضار ، لأن هذين على سبيل سواء يستحقان معه أن يُحْسدا ، أى أن يُغْبطا ...

وقال حكيم : الحسد من تعادى الطبائع واختلاف التركيب وفساد مزاج البِنْية وضعف عَقْدِ العقل . والحاسد طويل الحسرات .

وقال حكيم : الحسد جُرحٌ لا يَبْرَأ ، وحَسْبُ الحسود ما يَلْقَى . وقال الحسن البصرى : يا ابن آدم ، لِمَ تَحْسُدُ أخاك ؟ إن كان الله أعطاه لكرامته عليه ، فلِمَ تحسُدُ مَن أكرمه الله ؟ وإن كان غيرَ ذلك فلِمَ تحسُدُ مَن مَصيرُه إلى النار ! وفى الأثر : الحسد يأكل الحسناتِ كما تأكل النار الحطب ، وقال على بن أبى طالب : مارأيت ظالما أشبهَ بمظلوم من الحاسد ، نَفَس دائم ،

وعقل هائم، وحزنٌ لازم، وقالوا: الحسود لا يسود... قال رَوحُ بن زنباع الجُذامِيُّ: كنتُ أرى قوماً دُونى فى المنزلة عن السلطان يَدْخُلون مَداخِلَ لاأدخُلُها، فلما أذهبْتُ عنى الحسدَ دخلتُ حيثُ دخلوا... وقال ابن المقفع: أقلُّ ما لتارك الحسد فى تركه أن يَصرِف عن نَفسِه عذاباً ليس بمُدْرِكٍ به حظًّا ولا غائظٍ به عدوًّا، فإنّا لم نَرَ ظالما أشبه بمظلومٍ من الحاسد، طُولُ أسَفٍ، ومُحالفَةُ كآبةٍ وشِدةُ تحرُّقٍ، ولا يَبْرَحُ زاريا على نِعمةِ الله ولا يَجدُ لها مَزالًا، ويُكدِّر على نفسِه مابِه من النِّعْمة فلا يجِدُ لها طَعْما ولا يزالُ ساخطًا على من لا يَترضّاهُ ومُتسخطا لِما لنْ ينالَ فوقَه، فهُو مُنَغَّصُ المعيشة دائمُ السَّخْطةِ محرومُ الطّلِبة، لابِما قُسِمَ له يَقْنَعُ ولا على مالمْ يُقْسَمْ له يَغْلِبُ؛ والمحْسودُ يتقلّبُ فى فضلِ الله مُباشرا للسُّرورِ مُنتَفِعا به مُمَهَّلًا به إلى مُدَّةٍ ولا يَقدِر الناس لها على قَطْعٍ وانتِقاص... وقال أبو تمام:

وإذا أرادَ اللهُ نشْرَ فضيلةٍ طُويتْ أتاح لها لِسانَ حَسُودِ
لولا اشتعالُ النار فيما جاوَرَتْ ماكان يُعرَفُ طِيبُ عَرفِ العودِ
لولا التخوُّفُ للعواقِبِ لم تَزلْ للحاسدِ النُّعمَى على المحسودِ

وقال البحترى:

ولنْ يَستبين الدهرَ موضعُ نِعمةٍ إذا أنتَ لم تُدْلَلْ عليها بحاسِدِ

وقال عبد الله بن المعتز:

اصْبِرْ على كيْد الحسو دِ فإنَّ صبرَكَ قاتلُهْ
فالنــار تأكلُ نفسَها إنْ لم تجِدْ ماتأكُلُهْ

وقال ابن المقفع أيضا: الحسدُ والحِرصُ دعامتا الذنوب، فالحِرصُ أخرج آدم عليه السلام من الجنة، والحسدُ نَقَل إبليسَ من جوار الله تعالى

وقال الجاحظ : من العدل المحض والإنصاف الصريح ـ الخالص ـ أن تَحُطَّ عن الحاسد نصف عقابه ، لأن ألمَ جسمِه قد كفاك دُونَهَ شطر غَيظك ؛ وللجاحظ رسالة مطوله فى الحسد تراها فى رسائله

وقيل للحسن البصرى : أيَحْسُدُ المؤمنُ أخاه ؟ قال : لا أبَالك ، أنَسِيتَ إخْوَةَ يوسف ؟ وقالوا : الحسود غَضبانُ على القدر ، والقدَرُ لا يُعْتِبُه — أى لا يزيل عَتْبه : أى لا يرضيه — أخذ هذا المعنى منصور الفقيه فقال :

ألا قلْ لمَنْ باتَ لى حاسداً　　أتَدْرى على مَن أسأت الأدب
أسأت على الله فى فعله　　إذا أنت لم تَرْضَ لى ماوهبْ

وقال معاوية : كل الناس يمكننى أن أرضيَه ، إلا الحاسدَ الذى لا يرده إلى مودتى إلا زوالُ نعمتى . وقال المتنبى :

سِوَى وجَع الْحُسَّادِ دَاوِ فإنه　　إذا حلَّ فى قلب فليس يحولُ

وقال آخر :

كلُّ العداوةِ قد تُرجى إماتَتُها　　إلا عداوةَ من عاداكَ من حسَدِ

ويقال : إذا أراد الله أن يسلط على عبده عدوًّا لا يَرْحمُه سلَّط عليه حاسداً ... وقال العُتْبىُّ — وذكر وُلْدهُ الذين ماتوا — :

وحتى بكى لىَ حُسَّادُهم　　وقد أترَعُوا بالدموع العُيونا
وحَسْبُكَ من حادثٍ بامرئٍ　　يرَى حاسديهِ له راحمينا

وقالوا : مَن دَعَتْهُ نفْسُه إلى تَرْك الدنيا فليَنْظُرْ : هلْ يَحْسُدُ أحداً ، فإن حَسَدَ كان تركهُ عَجزاً ، لأنه لو زهَدَ فيها ما حَسَدَ عليها

وقال البحترى :

مُسْتريحُ الأحْشاءِ مِنْ كُلِّ ضِغْنٍ　　باردُ الصدرِ من غليل الحسودِ

وقيل لسفيان بن معاوية : ما أسرع حسدَ الناس إلى قومِكَ ! فقال :

إنّ العرانين تلقاها مُحَسَّدَةً ولا ترى للئـام الناس حُسّادا [١]

وقال آخر :

وترى اللبيبَ مُحَسَّداً لم يجترِمْ شَتْمَ الرجال وعِرْضُهُ مَشْتومُ
حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيَه فالقوْمُ أعداءٌ له وخُصومُ
كضرائر الحسناء قُلن لوجهها حسدا وظُلماً : إنه لدميمُ

وقال آخر :

إن تحسدونى فإنى لا ألومكم
قَبْلى مِن الناس أهلُ الفضْلِ قد حُسِدوا
فدام لى ولهم مابى ومابهمُ ومات أكثرنا غيظا بما يجدُ
أنا الذى تجِدُونى فى حلوقكمُ لا أرْتَقى صَدَرًا عنها ولا أرِدُ [٢]

وخطب الحجاج يوماً برُسْتُقُبَاذ بقولِ سُوَيْدِ بن أبى كاهل — شاعر جاهلى إسلامى — :

كيف يرجون سقاطِى بعد ما جَلَّلَ الرأسَ بياضٌ وصَلَعْ
رُبَّ من أنضَجتُ غيظاً صَدْرَهُ قد تمنَّى لىَ موتاً لم يُطَعْ
ويرانى كالشَّجا فى حَلْقِهِ عَسِراً مَخرَجُه ما يُنتَزعْ
مُزْبِدًا يخطِرُ ما لمْ يرَنى فإذا أسْمَعْتُه صوتى انْقَمَعْ

---

(١) عرانين القوم : سادتهم وأشرافهم . وأصل العرنين الأنف حيث يكون فيه الشمم يقال : هم شم العرانين

(٢) لا أرتقى صدراً ولا أرد : أى فأنا كالشجى الدائم الذى لا منجاة لأعدائى منه

لم يَضِرْنى غير أنْ يحْسُدَنى
فْهوَ يزْقُو مثلَ مايزْقُو الضُّوَعْ (١)
ويُحيّينى إذا لاقَيْتُه وإذا يخلو له لحمى رَتَعْ
قد كفانى الله ما فى نفْسِه وإذا ما يَكْفِ شيئاً لا يُضَعْ

وقال ابن الرومى لصاعد بن مخلد :

وضِدٍّ لكم لازالَ يَسْفُلُ جَدُّه ولا بَرِحتْ أنفاسُهُ تتصعَّدُ (٢)
يرى زِبْرِجَ الدنيا يُزَفُّ إليكمُ
ويُغْضِى عن استحقاقكم فهو يُفْأَدُ (٣)
ولو قاس باستحقاقِكم ما مُنِحْتُمُ لأطفأ نارا فى الحشا تتوقدُ
وآنَقُ من عِقْدِ العقيلة جِيدها وأحسنُ من سربالها المتجرِّدُ (٤)

وقال الأصمعى : رأيت أعرابيًّا قد أتت له مائةٌ وعشرون سنة ، فقلت له : ما طوَّل عُمُرَك ؟ فقال تركتُ الحسدَ فبقيتُ . وكانوا يقولون : سِتّةٌ لا يَخْلُون من الكآبة : رجلٌ افتقر بعد غِنًى ، وغنِيٌّ يخاف على ماله التَّوى — الهلاك والضياع — وحقودٌ ، وحسودٌ ، وطالبُ مرتبَةٍ لا يبْلُغُها قدْرُه ومُخالِطُ الأدباء بِغير أدب .

ومن ألفاظهم فى وصف الحسد : قد دَبَّت عقارِب الحُسَّد ، وكَمُنَتْ

---

(١) زقا الديك والطائر ونحوهما : صاح ، وكذلك الصبى إذا اشتد بكاؤه ، والضوع طائر من طير الليل إذا أحس بالصباح صدح

(٢) جده : حظه

(٣) يفأد : يحرق فؤاده

(٤) يقول : إن جيد العقيلة أجمل من العقد الذى يظن أنه يزينه ، والمتجرد — أى الجسم العريان — أجمل من السربال ، وهو القميص

أفاعِيهم بكل مَرْصَد : فلان قد وَكل بى لحظاً يَنْتضِل بأَسْهُم الحَسد ...

✿ ✿ ✿

ومن وصاياهم فى باب الحـذرِ من الأعداء الحُسَّد قول أعرابى يَعظ رجلا : وَيْحَك ، إنّ فلانا وإن ضَحِك إليك ، فإنه يَضْحَك منك ، وائن أظهر الشفقة عليك ، إنّ عقَاربه لتَسْرِى إليك ، فإن لم تتخذه عَدُوًّا فى عَلانيتك فلا تجْعَـلْه صديقاً فى سريرتك ...

وحَذَّر بعض الحكماء صديقاً له صَحِبَهُ رجل ، فقال : احذرْ فلاناً ، فإنه كثير المَسْألة ، حَسَنُ البَحْث ، لطيفُ الاستِدْرَاج يحفظ أوّل كلامك على آخره ، ويعتبر ما أخَّرْت بما قَدَّمْت ، فلا تُظْهِرَنَّ له المخافةَ فيرَى أنكَ قد تحَرَّزْتَ . واعلم أن مِنْ يَقَظَة الفِطْنة إظهارَ الغَفْلة مع شدة الحَذَر . فباثه مُباثّة الآمن ، وتحفّظْ منه تحفظ الخائف . فإن البحث يُظهر الخفِىّ الباطن ، ويُبْدِى المستكِنّ الكامن .

هذا ، وقد عقد الإمام الغزالى للحسد باباً زاخرا فى كتابه الإحياء حال فيه على طريقته هذا الداء ـ داء الحسد ـ وبيّن أسبابه وأعراضه وعلاجه ولماذا كان شائعاً بين الأقران والإخوة والأقارب فارجع إليه إذا أردت التوسع فى هـذا الباب ، ولنختر منه هذه الحكاية الطريفة ، قال : كان رجل يغشى بعض الملوك ، فيقوم بحذاء الملك فيقول : أحْسِنْ إلى المحسن بإحسانه ، فإن المُسِىء سيكفيكه إساءته ، فحَسَدَه رَجلٌ على هـذا المقام ، وذلك الكلام ، فسعَى به إلى الملك فقال : إن هذا الذى يقوم بحذائك ويقول مايقول ، زَعَم أن الملِكَ أبْخَرُ ، فقـال له الملِك : وكيف يَصِحّ ذلك عندى ؟ قال تدعوه إليك ، فإنه إذا دنا منك وَضَع يده على أنفه لئلا يَشُمّ ريحَ البَخَر ، فقال له :

انصرف حتى أنظر ، فخرج من عند الملك ، فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثُوم ، فخرج الرجلُ من عنده ، وقام بحذاء الملك على عادته ، فقال : أَحْسِنْ إلى المحسن بإحسانه فإن المسيء سيكفيكه إساءته ، فقال له الملك : آدْنُ منى ، فدنا منه ووضع يده على فيه ، مخافة أن يَشَمَّ الملك منه رائحة الثوم فقال الملك فى نفسه : ما أرى فلاناً إلا قد صَدَق ، وكان الملك لا يكتب بخطّه إلا بجائزة أو صِلَة ، فكتب له كتابا بخطه إلى عامل من عُمّاله : إذا أتاك حامل كتابى هذا فاذْبَحْهُ واسْلُخه وآحْشُ جلده تبنا وآبعث به إلىّ ، فأخذ الكتاب وخرج ، فلقيه الرجل الذى سَعَى به فقال : ماهذا الكتاب ؟ قال : خط الملك لى بصلة ، فقال : هَبْه لى ، فقال : هولك ، فأخذه ومضى إلى العامل ، فقال العامل : فى كتابك : أن أَذْبَحك وأسلخك ، قال : إن الكتاب ليس هو لى ، فاللهَ اللهَ فى أمرى حتى تراجع الملك ، فقال : ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه وسلخه وحشا جلده تبنا وبعث به ، ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته ، وقال مثل قوله ، فعجب الملك وقال : ما فعل الكتاب ؟ فقال : لقينى فلان فاستوهبه منى ، فوهبته له ، قال الملك : إنه ذكر لى أنك تزعم أنى أبخر ، قال : ماقلت ذلك ، قال : فلم وضعت يدك على فيك ؟ قال : لأنه أطعمنى طعاما فيه ثوم ، فكرهت أن تشَمّه ، قال : صدقت ، ارجع إلى مكانك فقد كُفِىَ المسيءُ إساءتَه ... ومثل هذه الحكايات كثير ويصح أن توضع فى باب السعاية والمكر ، وعاقبة الماكرين .

« وبعد » فإن ما نورده ههنا من عبقرياتهم فى الحسد والحقد وما إليهما إنما هو قليل من كثير تراه فى باب الطبائع وإنما نورد مانورد من هذه العبقريات لنستوفى باب العداوات . .

المزاح

ولأنّ المزاحَ فى الكثير الأعَمّ الأغلَبِ مَدْرَجةُ البغضاء رَأينا أن نورد هنا صَدْرا من عبقرياتهم فيه .

قال الزَّبيدى شارِحُ القامُوس : المزاحُ : المُباسَطةُ إلى الغَيْر على جهة التَّلطُّف والاستعطافِ دون أذِيّةٍ ، حتى يَخرُجَ الاسْتِهْزاءُ والسُّخْرِية . قال : وقد قال الأئمّة : الإكثارُ منه والخُرُوجُ عن الحَدّ مُخِلٌّ بالمُروءة والوَقار ، والتَّنزُّهُ عنه والتقَبُّضُ مُخِلٌّ بالسُّنّة .

ويقال : مَزَحَ يَمْزَحُ مَزْحًا ومِزاحًا ومُزاحا ومُزاحَة ، وقد مازَحَهُ مُمازَحة ومِزاحا ، والاسمُ المُزاحُ بالضمّ والمُزاحةُ أيضا :

نهيهم عن المزاح

جاء فى الأثَر : إياكَ والمُزاحَ فإنهُ يذْهَبُ ببَهاءِ المؤمِن ويُسقِطُ مُرُوءَتَه ويَجُرُّ غَضَبَه .

وقالوا : المُزاحُ مجلبةٌ للبغضاء مَثْلَبَةٌ للبَهاء [1] مَقْطَعةٌ للإخاء .

وقالوا : المُزاحُ أوّلُه فَرَح وآخِرُه تَرَح ، وهُو نَقائِضُ السُّفهاء مِثلُ نقائِضِ الشُّعراء . [2]

وقالوا : لاتمَازِحْ صغيرا فيَجترِئَ عليك ، ولا كبيرا فيَحقِدَ عليك

---

(١) مثلبة : منقصة ومسبة

(٢) النقيضة فى الشعر : ما ينقض به والجمع النقائض ومن ثم قالوا : نقائض جرير والفرزدق ، وأصل النقض : إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء ومنه المناقضة فى القول وهو أن ينقض الآخر ماقاله الاول

وقال مِسْعَرُ بنُ كِدام لابنه :

ولقدْ حَبَوْتُكَ يا كِدامُ نصيحتى فاسْمَعْ لقَوْل أبٍ عليك شَفيقِ
أما المزاحةُ والمِراءُ فدَعْهُما خُلُقانِ لا أرْضاهُما لِصديقِ[1]
ولقدْ بَلَوْتُهُما فلم أحْمَدْهُما لِمُجاوِرٍ جارٍ ولا لِرفيقِ

وقالوا : المزاحُ سِبابُ النَّوكَى[2]

وقال عُمَرُ بنُ عبد العزيز : لايكونُ المزاحُ إلاّ من سَخَف أو بَطَر.

وقالوا : الغالبُ فيه واتِرٌ . والمغلوب ثائرٌ . وقال أبو نواس :

رُبَّمَا اسْتُفْتِحَ بالمَزْ حِ مَغاليقُ الحِمامِ

حمدهم القصد فى المزح

ومُزاحُ الأماثل

جاء فى الأثر : إنى لأمْزَحُ ولا أقول إلا حقا . . .

ومن مُزاحه صلوات الله ماروى : أنَّ عجوزاً من الأنصار أتَتْهُ فقالت : يارسولَ الله ، ادْعُ لى بالمغفرة ، فقال : أمَا عَلِمْتِ أنَّ الجنةَ لا يدخلُها العَجائز ! فصَرَخَتْ ، فتبسم رسولُ الله وقال : أمَا قرأتِ القرآن ؟ « إنَّا أنشأناهُنَّ إنشاءً فجعلناهُنَّ أبْكاراً عُرُبًا أتْرابا »[3]

وأتَتْهُ أخرى فى حاجةٍ لزوْجِها فقال لها : ومَنْ زوْجُكِ ؟ فقالت : فلان ، فقال لها : الذى فى عينِه بياض ؟ فقالت : لا ، فقال : بَلَى ، فانْصَرَفت عَجْلَى إلى زوجها ، وجعلت تتأمّلُ عينَيْه ، فقال لها : ماشأنُك ؟ فقالت :

---

(١) المراء : الجدال وترى عبقرياتهم فى المراء فى كتاب العلم والادب

(٢) الحمق (٣) عرب جمع عروب وهى : المرأة الحسناء المتحببة إلى زوجها المطيعة له ، أو العاشقة ، أو المغتلمة ، أو الغنجة . والأتراب : الأمثال

أخبرَنى رسول الله أنّ فى عيْنيكَ بياضًا ، فقال : أمَا تَرَين بياضَ عينىّ أكثر من سوادهما !

وقال صلوات الله عليه لبُنَىٍّ كان لأبى طلحةَ الأنصارىّ ، وكان له نُغَرٌ[1] فمات : مافعَل النُّغيرُ يا أبا عُمَير ؟

وقالوا : الناسُ فى سِجْنٍ ما لمْ يتمازَحُوا .

وقال رجلٌ لأبى عُيَيْنة . المُزاحُ سُبّة ، فقال : بل سُنّة لِمَنْ يُحْسِنُه .

يا ساعِيَ فى مُجُونى قد طِبتُ فيك وطِبتِ
إنى إذا ضاقَ صَدرى قطعْتُ بالسُّخْفِ وَقتى

وقال سعيد بن العاص لِابْنِه : اقتَصِد فى مُزاحِك فالإفراط فيه يُذهب البهاء ويُجَرِّئُ عليك السُّفهاء ، وتَركُه يَقبِضُ المؤانسين ويُوحِشُ المُخالِطين

نهيهم عن الغضب فى المزح

قال ابنُ سيرين : ليس من حُسْنِ الخُلُق الغضب من المَزح

الممدوح بأن فيه الجِدّ والهزل

قال شاعر :

أخُو الجِدِّ إنْ جادَدْتَ أرْضاكَ جِدُّه
وذُو باطِلٍ إنْ شئْتَ ألْهاكَ باطِلُه

وقال أبو تمّام :

الجِدُّ شِيمَتُه وفيه فُكاهةٌ سُجُحٌ ولا جِدٌّ لمَنْ لم يَلْعَبِ[2]

---

(١) النغر : البلبل (٢) السجح : اللين السهل

عذر من يضحك وهو محزون

﴿ وقد يَضحَك المَوتورُ وهْوَ حزين ﴾

وقال آخر:

ورُبّما ضَحِك المكروب من عَجَبٍ   السِّنُّ تَضْحَكُ والأحشاء تَضْطَرِمُ

نهيهم عن كثرة الضحك

فى الأثر: إيّاكَ وكثرةَ الضحِكِ فإنّها تُميتُ القلب وتُورِثُ النسيان.

وفيه أيضاً: وَيْلٌ للذى يُحَدِّث فيَكْذِبُ ليُضْحِكَ به القومَ، وَيْلٌ له، وَيْلٌ له.

وقال عمرُ بن الخطاب: مَن كَثُر ضَحِكُه قَلَّتْ هَيْبتُه

وقال علىّ: إذا ضحك العالِم ضَحْكةً مَجّ من العِلْم مَجّة.

وقالوا: كثرةُ الضحك تُورِثُ الرُّعونة.

وقيل لأبى العيناء: فلانٌ يضحَكُ منك! فقال: إن الذين أجْرَموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. وهذا من الأجوبة المسكتة، وكان أبو العَيناء ذا نوادِر.

إيراد جدّ فى مسلك هزل

قال خالد بن صفوان: رَمانى بأصلَبَ من الجَنْدَل، ونَشَّقَنى بأحَرَّ من الخرْدَل، ثم قال إنى أُمازِحُك!

لى صاحبٌ ليس يخلو   لِسانُه من جِراحى
يُجيدُ تمزيقَ عِرضى   على سبيل المُزاحِ

صدرٌ من عبقرياتهم فى الغيبة والنميمة

ولأن الغيبة والنميمة مدرجتان غالباً للعداء بادرنا بإيراد صدر من عبقرياتهم فى هاتين الخَلّتين الذَّميمتين .

حقيقة الغيبة والنميمة

الغِيبةُ الاسم من الاغتياب وهو : أن يتكلَّمَ خلفَ إنسانٍ مَسْتُور بسُوءٍ أو بما يَغُمُّه لوسمعَه وإن كان فيه ، فإن كان صِدْقاً فهو غِيبةٌ وإن كان كذِباً فهو البَهْتُ والبُهتان . كذلك جاء عن سيدنا رسول الله صلوات الله عليه . وقال بعضُ الفقهاء : الغِيبةُ : أنْ تذكُر الإنسانَ بما فيه من العيب من غير أن تُحوَجَ إلى ذلك ، وفى هذا احترازٌ مما يقوله الشاهد عند الحاكم . والنميمة : نقْلُ الحديث من قوم إلى قوم على جهة الإفساد والشر ، ونَمّ الحديث يَنُمُّه ويَنِمُّه نمًّا : نقله، والاسم النميمة ؛ والنَّعْتُ : نمّام ، ويقال للنمّام : القتّات يقال : قَتّ : إذا مَشى بالنميمة ، ويقال له : قسّاس ودرّاج وغمّاز وهمّاز ومائشٌ ومِمْآس .

ذمّ الغيبة والنميمة

قال الله جل شأنه : ولا يَغتَب بعضُكم بعضاً ، أيُحِبُّ أحدكم أن يأكل لحمَ أخيه مَيْتاً فكرهتموه . « قوله سبحانه : أيُحبّ أحدكم ... الآية : تمثيلٌ وتصوير لما يناله المغتاب من عِرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه ، قال الإمام الزمخشرى : وفيه مُبالغات شتّى : منها الاستفهام الذى معناه التقرير ، ومنها جعلُ ماهو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبّة ، ومنها إسنادُ الفعل إلى

أحدكم والإشعار بأن أحداً من الآحدِين لا يُحب ذلك ، ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخا ، وحتى جعل الأخ ميْتاً . قال قتادة : كما تكرَه إن وَجدْت جيفةً مُدوَّدة أن تأكلَ منها فاكْرَه لحمَ أخيك وهو حيّ .

وفى الحديث : « إنّ الغيبةَ أشدُّ من الزِّنا » قيل : كيف ذلك ؟ قال : « لأن الرجلَ يَزْنى فيتوبُ ، فيتوبُ اللهُ عليه ، وصاحبُ الغيبة لا يُغفَرُ له حتى يغفِرَ له صاحبه » وفى الحديث المرفوع : أنّ امرأتين صامتا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس فأُخبر النبي بذلك فقال : صامتا عمّا أُحلّ لهما وأفطرتا على ماحرّم الله عليهما . واغتاب رجلٌ رجلا عند قُتيبة بن مسلم فقال قتيبة : أمسِكْ أيها الرجل ، فوالله لقد تلمَّظْتَ بمُضْغة طالما لفَظها الكِرام .

وقال عليٌّ بن الحسين رضى الله عنه : إيّاك والغِيبةَ فإنها إدامُ كِلاب النار « وهذا تمثيل جميل » وقال الشاعر :

لا تَهْتِكنْ من مَساوِى الناسِ ما سَتَروا فيَهْتِكَ اللهُ سِتْراً من مَساوِيكا
واذْكُرْ مَحاسِنَ ما فيهم إذا ذُكِروا ولا تَعِبْ أحداً منهم بما فيكا

وقالوا : الغِيبة مَرْعى اللئام وجَهدُ العاجز .

وقال تعالى « همّازٍ مَشّاءٍ بنَمِيم »

وقال سيدُنا رسولُ الله : من كان يُؤمِن بالله واليوم الآخِر فلا يَرْفَعَن إلينا عورة أخيه المؤمن ... وقال صلى الله عليه وسلم : لا يَراحُ القَتّات رائحةَ الجنة . والقتّات : النمّام »

من سمحت نفسه بأن يكون فى حِلّ

ومن لاتسمح نفسه

كان أبو الدرداء رضى الله عنه إذا خرج يقول : اللهم إنى قدْ تصدّقتُ بعِرضى على عبادك .

وقال كُثَيِّرُ عزّة :

هنيئاً مَريئاً غيرَ داءٍ مُخامِرٍ ... لِعَزّةَ من أعراضِنا مااستَحَلّتِ

« خامَره الداء : خالط جوفَه »

وقيل لرجل : فلانٌ شَتَمك واغتابك ، فقال : هو فى حِلّ . فقيل : أتحِلُّ مِن اغتابَك وبه يَثقُلُ ميزانُك ؟ فقال : لاأُحِب أن أُثقِل ميزانى بأوْزار إخوانى .

وقال رجلٌ لابن سيرين : قد نِلتُ منك فاجعلنى فى حِلّ ، فقال : لاأُحِلّ ماحرّم الله عليك . أما ماكان إلىّ فهو لك .

من قلت مبالاته بمن اغتابه

قيل لحكيم : فلانٌ يشتِمُك بالغيب ، فقال : لوضربنى بالسياط فى الغيب لم أُبالِ به .

وقال شاعر قديم وأنشد هذا الشعر لسيدنا رسول الله العلاءُ بن الحضْرَمِىّ :

حَىِّ ذَوِى الأضغانِ تَسْبِ قلوبَهم ... تحيّتَك القُرْبَى فقد تُرْقَعُ النَّعلْ

وإنْ دَحَسُوا بالشَّرِّ فاعْفُ تكرّما ... وإنْ خَنَسوا عنكَ الحديثَ فلا تَسَلْ

فإن الذى يُؤْذِيك منه سَماعُه ... وإن الذى قالوا وَرَاءَكَ لم يُقَلْ

«دحس بين القوم : أفسد بينهم ، وخَدَسوا : أخفَوا ، يريد : إن فعلوا الشر من حيث لا تعلمه » وقد تقدمت هذه الأبيات

وقال المتوكِّلُ الخليفة العباسى لأبى العيناء : ما بَقِىَ أحدٌ إلا آغتابك ! فقال :

إذا رَضِيَتْ عَنِّى كِرَامُ عَشِيرَتى فلا زال غضباناً علىَّ لئامُها

وقيل لرجلٍ : فلانٌ يغتابك : فقال : دَعْنى يستَرْفِعْنى الله بذلك ، فمن أكثرَتِ الناسُ فيه الوقيعةَ رفعهُ الله ، وإن بنى أُمَيَّة مازالوا يشتِمُون علىَّ ابن أبى طالب ستِّينَ سنةً فلم يزدْهُ الله إلا رِفعةً . وقيل لآخر ذلك فقال :

٭ ولمْ يَمْحُ من نورِ النبىِّ أبو جهل ٭

وقيل لآخر مثله فقال : لا ضَيرَ ، إنه أراد أن يَمتحِنَ وُدِّى ...

ذمّ ناقص يغتاب فاضلا

قال المتنبى :

وإذا أتتك مَذمَّتى من ناقِصٍ فهىَ الشهادَة لى بأنىَ كامِل

وقبله يقول أبو تمّام :

لقد آسف الأعداءَ فضْلُ ابن يُوسُفٍ
وذو النَّقْصِ فى الدُّنيا بِذِى الفَضْلِ مُولَعُ

وقبل أبى تمـام يقول مَرْوَانُ بن أبى حفصة :

ما ضَرَّنى حسدُ اللئامِ ولم يزَل ذو الفضْل يحسُده ذَوُو التقصيرِ

وأصل هذا المعنى من قول الطِّرِمّاح بن حكيم :

لقـد زادَنى حبًّا لنفسىَ أننى بغيضٌ إلى كُلِّ امرئٍ غير طائِلِ

وأنى شَقِىٌّ باللئام ولا تَرَى شَقِيًّا بهم إلا كريمَ الشمائلِ

وقد تقدم .

وقالوا : كفى بالمرءِ شرًّا أن لا يكونَ صالحاً وهو يقع فى الصالحين .

وبلغ الأحنف بن قيس أن رجلا يغتابه فقال : عُثَيْثَة تَقرِضُ جلداً أملَسا ... « عثيثة تصغير عُثَّة وهى دُويبة تلحس الثياب والصوف وأكثر ما تكون فى الصوف، وهذا مَثَل قد يضرب للرجل يجتهدُ أن يُؤَثِّرَ فى الشىء فلا يقدرُ عليه »

ومما يتصل بهذا قولُهم:

☆ وما زالت الأشْرَافُ تُهْجَى وتُمدَحُ ☆

وقولهم: ☆ إنَّما الغِيبةُ تَلْقِيحُ الشَّرَفْ ☆

من رمى غيره بعيبه

من هذا قولهم : رَمَتْنى بِدائِها وانْسَلَّت [(١)]

وقولهم : عَيَّرَ بُجَيْرٌ بُجَرَة ونَسِىَ بُجَيْرٌ خَبَرَه . « قال المُفَضَّل الضَّبى : بُجَيْرٌ وبُجرةٌ كانا أخوين فى الدهر القديم ولهما قِصَّة ذكرها ، وقال الأزهرى بُجيرٌ تصغير الأبجر وهو النَّاتِئ السُّرَّة والمصدرُ : البُجْر فالمعنى : أنَّ ذا بُجَيْرَةٍ فى سُرَّته عَيَّر غيرَه بما فيه » وقولُ السيد المسيح ما معناه : أتُبْصِرُ القَذاةَ فى عين أخيك وتَدَع الجِذْعَ المُعترِضَ فى حَلْقِك !

اغتياب المرء غيره يدل على عيبه

قالوا : مَنْ وَجَدْتموه عَيَّاباً وَجَدْتُموه مَعِيباً ، لأنَّه يَعِيبُ الناسَ

(١) إذا أردت الوقوف على أصل هذا المثل فإلى أمثال الميدانى

بفَضْل عَيْبه . وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

ويأخُذُ عَيْبَ النَّاسِ مِن عَيْبِ نَفْسِه   مُرَادٌ لَعَمْرى ما أرادَ قريبُ

وقالوا : أعْرَفُ الناس بعُوارِ الناسِ المُعْوِر . « العُوار : العيب ، والمُعْوِر : ذو العيب القبيح السَّريرة »

واغتابَ رجل آخر عند بعضِ الأشراف ، فقال له : يا هذا ، أوحَشْتَنا من نفسِك ، وأيأستنا من مَوَدّتك ؛ ودَللتنا على كثرةِ عُيوبك بما تذكرُ من عُيوب الناس ، لأنّ الطالِبَ للعيوب إنما يَطلبُها بقدْرِ ما فيه منها

وقال شاعر :

وأجرَأُ من رأيْتُ بظَهْرِ غَيبٍ   على عَيبِ الرِّجالِ ذَوُو العُيوبِ

يقول : أجرأ الناس على عيب الناس بظَهر الغيب هم ذوو العيوب ، والظهر : ماغاب عنك »

ومما يذكر هنا قولُ بعضِ الحكماء : الأشرارُ يَتَتبَّعُونَ مساوِئَ الناسِ ويتركونَ محاسِنَهم ، كالذُّباب يتتَبّعُ المواضِعَ الفاسدةَ من الجَسَد ويترُكُ الصحيحة .

تشهى الغيبة واستطابتها

قالوا فى ذلك : الغِيبة فاكهةُ النُّسّاك والقُرّاء . . .

وقَصد رجُلٌ إلى ابن عَمّه مُسْتَرْفِدًا ، فأحسن إليه ، فلما رَجع سُئِلَ ، فقال : مَنَعَنى التلذُّذَ بالغيبة والشكوَى .

وقال رجلٌ لِبَنيه : إذا اجْتَمَعْتُمْ فعليكم حديثَ أنفُسِكم ودَعُوا الاغتياب ، فقال أحدهم : نحنُ نحتاجُ فى هذه السنة إلى كذا وكذا ، ونَفعَلُ ونَصْنَعُ كذا وكذا ، فقد فرغنا من حديثنا ، فبماذا نشتغِل !

من اغتاب فاغتيب

قيل : مَن رَمَى الناسَ بما فيهم رَمَوْهُ بما ليس فيه

وقيل : بَحْثُكَ عن عيوبِ الناسِ يَدْعُو إلى بحثِهِمْ عن عُيوبك .

وَمَنْ دعا الناسَ إلى ذَمِّه ذَمُّوه بالحقِّ وبالْباطِل

وقال شاعر ظريف :

تحلَّلْتَ بالسَّبِّ لَمَا رأيتَ أديمَكَ صحَّ ومَنْ سَبَّ سُبْ

فإنْ لمْ نَجِدْ فيكَ من مَغْمَزٍ سلكنا إليك طريقَ الكَذِبْ

نهيهم عن الإصغاء إلى المغتاب

قالوا : إذا رأيتَ من يغتابُ الناسَ فاجْهَدْ جُهدَكَ أنْ لا يَعرِفَك ، فأشقَى الناس به مَعارفه .

وقال عَمرو بنُ عُبيد لرجل يَستمع إلى آخر يغتاب : وَيْلَك ، نَزِّهْ أُذُنك عن استماع الخَنا كما تنزِّهُ لسانَك عن النُّطق به .

وقالوا : ✡ والسَّامعُ الذَّامِ شَريكٌ له ✡

وقال بعض المُتصوِّفة : الرجلُ يقول : سبحان الله ، وأَخْشَى عليه بذلك النار ، وهو الذى يَسْتمِدُّ بذلك الغِيبة إذا سَمِعها ...

الممدوح بصيانة مجلسه عن الغيبة

مَدَح بعضهم رجلا فقال : يُنزِّهُ مَجالِسَه عن الغِيبة ومسامِعَه عن النميمة .

وقال الشاعر :

إذا ما تراآهُ الرجال تحَفَّظوا فلمْ تُنْطقِ العَوْراءُ وهو قريبُ

« العوراء : الكلمة القبيحة »

حثهم على التثبت فيما يسمع من السعاية

وُشِىَ برَجُلٍ إلى بلال بن أبى بُرْدة ، فلما أُتِىَ به قال : قد أتاك كتابٌ من الله فى أمرنا ، فاعمل به ، قال الله تعالى : « إن جاءكم فاسِقٌ بنبإٍ فتبيَّنُوا أن تُصِيبوا قوماً بجهالةٍ فتصبحوا على مافعلتم نادمين » ، فقال : صدقت.

وأُبْلغ أحدُ الملوك عن رجلٍ منكَراً ، فأمر بقتله ، فقال : إن قتَلْتَنى ومَن سَعَى بى كاذب يَعْظُمْ وِزْرُكَ ، وإن تركتنى وهو صادق قلَّ وِزْرُكَ وأنت من وراء ماتريد ، والعجلة مُوَكَّلٌ بها الزلل ، فأمر بإبقائه .

وقال كُثيِّر عزّة :

وإن جاءكِ الواشونَ عنى بكِذْبَةٍ ... فرَوْها ولم يأتوا لها بحويل [1]

فلا تَعْجَلى ياعزَّ أن تَتَفَهَّمِى ... بِنُصحٍ أتى الواشونَ أم بِحُبولِ [2]

وقال عبدةُ بن الطبيب من أبيات يعظ فيها بنيه :

واعْصُوا الذى يُزْجِى النَّمائمَ بينكمْ ... مُتَنَصِّحاً وهْوَ السِّمامُ المُنْقَعُ [3]

يُزْجِى عقاربَه لِيَبْعَثَ بينكم ... حَرْباً كما بعث العروقَ الأخْدَعُ [4]

حرّانَ لا يشفِى غليلَ فُؤَادِهِ ... عَسَلٌ بماءٍ فى الإناءِ مُشَعْشَعُ [5]

---

(١) فروها من الفرية ، والحويل : المحاولة

(٢) الحبول : الدواهى

(٣) يزجى : يسوق ، والسمام : السم ، والمنقع : المربى

(٤) الأخدع : عرق فى العنق فى موضع الحجامة

(٥) مشعشع : ممزوج

لا تأمنوا قوماً يَشِبُّ صبيُّهم بين القبائل بالعداوة يُنْشَعُ (١)
إن الذين تَرَوْنَهم إخوانَكمْ يشفِى غليلَ صدورهم أن تُصْدَعُوا (٢)
فَضَلَتْ عداوتُهم على أحلامِهِمْ وأبَتْ ضِبابُ صدورهم لا تُنْزَعُ (٣)
قومٌ إذا دَمَسَ الظلامُ عليهمُ هدَجُوا قنافِذَ بالنَّميمةِ تَمزَعُ (٤)

وسعى رجل بالإمام الليث بن سعد إلى والى مصر ، فأحضره ، فقال الإمام : إنْ رأيتَ أن تسأله : أسِرّاً ائتَمَنْتُهُ عليه فخانه ، أم كذبٌ افتراه؟ والخائن والكاذب لا يُقْبَلُ قولهما ...

ووَشَى واشٍ إلى بعض الأمراء وقال : إنّ فلاناً هجاك ، فأحضره وأعلمه ، فقال الرجل : كلا ، فقال : أخْبَرَنى بذلك الثقة ، فقال : الثقة لا يكون نمّاما .

وكان الفضل بن سهل الوزير يُبْغِضُ السُّعاة ، فإذا أتاه ساعٍ يقول : إن كنت صادقاً لم ينفعْك ذلك عندنا ، وإن كنت كاذباً عاقبناك ، وإن شئت أقلناك .

---

(١) ينشع من نشع فلان بكذا : أولع به

(٢) هذا البيت من شواهد المسند إليه فى علم المعانى والشاهد فيه تنبيه المخاطب على الخطأ فى ظنه ، إذ فى قوله : إن الذين من التنبيه على الخطأ ما ليس فى قولك إن القوم الفلانيين ، وترونهم : تظنونهم

(٣) الضباب جمع ضب ، والمراد به : الغل الممعن فى الصدر إمعان الضب فى جحره

(٤) دمس الظلام : اشتدت ظلمته ، وهدجوا : مشوا مشية الشيوخ الراجفة المتقاربة الخطى ، وهو الهدجان ورواية المفضليات : حدجوا ا قال شارحها حدجوا : رحلوا : أراد : أنهم يسهرون بالنميمة والاحتيال فى الشر كما يسهر القنفذ لأنه يسير ولا ينام ليله أجمع ، وتمزع ، تسرع

وسأل رجل عبد الملك بن مروان الخَلْوَة ؛ فقال لأصحابه : إذا شئْتم [١] فلمَّا تهيأ الرجل للكلام قال له : إياك وأن تمدحنى ، فإنى أعرَف بنفسى منك أو تكْذِبَنى فإنَّهُ لا رأىَ لِكذوب ، أو تَسْعَى بأحدٍ إلىّ ، وإنْ شِئْتَ أن أُقيلك أَقَلْتُكَ ، قال : أقلنى :

ووَشَى إلى عبد الملك واشٍ فى أحد الكُتَّاب ، فوَقّع :

أقِلُّوا عليهم لا أبَا لأبيكم
مِنَ اللّوم أوسُدُّوا المكان الذى سَدُّوا [٢]

وقال الواثق لأحمد بن أبى دواد القاضى : مازال القوم فى ثَلْبِك إلى الساعة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لكلِّ امرئٍ منهم ما اكتسب من الإثم ، والله ولىُّ جزائه ، وعقابُك من ورائه ، فما الذى قلتَ لهم ؟ قال : قلت :

وسَعَى إلىّ بِصَرْم عَزَّةَ نِسْوَةٌ جعلَ المليكُ خُدودَهنَّ نعالها [٣]

صعوبة التخلص من اغتياب الناس

سأل بعض الأنبياء ربَّه عز وجل أن يدفع عنه ألسنة الناس فلا يغتابوه ، فقال عز وجل : هذه خَصلَةٌ لم أجعلها لنفسى فكيف أجعلها لك !

وقالوا : ليس إلى السلامة من ألسنة الناس سبيل . فانظر إلى ما فيه صلاحُكَ فالزَمْهُ .

---

(١) تلك كانت عادته إذا أراد انصراف أصحابه يقول : إذا شئتم
(٢) للحطيئة
(٣) لكثير عزة

وقال شاعر :

إذا كنت مَلْحيًّا مسيئاً ومُحسِناً فَغِشْيَانُ ماتهوَى من الأمر أكْيَسُ

« ملحيًّا : ملوماً ، ومسيئاً ومحسنا : حالان »

ذم ناقِل الغيبة

قالوا : من بلَّغك فقد شتمك . وفى هذا المعنى يقول شاعر :

لعَمْرُكَ ما سبَّ الأميرَ عدُوُّه ولكنَّما سبَّ الأميرَ المُبَلِّغُ

وقيل لحكيم : فلان عابك بكذا ، فقال : لقد رأيتُكَ تَفَحْتَنى بما اسْتَحَى الرجلُ مِن استقبالى به .

الموصوف بالنميمة

قال سبحانه : (ولا تُطِعْ كلَّ حَلَّافٍ مَهِين هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بنَمِيم)

وقال بعضهم لآخر : فلانٌ نمّ بك ، فقال : إن فلاناً لو كان بينك وبين الله واسطة لسَعَى بك إليه .

وقال السَّرِىّ الرَّفاءِ :

أنمّ بما استَودعتَهُ من زُجاجةٍ ترى الشىء فيها ظاهراً وهو باطِنُ

وقال العباس بن الأحنف :

أناسٌ أمِنَّاهم فنمُّوا حديثَنا فلما كتمنا السر عنهم تقوَّلوا

من اغتاب غيره فرآه

اغتاب أعرابى رجلا ، فالتفت فرآه ، فقال لو كان خيراً ما حضرته .

من لا يحرم اغتيابه

قال الحسن البصرى : لا غِيبة فى ثلاثة : فاسقٍ مجاهر ، وإمامٍ جائر ، وصاحب بدعة .

حثهم على التحرز

مما يقتضى الغيبة

قال الحسن البصرى : من دخل مداخِلَ التُّهْمَة لم يكن له أجْرُ الغِيبَة .

وقالوا : من عَرَّضَ نفسه للتُّهْمَة فلا يلومَنَّ مَنْ أساءَ به الظنَّ واغتابه .

الباب السادس

فى التواضع والكبر

وما إليهما

ولما كان التواضعُ مجلبة المودة ، والكبر مَدْرَجَةَ العداء، حتى قال بعضهم — وقد قيل له : ما التواضع ؟ فقال : اكتساب المودّة ، فقيل : ما الكبر ؟ فقال : اكتساب البغض — لمّا كان ذلك كذلك ألْحَقْنا عبقرياتهم فيهما بباب الحلم وما إليه .

حدّ التواضع والكبر

التواضع فضيلة بين الضَّعَة والكبر ، قال الراغب : التواضع مُشْتَق من الضَّعة وهو : رضا الإنسان بمنزلةٍ دون مايستحقه فَضْلُهُ ومنزِلَتُه، وهو فضيلة لاتكاد تظْهر فى أفناء الناس ، لانحطاطِ درجتِهم ، وإنما يَتَبَيَّنُ ذلك فى الملوك وأجِلَّاء الناس وعلمائهم . وهو من باب التفضُّل ،لأنه يترُكُ بعض حقّه ، قال : وهو بين الكبر والضّعة : فالضعة:وضْعُ الإنسان نفسه بمحلّ يُزْرى به ، والكبر : وضْعُ نفسِه فوق قدْرِه ، أو هو : ظَنُّ الإنسان أنهُ أكبر من غيره ، والتكبر : إظهار ذلك. وهذه صفةٌ لا يستحقُّها إلا الله عز وجل ، ومن ادعاها من المخلوقين فهو فيها كاذب ، وكذلك صارَ مدحاً فى البارى تعالى ، وذما فى البشر ، وإنما شرُف المخلوق فى إظهارِ العبودية كما قال تعالى : لن يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أن يكون عبداً لله

ولا الملائكة المقربون ، تنبيها على أن ذلك لهم رفعة لاضَعَة : قال : والتكبّر يتولّدُ من الإعجاب ، والإعجابُ من الجهل بحقيقة المحاسن ، والجهل رأس الانسلاخ من الإنسانية ، ومن الكبر الامتناعُ من قبول الحق ، وأقبح كِبْر ما كان معه بُخْلٌ ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : خَصْلَتان لا يجتمعان فى مؤمن : الكبر والبخل ، واستُحْسِنَ قول الشاعر :

جَمَعْتَ أمْرَيْنِ ضاع الحزمُ بينهما نفسُ الملوك وأخلاق المماليك

ومن تكبّر لرياسة نالها دل على دناءَةِ عُنْصُرِه ، ومن تكبر لِقِنْيَتِه جهل أن ذلك ظلٌّ زائل وعاريةٌ مُستَرَدَّة ، ومن تفكَّرَ فى ذاته فعرف مَبْدَأه ومُنْتَهاه وأواسطهُ عرف نفسه وروّض كِبْرَه ، وقد نبّه الله على ذلك بقوله : (فلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمّ خُلِق ، خُلِقَ من ماء دافِق يخرج من بينِ الصُّلْبِ والترائب) [١] ، وقال : (قُتِلَ الإنسان ما أكفَره من أيِّ شيءٍ خَلَقه ، من نُطْفَةٍ خَلَقه) ، وقال : (إنا خلقنا الإنسان من نُطْفَة أمْشَاج) [٢] ، ثم قال : وأما العِزَّةُ فهى : الترفّع بالنفس عما يلحقهُ منه غَضَاضة ، والعزة منزلة شريفة ، وهى نتيجة معرفة الإنسان بقدر نفسه وإكرامُها عن الضراعة للأعراض الدنيوية ، قال الله تعالى : (ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين) ، وفى الحديث : « لا ينبغى المؤمن أن يُذِلَّ نفسه » ولذا قالوا : التكبُّر على الأغنياء تواضع ، تنبيها على أن هذا التكبر عزّةُ

---

(١) الترائب موضع القلادة من الصدر . وقيل : الترائب : أربع أضلاع من يمنة الصدر وأربع من يسرته وقال الفراء : يعنى صلب الرجل — العظم من لدن الكاهل إلى العجب — وترائب المرأة

(٢) الأمشاج : الأخلاط : ماء الرجل وماء المرأة أو النطفة

نفسٍ ، وقال ابن مسعود : من خضع لغنيٍّ فوضعَ نفسه عنده طمعاً فيه ذهب ثُلُثا دينه وشَطْرُ مُرُوءَتِه . أقول ولهذا باب سيمر عليك .

حثهم على التواضع

قال سيدنا رسول الله : « طُوبَى لمن تواضع فى غير مَنْقَصَةٍ ، وذلَّ فى نفسه فى غير مسكنة . » فى غير منقصة : بأن لا يضع نفسه بمكانٍ يُزْرِى به ، ويُؤدى إلى تضييع حقِّ الحق — الله سبحانه — أو الخلق ، فإن القصد بالتواضع خفضُ الجناح للمؤمنين مع بقاء عزة الدين . رُوى أن رجلا مر على عمر وقد تخشَّع وتذلَّلَ وبالغ فى ذلك ، فقال عمر : ألستَ مُسْلِما ؟ قال بلى ، قال : فارْفَعْ رأسك وامدُدْ عنقك فإن الإسلام عزيز منيع ؛ أما كلمة طوبى فللعلماء فيها كلام كثير فمِن ذلك قول بعضهم : طوبى : اسم الجنة بالهندية ، قال الصاغانى : فعلى هذا يكون أصلها توبى ، بالتاء ، فإنه ليس فى كلام العرب طاء ، وقال قتادة : طوبى كلمة عربية تقول العرب : طوبى لك إن فعلت كذا وكذا ؛ قالوا : ومعنى طوبى لفلان : الُحسنى والخير له .

وكان رسول الله صلى عليه وسلم مثلا أعلى للتواضع ، قال أبو أُمامة رضى الله عنه : خرج علينا رسول الله مُتَّكئا على عصا ، فقمنا له ، فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجمُ يُعَظِّمُ بعضهم بعضا ، وقال : إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد[1] وكان صلوات الله عليه يركب الحمار ويُرِدِف خلفه ،

---

(١) اختلف العلماء فى القيام للتعظيم المعتاد ، فقيل : مكروه استدلالا بهذا الحديث ونظائره ، وذهب بعضهم إلى حرمته وقال بعض الأئمة : إنه مستحب لأهل العلم والصلاح

ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم، حيثما انتهى به المجلسُ جلس... ومن حديث عمر عنه صلى الله عليه وسلم: لا تُطْرُونى كما أطْرَت النصارى ابنَ مريم[1]، إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ الله ورسوله.

وعن عائشة رضى الله عنها: أنه صلوات الله عليه كان فى مِهْنَةِ أهله — خدمَتِهم — يَفْلى ثوبه، ويَحلِب شاته، ويَرْقَع ثوبه، ويَخصِف نعله، ويَقُمّ البيت — يكنسه ويزيل قمامته — ويَخدُمُ نفسه، ويعقل البعير — يربطه من رجله بالعقال — ويعلف ناضحه — الجمل الذى يُسْتَقَى عليه الماء — ويأكل مع الخادم، ويَعْجِنُ معها، ويحمل بضاعته فى السوق. وأخباره فى تواضعه صلوات الله عليه كثيرة متوافرة تراها فى كتب الشمائل والحديث.

وفى المثل: تواضُعُ الرجُلِ فى مرتبتِه ذَبٌّ للشماتة عند سَقْطَتِه.

وقال عروة بن الزبير: التواضع أحد مصايد الشرف، وفى لفظ: «سُلَّمُ الشرف»

وقال عبد الله بن المعتز: مُتَوَاضِعُ العلماء أكثرهم علما، كما أن المكان المنخفض أكثر الأماكن ماءً.

وللحكام العدول، بل قد يجب إذا خشى من تركه ضرر لجبابرة الملوك، ويستحب لمن قدم من سفر ولذوى الأرحام تكريماً لهم وبراً بهم، والمنهى عنه إنما هو ما كان على سبيل الرياء والتكبر، وإنما نهاهم صلوات الله عليه لئلا يظنوه سنة

(١) الاطراء: مجاوزة الحد فى المدح والكذب فيه وبذلك فسر الحديث وفى معنى الحديث قال الأبوصيرى:

دَعْ ما ادعَتْهُ النصارى فى نبيِّهم ... واحْكُمْ بما شِئْتَ مَدْحًا فيه واحْتَكِمِ

وقالوا: من وضع نفسه دون قدرِه رفعه الناس فوق قدره، ومن رفعها عن حده وضعه النّاسُ دون قدره.

وقال جعفر بن محمد: رأسُ الخير التواضُع، فقيل له: وما التواضع؟ فقال أن ترضى من المجالس بدون شرفك، وأن تُسَلِّم على من لقيت، وأن تترك المِراءَ وإن كنت مُحِقًّا، وأن تكره الرِّياء والسُّمْعة.

وقالوا: التَّواضُعُ نِعمَةٌ لا يَفْطِنُ لها الحاسِدَ.

وقالوا: التواضُعُ كالوَهْدَة يَجتمِعُ فيها قَطْرُها وقطرُ غيرِها.

وقال عُمَرُ: أُريدُ رجلا إذا كان في القومِ وهُوَ أميرُهم كان كبعضهم، فإذا لم يكن أميراً فكأنَّهُ أميرهم.

وقال رضى الله عنه حين نظر إلى بعض السَّراةِ مُبتَذِلا لأصحابه: هذا رَجُلٌ يَفِرُّ من الشرف والشرف يَتْبَعُه.

وقد مَدَح الشُّعراءُ المتواضعين فمن ذلك قولُ أبي تمام:

مُتَبَذِّلٌ في القومِ وهو مُبَجَّلٌ   مُتَواضِع في الحَيِّ وهْوَ مُعَظَّمُ

وقال آخر:

مُتَواضِعٌ والنُّبْلُ يَحْرُس قَدْرَهُ   وأخو النَّباهةِ بالنّباهَةِ يَنْبُلُ

وقال البحتريُّ:

دَنَوْتَ تَواضُعاً وعلَوْتَ مَجداً   فَشأناكَ انْحِدارٌ وارْتفاعُ

كذاكَ الشَّمسُ تَبعُدُ أنْ تُسامَى   ويَدْنُو الضَّوْءُ منها والشُّعاعُ

وقال أبو محمد التَّيْميُّ:

تَوَاضَعَ لَمّا زادَه الله رِفْعَةً   وكلُّ رَفيعٍ قَدْرُه مُتواضِعُ

وقال أبو بكر الخوارزمي :

عَجِبْتُ له لم يَلْبَسِ الكِبْرَ حُلَّةً ... وفِينا إذا جُزْنا على بابِهِ كِبْرُ

ذمّهم التكبر

قال الله تعالى : إنه لا يُحِبُّ المُسْتكبرين . وقال سبحانه : كذلك نَطْبَعُ على كل قلبِ متكبِّر جبار . وقال : فادخُلوا أبوابَ جهنّمَ خالِدِين فيها فبِئسَ مَثْوَى المُتكبِّرين . وقال : سأصرِف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق .

ودخل الفضلُ بن يحيي ذاتَ يومٍ على أبيه وهو يتبختر فى مِشْيَتِه ، فقال له يحيي : ياأبا عبد الله ، إن البُخلَ والجهل مع التواضع ، أزينُ بالرجل من الكِبر مع السخاء والعلم ، فيالها من حسنة غطّتْ على عيبين عظيمَين ، ويالها من سيئة غطّت على حسنتين كبيرتين ، ثم أومأ إليه بالجلوس وقال : احفظه ياأباعبد الله فإنه أدب كبير أخذناه عن العلماء ...

وهذا كما قال حكيم : وَجَدْنا التواضُعَ مع السخافة والبُخْلِ أحْمَدَ عند العقلاءِ من الكِبْرِ مع الأدب والسّخاءِ ، فأَنْبِلْ بحَسَنةٍ غطّتْ سيّئتَيْن ، وأقْبِحْ بسَيِّئة عفّت على حسنتين !

وقال على بن أبى طالب : عَجِبْتُ للمتكبّر الذى كان بالأمسِ نطفَةً وهو غداً جِيفة . وقال بعض الشعراء :

يامُظهِرَ الكِبْرِ إعجاباً بصورتِه ... انظُرْ خلاءَكَ إن النَّتْنَ تثريبُ

لو فكَّرَ الناسُ فيما فى بُطونِهِم ... مااستشعرَ الكبرَ شُبّانٌ ولا شِيبُ

هل فى ابنِ آدمَ غيرَ الرأسِ مَكْرُمَةٌ ... وهو بخَمْسٍ من الأقذارِ مضروبُ

أنفٌ يَسِيلُ وأُذنٌ رِيحُها سَهِكٌ   والعينُ مُرْمَصَةٌ والثغرُ مَلْعوبُ
يابنَ التُّرابِ ومأكولَ التراب غداً   أقصِرْ فإنك مأكولٌ ومَشْرُوبُ

وقالوا : دَعِ التكبُّرَ ، فتى كنتَ من أهل النُّبْل لم يَضِرْكَ التبذُّل ، ومتى لم تَكنْ من أهلِه لم يَنْفَعْكَ التنَبُّل .

بعض دواعى التكبر

قال المأمون : ماتكبَّر أحدٌ إلا لِنَقْصٍ وجَدَه فى نفسِه .

وقال حكيم : ماتعاظَمَ أحدٌ على مَن دونه إلا تصاغَرَ لَمنْ فوقَه

وقالوا : ماتاهَ إلا وَضيع ، ولا فاخَرَ إلا سَقِيط ، ولا تَعَظَّمَ إلا لقيط . « السقيط : الأحمق الناقص العقل ، واللقيط : الطفل الذى يُوجَد مَرْمِيًّا على الطرُق لا يُعرَف أبوه ولا أُمّه »

وقال يحيي بن خالد بن برمَك : لَستَ تَرَى أحداً تكَبَّر فى إمارَتِه إلا وهو يَعلم أنّ الذى نالَ هو فوقَ قَدرِه ، ولستَ ترى أحداً يَضع نفسَه فى إمارَة إلا وهو فى نفسِه أكثر مما نال .

وقيل لبَعضهم : فلانٌ غَيَّرَتْهُ الإمارة ! فقال : إذا وَلِيَ الرجلُ ولايةً فرآها أكثرَ منه تغَيَّرَ ، وإذا وَلِيَ وِلايةً يرَى أنه أكثرُ منها لم يَتَغيَّرْ .

وقالوا : مَن نال منزلة فأبْطَرَتْه دَلّ على رداءةِ أصلِه وعُنْصُرِه .

وقال بعض المتصوفة : اللئام إذا تموَّلوا استطالوا ، وإذا افتقروا تواضعوا والكرام إذا تمولوا تواضعوا ، وإذا افتقروا استطالوا .

وقال الجاحظ من كلمة له : والكبر فى الأجناس الذليلة أرسخ ، ولكن

القِـلّةَ والذلة مانعتان من ظهور كِبْرِهم ، ومَن قدر من الوضعاء أدنى قدرة ظهر من كبره مالا خفاء به ، ولم أرَ ذَا كِبْر قـطُّ علا مَن دونه إلا وهو يَذِل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزْنِه ...

متكبر دنىء أو فقير

قالوا : أبغض الناس ذو عُسْرٍ يَخْطُرُ فى رداء كبر .

ومن قولهم فى ذلك : أنفٌ فى السماء وآستٌ فى الماء

مدحهم معرفة الرجل قدر نفسه وذمهم الصلف

وبعض نوادر المزهوّين

قال على بن أبى طالب : لَنْ يَهلِكَ امرؤ عرَف قدره .

وقال المتنبى :

ومن جَهِلَتْ نَفْسُهُ قدرَه رأى غيره منه ما لا يَرى

وقال سيدنا رسول الله : ثلاثٌ مهلكات : شُحٌ مُطاع ، وهَوًى مُتَّبَع ، وإعجاب المرء بنفسه .

وقالوا : عُجْبُ المرءِ بنفسه أحدُ حُسَّاد عقله .

وقال أعرابى لرجل معجَبٍ بنفسه : يَسُرنى أن أكون عند الناس مثلَك فى نَفسِك ، وعند نفسى مثلَك عند الناس ...

وكان رجل يسمى أبا ثوَابة أقبحَ الناس كبراً ، ممعناً فى الصَّلَف ، رُوِى أنه قال لغلامه : آسْقِنِى ماء ، فقال : نعم ، قال : إنما يقول « نعم »

من يقـدر على أن يقول «لا» وأمر بضربه ... ودعا أكّارًا فكلمه ، فلما فرغ دعا بمـاء وتمضمض ، استقذاراً لمخاطبته ...

ومن المعجبين بأنفسهم المُغالين فى العزة وإن كان إلى ذلك من الشخصيات الضخمة الـكريمة النبيلة المحترمة عمارة بن حمزة[1] ، رُوِى : أنه دخل على المهدى الخليفة العباسى ، فلما استقر به الجلوس ، قام رجلٌ كان المهدى قد أعده له ليتهكَّمَ به ، فقال : مظلومٌ يا أمير المؤمنين قال : من ظلمك ؟ قال : عُمارة غَصَبَنِى ضَيْعتى ، وذكر ضـيعةً من أحسن ضـياع عُمارة وأكثرها خَرَاجًا ، فقال المهدىّ لعمارة : قُمْ فاْجلسْ مع خَصْمِك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما هو لى بخَصْم ، إنْ كانت الضيعةُ له ، فلستُ أُنازعه فيها ، وإن كانت لى فقـد وهبتها له ، ولا أقوم من مجلسٍ شرفنى به أمـير المؤمنين ، فلما انصرف المجلس سأل عمارَةُ عن صِفَةِ الرجل ، وما كان لباسُه ، وأين كان موضعُ جلوسه ... وكان من تيهه أنه إذا أخطأ يمر على خطئه ، تكبُّراً عن الرجوع ويقول : نقض وإبرام فى ساعة واحدة ! الخطأ أهون من ذلك ...

ومن المفرطـين فى الـكِبْر رجـل يسمى عبيد الله بن زياد بن ظَبيان ، قال له رجل من قومه وقد رأى منه ما أعجبه : كـثَّرَ الله فينا مِثلك ، فقال : لقد كلفتمُ الله شَطَطا ...

وهناك من نوادر المتـكبرين المستطرفة مالا يتَّسع له معجمنا هذا .

---

(١) ترجم له ياقوت فى معجم الأدباء ترجمة وافية

معتذر لعجبه وعزته

قيل لإياس بن معاوية [1] : ما فيك عيب غير أنك مُعْجَبٌ ، فقال : أَيُعْجِبُكم ما أقول ؟ قالوا : نعم ، فقال : فأنا أحقُّ أن أُعْجَبَ به ...

وقال بعض المعجبين :

يقولون : ذو كِبْرٍ ولو خُصَّ بعضهم ... ببعضِ خِصالى ما استفاق من الكبر

وقال رجل لبعض المزهوّين : ما أعظمك فى نفسك ! فقال : لست بعظيم، ولكنى عزيز ، لقوله تعالى : ولله العزةُ ولرسوله وللمؤمنين . وفى هذا المعنى يقول بعضهم :

وما أنا مَزْهُوٌّ ولكننى فتًى ... أبَتْ لِىَ نَفْسٌ حُرَّةٌ أن أُذِيلَهَا

« أذيلها : أهينها » وهذا من قبيل قول القائل :

وأُكْرِمُ نفسى أننى إن أهنتها ... وحقِّك لم تكرُمْ على أحدٍ بعدى

ولمثل هذا المعنى باب سنستوعب عبقرياتهم فيه .

التكبر على ذوى الكبر

سُئل الحسن البصرىّ عن التواضع ، فقال : هو التكبر على الأغنياء « يريد : الترفع وعدم التذلل لهم طمعاً فى مالهم أو جاههم »

وأنشد المبرد :

إذا تاهَ الصديقُ عليك كبرا ... فتِهْ كِبْراً على ذاك الصديق

---

(١) الذى يضرب به المثل فى الذكاء والفطنة ، ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء البصرة ، ترجم له ابن خلكان .

فإيجابُ الحقوق لغير راعٍ حُقُوقَكَ رأسُ تضيع الحقوقِ

وقال الأصمعى : قال رجل : ما رأيت ذا كبر قط إلا تحول داؤه فِيَّ . « يريد : أنى أتكبر عليه » ، وقال آخر : ماتاه أحدٌ قط علىَّ مرتين « يريد : أنه إذا تاهَ مرة لم أعاوِدْه وتركته وأعرضت عنه »

وقال عدى بن أرطاة وهو أمير لوكيع بن الأسود : سَوِّ علىَّ ثيابى ، فقال : ٭ ذكَّرْتنى الطعنَ وكنتُ ناسيا ٭[1] فى خَفِىٍّ ضيِّقٍ فلْيَمُدَّهُ الأميرُ حتى أنزِعه ، فقال له عدى : إن الجليسَ لَيَلِى من جليسه أكثر من هذا ، فقال ياعدى ، إذا عُزِلْتَ عنا فكلِّفنا أكثرَ من هذا ، أمّا وأنت ترى لك علينا بسطة فلا ...

ذمهم الإفراط فى التواضع

قالوا : مِنَ التواضع ما يَضَع .

وقال عبد الله بن المقفع : الإفراطُ فى التواضع يوجب المذلة ، والإفراط فى المُؤانسة يوجب المهانة .

حمد تعظيم الكبار

قدِم قيس بن عاصم المِنْقَرِىّ سيد أهل الوبر على النبي صلى الله عليه

---

(١) قال الميدانى ـ وأورده فى أمثاله ـ : أصله أن رجلا حمل على رجل ليقتله ، وكان فى يد المحمول عليه رمح ؛ فأنساه الدهش والجزع ما فى يده ، فقال له الحامل : ألق الرمح ، فقال الآخر . وأن معى رمحا لا أشعر به؟ ذكرتنى الطعن ... المثل وحمل على صاحبه فطعنه حتى قتله . يضرب فى تذكر الشىء بغيره .

وسلم ، فبسط له رداءه ، ثم قال : إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه .

ورُوِىَ أن مجوسيًّا دخل على رسول الله . فأخرج صلوات الله عليه مِن تحته وِسادةً حَشْوُها ليف ، وطرحها له ، وأقبل عليه يحدثه ، فلما نهض قال عمر : إنه مجوسى ! فقال عليه الصلاة والسلام : قد علمت ، ولكن جبريل يأمرنى أن أكرم كل كريم قوم إذا أتى ، وهذا سيد قومه .

وركب زيد بن ثابت رضى الله عنه [1] ، فدنا منه عبد الله بن عباس يأخذ بركابه ، فقال : ماتفعل يا ابن عم رسول الله ؟ فقال . هكذا أُمِرْنا ن نفعل بأمرائنا [2] ، فقال زيد : أرنى يدكَ ، فأخذها وقبّلها ، وقال : هكذا رنا أن نفعلَ بأهل بيت نبينا .

---

(١) هو الصحابى العالم الجليل ، كاتب الوحى ، وجامع القرآن فى عهد أبى بكر وقال فيه أبو بكر : إنك شاب عاقل لا نتهمك ، وكان أحد فقهاء الصحابة الجلة الفراض — علماء المواريث — مات فى عهد مروان بن الحكم

(٢) ورد أن النبى صلوات الله عليه ، سلم زيد بن ثابت الراية فى إحدى الغزوات وأمّره على الجيش فيها

الباب السابع

فى الشجاعة وعبقرياتهم فيها

وفى الصبر فى القتال

وسائر ما يتصل بالحرب

ودونك ما وقع عليه الاختيارُ من عبقرياتهم فى الشجاعة والصبر فى الحروب، وسائر ما ينعطف على هـذه المعانى وينشعب به القول فيها

وأنت فقد علمت مما أسلفنا عليك فى باب الصبر أن الشجاعة لون من ألوانه . ومن ثم أردفنا القول على الأبواب السابقة — وهى جميعاً من ألوان الصبر — بالقول على الشجاعة وما إليها .

حقيقة الشجاعة

قالوا : الشجاعة : فضيلةٌ بين التهوُّر والُجبن .

وفى الأثر : الشجاعة غريزة يضعهَا الله فيمن يشاء من عباده.

وسُئِلَ بعضهم عن الشجاعة فقال : جِبِلَّةُ نفسٍ أبيَّة .

وقيل لبعضهم : ما الشجاعة ؟ فقال : صبر ساعة .

وقال بعض المجرِّبين : الرجال ثلاثة : فارس ، وشجاع ، وبطل ؛ فالفارس الذى يَشُدُّ إذا شَدُّوا ، والشجاع : الداعى إلى البِرَاز والُمجيب داعيَه ،

والبطل : الحامى لِظُهور القوم إذا ولَّوا ...

ويروى أن زيادَ بن أبيه كتب إلى ابن عباس : أن صِفْ لى الشجاعة والجبن والجود والبُخــل ، فكتب إليه : كتبت تسألنى عن طبائعَ رُكِّبَتْ فى الإنسان تركيبَ الجوارح ، اعْلمْ أن الشجاع يقاتلُ عمن لا يعرفه ، والجبان يَفِرُّ عن عِرْسِه — زوجه — وأن الجواد يُعطِى من لا يلزمُه وأن البخيل يُمسِكُ عن نفسِه .

الأسباب المشجعة

قال الجاحظ : الأسباب المشجِّعَةُ قد تكون عن الغضب ، والشراب[١] والهوج[٢] ، والغَـيْرَةِ ، والْحَمِيّة ، وقد تكون مرقوة النَّفْج[٣] وحُبِّ الأُحْدُوثة ؛ وربمـا كان طبعاً ، كطبع الرحيم ، والسَّخِىِّ ، والبخيل ، والجزوع والصبور ؛ وربمـا كان للدِّين ، ولـكن لا يَبْلُغ الرجُلُ للدِّينِ مالم يُشَيِّعْهُ بعضُ ما تقدَّم ، لأن الدِّينَ مُجْتَلَبٌ مُكْتَسَبٌ ، ولا يكاد يبلغ الطَّبِيعَة .

وقالوا : لا يصْـدُقُ القِتالَ إلا ثلاثة : مُتَدَيِّنٌ ، وغَـيْرَان ، ومُمتَعِضٌ من ذُلّ .

---

(١) المراد : الخمر

(٢) الهوج : الطيش والحمق والتسرع

(٣) النفج : افتخار المرء بمـا ليس فيه .

حثهم على الثبات والإقدام

ونهيهم عن الإحجام والفكر فى العواقب

قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا لَقِيتمُ الذين كفروا زَحفاً فلا تُوَلُّوهم الأدبار) ... « زحفاً حال من الذين كفروا ، والزحف : الجيش الكثير الذى يُرَى لِكَثْرَته كأنه يَزْحَف ، : أى يدِبُّ دبيباً ، من زَحفَ الصبي : إذا دب على آسْته قليلا قليلا ؛ سُمِّيَ بالمصدر ، والجمع : زُحُوف ، والمعنى : إذا لقيتُمُوهم للقتال وهم كثير متوافرون وأنتم قليل فلا تَفِرُّوا ، فضلا أن تُدَانُوهم فى العَدَد ، أو تُساوُوهم» ... وقال سبحانه : (ياأيها الذين آمنوا إذا لَقِيتم فئةً فَآثْبُتُوا واذكُروا الله كثيراً لعلكم تُفْلِحُون ، وأطيعوا الله ورسولَه ولا تَنازَعُوا فتَفْشَلوا وتَذْهَبَ ريحُكم واصبروا إن الله مع الصابرين) ... « إذا لقيتم فئة : إذا حاربتم جماعة ، فاثبُتُوا : لا تَفِرُّوا ، واذكروا الله كثيراً : اذكروه سبحانه فى مواطِن الحرب ، مُسْتَظْهِرِين بِذِكْرِه مُتَرَقِّبِين لِنصرِه ، وفى هذا إشعارٌ بأن على الإنسان أن لا يفْتُرُ عن ذكرِ ربه أشغلَ ما يكون قلباً وأكثرَ مايكون هماً ، وأن تكون نفسه مُجْتَمِعَةً لذلك وإن كانت مُتَوَزِّعَة عن غيره ، وفشِل يفشَل : ضَعُفَ وَجَبُنَ وذَهبَتْ قُوَاهُ ؛ يقول سبحانه : إذا اختلفتم ضَعُفْتم وإذا اتفقتم كنتم أقوياء ، والريح : الدولة ، شُبِّهَت فى نفوذ أمرها وتمشِّيه بالريح وهبوبها ، ومن ذا يقال : هبَّتْ ريح فلان : إذا دالت له الدولة ونفَذَ أمره »

وقال أبو بكر الصديق لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة :

احْرِصْ على الموت تُوهَبْ لك الحياة .

وقالوا : من فكَّرَ فى العواقِب لم يَشْجُعْ .

وقالوا : السلامةُ فى الإقدام ، والحِمَامُ فى الإحجام .

وتقول العرب : الشُّجاعُ مُوَقًّى . «أى تتهيَّبُهُ الأقران فيتحامَوْنه فيكون ذلك وقاية له »

واستُشِيرَ أكْثَمُ بن صَيْفِيٍّ فى حرب أرادوها فقال : أقِلّوا الخلاف لأمرائكم واعلموا أنَّ كَثْرَة الصِّياح من الفشل ، والمَرْءُ يَعْجِزُ لامحالة(١) وادَّرِعوا الليل فإنه أخْفَى للويل .

وقال هانئ بن مسعود الشيبانى يومَ ذى قار يُحَذِّرُ قومه : إن الحذرَ لا يُنْجِى من القدر ، والصبر من أسباب الظفر ، والْمَنِيَّة ولا الدَّنِيَّة ، واستقبال الموت خير من استدباره ، والطعن فى ثُغَر النحور أكرم منه فى الأعجاز والظهور ، وهالكٌ معذور خير من ناجٍ فرور ...

وقال أبو مسلم الخراسانى لبعض قوّاده : إذا عرض لك أمْرٌ نازعك فيه منازعان ، أحدهما يبعث على الإقدام والآخر على الإحجام ، فاقدُم ، فإنه أدرَكُ للثار ، وأنفى للعار .

وقالت الخنساء :

نُهين النفوس وهَوْنُ النفو ... سِ يَوْمَ الكريهةِ أوْقَى لها

وقيل للمهلب بن أبى صُفرة : إنَّكَ لَتُلْقِى نفسك فى المهالك ، فقال : إنْ لَمْ آتِ الموتَ مُسْتَرسِلا ، أتانى مُسْتَعْجِلا ، إنى لستُ آتى الموت من

---

(١) مثل معناه : لا تضيق الحيل ومخارج الأمور إلا على العاجز ، والمحالة : الحيلة

حُبِّه وإنما آتيه من بُغضه ، ثم تمثَّلَ بقولِ الُحصَيْنِ بنِ الحُمام الُمرّى[1] :

تأخَّرْتُ أسْتَبْقِى الحياة فلمْ أجِدْ لِنفسى حياةً مِثْلَ أن أتقدّما

« وهى أبيات مشهورة يقول فيها :

فلسنا على الأعقابِ تَدمَى كلومُنا ولكن على أقدامنا تَقْطُرُ الدّما

نُفَلِّقُ هاماً من رِجالٍ أعِزَّةٍ علينا وهم كانوا أعَقَّ وأظلما

« ومعنى تأخرت ... ألبيت : لمّا تأخرت طمع فىّ العدو ، وظننى جباناً فاجترأ علىّ ، لأن كل أحد يطمع فى الجبان ، ومن ثم كان القتل إلى الجبان أسرع ، فتقدمتُ ، فكان التقدمُ أنجى لى ، ويجوز أن يكونَ المعنى : أحجَمْتُ مُسْتَبْقِياً لحياتى ، فلم أجد لنفسى حياة كما يكون فى الإقدام وذلك أن الأُحدوثةَ الجميلة إنما تكون بالتقدم لا بالتأخُّر . ومعنى فلسنا على الأعقاب ... ألبيت : نحن لا نُوَلِّى فنُجرَحَ فى ظهورنا فتقطُرَ دماؤنا على أعقابنا ، ولكنا نستقبل السيوف بوجوهنا ، فإن أصابتنا جِراحٌ قطَرَتْ دماؤنا على أقدامنا ، وقوله نفلق هاماً ... ألبيت فالهام جمع هامة ، وهى : الرأس يقول : نُشَقِّقُ هاماتِ من رجال يكرُمُون علينا ، لأنهم منا وهم كانوا أسبقَ إلى العقوق : ويقال : عَقَّ الرحم كما يقال : قطعها » .

وقال الكُلْحبَةُ اليربوعى — شاعر جاهلى — :

إذا المرءُ لمْ يَغْشَ الكريهة أوشكَتْ حِبالُ الهُوَيْنى بالفَتَى أن تقطَّعا

« الغشيانُ : الاتيانُ ، والكريهة . الحرب ، وقيل : شِدَّتُها ، وقيل النازلة ا وأوشكت : قاربت ودنت ، والحبال جمع حبل ، بمعنى : السبب ، استعير لكل شىء يُتوَصَّلُ به إلى أمر من الأمور ، والهوينى : الخفض والراحة

---

(١) شاعر فارس جاهلى كان يقال له : مانع الضيم

والباء فى بالفتى : للمصاحبة فيكون حالا ، أو بمعنى عن فيتعلق بما بعدها وجاز لأنه ظرف ، وتقطّعا بحذف إحدى التاءين والفاعل ضمير حبال ، وقوله : بالفتى فقد كان يجب أن يقول بدل الفتى : به ، أو : بالمرء ولكنه عدل عن المضمر والمظهر إلى لفظ آخر لأنه أشبهَ المُضْمَر ، وقال ابن رشيق : قوله بالفَتى حشو وكان الواجب أن يقول : به لأنَّ ذِكر المرءِ قد تقدم ، إلا أن يريد بالفتى معنى الزراية والأُطنوزة — السُّخْرية — فإنه محتمل . وهذا تَخَيُّلٌ دقيق من ابن رشيق »

المبادِر إلى الحرب غير مبال بها

قال البُحْتُرِىُّ :

تسرَّعَ حتى قال مَنْ شَهِدَ الوَغَى لِقاء أعادٍ أمْ لِقاءُ حَبائِب

وقالوا : أشْجَعُ بيتٍ قالته العرب قول العباس بن مِرداس :

أشُدُّ على الكَتِيبَةِ لا أُبالى أحَتْفِى كان فيها أم سِواها

ووصف أعرابىٌّ قوماً فقال : ما سألوا قطُّ كم القومُ ؟ وإنما يسألون : أين هم ؟

وسأل رجلٌ يزيدَ بنَ المُهَلّب فقال : صفْ لى نفْسَكَ ، فقال : ما بارزت أحداً إلا ظننتُ أن رُوحَهُ فى يدى …

ولما بلغ قُتَيْبَةُ بنُ مُسلم حدود الصين قيل له : قد أوغلت فى بلاد التُرْك ، والحوادثُ بين أجنحة الدهر تُقْبِلُ وتُدْبِر ! فقال : بِثقَتى بنصْر الله توَغّلْتُ ، وإذا انقضت المدة لم تنفع العُدّة ، فقال الرجل : آسلُكْ حيث شئت ، فهذا عزمٌ لا يَفُلُّهُ إلا الله …

حث من دعى إلى المبارزة على الإجابة

قال على بنُ أبى طالب لبعض بنيه : لا تَدْعُوَنَّ أحداً إلى المبارزة ، ولا يَدْعُوَنَّكَ أحدٌ إلا أجبْتَه ، فالداعى باغ ، والباغى مصروع .

وقال طَرَفَة بنُ العبد :

إذا القومُ قالوا : مَنْ فتًى ؟ خِلت أنَّنى
عُنِيتُ فلم أكْسَلْ ولم أتبلَّدِ [1]

وقال بَشامَةُ بنُ حَزْنٍ النَّهْشَلى — شاعر إسلامى — :

إنَّا لَمِنْ مَعْشَرٍ أفْنَى أوائلَهُم قولُ الكماةِ : ألا أينَ المُحامونا ؟
لو كان فى الألف مِنَّا واحدٌ فَدَعَوْا مَن فارسٌ خالهمُ إياه يعنونا

المنازل وقت المنازلة

قال زهير بن أبى سُلمَى من قصيدةٍ يمدحُ هَرِماً :

لَيثٌ بِعَثَّرَ يصطادُ اللُّيوثَ إذا
ما اللَّيْثُ كَذَّبَ عن أقرانه صَدَقَا
يَطْعَنُهم ما ارتَمَوْا حتى إذا اطَّعَنُوا
ضارَبَ حتى إذا ما ضارَبوا اعْتَنَقَا

« عَثَّرَ : موضع باليمن ، وقيل : مأسدة بناحية تبالة . وقوله : كذَّب أى لم يَصْدُقِ الحملة ، يقال : كذَّب الرجلُ عن كذا : إذا رجع عنه ،

(١) من معلقته ، يقول : إذا القوم قالوا : من فتى يكفى مهما أو يدفع شراً ؟ خلت أننى المراد بقولهم ، فلم أكسل فى كفاية المهم ودفع الشر ، ولم أتبلد فيهما

يقول : إذا رجع الشجاع عن قِرنه ولم يَصْدُق الحملة عليه فهذا الممدوح يَصْدُقها . واعتنق : التزم قِرْنَه ، يقول : إذ ارتمى الناسُ فى الحرب بالنَّبْل دخل هو تحت الرَّمْي لحَمل يُطاعِنهم ، فإذا تطاعَنوا ضارَبَ بالسيف ، فإذا تضاربوا بالسيوف اعتَنَقَ قِرنه والتزمَهُ ، أى أنَّه يزيدُ عليهم فى كُلِّ حالٍ مِن أحوالِ الحرب »

صدرٌ من عبقرياتهم فى الصبر

من أحسن ما قيل فى الصبر يوم اللقاء قولُ نَهْشل بن حَرِّيٍّ بن ضَمْرَةَ (١) :

ويوم كأنَّ المُصْطَلِينَ بحَرِّه ... وإن لم تكن نارٌ قيامٌ على الجمْر

صبَرْنا له حتى يبوخَ وإنما ... تُفَرَّجُ أيامُ الكريهةِ بالصبرِ

« باخت الحرب والنار تبوخُ بَوخا وبُؤوخا وبَوَخا : سكنت وفترت وكذلك الحَرُّ والغضب والحُمَّى »

وقال مَن لا أذكر اسمه :

بكى صاحِبي لما رأى الموت فوقَنا ... مُطِلاًّ كإطلال السَّحاب إذا اكفَهَرْ

فقلت له : لا تَبْكِ عينُك إنما ... يكونُ غداً حُسْنُ الثناءِ لمَنْ صَبَرْ

فما أخَّرَ الإحجامُ يوماً مُعَجَّلا ... ولا عَجَّلَ الإقدامُ ما أخَّرَ القَدَرْ

---

(١) شاعر شريف مشهور من المخضرمين بقى إلى أيام معاوية وكان مع على فى حروبه ، وأبوه شاعر شريف وجده ضمرة ضخم الشرف وكان من خير بنى دارم ، دخل على النعمان بن المنذر فقال له : من أنت ؟ قال : أنا حمزة ، قال النعمان : تسمع بالمعيدى لا أن تراه ! فقال : أبيت اللعن ، إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، إن نطق نطق ببيان وإن قاتل قاتل بجنان الخ .

فآسى على حالٍ يَقِلُّ بها الأسى وقاتلَ حتى استبْهَم الوِرْدُ والصَّدَرْ
وكَرّ حِفَاظاً خَشْيَةَ العار بعدما رأى الموت معروضاً على منهج المَكَرّ

وقال قَطَرِىُّ بنُ الفُجاءَة :[1]

أقول لها وقد طارت شَعاعاً مِنَ الأبطالِ : وْيحَكِ لَنْ تُرَاعِى
فإنَّك لو سألتِ بقاءَ يومٍ على الأجلِ الذى لَكِ لن تُطاعِى
فصبراً فى مجالِ الموتِ صَبراً فما نَيْلُ الخلود بمُسْتطاعِ
ولا ثَوبُ البَقاءِ بثَوب عِزٍّ فيُطْوَى عن أخى الخَنَعِ اليَرَاعِ
سبيلُ الموتِ غايةُ كلِّ حيٍّ فداعيه لأهْلِ الأرضِ داعى
ومَن لا يُعْتَبَط يسأَمْ ويَهْرَمْ وتُسْلِمْهُ المَنُونُ إلى انقطاعِ
وما لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فى حياة إذا ماعُدَّ مِن سَقَطِ المتاعِ

« أقول لها » أى للنفس ، والشَّعاع : المتفرق ، وهذا مثل ، ومعناه المبالغة فى الفزع ، ولن تراعى من الروع ، وهو : الفزع . يَذْكُر تشْجيعَه نفسه وتعريفَه إياها — بعد ما اسْتَشْعَرَتْ الفزَع — أن الأجلَ مُقَدَّر وأنَّ الزيادةَ لا تلحقه كما بين ذلك فى البيت التالى . وأخو الخنع : الذليل ، والخنوع : الذلة ، ولا يكاد الخنوع يُسْتَعْمَل إلا فى ذلة فى غير موضعها ، واليراع : القصبةُ التى لا جوف لها ، والرجل الجبان لا قلب له ؛ فكأنه لا جوف له ، فوضع اليراع مكان الجبان ، لأنه بمعناه . والاعتباط : الموت من غير عِلة يقول : مَن لم يَمُتْ شابًّا مات هرَما ، ويسأم : أى يسأم ما يعتريه من تكاليف

---

(١) فارس شاعر مشهور ، وشخصية ضخمة فى الإسلام ، كان رأساً من رؤس الخوارج ، وسلم عليه بالخلافة ثلاث عشرة سنة .

الحياة ولابُدَّ أن تُسلِمَه المنُونُ يوما إلى الانقطاع، أى لابد فى النهاية من الموت »

وقال عَمْرُو بنُ الإطنابة — شاعر جاهلى ، والإطنابة : أمه — :

أبَتْ لى عِفَّتى وأبَى بَلائى وأخذِى الحمدَ بالثَّمَنِ الربيحِ [١]
وإقْدامِى على المكْروه نفسى وضَربِى هامَةَ البَطَل المُشِيح [٢]
وقولى كلما جَشَأَتْ وجاشَتْ مكانَكِ تُحْمَدِى أوْ تَستريحِى [٣]
لِأدْفعَ عن مآثرَ صالحاتٍ وأحْمِى بعدُ عن عِرْضٍ صحيحِ

يروَى أنَّ معاوية قال : اجْعَلوا الشِّعْرَ أكبَرَ هَمِّكم وأكثر آدابِكم فإن فيه مآثر أسْلافِكم ومواضِعَ إرشادِكمُ ، فلقد رأيتُنى ليلةَ الهرير وقد عزمتُ على الفِرَار فما ردَّنى إلا قولُ ابن الإطنابة ، وأنشد الأبيات .

✿ ✿ ✿

وقيل لبعض بنى المهلب : بمَ نِلْتُمْ مانلتم ؟ قال : بصبر ساعة

(١) بلائى : بأسى فى الحروب ، واستعار الثمن لما يبذله فى المكارم على طريق التصريح ، والربيح الزائد منه

(٢) وإقدامى يروى : وإجشامى ، ويروى بدل هذا السطر

« وإعطائى على الإعدام مالى »

والهامة : الرأس ، والمشيح : المبادر المنكمش الجاد فى القتال ،

(٣) وقولى كلما جشأت وجاشت يروى « وقولى كلما جشأت لنفسى »

وهى رواية جيدة ومعنى : جشأت وجاشت : كلما تطلعت ونهضت جزعا وفزعا وعن بعضهم : جاشت نفسه : غثت أو دارت للغثيان : فإن أردت أنها ارتفعت من حزن أو فزع قلت جشأت . ومكانك اسم فعل أى : الزمى يانفس مكانك يحمدك الناس أن ظفرت أو تستريحى إن مت

الخدعة والحيلة والتحرز فى الحرب

قال سيدنا رسول الله : (الحرب خدعة) « خَدْعَة وخُدْعَة ، والفتح أفصح ، وخُدَعَة مثل هُمَزَة ، قال علماؤنا : ورُويت عن النبي صلى الله عليه وسلم : خَدْعَة ، ومعناها : من خُدِعَ فيها خَدْعَة فزَلَّتْ قدَمه وعطِب فليس لها إقالة ؛ قال ابن الأثير : وخَدْعَة . أفصح الروايات وأصحها ، ومن قال خُدْعَة أراد . هىَ تُخْدع ، كما يقال : رجلٌ لُعْنَة : يُلْعَنُ كثيراً ، وإذا خَدَعَ أحـدُ الفريقين صاحِبَهُ فى الحرب فكأنما خُدِعت ؛ ومن قال : خُدَعَة أراد أنها تَخْدَع أهلها ، كما قال عمرو بن مَعْديكرب [1]

الحربُ أولَ ما تكون فَتِيَّةٌ تَسْعَى بزِينَتِها لكل جهول

حتى إذا استَعَرَت وشبَّ ضِرَامُها عادت عجوزا غـيرَ ذاتِ خليـلِ

شمطاءَ جَزَّتْ رأسها وتنكَّرَت مكروهةً للشَّم والتقبيل

وقالوا : إذا لم تغْلِبْ فاخْلُبْ « أى إذا أعياك الأمرُ مُغالبةً فاطْلُبْه مُخادعة » .

وقال بعضهم : كُنْ بحيلتك أوثَقَ منك بشِدَّتِك ، وبحذرك أفْرَح منك بنَجْدَتِكَ ، فإن الحرب حربٌ للمُتَهَوِّر وغنيمةٌ للمُتَحَذِّر

وقالوا : حازمٌ فى الحَرْب خيرٌ مِن ألف فارس ، لأن الفارسَ يَقْتلُ عشرة وعشرين ، والحازمَ قد يقتلُ جيشاً بحَزْمِه وتدبيره .

---

(١) هو الفارس المشهور صاحب الغارات والوقائع فى الجاهلية والإسلام وهو صحابى رضى الله عنه .

وقالوا : القائد العظيم ينبغى أن تكون فيه خصالٌ من أخلاق الحيوان : شجاعة الديك ، وتحنّن الدجاجة ، وقلب الأسد ، وحَمْلَة الخنزير ، وروغان الثَّعْلب ، وخَتْل الذئب ، وجمع الذَّرَّة ، وبكور الغُراب .

وقال المُهلَّب بنُ أبى صُفْرَة لِبنِيه : عليكم فى الحرب بالمكيدة فإنها أبْلَغُ من النجدة ... وسُئِلَ بعضُ أهل التَّمَرُّسِ بالحروب : أىُّ المكايدِ فيها أحْزَم ؟ فقال : إذْكاءُ العيُون ، — بَثُّ الجواسيس — وإفشاءُ الغَلَبة واستطلاعُ الأخبار ، وإظْهارُ السرور ، وإماتَةُ الفَرَق — الخوف — والاحتراسُ من البِطَانة ، منْ غير إقْصَاءٍ لمُسْتَنْصِح ولا اسْتِنْصاح لمُسْتَغِش ، وإشْغَالُ الناس عمّا هم فيه من الحروب بغيره .

وكان مالك بن عبد الله الخَثْعَمِىُّ وهو على الصَّافِيَةِ — الجماعة تُقام وتُصَفُّ للحرب — يقوم فى الناس — إذا أرادَ أن يرحل — فيَحْمَدُ الله ويُثنى عليه ، ثم يقولُ : إنِّى دَارِبٌ بالغَدَاةِ دَرْبَ كذا ؛ فيتَفَرَّقُ الجواسيس عنه بذلك ، فإذا أصبح سلك بالناس طريقاً غيرها ، فكانت الروم تُسمِّيه : الثعلب ...

وقال حكيم : اللُّطْفُ فى الحيلة ، أجْدَى لِلْوَسِيلَةِ .

وقالوا : من لم يتأمل الأمر بعَيْنِ عقله لم يقع سيف حيلته إلا على مقاتله والتثبتُ يُسَهِّلُ طريق الرأى إلى الإصابة ، والعَجَلَةُ تضْمَنُ العَثْرة .

«وبعد» فإن هذا الباب متسع جداً ، ومَن أحب التوسع فيه والوقوف على أخبارهم فى المكايد ، وأساليبهم العجيبة فيها فعليه بالموسوعات — مثل نهاية الأرب للنويرى ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، وبكتب التاريخ ، فتلك مجالاتها .

ما ينبغي أن يتصف به أمراءُ الجيوش

من أجود ما قيل فيما ينبغي أن يتصف به أُمراءُ الجيُوش قول لَقيط ابن يَعْمُرَ الإيادىّ — وهو شاعر جاهلى قديم مُقِلٌ — كان كاتبا فى ديوان كسرى سابور بن هرمز الملقب بذى الأكتاف — وكانت إياد غَلبوا على سواد العراق ، وقتلوا من كان به من الفُرس ، فلما بلغ خبرُهم سابور أجمع على غزو إياد فكتب إليهم لقيط قصيدة ينذر قومه غزو سابور إياهم ، فوقع الكتاب بيد كسرى فقطع لسان لقيط وغزا إيادا وهى قصيدة جيدة جداً يقول فيها :

أَبلغ إياداً وخَلِّلْ فى سَرَاتِهِم إنِّى أرى الرأى إن لم أُعْصَ قد نصَعَا [1]

يالْهَفَ نفسىَ إن كانت أُمورُكُم شَتَّى وأُحْكِمَ أمرُ الناس فاجتمعا

إنِّى أراكم وأرضاً تُعْجَبُون بها مثلَ السفينةِ تغْشَى الوعْثَ والطَّبَعا [2]

ألا تخافُونَ قوماً لا أبَالكُمُ أمسَوْا إليكم كأمثال الدَّبا سِرَعا [3]

---

(١) خلل فى سراتهم : خصص يقال : خلل فى دعائه ، أى خصص ، قال :

كأنك لم تسمع ولم تك شاهداً غداةَ دعى الداعى فعم وخللا

والسراة جمع سرى ، وقيل : اسم جمع والجمع سرواه وأسرياء وهم الأشراف أولوا المروءة ، ونصعا : وضح من نصع اللون نصوعا ونصاعة : اشتد بياضه

(٢) الوعث من الرمل : ماغابت فيه قوائم الدواب . والطبع فى الأصل : مايغشى السيف من الصدأ ، استعاره لما يعلو الماء من الغثاء والزبد ، شبه سرورهم وهم بأرضهم غير مفكرين فيما يحوطها وفيما يحفظها من العدو بالسفينة تغشى ـ وهى سائرة ـ ما يمنع حركتها ويصد جريتها

(٣) الدبى : الجراد قبل أن يطير ؛ وسرعا : مصدر سماعى لسرع سراعة وسرعة :

أبناءُ قوم تآيَوْكم على حَنَقٍ لا يشعُرُون أضلَّ اللهُ أم نَفَعا (١)
أحرَارُ فارسَ أبناءُ الملوكِ لهم من الجُوع جوعٌ تَزْدَهِي القِلَعا (٢)

إلى أن يقول :

خُزْرُ عُيونُهُم كأنّ لَحظَهُمُ حَرِيقُ غابٍ تَرَى منه السَّنا قِطَعَا (٣)
لا الحَرْثُ يَشغَلُهُم بل لايرونَ لهم من دون بيْضَتِكم رِيًّا ولا شِبَعَا (٤)
وأنتمُ تحرُثُون الأرضَ عن سَفَهٍ فى كل مُعتَمَلٍ تبغون مُزْدَرعا (٥)
وتَلبَسون ثِيابَ الأمْنِ ضاحيةً لا تفزَعون وهذا الليثُ قد جَمَعا (٦)

إذا عجل ، يريد : أمنسوا مسرعين

(١) تآيوكم : تعمدوكم وقصدوكم ، يقال : تآييته بوزن تفاعلته ، وتأييته ـ بالتشديد ـ إذا تعمدت آيته ، وآيته : شخصه .

(٢) تزدهى : تستخف ، وقد زهاه زهواً وازدهاه : استخفه وتهاون به . والقلع جمع قلعة ـ بالتحريك ـ : صخرة عظيمة صعبة المرتقى تتقلع عن الجبل

(٣) خزر عيونهم من الخزر ـ بالتحريك ـ وهو : ضيق الجفون لتحديد النظر ، والغاب جمع غابة وهى . أجمة القصب أو ذات الشجر المتكاثف ، سميت بذلك لأنها تغيب من فيها ، والسنا : ضوء النار ولمعان البرق

(٤) بيضتكم : مجتمعكم وموضع عزكم ، على المثل ببيضة الدجاجة إذا سلمت سلم مافيها من طعم أو فرخ ، وفى الحديث : ولا تسلط عليهم عدواً فيستبيح بيضتهم ، يريد : موضع سلطانهم ومستقر عزهم ، واستباحتها : استئصالها

(٥) معتمل : موضع اعتمال ، وهو أن يعمل الرجل لنفسه كاختدم إذا خدم نفسه وأنشدوا :

إن الكريم وأبيك يعتمل إن لم يجد يوماً على من يتكل

، أراد من يتكل عليه فحذف عليه هذه وزاد على متقدمة أى أنه يعتمل إن لم يجد من يتكل عليه

(٦) ضاحية : علانية

مالى أراكم نِياماً فى بُلَهْنِيَةٍ وقد تَرَونَ شِهابَ الحربِ قد سَطَعا [١]

فاشفُوا غَليلى برأْىٍ منكمُ حَصِدٍ يُصْبِحْ فؤادى له رَيّانَ قد نقعا [٢]

ولا تكونوا كمَنْ قد باتَ مُكتَنِعا إذا يُقالُ له : افْرُجْ غُمَّةً كَنَعا [٣]

يسْعَى ويحْسَبُ أنّ المالَ مُخْلِدُهُ إذا استفادَ طريفاً زادَه طَمَعا [٤]

فاقْنُوا جِيادَكُمُ واحْمُوا ذِمارَكُمُ

واستشعِرُوا الصَّبْرَ لا تستشعِرُوا الجزعا [٥]

إلى أن قال :

لا تُلْهِكم إبِلٌ ليسَتْ لكم إبِلٌ إنّ العدوَّ بِعَظْمٍ منكم قرَعا [٦]

لا تُثْمِرُوا المالَ للأعداءِ إنهم إنْ يَظْهَرُوا يَحْتَوُوكم والبِلادَ مَعا

---

(١) بلهنية : رخاء وسعة عيش وغفلة من حوادث الدهر

(٢) الغليل فى الأصل : شدة العطش وحرارته ، أراد : شدة الحزن وحرارته وحصد ـ بكسر الصاد ـ : محكم ، من الحصد ـ بالتحريك ـ وهو فى الأصل : اشتداد فتل الحبال واستحكام الصناعة فى الأوتار والدروع ، وكذلك رأى حصيد ومستحصد ، و نقع الماء العطش : أذهبه وسكنه ، يحثهم على توحيد الرأى لا تختلف بهم الأهواء

(٣) مكتنعاً : منقبضاً مجتمعاً ، وكنع الرحل : تقبض واجتمع ، وقال ابن الأثير : جبن وهرب .

(٤) الطريف من المال : ما استطرفته واستحدثته كالطارف ، خلاف التليد والتلاد والتالد ، وهو : ماورثته عن الآباء قديما

(٥) فاقنوا جيادكم : الزموها ، والذمار : مايلزم حفظه وحمايته من مال وأهل وعشيرة ، واستشعروا الصبر : مستعار من استشعر الثوب : لبسه على شعر جسده ، وهو الشعار دون الدثار ، يقول : وطنوا أنفسكم على الصبر ولا تضمروا الجزع فى أفئدتكم

(٦) إن العدو الخ يريد : إن قرع العدو عظمكم ، والقرع : الضرب ، كنى بذلك عن إذلالهم وإهانتهم

واللهِ ماانفكّتِ الأموال مُذْ أبَدٍ لأهلِها إنْ أُصيبوا مَرَّةً تَبعَا
ياقَوْمِ إنّ لكم من إرْثِ أوّلِكم مجداً قد أشفقْتُ أن يَفْنَى ويَنقَطِعا
ماذا يرُدُّ عليكم عِزُّ أوّلِكم إنْ ضاعَ آخره أو ذَلَّ واتّضعا
يانومِ لاتأمَنُوا إن كنتُم غُيُراً على نِسائِكُم كِسْرَى وما جَمَعَا[1]
ياقومِ بَيْضَتُكُم لا تُفجَعُنَّ بها إنى أخافُ عليها الأزلَمَ الجَذَعا[2]
هو الجَلاءُ الذى يَجْتَثُّ أصلَكُمُ فمَنْ رَأى مِثْلَ ذا رأياً ومن سَمِعَا[3]
قوموا قياماً على أمشاطِ أرْجُلِكُم ثم افزَعوا قد ينالُ الأمْنَ مَنْ فزِعا[4]

ثم قال يصف أمير الجيش — وهو شاهدنا — :

وقَلِّدُوا أمرَكُمُ للهِ دَرُّكُمُ رحبَ الذِّراع بأمرِ الحرب مُضْطَلعا[5]

---

(١) غير - بضمتين - جمع غيور ، من الغيرة وهى : الحمية والأنفة

(٢) تقدم معنى البيضة آنفاً ، والأزلم الجذع فى الأصل : الوعل ، وهو تيس الجبل ، وذلك أن له زلمتين . وهما هنتان معلقتان فى حلقه ، وهو مادام حياً جذع لا تسقط له سن . استعير ذلك للدهر الشديد ، وذلك أن البلايا منوطة به تابعة له وأنه باق على حاله لا يتغير على طول إناه كأنه فتى لم تسقط له سن ، ومن كلامهم : أودى به الأزلم الجذع يريدون : أهلكه الدهر

(٣) يجتث أصلكم : يقتلعه ويستأصله ، ومعنى اجتث فى اللغة : أخذت جثته

(٤) أمشاط جمع مشط — بضم الميم — وهى : سلاميات ظهر القدم ، وهى العظام الرقاق المفترشة فوق القدم دون الأصابع ، وقوله : ثم افزعوا يريد : هبوا وانتبهوا كما يفزع النائم ، وكأنه من الفزع - الخوف - لأن الذى يهب وينتبه لا يخلو من فزع ما

(٥) رحب الذراع كناية عن إطاقته وسعة قوته ، ومضطلع مفتعل من الضلاعة وهى قوة الأضلاع ، وقد اضطلع بحمله : قوى عليه ونهض به

لا مُتْرَفاً إنْ رَخاءُ العيشِ ساعَدَهُ ... ولا إذا عَضَّ مكروهٌ بِهِ خشَعا[١]

لا يَطعَمُ النّوْمَ إلا رَيْثَ يَبْعَثُهُ ... هَمٌّ يكادُ شَباهُ يَفصِمُ الضِّلَعا[٢]

مُسَهَّدُ النَّوْمِ تَعْنيهِ أُمورُكُمُ ... يرومُ منها إلى الأعداءِ مُطَّلَعا

مازال يَحلُبُ هذا الدهرَ أشْطُرَهُ ... يكونُ مُتَّبِعاً طوراً ومُتَّبَعا[٣]

حتى اسْتَمَرَّتْ على شَزْرٍ مَرِيرَتُه ... مُسْتَحْكِمَ الرَّأىِ لا قَحماً ولا ضَرَعا[٤]

وليس يَشْغَلُه مالٌ يُثَمِّرُه ... عنكم ولا وَلَدٌ يَبْغِى له الرِّفَعا

إلى أن قال :

---

(١) المترف : المتنعم المتوسع فى ملاذ شهواته

(٢) ريث يبعثه : مقدار مايبعثه ، يقول : لا يطعم النوم إلا يسيراً حتى يبعثه الهم الماضى ، والشبا جمع شباة وهى حد كل شىء وطرفه كحد السيف والسنان ، تخيل أن لهمه حداً ، ويفصم من الفصم ـ بالفاء ـ وهو أن ينصدع الشىء من غير أن يبين خلاف القصم ـ بالقاف ـ وهو كسر الشىء الشديد حتى يبين ، والضلع والضلع لغتان وهى : محنية الجنب

(٣) يحلب هذا الدهر أشطره يريد : خبر ضروبه ، يعنى أنه مر به خيره وشره وشدته ورخاؤه : تشبيها بحلب جميع أخلاف الناقة ما كان فيها حفلا وغير حفل ودارا وغير دار ، وأصله من أشطر الناقة ، ولها خلفان قادمان وآخران كأنه حلب القادمين وهما الخير والآخرين وهما الشر ، وكل خلفين شطر ، وجعل الأشطر موضع ـ الشطرين كما تجعل الحواجب موضع الحاجبين ، وقوله : يكون متبعاً طوراً ومتبعاً ، أى قد اتبع الناس فعلم ما يصلح به أمر الناس ، واتبع فعلم ما يصلح الرئيس ، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : قد ألنا وإيل علينا ، أى : سسنا وسيس علينا فأصلحنا أمور الناس وأصلحت أمورنا ، وكل ذلك كناية عن جودة الرأى وإحكام الأمر

(٤) المريرة من الحبل : ماطال واشتدفتله والجمع المرائر ، واستمرت : استحكمت والشزر : الفتل ، ضرب ذلك مثلا لاستجماع قوته واستحكام عزيمته ، والقحم : الكبير المسن ، والضرع هنا : الصغير السن الضعيف

لقد بَذَلتُ لكم نُصحِي بلا دَخَلٍ   فاستَيقِظُوا إنّ خير العلم ما نَفَعَا
هذا كتابي إليكم والنذيرُ لكم   لمن رأى رأيَهُ منكم ومَنْ سَمِعا

ولما أوفد المُهَلَّبُ بن أبى صُفرَة كَعْبَ بن مَعْدَان الأشقَرِىّ حين هَزَم عبدَ رَبِهِ الأصغرَ وأجلَى قَطَرِىّ بنَ الفُجَاءة حتى أخرجه من كِرمانَ نحو أرض خراسان إلى الحجاج بن يوسف، قال له الحجاج : كيف كانت مُحَاربةُ المهلّب للقوم ؟ قال : كان إذا وجد الفُرْصة سارَ كما يَسُور الليث،[1] وإذا دَهَمَتْهُ الطَّخْمَة[2] راغَ كما يروغ الثعلب، وإذا مادَّه القومُ صبرَ صبرَ الدهر . قال : وكيف كان فيكم ؟ قال : كان لنا منه إشفاقُ الوالد الحَدِب وله منا طاعة الولد البَرّ . قال : وكيف أفلتكم قطَرِى ؟ قال : كادنا ببعض ما كدناه به، والأجل أحصَنُ جُنَّة وأنفذُ عُدَّة . قال : فكيف اتّبعتُمْ عبد ربه وتركتموه ؟ قال آثرنا الحد على الفَلّ[3]، وكانت سلامةُ الجُنْدِ أحَبَّ إلينا مِنْ شَجَبِ العدو[4] . فقال له الحجاج : أكُنْتَ أعْدَدْتَ هذا الجوابَ قبلَ لقائى ؟ قال : لا يعلمُ الغيبَ إلا الله ...

حثهم على التفكير قبل التقدم

قالوا : من قاتل بغَيْرِ نجْدَة، وخاصَمَ بغير حُجَّة، وصارع بغير قوة فقد أعظم الخطر، وأكبرَ الغرر... « الغرر : الخطر »

---

(١) سار : وثب وثار
(٢) الطخمة : جماعة الناس، يريد جند العدو
(٣) الفل : القوم المنهزمون
(٤) الشجب : الهلاك

وقالوا :

إذا ما أردتَ الأمْرَ فاذْرَعْهُ كُلَّهُ ... وقِسْهُ قِياسَ الثَّوْبِ قبل التَّقَدُّمِ

لعلَّكَ تنْجُو سالما من نَدامَةٍ ... فلا خَير فى أمرٍ أتى بالتندُّمِ

من يؤثر الموت فى العز على الحياة فى الذل

قال المتنبي :

عِشْ عزيزاً أومُتْ وأنت كريمٌ ... بين طَعنِ القنا وخفقِ البنودِ

فرُؤُس الرِّماح أذْهَبُ للغيْـ ... ـظِ وأشْفَى لِغِلِّ صَدْرِ الحقودِ

لا كما قد حييتَ غيرَ حميـدٍ ... وإذا مُتَّ مُتَّ غير فقيـدِ

فاطْلُبِ العِزَّ فى لَظَى وذَرِ الذ ... لَّ ولو كان فى جِنانِ الخلود

وقال أبو تمّام :

يَرَى العَلْقَمَ المأْدومَ بالعِزِّ أرْيَةً ... يمانِيَةً والأرْىَ بالضَّيْمِ علْقَما (١)

ونظر عبد الله بن على العباسِىّ إلى فتًى عليه أُبَّهَـةُ الشَّرَف وهو يقاتل مُسْتَبْسِلًا (٢) ، فناداهُ : يافتَى ، لكَ الأمانُ ولو كنتَ مَرْوَانَ بن محمد ـ آخر الدولة الأموية ـ فقال : إلا أكُنْهُ ، فلسْتُ بِدُونِه ، قال : فلَكَ الأمانُ مَنْ كنت ؛ فأطرق ثم قال :

---

(١) المأدوم : المخلوط ، والأرية : واحدالأرى ، وهو : العسل ، وقلماتستعمل واحدة ، ووصفها باليمانية لأن النحل تعسل فى جبال الشراة وهى باليمن

(٢) المستبسل الذى يطرح نفسه فى الحرب : يريد أن يقتل أو يقتل لا محالة

أذُلَّ الحياةِ وكُرْهَ المماتِ ... وكُلاً أراهُ طعاماً وَبيلا

فإنْ لم يكنْ غيرُ إحداهما ... فسيراً إلى الموت سيراً جميلا

ثم قاتَلَ حتى قُتِلَ ؛ قال : فإذا هو ابن مَسْلَمَةَ بن عبد الملك بن مروان .

نهيهم عن مخافة القتل
وحثُّهُم على تصوز الموت
وتمدحهم بذلك

قيل لعليٍّ بن أبى طالب : أتُقاتِلُ أهلَ الشام بالغداةِ وتظهرُ بالعَشِيِّ فى ثوب ورداء ؟ فقال : أبالمَوتِ أُخَوَّف ! والله ، ما أُبالى أسَقَطْتُ على الموت أم سقط الموتُ علىَّ ! وكثيراً ما كان رضى الله عنه يتمثَّل :

أىَّ يَوْمَىَّ مِنَ المَوتِ أفِرْ ... يَوْمَ لمْ يُقْدَرَ أمْ يَوْمَ قُدِرْ [1]

---

(١) هذا البيت من أبيات نسبها السيوطى فى شواهد المغنى لشاعر اسمه الحارث ابن منذر الجرمى ونسبها ابن سيده ـ اللسان مادة عفر ـ لشاعر آخر اسمه ضباب بن واقد الطهوى وقد أورد السيوطى بعده هذه الأبيات :

إنَّ أخْوَالى جميعا مِنْ شَقِرْ ... لَبِسُوا لى عَمَساً جِلْدَ النَّمِرْ

نَحَتُوا أثْلَتَنا بغْياً ولم ... يَرْهَبُوا غِبَّ الوَبَالِ المُسْتَعِرْ

فَلَئِنْ طَأطَأتُ فى قَتْلِهُمُ ... لَتُهَاضَنَّ عِظامى عن عُفُرْ

ولَئِنْ غادَرْتُهُمُ فى وَرْطَة ... لأصيرَنْ نُهزَةَ الذِّئب القَفِرْ

ولئن أعرضتُ عنهم بعدما ... أوْهَنَتْنى لَتُصِيبَنِّى بِقُـرْ

وورد ابن هشام وغيره هذا البيت هكذا :

يَوْمَ لم يُقْـدَرَ لا أرْهَبُـهُ ومِنَ المقدُور لا يُنْجِي الحَذَرْ

وقال المتنبي :

إذا غامَرْتَ فى شَرَفٍ مروم فلا تقْنَع بمـا دونَ النُّجوم
فطَعْمُ الموتِ فى أمرٍ صغيرٍ كطَعْمِ الموتِ فى أمرٍ عظيمِ

« يقول : إذا حاولتَ الشرف وخاطرت بنفسك فى سبيل الحصول عليه فلا تقنع بمـا دون أعـلاه ، ولا ترْضَ باليسير منه ، فإن طعمَ الموت فى الأمر الهيّن كطعمه فى الأمر الصعب ، وإذن فلا سبيل للمغامر إلا أن يقصِدَ إلى أسمى الأمور »

وقال :

يرى الجُبَنَاءُ أن العجزَ عقْلٌ وتِلْكَ خديعةُ الطبعِ اللئيمِ

فى أى يومىّ من الموت أفر أيَوْمَ لَمْ يُقْدَرَ أمْ يوم قُدِرْ
بفتح راء يقدر شاهدا على أن لم قد ينصب بها المضارع فى لغة وأورد ابن هشام كلاماً لأئمة النحاة فى تخريج البيت على نصب يقدر ، راجعه فى المغنى فى الكلام على لم ، وفى اللسان مادة قدر ، والآن لنشرح هذه الأبيات الجميـلة فنقول : قوله : لبسوا لى عمساً جلد النمر ، فالعمس : الشدة يقول : أبطنوا لى العداوة ، وأثلة كل شىء : أصله ، ويقال : فلان ينحت أثلتنا : إذا قال فى حسبه قبيحاً ، وطأطأ فى قتلهم : أسرع واشتد ، وقوله

* لتهاضن عطامى عن عفر *

أى : عن بعد من أخوالى لأنهم وإن كانوا أقرباء فليسوا فى القرب مثل الأعمام ، والورطة الأمر تقع فيه من هلكة وغيرها أو هى الهلكة ، ونهزة : أى صيد وفى الأصـل : اسم للشىء الذى هو لك معرض كالغنيمة ، والفرصة تجدها من صاحبك ويقال : نهزة المختلس أى : هو صيد لكل أحد ، والذئب القفر : المنسوب إلى القفر ـ المفازة لانبات بها ولا ماء ـ وقوله : لتصيبنى بقر فإنه يقال للشدة إذا نزلت : صارت بقر : أى : صارت الشدة فى قرارها ، وقال أبو عبيد : إنما هو مثل ، وربما قالوا : وقعت بقر . وقال ثعلب معناه : وقعت فى الموضع الذى ينبغى

وقال : مِن قطعة جيدة نوردها كُلَّها لبراعتها :

صَحِبَ الناسُ قبلَنا ذا الزَّمانا وعَنَاهُمْ مِن شأْنِه ماعنانا
وَتَوَلَّوْا بغُصَّـةٍ كلُّهُمُ منه وإن سَرَّ بعضَهمُ أحيانا
ربَّمَا تُحْسِنُ الصَّنيعَ لياليـ ـه ولـكِنْ تُـكَدِّرُ الإحسانا
وكأنالم يَرْضَ فينا بريب الده ـر حتى أعانه من أعانا (١)
كلما أنبتَ الزمانُ قناةً ركَّبَ المرءُ فى القناةِ سِنانا (٢)
ومُرادُ النُّفوسِ أصْغَرُ مِن أن نتعادى فيه وأنْ نتفانا
غـيرَ أن الفتى يلاقى المنايا كالِحات ولا يُلاقى الهوانا (٣)
ولوآنَّ الحياةَ تبْقَى لِحَىٍّ لعدَدْنا أضلَّنا الشُّجعانا (٤)
وإذا لم يكن مِنَ الموت بُدٌّ فمن العَجْزِ أن تكون جبانا (٥)

(١) فى « يرض » ضمير هو فاعل يرض يفسره «من أعانا» وأضمره قبل الذكر على شريطة التفسـير ، أو تقول : إن « من أعانا » فاعـل يرض وأعانه على التنازع ، يقول : هذا الذى أعان علىّ الدهر كأنه لم يرض بما يصيبنى من محنه حتى أعانه علىّ كما قال الآخر :

أعان علىَّ الدهرَ إذ حَكَّ بَرْكَهُ كفى الدهرُ لو وكَّلْتَهُ بى كافيا

« البرك : كلكل البعير وصدره الذى يدوك به الشىء تحته »

(٢) القناة : عودالرمح ، والسنان : زجه الذى يطعن به يقول : إذا انتدب الزمان للإساءة بمـا جبل عليه صارت عداوة المعادى مدداً لقصـده نحوك ، فجعـل القناة مثلا لمـا فى طبع الزمان وجعل السنان مثلا للعداوة

(٣) كالحات : عابسات .

(٤و٥) يقول : لوكانت الحياة باقية لكان الشجاع الذى يتعرض للقتل أضل الناس ، يعنى أن الحياة فانية وإن جبن الإنسان ولزم عقر داره وحرص على البقاء ثم أكد هـذا بالبيت التالى يقول : إذا كان الموت لا محيص عنه ولا ينجو منه شجاع ولا جبان فإن الجبن يكون من ضعف الهمة وعجزها .

كلٌّ مالم يكن مِنَ الصّعب فى الأنفُ

س سهلٌ فيها إذا هو كانا (١)

وبعثتْ بنو حنيفة بالفِنْدِ الزِّمّانىّ (٢) حين طلبت بكرُ بنُ وائل إليهم يستنْصِرُونهم، وقالوا ـ بنو حنيفة ـ: قد بعثنا إليكم ألف فارس ـ وكان يقال له: عديد الألف ـ فلما ورد قالوا له: أين الألف؟ قال: أنا، فلما كان الغدُ وبرزوا حمل على ألف فارس مُرْدَفٍ فانْتظمَهُمْ ...

---

(١) كل: مبتدأ ومن الصعب خبرها وسهل خبر ثان ويكن تامة وكذا «كانا» يقول: إنما يصعب الأمر على النفس قبل وقوعه فإذا وقع سهل وهان كما قال البحترى:

لَعمْرُك ما المكروهُ إلا ارتقابُه … وأبْرَحُ مِمّا حَلّ ما يُتَوَقّع

(٢) الفند الزمانى ـ واسمه شهل بن شيبان بن ربيعة ... بن بكر بن وائل ـ شاعر جاهلى قديم، وفارس من فرسان ربيعة المشهورين المعدودين، شهد حرب بكر وتغلب وهو صاحب هذه الأبيات الحماسية المشهورة، قالها فى حرب البسوس وإنا لنوردها هنا على شهرتها:

صفَحنا عن بنى ذُهْلٍ … وقلنا: القومُ إخوانُ

عسى الأيامُ أنْ يَرْجِعـ … ـنَ قوماً كالذى كانوا

فلمّا صَرّحَ الشّرُّ … فأمْسَى وهْوَ عُرْيانُ

ولم يَبْقَ سِوى العُدْوا … نِ دِنّاهم كما دانوا

مَشَيْنَا مِشْيَةِ اللّيْثِ … غَدَا والليثُ غَضْبانُ

بِضَرْبٍ فيه توهينٌ … وتَخْضِيعٌ وإقْرانُ

وطَعْنٍ كَفَمِ الزِّقّ … غَذا والزِّقُّ مَلآنُ

وبعضُ الحِلْمِ عندَ الجهـ … ـلِ لِلذِّلّةِ إذعانُ

... ...

وفى الشر نجاةٌ حـ ينَ لا يُنجِيك إحسانُ

« الصفح : العفو ، ويقال : أعرضت عن هذا الأمر صفحا : إذا تركته ، ويقال : أصفحت عنه كما يقال : أضربت عنه ، ويقال : أبدى لى صفحته : إذا أمكنك من نفسه يقول : صفحنا عنهم فلم نؤاخذهم بما كان منهم لأنهم إخوتنا عطفتنا عليهم الرحم . ويرجعن : يرددن ، يقال رجع فلان ورجعت فلانا يقول : صفحنا عنهم للرحم فعسى أن تردهم الأيام إلى ما كانوا عليه من قبل من التوادّ . وصرح الشر : انكشف ويقال صرح الشئ : إذا كشفه وصرح هو ، كما تقول : بين الشئ وبين هو : أى تبين وقيل : صرح : خلص ، شبهه باللبن الصريح وهو الذى قد ذهبت رغوته وإذا ذهبت الرغوة فاللبن عريان ، وقوله : فأمسى وهو عريان . أى منكشف لا ستر دونه ، ويروى : فأضحى ، بدل فأمسى ، وهو أحسن وإن كان أصبح وأمسى وأضحى وظل يرادبها فى مثل هذا الموقع معنى صار . وقوله : دناهم كما دانوا : جواب لما فى قوله : فلما صرح الشر : أى فعلنابهم مثل فعلهم بنا . يقول : صفحنا عنهم وقعدنا عن ضربهم وذكرنا الرحم والقرابة بيننا وظننا أن حالهم ترجع إلى الحسنى فلما أبوا إلا الشر ركبناه معهم وقوله : مشينا مشية الليث يروى :

« شددنا شدّة الليث » وعلى هذه الرواية يكون عدا بدل غدا وتوهين تفعيل من الوهن وهو الضعف ، وتخضيع تفعيل من الخضوع وهو الذل والأقران : اللين والاسترخاء ، والباء فى بضرب تتعلق بمشينا أى مشينا بضرب فى ذلك الضرب تضعيف للمضروب وتذليل ، قال بعض النقاد . والأجود أن يقول ما معناه : بضرب يفلق الهام ويبتر العظم مثلا فأما أن يقول : ضرب يوهى ويرخى فإن أدنى الضرب يوجب هذا ، وإذن فمن الجائز أن يكون المعنى : فيه توهين وصوت فى القطع وكسر العظام ويكون معنى إقران : غلبة أو مواصلة لا فتور فيها ويكون تخضيع من الخضعة وهو اختلاط الصوت فى الحرب ، ويروى البيت :

بِضَرْبٍ فيه تفْجيعٌ وتأييمٌ وإرنانُ

أى يفجع الأخ بالأخ والولد بالوالد ، والتأييم قتل الأزواج ، والإرنان : من الرنين وهو رفع الصوت بالبكاء . وغذا بالذال المعجمة : سال وصف الطعن بالسعة وذكر أن الدم يسيل من موضع الطعنة كما يسيل الماء من فم القربة

الجود بالنفس

وحب الموت فى الوغى

وأنفتُهمْ من الموت على الفراش

قال أبو تمام :

يسْتعذِبُون منايأهُمْ كأنَّهمُ   لاييأسون مِن الدُّنياإذا قُتِلوا

وقال :

وحَنّ للموت حتى ظنّ مُبْصِرُه   كأنه حَنّ مُشتاقا إلى وَطَنِ

لو لم يمُتْ تحت أسيافِ العِدا كرماً

لمات إذ لم يمُتْ مِن شِدَّة الحَزَن

وقال :

قومٌ إذا لبِسُوا الحديد حسِبْتَهمُ   لم يحْسَبُوا أنّ المَنِيَّةَ تُخلَقُ

انظُرْ بحيثُ ترَى السيوف لوامِعاً   أبداً وفوق رُؤسهم تتألّقُ

وقال بشامةُ بنُ حَزْنِ النَّهْشَلى :

إنا لنُرْخِصَ يومَ الرَّوعِ أنفُسَنا   ولو نُسامُ بها فى الأمْنِ أُغْلِينا (١)

---

(١) يقول : إذا كان يوم الروع تقدمنا للقاء ، فإن ذهبت أنفسنا ذهبت رخيصة لأنا بذلناها بالإقدام ولم نمنعها بالإحجام ، ولكنها يوم الأمن غالية ، والألف فى «أغلينا» : للاطلاق ، والنون ضمير النفس ، ومعنى أغلين وجدت غالية وليس يريد أنهم مع الغلاء يمكنون منها بل المراد قطع المقدرة عنها كما قال القائل :

نُعرِّضُ للسيوف إذا التَقَيْنا   نُفوساً لا تُعرَّضُ للسِّبابِ

وكما قال الأجدع والد مسروق الفقيه .

وقال عبد الله بن محمد بن أبى عُيينة بن المهلب بن أبى صُفرة :

وإنِّىَ من قوم كأن أنفسَهمُ بها أَنَفٌ أن تسكُنَ اللحمَ والدما

وقال عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى — شاعر إسلامى — : (١)

وما مات مِنَّا سيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ولا طُلَّ يوماً حيثُ كان قتيلُ (٢)

لقد عَلِمَتْ نِسوانُ همدانَ أنَّ

لَهُن غداةَ الرَّوعِ غيرُ بَذُول

وأبذُلُ فى الهيجاء وجهى وإننى له فى سوى الهيجاء غيرُ بَذُولِ

(١) تروى هذه الأبيات للسموأل بن عاديا اليهودى الجاهـلى ، قال الخطيب التبريزى : وإذا كانت هذة الأبيات جاهلية ـ أى للسموأل ـ فتروى :

* وما مات منا سيد فى فراشه *

أى بدل * وما مات منا سيد حتف أنفه * أى لأن النبى صلى الله عليه وسلم هو أول من قال : مات حتف أنفه

(٢) قلنا : إن أول من قال : حتف أنفه هو سيدنا رسول الله ، قال ابن الأثير : هو أن يموت على فراشه ، كأنه سقط لأنفه فمات ، والحتف : الهلاك ، قال : كانوا يتخيلون أن روح المريض تخرج من أنفه ، فان جرح خرجت من جراحته ؛ وعبارة غير ابن الأثير كما فى اللسان : إنما قيل للذى يموت على فراشه : مات حتف أنفه — ويقال : مات حتف أنفيه — لأن نفسه تخرج بتنفسه من فيه وأنفه ، قال : ويقال أيضاً : مات حتف فيه ، ومن قال : حتف أنفيه أراد سمى أنفه وهما : منخراه ، ويحتمل أن يراد : أنفه وفمه ، فغلب أحد الاسمين على الآخر ، وعبارة الخطيب التبريزى : والمعنى : كان حتفه ـ أى هلاكه ـ بأنفه ، أى بالأنفاس التى خرجت من أنفه عند نزوع الروح ، لا دفعة واحدة ، قال : ويقال : خص الأنف بذلك لأنه من جهته يتقضى الرمق وقوله :

* ولا طل يوماً حيث كان قتيل *

فانه يقال : طل دمه : إذا بطل ولم يطلب به يقول : لا يبطل دم قتيل منا وحاصل

تَسِيلُ على حدِّ الظُّباتِ نفُوسُنا وليْسَتْ على غير الظُّباتِ تسيل(١)

وقال عنْتَرَةُ :

بكَرَتْ تُخَوِّفُنِي الُحتُوفَ كأنني أصْبَحْتُ عن عَرَضِ الحتوفِ بمَعْزِلِ

فأجبْتُها : إن المنيَّةَ مَنْهَــلٌ لا بُدَّ أنْ أُسْقَى بكأْسِ المَنْهَلِ

فاقْنَىْ حياءَكِ لا أبالَكِ وَاعْلَمِى أنِّى امرؤٌ سأموت إن لم أُقْتَلِ

إن المنيَّةَ لو تُمَثَّلُ مُثِّلَتْ مِثْلِى إذا نزلوا بضَنْكِ المَنْزِلِ

« الحتوف : المكاره والمتَالِف ، و « عن عَرض » أى ما يَعرِض منها وبمعزل ، أى فى ناحية منعزلة عن ذلك ، و : منهل : مورد ، وقوله : فاقْنَىْ حياءك ، أى احفظيه ولا تُضيعيه ، والضنك : الضيق يقول : إن المنيّة لو خُلِقَتْ مِثَالا لكانت فى مِثْلِ صورتى ...

✡ ✡ ✡

وقال خالد بن الوليد وهو فى مرض الموت : لقد لَقِيتُ كذا وكذا زَحْفاً ، وما فى جسدى موضعُ شِبْرٍ إلا وفيه طَعْنَةٌ أو ضربةٌ أو رميةٌ ، ثم ها أنا ذا أموت على فراشى حتف أنفى ! فلا نامت أعيُنُ الجُبَناء ...

« وقد تقدم ذلك »

وقال المُفَضَّلُ بنُ المُهَلَّب بن أبى صُفْرَةَ :

معنى البيت : نحن لانموت ولكن نقتل ، ودم القتيل منالا يبطل

(١) نفوسنا : أرواحنا أو دماؤنا ، والظبات جمع ظبة : وهى حد السيف وفى إضافة الحد إلى الظبات إما أن يكون المراد بالظبات السيوف كلها ثم أضاف الحد إليها وأما أن تكون إضافة الحد إلى الظبات من إضافة البعض إلى الكل ويكون التقدير : يسيل على الحد من الظبات وتكون الظبات مضارب السيوف ، والمصراع الاول يدل على الشجاعة والثانى على العز والمنعة

هلِ الجودُ إلا أنْ تجودَ بأَنْفُسٍ على كل ماضِى الشَّفْرَتَيْنِ قضيبِ
ومَنْ هَرَّ أطرافَ القَنا خَشْيَةَ الرَّدَى فليس لِمَجْدٍ صالحٍ بِكَسوبِ
وماهى إلا رَقْدةٌ تُورِثُ العُلَى لِرَهْطِكَ ماحنَّتْ رَوائِمُ نِيبِ

« هر أطراف القنا يقال : هَرَّ الشىء يَهِرُّ — بالكسر والضم — هَرًّا وهريراً : كرهه يقال : هَرَّ فلانٌ الكأس والحربَ هريراً : أى كرهها قال عنترة :

حَلَفْنَالهمْ والخَيْـلُ تَرْدِى بنامعاً نُزَايِلكمْ حتَّى تَهِرُّوا العوالِيَا[1]
عوَالِيَ زُرْقًا مِنْ رِماحِ رُدَيْنَةٍ هَرِيرَ الكلاب يتَّقِينَ الأفاعِيا

وقوله : وماهى إلا رقدة ... ألبيت قال المبرد : مأخوذ من قول أخيه يزيد بن المهلب ، وذلك أنه قال فى يوم العقْر ، وهو اليومُ الذى قُتل فيـه — : قاتلَ اللهُ ابن الأشعث — عبـد الرحمن بن الأشعث — ماكان عليه لو غَمَّضَ عينيه ساعةً للموتِ ولم يكن قتيل نفسه ... وذلك أن ابن الأشعثِ قام فى الليـل وهو فى سَطْحٍ للبَولِ ، فزعموا أنه رَدَّى نفْسَهُ ، وغيرُ أهْلِ هذا القول يقولون : بَلْ سَقَطَ منه بِسِنَةِ النوم . وقوله تُورِثُ العلى لرَهْطِك ، فالمعنى : تورث العلى رهطك ؛ ومثله قوله تعالى : (إنْ كنتم للرؤيا تعْبُرون) والنيب جمع ناب وهى : المُسِنَّة من الإبل سَمَّوها بذلك حين طال نابها وعَظُم ، والروائم : العاطفات على أولادها »

---

(١) الرديان : ضرب من السير وهو أن يرجم الفرس الأرض رجماً بحوافره من شدة العدو ، وقوله : نزايلكم دو جواب القسم أى لا نزايلكم فحذف لا على حد قولهم تالله أبرح قاعداً : أى لا أبرح ، ونزايلكم : نبارحكم يقال : مازايلته : أى ما بارحته ، والعوالى جمع عالية : الرمح وهى مادون السنان بقدر ذراع

من يخوض الحرب
لا بُدّ أن يُوَطن نفسه على الموت

قالت الخنساء :

ومن ظَنَّ ممن يُلاقى الحروب بأنْ لا يصابَ فقد ظَنَّ عجزا

وقالوا : ٭ إنَّ الشجاعة مقرون بها العَطَبُ ٭ (١)

وقال تأبط شرًّا من أبيات اختارها أبو تمام فى حماسته :

ومن يُغْزَ بالأعداءِ لا بُدَّ أنَّهُ سَيَلْقَى بِهِمْ مِنْ مَصْرَعِ الموت مَصْرَعا

فى القتل حياة

قال المهلب بنُ أبى صُفرة : ليس شىء أنمَى من سَيْف ! ولقد صَدَقَ فما نال السيف أنمَى عدداً وأكرم ولدا من ولد المهلب ... وقال الحجاج لامرأةٍ من الخوارج : والله لأحصِدنَّكم حصْدًا ، فقالت : أنت تحصد والله يزرع ، فانظر أين قُدْرَة المخلوق مع قدرة الخالق !

ومما يصحُّ أن يورد هُنا وإن كان من وادٍ آخر قوله تعالى : « ولكم

(١) من أبيات لشاعر جبان يكنى أبا الغمر :

أضحت تُشَجّعُنى هندٌ وقد علمت أن الشجاعةِ مقرون بها العَطَبُ

لا والذى مَنَع الأبصارَ رُؤْيَتَهُ ما يَشْتَهِى الموتَ عندى من له أرَبُ

لِلْحَرْبِ قَوْمٌ أضلَّ الله سَعْيَهُمُ إذا دَعَتهم إلى نيرانها وثبوا

ولستُ مِنهم ولا أبغِى فِعالهُمُ لا القَتْلُ يُعجِبُنى منها ولا السَّلَبُ

فى القِصاصِ حياةٌ يا أولى الألباب » (١)

تأثير الخوف والمخوف منه

والموفى على الجماعة

قيل لعليّ بن أبى طالب : بمَ غَلَبْتَ الأقران ؟ قال : بتمكُّنِ هَيْبَتِى فى قلوبهم ... وبعث أميرٌ فى طلب قومٍ رَجُلًا ، فما لبث أن جاءه برجل أطولَ ما يكون ، فقال : كيف تمكنت منه ؟ فقال : وقع فى قلبي أن آخذه ، ووقع فى قلبِهِ أنه مأخوذ ، فنصرنى عليه خوفُه وجُرْأتى ...

ونظر رجل إلى على بن أبى طالب وقد شقّ العسكر ، فقال : قد عَلِمتُ أن ملكَ الموتِ فى الجانب الذى فيه علىٌّ .

ومن المأثور عن المصطفى صلوات الله عليه قوله : « نُصِرت بالرُّعب مَسيرةَ شهر » ... قال ابن الأثير : كان أعداءُ النبي صلى الله عليه وسلم قد أَوْقَعَ الله فى قلوبهم الخوفَ منه ، فإذا كان بينه وبينهم مسيرة شهر هابوهُ وفزِعوا منه .

---

(١) قال الزمخشرى : كلام فصيح لما فيه من الغرابة ، وهو أن القصاص قتل وتفويت للحياة وقد جعل مكانا وظرفا للحياة ، ومن إصابة محز البلاغة بتعريف القصاص وتنكير الحياة لأن المعنى : ولكم فى هذا الجنس من الحكم الذى هو القصاص حياة عظيمة ، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة ، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفنى بكر بن وائل وكن يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر ، فلما جاء الإسلام شرع القصاص كانت فيه حياة أى حياة ، أو نوع من الحياة وهى الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل ، لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتص منه فارتدع سلم صاحبه من القتل وسلم هو من القود فكان القصاص سبب حياة نفسين . . .

وقال المتنبي : ٭ ويستعظمون الموتَ والموتُ خادمُه ٭

وقال سلم الخاسر : ٭ كأنّ المنايا جارياتٌ بأمره ٭

وقال الفرزدق :

تَلَمَّظَ السَّيفُ من شوقٍ إلى أنَسٍ
فالموتُ يَلحَظُ والأقدارُ تنتظِرُ
أظلَّهُ مِنكَ حَتفٌ قد تجلَّلَهُ حتى يُؤامِرَ فيه رأيَكَ القدرُ (١)

وقيل للأسكندر : إنّ فى عسكر دارَا ألفَ مُقاتِل ، فقال : إن القصّاب الحاذق وإن كان واحداً لا يَهُولهُ كثرة الغنم ... وقال شاعر :

فواحِدُهم كالألفِ بأساً ونجدةً وألفُهُمُ للعُجمِ والعُرْبِ قاهِرُ

وقال أبو تمام يمدح أبا سعيد الطائى ويذكر ماصنع بالخُرَّمِيّة :

لَقِيتَهُم والمنايا غيرُ دافعة لِما أمَرْتَ به والمُلتقى كَبَدُ (٢)
فى موقفٍ وقفَ الموتُ الزُّؤامُ به
فالمجدُ يوجَدُ والأرواحُ تُفتَقَدُ (٣)
مُستَصحِباً نِيّةً قد طالما ضَمِنَتْ لك الخُطوبَ فأوفَتْ بالذى تَعِدُ
ورُحبَ صَدْرٍ لوانّ الأرض واسِعَةٌ
كوُسْعِهِ لم يَضِقْ عن أهله بلَدُ (٤)
صَدَعْتَ جَرِيَتَهُم فى عُصبَةٍ قُلُلٍ
قد صرّح الماءُ عنها وانجلى الزَّبَدُ

---

(١) يؤامره : يشاوره فيأتمر وينفذ رأيه ويروى بدل رأيك : ربه

(٢) الكبد : الشدة والمشقة

(٣) الزؤام : الكريه أو السريع

(٤) رحب صدر : سعة صدر

مِنْ كلِّ أرْوَعَ تَرْتاعُ المَنُونُ له

إذا تجرَّد، لا نِكْسٌ ولا جَحِدُ (١)

يَكادُ حين يُلاقى القِرْنَ من حَنَق

قبلَ السِّنانِ على حوْبائِهِ يَرِدُ (٢)

قَلُّوا ولكنَّهُم طابُوا فأنْجَدَهم

جَيشٌ من الصبرِ لا يُحصَى له عَدَدُ

المتبرم بالحرب والسخرية منه

قال سعد بن مالك أحد سادات بكر بن وائل فى الجاهلية وفرسانها (٣)

يا بُؤْسَ لِلْحَرْبِ التى وضَعَتْ أرَاهِط فاسْتَرَاحوا

وهو من أبيات جيدة اختارها أبو تمّام فى حماسته وبعده :

(١) النكس : الضعيف ، والجحد : القليل الخير

(٢) الحوباء : النفس والجمع حوباوات

(٣) قال سعد هذه الأبيات فى حرب البسوس حين هاجت الحرب بين بكر وتغلب لقتل كليب واعتزل الحارث بن عباد وقال هذا أمر لاناقة لى فيه ولا جمل فعرّض سعد فى هذا الشعر بقعود الحارث . وهذا الحارث بن عباد كان من حكام ربيعة وفرسانها المعدودين ، وكان قد اعتزل حرب ابنى وائل ثم حدثت أمور أفضت به إلى خوضه هذه الحرب ، وهو القائل من أبيات :

قَرِّبَا مَرْبِطَ النَّعامَةِ مِنِّى لَقِحَتْ حَرْبُ وَائِلٍ عن حِيالِ

لمْ أكُنْ مِنْ جُناتِهَا علم الله وَإنى بِحَرِّها اليوْمَ صالى

ولما فعل ما فعل قال لسعد بن مالك : أتراني ممن وضعته ! ـ يشير إلى قول سعد : التى وضعت أراهط ـ قال سعد : لا ، ولكن لا مخبأ لعطر بعد عروس ، ومعناه : إن لم تنصر قومك الآن فلن تدخر نصرك ...

والحربُ لا يبْقَى لِجَا حِمِها التَّخيُّل والمِراحُ

إلا الفتى الصبّار فى النَّجَـدات والفَرَسُ الوَقاحُ

مَن صَدَّ عن نيرانهـا فأنا ابنُ قيسٍ لا بَراحُ

الموتُ غايتُنا فـلا قَصْرٌ ولا عنهُ جِمَاحُ

وكأنَّمَا وِرْدُ المنيـ ـةِ عندنا ماءٌ ورَاحُ

« قوله يا بُؤْسَ للحرب ، أصـله : يا بُؤسَ الحرب ، فأُقْحِمَت اللام بين المتضايفين ، يدعو على الحرب ويَذُمّ نكباتها سخرِيةً ؛ ومعنى وضعت أراهط : حَطَّتْهُم وأسقطتهم فلم يكُن لهم ذكر ولا شرف فى هـذه الحرب فاستراحوا من مكابدتها كالنساء ، قال بعض الأعراب لرجل : إنه قد وضع المكارم فاستراح ، وقال رجل للأحنف : لا أُبالى أَهُجِيتُ أَمْ مُدِحْت ، فقال : استرحتَ من حيث تَعِبَ الكرام ، وأراهط إما جمع أَرْهُط جمع رهط وإما جمع رهط على خلاف القياس ، والرهط : النفر من ثلاثة إلى عشرة ، والجاحم : المكان الشديد الحرّ ، من جَحَمَت النار فهى جاحمة : إذا اضطرمت ، ومنه الجحيم ، والتخيل : التكبُّر ، من الخيلاء . يقول : إنها لا تُبْقى على نَخوة المنْخوّ ، وذلك أنّ أُولِى الغَناءَ يتكرَّمُون عن الخُيلاء . ويختال المغرور فإذا جُرِّبَ فلم يُحمَد افْتَضَح وسقط ، أو تقول مَن كان ذا خُيَـلاء ومرح ثم بُلى بالحرب شَغَلَتْه عن خُيَـلائه ومرحه . والمراح بكسر الميم : النشاط ، أى أنها تكُفّ حدَّةَ البَطِر النشيط ، وهذا تعريض بالحارث بن عباد بأنه صاحب خُيلاء ومرح . والصّبّار مبالغة صابر والنجدة : الشدة والبأس فى الحرب ، والوقاح : الفَرَسُ الذى حافره صُلْبٌ شديد ، ومنه الوقاحة .

وقوله : فأنا ابنُ قيس لا براح ، أى : أنا المشهور فى النجدة كما سمعت وأضاف نفْسَه إلى جَدّه الأعلى لشُهرَتِه به ، وجملة لا براح حال مُؤكدة لقوله : أنا ابن قيس كأنه قال : أنا ابن قيس ثابتاً فى الحرب ، والبراح مصدر بَرِح الشىء بَراحا : إذا زال من مكانه . وقوله : فلا تَقْصُرْ هناك ولا جماح فالقصْر . الحبس ، والجماح مصدر جَمحَ : إذا انفلت وهَرِب يريد : لا يمكن حَبْسُ نفس عن الموت ولا مهربَ عنه . والورد : الورود وهو دخول الماء ، وقيل : حُضُوره وإن لم تدْخُله . »

وقال شاعر :

ماذاقَ هَمًّا كالشُّجاع ولا خَلا   بِمَسَرَّةٍ كالعاجِزِ المُتَوَانى

الممدوح بقوة نفسه دون جسمه

قال أبو تمـام :

والصَّبْرُ بالأرْواح يُعْرَفُ فَضْلُهُ   صبرُ الملوك وليسَ بالأجسامِ

وقال شاعر :

وإنى لَلقَوِىُّ على المعالى   وما أنا بالقوىِّ على الصِّراع

وقال معاوية رضى الله عنه : ماكان فى الشُّبان شىء إلا وكان فىَّ منه مُسْتَمْتَع ، إلا أنى لم أكن نُكَحَةً ولا صُرَعَة . « رَجُلُ نُكَحة : كثير النِّكاح — الوطء — ورجل صُرَعة : يصرع الناس »

وأورَد أبو تمَّام فى حماسته لبعض الشعراء :

لا قُوَّتى قُوَّةُ الراعى قلائِصَهُ   يأوِى فيأوِى إليه الكلبُ والرُّبَعُ

مِنَّا الأناةُ وبعضُ القوم يحسَبُنا   أنَّا بِطاءٌ وفى إبطائنا سَرَعُ

« يقول : ليس غَنائى فى المُهِمّات غَناءَ الرعاء الذين سعيُهم مقصور على ضم القلاص وحفظها فى مراعيها فإذا أوى إلى موضع أوى إليه كلبه الذى يحرسه ورُبَعه ، وهو ما نُتِجَ فى الربيع ، والسرع : السُّرعة »

القصد إلى العدى مجاهرة

قال السَّرِىّ الرَّفَّاء : من أبيات يمدح بها سيفَ الدولة بن حمدان :

وَيجعلُ بِشْرَهُ نُذُرَ الأعادِى فيَبْعَثُه جَنوباً أو شَمالَا
ولم يُنْذِرْهُمُ مِقَةً ولٰكِنْ تَرَفَّع أن يُصِيبَهُم اغتيالا [1]

وأشار على الإسكندر المقدونىّ أصحابُهُ أن يُبيِّتَ الفُرْس [2] ، فقال : ليس من الإنصافِ أن أجعل غَلَبَتِى سَرِقَة ...

المقاتل عن حريمه

لِيمَ الإسكَندرُ على مُباشَرَتِه الحروب بنَفْسِه ، فقال : ليسَ من الإنصاف أن يَقْتُلَ قومى عنِّى وأَتْرُكَ القتال عنهم وعن أهلى ونَفْسى ...

وقيل للحسن البَصرىّ : يا أبا سعيد ، إنا نكون فى هذه البعوث والسرايا فنُصِيبُ المرأةَ من العدوّ ، وهى ذاتُ زوج ، أَفتَحِلُّ لنا من قَبْل أنْ يُطَلِّقها زوجُها ؟ وكان الفرزدق حاضراً ، فقال الفرزدق : قد قلت أنا

(١) المقة : المحبة

(٢) تبييت العدو : أن يقصد فى الليل من غير أن يعلم فيؤخذ بغتة ، والاسم : البيات ، وأما قولهم : بيت الأمر فمعناه : دبره بليل قال تعالى : إذ يبيتون مالا يرضى من القول ، قال الزجاج : كل مافكر فيه أو خيض فيه بليل فقد بيت ، يقال : هذا أمر دبر بليل وبيت بليل ، بمعنى واحد .

فى مِثْلِ هذا شِعْراً ، وأنشد :

وذاتِ حَلِيلٍ أنكَحَتْها رماحُنا حَلالًا لِمَنْ يَبْنِى بها ولم تُطَلَّقِ [١]

فقال الحسن : أصبْتَ ، كنتُ أرى أنَّكَ أشعَرُ منى فإذا أنت أفقَهُ

قال ابن رشيق فى العمدة : وما أظُنُّ الفرزدَقَ إلا أراد مذهب الجاهلية فى السبايا ...

وقال زيادٌ الأعجمُ من كلمته التى يرثى بها المغيرةَ بن المُهلَّب بن أبى صُفرة :

صنْفانِ مُختلِفانِ حِينَ تَلاقيا آبا بِوَجْهِ مُطَلَّقٍ أو ناكِحِ

المستنكف من السلَب

قال أبو تمام من بائيته المشهورة التى يهنئ فيها المعتصم بفتح عَمُّورِيَةَ :

إنَّ الأُسودَ أُسودَ الغاب هِمَّتُها يومَ الكريهةِ فى المسلوبِ لا السَّلَبِ

وقتَلَ علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه رَجُلًا فأراد قنبرٌ أن يأخذَ سَلَبَه ، فقال : يا غلام ، لا تُعَرِّ فرائِسِى ... وقال عنترة فى معلقته :

هلَّا سألتِ الخيلَ يا ابْنَةَ مالِكٍ إنْ كنْتِ جاهِلَةً بما لمْ تعلَمِي [٢]

يُخْبِرْكِ من شَهِدَ الوقيعة أنَّنى أغْشَى الوَغَى وأعِفُّ عند المَغْنَمِ

---

(١) يروى العجز هكذا : ه جهاراً بأيدينا ولما تطلق

(٢) الخيل يريد : الفرسان

الشبان والكهول فى الحرب

قال رجلٌ لآخر : لأغزُوَنَّكَ بمُرْدٍ على جُرْد [١] ، فقال له : لألقَينَّكَ بكهول على فُحول .

وقال المتنبي :

سأطلُبُ حَقِّى بالقَنا ومشايخٍ كأنهمُ مِن طُولِ ما التَثَمُوا مُرْدُ [٢]

ثِقالٍ إذا لاقَوْا خِفافٍ إذا دُعوا
كثيرٍ إذا شَدُّوا قليلٍ إذا عُدُّوا [٣]

وطَعْنٍ كأنَّ الطَّعْنَ لا طَعْنَ عِنْدَهُ
وضَرْبٍ كأنَّ النارَ مِن حَرِّه بَرْدُ [٤]

---

(١) الجرد جمع أجرد والأجرد من الخيل : السباق .

(٢) يقول : سأطلب حق بالرماح وبصحب لى لا يفارقون الحروب فلا يفارقهم اللثام ولا ترى لحام فكأنهم مرد ، واللثام فى الحرب عادة العرب لئلا تسقط عمائمهم وقال الواحدى : كنى بالقنا عن نفسه وبالمشايخ عن أصحابه يعنى : أنه يطلب حقه بنفسه وبغيره ، وأراد : أنهم محنكون مجربون ولذلك جعلهم مشايخ

(٣) مراده بكونهم ثقالا : شدة وطأتهم على العدو أوثباتهم لدى اللقاء ، وكنى بالخفة عن سرعة الإجابة إذا دعوا للنجدة ، وبالكثرة عن سد الواحد مسد الجماعة أى أنهم على قلتهم فى العدد يغنون غناء السواد الأعظم

(٤) وطعن : عطف على القنا والضمير فى عنده يعود إلى الطعن الأول يقول : وأطلب حق بطعن شديد كأن كل طعن غيره بالقياس إليه لا شىء ، وبضرب حار كأن حر النار بالإضافة إليه برد

إذا شِئتُ حَفَّتْ بى على كلِّ سابحٍ
رجالٌ كأنَّ الموت فى فمِها شَهْدُ (١)

وهم يفضلون الشُّبان على الكهول فى الحروب ، وقد أورد الراغب فى محاضراته أبياتاً عزاها إلى طاهر بن الحسين، فى هذا المعنى (٢) ، والأبيات وإن كانت فى معناها قد أصابت مقطع الحق والسَّداد بَيْدَ أن معناها ليس من الجمال فى شىء ومن ثَمَّ استَحْسَنَّا أن ننْثُرَها ونوردَها عليك منثورَةً بألفاظنا مع المحافظة على المعنى ، وها كها : مِنْ صائب الرأى أن تَسْتَظْهِرَ فى تدبير حَرْبِك بالشيوخ المُحَنَّكين الذى تمَرَّسُوا بالأيام حُلوِها ومُرِّها ، والذين تُغْنِي آراؤهم غَنَاءَ العَمل ، وإياكَ أن تغْشَى الوغَى إلا بحديثِ السِّنِّ مُقْتَبِلَ الشباب ، فإنَّ الكهول الذين تنفَّس بهم العُمُر واقتربوا من مَناهِلِ الموتِ تراهم يتمثلون الموت أبداً بين أعيُنِهم خوفاً وجزعاً ، ومن جَرَّاء ذلك يجبُنون ، أما حديث السن فإنَّ له شأواً بعيداً يُريغُه ، وآمالا عِراضاً يحاول تحقيقها ، ومن هنا كان جريئاً طموحا بعيدَ مُرتقى الهمة فهو لا يبالى أسقط على الموتِ أم سقَط الموتُ عليه ، لأن الموت ليس منه على بال ...

* * *

(١) فى فمها أراد : فى أفواهها فأوقع الواحد موقع الجماعة ، والسابح : الفرس السريع الجرى كأنه يسبح

(٢) هو والد عبد الله بن طاهر ، وكان من أكبر أعوان المأمون وهو الذى تولى محاربة الأمين حتى قتله وهو وان كان أديباً يحب الشعر الا أنه لم يرد له شعر فلعل هناك تحريفاً فى المحاضرات ولعل الأبيات لابنه عبد الله بن طاهر الذى كان له شعر مليح .

العاجز أعاديه عن إصلاح ما أفسده وعكس ذلك

قال على بن جَبَلَة المعروف بالعَكَوَّك من أبيات يمدح بها أبا غانم حميد بن عبد الحميد الطوسى :

يَرْتُقُ ما يَفْتُقُ أعْدَاؤه وليس يأسو فَتْقَهُ آسى (١)
فالناسُ جِسْمٌ وإمام الهدى رأسٌ وأنتَ العينُ فى الراسِ

وقال الكُمَيت :

لا يَهْدِمُ الناسُ ما تَبْنِى أكُفُّهُمُ مِن الفَعالِ ولا يَبْنُونَ ما هَدَموا (٢)

وقال أشْجَع السُّلمِى من قصيدة يمدح بها جعفر بن يحيى البرمكى وزير الرشيد :

ولا يرفَعُ الناسُ مَن حَطَّهُ ولا يَضَعُون الذى يَرْفَعُ

وبعده :

تُرِيدُ الملوك مَدَى جعفرٍ ولا يَصْنَعُون كما يَصْنَعُ
وليس بأوْسَعِهِم فى الغِنَى ولكِنَّ معروفَهُ أوسع

وهذا البيت الثالث من قول ابن زياد الأعرابى :

ولم يَكُ أكثرَ الفتيانِ مالًا ولكن كان أرْحَبَهُمْ ذِرَاعا

---

(١) الرتق ضد الفتق وهو : لأم الفتق وإصلاحه ، ويأسو فتقه مجاز من أسا الجرح يأسوه : داواه . والآسى : الطبيب المداوى

(٢) الفعال : الفعل الحسن

وقال المتنبي :

لا يجبُرُ الناسُ عَظْما أنْتَ كاسِرُه ولا يهيضون عَظْما أنت جابِرُهُ (١)

من تصحبه الطيور والسباع فى القتال

أولُ من وَصفَ المحاربَ تَصْحَبُه الطيورُ والسباعُ ثِقةً بانتصارِه ، وبالشِّبَعِ من فرائِسِه : النابغة الذبيانى إذ يقول فى قصيدة له يمدح بها عمرو ابن الحارث الأصغر من ملوك غِسّان بالشام :

إذا ماغَزَوْا بالجَيْشِ حلَّقَ فوقَهُم عصائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِى بِعصَائِبِ
يُصَاحِبْنَهُم حتى يُغِرْنَ مُغَارَهُم مِن الضارياتِ بالدِّماء الدَّوَارِبِ
تَراهُنَّ خلفَ القومِ خُزْراً عيونها جلوسَ الشُّيوخِ فى ثيابِ المرانِبِ
جوانِحَ قد أيْقَنَّ أنّ قبيلَهُ إذا ما الْتَقَى الجمعانِ أولُ غالب
لهُنَّ عليْهِم عادةٌ قد عرَفْنَها إذا عرِّضَ الخَطِّىُّ فوق الكواثِبِ

« العصائب : الجماعات . وقوله : يصاحبنهم يقول : تسير جماعاتُ الطير معهم كأنما تغير بإغارتهم على الأعداء ، وهذه الطيور من المتدربات الضاريات المولَعات بدماء القتلى . والخُزْر جمع أخزر وخزراء أى : ضيقة العيون خلقةً ؛ أو أنها تتخازر ، أى تقبض أجفانها ، لتُحَدِّدَ النظر ، وقوله جلوس الشيوخ ، أى أنها لَدى اشتداد القتال تقَعُ على أعالى الأرض والهضاب كأنها فى ريشها ووقوفها وتحديد النظر تترقّبُ القتلى جالسةٌ جلوس الشيوخ إذا التفُّوا بأكسِيَةِ المرانب يحَدِّدُون النظر إلى شىء بعيد ، والمرانب

---

(١) هاض العظم : كسره بعد الجبور

جمع مَرْنَبَانِىّ ، وهو الثوب المبطن بفراء الأرانب . وجوانح : مائلات للوقوع . والخطى : أى القنا المنسوبة إلى الخط - بلد بالبحرين - والكوائب — بالثاء المثلثة — جمع كاثبة ، وهى من جسم الفرس ماتحت الكاهل إلى الظهر بحيث إذا نُصِبَ عليه السرْجُ كانت أمام القَرَبُوسِ يضع الفارس عليها رُمْحَه مُسْتَعْرِضاً ، يقول : اعتادت الطير أنّ الرّماح إذا عُرِضت على الكواثِب كان ذلك لرِزْقٍ يُساق إليها . »

وقال أبو تمّـام :

وقد ظُلِّلَتْ عِقْبانُ أعْلامِه ضُحَى بِعِقْبَانِ طيرٍ فى الدّماء نواهِلِ [1]

أقامَتْ مع الراياتِ حتى كأنها مِن الجيش إلا أنها لم تُقاتِلِ

وقالت جَنُوبُ أختُ عمْرٍو ذى الكَلْبِ ترثِيهِ :

تَمْشِى النُّسورُ إلَيْهِ وهْىَ لاهِيَةٌ مَشْىَ العذَارَى عليهِنّ الجلابيبُ

« الجلبابُ : ثَوبٌ أَوْسَعُ من الخِمار دون الرداء تُغَطّى به المرأة رأسها وقيل : المُلاءَةُ التى تَشْتَمِلُ بها ، ومعنى قوله وهى لاهية : أن النُّسور آمنةٌ منه لا تَفْرَقُهُ لكونه مَيِّتاً فهى تمشى إليه مَشْىَ العذارَى ، وأول هذه المرثِيَةُ :

كلُّ امرِئٍ بِطُوَالِ العيشِ مَكْذوبُ
وكلُّ من غالَبَ الأيام مغلوب

وقال المتنبي :

---

(١) العقبان الأولى جمع عقاب : الراية الضخمة ، والثانية جمع عقاب أيضاً : سباع الطير .

تَرَكْتَ جماجِمَهم فى النَّقا ... وما يَتخلَّصْنَ لِلنَّاخِلِ [1]
فأَنْبَتَّ منهم ربيعَ السِّبَاع ... فأَثْنَتْ بإحْسَانِكَ الشامِلِ

وقال :

سحابٌ مِن العِقْبانِ يزحَفُ تحتَها ... سحابٌ إذا استَسْقَتْ سَقَتْها صوارِمُه

وقال فى صفة جيش وقد ألمَّ بهذا المعنى :

وذى لَجَبٍ لا ذو الْجَنَاح أمامَه ... بناجٍ ولا الوحشُ المُثارُ بسالمِ [2]
تمرُّ عليه الشمسُ وهى ضعيفةٌ ... تُطالعُهُ من بين ريش القشاعمِ [3]
إذا ضوْؤُها لاقى من الطير فُرْجَةً ... تَدَوَّر فوق البَيْضِ مثل الدراهمِ [4]

وقال :

يُطمِّعُ الطيرَ فيهم طُولُ أكْلِهُمُ ... حتى تكاد على أحيائهم تقعُ

---

(١) النقا : الكثيب من الرمل يقول : دست رؤسهم بحوافر الخيل فطحنتها وامتزجت بالرمل حتى لو نخل الرمل لم يتخلص من رؤسهم شيء ، ثم قال فى البيت التالى : تركتهم جزراً للسباع فأخصبت بكثرة القتلى وكأنك أنبت لها ربيعاً فلو قدرت السباع لأثنت عليك بما شملتها من إحسانك

(٢) اللجب : اختلاط الأصوات ، والمثار : الذى أثاره الخوف من مكمنه يقول إذا طار ذو الجناح وسايره فليس بناج لكثرة الرماة فى الجيش ، وإن ثار وحش أخذ

(٣) القشاعم : النسور يقول : تمر الشمس على هذا الجيش وهى ضعيفة من كثرة عقبانه التى تخيم عليه وتتبعه ولا ينفذ ضوؤها إليه إلا فى خلال النسور كما ذكر فى البيت التالى

(٤) البيض جمع بيضة وهى : الخوذة ، شبه ما يتساقط من الضوء فى فرج أجنحة الطير فوقه بالدراهم يقول لكثرة اشتباك الطير لا يصل إليه ضوء الشمس إلا من منافذ ضيقة فيقع مستديراً

وقال أبو نواس :

تتأيّا الطيرُ غُدْوَتَهُ ثِقـةً بالشِّبْعِ من جَزَرِهْ

« تأيّا الشيء : قصد آيته ، أى شخصه . والجزَر: قِطَع اللحم »

عذر من يلبس الدروع

ونحوها فى الحرب والمستغنى بشجاعته ويقينه عنها

قال أبو تمّـام فى المستغنى بجلادته عن الدروع :

إذا رأوْا للمنايا عارضاً لبِسُوا مِنَ اليقين دروعاً مالها زَرَدُ

وسُـئِلَ بعضُ الأبطال : فى أىّ الجُنَنِ تحبُّ أن تلقَى عـدوّك ؟ قال : فى أجَـلٍ مُستأخر ... وقيـل لآخر : لو احـترَسْت ! فقال : كفى بالأجل حارسا ...

ومما يؤثر فى كثرة لبس الدروع والاستعداد للحرب أبداً قول مسلم بن الوليد من قصيدته التى يمدح بها يزيدَ بن مَزْيَدٍ الشيبانى وهو ابن أخى مَعْن ابن زائدة :

تراه فى الأمْنِ فى دِرْعٍ مُضاعَفَـةٍ

لا يأمن الدّهرَ أن يُدْعَى على عجلِ

وبعده :

لا يَعْبَقُ الطّيبُ خَدَّيْهِ ومَفْرِقَهُ ولا يُمَسِّحُ عَيْنَيْهِ من الكَحَلِ

يُروى أن عَمَّهُ معنَ بن زائدة كان يُقَدِّمه على أولادِه فعاتبَتْه امرأتُه فى ذلك ، فقال لها : فأُرِيكِ ما تبسطينَ به عذرى ، ياغلام ، اذهَبْ فادْعُ حسّاناً وزائدة وعبد الله وفلاناً وفلاناً حتى أتى على جميع أولاده لم لبثوا

أن جاؤا فى الغلائل المُطَيَّبة والنِّعال السِّنْديَّة ، وذلك بعد هُدْأةٍ من الليل ، فسلَّمُوا وجلسوا ، ثم قال مَعْن ، ياغلام ، ادع يزيدَ ، فلم يلبث أن دخلَ عَجِلاً وعليه سلاحُه ، فوضع رُمْحَه بباب المجلس ، ثم دخلَ ، فقال معنٌ له : ما هذه الهيئة يا أبا الزبير ، فقال : جاءنى رسولُ الأمير فسبق وَهْمى إلى أنه يُريدنى لِمُهِمٍ فلبِسْتُ سلاحى وقلت : إن كان الأمر كذلك مَضَيْتُ ولم أُعَرِّجْ وإن كان غيرُ ذلك فنَزْعُ هذه الآلة عنى من أيسر الأشياء ، فقال مَعْن : انصرفوا فى حفظ الله ، فلما خَرَجوا قالت زوجتُه قد تَبَيَّنَ لى عُذْرُكَ ، فأنشد مُتَمَثِّلاً :

نفْسُ عِصامٍ سَوَّدَت عِصاما وعلَّمَتْهُ الكرَّ والإقداما
وصيَّرتْهُ مِلِكا هُماما

وإلى ذلك أشار مسلم بالبيتين المذكورَين . ويُروى : أن مُسْلِماً لما انتهى فى إنشاد هذه القصيدة إلى البيت الأول قال له يزيد الممدوح : هلّا قلتَ كما قال أعْشَى بكر بن وائل فى مدحه قيس بن معديكرب [1]

وإذا تجيءُ كتيبَةٌ مَلمومَةٌ شَهْباءُ تَجْتَلِبُ الكُماةُ نِزالَها [2]
كنت الْمُقَدَّمَ غير لابِسِ جُنَّةٍ بالسيف تَضْرِبُ مُعلِمًا أبطالها [3]

---

(١) هذا قيس هو والد الأشعث بن قيس الكندى الصحابى

(٢) الكتيبة : القطعة العظيمة من الجيش ، وكتيبة ملمومة : مجتمعة مضموم بعضها الى بعض ، وشهباء : لما فيها من بياض السلاح والحديد فى حال السواد ، والكماة : الأبطال مدججين بالسلاح

(٣) رجل معلم : يعلم مكانه فى الحرب بعلامة جعلها لنفسه وهو شأن الشجعان وأبطالها مفعول تضرب .

فقال مسلم : قولى أحسن من قوله لأنه وَصَفَه بالخُرْق وأنا وصفته بالحزم . ويُروى مثل هذا لعبد الملك بن مروان مع كُثَيِّر عزة ...

تحريم الملاهى على المحارب

قال مُعاوية رضى الله عنه : ماذُقْتُ أيامَ صِفِّينَ [1] لحماً ولا حَلْواءَ بل اقتَصرتُ على الخبز حتى فرَغْتُ .

وكتَبَ عامِلُ اليمن إلى عبد الملك بن مروان فى وقت مُحاربته عبد الرحمن ابن الأشعَث : إنى قد وَجَّهتُ إلى أمير المؤمنين بجاريةٍ اشتريتُها بمال عظيم، ولم يُرَ مثلُها قطُّ ، فلما دُخِلَ بها عليه رأى وَجْها جميلا وخَلْقا نَبِيلا ، فألقى إليها قَضيبا كان فى يده فنَكَسَتْ لتأخُذَه ، فرأى جسما قد بَهَرَه ، فلما هَمَّ بها أعلَمه الآذِنُ أن رسولَ الحجّاج بالبابِ فأذِنَ له ، ونحّى الجارية ، فأعطاهُ كتابا من عبد الرحمن ، فكتب إليه عبد الملك كتابا ، ثم باتَ يُقَلِّب كفَّ الجارية ويقول : ماأفَدْتُ فائدة أحَبَّ إلىّ منك ، فتقول : فما بالُك ياأمير المؤمنين وما يَمنَعُك ؟ فقال : يمنعُنى ماقاله الأخطلُ ، لأنى إنْ خَرَجْتُ منه كنتُ ألأمَ العَرب :

قومٌ إذا حارَبوا شَدُّوا مآزرَهم   دونَ النِّساء ولو باتَتْ بأطْهارِ

فما إليك سبيلٌ أو يَحْكُمَ اللهُ بينى وبين عدوِّ الرحمن بن الأشعَثِ ، فلم يَقرَبْها حتى قُتِلَ عبد الرحمن ، قول الأخطل ولو باتت بأطهار ،

---

(١) صفين : موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربى وأيام صفين : أيام الحرب بين علىّ بن أبى طالب وبين معاوية وكانت مدتها مائة يوم وعشرة أيام وكانت وقائعها تسعين وقعة وكانت فى سنة ٣٧ هـ .

يعنى : أنه يجتنبها فى طُهرِها وهو الوقت الذى يَسْتقيم له غِشيانُها فيه

وفى هذا المعنى يقول الأعشى من كلمة له يمدح بها هَوْذَةَ بن على الحنفى :

وفى كلِّ عامٍ أنتَ جاشِمُ غَزْوةٍ تَشُدُّ لأقصاها عزيمَ عَزائِكا

مُوَرِّثَةً مالًا وفى الحىِّ رِفعةً لِمَا ضاعَ فيها من قُرُوءِ نِسائِكا

« جاشم اسم فاعل جَشِمَ الأمرَ — بالكسر — تكلَّفه على مَشقَّةٍ ، والعزيم كالعزيمة مصدر عزَم على الأمر : جَدَّ فى عَمَله ، والعزاء : الصبر يقول الأعشى : أنت فى كل عام تُكلِّف نفسَك الغزوَ واقتحام مكارِهه تشُدُّ وتُوَثِّقُ عزيمة صبرك لأقصاها ، أى أبعدِها وأعْلاها ، أو غايتها ومُنْتَهاها ، وهذه الغزوات تُوَرِّثك مالا كثيراً بغنائمها ، ورفعةً لك فى الحىِّ . والقروء جمع قَرْء وهو : الطُّهر هنا ، وقوله تعالى : والمطلَّقات يتربَّصْنَ بأنفُسهنَّ ثلاثة قُروء اختلف العلماء فقال الحجازيون القروء : الأطهار ، وقال أهل العراق الحِيَض ، أما فى قول الأعشى فالقروء : الأطهار لاالحيض لأن النساء إنما يُؤْتَين فى أطهارِهنَّ لافى حيضِهنَّ فإنما ضاع بغزْوِه وغلبته عنهن أطهارُهُنَّ . هذا واللام فى قوله : لما ضاع فيها لام العاقبة مثلها مثل اللام فى قوله تعالى : وما خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إلا لِيَعْبُدون ، وقوله تعالى : ليكون لهم عدوًّا وحَزَنا . هذا وقوله تعالى ثلاثة قروء قال الأصمعى : جاء هذا على غير القياس والقياس : ثلاثة أقْرُء ولا يجوز أن يقال : ثلاثة فلوس ، إنما يقال : ثلاثة أفلس فإذا أكثرت فهى الفلوس ، ولا يقال : ثلاثة رجال إنما هى ثلاثة رَجْلةٍ ، ولا يقال ثلاثة كلاب إنما هى ثلاثة أكْلبُ . وقال النحويون : فى قوله تعالى : ثلاثة قروء أراد : ثلاثة من القُروء »

طائفة من عبقرياتهم فى الصلح
والتحذير من الحرب

قال عز وجلّ : وإن جنَحوا للسَّلم فاجْنَح لها . « السّلم : الصلح ، بفتح السين وكسْرها ، وتُذكَّر وتؤنث » وقال : وإنْ طائفتانِ من المؤمنين اقتَتَلوا فأصْلحوا بينهما فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتِلوا التى تَبْغِى حتى تفِىء إلى أمرِ الله فإن فاءتْ فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسِطوا إن الله يُحِبُّ المُقْسِطين . « نزلت هذه الآية الكريمة فى قِتال حدَث بين الأوْسِ والخَزْرَج فى عهده عليه الصلاة والسلام بالسَّعَفِ والنِّعال ، والجمع فى اقتتلوا باعتبار المعنى فإن كل طائفة جمع ، وبغت : تعدّت ، وتفىء : ترجع ، وأقسطوا : أعدلوا »

ومن كلامهم : الحربُ صَعْبةٌ مُرَّة ، والصلح أمْنٌ ومَسَرَّة

ومنه : إياك والمعاداة ، فإنك لنْ تعدمَ مَكْرَ حليم ، أو مُفاجأةَ لئيم .

ومنه : لا تَسْتَثيروا السّباعَ من مرابِضِها فتندَموا ، ودارُوا الناسَ فى جميع الأحوال

ومنه : الفِتنة نائمةٌ ، فمن أيقظها نهو طعامُها « الفتنة هنا : ما يَقَع بين الناس من القتال والحروب » .

وقال زهير بن أبى سلمى فى معلقته :

وما الحربُ إلا ما عَلِمتُمْ وذُقْتُمُ ... وما هو عنها بالحديثِ المُرَجَّمِ

متى تَبْعَثوها تبعثوها ذَميمةً ... وتَضْرَ إذا ضَرَّيْتُمُوها فتَضْرَمُ

فتَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الرَّحى بِثِفَالِها ... وتَلْقَح كِشافاً ثم تُنْتَج فتُتْئِمِ

فَتُنْتَجْ لكم غِلمانَ أشأَمَ كلُّهُمْ كأحْمَرِ عادٍ، ثمَّ تُرْضِعْ فتَفْطِمِ
فتُغْلِلْ لكم ما لا تُغِلُّ لأهلها قُرًى بالعراق مِن قفيزٍ ودِرْهَمِ

إلى أن قال:

ومَن يعصِ أطْرَافَ الزِّجاجِ فإنه يُطِيعُ العوالى رُكِّبَتْ كلَّ لهْذَمِ

«المرجم من الحديث: المقولُ بطريق الظَّنِّ لا عن تحقيق، يقول: وما حديثى عن الحرب وتخويفكم أهوالَها بالحديث المُفتَرى، وإنما أنتم قد علمتم ويلاتِ الحرب وذقتموها فلا تقرَبوها؛ وضَرِىَ يضْرَى: اشتد حرصُه والتضرية: الحمل على الضَّراوة. وضَرِمَت النارُ تضرَم: التهبت يقول: متى تهيجوا الحرب تهيجوها مذمومة، أى تُذَمُّون على إثارتها، ويشتد حِرْصها إذا حملتموها على شدة الحرص فيشتد حرها وتلتهب نارُها، يحُثُّهم على التمسك بالصلح وينذرهم بسوء عاقبةِ إيقاد نار الحرب. وقوله: فتعرككم البيت، فالعرك: الدلك، والثفال: الجلد أو الخِرْقةُ توضعُ تحت الرحى ليقعَ عليها الطَّحين، والباء فى «بثفالها» بمعنى مع، واللقاح: حمل الولد يقال: لَقِحَت الناقة تلْقَح: إذا حملت، وتلقح كِشافاً: أى تلقح لقاحاً كِشافا، بأن تحمِلَ فى عامَيْن متَوالِيَيْنِ، وتُتْئِم: أى تأتى فى كلِّ مرة بتوءَمَيْنِ، يقول: إذا هجتم الحرب طحنتْكُم طحْنَ الرحَى الحَبَّ مع ثِفالها وتَطُول شِدَّتُها ووَيْلاتُها وتتولَّدُ من جرائها صنوف وضروب من الأهوال والشرور، ومَثَلُها فى ذلك مثلُ الناقة تحملُ حَمْلين فى عامين متواليين ثم لا تلد إلا توءمين، جعل إفناءَ الحرب إياهم بمنزلة طحن الرحى الحَبَّ وجعل صنوف الشر تتولد من الحرب بمنزلة الأولاد الناشئة من الأمهات وبالغ فى وصفها باستتباع الشر شيئين: أحدهما جعله إياها لاقحة كشافاً،

والآخر إتآمها . وأشأم مصدر من الشؤم ، على وزن أفعل ، أو صفة لمحذوف ، واحمر عاد : لقب لعاقر ناقة صالح عليه السلام نبيّ ثمود واسمه قِدَار ، وكان عقره لهذه الناقة شؤماً على قومه ، ويريد بعاد ثمودَ إما توهّما وخطأً وإما لأن ثمود من عاد ، يقول : إن هذه الحرب تطول ويلاتها وشُرُورُها وتلتج لكم غِلمان شُؤم أو غلمان أبٍ أشأم شُؤْمَ قِدار عاقر الناقة ، ثم تعيش هذه الغلمان فتُرْضِعُهم الحرب وتفْطِمُهم ، وكل ذلك كنايةٌ عن طول ويلات الحرب وطول شرورها . وقوله : فتغلل لكم ... ألبيت يقول : فتُغِلُّ لكم هذه الحرب ضروباً من الغَلّات ليست كغلات قُرَى العراق من الحب الذى يكال بالقفيز ، أو من ثمن الغلة وهى الدراهم ، يعنى : أن المضارّ الْمُتَوَلِّدَة من هذه الحرب تُرْبى على المنافع المتولدة من هذه القرى ، وكل هذا حثٌّ منه لهم على الاعتصام بعُرَى الصلح وزَجْرٌ عن إيقاد نار الحرب التى تلك أناعيلها وأهوالها . وقوله : ومن يعص ... ألبيت فالزّجاج جمع زِجّ وهو الحديد المركب فى أسفل الرمح ، واللهذم : السنان الطويل يقول : مَن يعصِ أطراف الزّجاج أطاع عوالى الرماح التى ركبت فيها الأسنة الطِّوال الحادّة والمعنى : مَن أبى الصلح ذللته الحرب وليّنته ، وكانت العرب إذا التقت فِئتان منهم سدّدت كل طائفة منهما نحو صاحِبتها زجاج الرماح وسعى الساعون فى الصلح ، فإن أبتا إلا التمادِيَ فى القتال قلبتْ كل واحِدَة منهما الرِّماح واقتتلتا بالأسِنّة . » وقال كثيِّر :

رَمَيتَ بأطرافِ الزّجاجِ فلم يُفِقْ من الجهْلِ حتّى كَلَّمَتْهُ نِصالُها

وخَطبَ بعضهم خُطْبَةً طويلة لِصُلْح أمّة ، فقال له رجل : أنت مُذ اليوم ترعَى فى غير مرعاك ... أفلا أدُلّك على المقال ؟ فقال : نعم ، فقال :

«أما بعد» فإنَّ الصُّلحَ بقاءُ الآجال، وحفْظُ الأموال، والسلام. فلمَّا سمع القومُ ذلك تعانقُوا وتواهبُوا الديات.

وكتب سَلْمُ بنُ قُتَيْبَةَ بن مسلم إلى سعيد الْمُهَلّبي لمَّا تحاربا بالبصرة:

خُذُوا حَظَّكمْ مِن سِلْمِنا إنَّ حِزْبَنا
إذا زَبَنَتْهُ الحربُ: نارٌ تَسَعَّرُ [(١)]

وإنِّي وإيَّاكم على ما يَسُوءُكم لَمِثْلانِ أوأنْتُمْ إلى الصُّلْحِ أفْقَرُ

وقال حكيم: دافِعْ بالحرْب ما أمكن، فإنَّ النَّفَقَة في كل شيء من الأموال، إلا الحرب، فإن النفقة فيها من الأرواح، عِلاوة على الأموال.

وقال النابغة الجعديّ:

وتَسْتَلِبُ المالَ الذى كان رَبُّها ضَنِيناً به والحربُ فيها الحرائبُ

وقد تبعه أبو تمام فقال:

٭ والحرْبُ مُشْتَقَّةُ المعنى مِنَ الحَرَبِ ٭

«الحرَب: أنْ يُسْلَبَ الرجلُ مالَه»

وقال شاعر يُسَمَّى حلحلة بن قيس الكِنانى [(٢)]

دعانى أُشُبُّ الحربَ بينى وبينه فقلت: لا، بل هَلُمَّ إلى السِّلْمِ

ومهلا عن الحرب التى لا أديمُها صَحِيحٌ وما تَنْفَكُّ تأتى على سُقْمِ

فإنْ يظْفَرِ الحِزْبُ الذى أنت مِنْهُمُ وآبوا بِدُهْمٍ من سِباءٍ ومن غُنْمِ

---

(١) زنبته: دفعته وصدمته، وحرب زبون: شديدة يدفع بعضها بعضاً من الكثرة. (٢) هذه الابيات تراها كاملة فى حماسة البحترى

ولا بُدَّ من قتلَى لعلَّك فيهمُ ... وإلا فجُرْحٌ ليس يَكْنِي عَنِ العظْمِ (١)
فلما أبى أرسلْتُ فَضْلَةَ ثوبِهِ ... إليه فلم يرْجِع بعزم ولا حزم
فلما رمانيها رمَيْتُ سوادَه ... ولا بُدَّ أنْ ترمِي سوادَ الذى يرْمِي
فبِتْنا على لحم من القوم غودِرَت ... أسنَّتُنا فيه وباتوا على لحْمِ
وكان صَرِيعَ الجهْلِ أولَ وَهْلَة ... فبُعْداً لهُ مختارَ جهْلٍ على عِلْمِ

الحرب تصيب جانيها وغير جانيها

العرب تقول : الحرب غَشومٌ ، لأنها قد تنال غير جانيها .

وتقول : ٭ وليس يَصْلَى بنارِ الحرب جانيها ٭

٭ وأصبح مَن لم يجْنِ فيها كذِي الذَّنب ٭ .

وقال الحارث بن عبَّاد :

قرِّبا مَرْبِطَ النَّعامَةِ منى ... لَقِحتْ حرْب وائلٍ عن حِيال
لم أكُنْ من جُناتها عَلِمَ الله ... وإنى بحَرِّها اليومَ صالِ
قرِّباها فإنَّ كفِّيَ رَهْنٌ ... أن تزولَ الجبالُ قبلَ الرجالِ

« النعامة : فرسه ، ولقِحتَ : حملَت ، وحرْبٌ لاقِحٌ : مَثلٌ بالأنثى الحامِل ، وعَنْ حيال : بعْدَ حيال ، أى بعد أن لم تحْمِل ، وصلى بالنار : قاسَى حرَّها أو احترق بها »

وقال ابن الرُّومىّ :

رأيتُ جُناةَ الحرْب غيرَ كُفاتها ... إذا اختلفَت فيها الرماحُ الشواجِرُ

---

(١) ليس يكنى عن العظم لعله يريد : إن جروح الحرب ليست من الجروح المعروفة ولكنها جروح تصمى وتقتل

كذاكَ زِنادُ النارِ عَنْها بِنَجْوَةٍ ولكنما يَصْلَى صِلاها المَساعِرُ

« المساعر : جمع مسعر ، وهو : ما تُحرِّكُ به النار من خشب ونحوه ، ومِسْعَرُ الحرب : مُوقِدُها »

الممتنع من الصلح

قال أبو زبيد الطائى — شاعر مخضرم ، كان فى الجاهلية مقيما فى أخواله بنى تغلب بالجزيرة ، وفى الإسلام منقطعاً إلى الوليد بن عُقبة بن أبى مُعَيط فى ولاية الجزيرة وولاية الكوفة ، ولم يزل به الوليد حتى أسلم ، وقد كان نصرانيا ؛ والأكثر على أنه مات على نصرانيّته — :

بعثوا حَرْبَنا إليهم وكانوا فى مقامٍ لو أبصروا ورَخاء

ثم لمَّا تَشَذَّرت وأنافَتْ وتَصَلَّوْا مِنْها كريهَ الصِّلاءِ

طَلَبُوا صُلْحَنا ولاتَ أوانٍ فأجَبْنا أن ليس حينَ بَقاءِ

فلحَا اللهُ طالبَ الصُّلحِ منَّا ما أطافَ المُبِسُّ بالدَّهناءِ

« لو أبصروا فلَوْ للتمنِّى ، ورخاء : عطف على مقام ، وتشذَّرت يقال : تشذَّر فلان إذا تهيأ للقتال ، وتشذر القوم فى الحرب : أى تطاولوا واشرأبُّوا ، وأنافت : زادت ، وتَصَلَّوْا : مِن صَلِىَ النار صَلًا ، من باب تعب : قاسى حَرّها ، والصِّلاء ككتاب : حَرُّ النار ، وطلبوا صلحنا : جواب لمّا ، وقوله : ولاتَ أوانٍ فللنحويين فى تخريجها كلام كثير وأوجَهُها أن أصلها : ولاتَ أوانَ صُلحٍ ، حُذِفت الجملة وبُنِى أوان على الكسر ، وليس حين بقاء : أى ليس الحينُ حينَ بقاءٍ ، والبقاء : اسم من قولهم أبقيت على فلان إبقاء : إذا رَحِمته وتلطَّفت به ، والمشهور

أن الاسم منه : البُقياء والبَقْوَى ، ولحا الله : أى قبَّحَ الله ، وما أطاف : فما مصْدَرية ظرفية ، وأطاف وطاف : بمعنى دارَ على الشيء ، والمُبِسُّ حادى الإبل ، وهو فى الأصل اسم فاعل مِن أبْسَسْتُ الإبل : إذا زَجَرْتَهَا والدهناء : موضع فى بلاد بنى تميم »

وقال الزِّبرقان :

فلَنْ أصالِحَهم مادُمتُ ذا فرَسٍ   واشْتَدَّ قبضاً على الأسيافِ إبهامِى

ضارع يطلب الصلح

قال المتنبى :

من أطاقَ التماسَ شىء غِلاباً   واغتصاباً لم يَلْتَمِسْه سُؤالا

التحذير من صغير يفضى إلى كبير

قال الفرزدق :

تَصَرَّمَ عنِّى وُدُّ بَكْرِ بن وائلٍ   وما كادَ عنِّى وُدُّهُمْ يتَصَرَّمُ

قوارِصُ تأتِينى وتحْتَقِرونها   وقد يملأُ القطرُ الإناءَ فيُفْعَمُ

« يفعم : يمتلئ ، والقوارص جمع قارصة : الكلمة المؤذية »

وقال آخر :

ذروا الأمرَ الصغيرَ وزَمِّلوهُ   فتَلقيحُ الجليل من الدقيق

« زمّلوه : أخفوه »

وقال آخر :

قد يَحقِرُ المَرْءُ مايهْوَى فيَرْكبُه   حتى يكونَ إلى توريطِهِ سببا

وقال آخر:

إن الأمورَ دَقيقَها مِمّا يَهيجُ به العظيمُ

ومن كلامهم: منَ الحبَّةِ تَنْبتُ الشجرة العميمة؛ ومن الجمرة تكونُ النار العظيمة. والتَّمْرَةُ إلى التمرَةِ تمرٌ، والذَّوْد إلى الذودِ إبل.

و * أوَّلُ الغيث قَطْرٌ ثمَّ ينسكِب *

و * كم بِذِي الأثْلِ دَوْحَةٌ من قضيب *

طائفة من عبقرياتهم فى التهديد والوعيد

قلة غَناء الوعيد

من أمثالهم: الصدق يُنْبئُ عنك لاالوعيد، أى: إنما يُنْبئُ عدُوَّك عنك أن تَصْدُقَه فى القتال، لا أن تُوعِدَه ولا تُنَفِّذَ ما توعده به »

وقالوا: من علامات العاقل ترْك التهديد قبل إمكان الفُرَص، وعند إمكانِها الوُثوبُ مع الثِّقة بالظَّفرِ.

وقالوا: * إنّ الوعيدَ سلاحُ العاجزِ الحمِقِ *

« الحمق: الأحمق »

وقالوا: * إن الكتائِبَ لا يُهْزَمْنَ بالكتُب *

من يتهدد بظهر الغيب ولا يغني غَناءً

قال عنترة فى معلقته:

ولقد خشِيتُ بأن أموت ولم تكن
للحَرْبِ دائرةٌ على ابْنَيْ ضَمْضَمِ

الشـاتمى عِرْضِى ولم أَشْتِمْهُما والناذِرِين إذا لمْ أَلْقَهُمَا دمى

« الدائرة : اسم للحادِثة ، سميت بهـا لأنها تدور من خـير إلى شر ومن شر إلى خير ، ثم استعملت فى المكروهة دون المحبوبة ، والدائرة : الهزيمة والسُّوء يقال : عليهم دائرة السَّوء ، وفى الحـديث : فيجعل الدائرة عليهم ، أى الدولة بالغلبة والنصر ، وقوله سبحانه : ويتربَّصُ بكم الدوائر . قيـل : الموت أو القتل ، وقوله : والناذرين يقول : والموجبان على أنفسهما سفك دمى إذا لم ألقهُما ، يريد : أنهما يتوعّدانه حال غيبته أما فى حال حضوره فلا يتجاسران على ذلك »

وقال القَرْمَطِىُّ :

تتَمَنَّانى إذا لم تَرَنِى فإذا جِئْتُ قَطَعْتَ القنطرهْ
يابنى العبّاسى مَنْ ينصُركم أَصَبِىٌّ أم خَصِىٌّ أمْ مَرَهْ

وقال آخر :

كالصَّدَى يُسْمَعُ منه صَوتُه فإذا طالبْتَه لم يَسْتَبِن

« الصدَا : ما يُجِيبُك من صوت الجبل ونحوه بمثل صوتك »

من لا يبالى بتهديده

قال جرير :

زعم الفرزدق أن سَيَقْتُل مِرْبَعاً
أَبْشِرْ بطول سلامة يامِرْبَعُ

وقال مُقاتل بن مِسْمَع لعبّاد بن الحصَين : لولا شَىْءٌ لأخَذْتُ رأسك فقال : أجلْ ، ذلك الشىء سَيْفِى ...

وقال ابن أبى عُيَيْنَةَ :

فَدَعِ الوعيدَ فما وَعيدُكَ ضائرى أطنِينُ أجنحةِ الذُّباب يَضِيرُ

وقال الفرزدق :

ماضَرَّ تغْلِبَ وائلٍ أهَجَوْتَهَا أمْ بُلْتَ حيث تناطَحَ البَحْرانِ

وأبرَق رجلٌ لآخر وأرْعد فلما زاد أنشد :

قد هبَّتِ الريحُ طولَ الدهرِ واختلفت على الجبالِ فما نالتْ رواسيها

طائفة من عبقرياتهم

فى الهزيمة والخوف وأن الفِرارَ لا يَقِى من الموت

قال جل شأنه : قُلْ لَنْ ينفعَكم الفِرارُ إنْ فرَرْتم من الموتِ أو القتل وإذَنْ لا تُمتَّعون إلا قليلا . « يقول سبحانه : لن ينْفعَ الناسَ الفِرارُ فإنه لابدّ لكل شخص من حَتْفِ أنفٍ أو قتل فى وقتٍ معَيَّنٍ سبَق به القضاءُ وجرى عليه القلم ، ثم قال جل شأنه : وإن نفَعَكم الفرارُ مثلا فمُتِّعْتُم بالتأخير لم يكن ذلك التمتع إلا تمتيعاً وزمانا قليلا » . وقال سبحانه : أينما تكونوا يُدْرِكْكُمُ الموتُ ولو كنتم فى بُروج مُشَيَّدةٍ . « البرُوج : الحُصون ، والمُشيَّدَة المرتفعة » .

وقال علىٌّ يوم الجمل : إن الموت طالِبٌ حَثيث ، لا يُعجِزُه المُقيم ولا يَفوتُه الهارب ، وإنْ لم تُقتَلوا تموتوا ، وإنّ أشْرَفَ الموتِ القتلُ .

ومن أمثال العرب : فلانٌ أجرأُ من فارسِ خَصاف . « وخَصافِ كقَطامِ فرَسٌ قال النَّسابون : كان مالكُ بن عمرٍو الغَسّانىُّ يقال له : فارس خَصاف ، وكان من أجْبَنِ الناسِ ، فغزا يوما ، فأقبـلَ سَهْمٌ حتى وقَعَ

عند حافِرِ فرسِه فانغرزَ فى الأرض وجعل يهتز حيناً فقال : إن هـذا السَّهم سبباً ينجُشُه — يُحرِّكه — فاختفى عنه ، فإذا هو قـد وقع على نفق يَرْبوع فأصاب رأسه ، فتحرّك اليربوع ساعةً ثم مات ، فقال : هـذا فى جوفِ جُحْرٍ جاءه سهمٌ فقتَـله ، وأنا ظاهرٌ على فرسٍ ! ماالمَرْءُ فى شىء ولا اليربوعُ ، ولا أُقتَلُ إلا بأجلى ، ثم شدَّ عليهم فأنكى فى القوم ، فكان بعد ذلك من أشجعِ الناس ... وكان معاوية يتمثّل بهذين البيتين كثيراً :

أكانَ الجبانُ يرى أنه سيُقتَلُ قبلَ انقضاء الأجلْ
فقـد تُدْرِكُ الحادثاتُ الجبان ويَسْلَمُ منها الشجاع البَطَـلْ

تفضيل القتل على الهرب

قال سُقراط لرجل هَرب من الحرب : الهرب من الحرب فضيحة ! فقال الرجل : شر من الفضيحة الموت ، فقال سُقراط : الحياة إذا كانت صالحة فسَلْمٌ ، وإذا كانت رَديئةً فالموت أفضلُ منها .

ولما قتل الاسكندرُ المقدونىُّ ملكَ الهند قال لحكمائه : لِمَ مَنَعتُم الملك من الطاعة ؟ قالوا : ليموتَ كريماً ولا يعيشَ تحت الذُّلّ .

الممتنع من الفرار

قالت امرأة من عبد القيس :

أبَوْا أنْ يَفِرُّوا والقنا فى نُحورِهم ولم يَبْتَغُوا من خَشْيَةِ الموتِ سُلَّما
ولو أنَّهُمْ فَرُّوا لكانوا أعِزَّةً ولكن رَأَوْا صبْراً على الموتِ أكْرَما

« ولم يبتغوا يروى : ولم يرتقوا »

المعير بانهزامه

من كلام الحجّاج : ولّيتم كالإبلِ الشّوارِد إلى أوطانِها ، النوازِع إلى أعطانِها ، لا يَلوِى الشيخُ على بنيه ، ولا يسألُ المرء عن أخيه ... وقال أبو تمام من قصيدته البائية التى يمدح بها المعتصم ويذكر فتح عمّورِيةَ وانهزام ملك الروم :

وَلّى وقد ألْجَمَ الخطّىُّ مَنْطِقَهُ بسَكْتَة تحتَها الأحشاءُ فى صَخَبِ [1]
أحْذَى قرابينَه صَرْفَ الرّدى ومضى يَحْتَثُّ أنْجَى مَطاياهُ من الهرب [2]
مُوَكّلاً بيَفاعِ الأرضِ يُشرِفُهُ من خِفّةِ الخوفِ لا من خِفّةِ الطَّرَبِ [3]

وقال البحترى من أبيات يمدح بها أحمد بن طولون :

تخطّى حُزُونَ الأرضِ راكبَ وَجْهِه ليمنعَ منه البُعدُ ما يَبذُلُ القُربُ
ولو كان حُرَّ النفسِ والعيشُ مُدْبِرٌ لمات وطَعمُ الموتِ فى فمِه عَذْبُ

وقال أبو جعفر المنصور لبعض الخوارج : عَرِّفْنى : مَن أشَدُّ أصحابى إقداماً ؟ فقال : لا أعرفهم بوجوهِهم ، فإنى لم أرَ إلا أقفاءَهم ...

وقال ابن الرومىّ فى سليمان بن عبد الله بن طاهر :

قِرْنُ سُليمانَ قد أضرَّ به شَوقٌ إلى وَجْهِه سيُدْنِفُه
لا يَعرفُ القِرنُ وَجهَه ويَرى قفاه مِن فَرْسَخٍ فيَعرِفُه

وقال المتنبى لمّا أوقَعَ سيفُ الدّولة ببنى عَقيل وقُشير وبنى العجلان

---

(١) ولى : أى ملك الروم ، وألجم الخطى منطقه : أخرسه السيف

(٢) أحذى : أعطى ، وقرابينه : المقربون له جمع قربان وهو جليس الملك الخاص يقول : أن ملك الروم قدم المقربين إليه هدية للموت وفر على أحسن مطاياه وأنجها .

(٣) اليفاع ما ارتفع من الأرض ، ويشرفه : يعلوه .

وبنى كلاب ويذكر إجفالهم من بين يديه :

فلزَّهمُ الطِّرادُ إلى قتالٍ أحَدُّ سلاحِهم فيه الفِرارُ
مَضَوْا مُتسابِقى الأعْضاءِ فيه لأرْؤُسِهم بأرْجُلهم عِثارُ

« لزّه إلى الشىء : ألجأه إليه وأدناه منه يقول : أحوجهم طِرادُك إياهم إلى قتالٍ شديد لم يكن لهم سِلاحٌ يدفَعُه عنهم غير الفرار ، ثم قال فى البيت الثانى : لإسراعهم فى الهرب والهزيمة خوفا من القتل كانت أعضاؤهم كأنما يسابِقُ بعضُها بعضا ، الأرجلُ تسابِقُ الرؤس والرؤس تسابق الأرجل ، وكأنّ الرؤس تتعثر بالأرجل حين تريد الرؤس الإسراع فتمنعها الأرجل » .

وقال زيد بن على بن الحسين حين خرج من عند هشام مُغْضَباً : ماأحَبَّ أحدٌ الحياة إلا ذلّ ، وتمثل :

شَرَّدَهُ الخوفُ فأزْرَى به كذاك مَن يَكْرَهُ حَرّ الجلاد
قد كانَ فى الموت له راحةٌ والموتُ حَتْمٌ فى رقابِ العِبادْ

« شرّده : جعله شريداً طريدا ويقال : شرّدبه : إذا سَمّعَ به ، وأزرى به : قصربه وحقره وهوّنه ، وحَرّ الجلاد : شِدّته ، والجلاد : القتال بالسيوف »

ترك اتباع المنهزم

قيل لعلى بن أبى طالب : أنت رجل مِحْرَبٌ وتَركَبُ بغلة ، فلو اتخذت الخيل ! فقال : أنا لاأفِرّ ممن كَرّ ولا أكُرّ على من فرّ . « مِحْرَبٌ شديد الحرب شُجاع ، وكر على العدوّ يكُرّ : عَطَف »

وأوصى الإسكندر صاحبَ جيش له فقال : حَبِّبْ إلى أعدائك الهَرَب .

قال : كيف أصنع ؟ قال : إذا ثبتوا جِدَّ فى قتالِهم وإذا انْهزموا لاتَتْبَعهم .
وعاتَبَ الحجاج المهلَّب بن أبى صُفرة فى تَركه اتّباعَ الخوارجِ لمّا انهزموا ، فكتب إليه : أما عَلِمْتَ أنّ الكلب إذا أجْحر عقَر ...
« أجحر : دخل الجُحْر » ،

الفارّ وقت الفرار والثابت وقت الثبات

قالوا : الهربُ فى وقته خير من الصبر فى غير وقته .
وقالوا : من هرب من معركة فعرف مصيرَه إلى مستَقَرِّه فهو شُجاع .
وقال معاوية يوماً : لقد عَلِمَ الناسُ أنّ الخيل لاتجرى بمِثْلى ، فكيف قال النجاشىّ : (١)

ونجّى ابنَ حَرْبٍ سابقٌ ذو عُلالةٍ أجَشُّ هزيمٌ والرِّماحُ دَوانِى (٢)

فقال عمرو بنُ العاص له : لقد أعْيانى أنْ أعلمَ أجبَانٌ أنت أم شجاع ؟ فقال :

شُجاعٌ إذا ماأمْكَنَتْنِىَ فُرْصةٌ وإلا تكنْ لِى فرصةٌ فجَبانُ

وقال المهلَّبُ بن أبى صُفرةَ : الإقدامُ على الهَلَكة تضييعٌ ، كما أن

---

(١) هو قيس بن عمرو بن مالك ... أحد بنى الحارث بن كعب ، نسب إلى أمه وكانت من الحبشة ، وكان من أشراف العرب ، إلا أنه كان فاسقاً ، وهو الذى أتى به على رضى الله عنه وهو سكران فى شهر رمضان ، نضربه ثمانين وزاد عشرين ، فقال : ماهذه العلاوة ياأبا حسن ؟ قال : لجرأتك على الله وشربك فى رمضان ، ولأن ولداننا صيام وأنت مفطر . وبيته هذا من أبيات تراها فى مجموعة المعانى طبع الجوائب
(٢) يقال لأول جرى الفرس : بداهته وللذى يكون بعده : علالته وفرس أجش : غليظ صهيل وهو مما يحمد فى الخيل . والهزيم من الخيل : الشديد الصوت

الإحْجامَ عن الفرصةِ عجز.

وقال المتوكل الخليفة العباسى لأبى العيناء: إنى لأَفْرَقُ من لسانك!
فقال: ياأمير المؤمنين، الكريم ذو فَرَقٍ وإحْجام، واللئيم ذو وَقاحة وإقدم.

وقال الشاعر:

أُقاتِــلُ حتى لاأرى لى مُقاتِلا وأنجو إذا غُمَّ الجبانُ من الكَرْبِ

المتفادى من حضور الحرب

والمحتجّ لانهزامِه بالخوف من القتل

قيل لأعرابى: ألَا تغزُو فإن اللهَ قد أنذرك؟ فقال: والله إنى لأبغض الموتَ على فِراشى فكيف أمْضِى إليه رَكْضاً!

ورأى المُعتصم الخليفة العباسى فى بعض مُتَنزّهاتِه أسداً، فنظر إلى رجل أعجبَه زِيُّهُ وقوامُه وسِلاحُه فقال له: أفِيك خيرٌ؟ فعَلِم الرجل مُرادَه، فقال: لا، فقال: لا قَبَّح الله سِواك.

واجتازَ كِسْرَى فى بعض حُروبِه برَجُل قد استَظَلَّ بشجرة وألقى سلاحَه ورَبَط دابَّتَه فقال له: يانَذْل، نحن فى الحرب وأنت بهذه الحالة!
فقال: أيُّها الملك، إنما بلَغت هذه السِّنَّ بالتَّوقِّى، فقال: زِه، وأعطاه مالًا...

وقيل لرجل: إنك انهزَمْت! قال: غَضَبُ الأميرِ علىّ وأنا حىٌّ خيرٌ من أنْ يَرضى وأنا مَيّت.

وقال أبو دلامة:

قالوا: تقدّم قلتُ: لستُ بفاعِلٍ أخافُ على فَخّارَتى أن تحَطَّما

فلو كان لى رأسانِ أتلفتُ واحداً ولكنه رأسٌ إذا زالَ أعقما
ولو كان مُبتاعا لدى السُّوقِ مثلُه فعلتُ ولم أحفِل بأن أتقدَّما

وقال :

يقول لِيَ الأميرُ بغيرِ نُصحٍ : تقدَّم حين جَدَّ بنا المِراسُ
ومالِي إن أطَعْتُكَ من حياةٍ ومالى بعدَ هذا الراس راسُ

وقيل لجبان : لِمَ لا تُقاتِل ؟ فقال : عند النِّطاحِ يُغلَبُ الكبشُ الأجمّ « الأجمّ : الذى لاقَرْنَ له ، وهذا مَثل يُضرب لمن غلبه صاحِبُه بما أعدَّ له »

وقالوا : الشُّجاع مُلَقًّى والجبانُ مُوَقًّى ، وقال البديع الهمذانى :

ماذاقَ هَمًّا كالشُّجاع ولا خَلا بمَسَرَّةٍ كالعاجِزِ المُتَوانى

وهرب سليمان بن عبد الملك من الطاعون فقيل له : قُلْ لَنْ ينفعَكم الفِرارُ إن فررْتم من الموت أوِ القتلِ وإذاً لا تُمَتَّعون إلا قليلا . فقال ذلك القليلَ نُريد .

هارب يعتذر عن هربه

بأنه نَبْوَة أو قَدَر

قال زُفَر بن الحارث وقد فَرَّ يوم مَرج راهط عن رفيقَيه :

أيَذهبُ يومٌ واحدٌ إن أسأتُه بصالِحِ أيامى وحُسْنِ بَلائيا
فلَمْ تُرَ مِنّى زَلَّةٌ قبلَ هذه فِرارى وتَرْكى صاحِبَىَّ ورائيا

وقديماً قال عمرو بنُ معديكرب — وكان قد فرّ من بنى عَبْس :

وليسَ يُعابُ المرءُ من جُبْنِ يومِه إذا عُرِفَتْ منه الشجاعة بالأمس

وقد تقدَّمَ قول الشاعر الجبان :

قامتْ تُشجِّعُنى هِند فقلتُ لها : إنّ الشجاعةَ مَقرونٌ بها العَطَبُ
لا والذى مَنَعَ الأبصارَ رُؤيتَه مايَشتهى الموتَ عندى مَن له أرَبُ
للحرب قوم أضلَّ اللهُ سَعيَهُمُ إذا دَعتهم إلى نيرانِها وَثَبُوا
ولستُ منهم ولا أهْوَى فِعالَهُمُ لا القتلُ يُعجِبُنى منها ولا السَّلَبُ

وجاء فى كليلةَ ودِمنة : إن الحازمَ يكرَهُ القتالَ ماوَجَدَ بُدًّا منه ، لأن النفقة فيه من الأنفُس والنفقةَ فى غيره من المالِ . وفى هذا المعنى يقول أبو تمّام :

كم بينَ قومٍ إنما نَفقاتُهم مالٌ وقومٍ يُنفِقون نُفوسا

المتخلف عن قومه

قالوا : الشُّجاع يقاتِل من لا يعرفُهُ ، والجبان يَفِرُّ من عِرسِه ، والجواد يُعطِى مَن لا يسأله ، والبخيلُ يمنَع من نفسه . وقال الشاعر :

يَفِرُّ جَبان القومِ عن أُمّ نفسه ويَحمِى شُجاعُ القوم مَن لا يُناسِبُهْ
ويُرزَقُ معروفَ الجوادِ عَدُوُّه ويُحرَم معروفَ البخيل أقارِبُهْ

وقال حسّانُ بن ثابت رضى الله عنه يُعَيِّرُ الحارث بنَ هِشام حين فرّ يومَ بدر :

إنْ كنتِ كاذبةَ الذى حَدَّثْتِنى فنَجوْتِ مَنْجى الحارثِ بن هِشام
ترك الأحِبَّة أنْ يُقاتِلَ دونهم ونجا برأسِ طِمِرَّةٍ ولِجامِ
مَلأَتْ به الفَرْجَيْنِ فارْمَدَّتْ به وثَوَى أحِبتُهُ بشرِّ مُقامِ

« الطِّمرة : الفَرس الكثير الجرى ، والفرجان : مابين يديها ورِجْليها وملأَنهما : ملأتهما جَرْيا . وارمَدّت : أسرعت ، وثَوَى : أقام »

وقال أبو تمام من قصيدة يمدح بها المعتصم ويذكر هزيمة بابك الخُرَّمِيّ :

ونجا ابنُ خائنَةِ البُعُولةِ لو نجا بِمُهَفْهَفِ الكَشْحَيْنِ والآطالِ
تَرَكَ الأحِبَّةَ سالِياً لا ناسِياً عُذْرُ النَّسِيِّ خِلافُ عُذرِ السّالى

« خائنة البعولة : كناية عن الزانية ، والكشحان : جانبا البطن من ظاهر وباطن ، والمهفهف : الضامِر الدقيق ، والآطال جمع إطِل وإطْل كإبِل وإبْل : الخاصرة ، والنَّسِي : الناسِي »

من نجا وقد استولى عليه الخوف

قال أبو تمّام من قصيدة يمدح بها أبا دُلَف ويذكر هزيمة بابك الخُرَّمى كذلك :

ظَلَّ القنا يَستَقى من صفِّه مُهجاً إمّا ثِماداً وإما ثَرَّةً خُسُفا
مِن مُشْرِقٍ دَمُهُ فى وجهِهِ بَطلٌ وواهِلٍ دمُه للرُّعب قد نُزِفا
فذاك قد سَقَيْتَ منه القَنا جُرَعاً وذاك قد سَقَيْتَ منه القَنا نُطَفا

« من صَفِّه : من صفّ بابَك ، والمهج جمع مُهجة : دَمُ القلب . والثماد : الماء القليل ، والثرة : من قولهم : عينٌ ثَرَّة : كثيرة الماء ، والخُسُف جمع خَسِيف وخَسوف : البئر لا ينقطع ماؤها ، والواهل : الخائف جداً ، ونزف : ذهب دمُه ، وبطل إمّا قرأته بالرفع على أن دمه مبتدأ وبطل خبر ولك أن تقرأه بالخفض على أنه مردود إلى مُشرق ويكون دمه فاعل مشرق وقوله : فذاك ... ألبيت أراد أبو تمام أن يقول : البطل الذى دمه فى وجهه سقيتَ الرماح منه جُرعا ، أى كثيراً ، والجبان الذى طار دمه من

الفزع سقيت منه نطفاً أى قليلا ، وقد يعبر عن الكثير بالنطفة فيكون ذ الأولُ مراداً به الجبان والثانى مراداً به البطل »

وقيل لرجل تعرّض له الأسد فأفلت منه : كيف حالُك ؟ قال سَلِمْتُ غير أن الأسدَ خرأ فى سراويلى ...

وقالت امرأةٌ من بنى المُهلّب :

فإن ثبتُوا فعُمْرُهُمُ قصيرٌ وإن هَرَبوا فوَيْلُهُم طويلُ

تسلية المنهزم

قال المتنبي يعتذر عن سيف الدولة فى هزيمة وقعت لجماعة من جيشه

قلْ للدُّمُستُقِ إنَّ المُسْلَمِينَ لكم خانوا الأميرَ فجازاهُمْ بما صنَعوا

وجدْتمُوهم نِياماً فى دِمائِكمُ كأنّ قتلاكم إياهُمُ فَجَعُوا

لا تحسَبُوا مَن أسرْتُمْ كان ذا رَمَقٍ
فليس يأكُلُ إلا المَيِّتَ الضَّبُعُ

وإنما عرّضَ اللهُ الجُنودَ بِكُمْ لكَيْ يكونوا بلا فَسْلٍ إذا رَجَعُوا

فكلُّ غزوٍ إليكم بعدَ ذا فلَه وكلُّ غازٍ لسيفِ الدولةِ التّبَعُ

« الدمستق : قائد جيش الروم ؛ و : المسلمين — بفتح اللام — : الذين أسلَمهُم سيف الدولة للعدو لتخاذلهم عنه ، وقوله : وجدتموهُم ... ألبيت هو بيان لما صنعوا ، وقوله : فى دمائكم : أى فى دماء قتلاكم وذلك أنهم تخلّلوا قتلى الروم فتلطخوا بدمائهم ، وألقوا أنفسهم بينهم تشبها بهم خوفاً من الروم ، ثم قال : كأنهم كانوا مفجوعين بقتلاكم فهم فيما بينهم يتوجعون لهم . وقوله : لا تحسبوا من أسرتم ... ألبيت ، يقول : ليس لكم أن تفخروا

بهؤلاء الذين أسرتم ولا تظنوهم كان فيهم رَمَق – بقيةُ حياة – وإنما هم أموات، من الجبن والخوف، وأنتم لِخِسَّتِكُم ودناءةِ نفوسكم لا تقدرون إلا على أمثالهم، كما أن الضَبُع لا تفترس إلا الجثث الميِّتَة. وقوله: وإنما عَرَّض الله ... ألبيت يقول: إنما خذل الله هؤلاء الجنود وجعلهم لكم عرضة ليطهر الله عسكر سيف الدولة من أمثالهم فيعودَ إليكم بجنود أبطال ليس فيهم فَسْلٌ ولا نذل. وقوله: فكل غزو إليكم ... ألبيت يقول فكل غزوة إليكم بعد اليوم تكون له لا عليه لأن الأدنياء من جنوده قد أُسروا ولم يبق إلا المختارون من الأخيار، وكل غاز تبع له لأنه سَيِّدَ الغزاة».

ولمّا انهزم بعض القوّاد دخلَ عليه بعض الأفاضل فقال: الحمدُ لله الذى نَظر لنا عليك ولم ينظر لك علينا، فقد تَقَدَّمْتَ للشهادة بجَهْدِك ولكن عَلِمَ اللهُ حاجتَنا إليك فأبقاك لنا.

صدر من عبقرياتهم فى الجبن

قال سبحانه وتعالى: يحسَبُون كل صيْحَةٍ عليهم همُ العدوّ...

وقالت عائشة رضى الله عنها: إنّ لله خلقاً قلوبُهم كقُلوب الطَّيْر، كلما خَفَقَتِ الريحُ خفقَتْ معها، فأُفٍّ للجُبَناء، أُفٍّ للجُبَناء.

ومما قيلَ فى الجبن من الشعر القديم قول القائل:

ولو أنها عُصْفُورَةٌ لحسِبْتَها مُسَوَّمَةً تدعو عُبَيْداً وأزْنما

«يقول لو رأيت عُصفورة لحسِبْتَها من جُبْنِك خيلا مُسوَّمة؛ وعبيد وأزنم: قبيلتان»

ومثله قول عُروة بن الورْد :

وأشجعَ قد أدركتُهم فوجدتُهُم يخافونَ خطْفَ الطّيرمن كلّ جانِبِ

وقال الآخر :

ملزِلتَ تحسَبُ كلَّ شيءٍ بعدَهمُ خيلا تكُرُّ عليهم ورِجالا

وقال ابنُ الرُّومى :

وفارِسٍ أجبَنَ من صِفرِدٍ يحُول أو يغورُ من صَفْرَهْ
لو صاح فى الليل به صائحٌ لكانت الأرضُ له طَفْرَهْ
يرحمُهُ الرحمنُ من جُبْنِهِ فيرْزُقُ الجندَ به النُّصْرَهْ

« الصِّفْرِد : طائر جبان يقال له : أبو المليح »

وقال أبو تمّام :

حيرانُ يحسَبُ سِجْفَ النَّقْعِ من دَهَش
طَوْدًا يُحاذِر أن ينقَضّ أوْ جُرُفا

« السجف : الستر ، والنقع : غبار الحرب ، والطود : الجبل ، والجُرُف : جانب الجبل الأملس »

وقال دِعْبل :

كأنَّ نفْسَه مِن طُول حَيْرَتِها منها على نفْسِه يومَ الوغَى رَصَدُ

وأُتِى الحَجّاجُ برجلٍ من أصحاب ابن الأشعَثِ ، فقال للحجّاج : أسألُك أنْ تقْتُلَنى وتُخلِّصَنى ، فقال له الحجاج : لِمَهْ ؟ فقال : إنى أرى كل ليلة فى المنام أنك تقتلنى ، وقِتْلَةٌ واحدَةٌ خير ، فضَحِكَ وخَلّى سبيلهُ .

من يظهر الشجاعة خارج الحرب

ويجبن فيها

قالوا : فلانٌ يتثعلبُ فى الهيجاء ويتنمَّر فى الرخاء .

وقال دِعْبل :

أُسودٌ إذا ماكان يومُ كريهةٍ ولكنهم يوم اللقاءِ ثعالبُ

وقال :

عَيرٌ رأى أسدَ العرينِ فراعَهُ حتَّى إذا ولّى تولّى ينهَقُ

وقال آخر :

يَفِرُّ بحيثُ تختلِفُ العوالى وإن يأمَنْ فذو كِبْرٍ وتيهِ

عبقريات شتى

فى الشجاعة والحرب

قالوا : أحسن ماقيل فى وصف الحرب والمتحاربين قول الأول :

كأنَّ الأُفقَ محفوفٌ بنارٍ وتحتَ النارِ آسادٌ تَزيرُ (١)

ومما يتصل بذلك ماقيل فى ليالى صِفِّينَ :

الليلُ داجٍ والكِباشُ تَنْتَطِحْ نِطاحَ أُسْدٍ ما أَرَاها تَصْطَلِحْ

فمَن يُقاتِلْ فى وغاها مانجا ومن نجا برأسه فقد رَبِحْ (٢)

---

(١) تصيح غضباً. وأصله مهموز من زأرالاسد يزير وبزأر : صاح وغضب

(٢) فى أمثال الميدانى : قال أبو عبيد : وهذا الشعر أراه قيل فى ليالى صفين ثم

وكان يزيدُ بن عُمَرَ بن هُبَيرة والى العَراقين من قِبَل بنى أُمَيَّة لا يُمِدُّ نصرَ بنَ سيَّارٍ والىَ خُراسان من قِبَلِه بالرِّجال، ولا يَرْفَع ما يَرِدُ عليه من أخبار خُراسانَ إلى مَرْوان بن محمد آخر الدولة الأموية، فلما كَثُر ذلك على نَصر كتب إليه كتاباً وفيه هذه الأبيات :

أري خَلَلَ الرَّمادِ وميضَ جَمْرٍ ويُوشِكُ أن يكونَ له ضِرَامُ (١)

فإنَّ النارَ بالعُودَينِ تُذْكَى وإنَّ الحرب أولها الكلامُ (٢)

فإن لم يُطفِها عُقَلاءُ قومٍ يكون وَقُودَها جُثَثٌ وهامُ

فقُلتُ مِنَ التَّعجُّبِ ليتَ شِعرى أأيقاظٌ أُمَيَّةُ أم نِيامُ

« قوله : وإنَّ الحرب أولها الكلام نَحْوُهُ قول بَعضِهم : إنَّ الفِتْنَة تُلقَحُ بالنَّجوَى وتُنتَجُ بالشكوى ... »

ومما قيل فى كثرة الجيش من قديم الشعر قول الأخنس بن شهاب التَّغلِبي وهو ممن حضر حرب البسوس :

بِجأوَاءَ يَنْفِي وِرْدُها سرَعانَها كأنَّ وميضَ البرْقِ فيها كواكِبُ

« الجأواء : الكتيبَةُ يضرِبُ لونُها إلى الكُلْفَةِ — اللونُ الكدِر — وذلك من صدأِ الحديد، والسَّرْعان : الأوائل ، يقول : إن المياهَ لا تسَعُهم والأماكن تضيق بهم فكلما نزلت فرقة منهم رَحل من تقدَّمهم »

وقولُ أوْسِ بن حجر :

قال : وقوله ٭ ومن نجا برأسه فقد ربح ٭

هو مثل يضرب فى ابطاء الحاجة وتعذرها حتى يرضى صاحبها بالسلامة منها .

(١) خلل الرماد : خلاله

(٢) تذكى : تلهب وتضرم

ترى الأرضَ منّا بالفضاءِ مَريضَةً
مُعَضَّلَةً منّا بجمعٍ عَرَمْرَمِ

« عَضَلَتِ الأرضُ بأهلها : إذا ضاقت بهم لكثرتهم ! وعضَّلَت المرأة بولدها تعضيلا : إذا نَشِبَ الولد فخرج بعضُه ولم يخْرُجْ بعضٌ فبقىَ مُعْتَرِضاً »

وقال أبو نُواس :

أمامَ خَمِيسٍ أُرْجُوانٍ كأنَّه قميصٌ مُحُوكٌ من قناً وجِيادِ

« الأُدْجوان : الأسود ، واشتقاقه من الدُّجى ، ويُروى : أُرْجُوانٍ ، وهو : الأحمر » .

وقال ابن الرُّومى :

فلو حصبتهم بالفضاءِ سَحابةٌ لظَلَّ عليهم حَصْبُها يتدَحْرَجُ

وهو من قول قيس بن الخطيم :

لو انَّك تُلقِى حَنْظَلًا فوق بَيْضِنا تَدَحْرَجَ عن ذى سامِهِ المُتَقارِبِ

« البيض جمع بَيضة : الخوذة ، سميت بذلك لأنها على شكل بيضة النعام ، والحنظل ثمر يشبه البطيخ لكنه أصغر منه جداً ويضرب المثل بمرارته ، وقوله : عن ذى سامه ، أى على ذى سامه ، فمن فيه بمعنى على والهاء فى سامه يرجع إلى البيض المُمَوَّه به ، أى البيض المُمَوَّه بالسام ، والسام : عروق الذهب والفضة ، وهو هنا الطرائق المُذهبة فى البيض ، قال الإمام ثعلب : معناه : أنهم تراصُّوا فى الحرب حتى لو وقع حنظل على رؤسهم على إملاسه واستواء أجزائه لم ينزل إلى الأرض »

وقال أبو عمرو بن العلاء : أحسن ماقيل فى صفةِ الجيش قولُ النابغة :

إنى لأخْشَى عليكم أنْ يكونَ لكم من أجْلِ بَغضائِكم يومٌ كأيامِ

أو تَزْجُروا مُكْفَهِرًّا لا كِفاءَ له كالليل يَخْلِطُ أصراماً بأصرامِ

تبْدُو كواكِبُه والشمسُ طالِعةٌ نُوراً بنورٍ وإظلاماً بإظلامِ

« أو تزجروا عطف على ماقبله ، والمكفهر : الجيش العظيم ، ولا كِفاءَ له : لانظير له ، ويخلط أصراماً بأصرام إما جعلته صفة لليل والأصرام جمع صريم وهو الليل المظلم فيكون المعنى يخلط مُظلماً بمظلم ، وإما جعلته صفة للجيش فيكون المعنى : يخلط كلّ حى بقبيلته خوفا من الإغارة عليه ، وقوله : تبدو كواكبه ... البيت يريد : شدة الهول والكرب ، وهذا كما تقول العامة : أريته النجوم وَسْط النهار .

قال الفرزدق : ☆ أريكَ نجومَ الليل والشمس حيَّةٌ ☆

وقال طَرَفة : ☆ وتُرِيكَ النَّجمَ يجرى بالظُّهُرْ ☆

وفى هذا المعنى يقول جرير :

والشمسُ طالعةٌ ليست بكاسِفةٍ تَبْكى عليك نجُومَ الليلِ والقَمَرا

يقول : إنّ الشمس طالعة وليست بكاسفة نجوم الليل ، لشدة الغمّ والكرب الذى فيه الناس ، فنجومَ مفعول كاسفة »

قالوا : وأحسن من قول النابغة قول زيد الخيل :

بنى عامرٍ هل تَعرفون إذا غدا أبو مِكْنَف قد شَدَّ عَقْدَ الدَّوابِرِ

بِجَيْشٍ تَضِلُّ البُلْقُ فى حَجَراتِه ترى الأُكْمَ منه سُجَّداً للحوافِرِ

وجمعٍ كمثْلِ الليل مُرْتَجِس الوَغَى كثيرٍ تواليه سريع البوادِرِ

« قوله : قد شَدَّ عقد الدوابر أراد : شدَّ دَوابرَ البَيْضة — أى مآخيرها — بالدّرع لئلا تسقط إذا رَكض الفارس : وقوله : تضلُّ البلق فى حَجراته فحجراته : نواحيه جمع حَجْرة يقول لكثرته لا يُرى به الأبلق

والأبلق مشهورُ المنظر لاختلاف لونَيه — السواد والبياض — وكان رؤساء العرب لايركبون البُلقَ فى الحرب لئلا تَنِمَّ عليهم فيُقْصَدوا بشرّ ، وقوله : ترى الأكم منه سجّداً للحوافِر يقول : لكثرة الجيش يَطحَنُ الأكم حتى يُلصِقَها بالأرض : ٭ يَدَعُ الأكامَ كأنهنَّ صحارى ٭

وقوله : كمثل الليل يريد : ظلمةً يكادُ سوادُه لكثرتِه يَسُدُّ الأفق ، والوَغى : الأصوات ، والارتجاس : صوت الشيء المختلط العظيم كالجيش والرعد ، والتوالى : اللواحق »

ومن بارع ماقيل فى الكيد فى الحرب قولُ أبى تمام :

هَزَزْتَ له سيفاً من الكيد إنما ... تُجَذُّ به الأعناقُ مالم يُجَرَّدِ
يُسُرُّ الذى يَسْطُو به وهْوَ مُغْمَدٌ ... ويَفْضَحُ من يَسطو به غيرَ مُغْمَدِ

« يقول : إنْ أخفَيْتَ الكيدَ ظَفِرْت وسُرِرت ، وإن أظهرته افتضحت وخبت »

وقال يصف أفاعيلَ رُمحِ الممدوحِ فى أعدائه :

أنْهَبْتَ أرْواحه الأرماحَ إذ شُرِعَت ... فما تُرَدُّ لرَيب الدَّهرِ عنه يَدُ [(١)]
كأنها وهى فى الأوداجِ والِغَةٌ ... وفى الكُلَى تجِد الغَيظ الذى تجدُ
من كلِّ أزْرَقَ نَظّارٍ بلا نظرٍ ... إلى المَقاتل ما فى مَتْنِه أوَدُ [(٢)]
كأنه كان خِدْنَ الحُبِّ مُذْ زَمَنٍ ... فليس يُعْجِزُه قلبٌ ولا كَبِدُ

(١) أرواحه : أرواح بابك الخرمى ومن معه ، وقوله فما ترد البيت يقول : إن الخرمى بعد هذه الوقعة وما نزل به من أفاعيلك ستتوالى عليه نوب الدهر فلا ترد يد لريب الدهر عنه (٢) أود : اعوجاج

ماغزى قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلُّوا

ومن خُطْبة لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه وقد انتهى إليه :[١]
أنّ خيلا لمُعاوية[٢] وَرَدَت الأنبار فقتَلوا عامِلا له يُسمَّى حسّانَ بن حسان ، فخرج مُغْضَباً يجُرّ ثوبَهُ حتى أتى النُّخيلة[٣] ، واتّبعه الناس فرقِىَ رَبارة من الأرض[٤] فحَمِد الله وأثنَى عليه وصلى على نبيِّه صلى الله عليه وسلم ثم قال : «أما بعد ، فإن الجها بابٌ من أبواب الجنة ، فمن تركه رَغْبةً عنه ألْبَسه اللهُ الذُّلّ ، وسِيمَ الخَسْفَ ، ودُيِّثَ بالصَّغار ، وقد دعوتُكم إلى حَرْبِ هؤلاء القوم ليلا ونهاراً وسِرًّا وإعلانا وقلتُ لكم : آغزوهم من قبل أن يغزُوكم فوالذى نفسِى بيده : ماغُزِىَ قومٌ قَطُّ فى عُقْر دارهم إلا ذلُّوا ، فتَخاذلْتم وتواكَلْتم وثقُلَ عليكم قولى واتخذتموه وراءكم ظِهرِيًّا ، حتى شُنَّتْ عليكم الغارات ، هذا أخو غامِدٍ قد ورَدَت خَيْلُه الأنبارَ وقَتلوا حسان بن حسان ورجالا منهم كثيرا ونِساءً ، والذى نفسى بيده : لقد بَلَغنى أنه كان يُدْخَل على المرأةِ المسلمة والمعاهَدَة[٥] فتُنْتزَعُ أحجالُهُما ورُعثُهما ثم آنصرفوا

(١) أنهاه إليه عاج من الأنبار ، وكان علىّ يومئذ بالكوفة وقد تفرقت أصحابه عنه بعد حرب صفين وحكومة الحكمين (٢) يروى أنه وجه سفيان بن عوف ابن المغفل الغامدى فى ستة آلاف وأمره أن ينحدر إلى « هيت » ثم إلى « الانبار » فيوقع بأهلها فقتل من أصحاب علىّ حسان عامله عليها وثلاثين رجلا واحتمل مافيها من الأموال ؛ وهيت — بكسر الهاء — بلد على شاطئ الفرات ، والأنبار : مدينة بالعراق كذلك على شاطئ الفرات غربى بغداد بينهما عشرة فراسخ

(٣) اسم موضع خارج الكوفة (٤) اسم لكل مرتفع من الأرض كالربوة

(٥) المرأة الذمية ذات العهد

موقُورين لم يُكَلَّمْ منهم أحد كَلْماً ، فلو أنّ امرَأً مُسْلِماً مات من دون هذا أسفاً ما كان فيه مَلوماً بل كان به عندى جديرا . ياعجبا كلّ العجب ، عجبٌ يُميت القلبَ ويَشْغَلُ الفهمَ ويُكثِر الأحزان ، من تضافُرِ هؤلاء القوم على باطِلِهم وفَشَلِكم عن حقِّكم حتى صبحتم غَرَضاً تُرمَون ولا تَرمُون ، ويُغارُ عليكم ولا تُغيرون ، ويُعصَى اللهُ عز وجلّ فيكم ولا ترضَون ، إذا قلتُ لكم : اغزوهم فى الشتاء قلتم : هذا أوانُ قُرٍّ وصِرٍّ ، وإن قلت لكم : اغزوهُم فى الصيف قلتم : هذه حَمارَّةُ القَيظ أنظِرْنا يَنصرِمُ الحرُّ عنا ، فإذا كنتم من الحر والبرد تفِرُّون فأنتم والله من السّيف أفرّ ؛ ياأشباهَ الرجال ولا رجال ، وياطَغامَ الأحلام ، وياعُقولَ ربّاتِ الحِجال ، والله لقد أفسَدْتُم علىّ رأيِى بالعِصيان ، ولقد ملأْتم جوفى غيظاً ، حتى قالت قريش : ابنُ أبى طالب رجل شُجاعٌ ولكن لارأىَ له فى الحرب ! لله دَرُّهم ، ومَن ذا يكونُ أعلَمَ بها مِنّى أو أشدَّ لها مِراساً ! فوالله لقد نَهضْتُ فيها وما بلَغتُ العِشرين . ولقد نَيَّفْتُ اليوم على السّتين ولكن لارأىَ لمن لا يُطاع ... » وإليك شرح بعض ألفاظ هذه الخطبة الخالدة ، قوله : وسيمَ الخسف معناه : كُلِّفَ وأُلزِم وجُشِّمَ قال تعالى : يَسُومُونَكم سُوءَ العذاب . أى يُجَشِّمُونكم أشدَّ العذاب ، فسيمَ : كُلِّف وأُلزم ، والخسف : الذل والهوان ، وأصله أن تُحبَسَ الدّابّة على غير عَلَف ثم استعير فوضعَ موضِعَ الهوان : ودُيثَ : ذُلِّلَ . ومنه اشتقاق الدّيّوث وهو : الرجل الذى لاغَيرةَ له . وقوله : فى عُقْرِ دارهم : أى فى أصل دارهم ، والعُقْر : أصل كلّ شىء ومن ثم قيل . لفلان عَقَارٌ : أى أصلُ مالٍ يَعتمد عليه من منزل وضَيعةٍ ونخيل ونحو ذلك . وقوله : وتواكلتم يقال : وكَلْتُ

الأمر إليك ووكَلْته أنت إلىّ : أى لم يَتوَلَّهُ واحد منا دون صاحبه ولكن أحالَ به كلٌّ واحد منا على الآخر : وقوله : واتخذتموه وراءكم ظِهريًّا : أى رَمَيتم به وراءَ ظهوركم ، أى لم تلتفتُوا إليه ، ويقال فى المثل : لاتجعل حاجتى منك بِظَهر : أى لا تَطرَحها غيرَ ناظرٍ إليها ، وقوله : حتى شُنَّت عليكم الغارات : أى صُبَّتْ وبُثَّت عليهم من كلٍّ وجهٍ . وقوله : فتنتزع أحجالُهما يعنى : الخلاخيل واحدها حِجل . والرُّعثُ : جمع رعاث جمع رَعْثة والرَّعثة : الشَّنْف أى القُرْط الذى يوضع فى الأُذن ؛ وقوله : وانصرفوا موفورين أى : لم يُرْزَؤا ، أى لم يُصابوا ولم يُنَلْ أحَدٌ منهم فى بدنه ولا ماله . ولم يُكلَمْ أحد منهم أى لم يُخدَشْ أحد منهم خدْشاً . وكلُّ جُرحٍ صغُرَ أو كبُر فهو كلم . وقوله : مات من دون هذا أسفاً يريد : تحسُّراً . وقوله : من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم أى : من تعاونهم وتظاهِرهم . ويقال : فَشِلَ فلان عن كذا : إذا هابَهُ جُبْناً وفزعا فأحجَمَ عنه وامتنع من المُضِىِّ فيه . والقُرّ — بضم القاف — البَرد أما القَرّ — بالفتح — فهو اليوم البارد . والصِّرّ — بكسر الصاد — شدة البرد قال تعالى : كمثل ريحٍ فيها صِرٌّ . والقيظ : الصيف، وحَمارّته : اشتداد حَرّه واحتدامُه . والطَّغام : من لاعقل له ولا معرفة عنده . وقوله : وياعقول رَبّات الحجال : فالحجال جمع الحَجَلة وهى كالقُبّة وبيت للعروس يُزَيَّن بالثياب والسُّتور ، ينْسُبهم إلى ضَعفِ النساء »

✿ ✿ ✿

ومن رائع الشِّعر القديم فى باب الحثِّ على الإقدام والذَّود عن الذِّمار ووَصْفِ الأبطال والمتخاذلين المتباطئين قول شاعر من بنى العنبر اسمه

قُرَيْط بنُ أُنيف — شاعر إسلامى — وكان ناسٌ من بنى شَيبان قد أغاروا عليه فأخذوا له ثلاثين بعيرا فاستَنْجَد قومَه فلم يُنْجِدوه فأتى مازِنَ تميم فركب معه نَفرٌ فأطْرَدوا لبنى شيبان مائة بعير فدفعوها إليه فقال هذه الأبيات التى افتتح بها أبو تمّام حماسته :

لو كنتُ من مازِنٍ لم تَسْتَبِحْ إبِلِى ... بنو الشَّقيقة من ذُهْلِ بنِ شَيبانا
إذاً لَقامَ بنَصْرى مَعْشَرٌ خُشُنٌ ... عند الحَفِيظةِ إنْ ذُو لُوثةٍ لانَا
قومٌ إذا الشَّرُّ أبْدَى ناجِذَيه لهم ... طارُوا إليه زَرافاتٍ ووحْدانا
لا يَسألون أخاهم حينَ يَنْدُبُهم ... فى النائباتِ على ماقال بُرهانَا
لكنَّ قومى وإن كانوا ذَوِى عَدَد ... ليسُوا من الشَّرّ فى شىءٍ وإنْ هانا
يَجْزُون من ظُلْمِ أهلِ الظُّلمِ مغفرَةً ... ومن إساءَةِ أهلِ السوءِ إحسانا
كأنّ ربّك لم يَخْلُقْ لخَشْيتِه ... سِواهُم من جميع الناس إنْسانَا
فلَيْتَ لى بهِمْ قوما إذا رَكِبوا ... شَنُّوا الإغارة فُرسانًا ورُكبانا

« بنو الشقيقة هى الرواية الصحيحة وإن كانت رواية شراح الحماسة : بنو اللقيطة ، والشقيقة : امرأة من بنى ذهل بن شيبان ، وبنوها كانوا سيّارةً مَرَدةً ليس يأتون على شىء إلا أفسدوه ، وأما اللقيطة فهى امرأة من فزارة ، هكذا زعم أبو محمد الأعرابىّ . والاستباحة : فى معنى الإباحة وهى شِبْه النَّهْب ، استباحَهُ : انتهبه حتى لكأنه مباحٌ لا تَبِعةَ عليه فيه ، وخُشُن جمع أخْشَن وهو من صفات الرِّجال مَثَلٌ يُراد به امْتِناع الجانب وإباءُ الضَّيم . ورجلٌ ذو لُوثة : بطىء مُتَمكّث ذو ضَعْف واسترخاء ، يقول : لولم أكُنْ من بنى العنبر وكنت من بنى مازن ثم نالنى من بنى الشقيقة مانالنى من استِباحَتِهم إبِلِى لكان لى منهم مَن يَنْصُرُنى عليهم ويأخذ بحقّى انْتِصاراً منهم

إذا لَانَ ذو الضَّعف والوَهْن فلم يَدْفع ضيما ولم يَحْمِ حقيقة ، ومُراد الشاعر تهييج قومه على الانتقام له من أعدائه لا إلى ذمّهم ، والحفيظة : الغضب والحميّة والمنع للشىء الذى ينبغى أن يحافظ عليه . وقوله : قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم فإبداءُ الشرّ نَواجِذَه مثلٌ لشِدّته وصَولته ، وذلك أن السَّبُعَ إذا صالَ أو شدَّ كَشَرَ عن أنيابه ، فشَبَّه الشَّرّ به فى حال شِدَّتِه ، وطاروا إليه يريد : أسرَعوا إليه ، ووُحدانا جمع واحد كراكب ورُكبان ، والزَّرافات : الجماعات ، يقول فى هذا البيت . إنهم لِحِرصِهم على القتال وحُبهم إياه لاينتظر بعضهم بعضا ، لأن كُلاًّ منهم يعتَقد أنّ الإجابة تعَيَّنَت عليه ، فإذا سَمِعوا بذِكْر الحرب أسْرَعوا إليها مُجْتمعين ومُتفرِّقين؛ ومثله قول حُمَيد بن ثور الهلالى الصحابى :

قومٌ إذا هَتَف الصَّريخُ رأيتَهُم مابينَ مُلْجِمِ مُهْرِه أو سافِعِ[1]

وقوله : لا يسألون أخاهم ... ألبيت يقول : إذا دُعوا إلى الحرب أسرعوا إليها غيرَ سائلين مَن دَعاهم لها ، ولا باحثين عن سَبَبها ، لأن الجبانَ رُبّما تعلل بذلك فتباطأ عن الحرب . ونحوه قول سلامة بنِ جندل :

إنّا إذا ماأتانا صارِخٌ فَزِعٌ كان الصراخَ له قَرْعُ الظنابيبِ

« يقول سلامة : إذا دعانا إلى إعانَتِه أجَبْناه إليها مُجِدِّين ، والظُّنوب : عَظْمُ الساق ، يقال : قرَع لهذا الأمر ظُنْبُوبه : إذا جَدَّ فيه »

(١) هتف : صاح ويروى نقع : أى ارتفع والصريخ : الصياح أو بمعنى الصارخ ويروى إذا سمعوا الصريخ . وسافع : آخذ بناصية فرسه ، من قوله تعالى : لنسفعاً بالناصية ، يقول : هم قوم إذا ارتفع الصياح للحرب أسرعوا إليه فتراهم دائرين بين ملجم مهره وقابض بناصية مهره يجذبه إليه بسرعة .

وقوله : لكنَّ قومى وإن كانوا ذَوِى عدد ... ألبيت وصف قومَه بأنهم يُؤْثِرون السلامة والعَفْو عن الجُناة ماوَجدوا إلى ذلك سبيلا ، ولو أرادوا الانتقام لقَدَرُوا بعَددهم وعُدَدهم . هـذا إذا كان الشاعر لايريد كما قلنـا هِجاء قومِه وإنما يُريد حَثَّهم على الانتقام ، أما إذا كان يريد ذمَّهم فإنه يَهجُوهم ويُعَيِّرهم بالجُبْن فى هذا البيت . وقوله : كأنّ ربك ... البيت تهكمٌ منه وسُخْرِية . ومعنى قوله : فُرساناً ورُكبانا : أنهم كانوا يقاتلون على الخيل والإبل ، ومِن ذا قولُ عمر بن الخطاب لسعد بن أبى وَقّاص فى حرب القادسية : أخبِرْنى : أىُّ فارس كان أشجعَ ؟ وأىُّ راكب كان أشدَّ غَناءً ؟ وأى راجِلٍ كان أصبر ؟ فذكرَهم له ومَيَّزهم » .

* * *

ومن طريف أبيات الحماسة التى أوردها أبو تمّام فى حماسته والمبرِّد فى الكامل أبياتٌ قال المبرِّد : إنها لأعرابىّ من بنى سعد [1] ونسبها أبو تمّام إلى الهُذْلول بن كعب العنبرى — وكلاهما شاعر جاهـلى — وكان هذا القائل مُمْلَكا — أى عُقِدَ له على امرأة ولم يَبْتَنِ بها — فنزل به أضيافٌ فقامَ إلى الرَّحى فطحنَ لهم ، فمرّتْ به زَوْجَتُهُ فى نِسـوَةٍ ، فقالت لهُنَّ : أهذا بَعْلى ؟ فأُعْلِمَ بذلك فقال :

تقول : وصَكّتْ نحرَها بيمينها : أبعْلِيَ هـذا بالرّحى المُتقاعِسُ ؟
فقلتُ لها : لا تعجَلى وتَبيَّنى فَعالى إذا التَفّتْ علىَّ الفَوارسُ
ألسْتُ أرُدُّ القِرْنَ يَرْكَبُ رَدْعَهُ وفيه سِنانٌ ذو غِرارَيْنِ نائسُ

(١) قال ابن برى : هو نعيم بن الحارث بن يزيد السعدى

وأحْتَملُ الأَوْقَ الثَّقِيلَ وأَمْتَرِى
خُلُوفَ المنايا حينَ فرّ المُغامِسُ

وأُقْرِى الهُمُومَ الطارِقاتِ حَزَامَةً
إذا كَثُرَتْ للطّارِقاتِ الوساوِسُ

إذا خامَ أَقْوَامٌ تَقَحَّمْتُ غَمْرَةً
يَهابُ حُمَيَّاها الأَلَدُّ المُدَاعِسُ

لعَمْرُ أبيكِ الخيْرِ إنى لخادِمٌ
لِضَيْفِى وإنى إنْ رَكِبْتُ لفارِسُ

وإنى لأَشْرِى الحمْدَ أبْغِى رَبَاحَهُ
وأتْرُكُ قِرْنِى وهْوَ خَزْيانُ ناعِسُ

« القَعَس : دخولُ الظهْر وخُروجُ الصدْر ، وهو نقيضُ الحدَب ، وقول المرأة : أبعْلِىَ هذا ؟ إشارة تحقير ، تعْجَبُ ممَّا رأت ، وقوله : بالرحى المتقاعس فإن « بالرحى » تبْيِينٌ ومعنَى ذلك أن كلمة « المتقاعس » تدلُّ على أن هناك تقاعُساً ولما قال بالرّحى دَلّ ذلك على أن التقاعس حدَث بالرّحى ، ولم يُرد أن يُعمِلَ المُتقاعِسَ فى قوله بالرّحى لأن ذلك على ما قال النحاة ممنوع ، لأن ألْ فى المتقاعس اسم موصول كالذى وبالرحى صلة ولا يجوز أن تتقدم الصلة على الموصول . وقوله : ألست أرُدّ القرن يركب رَدْعه ، فالقرن : مَن يقاوِمُكَ فى قتال ، وقوله : يركبُ رَدْعَهُ ، قيل : الرَّدع ههنا : الدم على سبيل التشبيه بِرَدْع الزعفران ، ومعنى ركوبه دَمَه : أنَّهُ جُرِح فسالَ دَمُه فسقط فوقَهُ مُتَشِحاً به ، وقيل : الرَّدْع : العُنق أي سقَطَ على رأسِه فانْدَقَّتْ عُنُقه ، وقيل معناه : صُرع منكوساً رأسه

أسْفَله ، مِن ارْتَدَع السهْمُ : إذا رجع النصْلُ مُتأَخِّراً فى السِّنْخ . وذو غِرَارَيْنِ : ذو حدَّين ، وناِئس : مضطرب ، من ناَس ينوس : إذا تحرك واضطرب ، وتُرْوى : يابسُ ومعناه : صُلْبٌ ذكرٌ لا تأنيث فيه . والأوْق : الثِّقَلُ وقد آقَ عليه يؤُقُ : مالَ بثِقَلِه ، ووصفه بالثقيل مبالغة . والخُلوف جمع خِلف — بالكسر — وهو فى الأصل : ضرع الناقة ، وامْتِراؤه : استخراج ما فيه من اللبن . يريد : أنه يستخرج خبيئاتِ المنايا بأفاعيله المُدْهِشة وقد جدَّ الخَطْبُ واشتدت الحرب ، والمُغامس : الذى ينغمس فى لُجَّة الحرب لا يبالى أصاب أم أُصيب ، وقوله : وأقرى الهموم الطارقات حزامة ... البيت يقول : أحزمُ عندها إذا اشتدت وكثرت أحاديث النفس بها . وخام : جَبُنَ ونَكَصَ يقال : خامَ عن القتال يخيمُ خَيْماً وخيمانا : جَبُن . والحيا : صَدْمة الشرِّ ، والألَدُّ فى الأصل : الشديد الخصومة الذى يحيد عن الحق ، والمراد هنا الذى لا ينثنى عن الحرب . والمداعس : المطاعِن يقال : دعَسَه بالرمح : إذا طعنه . والرَّباح مصدر كالربح وقوله : وأترك قِرنى الخ يقول : أُهينُه فأكسِرُه حتى يبقى مطرقا مُتَنَدِّماً كمن غلبه النعاس ، وقيل معنى ناعِس : مُشرف على الموت يقال طعنتُ صاحبى فأنمْتُه : أى قتلته . »

* * *

وقالت ليلى الأخيَلِيَّة وهى من أبيات الحماسة :

لا تَغْزُوَنَّ الدهْرَ آل مُطَرِّفٍ ... لا ظالماً أبداً ولا مظلوما

قومٌ رِباُط الخيلَ وَسْطَ بيوتِهم ... وأسِنَّةٌ زُرْقٌ تُخالُ نجوما

ومُخَرَّق عنه القميصُ تَخالهُ ... وسْطَ البُيوتِ منَ الحياءِ سَقِيما

حتى إذا رُفِعَ اللّواءُ رَأَيْتَهُ تحْتَ اللّوَاءِ على الخميس زعيما

« قولها : لا تغزُون يروى لا تَقْرَبَنَّ وقولها : لا ظالماً أبداً ولا مظلوما تريد : لا مُبْتدِئاً لهم بالحرب من غير أن يحاربوك ولا مُنْتَقِماً منهم إن حاربوك ، لأنهم أُولوا بأس شديد لا يطاقون على أى حال ، ويروى :

* لا ظالماً فيهم ولا مظلوما *

قال البكرى شارح الأمالى : وهذه الرِّواية هى الجيِّدة لوجهين أحدهما : أنها أفادت معْنًى حسناً ، لأنه قد يكون ظالماً أو مظلوما من غيرهم فيَسْتَجِيرُ بهم لردّ ظُلامَتِهِ ، أو لاستِدْفاع مكروه عقوبتِهِ فلا بُدَّ لهم من إجارَته ، والوجه الثانى أن قوله : لا تقْرَبَنَّ الدهر قد أغنى عن قوله : أبداً ، فصار حشْواً لا يُفيد معنًى ، وقولها : قومٌ رِباطُ الخيل ... البيت تقول : إنهم أصحابُ خيل ورماح مستعدون أبداً لِدفع الأعداء والذود عن حِياضهم ، وأسِنَّة زُرق : صافيةٌ لامِعَةٌ كأنها نجوم فى الصفاء واللمعان ، وقولها : ومُخَرَّق عنه القميص فيه قولان : أحدُهما : أن ذلك إشارةٌ إلى جَذْبِ العُفاةِ لهُ ، والثانى : أنهُ يُؤْثِرُ بجيدِ ثيابه فيكْسُوها ويكتفى بمَعَاوِزِها — أى الثياب الباليَةِ منها لأنها ثياب المُعْوِزين — وقولها : تخاله من الحياء سقيما تريد أنه لإمعانه فى الكرم والسخاء تظنه سقيما من الحياء خَشْيَةَ أن لا يكون قد بلغ من إكرام الضيف ما ينبغى ، تمدحه بالجود كما تمدحه بالشجاعة . والخميس : الجيش ، والزعيم : الكفيل والرئيس . »

وقال بعضُ بنى مازِن :

وقد علموا بِأن الحربَ ليست لأصحابِ المَجامِرِ والخَلُوقِ
ضرَبْناكم على الإسلامِ حتى أقمْناكم على وَضَحِ الطريق

« المجامر : المباخر ، أى التى توضع فيها النار والبَخُور لِيُتَبَخَّرَ بها ويُتطيّب : والخَلوق : طِيبٌ معروف يُتخذ من ألوانٍ شَتَّى من الطيب ، وقيل : الزعفران »

وقال أبو تمام فى مرثيته المشهورة لمحمد بن حميد الطوسى التى أولها :

كذا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ ولْيَفْدَحِ الأمْرُ
فليس لِعَيْنٍ لم يَفِضْ ماؤُها عُذر

قال :

فَتًى ماتَ بين الطعْنِ والضَّرْبِ مِيتَةً
تقوم مقام النصْرِ إذ فاتَهُ النَّصْرُ

وما مات حتى ماتَ مَضْرِبُ سَيْفِهِ
من الضربِ ، واعْتَلَّتْ عليه القَنا السُّمْرُ

وقد كان فوتُ الموتِ سهلا فرَدَّهُ
إليه الحِفاظُ المُرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ

ونفسٌ تَعافُ العارَ حتَّى كأنما
هُوَ الكُفْرُ يومَ الرَّوْعِ أو دُونَهُ الكُفْرُ

فأثبَتَ فى مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلَهُ
وقال لها : من تحت أَخْمَصِكِ الحشْرُ

غدا غُدْوَةً والحمدُ نَسْجُ ردائِهِ — فلم يَنْصَرِف إلا وأكفانُه الأجْرُ
تَرَدَّى ثيابَ الموت حُمْراً فما دَجا — لها الليلُ إلا وهْىَ من سُنْدُسٍ خُضْرُ

« قوله : تقوم مقام النصر : لأنه قُتل قِتلةَ بطلٍ شجاع ، إذْ لمْ يُقْتَلْ حَتَّى تَثَلَّمَ حَدُّ سيفهِ مِن شِدَّة ما ضَرَبَ به وحتى تقَصَّفَتِ الرماح فى يديه

كما قال فى البيت التالى ، قال نقَدَة الشعر : إن أبا تمّام نظر فى هذا المعنى إلى قول عُروَة بن الورْد :

ومن يَكُ مِثلى ذا عِيالٍ ومُقْتِراً   مِن المالِ يطْرَحْ نفْسَهُ كلَّ مَطْرَحِ
لِيَبْلُغَ عُذراً أو يَنالَ رَغِيبَةً   ومُبْلِغُ نفْسٍ عُذْرَها مِثْلُ مُنْجِحِ

قالوا : إنّ عُروة جعل اجتهادَه فى طلب الرزق عُذراً يقوم مقام النجاح وأبو تمّام جعلَ الموتَ فى الحرب الذى هو أقصَى اجتهاد المجتهد فى لِقاء الأعداء قائماً مقام النصر . هذا ، ومضربُ السيف : حدُّه ، وقوله : واعتلت عليه القنا السُّمْرُ فمعنى اعتلال القنا أن العلة أصابتها فلم تستطع العملَ معه وتحقيقَ مطالبَ همته من الصُّمود للأعداء ، أو تقول : معنى اعتلالها : أنها تجنّتْ عليه الذنوب واتخذت ذلك ذريعة إلى العصيان والخلاف عليه ، وما ذنبُه عندها إلا كثرةُ تكاليفها الطعن لا يُريحها من ذلك ، والحِفاظ : الحَمِيَّةُ والغَضَبُ محافظة على الحُرمَة وكلّ ما يَجبُ على المرْء حمايته ، والخلق الوعر : الشديد الأنفة ، ولا يُمدَح به إلا فى العداوَة . قال المازنى :

تُعاتِبُنى فيما ترى من شراستى   وشِدَّةِ نفْسِى أُمُّ سَعْدٍ وما تدرى
فقلت لها : إن الكريمَ وإن حلا   ليُوجَدُ أحيانًا أمَرَّ من الصبر

« الروع هنا : الحربُ وفى الأصل : الخوف . وقوله : فأثبت فى مُسْتَنْقع الموتِ رجله ... ألبيت . جعلَ للموتِ مُستنقعا كمستنقع الماء ، وهو : مُجتمعُهُ فى بطن الوادى ، وأَخمِصُ القدم : مالا يُصيب الأرض من باطنها يقول : إنَّه لشجاعته قد صَمَد للموت فلا تتحول رِجْله إلى أن يموتَ حتى كأن الحشر — يوم يُحشر الناس إلى ربهم يوم القيامة — من

تحت أَخْمَصِه . وقوله : غدا غدوة ... ألبيت يقول : إنه عاش محموداً مشكوراً ومات مشوبا مأجوراً . وقوله : تردّى ثياب الموت ... ألبيت يقول : إنه ارتدى الثياب المُلَطَّخة بالدم فلم ينقضِ يوم قتله ولم يدخلُ فى ليلته إلا وقد صارت الثيابُ خُضْراً من سُنْدُسِ الجنة . قال علماء البيان : فى هذا البيت الطِّباق المسمى بالتَّدْبِيح ، وهو أن يَذكرَ الشاعرُ أو الناثرُ فى معنًى من المدح أو غيره ألواناً لقصدِ الكناية أو التورِيَة ، ويسمى تدبيجَ الكناية أيضاً ، فإنه هنا ذكر لون الحمرةِ والخُضْرَةِ والمراد من الأول الكنايةُ عن القتل ومِن الثانى الكناية عن دخول الجنة »

* * *

وقال البُحْتُرِىُّ :

مَعْشَرٌ أَمْسَكَتْ حُلومُهُمُ الأرْ ضَ وكادَت لولاهُمُ أنْ تميدا

فإذا الجَدْبُ جاء كانوا غيوثاً وإذا النَّقْعُ ثارَ ثارُوا أُسُودا

وكأنَّ الإلهَ قال لهمُ فى الـ حَرْبِ كونوا حِجارَةً أو حديدا

وقال مُسلم بن الوليد :

لو أنَّ قوماً يَخْلُقُونَ مَنِيَّةً مِن بأسِهِمْ كانوا بَنِى جِبريلا

قومٌ إذا حَمِىَ الوطِيسُ لديهِمُ جعلوا الجماجم للسُّيوفِ مَقيلا

وقيل للمُهَلَّب بن أبى صُفْرَة : إنك لَتُلْقِى نفسَك فى المهالِكِ ! فقال : إن لمْ آتِ الموتَ مُسترسلاً ، أتانى مُسْتَعْجِلاً ، إنى لستُ آتى الموتَ من حُبِّه ، وإنما آتيه من بُغضِه ، وتمثّل بقولِ الحُصَيْن بن الحمام :

تأخَّرْتُ أَسْتَبْقِى الحياةَ فلم أجِدْ لِنَفْسِى حياةً مثلَ أن أتقدَّما

وقد تقدم

وقال المتنبي :

شجاعٌ كأنَّ الحربَ عاشِقَةٌ له إذا زارها فدَّتْهُ بالخيل والرَّجْلِ

« المراد بالخيل : الفرسان ، والرجل جمع راجل يقول : هو شجاع يَقْتُل ولا يُقْتَل فكأن الحرب تعشقه فإذا زار الحرب استَبْقَته وأفنت مَن سِواه من الفرسان والرجال ، فكأنما جعلتهم فِداء له ».

وقال :

وكم رجالٍ بِلا أرضٍ لِكثرتهم تَرَكْتَ جَمعَهُم أرضاً بِلا رَجُلِ

مازال طِرْفُكَ يجرى فى دِمائِهِمُ حتى مَشى بك مَشْىَ الشارِبِ الثَّمِلِ

« قوله : وكم رجال ... البيت يقول : كم جمع الأعداءُ لك جموعا تغيبُ الأرضُ من كثرتهم وتخفى على الأبصار حتى كأنهم رجالٌ بلا أرض فقتلتهم وأفنيْتَهم حتى خليَتْ أرضهم فبقيت ولا رجل فيها ، وفى هذا البيت نظر من ناحية كثرة الجيش إلى قول أبى تمَّام فى صفة جيش :

مَلأَ المَلاَ عُصَباً فكاد بأن يُرَى لا خَلْفَ فيه ولا لهُ قُدَّامُ

وقوله : مازال طرفك ... البيت ، فالطرف : الفرس الكريم ، والثَّمِل السكران ، يقول مازلت تخوض دماءهم بفرسك حتى تعثَّر بالقتلى وأمالته دماؤهم عن سنن جَرْيه وأزْلَقَتْهُ حتى مشى بك مَشْىَ السكران »

وقال الشابُّ الظريف من قصيدة له يمدح بها ابن عبد الظاهر :

ومعْشَرٍ لم تزلْ للحرْبِ بِيضُهُمُ
حُمْرَ الخُدُودِ وما من شأنِها الخَجَلُ[1]

---

(١) البيض : السيوف ، وجعلها حمر الخدود لما يسيل فوقها من دماء الأعداء.

إذا انتضوها بروقًا صيرت سحبًا
يسيلُ من جانبيها عارض هطل (١)
يثني حديثُ الوغى أعطافهم طربًا
كأنّ ذكرَ المنايا بينهم غزلُ (٢)
كم نارِ حربٍ بهم شُبّتْ وهم سُحُبٌ
وأرضِ قومٍ بهم فاضت وهم شُعَلُ (٣)

وقال الشاعر أبو الفرج الببّغاء شاعر اليتيمة :

يسعى إلى الموتِ والقنا قِصَدٌ وخيلُهُ بالرؤوسِ تنتعلُ
كأنّهُ واثقٌ بأنّ لهُ عمراً مقيماً وماله أجلُ

« والقنا قِصَدٌ : أي قِطَعٌ ، والمفرد : قِصْدَة وهي : القطعة من الشيء إذا انكسر »

وقال آخر :

كأنّ سيوفهُ صيغتْ عقوداً تجولُ على الترائبِ والنحورِ
وسُمْرَ رماحِهِ جُعِلَتْ هُموما فما يَخْطُرْنَ إلا في ضَميرِ

ومن كلام علي بن أبي طالب : رُبَّ حياة سَبَبُها التّعرُّض للموت ، ورُبَّ مَنيّةٍ سببها طلبُ الحياة .

« وبعد » فإن عبقرياتهم في الشجاعة والتمدح بها لا تكاد تُحصى كثرةً ، وإن الناظرَ في الأدب العربي ولا سيما المنظوم منه يتحقق من أن الشجاعة

---

(١) انتضى السيف : استله من غمده ، والعارض السحاب والمراد هنا الدماء
(٢) الأعطاف جمع عطف وهو الجانب
(٣) وهم سحب أي في الكرم ، وهم شعل أي كالنار في استئصال أعدائهم .

والإشادة بها تكاد تكوّن أحدَ شَطْرَى ما يتمدحون به وينوّهون بفضله، أما الشطر الآخر فهو الجود والكرم، وبحسبك بهاتين الخلّتين، وإنهما دَعامتا سائر الفضائل، ولنجتزئ بهذا المقدار وإن كان قَطْراً من بحرٍ »

صدر من عبقرياتهم
فى وصف آلات الحرب

قال البُحتُرى يَصِف السيف :

يَتناولُ الرُّوحَ البعيدَ مَنالُهُ عفواً ، ويَفْتَح فى القَضاءِ المُقْفَلِ
ماضٍ وإنْ لم تُمْضِهِ يدُ فارسٍ بَطَلٍ ، ومَصْقولٌ وإنْ لم يُصْقَلِ
يَغْشَى الوَغَى فالتُّرْسُ ليس بجُنَّةٍ مِن حَدِّه والدِّرْعُ ليس بمَعْقِلِ
مُصْغٍ إلى حُكْمِ الرَّدَى ، فإذا مَضَى لم يَلْتَفِتْ ، وإذا قَضَى لم يَعْدِلِ
مُتَألِّقٌ يَفْرِى بأوّلِ ضَرْبةٍ ماأدرَكَتْ ولوَ انّها فى يَذْبُلِ
وإذا أصابَ فكلُّ شيءٍ مَقْتَلٌ وإذا أُصِيب فما له من مَقْتَلِ

وقال عبد الله بن المعتز يَصِفُه :

وَلِى صارمٌ فيه المَنايا كَوَامِنٌ فما يُنْتَضَى إلا لِسَفْكِ دِماءِ
ترى فوقَ مَتْنَيْه الفِرِنْدَ كأنه بَقِيّةُ غَيْمٍ رَقّ دونَ سَماءِ (١)

وقال ابن الرُّومى :

خيرُ ما ٱستعصَمْتَ به الكَفُّ عَضْبٌ ذَكَرٌ هَزُّه أَنِيثُ المَهَزِّ (٢)

---

(١) فرند السيف : وَشْيُه
(٢) الذكر من السيوف : الشديد الجيد الصارم ، وهزه أنيث المهز يريد : أنه لين منقاد مطواع مع شدته

ما تأمَّلْتَــه بعينِــكَ إلا أُرْعِدَتْ صَفْحتاهُ من غـيرِ هَزِّ
مِثْلُه أفزَعَ الشُّجاعَ إلى الدِّرْ عِ فغـالَى بهـا على كلِّ بَزِّ (١)
ما يُبـالِي أَصَمَّتْ شَفْـرتاهُ في مَحَزٍّ أم حادَتا عن مَحَزِّ

ولمـا صارَ الصَّمصامة سيفُ عمرو بن مَعْديكربَ إلى موسى الهادى أَذِنَ للشعراء أن يصِفوهُ ، فبَدأهُم ابن يامِينَ فقال :

حاز صَمْصامَةَ الزُّبَيْدِيِّ من دو نِ جميـعِ الأنامِ مُوسى الأمينُ
سَيفَ عَمْرٍو وكان فيما سَمِعنا خيرَ ماأُغْمِدَتْ عليـه الجُفونُ
أخضرَ المـتْنِ بين حَـدَّيْهِ نُورٌ من فِرِنْدٍ تمتَدُّ فيـــه العُيون
أوْقَدَتْ فوقَهُ الصواعِقُ ناراً ثم شابَتْ به الذُّعافَ القُيونُ (٢)
فإذا ماسَلَلْتَـــه بَهَرَ الشمـــسَ ضِياءً فلم تكَدْ تَستَبِينُ
يَستطيرُ الأبصارَ كالقَبَسِ المُشْــعَلِ ماتَستقِرُّ فيه العيونُ
وكأنَّ الفِرِنْدَ والرَّوْنَقَ الجا رِىَ في صَفحَتَيْه ماءٌ مَعِــينُ
وكأنَّ المنونَ نِيطَتْ إليـــه فهو من كلِّ جانِبَيْه مَنُونُ
ما يُبـالى مَنِ انتضاهُ لضَرْبٍ أشِمـــالٌ سَطَت به أم يمينُ

قال أبو هلال العسكرى : وقـد أُخِذ عليه فى هذه الأبيات تَشْبيهُه السيفَ بالشمس ثم بالقَبس ، لأنه قد حطَّهُ درجات ... (٣) »

ولمناسبة عمرو بن معديكرب وصَمْصامَته يُروَى أن عُمرَ بن الخطاب بعث إلى عمرو أن يَبْعَثَ إليه بسيفِه الصَّمصامة دذا ، فبَعث إليه به ، ولما

(١) يقول : إن هذا السيف يلجئ الشجاع إلى أن يتقيه بأجود الدروع ، والبز : السلاح يدخل فيه الدرع والمغفر والسيف (٢) الذعاف : السم الذى يقتل من ساعته ، والقيون جمع قين وهو الحداد وكل صانع (٣) القبس : الجذوة من النار

ضرَب به وجَده دون مابلَغه عنه ، فكتب إليه فى ذلك ، فأجابه يقول : إنما بَعثتُ إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أَبْعَثْ له بالساعدِ الذى يَضرِبُ به .

وسأله عمر يوماً عن السلاح فقال : ماتقول فى الرُّمح ؟ قال : أخوك ورُبَّما خانَك فانْقَصَف ؛ قال : فما تقولُ فى التُّرس ؟ قال : هو المِجَنُّ وعليه تدور الدّوائر ، قال : فالنَّبل ؟ قال : منايا تُخطِئُ وتُصيب ، قال : فما تقول فى الدّرع ؟ قال : مَثْقَلةٌ للراجل مَشْغَلةٌ للراكب ، وإنها لحِصْنٌ حصين ؛ قال : فما تقول فى السيف ؟ قال : هُنا لك قارَعَتْكَ أُمك عن الثُّكلِ[1] ؛ قال : بَل أُمُّكَ ! قال : بَل أُمُّك ياأمير المؤمنين ! فَعلاه أمير المؤمنين بالدِّرّة ، وقيـــل : بلْ قال له — لمّا قال عمر بل أُمُّك — قال : أُمِّى ياأميرَ المؤمنين « الحُمَّى أضرَعَتْنى لك » أراد : أن الإسلام قَيّدَنى ، ولو كنت فى الجاهلية لم تُكلمنى بهذا الكلام ، وهو مَثَلٌ تضرِبُه العرب إذا اضْطُرّت للخضوع » .

ومِثْلُ ذلك قول الأغر النهشلى لابنه لمّا بعثَهُ لحضور ماوقع بين قومه فقال : يابُنَىّ ، كُنْ يداً لأصحابك على مَن قاتلهم ، وإياك والسيف فإنه ظلُّ الموت ، واتَّق الرُّمح فإنه رِشاءُ المَنيّة ، ولا تَقْرَبِ النّهامَ فإنها رُسُلٌ تَعصِى وتُطيع ، قال : فبِمَ أُقاتل ؟ قال : بما قال الشاعر :

جَلاميدُ أملاءُ الأكُفِّ كأنها رُؤُس رجالٍ حُلِّقَتْ فى المَواسِم

---

(١) الثكل : الفقد ، ولعله يريد : أن يصف السيف بأنه أفتك أنواع الأسلحة وأروعها فسلك إلى ذلك سبيل الكناية فعبر بجملة لازمها يدل على مايريد أبلغ دلالة إذ يقول : هنا لك — أى إذا ذكر السيف أو تقارعت السيوف ، قارعته أمك ودافعته عن الثكل والهلاك إشفاقا عليه ، فإن الإشفاق أعظم مايكون على المنازل إذا كان السلاح السيف ، لأن ضرباته صائبة قاتلة

فعليك بها وألصقها بالأعقابِ والسُّوق . » قوله : جلاميد أملاءُ الأكف ... البيت هو أحد أبيات أوْرَدَها المبرد وهى :

تُغطِّى نُمَيْرٌ بالعمائمِ لُؤْمَها وكيف يُغطِّى اللُّؤمَ طَىُّ العمائمِ

فإنْ تَضربونا بالسِّياطِ فإننا ضَرَبْناكُمُ بالمُرهَفاتِ الصوارمِ

وإن تَحلِقوا مِنا الرُّؤسَ فإننا حَلقْنا رؤساً باللَّهـا والغلاصِمِ

وإنْ تمنعوا مِنا السلاحَ فعِندنا سِلاحٌ لنا لا يُشتَرى بالدَّراهمَ

جلاميدُ أمْلاءُ الأكُفِّ كأنها رُؤُسُ رجالٍ حُلِّقَتْ بالمواسم

« قوله : حلقنا رؤسا : يريد أزَلناها بالسيوف ، واللَّها بفتح اللام جمع لَهاة وهى لحمة مُشْرفة على عَكَدَة اللسان ، والغلاصم جمع الغلصمة وهى لحمة بين الرأس والعنق ، والجلاميد جمع جلمود وهو الحجر تأخذه بيدك وهو بيان لقوله سلاح لنا لايشترى بالدراهم »

وقال المعَرِّى :

كأنَّ أراقِمًا نفَثَتْ سِمامًا عليه فعادَ مُبْيَضًّا نحِيلا

ومَنْ تَعْلَقْ به حُمَةُ الأفاعِى يَعِشْ — إنْ فاتَه أَجلٌ — عَليلا

كأنَّ فِرِنْدَهُ واليومُ حَمْتٌ أفاض بصَفْحِه سَجْلاً سَجِيلا

تَرَدَّد ماؤه عُلْوًا وسُفْلاً وهَمَّ فما تَمَكَّنَ أنْ يَسِيلا

يَكادُ سَناهُ يُحْرِقُ مَنْ فَراهُ ويُغرِقُ مَنْ نجا منه كُلولا

« كأنَّ أراقما ... البيت يقول : كأنَّ الحَيّاتِ نفخت السموم على هذا السيف فصار أبيض ناحِلا ، وذلك أن السُّم مَوصوف بالبياض ، ومَن نَكَزَتْه الحيّةُ ونَفثت فيه سُمّها نَحلَ جِسمُه ، فجعل البياض فى السيف لونا للسم والنحافةَ فِعلَهُ ، وقوله : ومَن تعلق به : البيت لمّا وصف السيف

بالنُّحول لمـا نفَثتْ الأراقِمُ عليه سِمامَها حقَّقَ وجْهَ نحُوله ، وهو أن مَن خالطَهُ سُمُّ الأفاعى هلك فى غالِب الأمر ، وإنْ فاتَهُ الهلاكُ عاش عليـلا ، والعليـلِ نحيلُ الجسم لامَحالة ؛ وقوله : كأنّ فِرِندَه ... البيت فالفِرِند : جَوهرُ السيف وماؤه ، ويوم حَمْتٌ : شـديد الحرّ ، والسجْلُ : الدَّلْوُ ، إذا كان فيها ماء ، ولا يقال لها وهى فارغة : سَجل ولا ذَنوبَ ، والسَّجيل : الضخم العظيم ، يصفُ بياضَ السيف وبريقه ، أى كأن جوهَرَ السيف وقد صُبَّ بوجهه دلْوٌ من المـاء فى يومٍ شديد الحـرّ ، فهو أبيضُ براقٌ كأنه ماء ، وإنما ذَكر شدّة الحرّ لأنه إذا كان اليوم شديدَ الحر كانت الحاجة إلى المـاء أشدَّ ، أو لأن المـاء مع إشراقِ الشمس أشدُّ بريقا ولمعانًا . وقوله : ترَدّد ماؤه ... البيت لمـا شبّه فِرِنْدَ السيف بالمـاء وصَفه بأنّ المـاء كأنه يتردد فيه من أعلاه إلى أسفـله ومن أسفله إلى أعلاه ، ويَهُمُّ المـاء أن يسيـلَ من صفحتِه فلا يتمكّنُ من السيلان ، لأنه محصور فى أجزائه ، وقوله : يكاد سناه ... البيت فالسَّنا : الضَّوْء ، وفَرَاه : قطَعه ، وكَلّ السيف والرّمح يَكِلُّ كلولا : إذا نَبا عن العمل ، يقول : إن هـذا السيف جمعَ بين النار والمـاء فهو يُحرِقُ من قطَعه ويُغرِقُ بمـائه مَن كلَّ السيفُ عنه فنجا منه » .

وقال إسحاق بن خَلَف :

أَلـقَى بجانِب خَصره أمْضى من الأجل المُتاحِ
وكـأنما ذَرُّ الهبـا ءِ عليـه أنفاسُ الرِّياحِ

وقال النابغة :

تُطايرُ نِضاضًا بينهم كلّ قَونَسٍ ويَتْبَعُها منهم فَراشُ الحواجِبِ

تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ المُضاعَفَ نَسْجُه وتُوقِدُ بالصُّفّاح نارَ الحُباحِب

« نَضَضْتُ الشيءَ أنُضُّه نضًّا فهو مفضوض ونَضِيض : كسرتُهُ وفرَّقْتُه ، وفُضاضُه ونُضاضُه : ما تكسر منه وتفرق ، والقونس : مُقدَّم الرأس ، وقونسُ البَيْضة من السلاح : أعلاها ، والفراشُ : عظْمُ الحاجب ، أو قِشْرَةٌ تكون على العَظْمِ دون اللحم ، ويقال : ضربَهُ فأطارَ فَرَاش رأسه وذلك إذا طارت العِظام رِقاقاً من رأسه ، والسلوقى : الدرع المنسوبة إلى سَلوق ، وهى قرية باليمن تعرف بسَلَقْيَة وإليها تنسب أيضا الكلابُ السّلُوقية ، والصُّفاح جمع صُفّاحة وهى : كلُّ عريض من الحِجارة ونحوها ، والحُباحب : الشَّرَر الذى يسقُط من الزِّنادِ يقول فى البيت الثانى : إن هذه السيوف تَقُدُّ — تقطع — الدّرعَ التى ضوعف نَسْجُها والفارس والفرس وتَصلُ إلى الأرض فتَقْدَحُ النار بالصُّفاح » .

وقال البُحتُرى يصف الدّرع :

يَمْشُونَ فى زَرَدٍ كأنّ مُتونَها فى كلِّ مُعْتَرَكٍ مُتُون نِهَاءِ

بَيْضٌ تسيلُ على الكُماةِ فُضُولُها سَيْلَ السَّرابِ بقَفْرةٍ بَيْداءِ

وإذا الأسِنَّةُ خالطَتْها خِلْتَها فيها خَيالَ كواكِبٍ فى ماءِ

« نِهاء جمع نِهْى ، والنِّهْىُ : الغديرُ »

وقال عبدُ الله بنُ المعْتَز .

كم بَطلٍ بارَزَنى فى الوَغى عليه دِرعٌ خِلْتُها تَطرِدْ

كأنها ماءٌ عليه جَرى حتى إذا ماغابَ فيه جَمَدْ

وقال المتنبى :

تَرُدُّ عنه قَنا الفُرسانِ سابَغَةٌ صَوبُ الأسِنَّةِ فى أثنائها دِيَمُ

تخُطُّ فيها العَوالى ليس تَنْفُذُها كأن كلَّ سِنــانٍ فوقَها قلمُ

« يقول فى البيت الأول : تمنع الرّماحَ من النفوذ فى عَدُوٍّ الممدوح دِرْعٌ سابغة قد تلطخت بالدماء التى تسيل من الأسنّة عليها ، أو أن وقع الأسنة فى هـذه الدرع كديمة المطر تتابعا . ويقول فى البيت الثانى : إن الرماح تؤثر فى درعه ، أى تجرَحُها ، ولا تنفُذها إلى جسمه ، حتى كأن أسنّتَها أقلام تخُطُّ فى القِرطاس ولا تخرُقُه » . وقال المعَرّى :

إذا طُوِيَتْ فالقَعْب يَجمَعُ شملَها وإنْ نُثِلَتْ سالَتْ مَسِيلَ ثِمادِ

وما هى إلا رَوضةٌ سَدِكٌ بها ذُبابُ حُسَامٍ فى السّوابغ شادِ

على أنهـا أُمُّ الوَغَى وابنة اللّظَى وأختُ الظُّبِي فى كلّ يومِ جِلادِ

« القَعبُ : القَدَح الصغير ، ونَثَلَ الدّرعَ ينثلها : إذا ألقاها على نفسه وصَبَّها عليـه ، والثماد جمع ثمـد وهو : المـاء القليل . يقول : إذا طُوِيَت صَغُرَ حجمُها بالطىّ حتى يسَعَها القَعب . وإن لُبِسَت سالَتْ على البدن كالمـاء . وقوله : وما هى إلا روضة ... البيت ، فسدك بالشيء : لَزِمه ، وشدا يَشدُو فهو شاد : إذا رَفَع صوته بالغناء ، شَبَّه هـذه الدّرع بالرّوْضة ، والذُّبابُ يجتمع فى الرياض ويُصوّت فيها ، يقول : إنّ هذه الدِّرعَ روضَةٌ قد أولع بها ذُباب السيف ، وهو : حدُّه الذى يتغَنَّى فى الدّرع ، أى أنهـا دِرْع لاتزالُ على بَطلٍ محارب تَرِدُها سُيوف الأقران وتقارِعُها فيُسمَع صوتُ وَقْعِها . وقوله : على أنها ... البيت فالجلاد : الضِّرابُ بالسـيوف ، وجعل الدرع أُمَّ الوَغى — أى الحرب — إذ أنَّها تجرى مَجرى الأصل والمَلْجأ الذى يُلجأ إليه ، وجعلها ابنة اللّظى — أى النار — لأنها إنمـا عُملت بالنار ، وأخت الظُّبي — جمع ظُبَـة وهى حَدُّ السيف — إذ لاتزال

تردها ظُبات السيوف وتقارِنُها ولا تؤثر فيها ، وَصَفها بهذه الأسماء المنْبِئة عن القرابات مُريداً بها مايناسِبُها من المعنى » .

✡ ✡ ✡

ولأبى العلاء المعرّى فى الدروع مقطوعات كثيرة ، لَقَدِ آفتن فيها افتنانا ، وأبْدَع ماشاءت عبقريته تراها فى سقط الزّند .

✡ ✡ ✡

وإذا أردت التوسع فى وصف آلات القتال من السيوف والدروع والرماح والقِسِّى والنِّبال وما إلى ذلك فارجع إلى الموسوعات العربية ودواوين الشعراء فسوف ترَى فيها الطِّمَّ والرِّمَّ ، ممالعَلَّه ينقَع غُلّتَك إن شاء الله .

تمَّ الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث إن شاء الله

استدراكات وتصويبات أخرى

لما وقع فى المجلد الأول من الأخطاء

جاء فى صفحة ٤٢ من المجلد الأول من الذخائر هذا البيت هكذا :

إذا ظُلم المولى فزَعتَ لِظَلْمِه   فحرَّك أحشائى وهَرَّت كِلابيا

وقد نبهنا فى تصويبات المجلد الأول : إلى أن فزَعت صوابها فَزِعْتُ وهنا نحاول أن نشرح هذا البيت شرحا آخر عِلاوةً على الذى أوردناه هناك فى شرحه فنقول : قال التبريزى : فحرَّك أحشائى يروى « وحرَّك أحشائى » وهذا كما يقال : هذا أمرٌ قد حرك مِنِّى : إذا اضطربت له ، وقوله : حرَّك أحشائى يجوز أن يكون تحركت أحشاؤه لِوَجيب قلْبِه وخفقانه ، ونبحت كلابُه لتهيُّئه للانتقام وتدججه فى السلاح وتجمُّع أصحابه، والكلب يُنْكِرُ أصحابه إذا رآهم بهذه الحال ، وأنشد الأصمعى فى مثله :

أُناسٌ إذا ما أنكرَ الكلبُ أهلَهُ
حَمَوْا جارَهُمْ من كُلِّ شَنْعاء مُظْلِمِ

ووجهٌ آخر ، وهو أن يكون تحركت أحشاؤه لإعدادِ ما يُعِدّه . والمتَسرِّع يَلْحقُه ذلك

* * *

وجاء فى صفحة ٦٠ : ورأى عُمَرُ بنُ الخطاب رَجُلاً يقول : أنا ابن بطحاء مَكّة ... الخ وصحة هذه الجملة كما جاء فى الأغانى ج ٤ ص ٢١٨ طبعة دار الكتب هكذا : وسمع عُمَرُ بن الخطاب رضى الله عنه رجلا يقول لآخر يفْخَرُ عليه : أنا ابنُ مُسْلَنْطِحِ البِطَاح ، وابن كذا وكذا ، فقال له

عمر : إن كان لك عقل فلك أصلٌ ، وإن كان لك خُلُق فلك شرفٌ ، وإن كان لك تقوى فلك كرم ، وإلا فذاك الحمار خيرٌ منك : أَحبُّكم إلينا قبل أن نراكم أحسَنُكُمْ سَمْتاً ، فإذا تكلّمتم فأبيَنُكم مَنْطِقًا . فإذا اخْتَبَرْناكم فأحْسَنُكُمْ فِعْلاً .

* * *

وجاء فى صفحة ٧٩ من المجلد الأول : وقال حمادُ عَجْرَدٍ فى ذلك من أبيات : بُثَّ النَّوال ولا تمنعْكَ قِلّتُهُ الخ ، وصوابه هكذا : وقال بشار ابن بُرد يهجو العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وكان قد ستَمْنَحَهُ فلم يَمْنَحْهُ :

ظِلُّ اليسارِ على العباسِ مَمْدُودُ وقلبُهُ أبداً فى الْبُخْلِ مَعْقودُ
إن الكريمَ لَيُخْفِى عنك عُسْرَتَهُ حتى تراهُ غَنِيًّا وَهْوَ مَجْهُودُ
وَلِلبخيل على أمواله عِلَلٌ زُرْقُ العيون عليها أوْجُهٌ سودُ
إذا تكرَّهْتَ أن تُعْطِى القليل ولمْ تَقْدِرْ على سَعَةٍ لم يظهرِ الجود
أوْرِقْ بخيرٍ تُرَجَّى للنَّوالِ فما تُرْجَى الثِّمارُ إذا لم يُورِقِ العُودُ
بُثَّ النَّوالَ ولا تَمْنَعْكَ قِلَّتُهُ فكُلُّ ما سَدَّ فقراً فهْوَ محمودُ

* * *

وجاء فى صفحة ١٢١ هذا البيت هكذا :

وما خُبْزُهُ إلا كَعَنْقَاءِ مُغْرِبٍ تَصوَّرُ فى بُسْطِ المُلوكِ وفى المَثَلْ

وصوابه هكذا :

وما خُبْزُهُ إلا كَعَنْقَاءِ مُغْرِب تُصوَّرُ فى بُسْطِ المُلوكِ وفى المُثُلِ

وهو أحد أبيات لأبى نواس يهجو بها إسماعيل بن سهل وقيل هـذا البيت :

على خُبْزِ إسماعيلَ واقيةُ البُخلِ فقد حَلَّ فى دارِ الأمانِ من الأكْلِ

وبعده :

يُحَدِّثُ عَنْها الناسُ من غير رؤْيةٍ سوى صُورَةٍ ما إنْ تُمِرُّ ولا تُحلى

إلى آخر الأبيات . والمُثْلُ هى المُثُل جمع ، مِثَال وهو : ما يُفْتَرَشُ من مفارش الصوف المُلَوّنة ، وقوله : يُحَدّثُ عنها الناس ... الضمير عنها لعنقاء مُغْرِب ، وقوله : ما إن تُمِرّ ولا تُحْلِى : فتمر : تجعله مُرا وتحلى : تجعله حلوا والمعنى : لا تأتى هذه الصورة بطائل إذْ أنه لا حقيقة لعنقاء مغرب فى الواقع وهذا على حدّ قولهم : فلا أنت حُلْو ولا أنت مُر : أى لستَ هناك »

* * *

وجاء فى صفحة ١٢٤ : فهى حق أريد بها باطل ، وصوابها : فهى حق أريد به باطل .

* * *

وجاء فى صفحة ١٥٩ : ولى حُمُرُ النَّعم . وصوابها . ولى حُمْرُ النَّعَم

* * *

وجاء فى صفحة ٣١٥ : لم يَدْخُله بإذنى فأُخرِجُهُ بإذنى . وصوابها : لم يَدْخُلْهُ بإذنى فأُخْرِجَه بإذنى .

وجاء فى هذه الصفحة : قال ابن عباس رضى الله عنه ، وصوابها قال ابنُ عيَّاش رضى الله عنه ، « وهذا ابن عياش هو أبو بكر بنُ عياشٍ المُحَدِّث المتوَفّى سنة ١٩٣ هجرية وقد ترجم له ياقوت فى معجم الأدباء « ج ٧ »

وقد وردت فيه حكايتنا هكذا : قال أبو بكر بن عياش : كنت إذ أنا شابٌ إذا أصابتنى مُصيبةٌ ، تصبَّرْتُ ورَدَدْتُ البكاء ، فكان ذلك يوجِعُنى ويزيدنى ألماً ، حتى رأيت بالكناسة — محلّة بالكوفة — أعرابياً واقفاً وقد اجتمع الناس حوله فأنشد :

خليلَيَّ عوجا مِن صدور الرواحِل بجُمْهورِ حُزْوَى وابْكِيا فى المنازِلِ

لعَلَّ انحِدَارَ الدَّمْعِ يُعْقِبُ راحة من الوجد أو يَشْفِى نجِىَّ البلابل

فسألت عنه فقيل : ذو الرُّمّة ، قال : فأصابتْنى بعد ذلك مصائب فكنت أبكى فأجِدُ راحة ، فقلت فى نفسى : قاتل اللهُ الأعرابى ، ما كان أبصره وأعلمه !

أغلاط مطبعية

فى هـــذا الجزء الثانى

ص	سطر	خطأ	صواب
١٢	٧	وفى باب الغرم	وفى باب العزم
٤٤	١	فيُصِيرُكَ	فيُصِيرَكَ
٤٦	٤	حَسَنُ الكِدْنَه	حَسَنُ الكُدْنَة ـ بكسر الكاف وضمها ـ : أى السِّمَن
٤٨	٢٠	فكأنه	فكأنها
٦٠	٢٠	عِلّتُه	عِلّتَه
١٠٠	١٢	عُلُوَّ	عُلُوُّ
١٢١	١٤	فإنْ يَك حُرْمٌ	فإن يكُ جُرْمٌ
١٢٢	١٥	قال من لا أذكر اسمه	قال زُفَر بن الحارث
١٦٢	١٨و١٩	« يلاحظ فى هذه الأسطر أن السطرين ١٧ و ١٩ فصل بينهما سطر أجنبي عنهما	
١٦٨	١٣	الشاعر البِبْغاء	الشاعر البَبّغاء
١٨٤	١١	نهيهم عن الغضب فى المزح	نهيهم عن الغضب من المزح
٢٢٩	١٠	أىّ يَوَمَىَّ	أىّ يَوَمَىَّ
٢٤٠	١٧	وانجلى الزُّبَدُ	وانجلَى الزَّبَدُ
٢٤٤	٨	إنّ العَدُوّ	إنِ العَدُوُّ
٢٤٧	٥	بيد أن معناها	بيد أن مبناها
٢٥١	٤	سخاب	سحاب

فهرس الجـــزء الثانى

من الذخائر والعبقريات

عبقريات شتَّى

تندرج فى الأبواب السابقة

طائفة من عبقرياتهم فى التعازى

عبقرياتهم فى الطب والمرض وعيادة المرضى

الباب الرابع في كتمان السر وإفشائه

وعبقرياتهم في ذلك وفيما يجرى هذا المجرى

من الشورى والاستبداد بالرأى والنصح والأناة والعجلة

عبقرياتهم فى الوعظ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

الباب الخامس

فى الحلم وكظم الغيظ والعفو والغضب والانتقام وما إلى هذه المعانى

طائفة من عبقرياتهم

فى الناس وما جبل عليه السواد الأعظم

من الحقد والحسد وسوء الظن والشماتة وما جرى هذا المجرى

الباب السادس

فى التواضع والكبر وما إليهما

الباب السابع

فى الشجاعة وعبقرياتهم فيها

وفى الصبر فى القتال وسائر مايتصل بالحرب